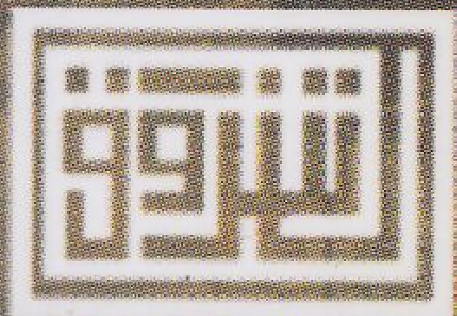
الأستاذ الدكتور زيدان عبد الكافي كفافي

بلاد الشام
في العصور القديمة

من عصور ما قبل التاريخ حتى الاسكندر المقدوني



بلاد الشام في العصور القديمة

من عصور ما قبل التاريخ حتى الإسكندر المكدوني

بلاد الشام في العصور القديمة

من عصور ما قبل التاريخ حتى الإسكندر المكدوني

الأستاذ الدكتور

زيدان عبد الكافي كفافي

كلية الآثار والأنثروبولوجيا

جامعة اليرموك

الأردن - إربد



2011

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2011/2/676)

956
كفافي، زيدان عبد الكافي
بلاد الشام في العصور القديمة من عصور ما قبل التاريخ حتى الأسكندر المكدوني/
زيدان عبد الكافي كفافي .ـ عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2011
( ) ص
ر.إ.: 2011/2/676
الواصفات: بلاد الشام//التاريخ العربي//العصور القديمة/

• تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978 - 9957 - 00 - 484-2 (ردمك)

- بلاد الشام في العصور القديمة من عصور ما قبل التاريخ حتى الأسكندر المكدوني .
- تأليف : الأستاذ الدكتور زيدان عبد الكافي كفافي .
- الطبعة العربية الأولى : الإصدار الأول 2011 .
- تدقيق لغوي : هيا الحوراني . • الخرائط : علي العمري . • معالجة الصور : يوسف الزعبي . • تنسيق واخراج عفاف زيادة .

- الاخراج الداخلي وتصميم الغلاف : دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع .



دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف: 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس : 4610065
ص.ب: 926463 الرمز البريدي: 11118 عمان - الاردن
Email: shorokjo@nol.com.jo

دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله - المصيون: نهاية شارع مستشفى رام الله
هاتف 2975632 - 2991614 - 2975633 فاكس 02/2965319
Email : shorokpr@palnet.com



الفهرست

شكر وعرفان

رأى هذا الكتاب النور عندما حصل كاتبه على بعثة منحت له مرتين، الأولى في صيف عام 2007، والثانية في صيف عام 2009، لدى مؤسسة ألكسندر فون همبولت الألمانية Alexander von Humboldt-Stiftung، قضاهما الباحث في معهد دراسات الشرق الأدنى القديم بجامعة برلين الحرة، في ضيافة الأستاذ الدكتور دومينيك بوناتس Dominik Bonatz؛ فللمؤسسة والجامعة والدكتور بوناتس كل الشكر والتقدير. وفي أثناء الإقامة ببرلين خلال صيف أعوام 2007 و2009 و2010، تلقى الكاتب التشجيع والدعم من عدد من العاملين في معهد دراسات الشرق الأدنى القديم، وهم: الأستاذ الدكتور هانس يورغ نسن Hans J. Nissen، والأستاذ الدكتور هارتموت كيونه Hartmut Kühne والدكتور هانس غيورغ غيبل Hans Georg Gebel، والدكتور فلوريان كرينر Florian Kreppner، والآنسة كارولين ياوس Carolin Jauss؛ فلهم وافر الامتنان لما قدموه لي من مساعدة علمية.

والشكر موصول للدكتور عمار عبد الرحمن مدير مركز الباسل في المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية، لقراءته الكتاب وإبداء الملاحظات على النص، وتزويدي بالصور الضرورية. كذلك أتقدم بوافر الشكر إلى الأستاذ الدكتور علي محافظة لقراءته الكتاب، وإبداء الملاحظات القيمة عليه. أما الصديق والزميل الدكتور خالد أبو غنيمة من قسم الآثار بجامعة اليرموك؛ فلم يضن علي بأية مساعدة، لا سيما في تدقيق أسماء المؤلفين وعناوين المراجع، سواء الواردة في النص أو في القائمة.

أما الصور والرسومات التوضيحية والخرائط؛ فقد زودني بها مشكورين: الزميل الدكتور عمار عبد الرحمن، والدكتور لورنزو نيجرو Lorenzo Nigro والدكتورة ماورا سالا Maura Sala من جامعة روما لاسبينزا بإيطاليا، والدكتورة دانييل ستوردور Danielle Stordeure، والسيدان علي العمري ويوسف الزعبي من كلية الآثار والأنثروبولوجيا بجامعة اليرموك. ولم يأخذ هذا الكتاب شكله النهائي إلا بعد أن وضعت السيدة عفاف زيادة

مبضعها فيه، فظهر على هيئته التي بين أيدينا؛ فلها عميق الشكر والامتنان. كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين والدكتورة هيا الحوراني اللذين عملا على تدقيق الكتاب لغويًا.

وكان هذا العمل قد حظي بمساندة ودعم عدد من الأهل والأصدقاء والزملاء، وأخص بالذكر زوجتي (فايزة) وأبنائي (بشار وعنان وسارة وقيس) الذين تحملوا عناء البعد عنهم. كما أخص بالشكر الأصدقاء الدكتور عصام حلايقة، والدكتور محمد عبابنة، والدكتور زيدون زيد لتخفيفهم آلام الغربة، وإبداء الملاحظات على النص. كما أتقدم بالشكر إلى السيدة سربيك عازر بويجيان التي تولت طباعة تصحيحات النص التي اقترحها الزملاء.

تقديم

يهدف هذا الكتاب إلى أن يكون مرجعًا للباحثين والطلبة والمهتمين بدراسة تاريخ بلاد الشام وآثارها في العصور القديمة، لا سيما في العهود التي سبقت غزو الإسكندر المكدوني للشرق. ويقصد ببلاد الشام، أو Levant كما اصطلح عليها في الأدبيات الآثارية الغربية، البقعة الجغرافية التي تضم حاليًا سورية، ولبنان، والأردن، وفلسطين. ويرى وليم ديفر (Dever 1997: 350-351) أن أصل التسمية مشتق من اللاتينية Levare وتعني "يرفع"، واسم الفاعل منها (Levans(-antis، وهي تقابل بمعناها مفردة Orient ويعني بها الأوروبيون الأراضي الواقعة مباشرة إلى الشرق من أوروبا، والتي تضم الجزء الآسيوي من تركيا، وسورية، ولبنان، والأردن، وفلسطين. كما تعرف بلاد الشام في بعض المصادر الغربية الأخرى باسم "سورية الطبيعية" أو "سورية- فلسطين" Syro-Palestinian.

لكن الكتابات القديمة أطلقت على هذه البلاد، أو على أجزاء منها، أسماء مختلفة، مثل "بلاد أمور" كما هو الحال في النصوص الرافدية السومرية والأكادية. وتضمنت الكتابات الهيروغليفية الفرعونية من الألف الثاني قبل الميلاد اسم "زاهي"/"جاهي" في إشارة إلى الساحل الفلسطيني، واسم "ريتنو" في إشارة إلى الأراضي المحيطة بحوض نهر الليطاني. كما ورد اسم "نهارينا" في إشارة إلى المنطقة المحصورة بين نهري الفرات شرقًا والعاصي غربًا. ومن الأسماء الأخرى "آرام"، و"كنعان"، و"فنيقيا" (فرزات 20:2003).

أثبتت الشواهد الأثرية المكتشفة في بلاد الشام أن هذه المنطقة قدمت للعالم الكثير من المعارف. فمثلاً، عثر في حوض الفرات الأوسط وفي حفرة الانهدام الأفرو-آسيوية على أقدم القرى الزراعية في العالم، مثل جرف الأحمر، والمريبط، وأبو هريرة، وأريحا ووادي فينان.

وفي مثل هذه القرى الزراعية، اكتشفت أولى الفنون العالمية، مثل الرسومات الجدارية في موقع جعدة المغارة في سورية، والتماثيل الآدمية بحجم الإنسان في عين غزال في الأردن. والأهم من ذلك، أن هذه المنطقة قدمت للعالم الأبجدية والتجارة البحرية.

وفي بلاد الشام كذلك، شهدنا نشأة المدنية، وكيف أن مجتمعات حوض الفرات الأوسط أنشأت مدينة معاصرة للوركاء في جنوبي العراق خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، وأن سكان جاوة في شمال شرقي الأردن بنوا أقدم نظام حصاد مائي في العالم.

وإذا كانت الجغرافية والحضارة وحدت هذه المنطقة خلال العصور القديمة، إلا أنها وعلى الدوام، لم تشهد أي نوع من الوحدة السياسية حتى دخلها المسلمون فاتحين. وربما يعزى انعدام الوحدة السياسية وتمثلها بعاصمة مركزية إلى عدة عوامل، منها:

- التنوع الجغرافي والبيئي الذي حدد طبيعة حياة الناس وأنماط معيشتهم.

- الموقع الجغرافي المتوسط لبلاد الشام، الأمر الذي جعلها ممرًا للحملات العسكرية والقوافل التجارية، ووجهة لهجرة كثير من الشعوب إليها، مما أثر في بنيتها السكانية وفي أنماط تشكيلاتها السياسية.

- تعرض بلاد الشام خلال العصور القديمة إلى الغزو والاحتلال على يد القوى العظمى في مصر وبلاد الرافدين وبلاد الأناضول، فقد كانت مسرحًا لمعارك المصريين الفراعنة، والحثيين، والآشوريين وغيرهم، الأمر الذي أدى، في بعض الأحيان إلى تقاسم بلاد الشام كمناطق نفوذ فيما بينهم، كما جعلها مجالاً فسيحًا لدخول جماعات جلبت حضارتها وثقافتها معها، فأثرت في الواقع المحلي للبلاد وتأثرت به.

كان اهتمام الغربيين بدراسة تاريخ بلاد الشام وآثارها بدأ منذ قرون عدة بدافع دراسة "الأرض المقدسة". لكن السنوات الأخيرة شهدت عددًا كبيرًا من الأعمال الأثرية الميدانية التي غطت معظم مناطق بلاد الشام، والتي شاركت فيها بشكل واضح المؤسسات ودوائر الآثار الوطنية. وأسهم ذلك في إنتاج تراكم معرفي هائل حول حضارات

بلاد الشام، فكان لا بد من الاطلاع على نتائج التنقيبات الأثرية الحديثة، وتقديم مادة علمية محدثة شكلت قوام هذا الكتاب الذي يتضمن خلاصة أحدث الدراسات والتقارير المنشورة حول التنقيبات الأثرية في بلاد الشام.

وفي الوقت الذي نرى فيه نتائج التنقيبات الأثرية، والمصادر المكتوبة التي عثر عليها في بلاد الشام، الأساس في كتابة هذا المؤلف؛ فإن من غير الممكن البحث في عدد من الموضوعات دون الاستعانة بالمصادر والوثائق الخارجية، لا سيما من مصر القديمة وبلاد الرافدين، إذ وقعت بلاد الشام خلال العصور البرونزية والحديدية تحت سيطرة تلك القوى مباشرة. لذا، نقرأ في هذا الكتاب، لا سيما في الفصول المتعلقة بالعصور البرونزية المتوسطة والمتأخرة والحديدية، عن العلاقات التي كانت قائمة بين بلاد الشام وبلاد الرافدين، والأناضول، ومصر القديمة. غير أن الكاتب واجه في بعض الحالات عددًا من الصعوبات في تفسير المادة الأثرية وربطها بالنص التاريخي، لا سيما فيما يتعلق بالتأثيرات الخارجية وربطها ببعضها بعضًا.

وربما تساعدنا دراسة عصور ما قبل التاريخ في فهم ما كان يجري في العصور التاريخية (البرونزية والحديدية). ألم يعثر المنقبون على مادة أثرية متشابهة فوق جميع بلاد الشام خلال تلك العصور؟ ولماذا عثر في أعالي الفرات ووسطه على أدوات صوانية تشابه تلك التي وجدت في جنوبي بلاد الشام؟ ألم يكن لثقافات العبيد وحلف والوركاء امتداد جغرافي واسع شمل مناطق سورية الحالية وجنوبي تركيا؟ وحتى في العصور التاريخية، وزمن سيطرة الفراعنة المصريين ودول بلاد الرافدين من آشوريين وبابليين على بلاد الشام؛ فإن المكتشفات الأثرية أثبتت أن التأثيرات الحضارية كانت متبادلة، ولم تكن باتجاه واحد وحسب، وأن التراث الحضاري في منطقة الجزيرة السورية (أقصى شمال شرقي سورية الحالية) كان في كثير من الفترات أقرب في سماته لما عثر عليه في بلاد الرافدين وجنوبي الأناضول من تلك التي وجدت في أواسط بلاد الشام وجنوبيها. وهذا يدعو لمساءلة المادة

الأثرية المكتشفة أيضًا في شمالي الجزيرة العربية وجنوبي بلاد الشام لمعرفة مدى التقارب الحضاري الحاصل بينهما. وربما يكون هذا الموضوع مشروع بحث مستقبلي للكاتب.

وكان تناول بعض المصطلحات الأثرية من الصعوبات التي واجهت الكاتب كذلك. فمثلاً، تستخدم مصطلحات مثل العبيد والوركاء لتصبغ بعض المواد الأثرية المكتشفة بصبغة واحدة، مما يعني أن المواقع التي يعثر فيها على مثل تلك المواد تكون معاصرة لبعضها بعضًا. لكن ذلك ربما لا يسعفنا في تأريخ المواقع بدقة، إذ نعلم مثلاً أن الأبنية ذات الشكل المستدير هي دمغة لحضارة حلف، بينما أثبتت التنقيبات الحديثة أن تلك الأبنية وجدت في فترات وفي مناطق أخرى خارج مناطق حضارة حلف.

والأخطر من هذا وذاك، أن بعض المناهج والدراسات الغربية تحاول إلصاق صبغة عرقية بالمكتشفات الأثرية. ففي حالة بلاد الشام، كيف نستطيع القول إن المنتج المكتشف في جبيل، مثلاً، كنعاني أو أموري؟ علمًا أن بعض مجتمعات بلاد الشام لم تسم نفسها بتلك الأسماء؛ فمثلاً، لم يطلق الفنيقيون على أنفسهم هذا الاسم، بل سماهم الإغريق بذلك.

وفي هذا الكتاب، جرت محاولة تفسير المادة الأثرية من خلال البحث في التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أثرت في حياة سكان بلاد الشام في العصور القديمة. وفي سياق تلك المحاولة، كان لا بد من دراسة نتائج التنقيبات في مواقع أثرية مختارة، معززة بالتفسيرات التي توصل إليها المختصون بالاستعانة بالنظريات والمناهج الحديثة في علم الآثار والعلوم الأخرى ذات العلاقة. وهنا، واجهت الكاتب صعوبة اختيار المواقع قيد الدراسة، وذلك لتعددها، فكان أن أخذنا بالتمثيل الجغرافي-البيئي أساسًا لذلك. فقد أكدت الدراسات الحديثة دور العامل البيئي في تحديد التوزيع السكاني وفي تشكيل ملامح حياة السكان؛ فأهل الساحل والسهول والجبال هم أهل قرى ومدن أما أهل البادية؛ فهم بدو رحل. وقد حاولنا في أكثر من موضع في هذا الكتاب إظهار

طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين تلك الجماعات، وإن كنا نرى أن الأمر يحتاج لمزيد من الدراسات المفصلة.

ويمكن القول إن من أكثر الصعوبات التي تواجه الباحث في تاريخ بلاد الشام وآثارها هو اختلاف الاهتمامات البحثية من منطقة لأخرى. فمثلاً، وجدنا أن الباحثين درسوا بإسهاب مناطق الجزيرة السورية وفلسطين والأردن، لكن الحال لم يكن كذلك فيما يتعلق بمناطق البادية وحوران ولبنان، مما يعني أن التراكم المعرفي حول المناطق الجغرافية المختلفة غير واحد. وقد يحسب القارئ أن المناطق التي تركزت فيها الأعمال الميدانية الأثرية أكثر غنى من المناطق الأخرى، وهذا غير صحيح. وعموماً؛ فإننا لا زلنا بحاجة لمزيد من التنقيبات الأثرية في مناطق متعددة من بلاد الشام كي يكتمل المشهد الثقافي فيها.

وتجدر الإشارة إلى أن المكتبة الآثارية تزخر بالمؤلفات في حضارات بلاد الرافدين ومصر إلا أن ما تعرض منها لدراسة بلاد الشام كوحدة جغرافية وحضارية، يعد قليلاً. وعلى الرغم من أن السنوات الأخيرة شهدت بعض المؤلفات، والترجمات لكتب تبحث في تاريخ بلاد الشام وحضارتها، إلا أن الحاجة لا تزال ماسة إلى دراسات ذات منهجية مختلفة.

الفصل الأول

أرض بلاد الشام

الفصل الأول

أرض بلاد الشام

الجغرافية الطبيعية والبيئية في بلاد الشام

يبحث هذا الفصل في موضوعين أساسيين، هما: الجغرافية الطبيعية لبلاد الشام، وتوزع البيئات الطبيعية فيها. ويعد هذان الموضوعان من العوامل الرئيسة في تحديد أنماط الحياة اليومية لدى الناس، إذ شكّلا في كثير من الأحيان تحديًا أمام تطور الجماعات البشرية، مما اضطرها إلى مواجهة هذا التحدي بجملة من الاكتشافات والاختراعات التي قادت المجتمعات نحو الحضارة، ومن ثم إلى المدينة والتمدن. لذا، فإن معرفة طبيعة بلاد الشام تسهم في فهم مسيرة الحياة اليومية، واختلاف أنماط المعيشة من منطقة إلى أخرى، ومن فترة زمنية إلى أخرى؛ فسكان الساحل أمامهم البحر، وأهل الجبال قد استقروا فوق المرتفعات العالية المكسوة بالغابات. أما أهل البادية؛ فقد ترحلوا في الصحراء بفضائها الفسيح، ونسجوا الكثير من الروايات، لا سيما الأدبية منها، إذ لم تحدد الطبيعة سبل المعيشة للناس وحسب، بل حددت أيضًا الأفكار، والمعتقدات والتصورات عن الحياة والكون.

أ. جغرافية بلاد الشام

إن الناظر إلى خريطة بلاد الشام الطبيعية (خريطة 1) يرى أن هذه البلاد مقسمة طوليًا (من الغرب باتجاه الشرق) إلى عدة مناطق جغرافية، تفصلها المنخفضات الطبيعية في عدد من المواضع. وفيما يلي عرض موجز للجغرافية الطبيعية والبيئية في بلاد الشام.

خريطة 1: بلاد الشام الطبيعية

1. السهل الساحلي

ويقصد به المنطقة المحاذية مباشرة لساحل البحر المتوسط الشرقي. وتختلف هذه المنطقة في عرضها ومدى اتساعها من مكان إلى آخر؛ فنجدها تضيق في بعض المناطق، مثل جبال الكرمل بشمالي فلسطين، حيث تشرف الجبال على البحر، بينما تتسع كثيرًا في منطقة غزة جنوبي فلسطين. ويعد السهل الساحلي منطقة صالحة للزراعة، لا سيما المروية، إلا أن نسبة هطل الأمطار فيها تقل كلما اتجهنا من الشمال نحو الجنوب.

وقد أقيم في مناطق عديدة من الساحل، خلال العصور القديمة، عدد من الموانئ البحرية من أهمها: رأس شمرا (أوغاريت)، وجبيل (بيبلوس)، وصيدا، وصور، وحيفا، ويافا وعسقلان، وغزة. وكانت التنقيبات التي أجريت في المواقع الساحلية كشفت عن غنى تلك المواقع بالمكتشفات الأثرية؛ علمًا أن بعضها كان مستوردًا من مناطق أخرى، مما يشير إلى الصلات الحضارية بين الشرق والغرب.

2. المرتفعات الجبلية

تشكل المرتفعات الجبلية الممتدة بين شمالي سورية وجنوبي فلسطين سلسلتين متوازيتين من الجبال، تختلفان في ارتفاعاتهما من منطقة إلى أخرى، وهما:

أ. سلسلة الجبال الغربية، وهي الأقرب إلى الساحل.

ب. سلسلة الجبال الشرقية، وهي الأقرب إلى البادية.

ويفصل هاتين السلسلتين عن بعضهما منخفض حفرة الانهدام الآفرو-آسيوية، وعدد آخر من المنخفضات والسهول الداخلية. وتشكل المرتفعات الغربية حاجزًا طبيعيًا بين منطقتي الساحل والداخل. علمًا أن الممرات الطبيعية (مثل الأنهار والأودية)، والتي تخترقها باتجاه شرق- غرب، تسمح للهواء المحمل بالأمطار والقادم من البحر المتوسط بالوصول إلى السهول الداخلية، مما يساعد على زراعة المحاصيل البعلية فيها. ومن أهم الأنهار التي تقطع هذه الجبال، الكلب والعاصي والليطاني والمقطع. أما أهم المرتفعات الجبلية؛ فهي من الشمال إلى الجنوب: الأمانوس، وتمتد من لواء الإسكندرونة حتى تصل جنوبي تركيا. وإلى الجنوب منها، تتجه سلسلتان من الجبال باتجاه شمال-جنوب، هما: جبال

النصيرية في الغرب، وجبل الزاوية في الشرق، ويفصلهما عن بعضهما سهل الغاب (Akkermans and Schwartz 2003: 2-3).

ويحد جبال الأمانوس من الجنوب منخفض حمص/أو عكار، ويبدأ من مدينة طرابلس على ساحل البحر المتوسط بشمالي لبنان ثم يمر بمدينة حمص حتى يصل إلى مدينة تدمر في سورية. ويعبر هذا المنخفض نهر الكبير الذي يشكل حاليًا حدًا سياسيًا يفصل بين سورية ولبنان. وينتهي منخفض حمص/عكار في الجنوب حيث تبدأ سلسلة جبال لبنان الشرقية والغربية بالظهور، إذ يبلغ أقصى ارتفاع لهذه الجبال حوالي 2700م عن مستوى سطح البحر، ويمتد في المسافة التي تفصلهما سهل البقاع (Beitzel 2003).

وبما أن سلسلة جبال لبنان الشرقية ذات ارتفاع شاهق؛ فإنها تعد السبب في جفاف المنطقة الواقعة للشمال من مدينة دمشق حيث تمنع الغيوم المحملة بالأمطار من الوصول إليها. وعلى أية حال، فإن نهر بردى الذي ينبع من سلسلة هذه الجبال يعد سببًا في تشكل منطقة غوطة دمشق وخصوبتها.

ويمتد منخفض آخر جنوبي سلسلة جبال لبنان، وهو الذي يجري فيه نهر الليطاني، ويبدأ بساحل البحر المتوسط مارًا بتل القاضي الأثري بشمالي فلسطين، ومن ثم في المنطقة التي تفصل الجبال الواقعة جنوبي مدينة دمشق عن منطقة جبل الدروز في الجنوب (سهل حوران). ويمكن للناظر من هذه المنطقة مشاهدة جبل الشيخ عندما يكون الجو صافيًا. ويعد جبل الشيخ الجزء السفلي من سلسلة جبال لبنان الشرقية حيث ينبع منه نهر الأردن.

أما سهل حوران؛ فيشمل حاليًا الأجزاء الجنوبية من سورية وشمالي الأردن، وتقع فيه مدن درعا والرمثا وإربد، وهي منطقة غنية بتربتها الحمراء، وتزرع فيها الحبوب والأشجار المثمرة. وينتهي سهل حوران في جهته الغربية بمرتفعات الجولان المشرفة على بحيرة طبرية بفلسطين. ويعبر هذه المنطقة نهر اليرموك الذي يفصل بين سورية والأردن حاليًا.

وتستمر المرتفعات الغربية جنوبي نهر الليطاني، حيث تظهر في فلسطين جبال الجليل والكرمل ونابلس والقدس والخليل، تباعًا، وتنتهي في منطقة النقب، حيث تبدأ سلسلة من الهضاب الرملية القاحلة بالظهور. وتغطي هذه المرتفعات غابات من الأشجار الحرجية كما تزرع فيها الأشجار المثمرة، لا سيما أشجار الزيتون والتين. وتفصلها عن بعضها

السهول الداخلية مثل سهل مرج ابن عامر، والأودية مثل وادي الفارعة المار بالقرب من طوباس في منطقة جبال نابلس، والقلط بالقرب من أريحا في غور الأردن.

أما سلسلة الجبال الشرقية؛ فإذا أردنا أن نبدأ من شمال شرقي سورية؛ فهناك جبال بشري وعبد العزيز، ومن ثم واحة تدمر، وكذلك واحة الكوم حيث تبدأ بادية الشام. لكن في وسط سهول حوران، حيث تغطي الطفوح البازلتية المكان، يقف جبل العرب (الدروز) الذي تتجمع المياه المتساقطة فوقه في حوض الأزرق بالأردن. أما إلى الشرق من منطقة الأغوار والبحر الميت ووادي عربة؛ فتمتد من الشمال إلى الجنوب عدة سلاسل جبلية هي: إربد وعجلون والبلقاء ومؤاب والشراه. ويعبرها نهر الزرقاء وعدد من الأودية مثل: وادي العرب والجرم وكفرنجة وشعيب وحسبان والموجب والحسا. وتتمتع هذه المنطقة بمناخ حوض البحر المتوسط، إذ يكون الجو فيها معتدلاً صيفًا نهارًا، وباردًا شتاءًا ليلاً. ويتراوح معدل سقوط الأمطار السنوي فيها بين 200 و600ملم، وتتساقط الثلوج في بعض الأوقات في فصل الشتاء على المرتفعات الجبلية، خاصة عجلون والشوبك.

3. حفرة الانهدام

تربط حفرة الانهدام بين قارتي آسيا وإفريقيا، وهي تبدأ من سهل الغاب بشمال غربي سورية حتى تصل هضبة البحيرات في كينيا بإفريقيا. ويمر في هذه المنطقة نهرا العاصي والأردن، وهما يتشابهان بسرعة جريانهما، وعدم صلاحيتهما للملاحة، ولا يرسبان الطمي بقدر ما يحفان الأرض التي يمران بها، مما يتسبب في تشكل البحيرات على مجرييهما، مثل بحيرة حمص على العاصي، وبحيرة الحولة (التي جففها الإسرائيليون خلال الخمسينات من القرن الفائت)، وبحيرة طبرية. وتعرف المنطقة التي يجري فيها نهر الأردن، والتي تمتد من بحيرة طبرية في الشمال وحتى البحر الميت في الجنوب، باسم غور الأردن، ويبلغ طولها 105كم، وهي تختلف في عرضها من منطقة إلى أخرى. كما تختلف هذه المنطقة في ارتفاعها عن مستوى سطح البحر؛ فبينما تبلغ 212م تحت هذا المستوى عند بحيرة طبرية، فإنها تنخفض حتى تصل إلى حوالي 410م (حتى الآن) عند أخفض مستوى لها، وهو البحر الميت (Sanlaville 2000: 199). ويعد مناخ غور الأردن حارًا وجافًا معظم أيام السنة، وتختلف نسبة هطل الأمطار عليه بين الشمال والجنوب.

وتجدر الإشارة إلى تراجع منسوب المياه في البحر الميت، وهو معرض للجفاف بعد حوالي أربعين عامًا إذا لم يزود بالمياه (الياس سلامة: اتصال شخصي)، حيث تقوم إسرائيل بتحويل مياه نهري الأردن واليرموك إلى داخلها. كما أنشأت الدول المجاورة على هذا الحوض المائي عددًا من السدود التي تمنع المياه من الوصول إلى نهر الأردن أو إلى البحر الميت نفسه. ومن المعلوم أن مساحة البحر الميت كانت عام 1968 حوالي 997كم^2، بطول 80كم، وعرض أقصاه 15كم (Bender 1968). ويطلق على المنطقة الواقعة إلى الشرق من البحر الميت اسم الأغوار الجنوبية، ويسير فيها عدد من الأودية، من أهمها الكرك والذراع والحسا.

وتمتد منطقة وادي عربة إلى الجنوب من البحر الميت وتصله بخليج العقبة على البحر الأحمر، ويبلغ طولها 180كم، وهي تتفاوت في عرضها بين 2 إلى 25كم، ويحدها من جهة الشرق جبال الشراه وعدد آخر من المرتفعات الرملية، وتحدها من الغرب صحراء النقب. وتعد نسبة هطل الأمطار على هذه المنطقة قليلة جدًا، إذ تبلغ 50ملم عند مدينة العقبة في الجنوب، و300 ملم عند مدينة الكرك. لذا؛ فإن مناخ وادي عربة حار وجاف جدًا.

4.الجزيرة السورية

تقع الجزيرة السورية في أقصى الزاوية الشمالية الشرقية لسورية الحالية، إلا أنها تمتد لتشمل المنطقة بين نهر الفرات غربًا ودجلة شرقًا، كما تشمل أجزاء من جنوب شرقي تركيا. وهذه المنطقة منبسطة وشبه قاحلة، إذ يتراوح معدل تساقط الأمطار فيها بين 200 إلى 600ملم (Weiss 1986; Bonatz et al. 1998). ويكون معدل هطل الأمطار على الجزء الشمالي من الجزيرة، أي قرب الحدود التركية، أعلى منه في الجنوب حيث يتناقص هطل الأمطار كلما اتجهنا جنوبًا.

وتزرع في أعالي الجزيرة المحاصيل البعلية، خاصة الحبوب التي تشكل المصدر الغذائي الرئيسي للسكان فيها. إضافة إلى ذلك، فإن نهري البليخ والخابور- وهما من روافد نهر الفرات- يقطعان الجزيرة شمالاً-جنوبًا. وتعد السهول المحيطة بمجرى نهر الفرات وبهذين النهرين مناطق صالحة للزراعة، وتحيط بمجاريها المراعي، مما شكل مناطق ملائمة

للسكنى فيها منذ أقدم العصور. كما يقع جبل عبد العزيز في المنطقة المحصورة بين نهري الخابور والبليخ.

وإلى الجنوب من منطقة الجزيرة، أي جنوبي نهر الفرات، تبدأ منطقة قاحلة جدًا، حيث يبلغ معدل هطل الأمطار فيها 200ملم، أو أقل، لذا فهي غير صالحة للزراعة إطلاقًا إلا في بعض المساحات الصغيرة جدًا، والتي تعتمد على ري المحاصيل عن طريق ضخ المياه الجوفية إلى الحقول المزروعة فيها. وتحتل واحتا الكوم وتدمر وجبل بشري المساحة الأكبر من هذه المنطقة القاحلة. ويمكننا القول إن بادية الشام تبدأ من هنا وتسير باتجاه الجنوب، كما سنرى.

5. بادية الشام

تمتد بادية الشام فوق مساحة واسعة، وتشكل المساحة الأكبر في الأردن خاصة، إذ تشكل 80٪ من المساحة الكلية للبلاد، فهي تحتل المنطقة الواقعة بين تدمر في الشمال وجنوبي الأردن في الجنوب، والعراق في الشرق، حتى تصل في بعض الأماكن إلى سلسلة الجبال الشرقية. وتختلف بادية الشام في طبيعتها من منطقة إلى أخرى، فبينما تكون قاحلة جرداء في بعض الأماكن، نجد أنها صالحة للزراعة في أماكن أخرى، لا سيما في المناطق المغطاة بالطفوح البازلتية (منطقة الحرة). وتخلو هذه المنطقة من الأنهار، مما جعلها قاحلة في معظم أجزائها رغم بعض الأحواض المائية التي تشكلت خلال فترة البلايستوسين (قبل حوالي ثلاثة ملايين عام)، والتي تعرضت للجفاف بمرور الزمن. ومن تلك الأحواض: حوض الكوم في سورية، وحوضا الأزرق والجفر في الأردن. وتتلقى البادية كميات شحيحة من الأمطار، لكن في حالة هطولها تكون غزيرة، وتستمر لفترة وجيزة تسيل على أثرها الأودية والشعاب، وتتكون الجداول والغدران والقيعان.

ويخترق بادية الشام بعض الأودية الكبيرة، مثل وادي السرحان الذي يبدأ من جنوبي حوض الأرزق، وينتهي في منطقة الجوف بشمالي المملكة العربية السعودية. وقد شكلت هذه الأودية عبر العصور طرقًا ومسالك للقوافل التجارية والحملات العسكرية. كذلك فإن بادية الشام لا تخلو من المرتفعات والهضاب الجبلية؛ فإذا كانت منطقة الحسمى بجنوبي الأردن تشكل نهاية جنوبي البادية، فإن مرتفعات وادي رم تشكل ارتفاعات

عالية. وبطبيعة الحال، فإن مناخ البادية صحراوي، حار جدًا صيفًا نهارًا، وبارد جدًا شتاءًا ليلاً.

ب. البيئة والاستقرار في بلاد الشام

للموقع الجغرافي، كما للبيئة، تأثير كبير في أنماط حياة الجماعات المختلفة، فإذا كانت بعض المظاهر الطبيعية تشكل حواجز جغرافية، وتختلف في شكلها وطبيعتها من منطقة إلى أخرى، فإنها كانت عائقًا، بل وسببًا أحيانًا في صعوبة أو سهولة انتقال الثقافات من مكان إلى آخر. بل إن البيئة الجغرافية والطبيعية التي قطنها الناس عبر العصور هي التي حددت هويتهم الثقافية؛ فمثلاً، نقول إن سكان البادية بدو، وإن سكان الجبال والسواحل حضر، وتعكس الصفة طبيعة الموصوف؛ فالحضر يعيشون نمط حياة معقد أكثر مما هو الحال لدى أهل البادية، وهم، أي الحضر، على اتصال وتفاعل مع الحضارات الأخرى أكثر من سواهم.

وعلاوة على أن بلاد الشام تحتل موقعًا جغرافيًا متوسطًا جعلها بؤرة التقاء وتفاعل بين حضارات آسيا وأوروبا وإفريقيا، فإن البيئة الطبيعية قد منحتها ميزة أخرى من حيث التنوع البيئي الناتج عن اختلاف التضاريس الطبيعية؛ فكان سكانها على تواصل دائم مع أبناء الحضارات الكبرى التي نشأت في المناطق المجاورة، لا سيما في بلاد الرافدين وشبه الجزيرة العربية، ومصر القديمة، والأناضول. وإذا كان نهر الفرات يربط أعالي بلاد الشام ببلاد الرافدين والأناضول، فإن الصدع الآسيوي-الإفريقي يربط البلاد جميعها بأواسط إفريقيا. كذلك فإن الساحل الشرقي للبحر المتوسط كان، ولا يزال، عامرًا بالموانئ البحرية التي ربطت بلاد الشام بغيرها من المناطق، لا سيما ببلاد الإغريق وشمالي إفريقيا. أما جنوبي بلاد الشام؛ فيتصل بشمالي الجزيرة العربية، كما يتصل بمصر عبر صحراء سيناء. وتؤكد المكتشفات الأثرية والكتابات القديمة الصلات الحضارية بين بلاد الشام وغيرها من المناطق.

وعلى الرغم من التنوع الجغرافي والبيئي في بلاد الشام، إلا أن ذلك كان سببًا في وحدتها الحضارية، على الرغم من بعض الخصوصيات المحلية البسيطة. فمثلاً، نرى أن

سكان ساحل البحر المتوسط الممتد من خليج الإسكندرونة شمالاً وحتى غزة جنوبًا قد تشابهوا في كثير من الجوانب، مثل المهارات المتعلقة بركوب البحر وصيد السمك.

لقد أثر التنوع البيئي والجغرافي في توزيع السكان وكثافة المناطق المأهولة عبر العصور، حيث تزداد الكثافة السكانية في المدن الساحلية والجبلية، بينما تقل في البوادي والمناطق القاحلة. ونضرب مثالاً من سورية في الوقت الحاضر، حيث لاحظ الباحثون (Wirth 1971: 18) أن الكثافة السكانية في غربي البلاد تبلغ 100 شخص لكل كيلومتر مربع، بينما تتدنى إلى 40 شخصًا في المناطق الواقعة إلى الشرق منها، ثم تنخفض حتى تصل إلى ثلاثة أشخاص في الصحراء الجنوبية الشرقية. واستنتج الباحثون أن الكثافة السكانية تزداد في المناطق التي يهطل المطر فيها أكثر من غيرها، استنادًا إلى أن المعدل السنوي لتساقط الأمطار في المناطق الجبلية الغربية يتراوح بين حوالي 600 -1000ملم، وهنا يكثر السكان، بينما يهبط إلى أقل من 200ملم في بادية الشام حيث يقل عدد الناس. وعلى أية حال، فإن القمم الجبلية العالية جدًا تشكل كذلك عائقًا طبيعيًا أمام الاستقرار البشري، فمعظم المدن الكبرى في بلاد الشام تركزت غالبًا على الساحل، أو على مسافة تبعد عن الساحل حوالي 100كم، أو في المناطق السهلية وعلى أحواض الأنهار.

وفي الوقت الذي رأى فيه بعض الباحثين أن البيئة الصحراوية بحرّها وقحطها وقلة مائها تشكل عامل طرد للناس، ولا تمكنهم من الاستقرار فيها، فإن التحريات الأثرية أثبتت أن الصحراء كانت ملاذًا لأعداد كبيرة من الناس خلال العصور الحجرية والقديمة تمكن الإنسان عبرها من مواجهة قساوة الصحراء والتغلب عليها. وأفضل مثال على ذلك سكان موقع جاوة (على الحدود الأردنية السورية) الذين قاموا خلال الألف الرابع قبل الميلاد ببناء أقدم نظام لحفظ المياه وحصادها وتخزينها في السدود والقنوات. كذلك، فإن تساقط الأمطار على الصحراء بغزارة خلال فترات قصيرة، يؤدي إلى تشكل الجداول والغدران والقيعان ونمو المراعي، مما يمكن الناس من الترحال إلى المناطق الصحراوية التي تنمو فيها المراعي لمدة قصيرة، طلبًا للماء والكلأ.

وتشكل المنطقة الواقعة بين نهر الفرات في الشمال واليرموك في الجنوب منطقة وسطى تربط شمال بلاد الشام بجنوبها. وتتمركز في هذه المنطقة بقاع خصبة تصلح للاستقرار البشري الدائم، مثل سهل البقاع الذي عرف في العصور الكلاسيكية باسم "سورية

المجوفة" Coele Syria، والذي نشأت فيه خلال العصور البرونزية مدن مهمة، مثل كامد اللوز. كما تغط في هذه المنطقة غوطة دمشق الغنية بأشجارها المثمرة والحرجية ويجري فيها نهر بردى الذي بنيت عليه مدينة دمشق. ولا ننسى أن جبال لبنان الشرقية والغربية تشكل الجزء الغربي للمنطقة الوسطى هذه، وهي مغطاة بالأشجار الحرجية خاصة الأرز والصنوبر. وإلى جانب نهر بردى، يعبر المنطقة الممتدة بين شمالي بلاد الشام وجنوبيها نهرا الليطاني واليرموك، كما أن منابع نهر الأردن (الحاصباني وبانياس والقاضي) تخرج من سفح جبل الشيخ مشكلة هذا النهر. وتعد هذه الأنهار مصدرًا مائيًا مهمًا مكّن الناس من السكن على ضفافها منذ أقدم العصور وحتى الوقت الحاضر كما جعلت هذه المنطقة صالحة لزراعة الأشجار المثمرة والحبوب.

وتدل المسوحات والتنقيبات الآثارية التي أجريت، ولا تزال، في المنطقة الوسطى من بلاد الشام على أنها كانت مأهولة منذ أقدم العصور الحجرية (كما هو الحال في موقع يبرود قرب دمشق)، ولا تزال كذلك حتى الآن. كما شكلت هذه المنطقة، خلال الألف الأول قبل الميلاد، مركز الثقل السياسي للممالك الآرامية مثل صوبا ودمشق. ولا يفوتنا هنا ذكر موانئ جبيل وصيدا وصور التي ربطت بلاد الشام بالعالم الخارجي، لا سيما في زمن الفنيقيين.

وإذا ما انتقلنا إلى الجزء الجنوبي من بلاد الشام، وجدناه يشمل منطقة واسعة تضم الأردن وفلسطين حاليًا. وتمتد هذه المنطقة من سفوح جبل الشيخ في الشمال حتى البحر الأحمر وسيناء في الجنوب، ومن العراق والسعودية شرقًا حتى البحر المتوسط غربيًا. ويعد نهر الأردن الشريان الحيوي في هذه المنطقة، وهو يربط بين ضفتيه ولا يفصلهما، ويثبت ذلك التماثلُ والتشابه في المكتشفات الأثرية التي وجدت في المواقع المنتشرة على ضفتي النهر. كما يرتبط جنوبي بلاد الشام حضاريًا بشمالي الجزيرة العربية، خاصة الجهة الشمالية الغربية منها.

وعلى الرغم من أن جنوبي بلاد الشام يحظى بتنوع البيئات الطبيعية فيه، حيث الساحل والجبال والسهول والبوادي والصحارى، إلا أن المصادر المائية الدائمة في هذه المنطقة قليلة مقارنة بشمالي بلاد الشام، فبالإضافة إلى نهر الأردن، لا يجري فيها حاليًا إلا نهر المقطع في فلسطين والذي يصب في البحر المتوسط، ونهر الزرقاء في الأردن. كما يسيل في هذه المنطقة عدد من الأودية خلال فصل الشتاء. ويمتاز البحر الميت بملوحة مياهه

وغناه بالمعادن، مثل البوتاس والأملاح، إلا أنه عرضة للجفاف. كما يطل على هذه المنطقة عدد من الموانئ، مثل عكا وحيفا ويافا وغزة على البحر المتوسط، والعقبة على البحر الأحمر.

لقد عاش الناس في جنوبي بلاد الشام منذ العصور الحجرية القديمة (مثل موقع العبيدية في فلسطين، ومواقع أخرى في جبال الجليل والكرمل)، ونشأت على أرضه أقدم القرى الزراعية (مثل أريحا ووادي فينان وعين غزال)، تلتها نشأة المدن في البوادي (مثل جاوة في الأردن، وعراد في فلسطين) وفي السهول (مثل خربة الزيرقون/ قرب إربد في الأردن، وتل المتسلم في سهل مرج ابن عامر في فلسطين) وفي السواحل (تل أبو حوَّام قرب حيفا في فلسطين). ومع نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد، نشأ في جنوبي بلاد الشام عدد من الممالك في فلسطين والأردن، والتي خلفت المدن الكنعانية، ومن تلك الممالك: المملكة الإسرائيلية الفلسطينية (فلسطين)، وممالك العمونيين والمؤابيين والإدوميين في الأردن.

ولا تختلف مناطق بادية الشام في الشرق وصحراء النقب في جنوبي فلسطين عن المناطق الأخرى من حيث غناها بالمكتشفات الأثرية؛ فمثلاً، يتخلل الجزء الجنوبي من بادية الشام حوضا الأزرق والجفر، والتي جالت حولهما الجماعات البشرية منذ العصور الحجرية القديمة. كما نشأت في منطقة البادية الشمالية (الحَرَّة) خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد مدن عامرة، منها خربة الأمباشي في سورية، وجاوة في الأردن.

الفصل الثاني

تاريخ البحث الأثري في بلاد الشام

الفصل الثاني

تاريخ البحث الأثري في بلاد الشام

تعد بلاد الشام محط اهتمام المؤرخين وعلماء الآثار في مناطق مختلفة حول العالم، فهي تكوّن الجزء الغربي من الشرق الأدنى القديم، كما تحتل الساحل الشرقي للبحر المتوسط. أما الجزء الجنوبي منها، أي الأردن وفلسطين؛ فيحظى بمنزلة خاصة لدى أبناء الديانات السماوية الثلاث، حيث تعد "الأرض المقدسة" التي تتطلع إليها أنظار العلماء والباحثين ورجال الدين الغربيين. ومنذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد، زار هذه البلاد عدد كبير من المستكشفين، والجغرافيين، والرحالة، الذين درسوا كافة مناحي الحياة في هذه البلاد، وقدموا حولها التقارير والأبحاث التي عدت مصدرًا مهمًا لفهم طبيعة البلاد، وكيفية الحياة فيها عبر العصور المختلفة (كفافي 2004).

وفي الفترة ما قبل منتصف القرن التاسع عشر، اعتمد الباحثون الغربيون في معرفتهم للأرض المقدسة على المعلومات الواردة في الكتاب المقدس، لا سيما في كتاب العهد القديم "التوراة"، بالإضافة لما ورد في تقارير الرحالة، والمستكشفين، والجغرافيين. وبعد أن بدا أن باطن الأرض وما عليها قد ينطوي على معلومات مهمة، ربما تدعم، بنظر أولئك الباحثين، ما ورد في النصوص التوراتية؛ بدأ الغربيون في منتصف القرن التاسع عشر بإجراء تنقيبات أثرية عشوائية في مناطق مختلفة منها. تلا ذلك أن تأسس في أوروبا وأمريكا، خلال النصف الثاني من القرن ذاته، عدد من المعاهد والمدارس التي أخذت على عاتقها دراسة تاريخ الأرض المقدسة والكشف عن آثارها، وقامت بإرسال البعثات

الأثرية بهدف التنقيب المنظم في مواقع ورد ذكرها في كتاب العهد القديم (Albright 1971؛ Weippert 1988؛ كفافي 2004؛ إبراهيم 2009). إلا أن الأمر اتخذ في بدايته طابع البحث عن قطع أثرية فنية، ولم يستند البحث إلى أي منهج تنقيبي صحيح.

وبعد الحرب العالمية الأولى، تقاسم الحلفاء النفوذ على بلاد الشام، فخضعت سورية ولبنان للانتداب الفرنسي، بينما خضعت الأردن وفلسطين للانتداب البريطاني. وبالطبع أطلق ذلك العنان للبعثات الغربية للتنقيب في بلاد الشام، لا سيما في فلسطين، ونتج عن ذلك ازدياد التنقيبات الأثرية فيها. فمثلاً، نقب جان كانتينو Jean Cantineau في صيدا، وموريس دونان Maurice Dunand في جبيل (بيبلوس) عام 1926. على أن أهم نتائج التنقيبات التي جرت في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية جاءت من موقع رأس شمرا الذي أشرف على أعمال التنقيب فيه الفرنسي كلود شيفر Claude Schaeffer منذ عام 1929، ومن تل الحريري الذي أشرف على التنقيب فيه الفرنسي أندريه بارو André Parrot منذ عام 1933. وفي كلا الموقعين، كشف عن عدد كبير من الرقم الطينية التي مكنت الباحثين من التعرف على طبيعة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والدينية في بلاد الشام، لا سيما في الألف الثاني قبل الميلاد. ولا تزال البعثات الفرنسية تعمل حتى الآن في كلا الموقعين، لكن بفرق تنقيب وإشراف يختلف عما كان عليه الحال سابقًا.

وقامت بعثات بريطانية وأمريكية وفرنسية بالتنقيب في فلسطين في عدد كبير من المواقع، منها: تل المتسلم، وتل تعنك، والقدس، وأريحا، وتل الفارعة الشمالية، وتل بيت مرسيم، وتل العجول (إبراهيم 2009 ;Albright 1971). وتعد التنقيبات التي جرت بإشراف الأمريكي وليم فوكسويل أُلبرايت William Foxwell Albright في تل بيت مرسيم قرب الخليل، فيما بين الأعوام 1926-1932، الأنموذج الذي اقتدت به بقية التنقيبات الأثرية الأمريكية في التنقيب في مواقع تعود بتاريخها إلى العصور البرونزية والحديدية، وذلك اعتمادًا على طريقة التنقيب والجدول الزمني الذي خرج به أُلبرايت بعد انتهاء أعمال التنقيب في تل بيت مرسيم (Albright 1938).

وبعد احتلال فلسطين عام 1948، ثم احتلال البقية الباقية منها عام 1967، أصبحت البلاد كلها مفتوحة للتنقيب أمام الإسرائيليين الذين نشطوا إلى حد كبير في التنقيب عن الآثار، وفي نشر نتائج المسوحات والتنقيبات التي قاموا بها، وذلك بهدف محاولة

إثبات الحق التاريخي لإسرائيل في المنطقة. لذا انصبت جهود هؤلاء الباحثين على البحث في آثار العصور البرونزية، والعصور الحديدية تحديدًا. ومن أبرز المواقع التي نقب فيها الإسرائيليون: القدس، وتل وقاص/ تل القدح "حاصور"، وتل القاضي "دان"، وبيسان، وتل المتسلم "مجدو"، وغيرها.

وتضم الموسوعة التي أصدرها الإسرائيليون في طبعتين، وصفًا مفصلاً لنتائج التنقيبات الأثرية في فلسطين، وفي أجزاء من الأردن، والتي جاءت في طبعتها الثانية بعنوان: New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land.

وفي الأردن، تركزت الأعمال الميدانية الأثرية على استطلاع البلاد، وذلك عن طريق إجراء مسوحات أثرية، كان أشملها ما قام به نلسون جلوك Nelson Glueck خلال الثلاثينات من القرن الماضي (Glueck 1951a; 1951b). ولم يخل الأمر من إجراء بعض التنقيبات الأثرية في عدد من المواقع، منها تليلات الغسول (تبعد حوالي 5كم شمال شرقي البحر الميت)، وجرش، وعمان، وخربة التنور (وهي موقع نبطي يقع في منطقة وادي الحسا) (Geraty 1986).

ومنذ استقلال الأردن عام 1946، وإلى الآن، جرى عدد كبير من التنقيبات والمسوحات الأثرية، تركزت غالبيتها في مناطق وادي الأردن، والسهول، والمرتفعات الجبلية. وتشكلت فرق بحثية أجنبية، ووطنية، من أهمها البعثات التي تعمل في منطقة مأدبا باسم "مشروع سهول مأدبا" Madaba Plains Project، وفي منطقة وادي فينان. ومثل هذه المشاريع البحثية لا يعنى بدراسة الموقع الأثري ذاته وحسب، إنما يشمل البحث في المنطقة الواسعة المحيطة به بهدف دراسة الموقع في سياقه البيئي والثقافي الأشمل (Geraty 2007). إلا أن الأمر لا يخلو من تنقيبات تركز البحث فيها على مواقع محددة مثل طبقة فحل، وتل أبو الخرز، وتل السعيدية، وتل المزار، وتل دير علا، وتل الفخار وخربة الزيرقون، وأم الدنانير، وعمان، وذيبان، واللاهون، ومواقع كثيرة غيرها. علمًا أن بعض هذه المشاريع مثل تنقيبات الزيرقون، ودير علا، وطبقة فحل، شمل دراسة المناطق المحيطة بتلك المواقع. وتضم "حولية دائرة الآثار الأردنية" Annual of the Department of Antiquities of Jordan تقارير أولية لنتائج التنقيبات في تلك المواقع وغيرها من المشاريع الميدانية التي تجري في البلاد. ويعقد في الأردن، كل ثلاث سنوات مؤتمر دولي حول آثار الأردن وتاريخه، ويصدر عن هذا المؤتمر كتاب "دراسات في تاريخ

الأردن وآثاره" Studies in the History and Archaeology of Jordan، والذي يشمل دراسات مختصة بآثار الأردن.

أما فيما يتعلق بدراسة عصور ما قبل التاريخ؛ فقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين تنامي الاهتمام بدراسة عصور ما قبل التاريخ، وأجريت مسوحات وتنقيبات أثرية عديدة في مواقع تعود إلى تلك العصور. فمثلاً، قام الأمريكي روبرت بريدوود Robert Braidwood بتنقيباته الأثرية في منطقة العمق الواقعة شمال غربي سورية (Braidwood and Braidwood 1960)، كما قامت ديانا كيركبرايد Diana Kirkbride بعدد لا بأس به من المسوحات والتنقيبات التجريبية والمنتظمة في مواقع ما قبل التاريخ، كان أهمها التنقيبات التي قامت بها في موقع البيضا بالقرب من مدينة البتراء في الأردن (Kirkbride 1968). كذلك قامت كاثلين كنيون Kathleen Kenyon في الفترة ما بين 1952-1958 بتنقيبات في موقع عين السلطان/ أريحا، حيث كشفت عن آثار تعود إلى الفترة الناطوفية، والعصر الحجري الحديث (Kenyon 1957; Kenyon and Holland 1981; 1982; 1983). كما قام الفرنسي جان بيرو Jean Perrot بالتنقيب في موقع عين الملاحة الناطوفي بشمالي فلسطين، ومواقع أخرى في وادي الأردن ومنطقة بئر السبع، كانت جميعها في فلسطين (Perrot 1968).

أما أولى المعلومات التي نشرت حول عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام؛ فجاءت منشورة في تقارير أعدها عدد من الباحثين الذين عملوا خاصة خلال النصف الأول من القرن العشرين في جبال الجليل والكرمل بشمالي فلسطين، وفي كهوف يبرود في منطقة جبال القلمون المتاخمة لجبال لبنان الشرقية (المحيسن 1989؛ 2001). كما جاءت تنقيبات الصبي الأبيض ورأس شمرا وحلف في شمالي سورية، ومواقع طبقة فحل وأبو حامد وتليلات الغسول في وادي الأردن، لتزودنا بمعلومات كافية حول هذه الفترة. ولقد نشر عدد من التقارير حول نتائج تلك التنقيبات في الحوليات الأثرية السورية، وحولية دائرة الآثار الأردنية. كذلك تصدر عن جامعة برلين الحرة سلسلة ex-Oriente، والتي تتضمن معلومات وافية حول عصور ما قبل التاريخ، لا سيما العصر الحجري الحديث. ونتيجة الاهتمام المتزايد بدراسة عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام، عقدت عدة مؤتمرات وندوات دولية مختصة، ونشرت مؤلفات عديدة، منها:

- Préhistoire du Levant, 1988.

- Prehistory of Jordan I: the State of Research in 1988.
- Prehistory of Jordan *II*: Perspectives from 1997.

ومنذ سبعينات القرن العشرين وإلى الآن، كشف عن عدد من مواقع ما قبل التاريخ، منها ما جاء نتيجة لإجراء مشاريع بنائية كالسدود، ومنها ما جرى التعرف عليه من خلال مسوحات أثرية. وقد تركزت معظم المواقع المكتشفة في سورية حول بحيرة الأسد الاصطناعية، إذ كشف عن مواقع، مثل: أبو هريرة، وجعدة المغارة، وجرف الأحمر وحالولة. وأثبتت المكتشفات من تلك المواقع أن الناس استقروا في حوض الفرات وأنشأوا قرى زراعية منذ أواخر الألف التاسع قبل الميلاد. أما في فلسطين، والأردن، فبالإضافة إلى موقع أريحا، جرى التنقيب في مواقع مهمة تعود إلى العصر الحجري الحديث تركزت في أواسط البلاد وجنوبها، ومن أهمها: عين غزال، والبسطة، ووادي فينان وظهرة الذراع، والذراع.

إن دراسة عصور ما قبل التاريخ، أي ما قبل معرفة الكتابة، تعتمد أساسًا على دراسة المخلفات الأثرية التي يعثر عليها في المسوحات والتنقيبات الأثرية في مواقع تعود لتلك العصور. وبطبيعة الحال، فإن تلك المخلفات تخلو من أية مصادر كتابية. إلا أن معرفتنا بالعصور التاريخية، والتي شهدت معرفة الكتابة، قد أصبحت أفضل حالاً نتيجة اكتشاف وثائق ونصوص كتابية قديمة، لا سيما وثائق تل مرديخ المؤرخة للنصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، فأصبح لزامًا الربط بين المخلفات الأثرية من جهة والوثائق المكتوبة أو المنقوشة المكتشفة من جهة أخرى. ولن يقتصر الاعتماد على ما اكتشف في بلاد الشام من نصوص ووثائق مكتوبة، إذ تسهم دراسة الكتابات التي عثر عليها في بلاد الرافدين ومصر بتعميق معرفتنا بتاريخ المنطقة إلى حد كبير.

ويمكننا القول إن تنقيبات إرنست رينان Ernest Renan في سورية في عام 1860 وتنقيبات غليرمو-غانو Clermont-Ganneau في القدس، في الفترة نفسها، كانت فاتحة الطريق للدراسات اللغوية والأثرية في بلاد الشام. وقد قام رينان خلال حملته بإجراء تنقيبات تجريبية في مواقع جبيل، وصيدا، وصور، وأرواد (فرزات 2003: 26).

ويشكل الاعتماد على النصوص المكتوبة في مصر القديمة وبلاد الرافدين ضرورة لفهم ما كان يجري في بلاد الشام، لا سيما في العصور البرونزية والحديدية. إذ خضع جزء كبير من هذه البلاد لسيطرة المصريين وحكام بلاد الرافدين والحثيين خلال العصور

البرونزية والحديدية. كما خضع جزء من منطقة الجزيرة السورية للسيطرة الميتانية- الحورية. ولقد ترك ملوك هذه الدول وثائق مكتوبة تتحدث عن سيطرتهم المباشرة، أو غير المباشرة، على مناطق في بلاد الشام (Pritchard 1969). كما ترك حكام المدن والدول الشامية، كتابات تشير إلى علاقاتهم بجيرانهم، وإنجازاتهم لبلادهم، كما هو الحال في نقش الملك إدريمي ملك ألالاخ، ونقش الملك ميشع ملك مؤاب.

وتشكل القصص والأحداث الواردة في كتاب العهد القديم، لدى بعض الدارسين أساسًا لمعرفة البلاد المقدسة، أي منطقة جنوبي بلاد الشام، فقد شكلت تلك الوقائع والمعلومات العمود الفقري لدراساتهم. لكننا، وإن نتطرق، أو نذكر في بعض الحالات ما ورد في كتاب العهد القديم، إلا أنه لن يكون بأي حال من الأحوال، من المصادر الأساسية للمعلومات الواردة في دراستنا هذه، وذلك لتناقضها في كثير من الحالات مع الواقع الأثري، ولأنها لم تكتب إلا في فترة متأخرة جدًا عن زمن الأحداث الواردة فيها هذا إن كانت حدثت فعلاً.

الدراسات التوراتية وتاريخ البحث الأثري في فلسطين والأردن

شهدت بدايات القرن العشرين، وما تلاها، نشاطًا واسعًا في البحث الأثري في فلسطين والأردن، تركز جله على البحث في آثار العصور البرونزية والحديدية بهدف البحث في كتاب العهد القديم، وإعادة استبناء تاريخ المنطقة بما يتفق والروايات الواردة فيه، وذلك بغية إثبات الحق التاريخي لإسرائيل فيها. وقد أطلق الباحثون اسم "الآثار التوراتية" على المخلفات الأثرية المؤرخة للعصور البرونزية والحديدية، لا سيما في الأردن وفلسطين وجزء من جنوبي سورية. واتبع هؤلاء منهجًا بحثيًا يستند إلى تفسير المواقع والمكتشفات الأثرية انطلاقًا من الأحداث والقصص التوراتية. وشاع هذا المنهج بشكل خاص بين الباحثين الذين عملوا في الفترة ما بين 1920-1960. وكان المؤسس الفعلي لهذا المنهج الأمريكي التوراتي وليم أُلبرايت (1890-1971) الذي نقب في عدد من المواقع الأثرية في جنوبي بلاد الشام، وأصدر عددًا كبيرًا من الأبحاث، والكتب في مقدمتها كتابه: The Archaeology of Palestine. وسار على درب أُلبرايت تلامذته، ومنهم جورج إرنست

رايت G. Ernest Wright (1909-1974) الذي كان يدرس العلوم التوراتية في جامعة هارفارد الأمريكية (Wright 1962).

وخلال الانتداب البريطاني على الأردن وفلسطين، قام البريطانيون بتدريب عدد من الآثاريين اليهود على البحث في الآثار ودراستها، ومنهم موشيه سوكنيك Moshe Suknik ويغال يادين Yigal Yadin، فتولى هؤلاء بدورهم الدراسات الأثرية في إسرائيل بعد احتلال فلسطين عام 1948، متبعين المنهج التوراتي الذي ساروا به على خطى أُلبرايت.

إلا أن التوسع في التنقيبات الأثرية قد أملى ضرورة إعادة النظر فيما نشر سابقًا حول تاريخ بلاد الشام وآثارها. وبدأ المنهج التوراتي، خلال الستينات من القرن الفائت، يتعرض للنقد على يد نفر قليل من الباحثين الغربيين، من أمثال الهولندي هنك فرانكن Henk Franken. تلا ذلك أن بدأت الجامعات العربية، خاصة خلال السبعينات والثمانينات من القرن نفسه، بتدريس الآثار والعلوم ذات العلاقة، الأمر الذي شكل مقدمة لتنحية التوراة عن مجال البحث في تاريخ العصور البرونزية والحديدية وآثارها. وبدأ منهج بحثي آخر يستند إلى الربط بين المكتشفات الأثرية من جهة والمصادر والوثائق الكتابية المكتشفة من جهة أخرى، وتفسيرها دون تحيز. إلا أنه لا بد من الاعتراف، أنه وعلى الرغم من تعدد المعاهد والجامعات العربية التي تعنى بتدريس الآثار، وانشغال عدد كبير من الباحثين العرب بالبحث في آثار المنطقة، إلا أنه لم يتبلور حتى الآن منهج بحثي عربي مستقل قادر على الخروج على النمطية الآثارية الغربية في دراسة الآثار وتفسيرها (الأنصاري وكفافي 1992).

ونظرًا لإخفاق الباحثين التوراتيين في تحقيق الربط بين المكتشفات الأثرية من جهة والروايات والأحداث الواردة في كتاب العهد القديم من جهة أخرى، اقترح هؤلاء الباحثون، للخروج من هذا المأزق، عدة تسميات عوضًا عن تسمية الآثار التوراتية، منها "آثار سورية- فلسطين" و"آثار الشرق الأدنى" (Dever 2003). واعتقد وليم ديفر William Dever أن تغيير التسمية يفيد كثيرًا في كتابة تاريخ إسرائيل في العصور القديمة، ولم يدر في خلده أن يخرج من بين دارسي ومعلمي التوراة باحثون ينادون بعدم الربط بين الآثار والروايات التوراتية التي رأوا فيها سرديات لأحداث مختلقة. وقد أطلق التوراتيون التقليديون على أصحاب الاتجاه الجديد مسميات تعكس اتجاههم البحثي، مثل Revisionists وMinimalists. كما ظهرت مدرسة اتبعت هذا المنهج البحثي المستقل

نوعًا ما عن التأثير التوراتي، مثل مدرسة كوبنهاغن، ومن أتباعها توماس طومسون Thomas Thompson.

وبطبيعة الحال، انقسم علماء الدراسات التوراتية ما بين مؤيد ومخالف لهذا المنهج البحثي الجديد (Rast 2003). وحيث أن الأمر هكذا، قرر فريق من العلماء الأمريكيين الرد على المنادين بتنحية التوراة عن مجال البحث في العصور البرونزية والحديدية، من خلال إصدار كتاب يدعم وجهة نظرهم؛ فصدر هذا الكتاب عام 2003 بعنوان Near Eastern Archaeology، والذي قامت بتحريره سوزان ريتشارد Suzanne Richard، تلميذة وليم ديفر.

ومنذ "تأسيس إسرائيل" في عام 1948، أصدر الإسرائيليون عددًا كبيرًا من الكتب والمجلات، والأبحاث، والتقارير تعادل أضعاف أضعاف ما نشر في العالم العربي حول الآثار في المنطقة، وهي تنتمي بمجملها إلى وجهة نظر واحدة، وتخدم هدفًا واحدًا، "حق إسرائيل التاريخي في فلسطين"، وذلك على الرغم من بعض الاختلافات، أحيانًا، بين مؤلفيها. ومن تلك المؤلفات:

- A. Aharoni 1968; the Land of the Bible, a Historical Geography.
- A. Mazar 1990; Archaeology of the Land of the Bible, 10.000-586 B.C.E.
- A. Ben-Tor (ed.) 1992; Archaeology of the Land of Israel.

وتجدر الإشارة إلى أننا لا نسعى إلى تعميم أن الدراسات المتعلقة بتاريخ وآثار العصور البرونزية والحديدية كانت جميعها منحازة وتخدم أهداف الباحثين التوراتيين، بل على العكس من ذلك؛ فقد نشرت دراسات ذات منهج موضوعي، قام بها عدد من العلماء من أمثال الألماني مارتن نوت Martin Noth في كتابه: Geschichte Israels، وكاثلين كنيون في كتابها: Archaeology in the Holy Land، والذي يبحث في آثار فلسطين والأردن في العصور القديمة، بدءًا بعصور ما قبل التاريخ وحتى مجيء الإسكندر المكدوني.

ومع تقدم العلوم البحتة التي أصبحت أساسًا في التنقيب عن الآثار وتفسير الظواهر الأثرية المكتشفة، يمكن الادعاء أن ما نشر حول أعمال التنقيبات الأثرية، خاصة خلال العقود الأخيرة، يعد أكثر وضوحًا، وأقرب إلى الموضوعية مما نشر سابقًا، حتى أن عددًا من البعثات الأثرية عادت إلى التنقيب في بعض المواقع التي نقبت فيها سابقًا مثل أريحا وتل المتسلم.

جرت في سورية، منذ بدايات القرن العشرين، تنقيبات أثرية مهمة، منها ما قام به ماكس فون أوبنهايم Max Frieherr Von Oppenheim في موقع تل حلف في الفترة ما بين الأعوام 1911-1929. ويقع تل حلف على الحدود السورية التركية بالقرب من منابع نهر الخابور، حيث كشف فيه عن حضارة مهمة تعود إلى لألف الخامس قبل الميلاد، عرفت باسم "حضارة حلف". وتجدر الإشارة إلى أن بعثة ألمانية، بإشراف أنطون مورتغارت Anton Mortgart، قد تابعت العمل في موقع تل حلف بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لكن البعثة ابتعدت عن الأماكن التي نقب فيها أوبنهايم.

ومن المواقع السورية المهمة التي جرت فيها تنقيبات أثرية قبل الحرب العالمية الأولى، كركميش (مدينة جرابلس الحالية)، فقد نقبت فيها بعثة أثرية بريطانية منذ عام 1908 وحتى عام 1920، حيث كشفت عن مخلفات أثرية تعود إلى الألفين الثاني والأول قبل الميلاد.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وحصول دول بلاد الشام على استقلالها السياسي باستثناء فلسطين، لم تتوقف البعثات الأثرية الغربية عن التنقيب في البلاد، بل زاد عددها، وأصبح نشاطها الأثري أكثر تنظيمًا مما كان عليه الحال سابقًا، وبإشراف دوائر الآثار المسؤولة في البلدان المعنية.

وخلال العقود الأخيرة، أدت التنقيبات الأثرية المتزايدة إلى تعميق معرفتنا بتاريخ وآثار بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة. كما أدت نتائج تلك التنقيبات إلى زيادة المعارف المتصلة بالنواحي الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية والفكرية لدى سكان بلاد الشام قديمًا. ولا تزال كافة مناطق بلاد الشام تشهد توسعًا في عدد المسوحات والتنقيبات الأثرية التي تنفذها بعثات محلية وغربية.

فإذا ما نظرنا إلى شمالي بلاد الشام، نجد أن التنقيبات في حوض الفرات، وبخاصة في منطقة بحيرة الأسد، وفي حوضي الخابور والبليخ، ساعدت كثيرًا في فهم طبيعة الحياة الإنسانية في هذه المنطقة، لا سيما ما يتعلق منها بمرحلة القرى الزراعية الأولى، وبكيفية التحول إلى حياة المدينة، وبتأسيس ممالك-الدول فيها. كما ساعدت المكتشفات الأثرية التي عثر عليها خلال تلك التنقيبات في تكوين حصيلة من المعلومات

والمعارف حول علاقة بلاد الشام بالمناطق القريبة منها، وتلك البعيدة عنها. وكانت التنقيبات التي جرت في تل مرديخ على يد بعثة أثرية إيطالية، بإشراف باولو ماتييه Paolo Matthiae، خلال السبعينات من القرن العشرين، كشفت عن أرشيف حوى أكثر من خمسة عشر ألف رقمًا طينيًا، تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد أسهم هذا الاكتشاف في تغيير النظرية التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت، والتي تقول إن أقدم الكتابات التي تتحدث عن سورية تعود إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد (Akkermans and Schwartz 2003). وثبت بعد دراسة تلك الرقم أن مملكة تل مرديخ (إبلا) عاصرت الدولة الأكادية في بلاد الرافدين خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

ومن التنقيبات الأخرى التي جرت بشمالي سورية الحالية، حفرية تل خويرة الواقع في المنطقة بين نهري الخابور والبليخ، والتي بدأت عام 1955 على يد بعثة أثرية ألمانية بإشراف أنطون مورتغارت. ويرى المنقبون أن الآثار المكتشفة في موقع تل خويرة تعود بمجملها إلى الألف الثالث، والألف الثاني، والألف الأول قبل الميلاد، وتنسب معظم هذه الآثار إلى الحوريين. كما جرت تنقيبات في مواقع تل رفعت، وعين دارة، ومسكنة، وحماة، وتل ليلان، وتل الحديدي، وتل براك، وقطنا، وتل النبي مند، وسوكاس، وحمام التركمان، والصبي الأبيض، وتل الشيخ حمد، والبديري، وباز، وغيرها.

وفي لبنان التي لا تختلف عن غيرها من بلاد الشام الأخرى من حيث غناها بالمواقع الأثرية، وعلى الرغم من القيام بمسوحات وتنقيبات أثرية في عدد من المواقع المعروفة مثل جبيل، إلا أن كثيرًا من المواقع غير المعروفة لم تطلها معاول الآثاريين بعد. فقد واجه العاملون في الآثار اللبنانية صعوبات قد تتشابه أو تختلف مع ما يواجهه نظراؤهم في بلاد الشام الأخرى. فمن ناحية، لا يزال الكثير من التلال والمخلفات الأثرية دفينًا أسفل المدن والمباني الحديثة، مما يصعب على المنقبين الوصول إليه، وهذا هو حال الآثار في عموم بلاد الشام. يضاف إلى ذلك عدم كفاية التمويل اللازم للتنقيب عن الآثار، إذ تصب الحكومة اللبنانية جل اهتمامها على ترميم وصيانة المباني القديمة التي لا تزال قائمة، وذلك بقصد الترويج السياحي الذي يسهم في زيادة الدخل القومي. ومن ناحية أخرى، عانى لبنان، تحديدًا، لا سيما في النصف الثاني من القرن الماضي، من ويلات حروب متتالية، جعلت من إجراء تنقيبات أثرية منتظمة أمرًا صعبًا.

إن المتتبع للمشاريع الأثرية الميدانية في لبنان يجد أنها تتمركز حول المدن والمواقع المهمة، وثانيًا أن كثيرًا من الآثار المكتشفة وجد إما عن طريق الصدفة، أو من خلال الحفريات غير الشرعية، والتي تبقى، إلى جانب المتاجرة غير المشروعة بالآثار، الخطر الأكبر الذي لا يزال يهدد الآثار في عموم بلاد الشام؛ فنتيجة لبعض الأعمال البنائية، اكتشف في بيروت عام 1926 تمثال مصري لأبي هول، يعود إلى عهد الأسرة المصرية الثانية عشرة، اشتراه أحد تجار الآثار، وقام ببيعه إلى المتحف البريطاني بلندن. وقد فقد هذا الأثر المهم أهميته الأثرية، لأننا لا نعرف السياق الآثاري الذي وجد فيه، والذي فقد نتيجة التجريف خلال أعمال البناء.

وبعد وقوع لبنان تحت الانتداب الفرنسي، فتح الباب أمام البعثات الغربية للعمل في البلاد، وعملت، ولا تزال، في لبنان بعثات أثرية من أمريكا، وألمانيا، وبريطانيا، إلى جانب فرنسا. أما حاليًا؛ فإن المشاريع الأثرية إنما تنفذها فرق التنقيب الوطنية بالتعاون مع بعثات التنقيب الغربية، لا سيما الفرنسية، إذ قام معهد الآثار الفرنسي منذ عشرينات القرن الفائت بعدد كبير من مشاريع التنقيب التي توقفت إثر نشوب الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975، علمًا أن كثيرًا من تلك المشاريع عاد لاحقًا واستأنف نشاطه الميداني.

في عام 1954، شرع أحد أهالي بيروت ببناء عمارة في وسط المدينة، وفي أثناء حفر الأساسات، كشف النقاب عن كهف، عثر بداخله على أربعة قبور، أرخ اثنان منها إلى العصر البرونزي المتوسط، بينما أرخ الآخران إلى العصر البرونزي المتأخر. وقد حفظت اللقى الأثرية التي عثر عليها في هذين القبرين في المتحف الوطني اللبناني في بيروت.

نشطت الأعمال الأثرية في لبنان خلال الستينات من القرن الفائت، منها: الكشف عن بقايا تعود إلى العصر الحجري الحديث خلال توسعة مطار بيروت في المرة الأولى، إلا أن الجرافات دمرت جزءًا من مقبرة فنيقية خلال التوسعة التي جرت باتجاه بلدة خلدا، لكن فرق الآثار تمكنت من الكشف عما يقارب 150 قبرًا فنيقيًا. كما قامت دائرة الآثار اللبنانية في عام 1969 بإجراء تنقيبات تجريبية في وسط مدينة بيروت، كشفت عن أقدم استقرار للإنسان فيها خلال عصور ما قبل التاريخ (Saidah 1970). وبعد انتهاء الحرب اللبنانية وعودة الهدوء إلى بيروت، قام عدد من البعثات بإجراء تنقيبات أثرية فيها قبل إعادة الإعمار، ونشرت تلك البعثات تقارير نتائج أعمالها في مجلة "بعل" التي تصدر عن

المديرية العامة للآثار اللبنانية. وقد تبين أن بيروت كانت مسكونة منذ العصور الحجرية القديمة وحتى الوقت الحاضر دون انقطاع (Curves and Stuart 1998-1999: 14).

أما في منطقة البقاع؛ فقد قام عدد من البعثات المحلية والغربية بإجراء مسوحات وتنقيبات أثرية ، إذ عملت دائرة الآثار اللبنانية في عام 1965 في موقع مدينة بعلبك بهدف ترميم بعض المباني، مثل معبد جوبتر (هرقل). وأثناء العمل في هذا المعبد الروماني، عثر على مخلفات أثرية تعود للعصر البرونزي المتوسط (Chehab 1965). كما قامت بعثة إنجليزية، بإشراف ديانا كيركبرايد، في عام 1966 بالتنقيب في موقع لبوة الذي يبعد حوالي 30كم شمالي مدينة بعلبك (Kirkbride 1969). وقامت المنقبة بخزن اللقى المكتشفة في الموقع لدى المعهد الفرنسي للآثار من أجل الدراسة، إلا أن تلك اللقى فقدت في أثناء الحرب، وفقدت معها معلومات مهمة حول تاريخ لبنان خلال الألف السادس قبل الميلاد. كذلك، وفي الستينات من القرن العشرين، عملت بعثة ألمانية، بإشراف رولف هاخمن Rolf Hachman، في موقع كامد اللوز، والذي ربما يقابل موقع كوميدي المذكور في رسائل تل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وتؤرخ أهم البقايا في الموقع إلى العصرين البرونزي المتأخر، والحديدي (Hachman 1989). وقد توقفت التنقيبات الأثرية في هذا الموقع خلال الحرب الأهلية، لكنها عادت واستؤنفت بإشراف مارليز هاينتس Marlies Heinz من جامعة فرايبورغ الألمانية. وتعرض الموقع في أثناء الحرب لكثير من التجريف، لا سيما في أثناء اجتياح الجيش الاسرائيلي للبنان عام 1982.

وإضافة إلى بيروت وجبيل، يحتل الساحل اللبناني عدد من المدن الأثرية المهمة، مثل صيدا، وصور، وصرفند. ففي موقع جبيل الأثري، الواقع إلى الشمال من مدينة بيروت، بدأت التنقيبات عام 1926 على يد بعثة أثرية فرنسية بإشراف موريس دونان. وكشفت التنقيبات عن مخلفات يرجع أقدمها للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار. إلا أن اللقى المكتشفة تشير إلى أن المدينة اشتهرت تجاريًا خلال العصور البرونزية المبكرة والمتوسطة، وأن الميناء خضع للسيطرة المصرية في معظم تلك الفترات، بدلالة العثور على عدد من اللقى، والكتابات الفرعونية، كما ذكر اسم الموقع في المصادر الفرعونية المكتوبة. وكان حكام جبيل استخدموا اللغة الهيروغليفية، إضافة إلى لغتهم المحلية التي عرفت باسم "لغة جبيل المقطعية" (Mendenhall 1985). ولم يعثر المنقبون في جبيل

على كثير من مخلفات العصور البرونزية المتأخرة والحديدية، ويعزى ذلك إلى دمار المدينة نتيجة احتلال الفرس لها.

أما مدينة صور؛ فقد جرى فيها العديد من الأبحاث والدراسات الميدانية، لكنها ركزت في الأغلب على الفترات الرومانية، والبيزنطية، إضافة لقراءة النقوش اللاتينية واليونانية، لا سيما تلك المنقوشة على التوابيت الرومانية. ولم تحظ الفترات السابقة للرومانية إلا بقليل من الدراسة، علمًا أن التنقيبات التي أجريت عام 1973 كشفت عن مخلفات من العصر البرونزي المبكر (Bikai 1978).

وفي أثناء عبث العابثين بآثار صور عام 1990، عثر على مقبرة فنيقية، زودتنا الآثار المكتشفة فيها بمعلومات مهمة حول الألف الأول قبل الميلاد في لبنان، حيث عثر على مسلات نقشت عليها كتابة تشبه البونية التي استخدمت في المستعمرات الفنيقية الغربية (Sader 1992, 1993; Seeden 1993; Ward 1993). وكانت إحدى هذه المسلات تحمل نحتًا لوجه إنسان، بينما تحمل أخرى نقش رمز الحياة الفرعوني (عنخ ☥). وإضافة إلى المسلات، عثر في صور على عدد كبير من الآنية الفخارية واللقى الأثرية الأخرى، منها جرار فخارية كبيرة الحجم، الأمر الذي دعا بعض المختصين للاعتقاد بأنها استخدمت لدفن الأطفال.

وفي مدينة صيدا الساحلية، واجه المنقبون صعوبة حقيقية، إذ إن المدينة الأثرية مدفونة أسفل المدينة الحديثة، لذا لم يتمكنوا من التنقيب فيها بشكل موسع، واكتفوا بالبحث في محيط المدينة. ووجد هؤلاء المنقبون أن معظم المواقع التي تحيط بالمدينة عبارة عن مقابر تؤرخ ما بين عصور ما قبل التاريخ والعصر الروماني. وقد اهتمت الجهات اللبنانية الرسمية بالمحافظة على معبد إشمون المبني داخل المدينة، والذي استخدم خلال فترة امتدت من القرن السابع قبل الميلاد إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد (العصر الروماني). وكانت بعثة أثرية بإشراف موريس دونان عملت في هذا المعبد منذ بداية القرن العشرين، وقد نشر دونان نتائج أعماله في نشرة متحف بيروت Bulletin du Musée de Beyrouth، إلا أنه أعيد نشرها مجددًا (Stucky 1993).

وكان عثر في موقع الدكرمان، والذي يبعد 1.5كم إلى الجنوب من مدينة صيدا، على بقايا قرية تعود إلى العصر الحجري النحاسي، والتي تأثرت كثيرًا عند استخدام الموقع للدفن في فترات لاحقة. ووجدت في هذا الموقع أكواخ وجرار فخارية وبقايا سور.

أما أهم الاكتشافات التي جاءت من صيدا؛ فكان عددًا من التوابيت الحجرية، ينسب أقدمها لضابط مصري، عينه في منصبه الملك تبنيت في حوالي 500 قبل الميلاد، ويحمل التابوت نقشًا بالحرف الفنيقي.

وفي موقع صرفند الذي يبعد 13كم جنوبي مدينة صيدا، قامت بعثة أمريكية بإشراف جيمس بريتشارد James Pritchard (1978) بالتقيب فيه، حيث كشفت نتائج التنقيبات أن الموقع أسس في بداية العصر البرونزي المتأخر، وأن السكنى فيه استمرت حتى الفترة الرومانية. ويبدو أن الموقع كان ميناءًا مهمًا خلال العصور البرونزية والحديدية (Koehl 1985; Anderson 1988; Khalifeh 1988). كما لاحظ المنقبون أن سكان الموقع مارسوا عددًا من الصناعات، خاصة الدباغة، وعصر الزيتون، وصنع الآنية الفخارية.

أما في شرقي لبنان؛ فقد عملت فيما بين أعوام 1978 و1981 بعثة أثرية فرنسية بإشراف جان-بول تالمان Jean-Paul Thalmann في موقع عرقة قرب الحدود اللبنانية السورية. وقد توقف العمل في الموقع عدة سنوات إثر الحرب الأهلية، إلا أنه استؤنف عام 1992. ويبدو أن الموقع ازدهر خلال العصر البرونزي المبكر الثالث، والعصر البرونزي المتوسط، وثمة آثار تعود إلى العصر البرونزي المتأخر، والعصر الهلنستي، والعصر الروماني، والعصر البيزنطي. كما جرت في سهل عكار، إلى الشمال والشرق من مدينة طرابلس، مسوحات أثرية وتنقيبات، كان أهمها ما قامت به بعثة لبنانية سورية مشتركة في تل الكزل في سورية (على الحدود اللبنانية السورية الشمالية)، حيث كشف عن بقايا يعود أقدمها للعصر الحجري الحديث.

وبعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية، دعت اليونسكو في عام 1991 إلى مؤتمر دولي لدراسة الآثار اللبنانية وحمايتها، واستدعيت فرق آثارية عالمية للتنقيب في وسط مدينة بيروت قبل إعادة بنائه (Curvers and Staurt 1998-1999). وقد جرت التنقيبات في بيروت بإشراف دائرة الآثار اللبنانية بالتعاون مع اليونسكو. وعلى الرغم من نشر بعض التقارير الأولية، إلا أن الحاجة لا تزال ملحة لنشر النتائج النهائية لأعمال التنقيب. وعلى

أية حال، فقد قامت فرق التنقيب بنشر تقاريرها في مجلة "بعل" التي تصدرها المديرية العامة للآثار اللبنانية منذ عام 1996. وتضمنت "بعل" تقارير علمية حول عدد من المسوحات والتنقيبات الأثرية التي أجريت خلال تسعينات القرن الماضي وحتى الوقت الحاضر. أما في خارج العاصمة بيروت؛ فقد قامت بعثات محلية لبنانية وغربية بإجراء مسوحات أثرية، منها مسح سهول عكار الذي أظهر أن المنطقة شهدت استقرارًا سكانيًا استمر منذ العصرالحجري الحديث وإلى الوقت الحاضر وسجل في هذا المسح 52 موقعًا أثريًا (Bartl 1998-1999: 169-179). كذلك أجرت البعثة الألمانية مسوحاتها في المنطقة الجنوبية من سلسلة جبال لبنان الشرقية، أي شمالي جبل الشيخ، وقد سجل خلال هذا المسح 59 موقعًا أثريًا (Bonatz et al. 2002: 283-307)، كما أجرت مسوحات وتنقيبات أثرية في منطقة نهر إبراهيم العليا وفي موقع يَنوح (Gatier et al. 2001). ومنذ عام 2001، تقوم الجامعة الأمريكية في بيروت وجامعة تيوبنجن الألمانية بتنقيبات أثرية في موقع تل البرك، حيث عثر على مخلفات أثرية أرخت إلى العصر الحديدي (Kamlah and Sader 2003).

وإضافة للمسوحات الأثرية، بوشر بالتنقيب في عدد من المواقع، مثل صيدا، حيث كشفت التنقيبات عن بقايا عمائرية وفخارية تؤرخ للعصور البرونزية المبكرة والمتوسطة، والمتأخرة، والعصر الحديدي (Doumet-Serhal 1998-1999: 181-224; 2000; 2001; 2002; 2003; 2004; 2006).

وفي مغارة الحورية في وادي قاديشا، بقضاء مدينة زغرتا، كشف عن مقبرة تعود للمرحلة الانتقالية بين العصر البرونزي المبكر الرابع والعصر البرونزي المتوسط (Beayno et al. 2002: 135-179). وإضافة للقبور المؤرخة للعصر البرونزي المتوسط، عثر في في صيدا خلال موسم تنقيبات عام 2005 على رقم منقوش بالخط المسماري وعلى وعاء صلصالي نقش عليه اسم الفرعونة المصرية تاوسرت (Doumet-Serhal 2004: 77-78, Figs. 56-57). كما قامت بعثة أثرية لبنانية بريطانية بمسوحات في وادي قاديشا بحثاً عن مواقع تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، فوجدت آثارًا تعود إلى العصر الحجري القديم، وإلى المرحلة الانتقالية (الثقافتان الكبارية والناطوفية)، وإلى لعصر الحجري الحديث (Garrard and Yazbeck 2003; 2004). كما قامت تلك البعثة بمسح أثري لمغارة النشاريني، ولمواقع ما قبل التاريخ في المنطقة الشمالية من سلسلة جبال لبنان

الشرقية، سجلت في هذا المسح مواقع تعود للعصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ)، والعصر الحجري النحاسي، والعصر البرونزي المبكر .(Garrard et al. 2003: 15-48)

ويمكن القول إن المسوحات والتنقيبات التي جرت في لبنان قد أمدتنا بمعلومات مهمة حول تاريخ لبنان القديم، إلا أنها لا تزال قليلة مقارنة بغيرها في بلاد الشام.

الدراسات المنشورة حول تاريخ بلاد الشام وآثارها

نشرت كتب كثيرة حول آثار بلاد الشام بلغات أجنبية، ترجم عدد منها إلى العربية، قد بقي بعضها، ولا يزال، مرجعًا للدارسين والمختصين بآثار بلاد الشام، منها كتاب فيليب حتي: "تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين" الذي صدر عام 1958، وقام بترجمته جورج حداد وعبد الكريم رافق. ويتناول هذا الكتاب تاريخ بلاد الشام وحضارتها في عصور ما قبل الإسلام، إلا أنه كتاب يبحث في التاريخ أكثر منه في الآثار، نظرًا إلى أن مؤلفه مؤرخ.

كما صدر في عام 1988 كتاب باللغة الألمانية لمؤلفته هيلجا فايبرت Helga Weippert وهو في مجلدين، الأول بعنوان: Palästina in Vorhellenistischer Zeit، ويتضمن شرحًا مفصلاً لآثار فلسطين والأردن من عصور ما قبل التاريخ وحتى مجيء الإسكندر المكدوني في حوالي 333 قبل الميلاد. ومن الملاحظ أن هذا الكتاب يتناول منطقة جنوبي بلاد الشام وحسب. ويفيد منه الدارس والباحث المختص بدراسة الآثار القديمة لما فيه من شرح علمي مفصل بعناية.

وخلال السنوات الأخيرة، صدرت مؤلفات خصصت للبحث في آثار سورية ولبنان، منها:

- Altsyrien und Lebanon، لمؤلفته مارليز هاينتس M. Heinz، وصدر عام 2002.

- The Archaeology of Syria. From Complex Hunter-Gatherers to Early Urban Societies ca. 16.000-300 BC. Cambridge: Cambridge University Press. وهذا الكتاب من تأليف بيتر أكرمانز Peter Akkermans، وجلين شفارتز Glenn Schwartz وقد صدر في كمبريدج عام 2003.

- نشر الألماني هورست كلينغل Horst Klengel عددًا من الكتب حول تاريخ سورية القديم منها كتاب "تاريخ سوريا السياسي 3000-300 ق.م"، والذي نشر عام 1992 وصدر بنسخته العربية عام 1998 من ترجمة سيف الدين دياب، ومراجعة وتحقيق عيد مرعي.

وبعد الاطلاع على تلك الكتب، نجد أن الكتاب الأول حول آثار سورية ولبنان جاء مختصرًا ومفيدًا، لكن تعوزه اللوحات والأشكال الإيضاحية. أما في الكتاب الثاني؛ فقد انصب جهد المؤلف على البحث في منطقة الجزيرة السورية وأعالي الفرات أكثر من غيرها من المناطق السورية، لكنه يظل من الكتب التي يعتمد عليها في دراسة آثار سورية في العصور القديمة، لا سيما في العصور البرونزية والحديدية.

لقد كتب ونشر الكثير عن آثار بلاد الشام بلغات أجنبية، لكن كل واحد من تلك الكتب قد تناول بالبحث آثار بلد أو بلدين من بلاد الشام، وليس من بينها كتاب واحد يبحث مؤلفه فيه في آثار سورية ولبنان والأردن وفلسطين مجتمعة. ويعزى السبب في ذلك إلى عوامل عدة، منها أن أكثر من 90٪ من التنقيبات الأثرية قد جرى في مواقع حوض الفرات والخابور والبليخ وسواحل البحر المتوسط. لذا تركزت الدراسات المنشورة، والتي تستند إلى نتائج التنقيبات، حول تلك المناطق أكثر من المناطق الداخلية في سورية، لا سيما الجنوبية منها. كما أن التنقيبات والدراسات الأثرية التي جرت في فلسطين والأردن، كانت بهدف البحث في آثار "الأرض المقدسة"، بينما لا يعد شمالي سورية ولبنان جزءًا من الأرض المقدسة.

أما الدراسات المنشورة باللغة العربية لمؤلفين عرب؛ فنجد أن تناول بلاد الشام قد جاء في كثير من الحالات في سياقات البحث في تاريخ الحضارات، أو في تاريخ الشرق الأدنى القديم (قابلو وفرعون 2006). وركزت هذه الكتب، بطبيعة الحال، على دراسة بلاد الرافدين، ومصر، والأناضول، وإذا ما ذكرت بلاد الشام؛ فإنما تذكر بعض الممالك التي نشأت فيها خلال الألف الأول قبل الميلاد. وظل الأمر هكذا حتى العقود الأخيرة من القرن الفائت، حين صدر عن جامعة دمشق ودور النشر السورية عدد من الكتب التي اختصت بدراسة بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة. وكان سلطان المحيسن/ جامعة دمشق، وبسام جاموس وعمار عبدالرحمن/ المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية، وزيدان كفافي وخالد أبو غنيمة/ جامعة اليرموك، وحمزة المحاسنة/ جامعة مؤتة، وميسون النهار/ الجامعة الأردنية نشروا كتبًا ومقالات عديدة

باللغة العربية حول عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام. ونشر أبو غنيمة عام 2009 "معجم مصطلحات ما قبل التاريخ"، وهو أداة تفيد في توحيد المصطلح الآثاري الخاص بعصور ما قبل التاريخ.

أما فيما يخص العصور البرونزية والحديدية؛ فقد نشر القليل من المؤلفات بالعربية حولها. إلا أن بعض الطلبة والباحثين العرب قد كتبوا أطروحاتهم العلمية وبعض الأبحاث حول هذا الموضوع، وقد لا يتسع المجال هنا لعرضها جميعًا، فنورد مثالاً على ذلك، وهو كتاب لمؤلفه محمد حرب فرزات، وقد صدر عن جامعة دمشق عام 1983، وهو كتاب جامعي طبع منه إحدى عشرة طبعة، كان آخرها عام 2003، لكنه لا يزال على حاله كما صدر أول مرة. وعلى الرغم من أهميته، فإن هذا الكتاب بحاجة لتحديث المعلومات الواردة فيه، وللمراجعة في ظل التنقيبات التي جرت في العقود الأخيرة. كما صدر عن قسم التاريخ بجامعة دمشق عدد من الكتب المفيدة التي عالجت بشكل عام تاريخ بلاد الشرق الأدنى القديم، ولا نستطيع في هذا المقام ذكرها جميعًا. كذلك صدر في دمشق، قبل عدة سنوات، كتاب لعبد الله الحلو، ويقع هذا الكتاب في 1300 صفحة، ويتضمن دراسة مفصلة لتاريخ بلاد الشام وآثارها منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى مجيء الإسكندر المكدوني. ويؤخذ على الكاتب عدم الدقة في بعض المعلومات الواردة حول عصور ما قبل التاريخ تحديدًا، إضافة إلى أنه يعد حضارة بلاد الرافدين جزءًا من حضارة بلاد الشام.

وصدر في عام 2006 كتاب لزيدان كفافي، بعنوان: "تاريخ الأردن وآثاره في العصور القديمة: العصور البرونزية والحديدية". ويشير عنوان الكتاب إلى مجال البحث في آثار العصور البرونزية والحديدية (حوالي 3500-332 قبل الميلاد) في الأردن تحديدًا.

وإلى جانب الأبحاث والمؤلفات العلمية المنشورة، ونظرًا لاهتمام العالم الغربي بآثار بلاد الشام، خاصة الأردن، وفلسطين التي يعدونها الأرض المقدسة؛ فقد نظمت عدة معارض آثارية في أوروبا وأمريكا، وصدرت على هامش هذه المعارض كتالوجات علمية تتضمن معلومات مهمة حول آثار بلاد الشام. وكان من تلك المعارض، معرض حول آثار الأردن أقيم في متحف البيرغامون ببرلين عام 2005، وجاء المعرض والكاتالوج الذي صدر عنه بعنوان Faces of the Orient.

البحث في المصادر المنقوشة أو المكتوبة

تعد الوثائق المنقوشة أو المكتوبة القديمة مصدرًا أساسًا لمعرفتنا بتاريخ بلاد الشام وآثارها في العصور البرونزية والحديدية؛ فهي تشكل سندًا أصيلاً ومرجعًا أساسًا لفهم التطور الحضاري في الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية في بلاد الشام. والعارف بأصل الكتابة يقر بأنه على الرغم من الاكتشافات الكتابية المهمة في تل مرديخ، وتل الحريري، ورأس شمرا إلا أنها لا تغطي سوى الفترة ما بين حوالي 2400 -1300 قبل الميلاد. كما أن أقدم الكتابات التي عثر عليها في بلاد الشام في موقع جبل عرودة على الضفة الغربية لنهر الفرات، والتي تعود إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، تتضمن معلومات تتصل بالنواحي الاقتصادية وحسب (Van Driel 1982; Van Driel and Van Driel-Murray 1983).

والمتتبع لما نشر حول الكتابات والنقوش من بلاد الشام، يعرف أن الفترة ما بين حوالي 1200-1000 قبل الميلاد، خاصة في جنوبي بلاد الشام، تكاد تخلو من المصادر والوثائق المكتوبة، مما دفع كثيرًا من الباحثين، لا سيما التوراتيون، إلى اللجوء إلى كتاب العهد القديم للتزود بمعلومات حول هذه الفترة، خاصة أنها شملت، من وجهة نظرهم، معلومات تتصل بخروج العبرانيين من مصر، ودخول شعوب البحر إلى المنطقة. وعلى أية حال، لا يخلو الأمر من نقش هنا أو هناك، كما هو الحال في النقش الذي وجد على رأس سهم، ذكر فيه (زَكَر/ زِكِر- بعل ملك أمورو)، إلا أن تاريخه ومكان العثور عليه غير معروفين، علمًا أن بعض الباحثين يؤرخه إلى ما قبل حوالي 1000 قبل الميلاد (Starcky 1982: 179-186).

وتقسم المصادر المكتوبة والمنقوشة التي تتحدث عن بلاد الشام في العصور القديمة إلى:

1- نصوص محلية، أي عثر عليها في مواقع في بلاد الشام.

2- نصوص مصرية.

3- نصوص رافدية.

وقد تضاف إليها نصوص حثية وتوراتية.

أما المصادر المحلية؛ فمن المعلوم أن الشواهد الكتابية من بلاد الشام، والتي تعود إلى فترة ما قبل أرشيف تل مرديخ (إبلا)، أي الفترة ما قبل 2400 قبل الميلاد تقريبًا، جاءت

نادرة جدًا. إلا أن قلة تلك الشواهد ربما تعوضها معرفتنا بأن منطقة حوض الفرات، بما في ذلك الجزء السوري، كانت خلال نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد على تواصل فيما بينها، فالتشابه واضح في المادة الأثرية المكتشفة في مواقع سورية مثل حبوبة كبيرة، وجبل عرودة، ومواقع أخرى رافدية، إضافة إلى أن تلك الفترة شهدت اتصالات تجارية بين مناطق الساحل وغربي بلاد الشام وجنوبها مع مصر.

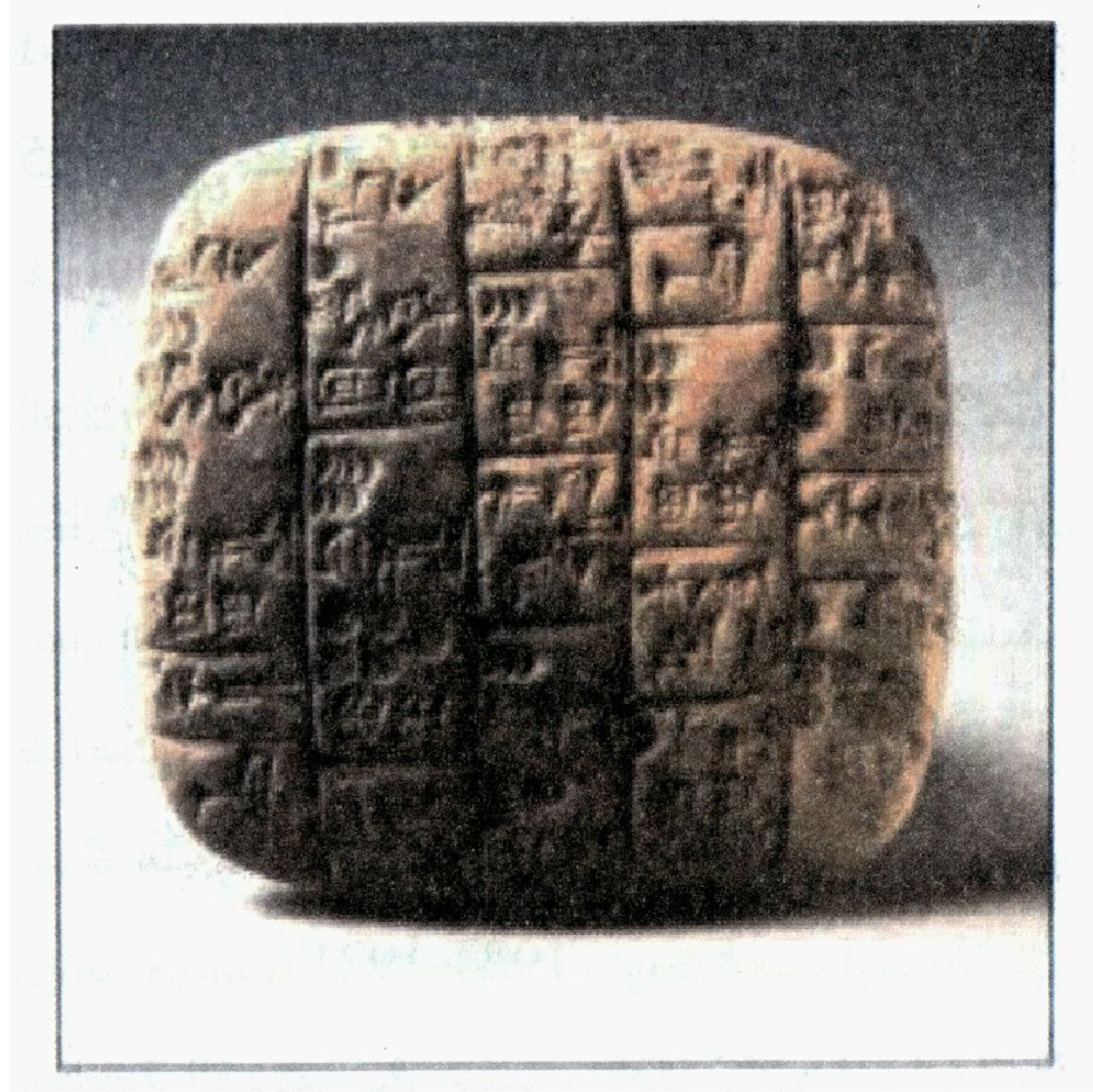
وقد شهدت بلاد الشام خلال الألف الثالث قبل الميلاد تطورًا حضاريًا مهمًا، حيث ظهرت المدن الكبيرة خلال النصف الأول منه في معظم أرجاء البلاد، وبدأت تظهر مراكز حضارية تحكمها سلطة مركزية تشرف على مجتمع منظم، إلا أن حدود نفوذ هذه السلطة لم يكن يتجاوز رقعة محدودة من الأرض. وللمقارنة، فقد ظهرت دولة الأمة خلال هذه الفترة في كل من بلاد الرافدين ومصر القديمة (كفافي 2005)؛ ففي النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، سيطر الأكاديون في بلاد الرافدين على أراضٍ واسعة من الشرق الأدنى القديم. وفي الوقت ذاته، شهدت منطقتا حوض الفرات، وساحل البحر المتوسط مراكز حضارية مهمة، مثل تل مرديخ، وتل الحريري، وجبيل. علمًا أن نهاية الألف الثالث قبل الميلاد شهدت تحطم المراكز الحضارية في كثير من المناطق الشامية، إما لأسباب طبيعية، أو نتيجة غزو قبائل الأموريين لها (كفافي 2006). وعلى أية حال، فإن ما يهمنا في هذا المقام هو تقديم موجز حول الكتابات المؤرخة إلى الألف الثالث قبل الميلاد، والتي عثر عليها في تل مرديخ وجبيل.

في أوائل عام 1964، بدأت بعثة إيطالية بالتنقيب في موقع تل مرديخ (إبلا) الواقع على بعد 55كم جنوب-غرب مدينة حلب، وعلى مسافة 5كم من قرية سراقب في محافظة إدلب. وقد اكتشف أول الرقم الطينية المنقوشة في هذا الموقع عام 1974، حيث عثر على 42 رقمًا، ثم اكتشفت مكتبة القصر الملكي عام 1975، والتي عثر فيها على أكثر من 15.000 رقم (الشكل 1). وتؤرخ هذه الرقم للفترة ما بين حوالي 2400-2250 قبل الميلاد (Matthiae 1981). ويرى كلينغل (1998: 24) أن الكتابة التي نقشت على الرقم الإبلائية تشبه في فحواها النصوص التي عثر عليها في موقع أبو الصلابيخ جنوبي العراق، والمؤرخ لحوالي 2600 قبل الميلاد. وكانت الرقم الإبلائية نقشت بالخط المسماري، وتتضمن معلومات عن الحياة الاقتصادية والإدارية عمومًا، والتجارية خصوصًا، كما تذكر أسماء حيوانات، وطيور، وأسماء أعلام، ونصوصًا أدبية

أسطورية (Archi 1985; Kienast and Waetzoldt 1990). ويرى ألفونسو آركي Alfonso Archi (1985) أن نصوص تل مرديخ تخص ثلاثة أجيال أو أسر، على النحو التالي: Ar-Ennum، وIbrium، وIbbi-Zikir.

أما النقوش والكتابات التي عثر عليها في جبيل، وتعود للألف الثالث قبل الميلاد؛ فغالبيتها، إن لم يكن جميعها، هيروغليفية مصرية. وكانت البعثة الفرنسية بدأت بالتنقيب والكشف عن آثار هذا الموقع منذ عام 1860، وذلك عندما أجرى إرنست رينان تنقيبات تجريبية كشفت عن كثير من البقايا العمائرية، واللقى الأثرية، والنقوش، بعضها معروض الآن في متحف اللوفر بباريس. ومن ثم تابع بيير مونته Pierre Montet التنقيب في الموقع لأربعة مواسم 1921-1924، وكشف، إضافة للعمائر، عن عدد من النقوش من عهد المملكة القديمة في مصر، وقد نشرها عام 1928 (Montet 1928). وتابع موريس دونان التنقيب في الموقع عام 1928، واستمر حتى بداية الحرب الأهلية اللبنانية خلال السبعينات من القرن الفائت (Dunand 1968). وتدل النقوش على التماثيل، والتي تحمل أسماء فراعنة حكموا مصر خلال السلالات الرابعة والخامسة والسادسة (حوالي 2600 وحتى 2200 قبل الميلاد)، على الصلات التي كانت قائمة في ذلك الوقت بين بلاد الشام ومصر، إذ كانت مصر ترسل البعثات التجارية إلى لبنان لاستيراد خشب الأرز خاصة لاستخدامه في بناء العمائر الكبيرة. ويؤكد هذه الصلات غطاء مرمري عثر عليه في القصر (ج) في تل مرديخ (الشكل 2)، نقش عليه اسم الفرعون المصري بيبي الأول، وهو الفرعون الثالث الذي حكم مصر زمن الأسرة السادسة (Archi 1985: 140).

وتعد الوثائق المكتوبة المكتشفة في موقعي تل مرديخ وجبيل المصدر الأساس في تزويدنا بمعلومات مدونة حول بلاد الشام خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وإن كانت الوثائق من الموقع الأول تقدم لنا معلومات أفضل من الثاني، لأنها تعكس الأحوال الداخلية في بلاد الشام، في حين تركز الوثائق من جبيل على العلاقة مع مصر.



الشكل 1: رقم من تل مرديخ، محفوظ في المتحف الوطني في إدلب، القرن الرابع والعشرون قبل الميلاد
(عن كتاب كنوز سورية القديمة)



الشكل 2: كسرة من إناء مرمري من تل مرديخ، تحمل اسم الفرعون بيبي الأول (حوالي 2300 قبل الميلاد)، المتحف الوطني في حلب (عن كتاب كنوز سورية القديمة)

ومن الملاحظ أنه لم يعثر في كل من الأردن وفلسطين، حتى الآن، على كتابة تسعفنا بمعلومات عن طبيعة الحياة فيهما خلال الألف الثالث قبل الميلاد، علمًا أن الآثار المكتشفة تشير بكل وضوح إلى علاقاتهما مع مصر القديمة. ويقودنا هذا إلى استنتاج أن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من جبيل كانت على علاقة تجارية وثيقة مع مصر، بينما كانت منطقة حوض الفرات على اتصال دائم ببلاد الرافدين. وتؤكد السجلات الأكادية ما ذهبنا إليه، إذ تذكر بشكل مباشر، أو غير مباشر، منطقة شمالي بلاد الشام عند الحديث عن الحملات العسكرية التي شنها الملوك الأكاديون ضدها. ويظهر ذلك جليًا في السجلات التي تركها الملوك الأكاديون، مثل سرجون (شاروكين) (2340-2284 قبل الميلاد)، ونارام- سن (2259-2223 قبل الميلاد). ويعتقد الباحثون أن حملة سرجون على بلاد الأرز وجبل المعدن الثمين (ربما الأمانوس) كانت وراء تدمير مدينة تل مرديخ، يضاف إلى ذلك ذكر انتصار الملك الأكادي شار- كلي- شري (2223- 2198 قبل الميلاد) على الأموريين في منطقة جبل بشري.

وبعد سقوط المملكة الأكادية على يد الجوتيين، بقيت المصادر الرافدية المكتوبة تذكر مناطق شمالي بلاد الشام، كما هو الحال في الكتابات من زمن الملك جوديا، ملك لجش (2144-2124 قبل الميلاد). وقد استمرت الاتصالات جارية بين بلاد الرافدين وشمالي بلاد الشام، حتى بعد استلام أسرة أور الثالثة الحكم هناك.

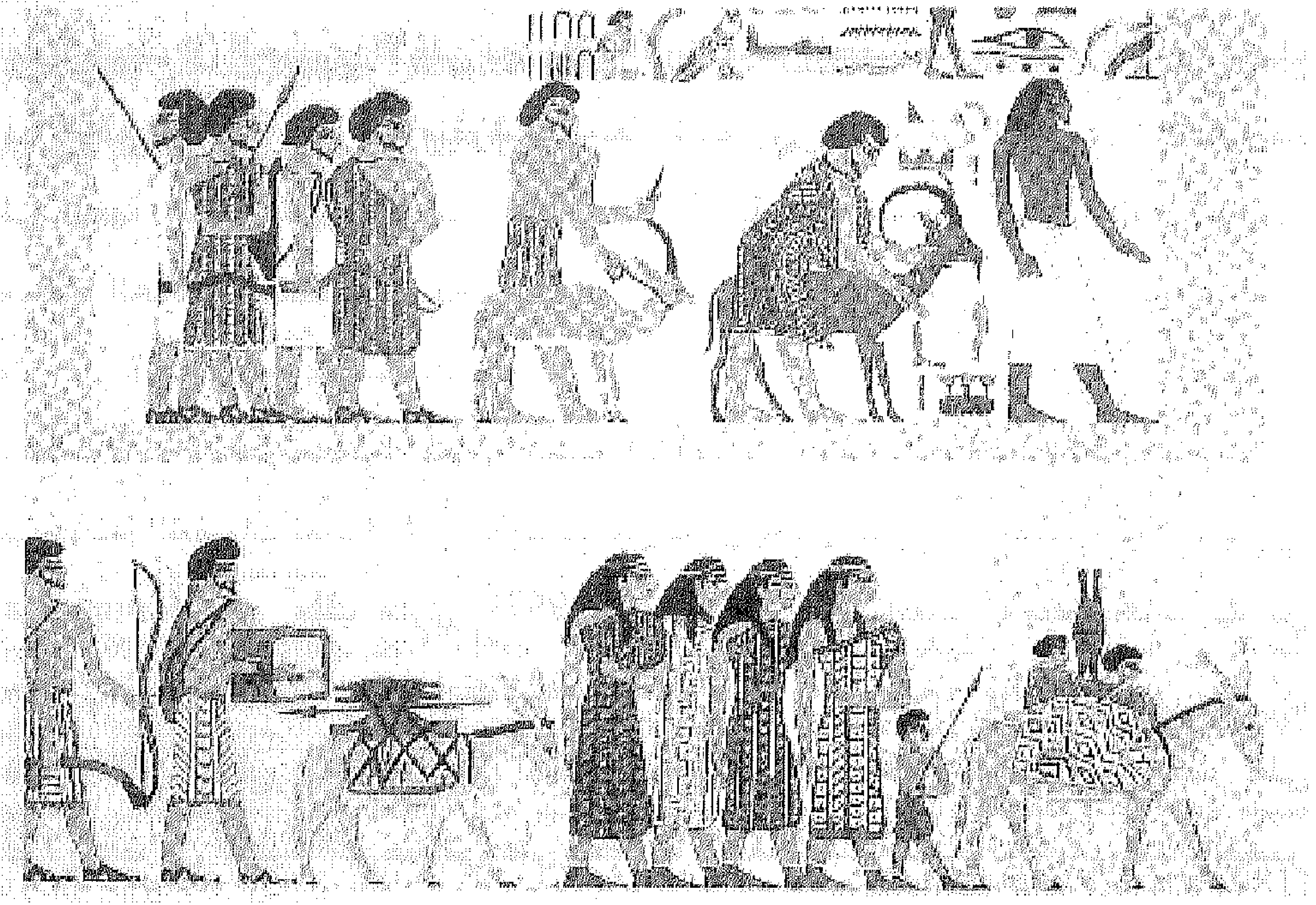
وإذا ما انتقلنا إلى الألف الثاني قبل الميلاد، نجد أن المدن قد عادت إلى الظهور مرة أخرى خلال النصف الأول منه، لا سيما أن معظم تلك المدن دمر خلال القرون الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد. كذلك انتشرت في مناطق واسعة من بلاد الشام، خاصة الشرقية، جماعات أخرى اعتمدت الزراعة وتربية الماشية وسيلة للحياة. ويصنف الدارسون سكان بلاد الشام خلال هذه الألفية إلى جماعتين رئيستين هما: الكنعانيون والأموريون. وإضافة لهؤلاء، سكنت البلاد جماعات عرقية أخرى، مثل الحوريون الذين استقروا بشمالي سورية. ويمكن القول إن سكان بلاد الشام خلال الألف الثاني قبل الميلاد كانوا خليطًا من الأجناس والأعراق، مع غلبة الطابع الكنعاني - الأموري الذي ينتمي إلى العرق السامي، والذي كان هاجر من شبه الجزيرة العربية.

وقد شهدت نهاية الألف الثالث وبداية الثاني قبل الميلاد تراجع النفوذ المصري في بلاد الشام. ويتضح هذا من قراءة المؤلف الفرعوني "مواعظ إب- وير" المؤرخ إلى بداية الألف

الثاني قبل الميلاد، والذي يصف الأحوال البائسة التي كان يعيشها الناس في مصر في ذلك الوقت (حوالي 2230- 2050 قبل الميلاد) (أحمد 2003). وعلى الرغم من هذا، فإن بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة الذين اعتلوا سدة الحكم في مصر، حاولوا استعادة النفوذ على بعض مناطق بلاد الشام (Kempinski 1992: 159-160)، حيث جرد الفرعون سنوسرت الثاني (منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد) حملة على بلاد كنعان، إذ يصف نقش، على مسلة له، كيف حاصر جيشه مدينة بلاطة في فلسطين. كما يدل تمثال لأحد الضباط المصريين في موقع تل المتسلم، الواقع في سهل مرج ابن عامر في شمالي فلسطين، على خضوع هذه المدينة للمصريين. وفي المؤلف الأدبي لقصة سنوهي، والمؤرخ إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد، يصف الكاتب طبيعة بلاد الشام وخيراتها في ذلك الوقت (Wilson 1955).

وإذا كان المصريون حاولوا مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد استعادة نفوذهم التجاري في بلاد الشام، إلا أنهم كانوا فيما يبدو غير قادرين على تحقيق ذلك عسكريًا. وتؤكد ضعفهم هذا "نصوصُ اللعن"، والتي تعود إلى عهد الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة. وهذه النصوص ذات تأثير سحري، إذ كانت تكتب على آنية فخارية، أو دمى صلصالية، ويذكر في الكتابة اسم الشخص أو المدينة التي يتمنى الفرعون القضاء عليه، أو عليها، ثم يكسر الإناء أو الدمية. وفي هذه النصوص تمنيات، وعدم مقدرة، أكثر مما هي الأفعال. وتشير الرسوم الجدارية من عهد المملكة الوسطى، والتي عثر عليها في مقابر بني حسن في مصر، إلى العلاقات الموصولة التي كانت قائمة بين بلاد الشام ومصر في تلك الفترة. وتظهر في إحدى تلك الرسومات (الشكل 3) قافلة من الآسيويين، محملة بالهدايا للفرعون المصري، أو ربما أنهم كانوا تجارًا (Kempinski 1992: 161).

وبعد استيلاء الهكسوس على الحكم في الدلتا المصرية في حوالي 1750 قبل الميلاد وحتى طردهم منها في عام 1550 قبل الميلاد، لم يعثر حتى الآن على كتابات مصرية تتحدث عن بلاد الشام، علمًا أنه قد عثر على بعض اللقى الأثرية ذات الأصول المصرية مثل الجعلان والآنية المصنوعة من المرمر المصري.



الشكل 3: رسم جداري من مقابر بني حسن في مصر (عن Tubb 1998)

وعودة إلى الكتابات المكتشفة في بلاد الشام، والمؤرخة إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، فقد عثر على أهمها وأكثرها في موقعي تل الحريري (ماري) وتل العطشانة (ألالاخ). ففي موقع تل العطشانة، عثرت البعثة الأثرية البريطانية على عدد من الرقم المنقوشة بالخط المسماري الأكادي، والتي تذكر اسم المدينة نفسها، إضافة إلى أسماء مدن أخرى معاصرة لها، مثل يمحاض (حلب). وتؤرخ نصوص تل العطشانة إلى الفترة ما بين النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى النصف الأول من القرن السابع عشر قبل الميلاد (Greenstein 1997).

كما عثر في مدينة جبيل على عدد من النصوص القصيرة المكتوبة بالخط الهيروغليفي، والتي تذكر أسماء أمراء وملوك في جبيل، وفي بعض المدن الأخرى، مثل رأس شمرا. كذلك عثر في مواقع سورية أخرى على نصوص مكتوبة تساعد في فهم تاريخ بلاد الشام خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، منها ما عثر عليه في مسكنة (إيمار)، وتل مرديخ (إبلا)، وجرابلس (كركميش).

ويعد أرشيف تل الحريري الأغنى بين باقي الأرشيفات المكتشفة في بلاد الشام، إذ بلغ عدد الرقم فيه 25.000 رقمًا منقوشة بالخط المسماري. وكان تل الحريري، والذي يقع على الجهة اليمنى لنهر الفرات بالقرب من مدينة البوكمال على الحدود السورية العراقية الحالية، اكتشف صدفة في عام 1933، حين كان أحد الفلاحين يحفر قبرًا؛ فعثر على تمثال حجري منحوت. وفي العام ذاته، قام الفرنسي أندريه بارو بالتنقيب في الموقع، ولا يزال الفرنسيون يتابعون التنقيب هناك حتى الوقت الحاضر. وعلى كل حال، ففي موسم التنقيبات لعام 1934، كشف عن تمثال يحمل على أحد كتفيه نقشًا يقول: Lamgi-Mari، أي "ملك ماري" (Margueron 1997). وتتابعت الاكتشافات في تل الحريري، وكان من أهمها اكتشاف قصر الملك زمري-ليم، والذي هجر بعد أن استولى الملك البابلي حمورابي على المدينة في حوالي 1760 قبل الميلاد. كما عثر على زقورة وعدد من المعابد التي سنأتي على ذكرها لاحقًا. وقد جاءت الرقم من هذا القصر الملكي مؤرخة، في غالبيتها، إلى أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وإن كانت تؤرخ عمومًا إلى الفترة ما بين 2226-1762 قبل الميلاد تقريبًا (كلينغل 1998: 53).

وتؤكد نصوص تل الحريري أن الأموريين سيطروا على معظم مناطق بلاد الشام، وأجزاء من بلاد الرافدين، وذلك خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وعلى الرغم من هذا، لم يعرف حتى الآن خط كتابي أو لغة أمورية خاصة بهم. لكن من الجدير بالقول إن الخط المسماري، واللغة الأكادية، كانا لا يزالان السائدين خلال تلك الفترة.

وإذا كان الأموريون هم من أسس مملكة تل الحريري مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد؛ فإن الأرشيف الملكي فيها يزودنا بمعلومات مهمة عن الأحوال السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، ليس في بلاد الشام وحسب، وإنما في بلاد الرافدين كذلك. وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات المتعلقة بأرشيف تل الحريري تنشر في مجلدات خاصة بعنوان Archives Royales de Mari. ويتضمن فحوى عدد كبير من الرقم الإبلائية التي عثر عليها في القصر الملكي رسائل مرسلة من وإلى الملك زمري-ليم (Sasson 1985). ولم يرد ذكر بلاد الشام في النصوص الرافدية في الفترة ما بين حوالي 1800-1600 قبل الميلاد إلا قليلاً، ولم تخرج بمجموعها عن نقش من زمن الملك الآشوري شمشي-أدد الذي

يذكر بأنه قام بحملة إلى منطقة شواطئ البحر المتوسط. كما نجد من بابل إشارة كتابية أخرى تتصل بمسائل تجارية، تذكر فيها أسماء أماكن وحكام سوريين (Hallo 1964).

وبانتقالنا إلى فترة ما بين 1550-1200 قبل الميلاد تقريبًا، أي العصر البرونزي المتأخر كما يسميه دارسو آثار جنوبي بلاد الشام، فإن المصادر المحلية المكتوبة تعد قليلة مقارنة بالمصادر المكتوبة من خارج حدود بلاد الشام. علمًا أنه عثر على أرشيف كتابي في السوية الرابعة في تل العطشانة (ألالاخ)، والتي أرخت إلى النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد (Hess 1988; Wiseman and Hess 1994; Greenstein 1997). كما عثر في الموقع ذاته على تمثال لملك المدينة إدريمي، يحمل نقشًا يحكي سيرة حياة هذا الملك، ويأتي فيها على ذكر كثير من الأعمال والإنجازات التي قام بها (Dietrish and Loretz 1981).

وإضافة لتل العطشانة، عثر في موقعي تل الحديدي الواقع على الضفة الغربية لحوض الفرات الأوسط، والمشرفة (قطنا)، على عدد من النصوص المسمارية المؤرخة للقرن الخامس عشر قبل الميلاد. كما عثر في موقعي رأس شمرا وجبيل على عدد من النصوص المنقوشة بالخط الهيروغليفي، تذكر فيها أسماء بعض ملوك هذه المدن (كلينغل 1998: 99).

ويعد أرشيف رأس شمرا الأغنى بالمعلومات حول بلاد الشام، وجاءت الرقم فيه منقوشة بالخط المسماري الأكادي المقطعي، وبالأبجدية الأوغاريتية. وكان الموقع كشف بطريق الصدفة عام 1928، ثم نقبت فيه بعثة أثرية فرنسية بإشراف كلود شيفر منذ عام 1929 وحتى 1970، تبعه هنري دي كونتسون Henri de Contenson ما بين الأعوام 1971-1974، ثم جان مارغرون Jean Margueron ما بين عامي 1975-1977. ومنذ عام 1978، وحتى الآن، تقوم بالتنقيب في الموقع مارغريت يون Marguerite Yon. وقد كشفت التنقيبات التي جرت في منطقة الأكروبول، فيما بين الأعوام 1929-1937، عن عدد كبير من الرقم، وبعض الأدوات البرونزية التي تحمل نقوشًا، عثر عليها في أبنية تخص عبادات وجوانب دينية أخرى. وفي عام 1930، تمكن كل من هانس بور Hans Bauer، وإدوارد دورم Édouard Dhorme وتشارلز فيرولاود Charles Virolleaud، من فك رموز الأبجدية الأوغاريتية (Yon 1997b: 257). ومما يذكر بهذا الصدد، أن اللغة

الأكادية كانت خلال هذه الفترة لغة المخاطبات الدبلوماسية، بينما كتب أهالي رأس شمرا (أوغاريت) النصوص الاقتصادية والدينية بالأبجدية الأوغاريتية، وهي فرع من اللغات السامية الشمالية الغربية. ويرى بعض العلماء (Paradee 1997a; 1997b) أن الأوغاريتية ربما تكون إحدى اللهجات الأمورية، وهي قريبة من اللغة العربية. وللحقيقة، فإن المختصين والدارسين لأرشيف رأس شمرا لم ينتهوا حتى الآن من دراسة جميع الأمور المتعلقة بالنصوص المكتشفة، نظرًا لعددها الكبير، إلا أن كتبًا وأبحاثاً عديدة نشرت حولها، تركزت غالبيتها في مجلة ألمانية خصصت لهذا الغرض، هي: Ugarit-Forschung، أي "أبحاث أوغاريتية".

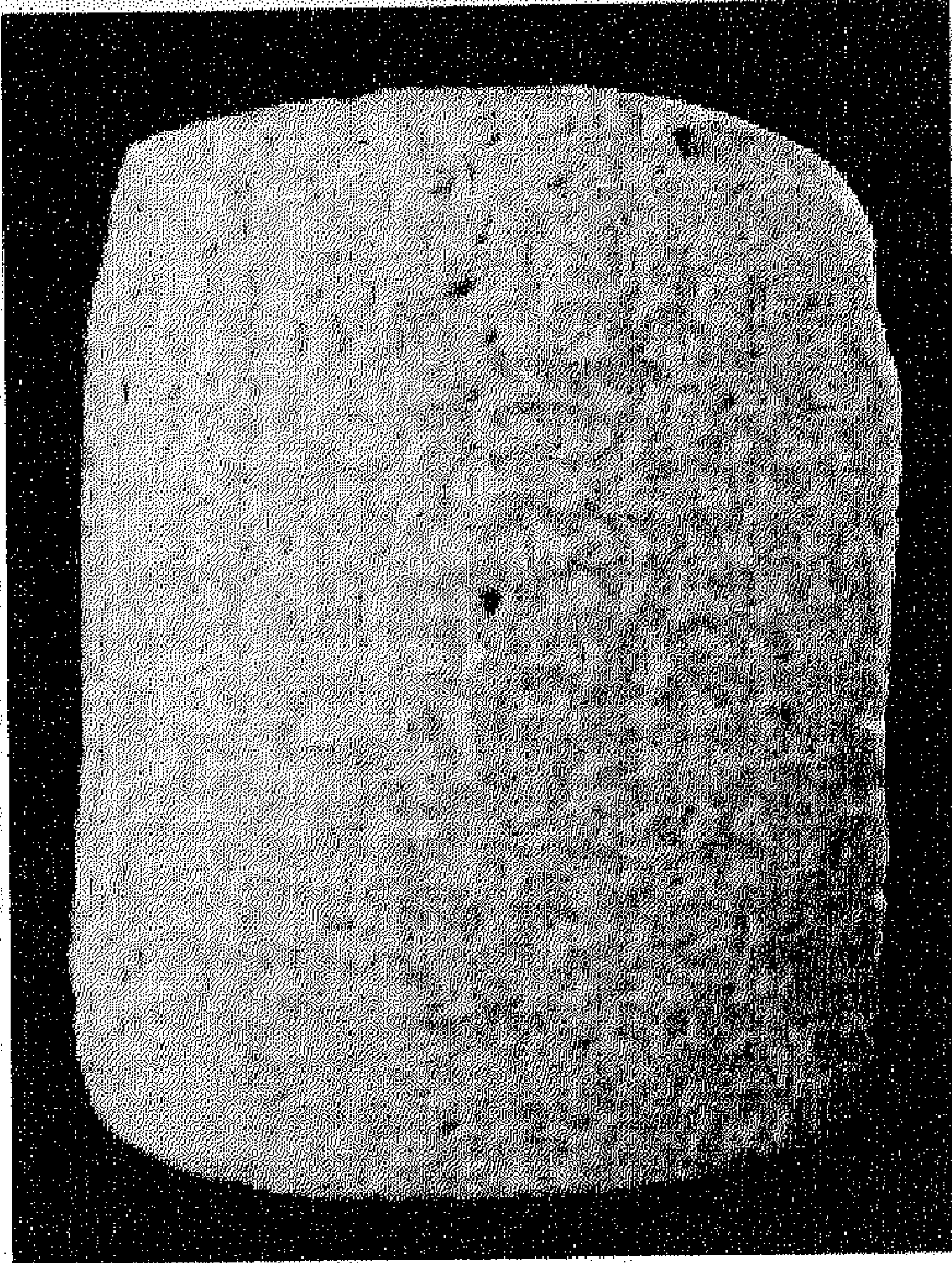
ومن المواقع الشامية الأخرى التي تؤرخ للعصر البرونزي المتأخر، والتي عثر فيها على نصوص مكتوبة، موقع كامد اللوز في البقاع اللبناني، حيث كشفت البعثة الألمانية عن عدد من الرقم المنقوشة بالخط المسماري (Edzard 1970). كذلك وجدت في مواقع بانياس، والنبي مند (قادش)، ومسكنة (إيمار) نصوص مكتوبة بالخط المسماري لكنها تعود في معظمها إلى أواخر العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1300-1200 قبل الميلاد).

وخلال العصر البرونزي المتأخر، سيطر الفراعنة المصريون على معظم بلاد الشام (Gardiner 1974)، بينما سقطت المنطقة الواقعة إلى الشمال من حلب بأيدي الحثيين حكام بلاد الأناضول. وظهر ذلك الأمر جليًا في الكتابات والنصوص التي عثر عليها في كلا البلدين، لكن المصرية منها جاءت أكثر عددًا، وأغنى بالمعلومات. ومن أهم الوثائق المصرية المكتوبة التي خصت بلاد الشام بالذكر، رسائل تل العمارنة (الشكل 4)، وقوائم الملوك الطوبوغرافية.

عثر على رسائل تل العمارنة عام 1887 في موقع تل العمارنة، والذي كان عاصمة للفرعون المصري أخناتون أمنحوتب الرابع، أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة. وكانت هذه الرسائل منقوشة بالخط المسماري الأكادي، ويزيد عددها على أربعمائة رسالة. وهذه الرسائل مرسلة من أمراء وحكام المدن الكنعانية إلى الفرعون المصري، يطلبون فيها النجدة، والعون، والمساعدة ضد أعدائهم، إلا أنه لم يستجب لهم، نظرًا إلى قلة عنايته بالأمور العسكرية، وانصرافه إلى الأمور الدينية. وإذا كانت المعلومات الواردة في هذه الرسائل تدلنا، غالبًا، على الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية التي كانت سائدة في بلاد الشام آنذاك، إلا أنها توضح، أيضًا، عدم اهتمام الفرعون

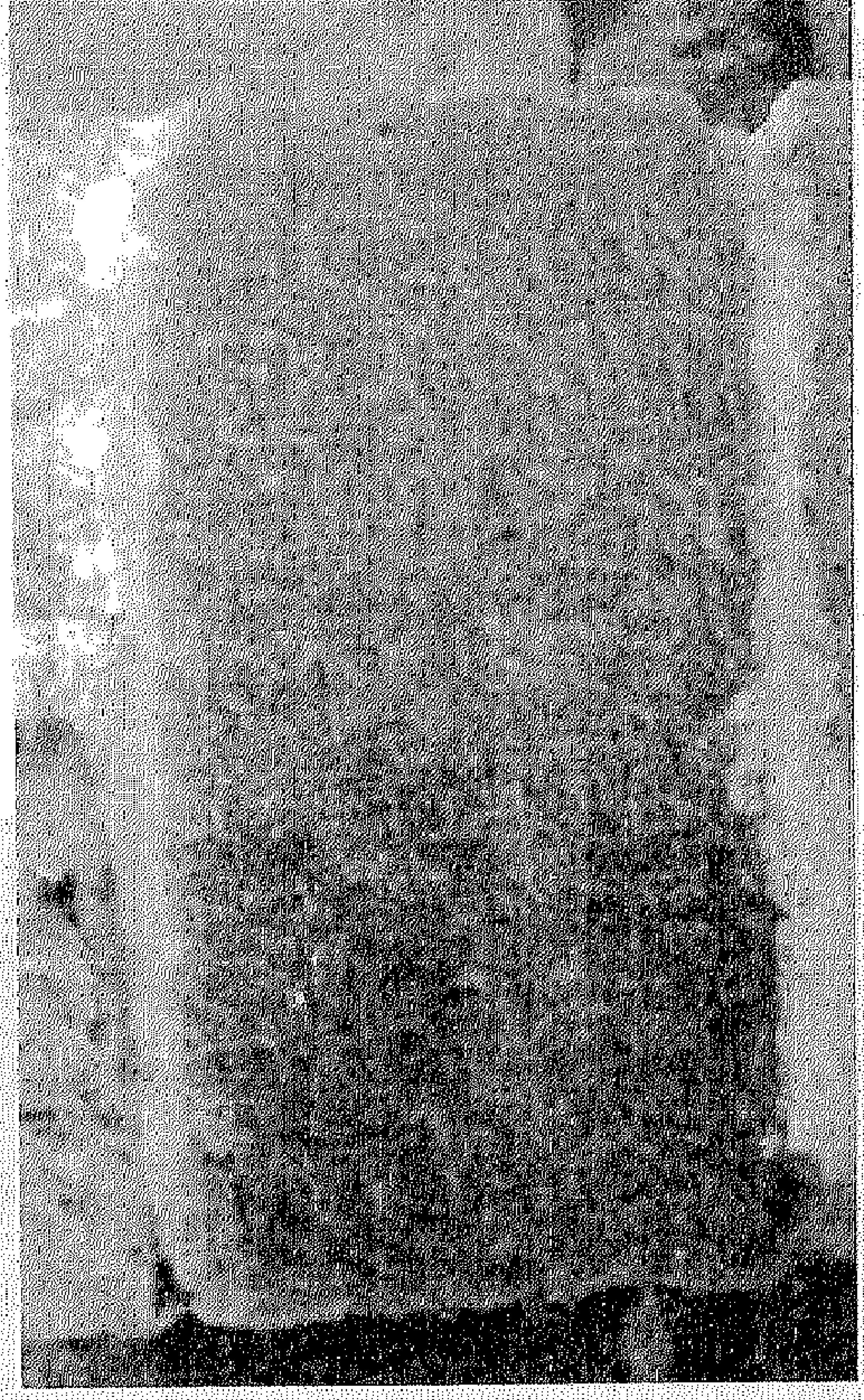
المصري بما كان يجري ببلاد الشام خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد (Albright 1966).

أما القوائم الطوبوغرافية؛ فتذكر أسماء المواقع والأماكن التي احتلها، أو مر بها الفراعنة في أثناء تسيير حملاتهم العسكرية على بلاد الشام. فعلى سبيل المثال، جرد الفرعون تحتموس الثالث حوالي سبع عشرة حملة عسكرية في الفترة التي حكم مصر خلالها، والتي تبدأ حوالي 1468 قبل الميلاد، وتنتهي حوالي 1436 قبل الميلاد، وكذلك فعل فراعنة آخرون (Wilson 1955).



الشكل 4: إحدى رسائل تل العمارنة رسالة الملك رب عدي ملك جبيل (عن كتاب كنوز سورية القديمة)

وإضافة لتلك المصادر والوثائق الكتابية، ترك المصريون أثناء سيطرتهم على بلاد الشام كثيرًا من الآثار، منها المسلات المنقوشة، حيث عثر على مسلة في بيسان (Wilson 1955)، وأخرى (الشكل 5) اكتشفت حديثاً في بلدة الطرة بالرمثا في شمالي الأردن (كفافي 2007)، وتؤرخ كل منهما إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة المصرية التي حكمت بين حوالي 1300-1200 قبل الميلاد. وبالطبع، فإن النصوص المنقوشة على مسلة بيسان تشير إلى سيطرة المصريين على المنطقة، خاصة أن النص المنقوش يعنى بانتصارات الفرعونين سيتي الأول ورمسيس الثاني.



الشكل 5: مسلة بازلتية مبنية في مقام الشيخ خليل في الطرة بشمالي الأردن (تصوير يوسف الزعبي)

ومع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وفي حوالي 1200 قبل الميلاد تحديداً، تعرضت بلاد الشرق الأدنى القديم عموماً، ومنها بلاد الشام، إلى متغيرات سياسية كبرى نشأ عنها اختفاء نظام دويلات-المدن الشامية، وسقوط الإمبراطوريات العظمى في بلاد الرافدين ومصر والأناضول. وعوضاً عنها، نشأ في بلاد الشام عدد من الدول أو الدويلات، كانت في معظمها آرامية الأصل، وظهرت آشور كقوة عظمى في المنطقة، وتعرضت مصر لهجمات شعوب البحر، فتراجع نفوذها العسكري في بلاد الشام، خاصة بعد حكم الأسرة الحادية والعشرين. وشكلت جماعة من شعوب البحر، والمعروفة باسم "شعب البلست"، دولة صغيرة على السهل الساحلي الجنوبي الفلسطيني (منطقة عسقلان وغزة حاليًا). وكما يذكر، فإن العبرانيين خرجوا من مصر خلال هذا الوقت. وبدلاً من أن تشكل هذه الأحداث مادة خصبة للكتابة، نجد أنفسنا نفتقر إلى وثائق مكتوبة من الفترة ما بين حوالي 1200-1000 قبل الميلاد، تساعدنا في فهم هذه المرحلة الانتقالية من مجتمع المدينة-الدولة إلى مجتمع دولة الأمة في بلاد الشام. ويعزو بعض العلماء قلة النصوص، والوثائق المكتوبة، إلى المتغيرات التي حدثت في المنطقة، مثل سيطرة

الآراميين على معظم مناطق سورية ولبنان الحالية، وظهور نظام كتابي جديد هو الألفبائية، أي استبدال الخط المسماري المقطعي بالحروف الهجائية. يضاف إلى ذلك استعاضة الكتَّاب عن استخدام الرقم الطينية بمواد أخرى، مثل الجلد أو غيره، وهي مواد معرضة للتلف نتيجة العوامل الطبيعية، على العكس من الصلصال المستخدم سابقًا، والذي يحافظ على ماهيته زمنًا طويلاً.

ولم يختلف حال المصادر الكتابية المصرية عن المحلية في قلة عددها، لا سيما بسبب انشغال الفراعنة زمن الأسرة العشرين بحروبهم مع شعوب البحر. فقد عثر في مدينة هابو على رسوم منحوتة لسفن، تبدو فيها شعوب البحر منشغلة بحربها مع سفن الفرعون رمسيس الثالث (Gardiner 1974, Fig. 11).

أما فيما يخص بلاد الشام من مصادر مكتوبة؛ فثمة نصان، الأول وثيقة من زمن الفرعون المصري مرنبتاح، تدعى "بردية أنستازي"، وتذكر فيها قبائل بدوية من جنوبي الأردن وفلسطين (حاليًا) تسبب إزعاجًا لمصر، وتدعى هذه القبائل بحسب الوثيقة "شاسو" (Herr and Najjar 2001: 323). أما الثاني؛ فهو نص أدبي لقصة تنسب إلى شخص مصري اسمه ونأمون، كان قد بعثه الفرعون لإحضار أخشاب من لبنان. لكن وللمرة الأولى، نجد حاكمًا لمدينة جبيل، وهو زكر- بعل، يرفض إرسال الأخشاب أو تسليمها لمبعوث الفرعون دون مقابل. ويدل هذ النص الأدبي العائد للقرن الحادي عشر قبل الميلاد على ضعف مصر، وتغير طبيعة العلاقات التي سادت بين مصر وجبيل وتوترها لا سيما في هذه الفترة (Pritchard 1969).

وبعد انتهاء سيطرة الحثيين على شمالي بلاد الشام نتيجة تدمير إمبراطوريتهم على يد شعوب البحر، ساد المنطقة فراغ سياسي استغله الآشوريون في شن حملات عسكرية عليها. وتؤكد ذلك الكتابات من عهد الملك تيجلات بلاصر الأول (1114-1076 قبل الميلاد) والملك آشور- بيل كالا (1073-1056 قبل الميلاد) (Weidner 1957-1958).

ونتيجة قلة المعلومات المكتوبة المتاحة حول بلاد الشام في القرنين الأخيرين من الألف الثاني قبل الميلاد، وجد بعض المختصين ضالتهم في كتاب العهد القديم، لا سيما أن التوراتيين يعتقدون بخروج العبرانيين من مصر خلال تلك الفترة، والذي تزامن مع هجوم

شعوب البحر على مصر، وتشكيل دولة لهم في الجزء الجنوبي من الساحل الفلسطيني (Kitchen 1992).

وفي الفترة ما بين حوالي 1000-539 قبل الميلاد، انقلب الحال على سابقه. فبالإضافة إلى الكتابات الآشورية والبابلية والمصرية؛ نجد كثيرًا من الوثائق المكتوبة المحلية التي تزودنا بمعلومات هائلة حول بلاد الشام في الفترة التي تسمى "العصر الحديدي الثاني". فقد ظهرت خطوط، وكتابات، ولهجات محلية متعددة، منها الآرامية، والعبرية والفنيقية، والعمونية، والمؤابية، والإدومية. كذلك لوحظ أن الكتابة بالخط المسماري لم تعد سائدة أو مستخدمة في بلاد الشام كما كان عليه الحال في العصور البرونزية. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على الاستقلالية التي انتشرت فوق تراب بلاد الشام وإن كانت دولها قد خضعت أو دفعت الجزية إلى آشور، أو إلى بابل من بعدها. كما يشير استخدام خطوط كتابية جديدة إلى استقلالية ثقافية، وفكرية، ودينية كذلك.

أما في المنطقة المجاورة للحدود التركية-السورية الحالية؛ وبعد انهيار دولة الحثيين استخدم الناس كتابة سميت بالهيروغليفية-اللوفية (الحثية). وكانت هذه اللغة مستخدمة في الأساس خلال منتصف الألف الثاني قبل الميلاد في جنوبي الأناضول. وتتمحور موضوعات النقوش التي خُطت بتلك اللغة حول الإنجازات التي حققها حكام الدويلات السورية-الحثية في المنطقة. وقد عثر على عدد من تلك النقوش في مواقع جرابلس (كركميش)، وفي مناطق العمق، وحلب، وحماة، وتل أحمر (تل بارسيب) (كلينغل 1998: 211).

أما في الأردن، فمن أهم الوثائق المكتوبة التي عثر عليها، والتي تؤرخ إلى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، نقش بلعام المؤرخ للقرن التاسع قبل الميلاد (الشكل 6 أ-ب) الذي عثر عليه في تل ديرعلا في وادي الأردن (Hoftijzer and Van der Kooij 1976). وكذلك مسلة الملك المؤابي ميشع، والمؤرخة أيضًا للقرن التاسع قبل الميلاد، وفيها يتحدث النص عن انتصارات الملك المؤابي على آحاب بن عَمري ملك إسرائيل (Dearman 1989). كما عثر على قارورة برونزية في موقع تل سيران/ عمان، تحمل نقشًا عمونيًا أرخ إلى القرن السادس قبل الميلاد (Thompson and Zayadine 1973). إضافة لهذا، وجد عدد آخر من النقوش والكتابات الآرامية، والعمونية، والمؤابية، والفنيقية (كفافي 2006).



6أ



6ب

الشكل 6 أ-ب: أجزاء من نقش بلعام بن بعور، دير علا/ الأردن، القرن التاسع قبل الميلاد (من Gerrit Van der Kooij)

كما كشف في فلسطين عن عدد لا بأس به من النصوص المكتوبة، من أهمها نقش تل القاضي بشمال فلسطين، والذي اكتشف عام 1993، وهو منقوش بالآرامية على حجر بازلتي مؤرخ إلى ما بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد. ويتحدث هذا النقش عن انتصار الآراميين على الإسرائيليين، وتزداد أهميته، إذ يذكر فيه بيت داوود (Biran and Naveh 1993; 1995)، علمًا أن بعضًا من العلماء يشكك في أصالة هذا النقش.

ومن تلك النصوص المهمة كذلك، نقش سلوان الذي عثر عليه منقوشًا على جدار النفق الذي يربط بين بركة سلوان وشرقي القدس، وفيه نص نقش بالخط العبري، وينسب إلى عهد الملك الإسرائيلي حزقيا (نهاية القرن الثامن قبل الميلاد). ويصف هذا النقش عملية حفر النفق حينما أشرفت على نهايتها، وسمع العاملون أصوات طرق معاول بعضهم بعضًا، لذا، فإنه لا يقدم أية معلومات أساسية حول فلسطين في هذه الفترة، بقدر ما يعطي فكرة حول الأعمال الإنشائية فيها، وطرق جلب المياه إلى داخل مدينة القدس (Guthe 1882; Sasson 1982). وإلى جانب تلك النقوش التي عثر عليها في الأردن وفلسطين، ثمة عدد كبير من الكسر الفخارية التي كتبت عليها نصوص سامية شمالية غربية، إضافة إلى عدد كبير من الأختام، وطبعات الأختام، والأختام الأسطوانية، والسدادات. وتشير الكتابات على تلك اللقى إلى أسماء أعلام، أو إلى مضامين اقتصادية ودينية (Aufrecht 1989; Avigad and Sass 1997).

وتعد الكتابات والنقوش الآشورية مصدرًا وثائقيًا مهمًا للتعرف على الأحداث التي جرت في بلاد الشام خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. فمع مطلع هذه الألفية جرد الآشوريون حملات عسكرية على المناطق الشمالية، منها الحملات التي شنها الملكان أدد- نيراري الثاني (911-891 قبل الميلاد) وتوكلتي- ننورتا (890-884 قبل الميلاد) على الآراميين سكان حوض الفرات الأوسط. كما ذكرت حوليات الملوك الآشوريين، وغيرها من النصوص الكتابية الآشورية، عددًا من أسماء الأعلام من منطقة جنوبي البلاد، منها الاسم العموني "بعشا بن روحوبي" الذي ذكر اسمه على المسلة السوداء المؤرخة للملك الآشوري شلمناصر الثالث (858- 824 قبل الميلاد) (Zayadine 1974; Millard 1992)، إضافة إلى أسماء كل من شانيبو ملك عمون، وسلمانو ملك مؤاب، وقوس-ملك، ملك إدوم في نقش من عهد الملك تيجلات بلاصر الثالث (744-727 قبل الميلاد) (Oppenheim 1955: 282). وقد تكرر ذكر تلك الأسماء، وأسماء أخرى غيرها، في نقوش من زمن الملكين سنحاريب (704- 681 قبل الميلاد)، وآشور- بانيبال (668- 663 قبل الميلاد).

ولا بد من الإشارة إلى النصوص المكتوبة التي تتحدث عن الحملات الآشورية على فلسطين، مثل تلك التي قام بها الملك شلمناصر الرابع (726- 722 قبل الميلاد) على مدينة السامرة، وتدمير دولة إسرائيل وسبي أهلها على يد الملك أسرحون الثاني.

ومن النصوص الأخرى التي عثر عليها في فلسطين، نقشان يعودان إلى العصر الآشوري الحديث، والذي يبدأ مع نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، عثر عليهما في موقع تل الجزر بالقرب من مدينة الرملة (Schwartz 1990; Reich and Brandl 1985). كما تجدر الإشارة إلى الكتابات الفنيقية التي عثر على معظمها، إن لم يكن جميعها، في مواقع لبنانية، ومن أهمها نقش تابوت الملك الفنيقي أحيرام، والذي يعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد. كما كشفت كتابات فنيقية أخرى، نقشت على حجارة وشواهد قبور، عثر على معظمها في مدينتي جبيل وصيدا (Donner and Röllig 1976; Guzzo 1997).

أما فيما يتعلق بكتاب العهد القديم؛ ففيه مرويات تشير إلى أحداث جرت في بلاد الشام، مثل الحروب مع آشور وآرام-دمشق، والعلاقات الطيبة بين مملكة إسرائيل ومدينة صور الفنيقية، إلا أن تلك المرويات وغيرها، كتبت في فترة متأخرة جدًا عن زمن حدوثها، لذا فإنها لن تكون، بأي حال من الأحوال، مصدرًا أساسيًا في إعادة كتابة تاريخ بلاد الشام.

من الصعب وضع جدول زمني موحد لبلاد الشام، نظرًا لتفاوت طبيعة التطورات الحضارية وتسارعها من منطقة إلى أخرى. وقد أثر التنوع البيئي والجغرافي في تحديد مسار تلك التطورات، إضافة إلى تأثر بلاد الشام بما جاورها من حضارات؛ ففي الشرق بلاد الرافدين، وفي الغرب البحر المتوسط، وفي الشمال بلاد الأناضول، وفي الجنوب شبه الجزيرة العربية. كما أن خطوط التماس بين هذه الحضارات من جهة وبلاد الشام من جهة أخرى، كانت تقرب أو تبعد بحسب موازين القوى للحضارات المجاورة.

وقد اختلف الآثاريون في كيفية وضع جدول زمني ما، من حيث الأسس الواجب اعتمادها في ذلك؛ فمنهم من اتخذ التوزيع الجغرافي للقى الأثرية، واختلاف أشكالها، وتعدد طرق صناعتها أساسًا لذلك، في حين رأى آخرون ضرورة اعتماد تسلسل الطبقات الأثرية التي يعثر فيها على تلك اللقى. أما فيما يتعلق بعصور ما قبل التاريخ، فإن من الصعب تحديد جدول زمني دقيق إلى حد ما، دون استخدام التقنيات العلمية الحديثة (كفافي 2004).

وكانت معرفتنا بآثار عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية زادت بشكل مضطرد عما كانت عليه سابقًا، وذلك نتيجة التوسع في مشاريع التنقيبات الأثرية في منطقة واسعة من بلاد الشام، شملت مواقع تعود إلى عصور مختلفة. كما استندت معرفتنا بعصور ما قبل التاريخ إلى التقنيات العلمية الحديثة التي أسهمت في تأريخ المواقع على نحوٍ أفضل. فعلى سبيل المثال، اعتقد الباحثون في ثلاثينات القرن المنصرم أن الثقافة الناطوفية هي ثقافة فلسطينية محلية، أما الآن؛ فقد ثبت، استنادًا إلى التقنيات الحديثة، أنها تمتد من حلوان في مصر إلى أعالي نهر الفرات. وما يقال عن الناطوفية ينسحب على الخيامية الفلسطينية التي اكتشفت قبل عدة سنوات في مواقع كرمز ديره ونمريك بشمالي العراق.

ومن الملاحظ أن الأدوات التي عثر عليها في بلاد الشام في مواقع تعود إلى عصور ما قبل التاريخ تتشابه في أشكالها وطرق تصنيعها تشابهًا كبيرًا. كما توزعت القرى زراعية الأولى في معظم مناطق بلاد الشام، مثل حوض الفرات الأوسط، ووادي الأردن، ووادي عربة. وعلى الرغم من أن المنقبين قد لاحظوا خصوصيات محلية في بعض المناطق، من

حيث طرق البناء ومواده، إلا أن الإطار العام للنواحي الاقتصادية والاجتماعية تشابه إلى حدٍ كبير. واستمرت هذه الوحدة الحضارية حتى منتصف الألف الخامس قبل الميلاد حين سيطرت حضارة حلف على شمالي بلاد الشام، وجنوبي الأناضول، وشمالي الرافدين فاتخذت هذه المنطقة طابعًا خاصًا بها، إلا أنها بقيت على اتصال بجنوبي بلاد الشام. وحاول بعض المختصين البحث في هذه الصلات، وذلك بدراسة بعض أشكال الآنية الفخارية المؤرخة للعصر الحجري النحاسي (Kaplan 1960).

أما في العصور التاريخية، ومع بداية العصور البرونزية؛ فنجد أن منطقة حوض الفرات الأوسط الجزيرة السورية ترتبط ارتباطًا مباشرًا بجنوبي بلاد الرافدين. وثبت أن السمات الحضارية للمادة الأثرية المكتشفة متأثرة بما كان يجري في بلاد الرافدين، وأنها ابتعدت في صفاتها عن تلك المكتشفة في جنوبي بلاد الشام. أما جنوبي بلاد الشام؛ أي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من جبيل في لبنان، فنجد أن الآثار المكتشفة فيها تأخذ بعضًا من سمات الحضارة المصرية القديمة. لذا، نجد بدءًا بمنتصف القرن الرابع قبل الميلاد اختلافًا في الصبغة الحضارية بين منطقتي شمالي بلاد الشام وجنوبيها. وقد يساعد أرشيف تل مرديخ، المؤرخ لحوالي 2400 قبل الميلاد، في تزويدنا بمعلومات حول النواحي الاقتصادية أكثر من السياسية.

لكن الوضع اختلف خلال العصر البرونزي المتوسط، حين ظهرت الممالك الأمورية في المنطقة الشرقية والوسطى لبلاد الشام، وسيطر الكنعانيون على أغلب منطقة الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وعلى الرغم من تعدد المدن، إلا أن ثمة سمات عدة بقيت مشتركة فيما بينها، مثل طرق التحصينات، وبعض الشبه في الصناعات الفخارية والمعدنية. وتساعدنا المصادر التاريخية المكتشفة سواء في بلاد الشام، خاصة في شمالها، وفي بلاد الرافدين على بناء جدول زمني خلال العصر البرونزي المتوسط. ويبين الجدول 1 أهم الممالك والمواقع المتعاصرة في جميع بلاد الشام.

العصر	فلسطين	سورية	مصر	العراق
العصرالبرونزي المتوسط الثالث MBIII حوالي 1550-1650 قبل الميلاد	- تل المتسلم: الطبقات IX-X القبور 1100 و49. - بلاطة: XVI-XV - تل بيت مرسيم: D - أريحا: المجموعة V	- ألالاخ (تل العطشانة) الطبقه VI	المرحلة الانتقالية الثانية الأسرات 14-17 (حكم الهكسوس) 1650 -1550 قبل الميلاد	الأسرة الكاشية الأسرة البابلية الأولى
العصرالبرونزي المتوسط الثاني (MBII) حوالي: 1650-1800 قبل الميلاد	تل المتسلم XII-XI بلاطة XX-XVII تل بيت مرسيم E2 أريحا: المجموعات-II-IV تل القدح: الطبقه 3	- ألالاخ (تل العطشانة) الطبقه VII تل الحريري: الملكان حمورابي وزمري ليم تل العطشانة: الملك ياريم- ليم حلب: الملك أبا II	الدوله الوسطى الأسرة 13 (حوالي 1785 -652 قبل الميلاد)	الدولة البابلية (حمورابي حوالي 1792 -1750 قبل الميلاد) شمشي- أدد
العصرالبرونزي المتوسط الأول (MBI) حوالي 2000- 1800 قبل الميلاد	- تل المتسلم XIII - بلاطة XXI - تل بيت مرسيم: G-F - أريحا: المجموعة I	-	- الدولة الوسطى الأسرة 12 (حوالي 1991 -1785 قبل الميلاد)	دولتا إيسين ولارسا

جدول 1: جدول زمني لبلاد الشام وعلاقاتها ببلاد الرافدين في العصر البرونزي المتوسط (عن كفافي 2006)

ولا بد من تأكيد مدى ارتباط منطقة شمالي بلاد الشام ببلاد الرافدين خلال العصر البرونزي المتوسط. وتعد علاقة تل الحريري ببابل وآشور، ودوره كوسيط بين مناطق بلاد الشام وجنوبي الأناضول مع بلاد الرافدين أكبر دليل على ذلك. أما منطقة جنوبي بلاد الشام؛ فيظهر أنها تمتعت بنوع من الحكم الذاتي، لكنها حافظت على علاقاتها التجارية بمصر، حيث عثر على قطع مرمرية وجعلان مصرية في عدد كبير من المواقع. وبالإضافة للعلاقات بمصر، بدأت مع نهاية العصر البرونزي المتوسط علاقات تجارية مع

قبرص. لذا اعتمد الآثاريون في تأريخهم لبعض المواقع على الآثار المستوردة، سواء من مصر أو قبرص، إضافة للكتابات. لكننا يجب أن نوضح أن الآثاريين لا زالوا يتكئون كثيرًا على دراسة الآنية الفخارية، سواء المحلية أو المستوردة، عند بنائهم لجدول زمني، سواء لهذه الفترة، أو للفترات السابقة أو اللاحقة.

ويظهر الجدول 2 أهم المواقع الأثرية بشمالي بلاد الشام وعلاقاتها ببلاد الرافدين.

التاريخ (قبل الميلاد)	العصر	الالاخ	مرديخ	حماة	حمام التركمان	تل الحريري	بابل	آشور
1600	MBIII	الالاخ 7	مرديخ IIIB	-	حمام التركمان VIIC	تل الحريري Hana period		-
1700	MBII	الالاخ 9-8	مرديخ IIIB	حماة H 5-1	حمام التركمان VIIB	-	أسرة بابل الأولى	-
1800	MBI	الالاخ 13-10	مرديخ IIIA	حماة H 5-1	حمام التركمان VIIA	زمري- ليم	بابل حمورابي	آشور شمشي - أدد
1900	MBI	الالاخ 13 -10	مرديخ IIIA	حماة H 5-1	حمام التركمان VIIA	يخدون-ليم	إيسين ولارسا	-
2000	MBI	الالاخ 17-14	مرديخ IIIA	-	-	شكاناكو	إيسين ولارسا	-

جدول 2: الجدول الزمني لشمالي سورية في العصر البرونزي المتوسط

وإضافة لهذا، زودتنا الوثائق والسجلات الأثرية المكتشفة بقوائم لأسماء بعض الملوك والحكام الذين حكموا عددًا من مدن شمالي بلاد الشام. لكننا، للأسف، لا نستطيع أن نقدم أية معلومات مماثلة لمدن جنوبي بلاد الشام، وذلك لغياب المصادر المكتوبة. ويبين الجدول 3 أسماء ملوك بعض هذه الممالك (Heinz 2002).

التاريخ (قبل الميلاد)	تل الحريري (ماري)	قطنا (المشرفة)	جرابلس (كركميش)	حلب (يمحاض)	جبيل (بيبلوس)
1650				ياريم – ليم III	
		–	–	حمورابي II	–
1700					
				إركبتوم	
				نيقميبا	
1750	زمري-ليم				
	(1759 -1782)	أموت- بعل	يخدون – ليم	ياريم- ليم II	ينتينامو
1800		أشدي- أدد	يتار – عامي	أب- بعل	
			أبلاهندا	حمورابي I	أبيشيمو
1950	يسمح – أدد			سمو- إبوخ	
	(1782-1795)				
2000	يخدون- ليم				
	(1810 -1825)			سمو- إبوخ	-

جدول 3: الجدول الزمني لملوك شمالي سورية في العصر البرونزي المتوسط

خلال العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550-1200 قبل الميلاد) اختلفت الأوضاع في بلاد الشام، وخضع شمالها للسيطرة الميتانية والحثية، وجنوبها للسيطرة المصرية؛ فجاء تاريخها على الأغلب مدونًا في سجلات هذه الدول ووثائقها. إن الجدول الزمني لسورية في العصر البرونزي المتأخر غير كامل لعدة أسباب، منها: عدم توفر مجموعات لتواريخ الكربون المشع، وكذلك التشابه الكبير في أشكال وصناعة الآنية الفخارية في كل من العصر البرونزي المتوسط والمتأخر. واعتمد الباحثون في وضع سلم زمني لهذه الفترة في سورية على التطور العمراني والتتابع الطبقي في عدد من المواقع الرئيسية، مثل تل العطشانة وحماة وحمام التركمان. ويرى بعض الباحثين إمكانية تطبيق التقسيمات الزمنية المتبعة في دراسة العصر البرونزي المتأخر في منطقة جنوبي بلاد الشام على

مثيلتها، شمالي بلاد الشام (Akkermans and Schwartz 2003: 331). أي أن تقسّم الفترة إلى ثلاث مراحل زمنية هي: المرحلة الأولى (حوالي 1400-1550/1600 قبل الميلاد) والثانية (حوالي 1300-1400 قبل الميلاد)، والثالثة (حوالي 1200-1300 قبل الميلاد). إن وضع أي جدول زمني لبلاد الشام يعتمد كليًا على الأحداث والمتغيرات السياسية التي جرت فيها خلال العصر البرونزي المتأخر، ويظهر الجدول 4 المتغيرات السياسية التي جرت في مصر، وبلاد الرافدين، وبلاد الأناضول بحسب التسلسل الزمني للمراحل المختلفة التي مرت بها بلاد الشام.

التاريخ	مصر	بلاد الرافدين	الأناضول
العصرالبرونزي المتأخر الثالث LBIII حوالي 1300-1200 قبل الميلاد	الأسرة التاسعة عشرة	- اداد- شوما -أوسور - كودور-إنليل - كاداش إنليل - كاداش مان-تورغو	- شوبليليوما II - أرندوندا III - توذخاليا IV - حاتوشيل III - موتاللي
العصر البرونزي المتأخر الثاني LBII حوالي 1400- 1300 قبل الميلاد	الأسرة الثامنة عشرة (رسائل تل العمارنة)	- كوريغالزو II - كاداش- إنليل - كوريغالزو I	- مورسيل II - أرندوندا II - شوبليوليوما I - توذخاليا III
العصر البرونزي المتأخر الأول LBI حوالي 1600/ 1550-1400 قبل الميلاد	الأسرة الثامنة عشرة (تحتموس الثالث)	أولام بورياش كاشتلياش	- حاتوشيل II - توذخاليا II - خانتللي II - تيليبينو
	↑ الدولة الحديثة	↑ الأسرة الكاشية	↑ الحثيون

جدول 4: جدول زمني يبين الأسرات الحاكمة في مصر، وبلاد الرافدين، والأناضول في العصر البرونزي المتاخر (عن كفافي 2006)

جرى خلال العقود الأخيرة كثير من التنقيبات الأثرية في مواقع تعود إلى العصر البرونزي المتأخر في شمالي بلاد الشام. ورأينا أنه من المهم أن نقدم جدولاً وزعت فيه المواقع حسب المناطق الجغرافية في شمالي بلاد الشام (جدول 5)، وما عاصرها من ممالك وملوك في بلاد الرافدين ومصر.

التاريخ (قبل الميلاد)	غربي سورية				أواسط الفرات	البليخ	الخابور	شمالي الرافدين	مصر
1200	راس ابن هانئ	راس شمرا	تل العطشانة I II			تل الصبي الأبيض	الشيخ حمد "دور-كاتليمو"	توكلتي-نتورتا I شلمناصر I المملكة الآشورية الوسطى	رمسيس II
1300			III		مسكنة "إيمار"		تل براك (القصر والمعبد الميتانيان)	المملكة الآشورية الوسطى	الأسرة 19 أخناتون
1400			IV	حماة G3-1		حمام التركمان VIIIB		مملكة ميتاني	
									تحتموس III
1500			V			حمام التركمان VIIIA			الأسرة 18
1600			VI						

جدول 5: الجدول الزمني لسورية في العصر البرونزي المتأخر

في حوالي 1200 قبل الميلاد، تغيرت الخريطة السياسية لبلاد الشام نتيجة لتحطم الإمبراطوريات المجاورة لها، وانتهاء سيطرتها عليها، والتي حل مكانها عدد من الدول المحلية، مثل الآرامية والفنيقية. وعلى الرغم من أن العلماء قسموا العصر الحديدي إلى مرحلتين رئيستين: الأولى 1200-1000 قبل الميلاد، والثانية 1000-586 قبل الميلاد، إلا أنه من الصعب وضع جدول زمني موحد لبلاد الشام، إذ تمتعت كل دولة من هذه الدول بسجلها السياسي والتاريخي منفصلاً عن بلاد الشام الأخرى، لكنها كانت تتوحد في مواجهة عدو مشترك كالآشوريين مثلاً. وكما تبين سابقًا، فإن المصادر المكتوبة والمؤرخة للمرحلة الأولى من العصر الحديدي تصمت عن الحديث عن جنوبي بلاد الشام خاصة. لذا وجد بعض الباحثين الحل في دراسة النصوص التوراتية لبناء جدول زمني لهذه المرحلة. لكن غنى المصادر التاريخية من المرحلة الثانية جعل من السهل على الباحثين وضع قوائم بأسماء ملوك ممالك بلاد الشام على اختلافها. ونظرًا لتعدد الممالك وكثرة الملوك رأينا ألا نوردها في هذا الكتاب، وأن نترك للقارئ أمر تتبعها في مصادر أخرى.

ولتسهيل الأمر على القارئ، نورد فيما يلي جدولاً زمنيًا يبين الفترات الزمنية المختلفة التي مرت بها بلاد الشام بمنطقتيها الشمالية والجنوبية، مع توضيح التطورات الحضارية، وأهم الإنجازات التي حصلت في كل فترة (جدول 6).

التاريخ التقريبي (قبل الميلاد)	العصر	شمالي بلاد الشام	جنوبي بلاد الشام	ملاحظات
332 539	الفارسي	الفارسي	الفارسي	سيطرة الأخمينيين على بلاد الشام. أعاد قورش وقمبيز المنفيين إلى بابل إلى فلسطين.
539 586	البابلي المتأخر	البابلي المتأخر	البابلي المتأخر	السيطرة البابلية على بلاد الشام، سقوط القدس بيد نبوخذنصر، وسبي أهلها إلى بابل.

التاريخ التقريبي (قبل الميلاد)	العصر	شمالي بلاد الشام	جنوبي بلاد الشام	ملاحظات
586- 1200	العصر الحديدي: - الثاني - الأول	العصر الحديدي	العصر الحديدي	ظهور دولة الأمة وتأسيس الممالك الآرامية والفنيقية، والعبرانية، والبلستية، والعمونية والمؤابية، والإدومية. أصبحت الآرامية اللغة الرئيسية، كما أدخل الفنيقيون الأبجدية. غزا الآشوريون بلاد الشام أكثر من مرة، ودفعت ممالكها الجزية لهم. سقوط السامرة على يد الملك سرجون الثاني.
1200 1500	العصر البرونزي المتأخر: - الثالث - الثاني - الأول	العصر البرونزي المتأخر	العصر البرونزي المتأخر	تقاسم السلطة على بلاد الشام بين المصريين والحثيين. ظهور الدولة الميتانية والمملكة الآشورية الوسطى. ساد نظام دويلات المدن في بلاد الشام.
1500 2000	العصر البرونزي المتوسط: - الثالث - الثاني - الأول	العصر البرونزي المتوسط	العصر البرونزي المتوسط	استقرار الأموريين، وتأسيسهم ممالك في شمالي بلاد الشام (يمحاض، تل الحريري). أسس الكنعانيون ممالك لهم في وسط بلاد الشام وجنوبيها (مثل تل وقاص، وتل المتسلم). تعرضت منطقة شمالي بلاد الشام لغزوات البابليين، ثم الحثيين.
2000 3500	العصر البرونزي المبكر: - الرابع - الثالث - الثاني - الأول	العصر البرونزي المبكر (حبوبة كبيرة جبل عرودة تل براك تل ليلان العمق H +G حماة -5 K 1 تل خويرة تل الحريري تل مرديخ جبيل صيدا	العصر البرونزي المبكر (جاوة الزيرقون باب الذراع البتراوي تل المتسلم تل عراد أريحا)	بداية التمدن، وظهور مراكز حضارية/المدن. أصبحت حضارة منطقة حوض الفرات الأوسط والجزيرة السورية أقرب إلى جنوبي بلاد الرافدين منها لجنوبي بلاد الشام. بداية الكتابة (حبوبة كبيرة). استخدام الأختام الأسطوانية. ظهور وحدات سياسية (مثل تل الحريري وتل مرديخ وتل ليلان في الشمال؛ وخربة الزيرقون، وجاوة، وتل المتسلم، وتل عراد في الجنوب). هجوم أكاد على منطقة الفرات الأوسط، وانتشار التأثيرات الرافدية الجنوبية فيها، خاصة زمن أسرة أور الثالثة.

التاريخ التقريبي (قبل الميلاد)	العصر	شمالي بلاد الشام	جنوبي بلاد الشام	ملاحظات
3500		عبيد + الوركاء (رأس شمرا IIIB العبر 5- 2 ليلان IVB تبه غورا XIII +XII تل براك حمّام التركمان العمق F)	العصر الحجري النحاسي (مواقع النقب في فلسطين، وتليلات الغسول وأبو حامد وحجيرة الغزلان والمقص في الأردن)	استخدام معدن النحاس. نشوء مستقرات كبيرة قائمة على الزراعة. حرف يدوية. امتدت حضارة الوركاء على طول ساحل البحر المتوسط الشمالي.
4500	العصر الحجري النحاسي العصر الحجري الحديث الفخاري	سامرا + حلف + عبيد (رأس شمرا IIIC العمق E العبر 17- 10 تبه غورا XVII – XIX.	اليرموكية، أريحا الفخاري أ، ب؛ وادي رباح (أريحا القحوانة أبو الثواب عين غزال أبو حامد)	تصنيع الآنية الفخارية. انتشار الزراعة فوق مناطق متعددة، اعتمد بعضها على الري. انتشار حضارة حلف عند منابع نهر الخابور.
6000	العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار	العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار	العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار	الاستقرار الدائم في القرى. إنتاج الطعام ومعرفة الزراعة، ومن بعدها تدجين الحيوان. مجتمع ذو سلطة.
8.500	المرحلة الانتقالية بين المجتمعات الصيادة والمتنقلة والمنتجة والمستقرة 2. الناطوفية	المرحلة الانتقالية	المرحلة الانتقالية	بدأ الناس يضعون اللبنات الأولى للاستقرار الدائم/ قرى الصيادين. اختص الناس بأكل أنواع محددة من النبات والحيوان. شيوع استخدام الأدوات الصوانية الدقيقة والصغيرة.
17.000	1. الكبارية.			

التاريخ التقريبي (قبل الميلاد)	العصر	شمالي بلاد الشام	جنوبي بلاد الشام	ملاحظات
17.000 مليون	العصور الحجرية القديمة: - العصر الحجري القديم الأعلى - العصر الحجري القديم الأوسط - العصر الحجري القديم الأسفل	العصور الحجرية القديمة	العصور الحجرية القديمة	أول ظهور لإنسان هومو- إركتوس (العبيدية/فلسطين، والندوية/سورية)، تبعه إنسان نياندرتال (الطابون في فلسطين). ومن بعده، جاء الإنسان العاقل (هومو-سابينس). عاش الإنسان متنقلاً، واعتمد الالتقاط والجمع والصيد في معيشته.

جدول 6: الجدول الزمني لبلاد الشام منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى مجيء الإسكندر المكدوني

الفصل الثالث

العصور الحجرية القديمة

مجتمعات الصيد والالتقاط

الفصل الثالث

العصور الحجرية القديمة: مجتمعات الصيد والالتقاط

أ. العصور الحجرية القديمة Palaeolithic

تعد مرحلة التنقل والجمع والالتقاط والصيد أطول مرحلة عاشها الإنسان منذ أن وجد على وجه الأرض. لذا، شغل كثير من العلماء والباحثين المختصين بعصور ما قبل التاريخ، لا سيما في العالم الغربي، بمعرفة طبيعة تطور حياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والفكرية عبر عصور امتدت لأكثر من مليون عام. ولتحقيق ذلك، ونظرًا لغياب الشواهد الكتابية في ظل عدم معرفة الإنسان الكتابة في ذلك الوقت؛ أصبح لزامًا على الباحثين التحول لعلوم أخرى تساعد في تفسير الآثار المؤرخة لتلك العصور. ومن أهمها دراسة البيئات القديمة، والجيولوجيا، وعلوم الحيوان والنبات القديم. ونتيجة لهذه الدراسات، جرى وضع عدد من الأسئلة في محاولة للإجابة عليها وإيجاد تفسيرات لها. فمثلاً، كي يتعرف الدارسون إلى نوعية الغذاء النباتي والحيواني، لا بد من توفر عينات، قد يكون بعضها متحجرًا. وإذا ما عرف نوع الحيوان أو النبات؛ فإنه يصبح دالاً على البيئة التي وجد فيها الإنسان، لأن لكل نوع من النبات أو الحيوان بيئة خاصة تصلح لأن يعيش فيها. وهكذا، فإن دراسة طبيعة مجتمعات الصيد والالتقاط تتطلب تضافر عدة علوم كي نتوصل إلى المعرفة بها، حتى وإن كانت نسبية.

يطلق العلماء على الفترة التي سبقت معرفة الكتابة اسم "عصور ما قبل التاريخ"، وذلك لأن الإنسان لم يدون الأحداث التي مرت به. وفي بعض الحالات يطلق عليها اسم "العصور

الحجرية"، وذلك لأن الحجر كان المادة الرئيسة التي استخدمها الإنسان في صنع أدواته في ذلك الوقت، والتي وصلتنا حتى الآن. وترتبط بداية العصور الحجرية باستخدام الحجر أداة، والبداية تختلف زمنيًا من منطقة لأخرى، وإن كان أقدمها حتى الآن قد جاء من قارة إفريقيا. وتنتهي العصور الحجرية بمعرفة الناس للكتابة، والتي جاء أقدمها من بلاد الرافدين ومصر، ويعود إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

وإذا كانت النهاية معروفة بتاريخ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، فإن الاكتشافات الحديثة تجعلنا نغير بداية العصور الحجرية مع كل اكتشاف أثري جديد، كان آخرها من دولة تشاد في إفريقيا، ويعود لحوالي سبعة ملايين سنة. علمًا أن تواريخ سابقة تعود لحوالي ستة ملايين جاءت من جنوبي إفريقيا، وأخرى من صدع أولدوان في تنزانيا في شرقي إفريقيا، وتعود لحوالي مليوني سنة. واستنادًا إلى ذلك، فإن أقدم المخلفات الإنسانية التي وصلتنا حتى الآن عثر عليها في قارة إفريقيا.

وهنا يبرز سؤال، ما هي طبيعة الإنسان الذي صنع هذه الأدوات؟ وللإجابة على هذا السؤال، أجرى علماء الأنثروبولوجيا العضوية دراسة وتحليلاً لكل العظام البشرية خاصة تلك التي وجدت في المكان نفسه الذي وجدت فيه أدوات صوانية، وخرجوا بإجابة مفادها أن نوعًا من الأنسنة يسمى بـ"هومو-هابيل" Homo-Habilis هو أول من استخدم الحجر أداة. لكن الذي طور شكل الحجر وشذبه وهذبه ليصبح أداة هو الإنسان المعروف باسم "هومو -إركتوس" Homo- Erectus.

وقسم المختصون بعلوم الأرض الأزمنة الجيولوجية إلى سبعة أقسام، وهي من الأقدم فالأحدث: الأيوسين، والمايوسين، والأولوجوسين، والبلايوسين، والبلايستوسين والهولوسين. ويعتقد بأن الناس الذين استخدموا الحجر أداة عاشوا في زمن البلايستوسين، وكان هذا ربما قبل حوالي ثلاثة ملايين سنة، وإن كان التاريخ المعطى من تشاد حاليًا هو سبعة ملايين سنة.

لكن ما علاقة ذلك بمجتمعات الصيد والالتقاط والتنقل التي عاشت في بلاد الشام؟ ومتى كان أقدم ظهور للإنسان في هذه البلاد؟

يقترح العلماء أن الانسان المعروف باسم هومو-إركتوس قد غادر إفريقيا لينتشر في أجزاء أخرى من العالم قبل حوالي مليون ونصف المليون سنة، وأنه كان جامعًا للقوت، وصيادًا

استخدم أدوات بسيطة للصيد. وقد وصل هذا الإنسان إلى بلاد الشام إما عن طريق مصر بعد أن سار بمحاذاة البحر الأحمر من جهته الغربية، أو عبر مضيق باب المندب متجهًا في عدة طرق، يتجه أحدها شمالاً وصولاً إلى بلاد الشام (Whalen and Fritz 2004).

إن معرفة التاريخ الدقيق للأدوات التي استخدمها الإنسان في هذه المرحلة تعد أمرًا في غاية الصعوبة، لذا جاءت التواريخ أقرب إلى النسبية منها إلى المطلقة، على الرغم من أن دارسي عصور ما قبل التاريخ يستخدمون حاليًا تقنيات علمية متقدمة في الحصول على هذه التواريخ. ومن تلك التقنيات، والتي تستند جميعها إلى تحليل العينة والوسائل المخبرية، البوتاسيوم-آرغون، والثوريوم-يورانيوم، والكربون الإشعاعي. كما يعتمد العلماء في تحديد زمن المواقع المؤرخة لهذه المرحلة على دراسة أشكال الأدوات الصوانية وطرق تصنيعها تبعًا للمراحل الزمنية.

وحيث أن أقدم تاريخ لموقع أثري في بلاد الشام، وهو موقع العبيدية في شمالي فلسطين، ويعود لحوالي مليون ونصف سنة، وأن عمر الكتابة يزيد على خمسة آلاف عام بقليل أو كثير، فإننا نجد أن هذه مدة طويلة، لا بد أنها شهدت تطورات حياتية وفكرية وتقنية عديدة. ولا نستطيع مقارنة الفكر الإنساني لإنسان عاش قبل مليون ونصف مليون سنة بمن عاش قبل خمسة آلاف سنة. لذا استطاع العلماء تقسيم العصور الحجرية (ما قبل التاريخ عمومًا) إلى الأقسام أو الفترات الفرعية التالية:

- العصر الحجري القديم Palaeolithic، وهو المرحلة التي عاشت فيها المجتمعات الصيادة والجامعة للقوت، وتؤرخ في بلاد الشام من حوالي 1.5 مليون سنة إلى حوالي 19.000 سنة من الحاضر.

- المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم Epi-Palaeolithic، وهي مرحلة انتقالية بين مجتمعات الصيد والالتقاط والمجتمعات المنتجة للغذاء. وهذا المصطلح يستخدم، غالبًا، في دراسة عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام وحسب. أما في مناطق أخرى من العالم؛ فيطلق على الجزء الأخير منه اسم العصر الحجري الوسيط Mesolithic، ويقابل الثقافة الناطوفية في بلاد الشام، وهي تمثل المرحلة الأخيرة والمتطورة عند مجتمعات الصيد والالتقاط، وتؤرخ للفترة ما بين حوالي 19.000- 10.500 سنة من الحاضر.

- العصر الحجري الحديث Neolithic، وشهدت هذه المرحلة الاستقرار الدائم في قرى عرف أهلها الزراعة أولاً، ثم تدجين الحيوان. وتعد هذه المرحلة متغيرًا رئيسًا في حياة الإنسان، يوازي الثورة الصناعية وثورة التقنيات الرقمية حاليًا. فقد تمكن الإنسان بفعل الاستقرار، ومقدرته على إنتاج الطعام، من التوصل إلى اكتشافات واختراعات مهمة ومن تحقيق تطورات اقتصادية واجتماعية وفكرية في مسيرة التاريخ الإنساني. وتؤرخ هذه المرحلة إلى حوالي ما بين 10.500 -6.500 سنة من الحاضر.

- العصر الحجري النحاسي Chalcolithic، وهو العصر الذي عرف بهذا الاسم في جنوبي بلاد الشام، والذي يقابل ثقافتي حلف والوركاء في شمالي بلاد الشام. ويمتاز هذا العصر بتقدم فكري، ومعماري، وتنوع اقتصادي، وبظهور صناعات جديدة، لا سيما المعدنية منها. وتؤرخ هذه الفترة إلى ما بين حوالي 6500-5500 سنة من الحاضر.

وبما أن موضوعنا في هذا الفصل ينصب على دراسة مرحلة الصيد والالتقاط والجمع، بينما سنتناول الفترات الأخرى في الفصول اللاحقة، وبما أننا نهدف من هذا الكتاب إلى إيصال معلومة بسيطة للقارئ؛ فإننا لن نذهب إلى التفصيل في الحديث عن فترات ما قبل التاريخ في بلاد الشام، خاصة وأننا قد تناولناها بالبحث في دراسات سابقة (كفافي 1990؛ 2000؛ 2005)، بل سنقدم دراسة حول المجتمعات البشرية التي عاشت في بلاد الشام خلال هذه الفترة.

أ. العصر الحجري القديم Palaeolithic

ربما وصل إنسان "هومو-إركتوس" إلى بلاد الشام في حوالي مليون ونصف المليون سنة من الحاضر. إذ ذكر المنقبون في موقع العبيدية، والذي يبعد حوالي 5كم جنوب غربي بحيرة طبرية في فلسطين، أنهم قد عثروا على أدوات حجرية بسيطة الصنع، وعظام حيوانية، أرخت إلى مليون وأربعمائة ألف سنة، وأن صانعها هو الإنسان المعروف بـ"هومو-إركتوس" (Bar-Yosef 1997: 255). وعلى الرغم من هذا التاريخ المقترح لبداية هذه المرحلة في بلاد الشام، إلا أن بعضًا من المختصين لا يقر بذلك، بل يعتقد أنها تعود إلى فترة متأخرة لا تتجاوز المليون سنة (كفافي 2000).

وعلى أية حال، يبدو أن هذا الإنسان، وبعد أن دخل بلاد الشام، أخذ ينتشر في المناطق الجغرافية والبيئات المتعددة فيها، فقد كشفت المسوحات الأثرية عن عدد من المواقع المتباعدة في تاريخها (لكنها تبقى جميعًا ضمن هذه الفترة)، والتي عثر فيها على أدوات تؤرخ للعصر الحجري القديم بمراحله المختلفة (المحيسن 1987؛ Muheisen 1980; Bar-Yosef 1988b). وقد تركزت هذه المواقع بالقرب من مصادر المياه الدائمة (خريطة 2)، مثل أحواض الأنهار (العاصي، والكبير، والأردن، والزرقاء)، والأحواض المائية التي كانت في زمن البلايستوسين (الأزرق، والجفر، والحسا)، وفي مناطق المرتفعات الجبلية (جبال الجليل والكرمل) (كفافي 1990؛ المحيسن-سلطان 1987؛ 2003-2004؛ المحيسن، مجاهد 1993 Muhesen, S. 1993; Bar-Yosef 1980;). وذكر الآثاريون أنهم عثروا في مساحة صغيرة من منطقة الكوم في البادية السورية على عدد كبير من المواقع التي تعود إلى العصر الحجري القديم، بلغ عددها 186 موقعًا، أهمها موقع عين عسكر (الندوية) (لوتونسورير 2005).

وحيث أن العصر الحجري القديم استمر ردحًا طويلاً من الزمن (حوالي مليون ونصف وحتى 19.000 سنة من الحاضر)؛ فقد قسمه العلماء إلى ثلاث مراحل، هي من الأقدم فالأحدث (Clark and Coinmann 2003: 235, Fig. 58):

- المرحلة الأولى Lower Palaeolithic: من حوالي 1.5 مليون سنة إلى 250.000 سنة من الحاضر.

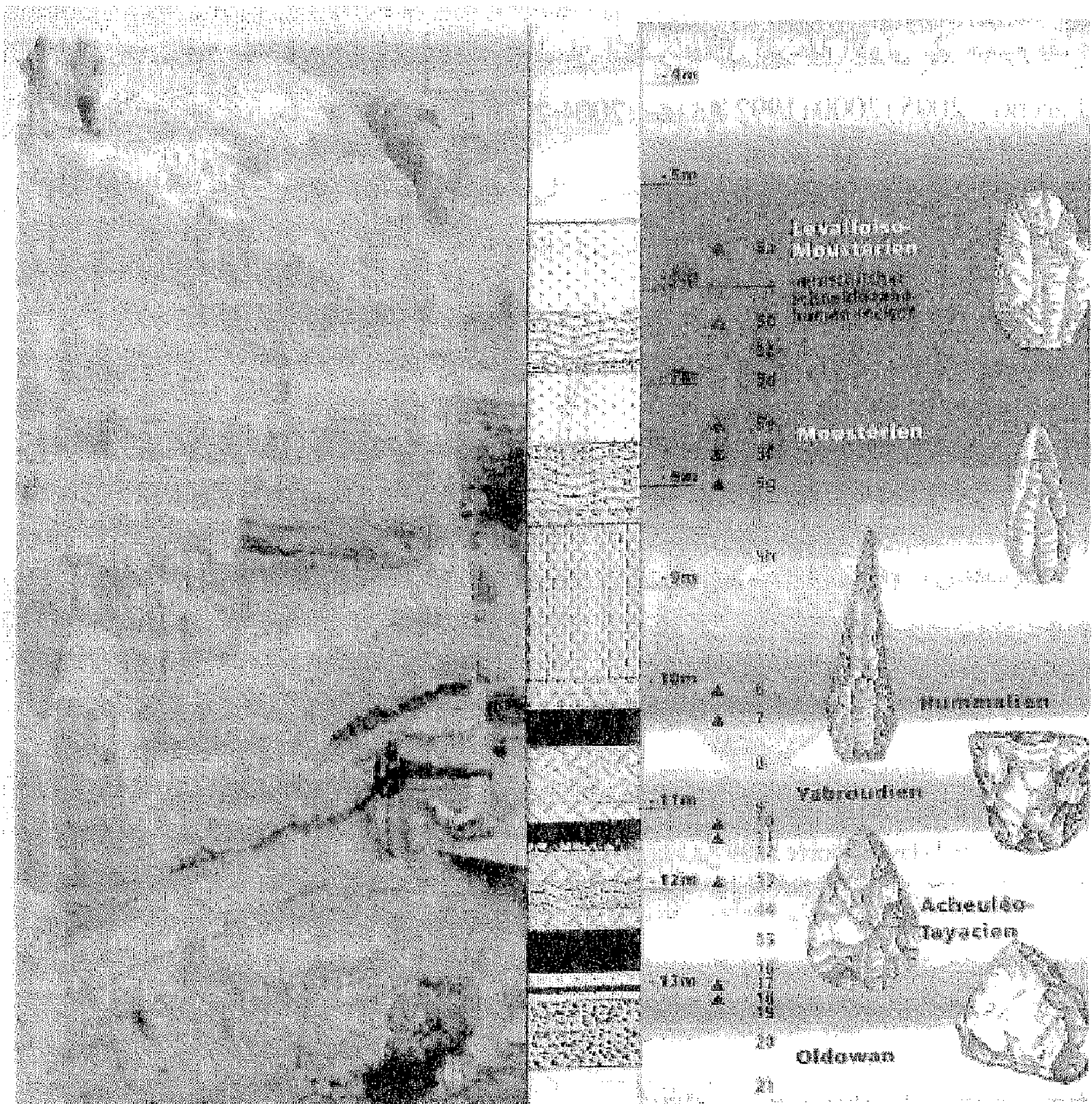
- المرحلة الثانية Middle Palaeolithic: من حوالي 250.000 إلى 40.000 سنة من الحاضر.

- المرحلة الثالثة Upper Palaeolithic: من حوالي 40.000 إلى 19.000 سنة من الحاضر.

ولما كان الهدف من هذه الدراسة التركيز على العصور التاريخية في بلاد الشام، وليس التوسع في البحث في العصور الحجرية فيها، فإننا نقدم موجزًا مفيدًا عن طبيعة الحياة والأدوات، مع الأخذ بعين الاعتبار الفواصل الزمنية بين مراحل العصر الحجري القديم.



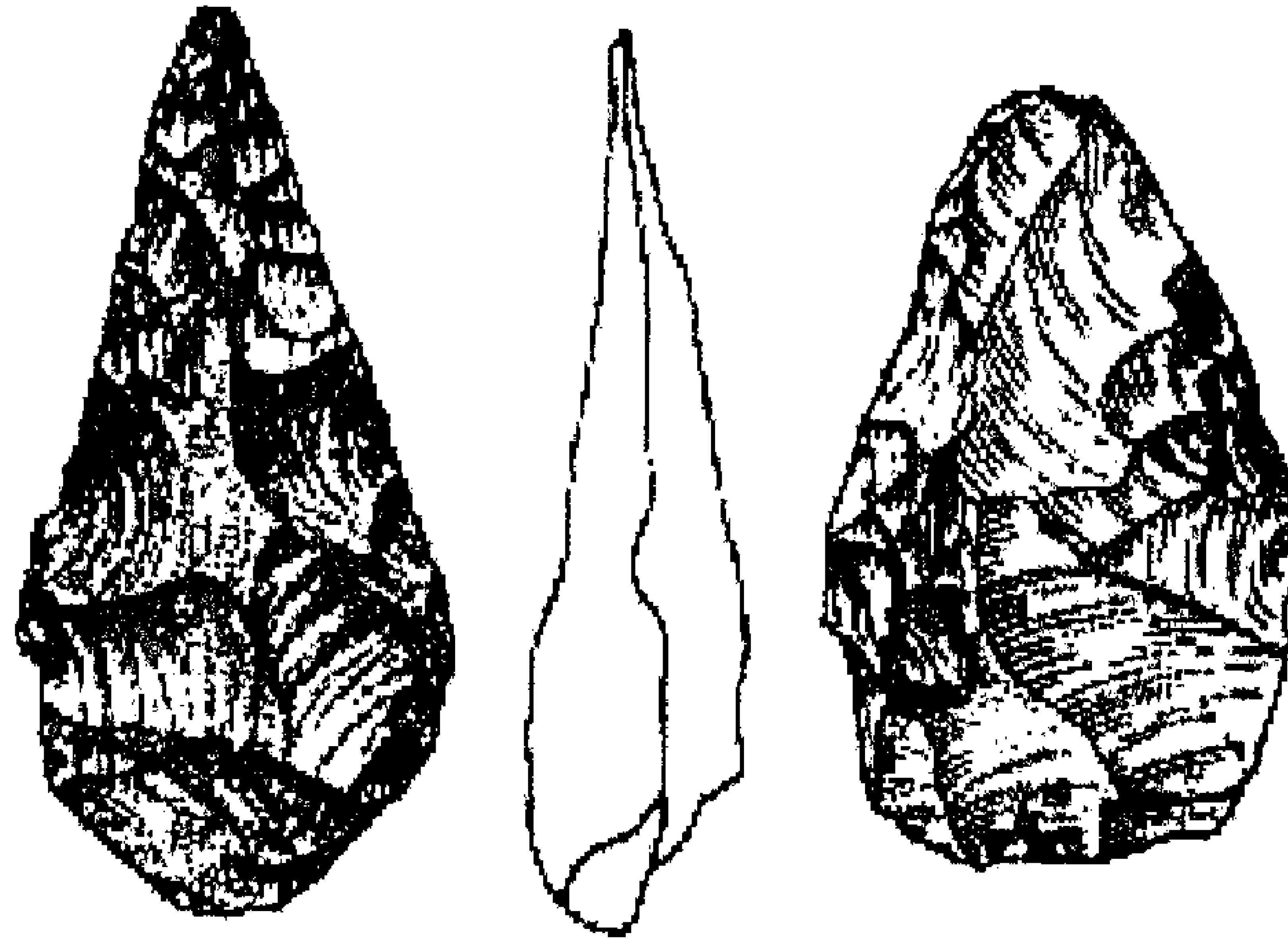
خريطة 2: أهم مواقع بلاد الشام في العصر الحجري القديم والانتقالي



الشكل 9: تسلسل طبقات العصر الحجري القديم في موقع الهمّل/سورية (عن Le Tensorer 2009)

عاش الإنسان، عمومًا، خلال العصر الحجري القديم بمراحله الثلاث، حياة بسيطة تنقل فيها من مكان لآخر بحثاً عن القوت، فاعتمد الجمع والالتقاط والصيد وسيلة للعيش. وانتشر الناس خلال المرحلة الأولى في مواقع على نهر العاصي، منها اللطامنة، وعلى نهر الكبير الشمالي، ومنها ست مارخو وبير زين، وفي البادية السورية في مواقع عين عسكر (الندوية) والهمّل (الشكل 9)، وعلى نهر الأردن، ومنها جسر بنات يعقوب والعبيدية وأبو هابيل، وعلى الأحواض المائية، ومنها العويند على حوض الأزرق، وفي المناطق الجبلية ومنها الطابون والسخول في جبال الكرمل في فلسطين، وفي موقع الفجيج في منطقة

الشوبك بجنوبي الأردن. لذا نلاحظ أن الإنسان انتشر خلال المرحلة الأولى في جميع بقاع بلاد الشام (المحيسن، سلطان 1989 ، 2003-2004؛ كفافي 1992؛ 2000؛ 2005؛ 2005؛ Parenti et al. 1997؛ لوتونسورير 2005).



الشكل 10: فؤوس يدوية من موقع الهمل/سورية (عن Le Tensorer 2009)

استخدم الإنسان خلال المرحلة الأولى أدوات حجرية بسيطة تتلاءم وحاجاته. وتكونت هذه الأدوات، غالبًا، من القواطع والمفارم والفؤوس اليدوية البسيطة (الشكل 10). واتفق الدارسون على وجود نوعين من الأدوات في هذه المرحلة هما: الحصوية (نسبة إلى حصى السيل)، وتسمى الأبيفيلية Abbevillian، وهي مصنعة من حجارة الأنهار والسيول المكورة، بحيث يطرق أو يضرب أحد أطرافها الضيقة لتشكيل حد قاطع. أما الثانية؛ فهي الأشولية Acheulian (نسبة إلى موقع سانت أشول في فرنسا حيث عثر عليها لأول مرة)، وهي مصنوعة، غالبًا، من حجر الصوان، فيطرق ويشذب من على وجهيه أو جهتيه الأمامية والخلفية ليصبح ذا شكل هرمي وحواف حادة قاطعة، ويكون أحد طرفيه مدببًا بينما الآخر محدب ليسهل الإمساك به (Bar-Yosef and Goren-Inbar 1993). ولاحظ المختصون بدراسة الأدوات الصوانية (Goren- Inbar 1992؛ بورد 2009) أن الطريقة التي استخدمها الناس في تصنيع أدواتهم في موقع جسر بنات يعقوب، والمؤرخ حسب استخدام البوتاسيوم-آرغون إلى الفترة ما بين 500.000-600.000 سنة من

الحاضر، هي الطريقة نفسها التي استخدمها الإنسان في تصنيع الأدوات في قارة إفريقيا. كما ينسب العلماء الأدوات الصوانية، خاصة الفأس اليدوية، والتي يشبه شكلها شكل حبة اللوز أو قلب الإنسان، إلى نهاية المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم (حوالي 250.000 سنة من الحاضر) (Copeland and Hours 1981: 225-238). ويعد المكشط اليبرودي الذي عثر عليه لأول مرة في ملجأ سكفتا في يبرود على سفح جبل القلمون بسورية أهم ما يميز هذه الفترة.

وبعد دراسة وتحليل البقايا العظمية الحيوانية التي عثر عليها في بعض مواقع هذه الفترة، وهي الأقدم في حياة الناس في بلاد الشام، تبين أنها تخص الفيلة، ووحيد القرن والكركدن، وفرس البحر، والخنازير البرية، والوعول (المحيسن، سلطان 1987: 139). لذا يمكن القول إن غالبية هذه الحيوانات تعود إلى فئة الثديات، علمًا أن الناس لا بد أكلوا الفقاريات المائية، والأصداف البحرية، والسلاحف، والأسماك.

ولم تختلف طبيعة الحياة في المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم Middle Palaeolithic عنها في المرحلة الأولى، إذ بقي الناس يعتمدون الصيد والجمع والالتقاط وسيلة للعيش. لكن الذي اختلف الآن هو ظهور نوع جديد من الأنسنة يسمى "نياندرتال" Neandertal نسبة إلى موقع في حوض نهر الراين بألمانيا، حيث وجدت مخلفات هذا الإنسان لأول مرة. فقد ابتكر هذا الإنسان طريقة جديدة في صنع أدواته الصوانية، عرفت بالطريقة "اللافالوائية" Levallois، أما الأدوات؛ فسميت "الموستيرية" نسبة للموقع الفرنسي لوموستيه le moustier حيث وجدت لأول مرة. وباستخدام هذه الطريقة التي تعتمد على تحضير النواة، وطرقها على الوجهين والجوانب، يضغط عليها لاستخراج عدد من الشظايا. أي أن الأداة لم تعد الحجر نفسه فقط، بل الشظايا الحجرية التي تستخرج منه أيضًا (الشكل 11). كذلك اختفت في هذه المرحلة الأدوات الكبيرة الثقيلة، وحلت محلها الأدوات الأصغر حجمًا، لا سيما المقاحف (المكاشط)، والأدوات المدببة، لا سيما رؤوس الرماح (Bar-Yosef 1980).

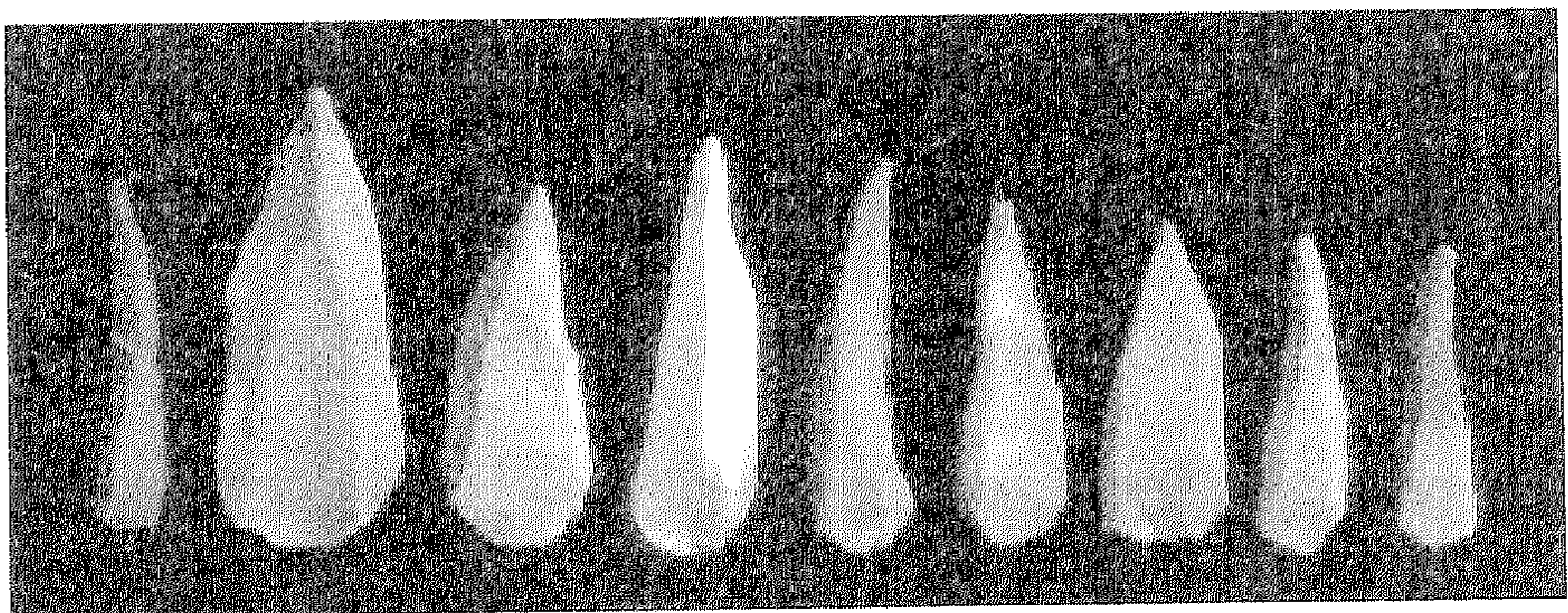
وكشفت المسوحات الأثرية في بلاد الشام عن عدد كبير من المواقع المؤرخة للمرحلة الثانية من العصر الحجري القديم، منها على سبيل المثال لا الحصر، يبرود وكهف الدوارة وبئر الهمل وجرف العجلة وكهف الديدرية في سورية، والطابون والعامود والقفزة والسخول في فلسطين، وعدلون والمسلوخة وكسار عقيل في لبنـان، والأزرق وجرف

الدراويش ورأس النقب ووادي الحسا ووادي الحمة في الأردن (كفافي 2000؛ Muhesen, S. 1985). ونالت المواقع الفلسطينية، خاصة، شهرة عالمية، حيث عثر فيها على بقايا هياكل عظمية إنسانية من هذه الفترة.

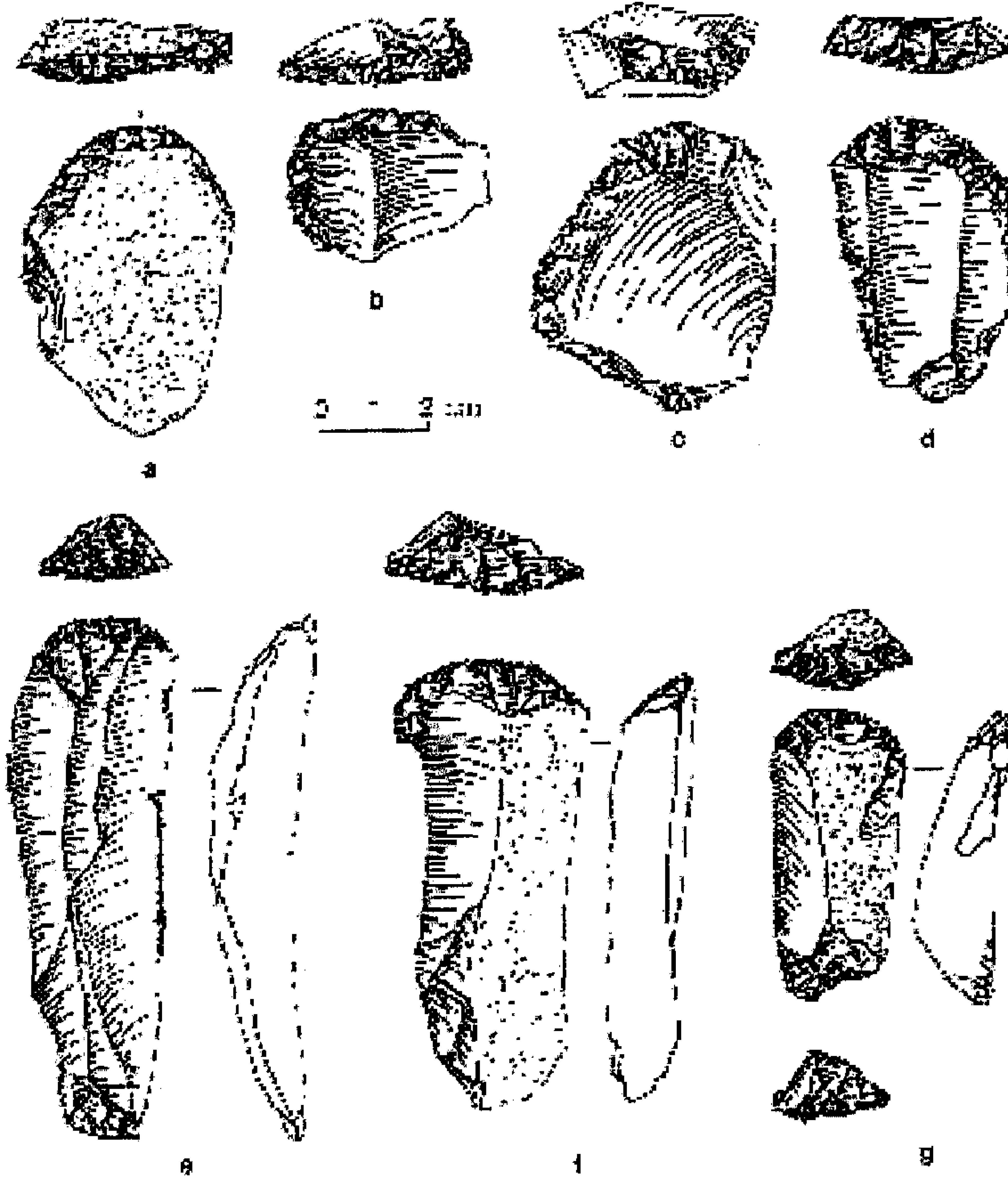
ويظهر أن الجماعات البشرية أصبحت أكثر انسجامًا مع بعضها، فقد بدأ الناس يدفنون موتاهم بطريقة تدل على الاهتمام بصاحب القبر. فعلى سبيل المثال، عثر في موقع القفزة في فلسطين على مدفن لشخصين، أحدهما بالغ، والثاني عمره ست سنوات. كما عثر على مدافن أخرى في الموقع نفسه، وفي مواقع أخرى، مثل السخول، حيث عثر على مدفن جماعي فيه عشرة هياكل عظمية، ثلاثة منها تخص أطفالاً (Bar-Yosef 1980). وبدراسة المخلفات الأثرية التي تركها إنسان نياندرتال في المرحلة الثانية، لوحظ أن الأدوات جاءت متقدمة من جميع النواحي على أدوات إنسان الهومو-إركتوس الذي عاش في المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم.

ويذكر المختصون أن إنسان نياندرتال تطور في نهاية هذه الفترة نحو نوع جديد يسمى "الإنسان شبه العاقل" Homo-Sapiense، والذي تطور بدوره خلال هذه المرحلة الثالثة Upper Palaeolithic إلى الإنسان العاقل Homo-Sapiense-Sapiense، وذلك لصفاته الفسيولوجية القريبة جدًا من صفات الإنسان العاقل.

لقد أخذت الأدوات الصوانية الموستيرية الكبيرة والثقيلة تختفي بالتدريج خلال المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم، وأخذت النصال الطويلة التي يبلغ طول الواحدة منها ضعفي عرضها تستخرج من نوى منشورية الشكل. كما سادت في المرحلة الثالثة، المقاحف العلوية (الرأسية) التي استخدمت، ربما، لكشط الجلود وصنع الأدوات الخشبية (الشكل 12).



الشكل 11: أدوات صوانية موستيرية من وادي الحسا /الأردن (من جيوفري كلارك)



الشكل 12: أدوات صوانية تعود للمرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم من موقع عين البحيرة/ وادي الحسا في الأردن (عن Coinman 2000: Fig. 8.8)

ويقول الباحثون إن الأدوات الصوانية المكتشفة في موقع كسار عقيل اللبناني تمثل مرحلة انتقالية بين الأدوات التي استخدمت في المرحلتين الثانية والثالثة من العصر الحجري القديم. والدليل على هذا هو طريقة صنع الأدوات الصوانية في الموقع، إذ لوحظ أن الصانع استخرج من نفس النواة، وفي الوقت نفسه، مدببات لافالوائية تعود للمرحلة الثانية، ونصلات صوانية تعود للمرحلة الثالثة. لكن الأمر اختلف تمامًا في المرحلة الثالثة حيث استخرج الصانع نصلات صوانية فقط من نواة حجرية طرقها في مكان واحد.

ونتيجة للدراسات الميدانية والتقنية المتعلقة بتصنيع الأدوات الصوانية، استطاع العلماء التعرف إلى ثلاثة أنماط من الأدوات استخدمت جميعها خلال المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم، وهي:

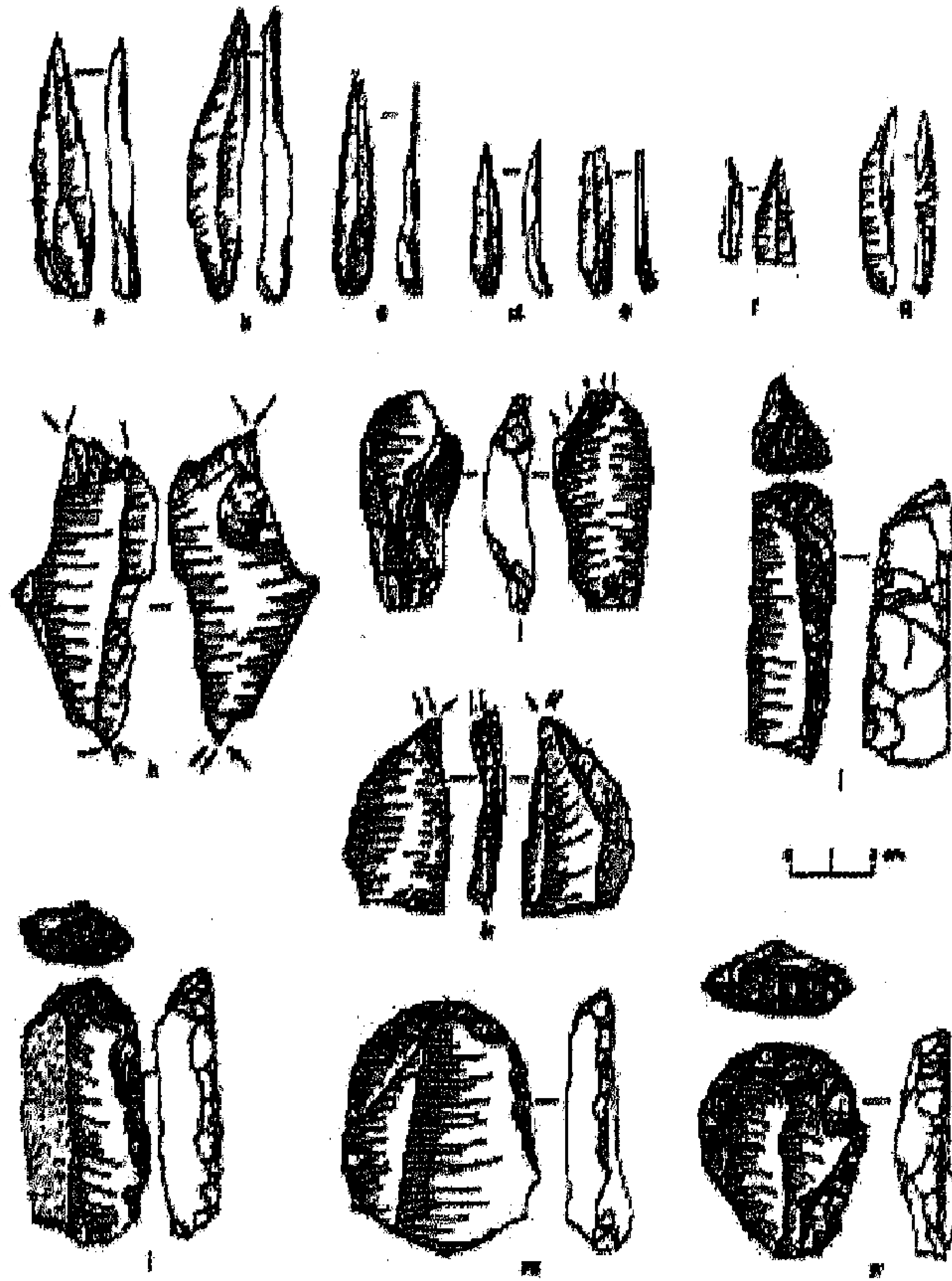
- أدوات صنعت بطريقة متأثرة بتقنية صنع الأدوات اللافالوائية-الموستيرية، وتتكون من المقاحف، والمدببات، والحراب الصغيرة، والنصلات المعوجة الظهر. وتشكل هذه الأدوات مرحلة انتقالية بين المرحلتين الثانية والثالثة للعصر الحجري القديم. وعثر على مجموعات من هذه الأدوات في مواقع أهمها كسار عقيل في لبنان، والأميرة في فلسطين.

- أدوات تمثل ما يعرف باسم الصناعة الأورينياسية الشامية Levantine Auriganician وهي تمثل صناعة الأدوات الصوانية في المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم، والتي تكونت من المثاقب، والمقاحف العلوية، والمناقش، والنصلات الصغيرة، والمدببات (Clark and Coinman 2003: 240).

- النمط الثالث يتميز بشيوع النصلات الصغيرة ذات الظهر المحدب Backed Blades والمقاحف ذات الجبهة السميكة، والأدوات الصغيرة جدًا التي شكلت مرحلة انتقالية لصناعات المرحلة الكبارية اللاحقة لها (Bar-Yosef 1980; Marks 1981; 1981a; Gilead 1981; Henry 1988; Edwards et al. 1988; Nigel-Morris 2005).

ويتفق العلماء في أن ثمة تداخل بين نمطين من هذه الأنماط الثلاثة، الأول يسمى "الأحمرية" (نسبة إلى موقع عرق الأحمر في فلسطين) (الشكل 13)، ويؤرخ للفترة بين حوالي 18.000/20.000-38.000 سنة من الحاضر. وقد ازدهرت صناعة مثل هذا النمط في مواقع صحراء النقب في فلسطين، وفي جنوبي الأردن، وصحراء سيناء. وكان الناس في هذه المناطق اعتاشوا من صيد الغزلان والوعول بأنواعها. كما عثر في بعض المواقع التي نُقب فيها في هذه المناطق على أدوات طحن وسحق للحبوب البرية، مما يعد مؤشرًا مهمًا على تغير في النمط الغذائي، لا سيما في إعداد الغذاء النباتي. كذلك وجد في تلك المواقع عدد قليل جدًا من الأدوات المصنوعة من عظم الحيوان.

أما النمط الثاني؛ والمسمى "الأورينياسية الشامية"، فتركز في المناطق الوسطى والشمالية من بلاد الشام. وقد عدها بعض المختصين ثقافة دخيلة على بلاد الشام، دخلت إليها في الفترة ما بين حوالي 27.000-32.000 سنة من الحاضر. وتكونت الأدوات



الشكل 13: أدوات صوانية من مواقع مختلفة في جنوبي بلاد الشام، المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم (الأحمرية المبكرة) (عن Coinman 1999, Fig. 6)

المنسوبة لهذا النمط من: المقاحف المصنوعة على نصلات Blades، والشظايا Flakes، والمناقش Burins. وقد عثر على عدد من تلك الأدوات في فلسطين في مغارة الواد بالقرب من مدينة حيفا، وبالقرب من بحيرة طبريا (Bar-Yosef 1997a).

انتشرت الجماعات البشرية خلال المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم فوق معظم مناطق بلاد الشام، وعثر على مواقع تابعة لها في بيئات مختلفة: داخل الكهوف، وفي العراء. ومن أهم تلك المواقع ملجأ يبرود الثاني وجرف العجلة وكهف الدوارة في سورية (المحيسن- سلطان 1987)، ومواقع منتشرة فوق مناطق وادي الحمة ووادي الحسا والأزرق والحسمى في الأردن (كفافي 1992؛ al-Nahar 2000). وقد ذكر المختصون بدراسة البيئة القديمة، وخاصة المناخ، أن نهاية العصور الحجرية القديمة شهدت عددًا

من التقلبات المناخية، مثل الارتفاع التدريجي في درجات الحرارة، الأمر الذي أدى إلى تحولات ثقافية مهمة على طريق انتقال الناس من حالة التنقل والتجول إلى الاستقرار في مواقع ثابتة، ومن الصيد والجمع إلى إنتاج الطعام. وزودتنا المرحلة الانتقالية التي ستكون مدار حديثنا على الصفحات التالية بمعلومات ساعدت في تفسير طبيعة هذا الانقلاب الاقتصادي الذي أدى بدوره إلى تحولات اجتماعية وفكرية.

ب. المرحلة الانتقالية بين الجمع والصيد والإنتاج Epi-Palaeolithic

تمثل المرحلة الانتقالية بين المجتمعات المتنقلة والصيادة والجامعة للقوت والمجتمعات المستقرة والمنتجة له، والممتدة بين حوالي 19.000 وحتى 10.500 سنة من الحاضر، محطة مهمة في حياة المجتمعات البشرية، إذ تحول الإنسان إلى الاستقرار الدائم في مواقع ثابتة، رافقت ذلك تحولات اقتصادية واجتماعية وتقنية، سنأتي عليها لاحقاً. لذا، انكب كثير من علماء ما قبل التاريخ على دراسة هذه المرحلة، لا سيما الفترة بين حوالي 10.500-12.000 سنة من الحاضر، والمسماة الناطوفية، والتي شهدت البدايات الأولى للاستقرار الحقيقي وإنتاج الغذاء؛ فدرس هؤلاء العلماء المؤثرات والمتغيرات التي أدت إلى حدوث هذا التغير في النمط المعيشي (Bar-Yosef and Valla 1991). وعللت بعض الدراسات أن السبب الأساسي وراء هذا التحول هو التغير المناخي الذي نتج عن انحسار الجليد عن منتصف الكرة الأرضية الشمالي إلى المناطق القطبية، والذي أدى إلى تغير في الغطاءين النباتي والحيواني، وهما الأساس في حياة الناس وارتباطهم بالأماكن المتوفرة فيها.

وبالرغم من أن الناس سكنوا في معظم مناطق بلاد الشام خلال المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم ومطلع المرحلة الانتقالية (خريطة 3)، إلا أن هذا الاستقرار كان على شكل جماعات متباعدة ومتفرقة، الأمر الذي يشير إلى قلة الكثافة السكانية. ويمكننا أن نقدم دليلاً على ذلك من سورية، حيث جاءت المواقع المؤرخة لنهاية المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم وبداية المرحلة الانتقالية متركزة في منطقة المرتفعات الجبلية الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة دمشق ومن بادية الشام. ويظهر أنه بعد تحسن الأحوال الجوية خلال المرحلة الانتقالية، بحيث أصبحت أكثر دفئاً ورطوبة من

الفترة السابقة، بدأ الناس بالتحرك إلى مناطق أخرى خارج هذه المنطقة (Akkermans and Schwartz 2003: 14). ومن سمات هذه المرحلة أن الناس طحنوا الحبوب البرية، بعد حصادها، وأكلوها؛ كما اختصوا بصيد وأكل أنواع محددة ومختارة من الحيوانات. وعلى الرغم من أن بعض الجماعات لجأت إلى الأكواخ اتقاء البرد والخطر، إلا أن غيرها بدأ يبني لنفسه خصًا (كوخًا بسيطًا من الأعواد والأخشاب وربما من الجلود، كما هو الحال في موقع خربة العاشق الواقع على الضفة الشرقية لبحيرة طبرية). ورأى بعض المختصين أن بناء كوخ واستخدامه فترة طويلة يعد خطوة أولى نحو الاستقرار الدائم، فقد أطلق على مثل هذه المواقع، لا سيما الناطوفية، اسم "قرى الصيادين" (Cauvin 1978).

وحيث أن التغير البيئي كان السبب في الانتقال للإنتاج، فقد حاول العلماء التعرف إلى كيفية حدوثه، وذلك بأخذ عينات من باطن الأرض في منطقتين متباعدتين، الأولى من سهل الغاب بشمال غربي سورية، والثانية من سهل الحولة بشمالي فلسطين (Bottema and Van Zeist 1981; Baruch and Bottema 1991). وفيما يلي خلاصة نتائج دراستهم في كل منطقة:

أ. سهل الغاب

1. في الفترة ما بين 18.000-20.000 سنة من الحاضر، وصلت درجة الحرارة الى أقصى درجات البرودة، إذ تراوح معدل درجات الحرارة بين 8-10 درجات مئوية أقل مما هو عليه في الوقت الحاضر.

- غطت الثلوج مرتفعات جبال لبنان الشرقية والغربية، وهذا يعني تجمد المياه، الأمر الذي أدى إلى هبوط مستوى المياه في البحر المتوسط بين 100-120م عن مستواها الحالي، والذي أسهم بدوره في اتساع عرض منطقة ساحل البحر المتوسط، لا سيما في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة اللاذقية الحالية.

- أدت برودة الجو إلى قلة تبخر المياه من البحيرات والأحواض المائية الكبرى، وهذا يعني أن مياهها لم تقل، بل ظلت بكميات كبيرة.



خريطة 3: أهم مواقع بلاد الشام في المرحلة الانتقالية بين مرحلتي جمع الطعام وإنتاجه (مواقع الثقافتين الكبارية والناطوفية)

2. في حوالي 18.000 سنة من الحاضر، أخذت درجات الحرارة بالارتفاع، وبدأت الأحوال الجليدية بالانحسار التدريجي، ونتج عن ذلك:

- اكتست منطقة الغاب بالأشجار الحرجية، لا سيما البلوط.

- قسم نهر العاصي المنطقة إلى منطقتين، غربية، وهي جبال مكسوة بالغابات، وشرقية، وهي السهول.

3. قبل حوالي 17.000 سنة من الحاضر، ساد الجفاف المنطقة، مما نتج عنه تراجع في غابات البلوط، واتساع في مناطق السهول.

4. قبل حوالي 13.000 سنة من الحاضر، عادت الغابات للامتداد فوق مناطق واسعة بسبب زيادة هطل الأمطار.

ب. سهل الحولة، والذي يبعد حوالي 300كم جنوب سهل الغاب، جاءت نتائج الدراسة على النحو الآتي:

- في حوالي 17.000 سنة من الحاضر، كان هنالك تعاقب بين السهوب والغابات.

- في الفترة ما بين حوالي 13.500-12.500 سنة من الحاضر، عادت السهوب والصحاري إلى الظهور، وغطت النباتات الصحراوية مناطق الصحراء على حساب الأشجار الحرجية، وكانت الأحوال المناخية باردة وجافة.

- قبل حوالي 12.000 سنة، طرأ تحسن على الأحوال المناخية، وذلك مع بداية زمن الهولوسين، حيث عادت الغابات للظهور من جديد، لكنها لم تكن كثيفة كما كانت في المراحل السابقة.

وبالمقارنة بين كلا الأنموذجين، وجد بعض العلماء أن نتيجة الدراسات البيئية، وخاصة المناخية التي كانت سائدة خلال المرحلة الانتقالية، تشير إلى أن أنموذج سهل الحولة أقرب إلى الصحة من أنموذج سهل الغاب (Moore and Hillman 1992). ونتيجة لدراسة كثير من النواحي المتعلقة بالثقافة المؤرخة للمرحلة الانتقالية، لا سيما الأدوات الصوانية والاقتصاد وطبيعة الاستقرار؛ تعرف العلماء إلى نوعين رئيسين من الأدوات، نسب كل منهما إلى ثقافتين، هما:

1. الثقافة الكبارية، وتقسم إلى قسمين:

أ. الكبارية (حوالي 19.000-14.000 سنة من الحاضر).

ب. الكبارية الهندسية (حوالي 14.000-12.000 سنة من الحاضر).

2. الثقافة الناطوفية، وتقسم أيضًا إلى قسمين:

أ. الناطوفية المبكرة (حوالي 12.000-11.000 سنة من الحاضر).

ب. الناطوفية المتأخرة (حوالي 11.000-10.500 سنة من الحاضر).

ويشار إلى أن المعلومات المتوفرة عن هاتين الثقافتين جاءت من جنوبي بلاد الشام أكثر من شمالها. وربما يعزى ذلك إلى المشاريع الميدانية التي جرت في الأردن وفلسطين أكثر منها في سورية ولبنان، مما أدى إلى الكشف عن كثير من المواقع المؤرخة لهذه المرحلة فيهما؛ فجاءت الأردن وفلسطين أكثر وفرة بالمعلومات من المنطقة الشمالية، وأصبح المشهد فيهما أكثر وضوحًا. كذلك لا بد من توقع أن بعضًا أو كثيرًا من مواقع ما قبل التاريخ قد طمر عميقًا تحت الترسبات في مناطق الشمال، مما يصعب ملاحظته حتى عند إجراء الأعمال الميدانية.

1. الثقافة الكبارية (حوالي 19.000-12.000 سنة من الحاضر)

سميت هذه الثقافة بـ"الكبارية" نسبة إلى مغارة تقع في وادي كبارا بفلسطين، والتي تبعد حوالي 10كم شمال شرقي مدينة عسقلان على ساحل البحر المتوسط. بدأت التنقيبات في المغارة خلال الثلاثينات من القرن الماضي على يد كل من دوروتيا غارود وفرانسيس تورفيل-بينز، حيث عثر، وللمرة الأولى، على نوع من الأدوات الصوانية التي نسبها الباحثون إلى هذا الموقع. لكن موقع كبارا حظي بأهمية أكبر لدى دارسي عصور ما قبل التاريخ بعد أن اكتشفت فيه عام 1982 بقايا هيكل عظمي لإنسان نياندرتال، مصاحبة لأدوات صوانية، وأرخ هذا الهيكل إلى حوالي 60.000 سنة من الحاضر (Schick and Stekelis 1977; Bar-Yosef and Van der Meerch et al. 1992).

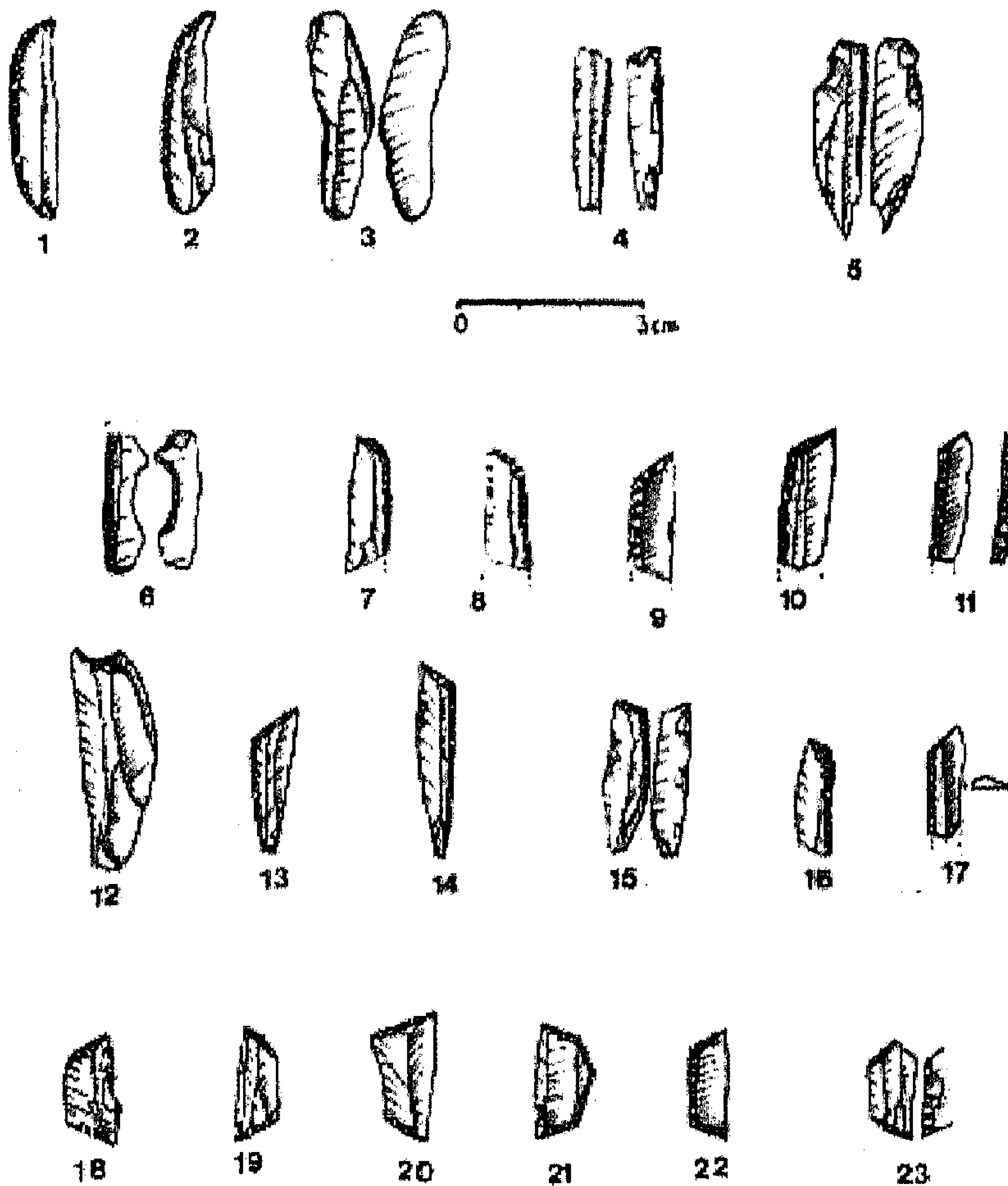
وبداية الأمر، نسب المختصون ما عثر عليه من أدوات إلى الثقافة الكبارية، ظنًا منهم أنها تمثل آخر مرحلة في المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم. إلا أن وجود أدوات صوانية صغيرة جدًا Microlithics جنبًا إلى جنب مع أدوات كبيرة أخرى، وأن هذه

الأدوات الصغيرة تشبه في حجمها مثيلاتها في الثقافة الناطوفية (حوالي 10.000-8.500 قبل الميلاد) التي كانت تنسب إلى العصر الحجري الوسيط Mesolithic، دفع العلماء إلى تصنيف كلتا الثقافتين ضمن فترة واحدة سميت "المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم" Epi-Palaeolithic.

ونبدأ الحديث حول الثقافة الكبارية، إذ توزع الناس خلال المرحلة الأولى منها في مناطق متعددة من بلاد الشام، سواء الساحلية، أو الغابات، أو الصحراوية، أو شبه الصحراوية. فمثلاً عثر على مخلفات تنسب للثقافة الكبارية في واحات الكوم، وتدمر، ويبرود، وجيرود ومنطقة وادي الفرات في سورية (المحيسن، سلطان 1987). أما في جنوبي بلاد الشام؛ فعثر على مواقع لهذه الثقافة في حوض الأزرق، خاصة موقع الخرانة (الشكل 14)، وفي وادي جيلات ووادي الحمة ووادي الحسا ووادي المدمغ (الأردن)، وفي صحراء النقب (فلسطين)، وفي سيناء بمصر (Garrard and Gebel 1988; Gebel et al. 1997).

ومن الملاحظ أن معظم المواقع وجدت بالقرب من مصادر المياه الدائمة، وجاءت مساحاتها صغيرة جدًا على شكل مخيمات أقام الناس فيها لفترة قصيرة من الوقت، ربما في أحد فصول السنة حين تتوفر فيه مقومات الحياة (Lieberman 1993). وخير مثال على هذا نسوقه من موقع الخرانة (4)، الواقع على بعد 1كم جنوبي قصر الخرانة الأموي في حوض الأزرق، حيث كشفت فيه بقايا أكواخ أو عرائش أقامها الناس في الموقع، إضافة إلى كميات كبيرة من الأدوات الصوانية، والعظام الحيوانية، وحجارة طحن ودق وهرس (Muheisen, M. 1983; 1988). كما عثر في الموقع ذاته على مدفنين، وتعد الهياكل العظمية البشرية التي اكتشفت فيهما، والتي تؤرخ لحوالي 19.000 سنة من الحاضر، الأقدم في الأردن حتى الآن (Rolstôn 1982). كذلك عثر في سورية على مواقع مشابهة، منها أم التليل والكوم (Muhesen, S. et al. 1996).

ولما كانت مواقع الثقافة الكبارية تتوزع في بيئات مختلفة، رأى العلماء أن الناس مارسوا نشاطات حياتية تختلف في طبيعتها حسب البيئة التي عاشوا فيها (Henry 1992: 151). كذلك، فإنه لحالة الحل والترحال التي عاشتها المجتمعات البشرية، فإن الناس لم يصنعوا لأنفسهم أدوات يصعب حملها، بل صنعوا أدوات صوانية، وبعض أدوات الطحن والهرس والدق مما يسهل حمله، إضافة إلى الأصداف البحرية التي استخدمت حليًا.



الشكل 14: أدوات صوانية كبارية من موقع الخرانة/المرحلة C/ بادية الأردن
(عن Muheisen, M. 1988c)

ويبدو أنه، وفي حوالي 14.000 سنة من الحاضر، ظهرت أشكال وطرق تصنيع جديدة للأدوات الصوانية، أسماها العلماء "الكبارية الهندسية"؛ وتتسم هذه الثقافة بكثرة الأدوات المصنوعة بأشكال شبه منحرف ومستطيل ومثلث (Perrot 1995). وتعاصر الكبارية الهندسية ثقافات أخرى، هي الموشابية والكبارية، واللتان ظهرتا في منطقتي النقب في فلسطين، وفي شمالي صحراء سيناء (Bar-Yosef 1980: 120). وانتشرت مواقع الكبارية الهندسية فوق المنطقة الممتدة من سلسلة جبال لبنان الشرقية في الغرب

إلى بادية الشام في الشرق. وعثر عليها أيضًا في مناطق رأس النقب، وفي منطقة الحسمى بجنوبي الأردن، والخرانة، ووداي جيلات في صحراء الحماد الأردنية. ولكن، للأسف لم تجر تنقيبات أثرية إلا في قليل من المواقع، منها نهر الهمر Nahr el-Homr الواقع على جدول يصب في نهر الفرات في سورية (Roodenberg 1979)، وهو موقع صغير في مساحته التي لا تتجاوز 200م^2، والذي عثر فيه على أدوات صوانية، دون أن يعثر على أية مخلفات بنائية، مثل الأرضيات. كما نقب في مواقع سورية أخرى مثل مغارة يبرود III وجيرود (Cauvin, M.-C. et al. 1982). ويبدو أن واحة الكوم التي تبعد حوالي 100كم شمال شرقي مدينة تدمر تمتعت بغطاء نباتي وحيواني جيد خلال الثقافة الكبارية بالإضافة لتوفر مصادر المياه الدائمة، وخامات الصوان، مما دفع الناس للقدوم إليها والبقاء فيها لفترات متفاوتة وفي أماكن مختلفة (Cauvin, M.-C. and Coqueugniot 1988). وقد عثر في هذه الواحة على عدد من المواقع الكبارية، منها عين الجوال وعين البحري والقبيبة، وهي مواقع صغيرة المساحة، أقام فيها الناس لفترة قصيرة من الوقت. كما أن هناك مواقع أكبر مساحة مثل تل عريضة، حيث لوحظ أن الأدوات الصوانية الكبارية تنتشر فوق مساحة تبلغ حوالي 5000م^2. لكن هذه المواقع لا تشكل موقعًا واحدًا، إنما عدة محطات أقام فيها الناس لفترة من الوقت في الموقع ذاته، تراوحت مساحة الواحدة منها ما بين 500-1200م^2. ويبدو أن الناس تحركوا في المنطقة ذاتها لكن في أماكن مختلفة منها حسب فصول السنة.

كذلك جرى التعرف على مواقع أخرى تختلف في وظيفتها عن مواقع المحطات، فلم تك مجرد مكان أقام فيه الناس بعضًا من الوقت لأكل طريدتهم، وإنما أقامت فيها جماعة من الصيادين وجامعي القوت لمدد متفاوتة، قد تطول، أو تقصر. وقاموا خلال إقامتهم بتصنيع أدوات لهم، أو أكل عدد من الطرائد خلال أيام أو أسابيع عدة. ومثل هذه المواقع يعرف لدى دارسي ما قبل التاريخ باسم "المخيمات الثابتة" Base Camps. ونضرب مثالاً على هذا من موقع أم التليل في سورية، حيث عثر في أسفل الطبقات (السويات) على بقايا مبنى يقرب شكله من الإهليجي، تبلغ أبعاده 5 x 2.6م، وبني في وسطه موقد لإشعال النار. ولفشل المنقب في العثور إلا على أساسات المبنى الحجرية فقط؛ فقد افترض أن جدران الكوخ، أو العريشة، كانت من المواد القابلة للتلف، مثل الأعواد الخشبية (Molist 1987/8).

ومن المواقع الأخرى المهمة المؤرخة للكبارية في سورية، موقع الندوية، حيث لوحظ تركز الأدوات الصوانية في مكان متوسط في الموقع. وكشفت التنقيبات الأثرية في موقع الندوية 2 عن بقايا موقد، وهذا يعني، وإن لم يعثر على عريشة أو كوخ في المكان، أن الناس تجمعوا لفترة من الوقت حول هذا الموقد. وبطبيعة الحال، فقد عثر في عدد من المناطق في جنوبي الشام على مواقع مشابهة (Bar-Yosef 1980; Clark et al. 1987).

أما بخصوص بادية الشام؛ سواء في سورية أو في الأردن، فلا تزال المعلومات المنشورة حول الثقافة الكبارية منها قليلة، علمًا أن هناك بعض التنقيبات والمسوحات الأثرية التي أجريت في بعض المواقع والمناطق مثل الدوارة I (Fujimoto 1979) والخرانة 4 (Muheisen, M. 1988a). وبالرغم من أن هذا الكتاب لا يهدف إلى التفصيل الدقيق في دراسة العصور الحجرية، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن العلماء قد ميزوا عدة مراحل فرعية للثقافة الكبارية الهندسية، يعود آخرها إلى الفترة ما قبل حوالي 13.000-12.000 سنة من الحاضر (Bar-Yosef 1981: 396-397; Henry 1992: 153).

وقد تكونت المخلفات الأثرية المؤرخة للثقافة الكبارية الهندسية، تحديدًا، من الأدوات الصوانية الصغيرة ذات الأشكال الهندسية. كما عثر في بعض المواقع، بالإضافة إلى تلك الأدوات، على عدد قليل من حجارة الطحن، والأدوات العظمية، وأدوات الزينـة، لا سيما المصنعة من الأصداف البحريـة، وعلى قليل من البقايـا البنائيـة (Kaufman 1987).

ومن الواضح أن الجماعات التي نسبت إليها الثقافة الكبارية الهندسية مارست نمطًا اقتصاديًا يعتمد على الجمع والصيد، كما كان الحال في الفترات السابقة. لذا، فمن المفترض أن هذا النمط المعيشي يتطلب تجوالاً وتنقلاً بين المناطق بحسب مواسم السنة. وقد أكد ذلك تباعد واختلاف مصادر المواد الخام التي صنعت منها المواد المكتشفة في هذه المواقع. وبطبيعة الحال، فإن البحث عن مصادر المواد الخام في مناطق متباعدة يؤدي إلى اتصال الجماعات ببعضها.

وعلى الرغم من النمط المعيشي للثقافة الكبارية الهندسية التي استمدت أصولها وشروطها من سابقتها، أي الثقافة الكبارية، إلا أنهما اختلفتا في التوزيع الجغرافي للمواقع المكتشفة، وفي أشكال الأدوات الصوانية. ويبدو أن اعتدال الأحوال المناخية ساعد في انتشار الناس فوق مساحة واسعة، بل إنها أوسع مما كان عليه الحال سابقًا. أما

الاختلاف في أشكال الأدوات الصوانية؛ فإن المتغير الأساسي هو ازدياد استخدام الأدوات ذات الأشكال الهندسية الصغيرة، والتي حلت، تدريجيًا، محل المدببات الصغيرة.

قبل حوالي 12.000 سنة، بدأت الثقافة الناطوفية تحل تدريجيًا مكان الكبارية الهندسية في بلاد الشام، حيث عثر في بعض المواقع على تموضع مباشر للبقايا الناطوفية فوق تراكمات الثقافة الكبارية الهندسية، كما هو الحال في مواقع وادي الفلاح والخيام في فلسطين (Goring-Morris 1995: 161; Henry 1992: 12).

2. الثقافة الناطوفية (حوالي 12.000–10.500 سنة من الحاضر)

قامت الباحثة الإنجليزية دوروتيا جارود في عام 1928 بالتنقيب في كهف شقبة في وادي الناطوف بالقرب من مدينة القدس بفلسطين، حيث عثر على أدوات صوانية تختلف في شكلها وحجمها وطرق صنعها عن المراحل السابقة، أطلق عليها اسم "الناطوفية" نسبة إلى الوادي الذي تقع فيه المغارة (Garrod 1932; 1942).

تبع ذلك اكتشاف النوع ذاته من الأدوات الصوانية في مواقع أخرى بفلسطين، مثل مغارتي الواد وكبارا وعين الملاحة في شمالي البلاد، إضافة إلى مواقع أخرى في وسطها خاصة في منطقة جبال القدس وبيت لحم. كما كشف في هذه المواقع عن أدوات طحن ودق وهرس، وحلي، وأدوات عظمية مزخرفة، وبقايا معمارية، ومدافن (Perrot 1968). واعتقد في البداية أن هذه الثقافة هي محلية فلسطينية، ولكن بعد الكشف عن مزيد من الأدوات الصوانية الناطوفية في مواقع أخرى في الأردن وسورية ولبنان، لم يعد هذا الطرح مقبولاً لدى العلماء (Cauvin 1978).

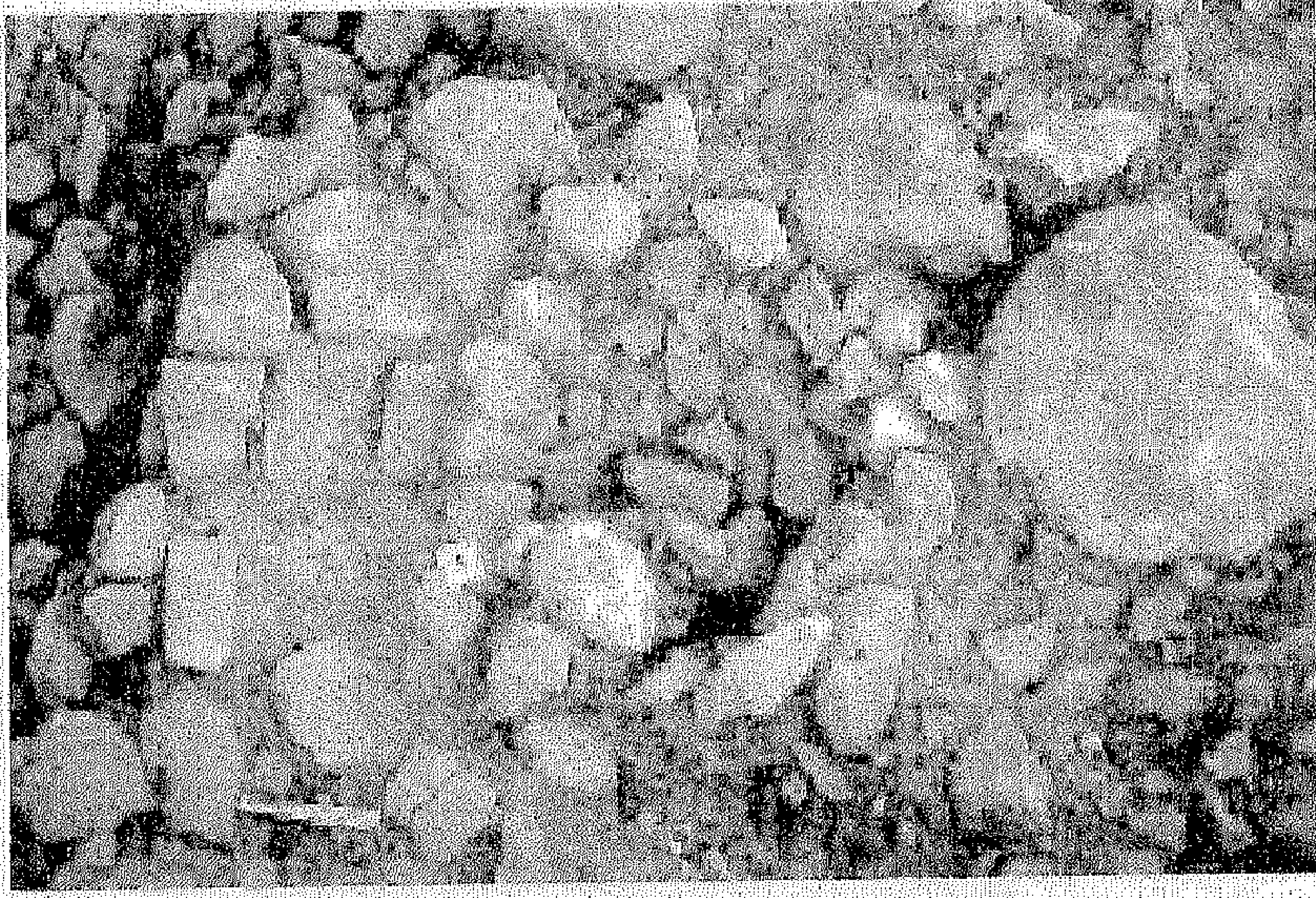
وتبرز أهمية الثقافة الناطوفية بأنها تمثل حلقة وصل بين الجماعات الصيادة والجامعة للقوت من جهة، والجماعات المنتجة له من جهة أخرى. وهي بهذا تشكل المعبر الذي سارت عليه مجتمعات بلاد الشام نحو عالم الاستقرار، والإنتاج، وتأسيس قرى زراعية يقيم فيها الناس طيلة أيام السنة. لذا، نجد أن كثيرًا من الباحثين قد ركزوا أبحاثهم حول هذه الفترة علهم يكشفون طبيعة التطورات والعوامل التي أدت إلى تلك التحولات الاقتصادية والاجتماعية. ونؤكد بهذا الصدد أن الانتقال كان تدريجيًا؛ فبالرغم من أن الناس بقوا خلال الثقافة الناطوفية يعتمدون الجمع والصيد أساسًا لمعيشتهم، إلا أن جمعهم تركز

على أنواع محددة من الحبوب والنبات، وأن صيدهم اتجه نحو أنواع محددة من الحيوان، إضافة لاستغلالهم للثروة السمكية. وفي الوقت الذي لم يعرف الناس فيه تدجين الحيوان خلال هذه المرحلة، إلا أنهم احتفظوا بحيوانات برية معينة، فقد عثر في أحد قبور عين الملاحة الناطوفي على هيكل عظمي لكلب مدفون مع صاحبه (الشكل 15).



الشكل 15: هيكل عظمي لشخص مدفون مع كلبه من عين الملاحة/ فلسطين

وإذا كان الناس لم يزرعوا الحبوب في هذه الفترة، إلا أنهم جمعوا الحبوب البرية وطحنوها قبل أكلها. لكن هذا الأمر تطلب منهم الإقامة في نفس المكان مدة طويلة من الوقت، كما تنقلوا بين الأمكنة حسب فصول السنة، أو ربما طيلة أيام السنة، كما هو الحال في موقع عين الملاحة بفلسطين. ونميل إلى الاعتقاد أن السبب في النزوع نحو الاستقرار الدائم في بقعة واحدة خلال الثقافة الناطوفية يعود الى تحسن الأحوال



الشكل 16: موقد حجري داخل منزل في عين الملاحة/ فلسطين

المناخية التي ساعدت على توفر النبات والحيوان في المكان ذاته، طيلة أيام السنة، مما أدى إلى مكوث الناس حيث تتوافر أسباب معيشتهم، فأصبح لا حاجة لهم للترحال. ويبدو أن معرفة الناس لخزن الحبوب البرية في المكان ذاته الذي تنبت فيه، كان أيضًا عاملاً آخر من عوامل الاستقرار الدائم.

تبين للباحثين أن ثمة سمات عامة مشتركة بين المجتمعات الناطوفية في بلاد الشام، فمثلاً هناك تشابه في شكل وطرق تصنيع الأدوات الصوانية، وفي شكل البناء المستدير، علمًا أن بعض الناس لجأوا إلى الكهوف والملاجئ الصخرية. وقد عثر على مساكن مستديرة في موقعي المريبط وأبو هريرة في سورية، وفي عين الملاحة ووادي الفلاح في فلسطين، وفي وادي الحمة وظهرة الذراع في الأردن. واستخدم الناس في جنوبي بلاد الشام الحجارة واللبن مادة للبناء، بينما لوحظ أن ناطوفيي وادي الفرات قد استخدموا في ذلك الأشجار وأعوادها (Cauvin 1978)، كما زودت البيوت بمواقد للنار (الشكل 16)، وحفر لخزن الحبوب.

قدر المنقب عدد البيوت المكتشفة في عين الملاحة (الشكل 17) بحوالي خمسين منزلاً تراوح عدد ساكنيها بين 200-300 شخص. وجاءت هذه المنازل مبنية بشكل متلاصق أو قريبة جدًا من بعضها، مما يشير إلى وجود علاقات قوية بين أفراد المجتمع الواحد، مع

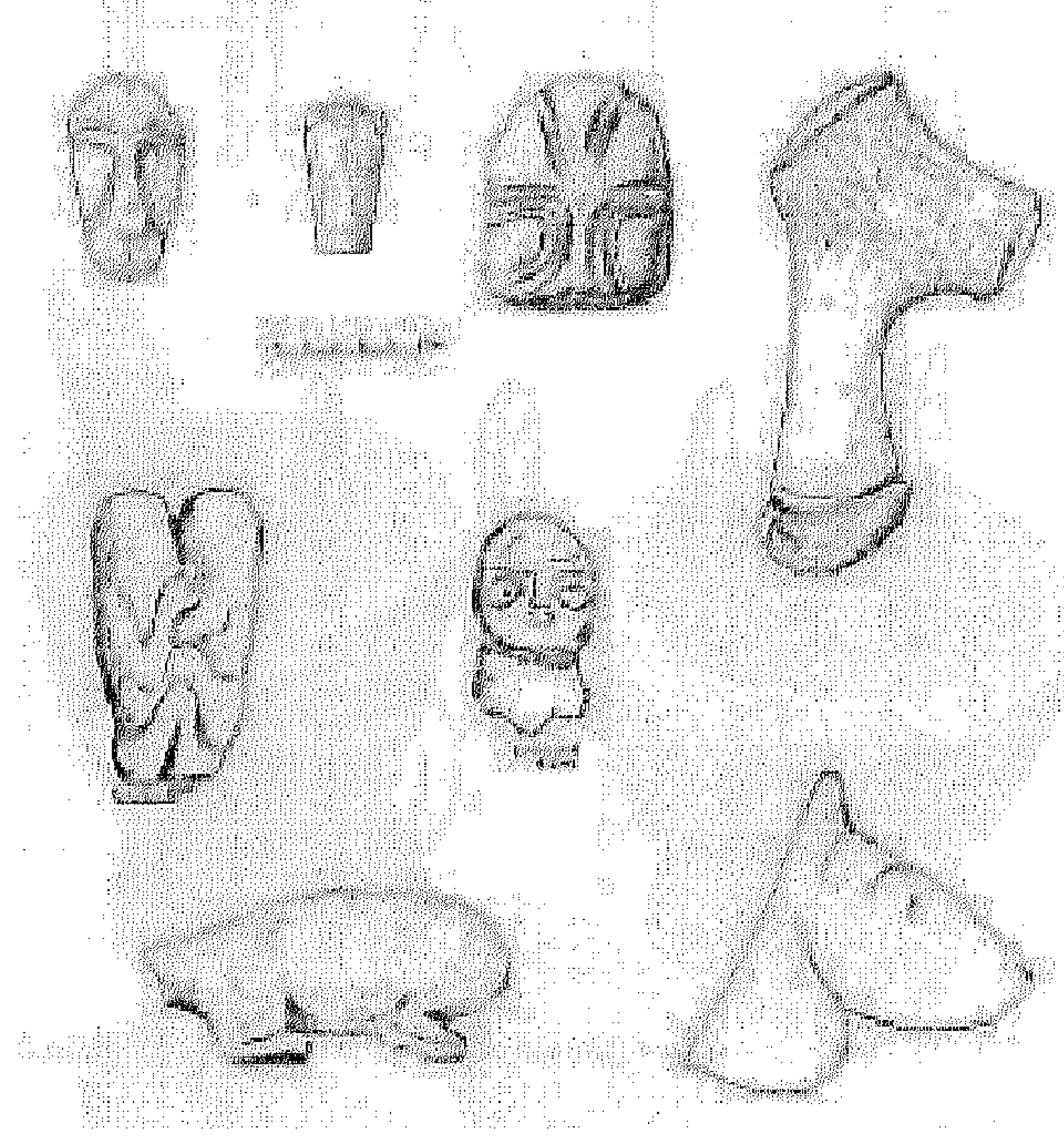


الشكل 17: بقايا بيت ناطوفي من عين الملاحة/ فلسطين (بإذن من جون بيرو)

علمنا أنه لا يجوز تعميم حالة موقع واحد على مرحلة أو ثقافة استمرت لمدة تقرب من ألفي عام، لكن ذلك يبقى مؤشرًا على وجود تطورات اجتماعية. ونكرر هنا أيضًا، أن الانتشار الواسع لمواقع الثقافة الناطوفية في بلاد الشام يعد دليلاً على تنوع مصادر الحياة فيها، وعلى اختلاف في أنماط المستقرات البشرية. ولوحظ أن الاستقرار لمدة طويلة في موقع واحد، وإن كان طيلة فصول السنة، لم يغير في النمط الاقتصادي للجماعات، إذ بقيت صيادة وجامعة للقوت.

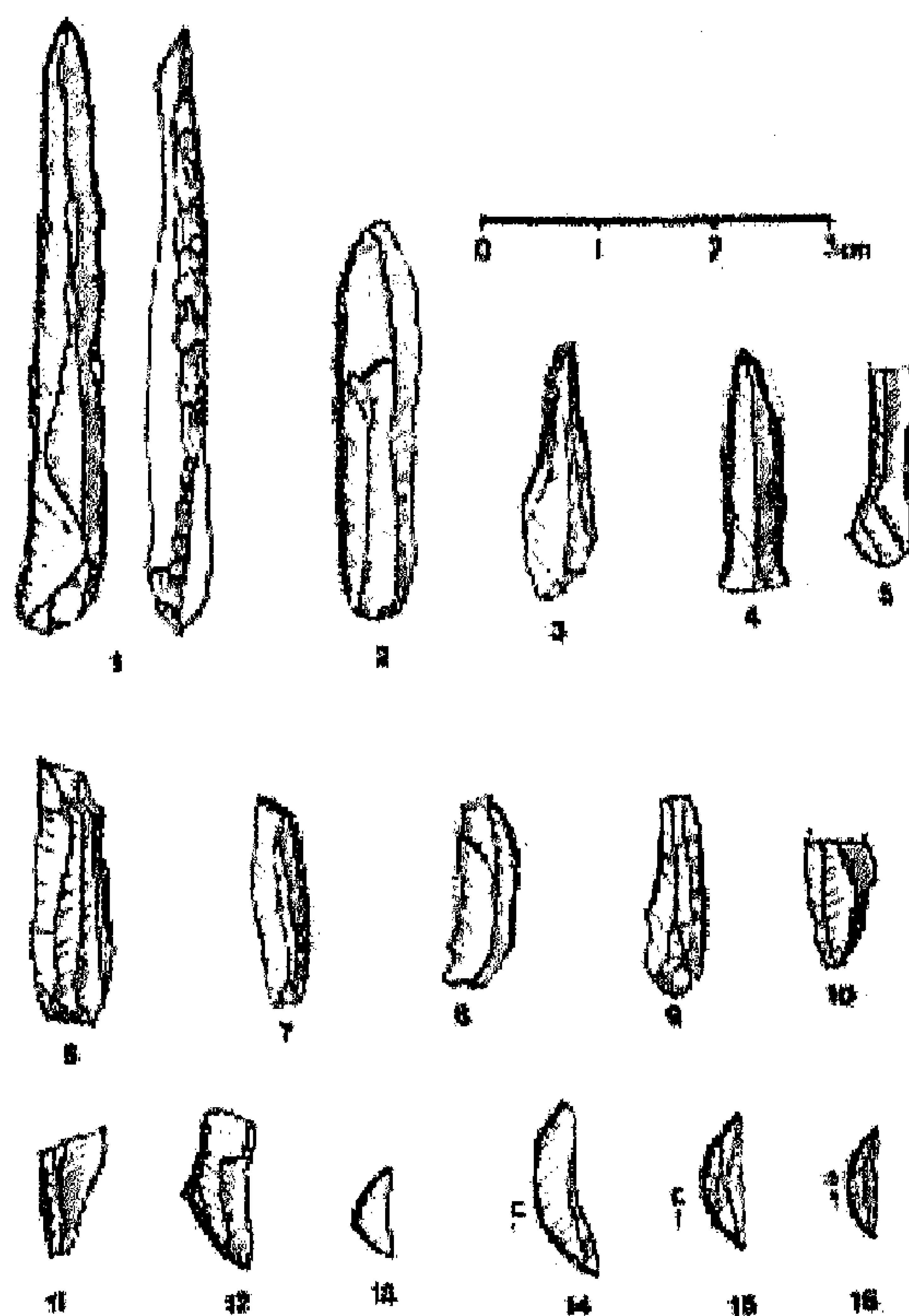
استخدم الناطوفيون خامات ومواد متعددة في صناعة ما يحتاجونه، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الأدوات الصوانية بقيت هي السائدة. ونذكر من هذه الصناعات الأدوات العظمية المزخرفة، وأدوات الطحن والهرس والدق المصنوعة، غالبًا، من حجارة بازلتية،

والمناجل (وهي أدوات مركبة من قرون الحيوان، والشفرات أو النصلات الصوانية المثبتة بالقار). كما عثر على دمى بشرية وحيوانية منحوتة من الحجر أو العظم، وأخرى من الصلصال (الشكل 18).

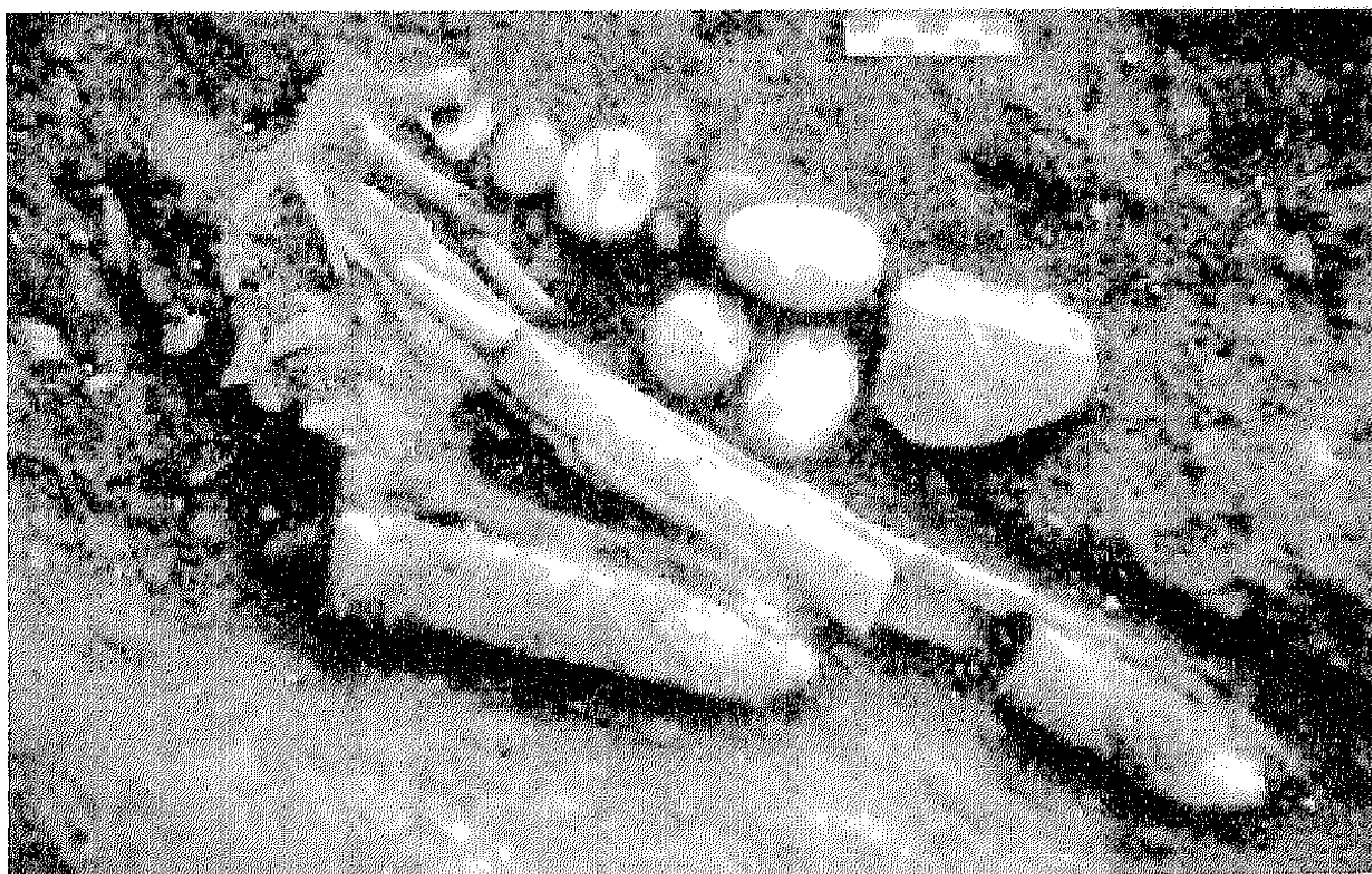


الشكل 18: دمى ناطوفية من مواقع مختلفة بفلسطين (عن Cauvin 1972a)

على الرغم من أن أدوات صوانية كثيرة كانت صغيرة جدًا Microlithic كما مثيلاتها في الكبارية، إلا أن أشكالها تختلف مع شيوع الشكل الهلالي (الشكل 19). ويستدل من التنوع في الشكل والحجم والتقنية على وظائف هذه الأدوات، وتعدد النشاطات الإنسانية. فمثلاً، اقترح بعض الباحثين أن الأدوات الصوانية الهلالية والصغيرة جدًا، والتي عثر على مجاميع منها في مواقع المريبط وأبو هريرة وعين الملاحة والواد وظهرة الذراع وغيرها، استخدمت رؤوسًا للسهام بعد تثبيتها بأشكال وهيئات مختلفة بمقابض ربما تكون أعوادًا من الخشب (Akkermans and Schwartz 2003: 26, Fig. 2.4). كما تبين أن المناجل التي اكتشفت في وادي الحمة 27 في الأردن، والتي صنعت من نصلات صوانية صغيرة ثبتت داخل أخدود حفر في قرن حيوان (الشكل 20) قد استخدمها الناس في حصاد الحبوب البرية (Edwards et al. 1988).

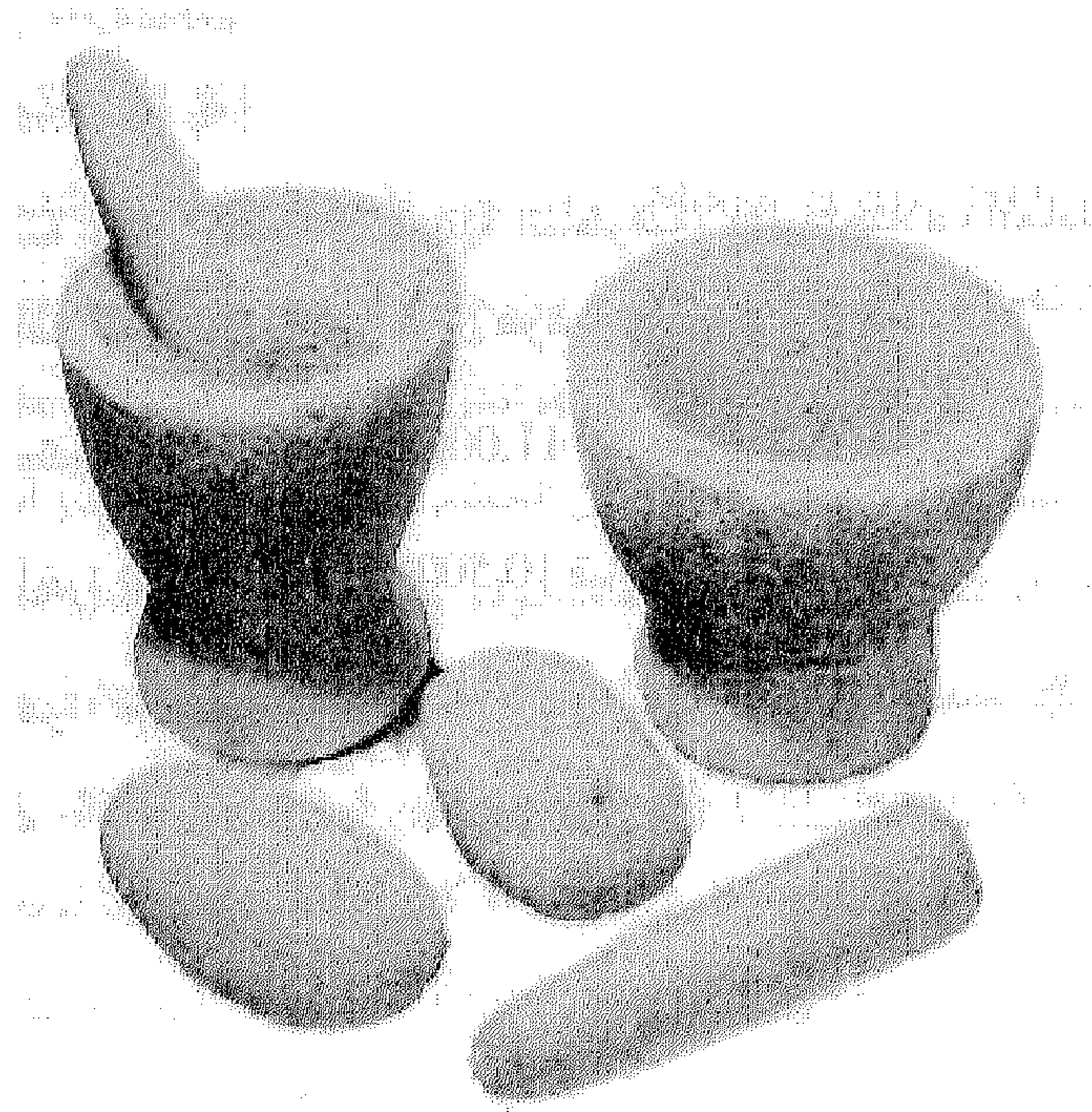


الشكل 19: أدوات صوانية ناطوفية من موقع عين راحوب/ الأردن



الشكل 20: منجل من وادي الحمة 27/ الأردن (عن Edwards et al. 1988)

جاءت أدوات الطحن والدق والهرس الناطوفية متنوعة ومختلفة في أشكالها وماهيتها؛ ففي المواقع الثابتة والكبيرة، مثل وادي الحمة 27، عثر المنقبون على عدد كبير من الهاونات والمدقات، والمساحن، والصحون البازلتية (الشكل 21). وجاءت بعض أيدي المدقات ذات نهاية في أحد طرفيها بشكل العضو الذكري، بينما هناك حجارة بازلتية حفر في وسطها أخدود ربما استخدم لشحذ الأدوات الصوانية، أو ربما مثل العضو التناسلي الأنثوي.



الشكل 21: أدوات دق وسحن من وادي الحمة 27/ الأردن

وكان الناطوفيون مارسوا فنونًا مختلفة، مثل نحت أشكال بشرية وحيوانية في الحجر والعظم (Cauvin 1978). كما عثر على حلي من الحجر والعظم بأشكال مختلفة، مثل الخرز والدلايات التي صنع بعضها من الأصداف. وفي أحيان كثيرة، جمع الناس خرزات بخيط واحد، لتوضع تاجًا على الرأس، أو تضاف إليها دلاية؛ فتلبس عقدًا في الرقبة، أو تكون سوارًا في المعصم. وقد عثر على أمثلة منها في عدد من المدافن، مما يشير إلى رفعة الشأن الاجتماعي للشخص المدفون (Belfer-Cohen 1995).

اصطاد الناطوفيون الغزلان، والأبقار، والماعز، والخنزير. وبينت الإحصائيات أن عظام الغزلان شكلت الأغلبية؛ مما يشير إلى أن الغزلان كانت مصدرًا رئيسًا لوجبة الناس الغذائية في ذلك الوقت. فمثلاً، كانت نسبة عظام الغزلان المصطادة في موقع عين الملاحة، خلال المرحلة المبكرة من الثقافة الناطوفية، 71.4٪ من مجموع أنواع العظام الأخرى، إلا أنها تراجعت إلى 50.5٪ في المرحلة المتأخرة. بينما كان الوضع معكوسًا في بعض المواقع الناطوفية الأخرى، مثل وادي الفلاح و"هاتولا" في فلسطين أيضًا، حيث بلغت نسبة عظام الغزلان إلى الحيوانات الأخرى خلال المرحلة الناطوفية المتأخرة 82.6٪ في الموقع الأول، و97.42٪ في الموقع الثاني (Valla 1987: 267).

واستنادًا إلى دراسة تطور الأدوات الصوانية الناطوفية، وإلى اختلاف أنماط الاستقرار، قسم العلماء الثقافة الناطوفية إلى مرحلتين فرعيتين:

1. المرحلة المبكرة (حوالي 12.000-11.000 قبل الميلاد).
2. المرحلة المتأخرة (حوالي 11.000-10.500 قبل الميلاد).

أما المرحلة المبكرة؛ فإن أهم الآثار المكتشفة، والمؤرخة لها، وجدت في مناطق جبال الجليل والكرمل في فلسطين، وفي جبال لبنان، وفي واحة الكوم في سورية، ووادي الحمة ووادي الحسا في الأردن. وعثر في ملجأ يبرود III على أدوات صوانية وعظمية، وأدوات طحن ودق وهرس، وخرز من الأصداف البحرية. كما عثر في المنطقة المحيطة بموقع يبرود على مواقع أخرى معاصرة، مثل مغارة العبد وجيرود 2. أما في واحة الكوم فإن أهم المواقع التي سجلت فيها هي: ندوية 3 وعريضة 7 والكوم I (Rust 1950; Cauvin, M.-C. et al. 1982; Cauvin, M.-C. 1991; Cauvin et al. 1997). ولاحظ المشتغلون بدراسة الثقافة الناطوفية، أنه في حوالي 11.500 سنة من الحاضر هجرت بعض المناطق، مثل واحة الكوم. وعزا العلماء ذلك إلى انخفاض نسبة هطل الأمطار في ذلك الوقت. علمًا بأنه عثر في منطقة حوض الفرات على مستقرات بنيت خلال المرحلة المتأخرة من الثقافة الناطوفية، مثل أبو هريرة، والمريبط، ودبسي فرج، ونهر الهمر، وقوزاق الشمالي. وربما يشير هذا إلى أن الناس انتقلوا من المناطق التي أصبحت شبه قاحلة والشحيحة المياه إلى مناطق تتوافر فيها كل مقومات الحياة، وأهمها المياه. ويبدو

أن مواقع حوض الفرات لم تكن متعاصرة، وإنما كانت مخيمات موسمية تتقلت الجماعات فيما بينها.

ويمتاز موقعا المريبط وأبو هريرة عن غيرهما من المواقع باستمرارية السكنى فيهما من الناطوفية إلى العصر الحجري الحديث، وبالعثور فيهما على مبانٍ تختلف في مساحاتها. وتؤرخ المرحلة الناطوفية في موقع أبو هريرة للفترة ما بين 13.000-12.000 سنة من الحاضر. وبلغت مساحة المنطقة التي كشف عنها في الموقع من هذه الفترة حوالي 43م^2 تركزت في أسفل المنحدر الشمالي من التل، علماً أن المنقب يعتقد أن الموقع الناطوفي قد احتل مساحة تتراوح بين دونم إلى دونمين، وأن عدد سكان تل أبو هريرة تراوح بين 100-300 شخص (Moore et al. 2000). وقد جاء أقدم البيوت المكتشفة في هذا الموقع بسيطاً في بنائه، إذ تكون بادئ الأمر من حفر في باطن الأرض، حفرت على عمق لا يتجاوز 70سم، بنيت عليها أكواخ أو عرائش من المواد العضوية، كما لوحظ وجود حفر صغيرة استخدمت لتثبيت أعواد من الخشب لرفع السقف. ويبدو أن هذا الطراز من السكنى قد اختلف خلال المرحلة المتأخرة، حيث لم يقم الناس بحفر الحفر، إنما جاءت الأكواخ المبنية من الأخشاب وأعواد القصب مبنية مباشرة فوق سطح الأرض.

وللأسف؛ فإن المنقب لم يستطع التثبت فيما إذا كان الناس في تل أبو هريرة قد استقروا فيه خلال الفترة الناطوفية طوال فصول السنة، أم أقاموا فيه لمدد طويلة ثابتة ومنتظمة. وتشير المخلفات الأثرية المكتشفة في الموقع من أدوات صوانية، وأدوات طحن ودق وهرس إلى أن سكانه مارسوا الصيد، وأنهم قاموا بتحضير وجبتهم الغذائية في الموقع ذاته قبل أكلها. ولن نستطع في هذه العجالة أن نتحدث بالتفصيل عن جميع المواقع الناطوفية المكتشفة في بلاد الشام، وإنما سنكتفي بالإشارة السريعة لبعض منها.

تعد مواقع عين الملاحة، ووادي الحمة 27، وظهرة الذراع من أهم المواقع الناطوفية المكتشفة في جنوب بلاد الشام. وقد تحدثنا عن الموقعين الأولين في كتاب نشر سابقاً (كفافي 2005). أما في سورية؛ فبالإضافة لموقعي أبو هريرة والمريبط، كشفت المسوحات والتنقيبات الأثرية عن مواقع وآثار ناطوفية في مناطق مختلفة، مثل جبل عبد العزيز، حيث عثر فيه على موقعي عين مرير، وبئر الخزنة، وكذلك في المنطقة المحيطة بمدينة دير الزور. وكانت هذه المواقع عبارة عن مخيمات بسيطة، لم يترك فيها الناس إلا أدواتهم الصوانية. أما في المرتفعات السورية الشمالية الغربية؛ فكشف عن عدد من

المواقع في مناطق جبل الزاوية، وحول مدينة حماة، وعفرين، إضافة إلى موقعي يبرود I وقرنة جبل رارا في منطقة الجبال غرب دمشق، واللذين ذكرا سابقًا. كذلك اكتشف حديثاً بالقرب من دمشق موقع ناطوفي آخر، هو باز جبعدين. أما في سهل حوران الذي يشكل الجزء الجنوبي لسورية الحالية، ويمتد إلى شمالي الأردن؛ فعثر فيه على موقع مهم، هو الطيبة (Akkermans and Schwartz 2003).

وقد يسأل سائل: وماذا عن الثقافة الناطوفية في لبنان؟ حتى الآن، جاءت البقايا الناطوفية فيه قليلة، وربما يعود هذا لقلة النشاطات الأثرية الميدانية نتيجة للأوضاع السياسية التي مرت بها البلاد. لكن، من أهم المواقع المكتشفة في جبال لبنان موقعا ناشريني Nachcharini، وعين الجواب (Copeland 1991). وهذان الموقعان عبارة عن كهفين استخدمهما الناس في الفترة الناطوفية المتأخرة، ربما بسبب وقوعهما بالقرب من عيون مياه دائمة الجريان. كذلك عثر في سهل البقاع على عدد من المواقع أهمها جبل سعيدة، حيث كشفت التنقيبات فيه عن قبر ربما كان واحدًا من قبور أخرى إضافة إلى أدوات صوانية، وبازلتية، وعظام حيوانية، وأصداف (Schroeder 1991).

كانت بلاد الشام شهدت خلال الألف التاسع قبل الميلاد زوال الثقافة الناطوفية التي شكلت مرحلة انتقالية بين الجماعات المتنقلة والصيادة والجامعة للقوت من جهة، والجماعات المنتجة من جهة أخرى. وتدريجيًا، حلت محل الثقافة الناطوفية مجتمعات ذات اقتصاد عماده الزراعة، كما هو الحال في حوض الفرات وغور الأردن ووادي فينان. بينما شهدت مناطق أخرى، مثل رأس النقب وصحراء النقب وسيناء والحسمى، ظهور جماعات جديدة، لكنها بقيت صيادة، وتستخدم الأدوات الصوانية التي اختلفت أشكالها عما كان في الناطوفية، مثل رؤوس السهام الخيامية. ومن أهم تلك المواقع جبل حاريف وأبو ماضي وأبو سالم في صحراء النقب وسيناء، والطاحونة والخيام في منطقة بيت لحم، وجبل قويسة والذراع وصبرا I في جنوبي الأردن. وعلى أية حال، فإن هذا الموضوع سيكون مدار البحث على صفحات الفصل التالي.

الفصل الرابع

العصر الحجري الحديث

الفلاحون الأوائل في بلاد الشام

الفصل الرابع

العصر الحجري الحديث

الفلاحون الأوائل في بلاد الشام

يرتبط "الفلاحون الأوائل" في بلاد الشام بمرحلة بدأ الناس خلالها بممارسة الزراعة، ثم تدجين الحيوان، أطلق عليها اسم العصر الحجري الحديث Neolithic (9.500-5.500 قبل الميلاد).

عاشت البشرية حقبًا زمنية طويلة جدًا اعتمد الناس خلالها الصيد والجمع والالتقاط وسيلة لاستمرار حياتهم. وإذا وافقنا أن أقدم المخلفات البشرية التي عثر عليها، حتى الآن، في بلاد الشام، تعود لحوالي 1.400.000 سنة من الحاضر، وأن بداية الإنتاج كانت قبل حوالي 11.500 سنة من الحاضر، فإن القارئ يجد أن أبناء البشرية قضوا أكثر من 99٪ من حياتهم متنقلين وصيادين. وتشير الدراسات المختصة بالعصر الحجري الحديث إلى أن أقدم القرى الزراعية في بلاد الشام عثر عليها في حوض الفرات الأوسط (Cauvin 1994)، وفي أريحا بغور الأردن (Kenyon 1957)، وفي منطقة وادي فينان/شرقي وادي عربة بجنوبي الأردن (Finlayson and Mithen 2007). وإذا كانت هذه القرى تمثل البدايات الأولى للقرية في بلاد الشام، إلا أنها لم تبق على حالها، فقد تطورت القرية بمرور الزمان لتشغل مساحة بلغت في بعض الأحوال (قبل حوالي 7500-7000 قبل الميلاد) حوالي 15 هكتارًا (150 دونمًا). كما أن سكان القرى الأولى كانوا صناعًا مهرة، واستخدموا أنواعًا مختلفة من المواد الخام لصنع ما يحتاجونه.

كذلك شهدت الآثار المكتشفة في بلاد الشام على تقدم فكري، وتطور اجتماعي واقتصادي مع مرور الوقت، حتى وصلت القرية في نهاية المطاف إلى البلدة، ثم إلى المدينة. ولم يتوقف إنشاء القرى الزراعية عند حدود منطقة معينة، بل نراها تنتشر بمرور الزمان في غالبية مناطق بلاد الشام، وهذا مؤشر على تفاعل الناس مع البيئة المحيطة بهم، وعلى قدرتهم في السيطرة عليها لتوائم متطلبات السكنى الدائمة والعيش.

وتعد بدايات القرى الزراعية ومعرفة الإنسان للزراعة والتدجين ملامح شكلت، عبر تاريخ طويل، حلقة من حلقات التطور الإنساني. ولفهم العملية التي رافقت تلك البدايات لا بد من الإشارة إلى أن كثيرًا من العلماء عزا تلك التحولات الاقتصادية والاجتماعية إلى تحولات بيئية حدثت مع نهاية المرحلة الانتقالية أو اللاحقة للعصور الحجرية القديمة Epi-Palaeolithic.

بدايات الزراعة

شهد العالم في الفترة ما بين منتصف الألف الثاني عشر قبل الميلاد (حوالي 11.200 سنة من الحاضر) أحوالاً مناخية باردة، أطلق عليها اسم Younger Dryas، إذ اتسمت هذه الفترة بهبوط في درجات الحرارة بلغ 10 درجات مئوية عن متوسطها في هذه الأيام. كذلك عاد الجليد ليغطي المرتفعات الجبلية، وتساقطت الثلوج فوق الجبال التي يزيد ارتفاعها عن 1200م. ونتجت عن تلك الأحوال المناخية قلة في نسبة هطل الأمطار، وتراجع في الغابات، وزيادة في مساحة السهوب التي تغطيها الأعشاب والأشجار القزمية، إضافة إلى الأشجار التي تنبت عادة على ضفاف الأودية، مثل شجر الجوز.

ومع نهاية الألف العاشر قبل الميلاد، أخذت الأحوال الجوية بالتحول التدريجي نحو الدفء، مصحوبة بالرطوبة، مما ساعد في نمو الأشجار الحرجية، وتشكل مناطق الغابات. وحيث أن الأحوال الجوية لم تستقر تمامًا، وشهدت البلاد خلالها موجة أكثر رطوبة، وأمطارًا صيفية، وبدأت الصفائح الجليدية بالذوبان نتيجة لارتفاع درجات الحرارة، فقد أدى ذلك إلى ارتفاع منسوب المياه الجارية، وتدفقها عبر الأودية، والأنهار التي تصب غالبًا في البحار، مثل البحر المتوسط الذي ارتفع مستوى المياه فيه، نتيجة الذوبان، حوالي ثلاثين مترًا على الأقل. كما أدت تلك العوامل إلى زيادة الترسبات حول

مجاري الأودية والأنهار، كما حصل في أحواض نهر الفرات وفروعه، وإلى تشكل الجداول والبرك والمستنقعات (Bottema and Van Zeist 1981; Sanlaville 1996; Moore et al. 2000).

وفي المجمل، فإن من الطبيعي أن تؤدي تلك التحولات البيئية إلى استفادة الإنسان والحيوان؛ فمثلاً، زادت المساحات التي تغطيها النباتات البرية، خاصة في المناطق المتاخمة للأنهار والأودية وضفاف البحار والبحيرات، كما تنوعت الأشجار، وظهرت أنواع جديدة منها (Wilkinson 1999). لذا، نجد أن جماعات بشرية، وقطعاناً من الحيوان، تندفع إلى تلك المناطق لتوافر ما تحتاجه من مأكل ومشرب.

وشهدت بلاد الشام مع نهاية الألف العاشر قبل الميلاد تنوعًا بيئيًا ساعد على انتشار الناس فوقها، بينما غطت الأشجار الحرجية مناطق الجبال الغربية، بينما كانت بعض المناطق عبارة عن سهوب، كما كان الحال في منطقة الجزيرة السورية. فنجد أن كل منطقة لم تتمتع بغطاء مختلف عن الأخرى وحسب؛ إنما باختلاف أنواع الحيوان التي آوت إليها؛ فبيئة الجزيرة السورية ملائمة جدًا لعيش الغزلان، مثلاً.

وكما كان عليه الحال في العصور الحجرية القديمة، عاشت في هذه البيئات جماعات مارست الجمع والصيد وسيلة للحياة خلال هذه المرحلة الانتقالية، وتطورت وسائل معيشتها يومًا بيوم خلال تنقلها المتكرر. كما وجدت جماعات أخرى استقرت في أماكن ثابتة، واختارت وجبتها الغذائية؛ فاختصت بأكل أنواع محددة من الحبوب والنبات، وبصيد بعض أنواع الحيوان. كما خزنت تلك الجماعات فائض ما جمعته كما هو الحال في عين الملاحة. وبرأينا أن الإنسان لم يقم بخزن فائض ما جمعه من حبوب برية لأغراض المأكل وحسب، وإنما لاستخدامه لأغراض التبادل (كفا في 2005).

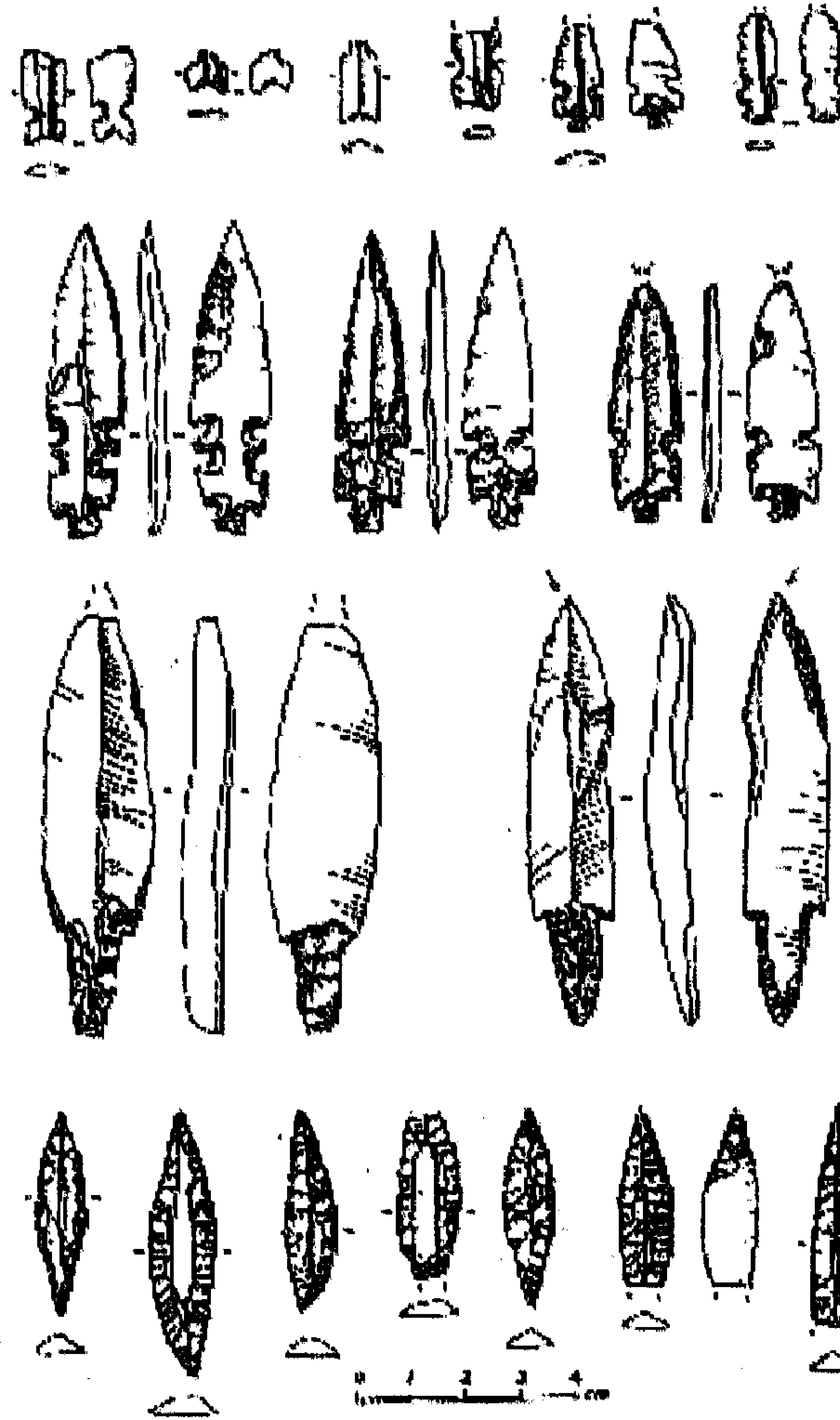
ومع العلم أن بعض الباحثين يرون أن عملية التطور ووصول الإنسان لمعرفة الزراعة أخذت وقتًا أكثر مما يجب، إلا أننا نرى أنه بمرور الوقت والاستقرار بشكل دائم في مكان ما، لتوافر مصادر المعيشة فيه، زاد التقدم الفكري والمعرفي لدى الناس. وربما كان هذا أحد الأسباب المهمة في تحول الإنسان في بلاد الشام من متنقل وجامع للقوت إلى مستقر ومزارع ومنتج؛ فلم تعد الطبيعة هي التي تملكه، بل هو من ملك الطبيعة.

وفي الماضي، ربط كثير من العلماء بين الزراعة والاستقرار الدائم، أو العكس، إلا أن كثيرًا منهم يرى الآن أن المستقرات الثابتة بدأت حتى قبل توصل الإنسان لمعرفة الزراعة. وأصبح واضحًا أن ليس من الضروري أن يزرع الإنسان كي يستقر، أو أن يستقر كي يزرع (كفافي 2005). كما أن كثيرًا من السمات التي تمتعت بها المجتمعات الزراعية هي في الأصل مستمدة من مجتمعات المرحلة الانتقالية بين المجتمعات المتنقلة والصيادة والجامعة للقوت من جهة، والمجتمعات المستقرة والمنتجة لهذا القوت من جهة أخرى. ونقدم أدناه وصفًا للقرى الزراعية الأولى بدءًا بالأقدم فالأحدث:

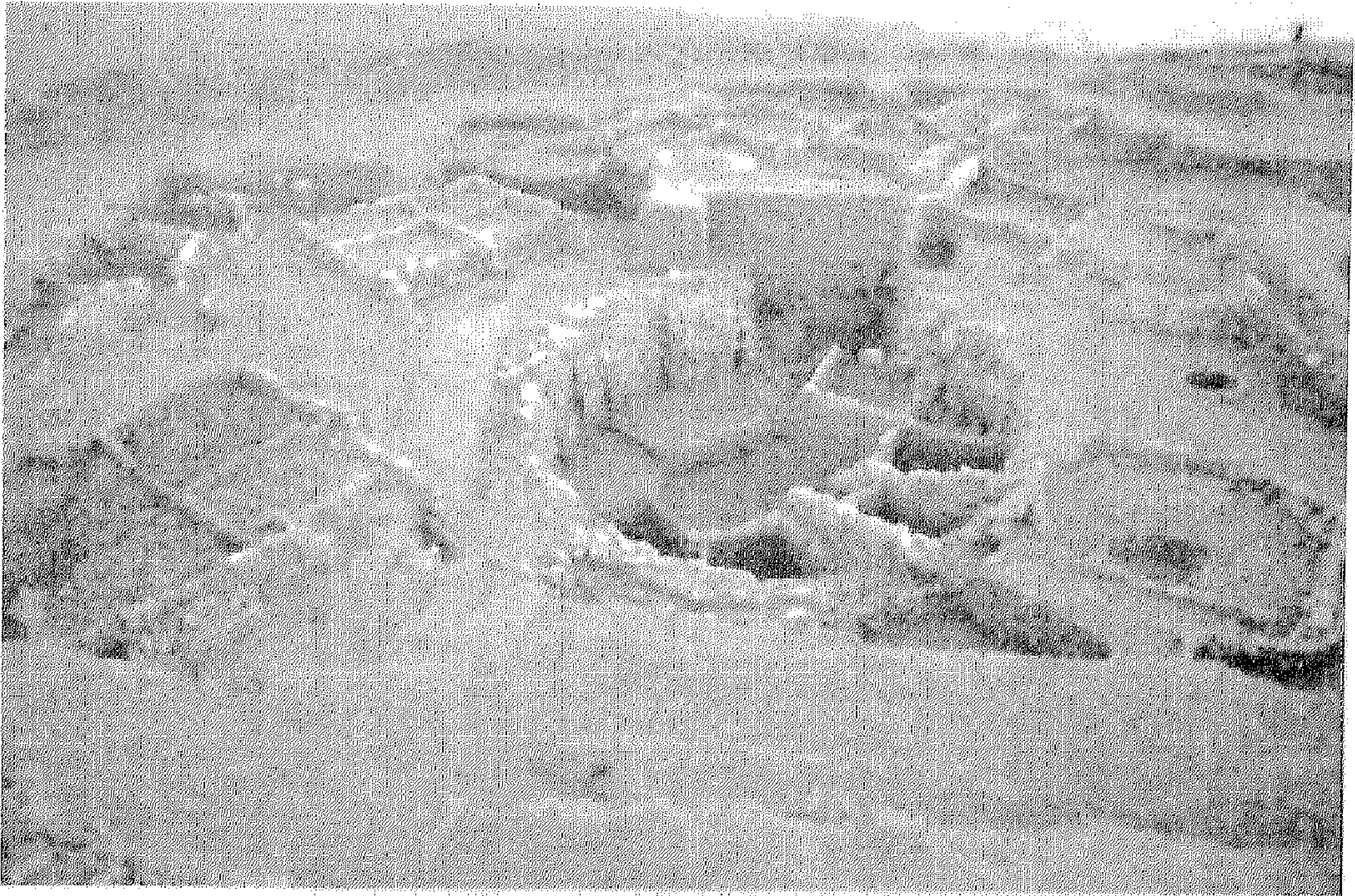
أ. قرى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ)

تعد كاثلين كنيون أول من قسم العصر الحجري الحديث إلى فترتين رئيستين، هما: ما قبل الفخار، والفخاري. ثم قسمت كل فترة إلى مرحلتين فرعيتين، هما: (أ) و(ب). والمرحلة (أ) هي بطبيعة الحال أقدم من (ب) (Kenyon 1957). وما يهمنا هنا هو القول إن كنيون ذكرت أن مخلفات أريحا من فترة ما قبل الفخار (أ)، والمؤرخة حسب تأريخ الكربون الإشعاعي المعاير للفترة ما بين حوالي 9.500-8.700 قبل الميلاد، قد تراكمت في طبقات مثلت مرحلة انتقالية بين الناطوفية والعصر الحجري الحديث، أسمتها العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار Proto-Neolithic، والتي جاءت أيضًا فوق تراكمات الثقافة الناطوفية التي تعد الأقدم في تل السلطان/ أريحا (Kenyon and Holland 1981). بعد أريحا، عثر على عدد آخر من مواقع فترة ما قبل الفخار (أ) متركزة على الأغلب في حوض الفرات الأوسط، وحفرة الانهدام الأفرو- آسيوية، وفي بعض المواقع الساحلية، لكن هذه المناطق جاءت صغيرة المساحة مقارنة بمساحة بلاد الشام الكلية، الأمر الذي دفع بعض العلماء لاستنتاج أن الكثافة السكانية لبلاد الشام كانت قليلة في ذلك الوقت. لكن باحثين آخرين (Kuijt 2000) رفضوا هذا الرأي، وذكروا بأنه وعلى الرغم من تركز الناس في مناطق معينة؛ إلا أن مساحة المواقع كانت كبيرة، مما يعني أن عدد سكانها كان كبيرًا. ولن نخصص نقاشنا هنا لجميع مواقع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ) في بلاد الشام، قدر ما سنأتي على السمات العامة له بالاستناد إلى نتائج التنقيبات الأثرية في أهم المواقع التي ترجع إلى هذه المرحلة.

ما يميز مرحلة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ) أن الزراعة لم تكن الأساس الوحيد للعيش، إذ بقي الصيد يؤدي دورًا كبيرًا في حياة الناس. ودليلنا على هذا تطوير الأدوات التي استخدمت في صيد الحيوان لتصبح أكثر فعالية، خاصة القوس والنشاب، فكانت رؤوس السهام بأشكالها المختلفة (الشكل 22).



الشكل 22: رؤوس سهام من مختلف فترات العصر الحجري الحديث



الشكل 23: بيوت من العصر الحجري الحديث من جرف الأحمر/ سورية (من دانييل ستوردور)

كما نهج الناس في بناء منازلهم الطرق البنائية ذاتها التي كانت متبعة خلال الثقافة الناطوفية، فلم تخرج بيوتهم عن الشكل المستدير، وتكونت الوحدة المنزلية من غرفة واحدة فقط، أنشئت على أساسات مبنية تحت مستوى سطح الأرض (Finlayson and Mithen 2007). وقد عثر على أمثلة من هذا الطراز في مواقع متعددة، منها الجرف الأحمر والمريبط والشيخ حسن وتل العبر (في حوض الفرات الأوسط)، وتل أسود (في غوطة دمشق)، وفي أريحا ووادي بكر وجلجال I (في غور الأردن بفلسطين)، ووادي الفلاح (السهل الساحل الفلسطيني/ قرب حيفا)، ووادي فينان 16، والذراع، وظهرة الذراع (جنوبي الأردن/ وادي عربة ووادي الكرك). لكن ثمة خصوصية في بعض المناطق، مثل المريبط والجرف الأحمر، حيث تقطيعات داخلية في الغرفة الواحدة (الشكل 23) (Cauvin 1978; Stordeur 2000).

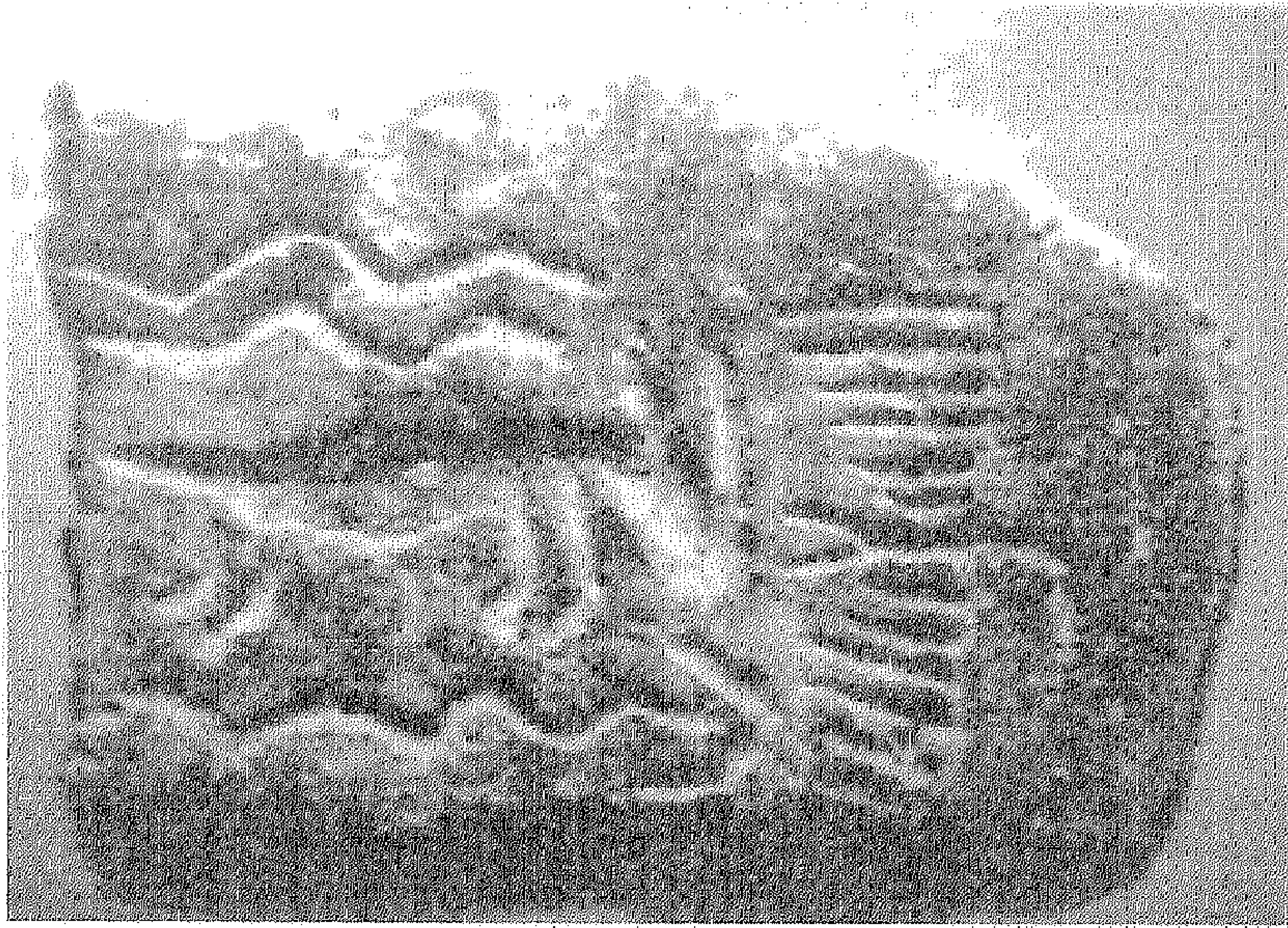
امتازت الأدوات التي استخدمها الناس في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ) بتنوعها، واختلاف أشكالها، وتعدد المواد الخام التي صنعت منها. وقبل أن نسهب بالحديث عن هذه الأدوات، نذكر بأن الباحثين عثروا على أدوات صوانية استخدمت في

الفترة ما بين حوالي 9.500 إلى 9.000 قبل الميلاد، نسبت لثقافة أخرى، أسموها "الثقافة الخيامية" نسبة إلى مدينة الخيام قرب بيت لحم في فلسطين، حيث عثر عليها لأول مرة (Neuville 1934). وتمتاز الأدوات الصوانية الخيامية برؤوس السهام المصنوعة على نصلات (شفرات)، أو على شفرات صغيرة ذات نهاية مقعرة وندبة على كل جانب. ويرى العلماء أن هذا النوع من الأدوات الصوانية لا يخص المزارعين الأوائل في بلاد الشام، وإنما الصيادين الذين أتوا إلى هذه المواقع واستخدموها مخيمات لهم، حيث عثر فيها على هذه الأدوات، إلا أنه لم يكشف فيها عن أية بقايا عمائرية (Henry 1986: 20; Copeland 1991: 27-42; Akkermans and Schwartz 2003: 50). وقد عثر في تل شهاب إلى الشرق من مدينة حمص وناشريني على أدوات تؤرخ لهذه الفترة (Copeland 1991).

ومن الجدير بالذكر، أن بعض أنواع الأدوات التي كانت معروفة خلال الثقافة الناطوفية استمرت قيد الاستخدام خلال المرحلة الأولى من العصر الحجري الحديث. لكن الصانع، وبمضي الوقت، أدخل على تلك الأدوات تعديلات تتواءم وحاجة الزراعة والمزارع؛ فصنع أدواته من الحجارة بأنواعها الصوانية، والبازلتية، والجيرية، والرملية، ومن خامات السبج (الأوبسيديان)، ومن العظام، ومن الصلصال. كما صنع من الأصداف البحرية حليًا ومجوهرات.

وفي دليل على التقدم الفكري خلال العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ)، مارس بعض الناس أنواعًا من الفنون، إذ عثر على شواهد من تلك الفنون في عدد من المواقع، مثل جعدة المغارة، وجرف الأحمر، وأريحا، حيث عثر مؤخرًا في الموقع الأول على رسومات جدارية تعود للمرحلة (أ) من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (Coqueugniot 1999)، بينما عثر في الموقع الثاني على حجارة حفرت فيها أشكال حيوانية وهندسية غائرة (الشكل 24)، ربما أنها ذات دلالات عقائدية (Stordeur and Jamous 1996; Stordeur et al. 1996)، أما أريحا؛ فعثر فيها على دمى طينية (Holland 1982: 551-564). ولا نستطيع أن نقرر، حتى الآن، فيما إذا كانت تلك الفنون ذات دلالة على تشكل معتقدات ما، أو على ممارسة طقوس ذات أبعاد دينية لدى المجتمعات الزراعية في منطقة بلاد الشام حينئذ. علمًا أن هناك من الدارسين من يرى أن الناس مارسوا بالفعل بعض الطقوس الدينية، ويسوقون مثالاً على ذلك من جرف الأحمر، حيث عثر على عدد من الجماجم البشرية التي تحمل في أسفلها آثار نار نتيجة

وضعها على رصفة من الحجارة الصغيرة في موقد للنار، مما يشير إلى أن ذلك، ربما، كان أمرًا متعمدًا ذا صلة بمعتقدات ما (Akkermans and Schwartz 2003).



الشكل 24: حجر حفرت فيه أشكال هندسية وأشكال طيور وحيوانات خرافية من موقع جرف الأحمر/ حوض الفرات الأوسط/سورية (من دانييل ستوردور)

ولما كان موقع أريحا أول وأقدم قرية زراعية تكتشف في بلاد الشام، ونظرًا لغناه بالمخلفات الأثرية والبقايا المعمارية المؤرخة لهذه الفترة، فإن من الأهمية الحديث عنه هنا. فمنذ بداية القرن العشرين، قام عدد من الباحثين بالتنقيب في موقع تل السلطان/ أريحا ظنًا منهم أنه الموقع المذكور في التوراة. وتبقى التنقيبات التي قامت بها الإنجليزية كاثلين كنيون ما بين عام 1952 وحتى 1985 أهم وأشمل التنقيبات التي جرت في أريحا. وكما ذكرنا، كشفت التنقيبات عن استمرارية في سكنى الموقع بدءًا بالثقافة الناطوفية، لكن مساحة الموقع خلال المرحلة (أ) من العصر الحجري الحديث بلغت 2.5 هكتارًا (25 دونمًا). وأقام أهله في منازل مستديرة مبنية من اللبن على أساسات حجرية، وجاء الجزء السفلي منها مبنيًا تحت مستوى سطح الأرض. كما عثر في الموقع على برج (الشكل 25)، وجدار، وخندق، وجاء البرج والجدار مبنيين من الحجارة. وبلغ ارتفاع البرج 8.5م، وعرضه عند قاعدته 10م، وبني في داخله درج مكون من اثنتين

وعشرين درجة، تقود من الأسفل إلى الأعلى (Kenyon 1957: 69, 195; Kenyon and Holland 1981: 18-23, Pls. 4-12).

إن إقامة مثل تلك المباني الكبيرة في موقع تل السلطان/أريحا، خلال المرحلة المبكرة من العصر الحجري الحديث، تتطلب تضافر جهود جماعة كبيرة من الناس، مما يشير إلى مجتمع منظم، وربما سلطة.



الشكل 25: برج من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ) في أريحا/ فلسطين

ب. قرى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)

يعد العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) (حوالي 8700-7000 قبل الميلاد) مرحلة استطاع الناس خلالها السيطرة الكاملة على مقدراتهم الاقتصادية؛ فأتقنوا صناعة الأدوات اللازمة للزراعة والصيد، ثم قاموا بتدجين الحيوانات وتربيتها للإفادة من لحومها ومنتجاتها. ويقسم العلماء العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) إلى ثلاث مراحل فرعية، هي: المبكرة (حوالي 8700-8200 قبل الميلاد)، والوسطى (حوالي 8200-7500 قبل الميلاد)، والأخيرة (7500-7000 قبل الميلاد).

لاحظ المشتغلون بعصور ما قبل التاريخ ازديادًا واضحًا في عدد المواقع الأثرية أكثر مما كان عليه الحال في المرحلة السابقة. كما لاحظوا أن الناس سكنوا في مناطق لم تسكن في السابق، إضافة إلى أنهم استمروا في سكنى بعض المواقع، أو عادوا للاستقرار في مواقع أخرى هجرت سابقًا. ومن المواقع التي استمر الناس في سكناها، تل حالولة وأبو هريرة وجعدة المغارة في حوض الفرات الأوسط. أما المواقع التي سكنت لأول مرة؛ فمنها عين غزال ووادي شعيب والبيضا وشكارة مسيعد وعين أبو نخيلة في الأردن. وأما من هجر ثم أعيد سكناه؛ فأفضل مثال جاء من موقع أريحا. أما من هجر ولم يسكن؛ فهو جرف الأحمر.

اختلفت المواقع الأثرية في مساحاتها وطبيعتها، وطرق تنظيمها، وحتى في المدة الزمنية التي استقر الناس فيها. فمثلاً؛ نجد أن بعض المواقع، مثل الطيبة في سهل حوران، لم تخرج عن كونها مخيمًا، ويعطي هذا مثالاً على مواقع أخرى من المخيمات لم تتجاوز مساحة الواحد منها في بعض الحالات 100م^2، بينما نجد أن مساحة بعضها قد تجاوزت 100 دونم، مثل عين غزال والبسطة في الأردن خلال المرحلة المتأخرة من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب). كما آوى الناس في بعض الحالات إلى الكهوف والملاجئ الصخرية، كما هو الحال في مناطق جبال لبنان الشرقية، وجبل الدوارة وجبل عبد العزيز في سورية. ولا يخلو الأمر من مواقع شكلت نتيجة للاستقرار المتواصل فيها تلالاً أثرية تراوحت مساحة الواحد منها بين نصف هكتار (خمسة دونمات) وعدة هكتارات (Akkermans 1993). فمساحة موقع تل حالولة كانت 7 هكتارات (70 دونمًا)، بينما جاءت مساحة كل من تل أسود وتل الغريفة في غوطة دمشق 5 هكتارات (50 دونمًا)،

لكن بلغت مساحة موقع أبو هريرة 12 هكتارًا (120 دونمًا)، وعين غزال والبسطة 15 هكتارًا (حوالي 150 دونمًا) لكل منهما.

ومن الملاحظ أن المواقع ذات المساحات الكبيرة سادت بشكل خاص في الفترة ما بين حوالي 7500-7000 قبل الميلاد، وهذا يعني أن اتساع المكان كان على الأغلب بسبب زيادة في عدد السكان. وربما يكون السبب في هذا تغير في الأحوال المناخية أثر في تواجد الناس في بعض مناطق بلاد الشام، مثل غور الأردن، مما اضطرهم للنزوح إلى المناطق الجبلية، والذي أدى بالتالي إلى زيادة مساحة المواقع وعدد السكان فيها. وقد أطلق بعض العلماء على هذه المواقع اسم "المواقع الكبيرة" Mega Sites، بينما عدَّها آخرون "بلدات" Towns (Kafafi 2003).

ومن المؤكد أن كثيرًا من تلك المواقع، إن لم يكن جميعها، كانت على تواصل واتصال ببعضها، سواء كان الاتصال مباشرًا أو غير مباشر. علمًا أننا لا ننكر أن بعض المواقع مثل الصبي الأبيض في حوض نهر البليخ تأسس في منطقة معزولة، وبعيدًا عن غيره من المواقع (Akkermans 1997). لكن ما يجمع بين هذه المواقع، كذلك، أنها تأسست جميعها بالقرب من مصادر المياه الدائمة (خريطة 4).

أما فيما يتعلق بالبقايا المعمارية المؤرخة للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)؛ فقد لاحظ المنقبون والدارسون اختلافًا في الطرز العمائرية بين المراحل الثلاث المبكرة والوسطى والمتأخرة، واختلافًا فيما بينها من موقع لآخر. هذا مع العلم أن البيوت المستطيلة أو المربعة ذات الزوايا القائمة والجدران المستقيمة، وذات الأرضيات المقصورة والمدهونة باللون الأحمر، كانت السمة الغالبة لمواقع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب).

جاءت الأمثلة على العمارة المؤرخة للمرحلة المبكرة للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) قليلة، مقارنة بالفترتين الوسطى والأخيرة. وربما يعزى السبب في ذلك إلى قلة المواقع الأثرية المكتشفة والمؤرخة لهذه الفترة. وجاء معظم المواقع من منطقة حوض الفرات الأوسط، مثل تل أسود، وجعدة المغارة، والمريبط IVA، ومن موقع أريحا في غور الأردن. ففي موقع المريبط IVA، عثر على بيوت ذات زوايا قائمة، أي أنها مستطيلة أو مربعة الشكل، كما وجدت تحت مصاطبها مدافن للبشر. أما في موقع جعدة المغارة الواقع للشمال من المريبط؛ فجاءت المباني المؤرخة للفترة بين حوالي 8100-8000 قبل

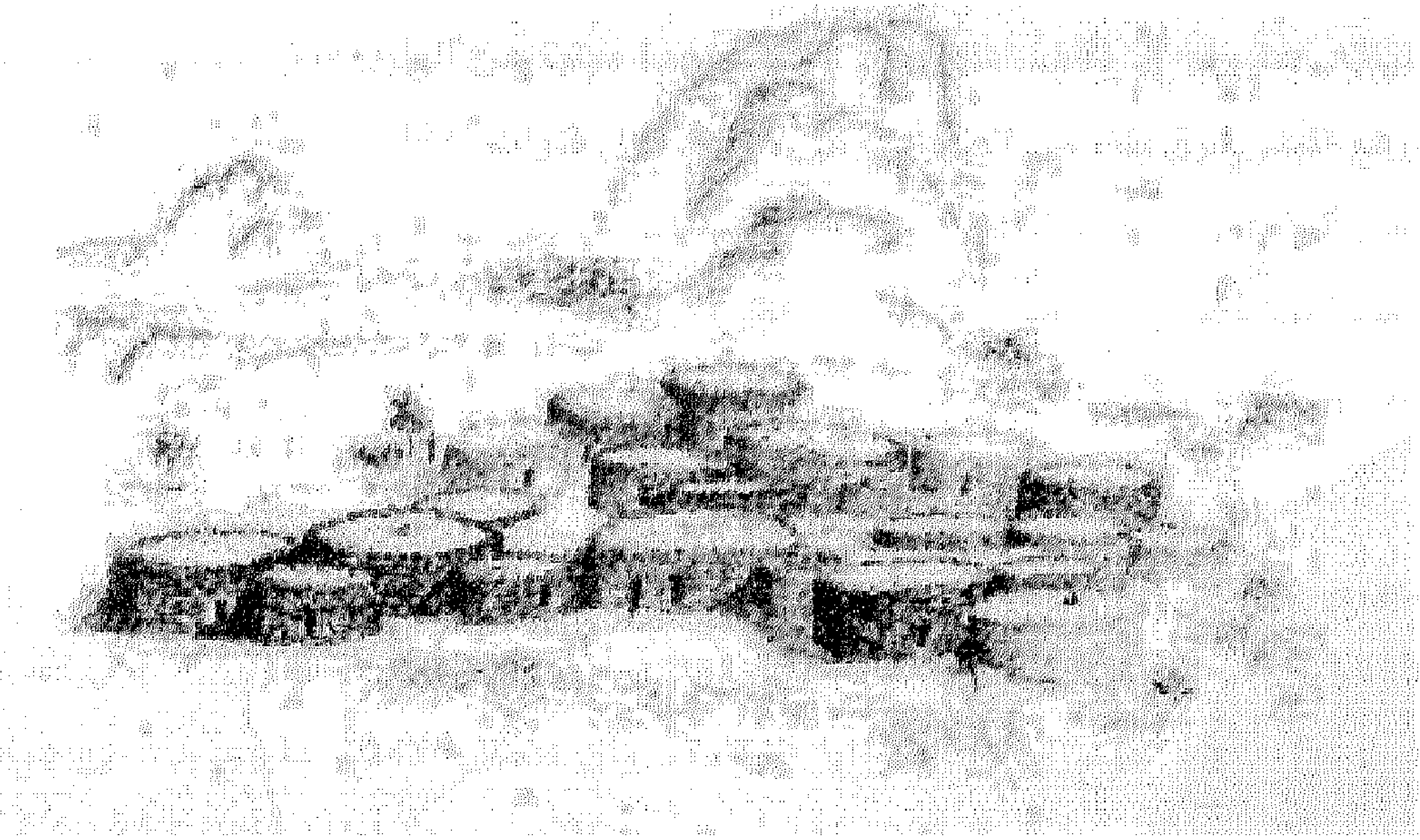
الميلاد صغيرة، إذ تألف المنزل من غرفة واحدة مبنية من الطين فوق أساسات حجرية، ورفع المبنى فوق بناء من الحجارة بني على شكل قنوات (Coqueugniot 1998; 1999). ومن الواضح أن هذه المنازل استخدمت لفترات طويلة، إذ لاحظ المنقبون أن أهلها قد اعتنوا بها كثيرًا؛ فقاموا بصيانتها أكثر من مرة. كما ألحقت بالمنزل ساحة حفر فيها عدد من الحفر لأغراض الخزين.

وبالمقارنة بين منازل مواقع حوض الفرات الأوسط وتلك التي عثر عليها في مواقع غوطة دمشق، مثل تل أسود؛ فإننا نجد مباني الأخيرة كانت بسيطة البناء ومبنية من أعواد القصب والطين (Cauvin 1972). إذن، شهدت مرحلة العصر الحجري ما قبل الفخار (ب) أول ظهور للمنازل ذات الزوايا القائمة، وأن أفضل الأمثلة عليها جاء من مواقع حوض الفرات الأوسط، مثل المريبط، وأبو هريرة (المحيسن- سلطان 53:1994).

أما خلال المرحلة الوسطى للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) (حوالي 8200-7500 قبل الميلاد)؛ فإننا نجد أن البيوت ذات الزوايا القائمة سادت، لكن مع ملاحظة وجود مبانٍ مستديرة، حيث كشفت التنقيبات عن مثل هذا النوع من المساكن في مواقع البيضا، وشكارة مسيعد (الشكل 26)، ووادي رم، وعين أبو نخيلة، وجميعها تقع في جنوبي الأردن (كفافي 2005). كما لاحظ المنقبون أن البنّائين في موقع البيضا قد وضعوا ألواحًا أو أعمدة خشبية وسط جدران البيوت المستديرة (Kirkbride 1966; 1968). أما البيوت ذات الجدران المستقيمة والزوايا القائمة؛ فقد شاعت في كثير من مواقع بلاد الشام منها، على سبيل المثال لا الحصر، حالولة وأبو هريرة في سورية، وأريحا والمنحطة في فلسطين، وعين غزال ووادي شعيب والبيضا في الأردن. ونرى أن موقع البيضا شهد بناء الطرازين المستدير والمستطيل في الفترة ذاتها، علمًا أن الأول أقدم تاريخًا.



خريطة 4: أهم مواقع بلاد الشام في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار



الشكل 26: استبناء لبيوت العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) الأوسط في موقع شكارة مسيعد، البتراء/ الأردن (عن Kinzel 2004)

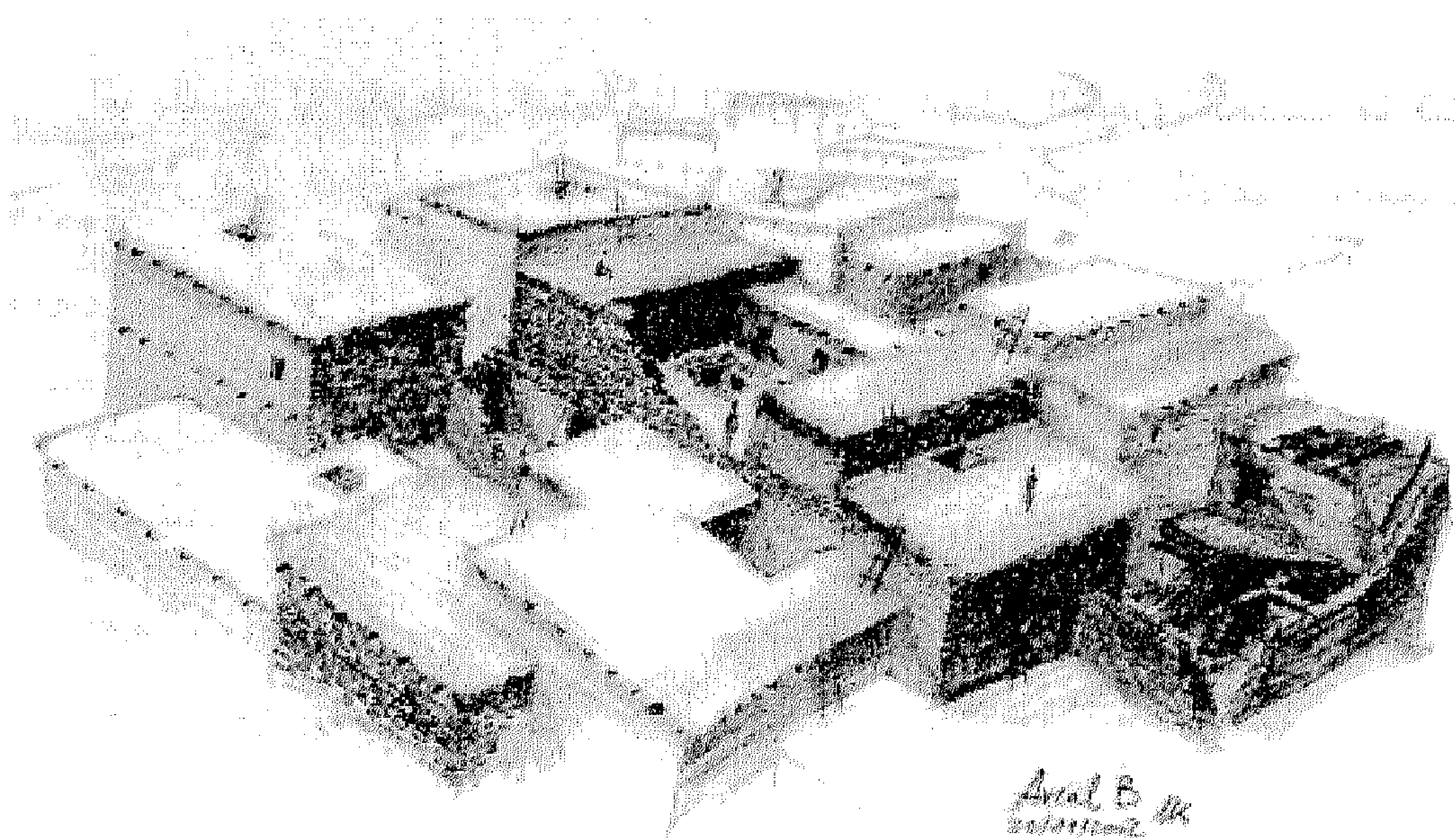
وقد تكونت الوحدة المنزلية من غرفة واحدة كبيرة في مساحتها، فمثلاً تراوحت في حالولة وأبو هريرة بين 46-82م^2، أما في عين غزال في الأردن؛ فبلغت مساحتها 25م^2 (Rollefson 1997). واختلفت مادة البناء من منطقة لأخرى؛ فثمة أبنية طينية، أو من اللبن، وأخرى من الحجر. فمثلاً جاءت بيوت حوض الفرات الأوسط وغوطة دمشق وغور الأردن مبنية من اللبن أو الطين على أساسات من الحجارة في كثير من الأحوال، بينما وجدنا أنها في المواقع الجبلية والبادية كما هو الحال في موقعي عين غزال والبسطة وغيرها في الأردن مبنية من الحجارة الغفل. وجاءت أرضيات البيوت مقصورة ومدهونة بالأحمر، وظهرت في قليل من الحالات بعض الأشكال المرسومة على الأرضيات، مثل أصابع اليد في عين غزال، والأشكال الأنثوية في موقع حالولة، وذلك في المباني المؤرخة للفترة بين حوالي 7200-7000 قبل الميلاد.

وبنيت الغرف أو المنازل بشكل متلاصق، واستخدمت في بادئ الأمر أعمدة خشبية لحمل السقوف، وفي مرحلة لاحقة من نفس الفترة استخدمت الجدران الحجرية. كما أن الناس قاموا، عند الحاجة، إما بتوسيع أو تصغير المنازل، وذلك بتحريك بناء أحد الجدران من مكانه الأصلي، وأفضل مثال على هذا جاء من موقع عين غزال. كما أن

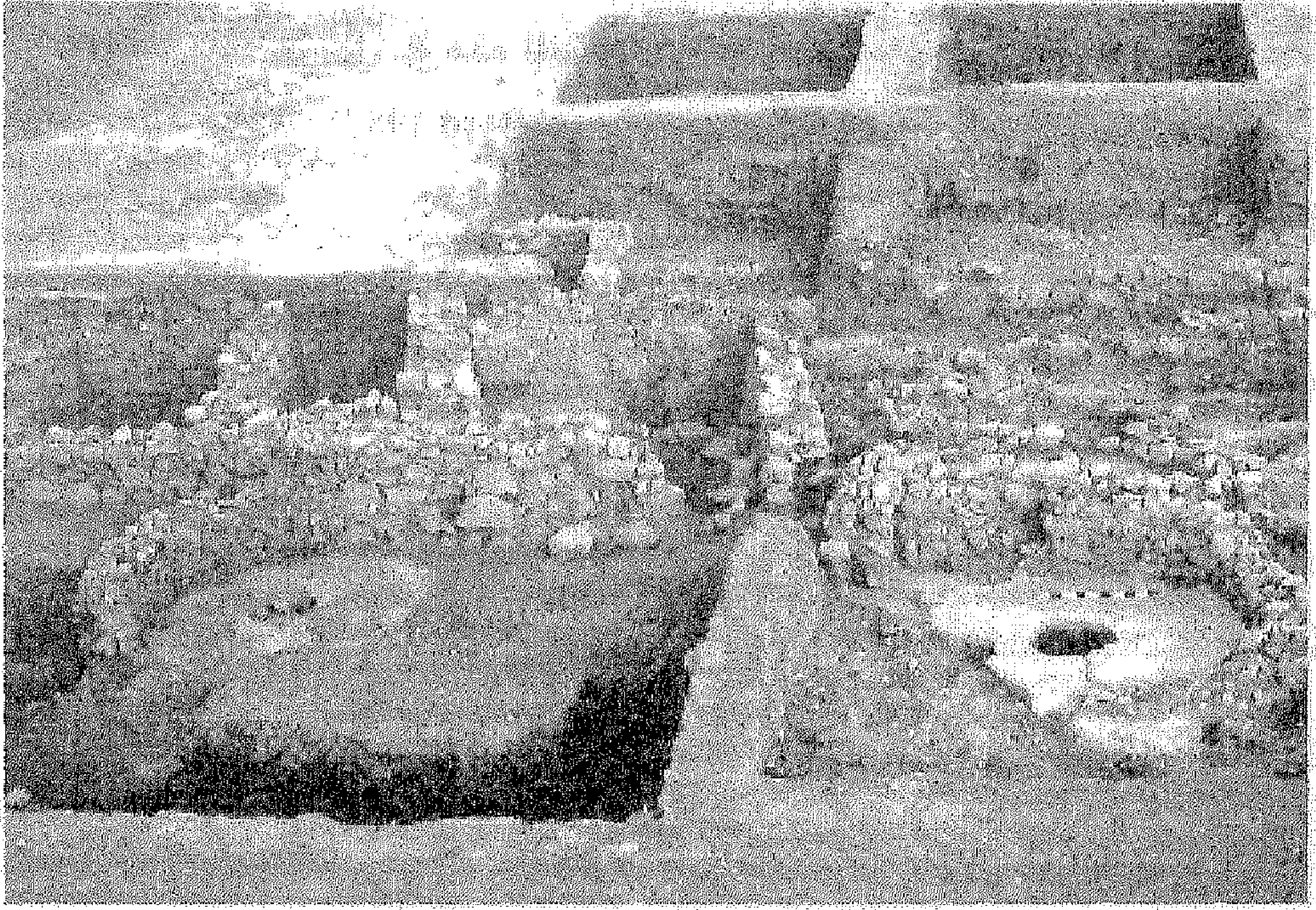
من السمات الثابتة للمنزل في هذه المرحلة هي بناء موقد في وسط مصطبته في مكان يقابل، تمامًا، مدخله (Banning and Byrd 1987).

شهدت المرحلة الأخيرة من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) (حوالي 7500-7000 قبل الميلاد) تنوعًا وضخامة في بناء المنازل، إذ تكونت من عدد من الغرف، وربما أكثر من طابق، كما هو الحال في بعض مواقع الأردن، مثل الصفية (Mahasneh 1997)، والبسطة (الشكل 27) (Gebel et al. 2006).

وإضافة للبيوت السكنية، وصف المنقبون بعض المباني بأنها ذات سمة عقائدية، وذلك لاختلاف طرازها البنائي، كما هو الحال في موقع عين غزال (الشكل 28) (Kafafi and Rollefson 1995)، وأريحا (Kenyon 1957). وبذلك نكون قد أوضحنا تطور الوحدة المنزلية على مدى ما يقرب من الألفي عام.



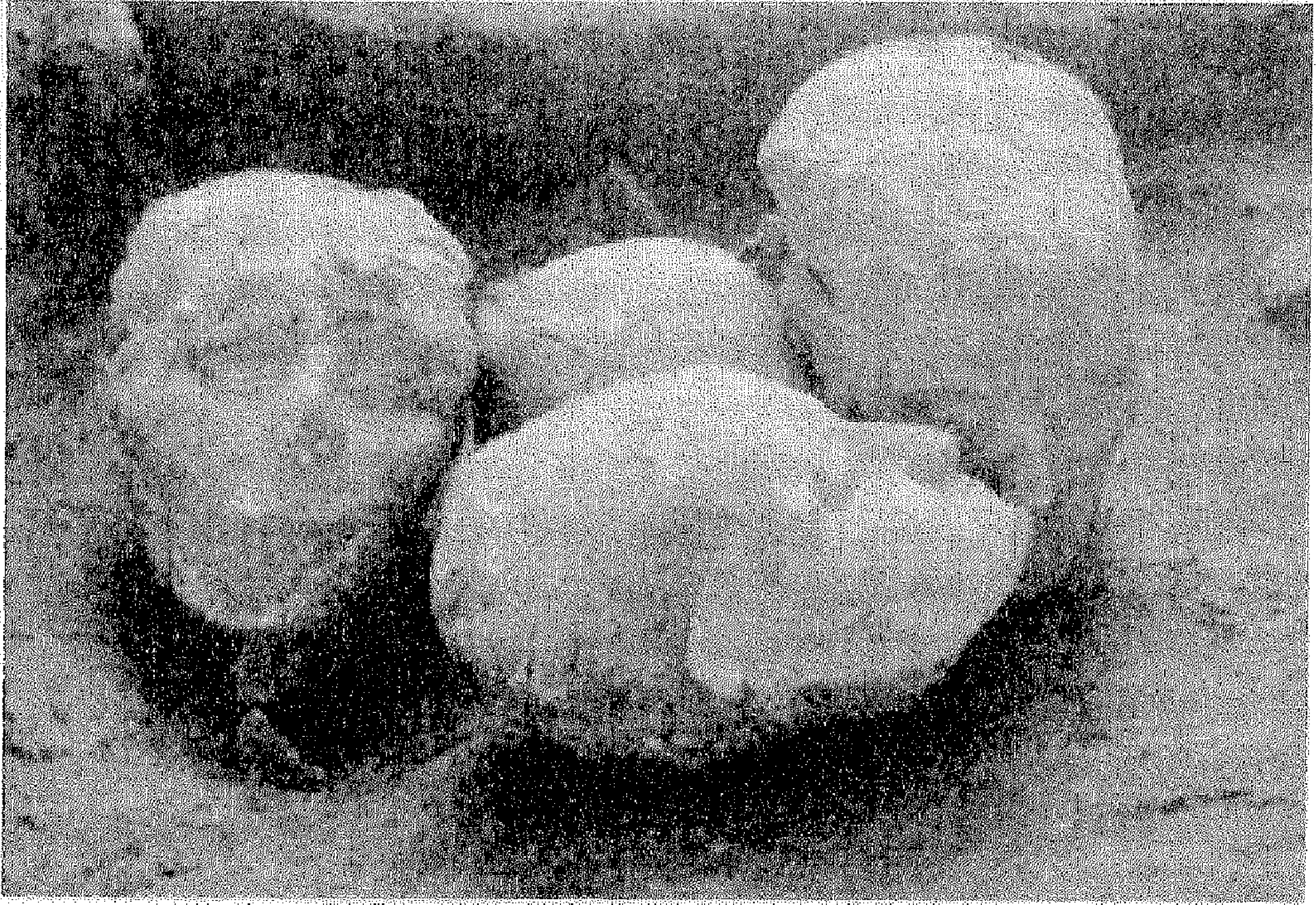
الشكل 27: استبناء لبيوت المرحلة الأخيرة من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) في موقع البسطة/ جنوبي الأردن (عن Kinzel 2004)



الشكل 28: بقايا أبنية مستديرة، ربما ذات سمة عقائدية، عين غزال/ الأردن (من بلال الدغيدي)

أما بالنسبة للأدوات التي استخدمها الناس خلال العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)؛ فجاءت مصنوعة من خامات متعددة، مثل الحجارة بأنواعها، والعجينة البيضاء، والعظام، والأصداف (كفافي 2000). فمثلاً، تعددت أشكال الأدوات الصوانية وأحجامها، وتكونت على الأغلب من رؤوس السهام، ورؤوس الرماح، وشفرات المناجل، والمناقش، والمقاحف، والمثاقب، والسكاكين، والشفرات، والمسننات، والفؤوس، والمجارف، والأزاميل (Mortensen 1970; 1988).

وفيما يتعلق بعادات الدفن خلال هذه المرحلة، فقد جاءت متشابهة إلى حدٍ كبير في جميع مواقع بلاد الشام، حيث كان المتوفى يدفن في حفرة تحفر خصيصًا تحت أرضيات البيوت. وكان المدفون يترك داخل الحفرة مدة من الوقت حتى يتم التأكد من أن اللحم قد زال عن العظم. بعد هذا، تفتح الحفرة مرة أخرى ليفصل الرأس عن بقية الهيكل العظمي، ويدفن في مكان آخر غير الحفرة التي تبقى فيها باقي عظام الإنسان (الشكل 29).



الشكل 29: جماجم مجصصة من تل أسود/ سورية (من دانييل ستوردور)

وكان الميت يدفن بوضعه إما على الجانب الأيمن أو الأيسر، وبوضع قرفصائي. لكن لوحظ أن الناس في موقعي أبو هريرة وجعدة المغارة بنوا غرفاً، وحشروا فيها عدة هياكل عظمية، كما أن إحدى الجماجم التي عثر عليها في موقع أبو هريرة قد طليت بالقار بعد أن لفت بالحصير. وتجدر الإشارة إلى أن عادة فصل الجمجمة عن بقية الهيكل العظمي بدأت خلال الثقافة الناطوفية.

وأظهرت المدافن التي عثر عليها في مدافن حوض الفرات الأوسط، مثل أبو هريرة وحالولة وجعدة المغارة، عادة دفن امتازت عن بقية مناطق بلاد الشام بلف الشخص المتوفى بقطعة من الحصير، وبنثر اللون الأحمر فوقه. وكشف في أحد مواقع أبو هريرة عن أن الناس وضعوا حول جسد المتوفى طبقة من الجص، وقبل أن يجف، يلف بقطعة من الحصير (Moore and Molleson 2000).

ولم تخل المدافن من المرفقات الجنائزية، إذ عثر على عدد منها في معظم مدافن العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)؛ فقد عثر في بعض مدافن تل أسود على دمية حيوانية،

وفي تل الرماد على دمية آدمية. كما وضع الناس قرون وأفكاك الحيوانات مع الأشخاص المدفونين (Garfinkel 1994; de Contenson 1995; Coqueugniot 1998; 1999).

حقق الناس خلال العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) درجة متقدمة في الفكر والاقتصاد والحياة الاجتماعية والفنون، فقد كشف في عدد كبير من مواقع هذه المرحلة عن عدة تماثيل، ودمى آدمية، وأخرى حيوانية، ومجوهرات وحلي بأنواعها (عبد الرحمن 2009). وربما يشير ذلك، بالإضافة لتعدد أنواع الخامات التي استخدمها الناس في صناعة هذه الفنون، إلى وجود طبقة من الناس احترفت الفن. وقد استخدم الفنان العظم، والصلصال، والجص في تشكيل ما أراد (Schmandt-Besserat 1996; 1998). بل زاد على ذلك أنه في بعض المواقع، مثل جعدة المغارة والمريبط وتل حالولة وبقرص في سورية، وفي البعجة في جنوب الأردن (Gebel 2002)، قد مارس الرسم على الجدران باللونين الأحمر والأسود.

جاءت التماثيل والدمى الآدمية إما كاملة أو نصفية، أو حتى فاقدة، في بعض الحالات، للأطراف أو للرأس. وتعد التماثيل الآدمية المصنوعة من الجص، والتي عثر عليها في موقع عين غزال (الشكلان 30 و31)، فريدة من حيث طريقة الصنع، وهي أقدم تماثيل بشرية تمثل الإنسان بحجمه الطبيعي على وجه التقريب، إذ عثر في الموقع خلال موسمي عامي 1983 و1985 على دمى تمثل رجالاً ونساء، وجاء بعضها كاملاً والآخر نصفي (Tubb and Grissom 1995; Schmandt-Besserat 1998).

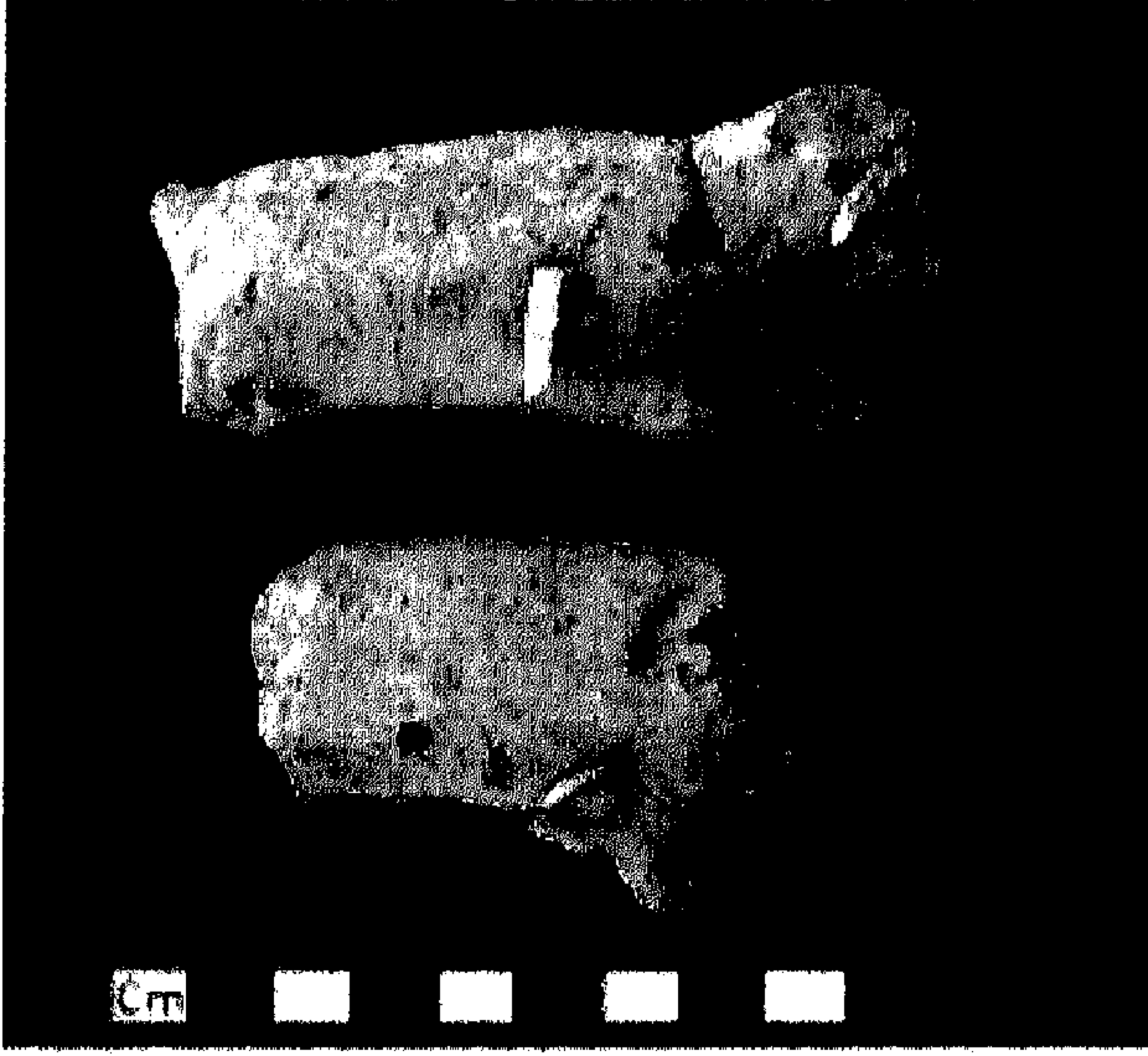
وجاء عدد الدمى الحيوانية كبيرًا، ويمثل غالبًا الحيوانات البقرية؛ فمثلاً عثر في عين غزال على دمى حيوانية مصنوعة من الصلصال، لا تتجاوز الواحدة منها 10سم، ولوحظ أن الفنان ترك حول أعناقها أخدودًا يمثل وضع الحبل حول الرقبة، مما يؤكد أنها دجنت في ذلك الوقت. كما غرست نصلات صوانية في رقاب بعض الدمى البقرية، أو في أجسادها (الشكل 32) (Rollefson 2000).



الشكل 30: تمثال آدمي مزدوج، من الجص، عين غزال/ الأردن
متحف الآثار الأردني/ عمان (عن Rachet and Vincent 2006)



الشكل 31: تمثال من الجص، عين غزال/ الأردن
متحف التراث الأردني/ جامعة اليرموك (عن Rachet and Vincent 2006)



الشكل 32: دمى طينية بقرية غرست في أجسادها نصلات صوانية عين غزال/ الأردن (عن Gary Rollefson)

حاول الدارسون للفن واللقى الفنية المؤرخة لهذه المرحلة الخروج بتفسيرات، لا سيما فيما يخص الغرض الذي صنعت من أجله هذه الدمى والتماثيل؛ فمنهم من قال إنها كانت مجرد ألعاب أطفال، أو أنها صنعت لجلب الحظ، بينما أضاف آخرون أنها ربما كانت ذات صفة سحرية أو عقائدية (Cauvin 1994; Schmandt-Besserat 1996; 1998).

وعلى الرغم من عدم اتفاق العلماء في تحديد وظيفة هذا النوع من الفنون، إلا أن الأمر يعكس اهتمامًا إنسانيًا خاصًا نفذ الفنان من خلاله جملة من الأفكار التي دارت بخلده. وحيث أن هذا الإنسان كان جزءًا من مجتمع القرية التي عاش فيها، فهو إذن يعكس مبادئ وأفكار ذلك المجتمع، والتي تدل عمومًا على اتساع في الأفق الفكري، وعلى ظهور مجتمع ربما كان (إن لم نكن نغالي) منظمًا، ومعقدًا، ومتعدد الطبقات، وفيه رئيس ومرؤوس، وتحكمه عادات وتقاليد.

ويشير كل ما تقدم إلى طبيعة المجتمعات البشرية التي عاشت في بلاد الشام ما بين حوالي 8700-7000 قبل الميلاد. لكن ثمة حالة خاصة لا بد من الإشارة إليها هنا نظرًا لأهميتها، وهي ظاهرة العثور في وسط وجنوبي الأردن على مواقع كبيرة تجاوزت مساحة الواحد منها 10 هكتارات (100 دونم)، وعماراتها ضخمة، ومارس أهلها الطقوس الدينية. لكن هذه القرى التي أسميناها "قرى كبيرة" أو "بلدات" هجرت بشكل مفاجئ في حوالي 6900/7000 قبل الميلاد. وهذا ما سنتطرق إليه تاليًا.

ت. الاستمرارية والتحول في حياة الألفين السابع والسادس قبل الميلاد

شهدت بعض مناطق بلاد الشام، وخاصة الجنوبية منها، تحولات مناخية أدت إلى هجرتها، وانتقال الناس منها لأماكن أخرى، بينما استمر آخرون بالاستقرار في نفس المواقع، ولم ينتقلوا منها. ولم يكن هذا المتغير أو التحول الوحيد؛ إذ صنع الناس في بلاد الشام في مطلع الألف السابع قبل الميلاد، آنية صلصالية، عثر على أقدمها في منطقة شمالي سورية الحالية. وقبل بدء الحديث حول هذا الموضوع، نود التذكير بأن الفترة ما بين حوالي 7500-7000 قبل الميلاد شهدت أهم التحولات في بلاد الشام، منها:

1- لاحظ المنقبون في موقعي تل السلطان/أريحا والمنحطة أن هذه المواقع الواقعة في غور الأردن هجرت خلال الفترة ما بين حوالي 7500-6500 قبل الميلاد. علمًا أن مواقع أخرى في مناطق غيرها في بلاد الشام قد استمرت بالسكنى (Gopher 1994).

2- ظهر خلال الفترة ما بين حوالي 7500-7000 قبل الميلاد، أي في المرحلة الأخيرة من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)، عدد من القرى التي تجاوزت مساحة الواحدة منها 100 دونم، وتركزت بشكل خاص في وسط الأردن وجنوبيه، وقد أطلق عليها الآثاريون اسم "القرى الكبيرة" Mega Sites (Bienert et al. 2004).

3- هجرت معظم القرى الكبيرة، خاصة في جنوبي الأردن، مثل بسطة والصفية، وحدث ذلك بشكل مفاجئ في حوالي 7000 قبل الميلاد.

4- استمرت بعض القرى الصغيرة بالحياة، مثل عين غزال ووادي شعيب، وهذا ينطبق على مواقع شمالي سورية. وأطلق بعض المنقبين على هذه المرحلة اسم "العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ج) Pre-Pottery Neolithic C (Rollefson and Simmons 1988). ونظرًا للعثور على كسر فخارية في الطبقات المؤرخة لهذه الفترة (ما بين حوالي 7000 إلى 6500 قبل الميلاد)، أسماها آخرون باسم "العصر الحجري الحديث الفخاري المبكر" Early Pottery Neolithic (Kafafi 2001a). وتتفق هذه التسمية مع تلك التي أطلقت على الفترة الزمنية نفسها في كل من سورية ولبنان (Akkermans and Schwartz 2003, Fig. 4:2).

5-حدث تحول في طبيعة المستقرات البشرية خلال العصر الحجري الحديث الفخاري، إذ أصبحت أصغر مساحة من سابقاتها. ويبدو أن الأحوال الاقتصادية تراجعت عما كان في الألف الثامن قبل الميلاد، وإن كان النمط باقيًا على ما هو عليه.

6- استمر الناس في اختيار الأماكن القريبة من مصادر المياه الدائمة والصالحة للزراعة والاستقرار الدائم.

7- ظهرت في كثير من المواقع الأردنية، إن لم يكن جميعها، طبقة من الحصى نتيجة لعوامل طبيعية لا تزال غير معروفة، أطلق عليها العلماء "انزلاق اليرموك" Yarmoukian Rubble Slices.

وبالنظر في طبيعة تلك التحولات، نجد أن بلاد الشام تمتعت خلال نهاية الألف الثامن والسابع قبل الميلاد ببيئات مختلفة جديدة، وهذا بطبيعة الحال أثر في أماكن تواجد الناس، أولاً، ومن ثم في طبيعة حياتهم. ومن الجدير بالذكر أنه، وعلى الرغم من أن هذه المرحلة تعرفنا بتطور المجتمعات الزراعية ببلاد الشام، إلا أن العلماء لم يهتموا بدراستها قدر اهتمامهم بدراسة بداياتها، أي بداية الزراعة ونشوء المجتمعات الزراعية، والكيفية التي استطاع الناس من خلالها تدجين الحيوان لأول مرة.

وليست هذه المعضلة الوحيدة التي تواجه الباحث في دراسة هذه المرحلة التي يمكن عدها انتقالية؛ إذ لم يجر التعرف إلى ثقافة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ج" في جنوبي بلاد الشام إلا خلال العقود الأخيرة، ولم يعثر على مخلفات أثرية منها إلا في عدد قليل جدًا من المواقع، مثل عين غزال ووادي شعيب (Rollefson et al. 1992). فقد لاحظ المنقبون في موقع عين غزال حصول تغير في شكل وكيفية بناء المساكن، حيث تكون البيت من مستويين (ليس طابقين)، السفلي وربما كان قليل الارتفاع، يتكون من عدد من الغرف الصغيرة يفصل ممر فيما بينها، ولا يصلح هذا المكان لشيء إلا لحمل طابق أعلاه، وفيه سكنه الناس. إضافة لهذا، فإن الأرضيات الخاصة بالبنايات المؤرخة للمرحلة (ج) في عين غزال تكونت من القصارة الخشنة والسيئة مقارنة بأرضيات بيوت مرحلة ما قبل الفخار (ب) (Rollefson 1997). وقد أطلق الباحثون في الآثار السورية مصطلح "العصر الحجري الحديث المتأخر" Late Neolithic على الفترة ما بين حوالي 6800-5300/ 5200 قبل الميلاد (Akkermans and Schwartz 2003: 99).

وعلى أية حال، استمر الناس في هذه المرحلة باستخدام الأدوات الصوانية والعظمية. كذلك لم تخرج طبيعة الاقتصاد عن الزراعة، والصيد، وتربية الماشية. علمًا أن صناعة الآنية الفخارية أثرت بشكل أو بآخر في نمط الحياة اليومية؛ فعلى سبيل المثال، أخذ

الناس يخزنون مياه الشرب في جرار صنعت خصيصًا لهذا الغرض، فيشرب منها الناس عند الحاجة، دون الاضطرار للذهاب لعين الماء. لكن ذلك لا يعني أن جميع سكان بلاد الشام قد استخدموا الآنية الفخارية. بل على العكس من ذلك، أثبتت الدراسات أن سكان شمالي بلاد الشام استخدموا الآنية الفخارية قبل أهل الجنوب.

صانعو الآنية الفخارية

ذكرنا أن الناس خلال الفترة التي سبقت شيوع استخدام الآنية الفخارية، عرفوا الصلصال واستخدموه لأغراض متعددة، مثل صناعة الدمى، وبناء المواقد. لكن أين كانت الخطوات الأولى التي شهدت بزوغ هذه الصناعة في بلاد الشام ؟

وللإجابة عن هذا السؤال، لا بد من العودة لنتائج التنقيبات الأثرية، علمًا أن بعض الآثاريين يرون أن سكان شمالي بلاد الشام عرفوا صناعة الفخار قبل غيرهم من سكان هذه البلاد، وأن الآنية الفخارية ذات اللونين الأسود والأحمر، والمصقولة صقلاً عاليًا لدرجة اللمعان، والتي عثر عليها في تل أسود على نهر البليخ في الجزيرة السورية العليا، والمؤرخة لمنتصف الألف السابع قبل الميلاد، هي الأقدم بين غيرها من المجموعات. ويرون أن صناعة الآنية الفخارية انطلقت من هذه المنطقة في الاتجاهات المختلفة نحو بلاد الرافدين والأناضول وجنوبي بلاد الشام (خريطة 5) (المحيسن- سلطان 1994).

على أية حال؛ فإن أولى المجموعات الفخارية المؤرخة للعصر الحجري الحديث اكتشفت خلال النصف الأول من القرن العشرين، علمًا أن المنقبين آنذاك لم يحددوا تاريخًا رقميًا دقيقًا. وفيما يلي أمثلة على ذلك.

ففيما يخص منطقة شمال شرقي سورية، كشفت التنقيبات التي أجرتها البعثة الألمانية في موقع تل حلف عن آنية فخارية، كانت تعد الأقدم في حينها (von Oppenheim 1931). إلا أن هذا الاكتشاف لم يلق اهتمامًا كافيًا من الدارسين، وذلك بسبب العثور على مجاميع لآنية فخارية أخرى في بلاد الرافدين، في مواقع حسونة وسامرا ونينوى، تختلف في أشكالها وزخارفها عن فخار حلف؛ فانكبوا على دراستها (Lyod and Safar 1945).

خريطة 5: أهم مواقع بلاد الشام في العصر الحجري الحديث الفخاري (أو المتأخر)

وخلال الثلاثينات من القرن الفائت، قامت بعثة أمريكية بإشراف روبرت بريدوود بإجراء مسوحات وتنقيبات أثرية في منطقة سهل العمق بشمال غربي سورية، حيث كشف عن بقايا أثرية تؤرخ لبداية الألف السابع قبل الميلاد. ودلت الأبحاث الميدانية على أن هذه المنطقة شهدت استقرارًا دائمًا مع بداية معرفة صناعة الآنية الفخارية فيها، وعثر على مجاميع من الآنية المصنوعة باليد والقاتمة اللون والمصقولة. كما أضيفت إلى سطوح الآنية طبقة رمادية أو بنية اللون تميل أحيانًا بسبب الصقل العالي إما إلى الحمرة، أو الصفرة، أو البنية. وأطلق الدارسون على هذا النوع من الفخار الذي عثر عليه في مواقع كردو وتل جديدة وتل الذهب، وجميعها في العمق، اسم "الفخار الأسود المصقول". وعده المنقب أقدم أنواع الآنية الفخارية، وأرخه لحوالي 6000 قبل الميلاد، وأطلق عليه اسم العمق (أ) (Braidwood 1960). كما عثر على مثل هذا النوع من الآنية الفخارية في عدد من المواقع خارج منطقة العمق، مثل رأس شمرا IVB (de Contenson 1992)، وتل الكرخ (Tsuneki and Miyake 1996). وإضافة لهذا النوع من الآنية الفخارية، ظهرت في منطقة العمق، من الفترات المعاصرة واللاحقة، أصناف أخرى بعضها بسيط الصنعة ومدهون باللون الأحمر بزخارف مختلفة. وتكونت أشكال الآنية من الجرار، والكؤوس، والأباريق. وقد عثر على ما يشابهها في رأس شمرا VB وفي تل الرماد III.

كذلك أجري في مناطق سهل الروج بالقرب من مدينة إدلب، وفي القويق وبحيرة الجبول بالقرب من مدينة حلب، عدد من المسوحات الأثرية التي دلت على أن هذه المناطق شهدت تزايدًا في عدد المستقرات البشرية المؤرخة للألفين السابع والسادس قبل الميلاد، والتي عرف سكانها استخدام الآنية الفخارية (Iwasaki and Tsuneki 1999; Schwartz et al. 2000).

أما في منطقة حوض نهر العاصي؛ فقد أظهرت التنقيبات التي جرت في مواقع النبي مند وحماة وتل آفاميا عددًا من الآنية الفخارية من طراز الأسود المصقول. لكن لم يعثر في هذه المواقع على مساكن، حتى وإن وجدت فإنها لم تخرج عن كونها بسيطة جدًا أو أرضيات لأكواخ، مما يوحي بأن تلك المواقع لم تشكل مستقرات أو قرى كبيرة في تلك المرحلة.

كذلك كشفت المسوحات الأثرية التي جرت في سهل البقاع اللبناني عن مواقع تؤرخ للألفين السابع والسادس قبل الميلاد، من أهمها نبعة الفوّار ولبوة (Copeland 1969; Nishiaki 2000). أما فيما يخص مواقع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)

التي تواجدت على سفوح جبال لبنان الشرقية وفي غوطة دمشق؛ فيبدو أنها هجرت في حوالي 6800 قبل الميلاد، عدا موقع تل الرماد الذي استخدم سكانه بعد هذا التاريخ الآنية الفخارية (de Contenson 2000). وقد جاءت مواقع الألف السابع قبل الميلاد في مناطق حوض الفرات الأوسط والجزيرة السورية مؤلفة من عدد من التلال والهضاب الأثرية. واختلفت كثافة الاستقرار وطبيعته من منطقة لأخرى، إذ لاحظ العاملون في هذه المنطقة أن بعض المواقع المؤرخة لفترة ما قبل الفخار قد هجرت، بينما استمر بعضها الآخر، في حين ظهرت أو تأسست مواقع جديدة. ومن المواقع التي سكنت في مرحلة ما قبل الفخار، واستمر الاستقرار فيها خلال الفخاري، نضرب أمثلة من مواقع حالولة، وأبو هريرة، وبقرص. لكن، لاحظ المنقبون تراجعًا ملحوظًا في المساحة المسكونة، خاصة في موقع أبو هريرة، حيث سكن الناس في العصر الحجري الحديث الفخاري (المتأخر) نصف المساحة التي سكنت خلال مرحلة ما قبل الفخار. كما أن البقايا المعمارية المكتشفة في الموقع، والمؤرخة لفترة الفخار، لم تكن إلا عددًا من البيوت المستطيلة الشكل والمبنية من اللبن. إضافة لهذا عثر المنقبون على عدد من الحفر والمواقد (Moore 1975).

بينما حصل العكس في موقع تل حالولة، حيث بنى الناس جدرانًا سميكة وقنوات لجر المياه، ويعتقد أن هذا أقدم نظام للري كشف عنه في سورية حتى الآن. وبنيت البيوت من اللبن، لكن بطريقة جيدة وأفضل مما كان عليه الحال في موقع أبو هريرة، وجعلت للبيت أساسات من الحجارة، كما زودت البيوت بساحات بنيت فيها أفران ومواقد (Molist 1998a; Akkermans and Schwartz 2003: Fig.4.6). ومع نهاية الألف السابع قبل الميلاد، تحولت البيوت المستطيلة الشكل إلى مستديرة Tholos، تراوح قطر الواحد منها بين 1.3 إلى 3.8م. وجاءت مبنية من الحجارة، وطليت جدرانها من الداخل بطبقة من الجص الأبيض. واستنتج الباحثون في منطقة حوض الفرات الأوسط ومنطقة الجزيرة بأن عدد المستقرات البشرية وكثافتها، كانت عمومًا خلال فترة العصر الحجري الحديث الفخاري أقل من عدد مثيلاتها في فترة ما قبل الفخار.

أما فيما يخص منطقة حوض البليخ؛ فعثر على عدد من المواقع الصغيرة المساحة، بحيث لا تتجاوز مساحة الواحد منها هكتارًا (10 دونمات)، لكنها سكنت لمدة طويلة بدأت منذ نهاية الألف الثامن قبل الميلاد، واستمرت خلال العصر الحجري الحديث الفخاري.

ومن أهم هذه المواقع، تل أسود، وتل الدامشلية، وتل الصبي الأبيض (Akkermans 1993). ويذكر المنقب في موقع تل الصبي الأبيض أن القرية ازدهرت خلال الألف السابع قبل الميلاد، حيث بنى الناس نوعين من المساكن، المستطيل والمستدير. وأضاف أنه عثر في المستوى السادس في الموقع، والذي يبدو أنه دمر في حريق في حوالي 6000 قبل الميلاد، على عدد كبير من الآنية الفخارية، والحجرية، والأدوات الصوانية، وأخرى مصنوعة من السبج (الأوبسيديان)، وأدوات طحن وجرش، ودمى آدمية وحيوانية، وأختام وطبعات أختام (Akkermans and Verhoeven 1995; Akkermans and Duistermat 1997). وكشفت المسوحات الأثرية في حوض الكوم في البادية السورية عن عدد من المواقع المؤرخة لمرحلة العصر الحجري الحديث الفخاري. لكن من المعلوم أن سكان الكوم استخدموا في البداية آنية مصنوعة من عجينة بيضاء اللون تشبه الجص (Dornemann 1986). ومن أهم المواقع المكتشفة، سواء داخل البادية السورية أو على أطرافها، بقرص وأم تليل 2/ قدير، والندوية 4، ودار الأصفر، ودار المملحة، والهمل، وعين جوال. وتعد جميعها، عدا بقرص، مواقع صغيرة أو مخيمات أو محطات أقام فيها الناس بعض الوقت لرصد الحيوانات قبل صيدها. لكن سكان موقع بقرص عرفوا صناعة الآنية الفخارية، وبنوا لأنفسهم بيوتًا مستطيلة، ومتماثلة في مخططاتها. كما لاحظ المنقب على أرضيات البيوت المقصورة بقصارة بيضاء، رسومات باللون الأحمر تمثل على الأرجح طير النعام (Akkermans et al. 1981). ولم يقتصر تواجد الناس في البادية السورية خلال الألف السابع قبل الميلاد على حوض الكوم، بل وجدت مواقع من هذه الفترة في مناطق أخرى منها، مثل كهوف وملاجئ جبال الدوارة وتدمر (Stordeur and Taha 1992).

وكي لا يحسب القارئ أن أهل البادية السورية لم يعرفوا صناعة الفخار، فإننا نستدرك بالقول، صحيح أن سكان الكوم عرفوا أولاً تصنيع الآنية من مادة العجينة البيضاء وأنه لم يعثر في مواقع البادية جميعها على آنية من الفخار، إلا أن التنقيبات التي أجريت في موقع الكوم I (المرحلتان C-D) وفي الكوم 2 كشفت عن كسر لآنية فخارية استخدمها سكان كلا الموقعين. ومن نافل القول ذكر أن الكسر الفخارية التي عثر عليها في موقع الكوم I جاءت مشابهة في عجينتها وزخارفها لتلك التي عثر عليها في بقرص والكوم 2/ كراكول. كما أنها تشبه فخار حسونة الذي عثر عليه في بقرص

وفي غيره من مواقع أعالي الخابور وشمالي بلاد الرافدين (Akkermans and Schwartz 2003: 126). هذا في منطقة شمالي بلاد الشام، أي في سورية ولبنان، لكن كيف عرف الناس صناعة الآنية الفخارية في منطقة جنوبي بلاد الشام، أي الأردن وفلسطين؟

يعد موقع تل السلطان/ أريحا أول موقع في بلاد الشام يعثر فيه على فخار من العصر الحجري الحديث، ربما بسبب النشاط الآثاري، وأهمية هذا الموقع لدى دارسي التوراة الذين ما انفكوا يبحثون عن أريحا التوراتية. ومن بين البعثات التي نقبت في الموقع، بعثة إنجليزية بإشراف الضابط جون غارستنج John Garstang الذي بدأ التنقيبات في المكان عام 1929 وأوقفها عام 1936. ففي أثناء عمليات التنقيب تلك، كشف في الطبقات السفلى من التل عن كسر فخارية من العصر الحجري الحديث، قسمها الدارسون إلى مرحلتين، هما: التاسعة IX وهي الأقدم، والثامنة VIII وهي الأحدث (Garstang 1935;1936). وفي الفترة ما بين 1952 إلى 1958، تابعت كاثلين كنيون التنقيب في موقع أريحا، حيث كشفت عن مخلفات أثرية تعود للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار والعصر الحجري الحديث الفخاري، وقسمت كل مرحلة منهما إلى (أ) و(ب). وذكرت كنيون أن فخار أريحا (أ) هو نفسه الذي كشف عنه غارستنج وأسماه "أريحا IX"، وأن فخار أريحا (ب) لديها يقابل فخار أريحا VIII عند غارستنج. لكن كنيون أضافت أن عملية صنع الفخار في أريحا دخلت إلى المنطقة عن طريق جماعة جاءت ربما من الشمال (Kenyon 1957; 1979). أما بخصوص الآنية الفخارية عمومًا؛ فجاءت بسيطة الشكل، لكنها اختلفت في زخارفها بين المحزوزة والمدهونة (Kenyon and Holland 1983).

وإضافة لموقع أريحا في فلسطين، جرى في عام 1949 التنقيب في موقع القحوانة على يد بعثة إسرائيلية، عثرت من بين ما عثرت عليه في الموقع على آنية فخارية مزخرفة على الأغلب بزخارف غائرة حزت على شكل عظام ظهر السمكة. وقد أطلق المنقب على هذا النمط من الفخار اسم "الفخار اليرموكي"، وعده معاصرًا لما كشف عنه غارستنج في أريحا IX، إلا أن كنيون أطلقت عليه اسم أريحا (أ) (Stekelis 1950-1951).

وخلال العقود الأخيرة، جرى الكشف عن مجموعات أخرى من فخار العصر الحجري الحديث في الأردن وفلسطين، وذلك نتيجة لزيادة النشاطات الميدانية الأثرية، مثل مواقع أبو الثواب، وعين غزال، ووادي شعيب وغيرها (Kafafi 1998). كذلك استؤنف في فلسطين التنقيب في موقع القحوانة، حيث كشف عن مزيد من الآنية الفخارية

اليرموكية، بالإضافة للتنقيب في موقع المنحطة بالقرب من مدينة بيسان بغور الأردن. وعثر في الموقع الأخير على أنواع عدة من الآنية الفخارية هي: "يرموكي"، و"أريحا (أ)"، "وادي رباح"، و"أريحا (ب)" (Perrot 1968; Garfinkel 1999).

واكتشف أقدم الكسر الفخارية في موقع عين غزال في طبقات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) (Rollefson and Simmon 1986)، إلا أن استخدامه شاع في الفترة اليرموكية، إذ عثر على آنية في حفر حفرت في طبقات ما يسمى بالعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ج" (Kafafi 1995). وبهذا فإن اكتشاف الفخار في طبقات ما قبل الفخار وفي الفخاري في موقع عين غزال، ربما يشير إلى أن الصناعة محلية.

أما في المناطق الصحراوية في جنوبي بلاد الشام؛ فلم يعثر حتى الآن، سواء في البادية الأردنية أو في صحراء النقب في فلسطين، على مواقع من العصر الحجري الحديث الفخاري تشير إلى أن سكانها استخدموا الآنية الفخارية. وكل المواقع التي عثر عليها وصفت بأنها مخيمات أقامت بها جماعة من الصيادين لبعض الوقت. وقد امتازت المواقع المؤرخة للألف السابع والسادس قبل الميلاد بكثرة الأدوات الصوانية فيها، لا سيما المناقش Burin، لذا أطلقت الباحثة الإنجليزية أليسون بتس على هذه المواقع اسم "مواقع المناقش" Burin Sites (Betts 1988). ويعتقد أن الناس الذين عاشوا في البادية الأردنية خلال هذا العصر مارسوا إضافة للصيد، مهنة الرعي (كفافي 1992).

حاول بعض العلماء الربط بين الاختلاف في أشكال وطرق تصنيع الآنية الفخارية مع جماعات عرقية، وأن الأشكال وطرق التصنيع قد انتقلت من مكان لآخر مع انتقال الجماعات نفسها. إلا أننا لا نوافق هذا الرأي، والسبب في ذلك بيِّن، إذ ليس من الضرورة انتقال جماعة من مكان لآخر لتأتي معها هذه الصنعة. فنحن نقر انتقال شخص أو أشخاص مهرة في الصنعة، وليس كل الجماعة، هذا إذا ما كان حصل فعلاً. وثانيًا أنه نتيجة للتواصل الذي كان بين الجماعات ممثلة بأفرادها، فإن هؤلاء الأشخاص حملوا الأفكار معهم إلى حيث سكنوا. وبما أن الصناعة مهارة مكتسبة؛ فقد استطاع بعضهم اكتسابها من الآخرين، وعملوا بها في المناطق التي سكنوها. كذلك لا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن التوصل لصنع الآنية الفخارية لم يكن وليد اللحظة، بل جاء نتيجة خبرات ومعارف تراكمت عند الناس عبر مدة طويلة من الزمن.

ولا بد من تبيان أنه على الرغم من التواصل الحضاري بين فترات ما قبل الفخار وفترة العصر الحجري الحديث الفخاري، إلا أنه كان لكل فترة منها طابعها الذي يميزها من الأخرى. فمثلاً، اختلف تخطيط المواقع، كما أدخل الناس عناصر وأشكالاً معمارية جديدة خلال الفخاري، وحصلت متغيرات في المعتقدات، وأخيرًا استخدم الناس الآنية الفخارية.

تعددت الصناعات الفخارية وتوزعت فوق مناطق بلاد الشام المختلفة، واختلفت كل صناعة عن الأخرى في تاريخها، وشكلها، وزخرفتها، وحتى في تطور طريقة الصنع أحيانًا. فكان هناك بالمجموع ثلاثة أشكال زخرفية خلال المراحل الأولى للعصر الحجري الحديث الفخاري هي: الأسود المصقول الذي تركز في شمالي سورية بداية الأمر، لكنه انتشر ليصل أماكن أخرى خاصة في فترة العمق D، والفخار المدهون بأشكال زخرفية ذات خطوط أو مثلثات مرسومة باللون الأحمر أو البني، وقد شاع هذا في معظم مناطق بلاد الشام. أما الطراز الثالث، وهو المحزوز (خاصة على شكل عظام ظهر السمكة)؛ فعثر عليه في جبيل، وامتد إلى فلسطين والأردن، خاصة المناطق الشمالية منها. وحيث أنه يشابه فخار حسونة، فقد عثر على ما يماثله في منطقة الجزيرة السورية. ولا بد من ذكر أن كثيرًا من الآنية الفخارية زخرفت بزخارف محزوزة ومدهونة في نفس الوقت.

ونتيجة لتلك الاختلافات، نجد أن من الصعوبة بمكان وضع جدول زمني موحد لكل بلاد الشام خلال فترة العصر الحجري الحديث الفخاري. ولكن قد يقول بعض الدارسين إنه لوضع جدول زمني؛ فإن الآنية الفخارية ما هي إلا واحدة من جملة الحقائق التي نعتمدها عند وضع الجدول الزمني.

وهنا ننتقل للحديث حول طبيعة المستقرات البشرية خلال العصر الحجري الحديث الفخاري، والتي أتينا على ذكر بعض المعلومات حولها على الصفحات السابقة.

فقد اختلفت طبيعة المستقرات البشرية خلال الألف السابع قبل الميلاد في مساحاتها ومدة سكناها. ونقصد بهذا، أنه ليس من الضرورة أن تكون جميع المواقع الأثرية المؤرخة لهذه الفترة عبارة عن قرى كبيرة المساحة. بل على العكس، وكما نوهنا أعلاه، فقد عثر على أشكال متعددة من المواقع، مثل المخيمات والعزب الصغيرة. أما القرى

الكبيرة؛ فسكنت في كثير من الحالات خلال العصر الحجري الحديث الفخاري وحسب، كما هو الحال في موقع القحوانة في فلسطين.

أما المنازل المؤرخة للعصر الحجري الحديث؛ فقد اختلفت في طرزها، وأشكالها، ومواد بنائها من مرحلة فخارية لأخرى، ومن منطقة لأخرى؛ فعلى سبيل المثال، بنى الناس في شمالي سورية، وفي منطقة غور الأردن، مساكنهم من الطين أو اللبن فوق أساسات من الحجارة في بعض الأحيان (Akkermans and Schwartz 2003: 103)، بينما وجدنا سكان المرتفعات الجبلية، مثل موقعي عين غزال (كفافي 2005) والذريح (Bossut and Kafafi 2005)، قد بنوا بيوتهم من الحجارة. وتنوعت أشكال المباني بين القائم الزوايا، والمستدير، وذي الجدار المنحني. كما لوحظ في أريحا، مثلاً، أن الناس حفروا حفرًا قليلة الغور، وبنوا بيوتهم بداخلها؛ فسميت "مساكن الحفر" Pit Dwellings.

وإذا ما عدنا إلى النصف الأول من الألف السابع قبل الميلاد، فإن المنقبين في عين غزال لاحظوا أن سكان الموقع قد استفادوا من وجود مبانٍ من فترات سابقة، كما بنوا لأنفسهم بيوتًا جديدة تختلف في طرازها عن سابقاتها، حتى بني المنزل على مستويين، يشكل الأول أساسًا لحمل بناء المنزل المخصص للسكن فوقه (Rollefson et al. 1992).

ومع نهاية الألف السابع قبل الميلاد، عرف سكان شمالي بلاد الشام طرازًا جديدًا من البيوت سمي "البيت المستدير" Tholoi، حيث تكون البيت من غرفتين، الأولى مستديرة الشكل ومقبية السقف، ويصل قطر بعضها في بعض الأحيان إلى خمسة أو ستة أمتار، وترتبط بها غرفة ثانية مستطيلة أو شبه منحرفة الشكل، تشكل مدخلاً إلى الغرفة المستديرة (الأولى) (Matthews 2000). ومن الجدير ذكره أن هذا الطراز من المباني شاع استخدامه خلال حضارة حلف، وانتشر فوق منطقة امتدت من السواحل الشرقية للبحر المتوسط وحتى الأربجية بشمالي العراق. وبالإضافة لموقع تل حلف، عثر على هذا الطراز في مواقع أخرى من هذه الفترة الأولى، منها حالولة وتل الصبي الأبيض.

ويجب التنبه إلى أن طراز البيت المستدير لم يستأثر بالفترة كلها؛ إذ كشف عن مساكن أخرى، معاصرة له، كانت ذات زوايا قائمة. كذلك، لم يعثر حتى الآن في أي موقع في البادية على طراز البيت المستدير.

لقد عاش الناس في بلاد الشام خلال النصف الأول من الألف السابع قبل الميلاد في مختلف مناطق بلاد الشام، علمًا أن العلماء يقولون بخلو منطقة غور الأردن من الناس المقيمين نتيجة اختلال المناخ. كما عرف الناس صناعات فخارية مختلفة، جاء أقدمها من موقع تل أسود في الجزيرة السورية، ويؤرخ لمنتصف الألف السابع قبل الميلاد (Cauvin 1972: 38-89)، ومن منطقة العمق (أ)، وخلال منتصف الألف السابع قبل الميلاد أي العمق (ب).

ظهر في سهل العمق نوع جديد من الآنية الفخارية بزخارف مدهونة تختلف عن سابقاتها، كذلك تراجع استخدام الآنية ذات العجينة السوداء والسطح المصقول. ورسمت الزخارف بلون واحد، غالبًا ما تكون بالأحمر على خلفية برتقالية اللون. وعثر على هذا النوع من الفخار في رأس شمرا، وفي جبيل على الساحل اللبناني. كما نريد أن ننوه هنا، أنه وفي جبيل عثر أيضًا على الفخار الأسود المصقول (Dunand 1968). وإضافة للفخار المشابه لليرموكي، عثر أيضًا في موقع جبيل على دمى آدمية من النوع المعروف بالدمى ذات العيون على شكل حبة القهوة، وهي سمة ملازمة لمواقع الفخار اليرموكي. من هنا، نريد القول إن المنطقة الواقعة بين جبيل وحتى صحراء النقب في فلسطين ووادي الموجب في الأردن اتسمت بسمات حضارية متشابهة أطلق عليها العلماء اسم "اليرموكية".

دخلت صناعة الآنية الفخارية إلى منطقة جنوبي بلاد الشام في حوالي 6500 قبل الميلاد (حسب تاريخ الكربون المشع المعاير)، أي في وقت متأخر عن شمالها، على الرغم من العثور على كسر فخارية في طبقات أثرية أقدم من هذا التاريخ. ويعد الفخار المعروف باسم "أريحا أ" واليرموكي أقدم أنواع الفخار المزخرف في هذه المنطقة (Kafafi 1995; Garfinkel 1999).

إن الاختلاف الحضاري الأوسع بين جنوبي بلاد الشام وشماليها بدأ بالفعل بظهور ما يعرف باسم "ثقافة حلف" في الشمال وذلك خلال نهاية الألف السابع قبل الميلاد، أي مع بداية ما يعرف باسم العمق "ج"؛ إذ نجد أن المنطقة الشمالية أصبحت أكثر ارتباطًا وتأثرًا بحضارة بلاد الرافدين، فظهرت أنواع جديدة من الآنية الفخارية، وامتزجت حضارة شمالي بلاد الشام بشمالي الرافدين. وتشهد على ذلك المكتشفات الأثرية، خاصة من مواقع الأربجية، ورأس شمرا، و كركميش، ومنطقة العمق، وحماة.

امتدت فترة العصر الحجري الحديث الفخاري في بلاد الشام حتى حوالي منتصف الألف السادس قبل الميلاد، أي أنها استمرت لألف عام (حوالي 6500-5500 قبل الميلاد حسب الكربون المشع المعاير). بعدها، عرف الناس استخدام النحاس؛ فبدأ عصر جديد أسماه العلماء "العصر الحجري النحاسي". وقبل الحديث حول ذلك، لا بد من تقديم معلومات حول بعض ثقافات العصر الحجري الحديث الفخاري بغرض تعريف القارئ بها، ونبدأ بشمالي بلاد الشام.

1. حضارة حلف في شمالي بلاد الشام

يقع تل حلف بالقرب من رأس العين عند منبع نهر الخابور على الحدود السورية التركية الحالية، وتحديدًا على بعد حوالي 70كم شمال غربي مدينة الحسكة، و130كم جنوب غربي مدينة القامشلي. ويرتبط اسم هذا التل بموقع "جوزانا" الذي كان عاصمة لإحدى الممالك الآرامية المعروفة باسم "بيت بحياني". ظهرت الأهمية الأثرية للتل بعد أن أجرى الألماني ماكس فون أوبنهايم في عام 1899 أولى التنقيبات الأثرية التجريبية فيه. بعد هذا، تابع أوبنهايم أعمال التنقيب في الموقع خلال الأعوام 1911-1913، و1927، و1929 (Von Oppenheim 1931). ونتيجة لهذه التنقيبات، استطاع المنقب التعرف إلى مرحلتين رئيستين في الموقع، الأقدم وتؤرخ إلى ما بين الألفين السادس والرابع قبل الميلاد بينما تعود الأحدث إلى القرن العاشر قبل الميلاد.

وظهر في المرحلة الأقدم نوعان من الفخار، الأول، وهو الأقدم، ويعود لبداية الألف السادس قبل الميلاد، وكان من النوع المصقول بألوان حمراء وداكنة، وبسيط الصنع. أما الثاني؛ فيؤرخ لمنتصف الألف السادس قبل الميلاد، ويعرف باسم "فخار حلف"، ويمثل المرحلة المبكرة من العصر الحجري النحاسي في شمالي بلاد الشام وبلاد الرافدين. وهذا يمتاز بجودة الصنعة والزخارف المرسومة بألوان متعددة (الشكل 33).

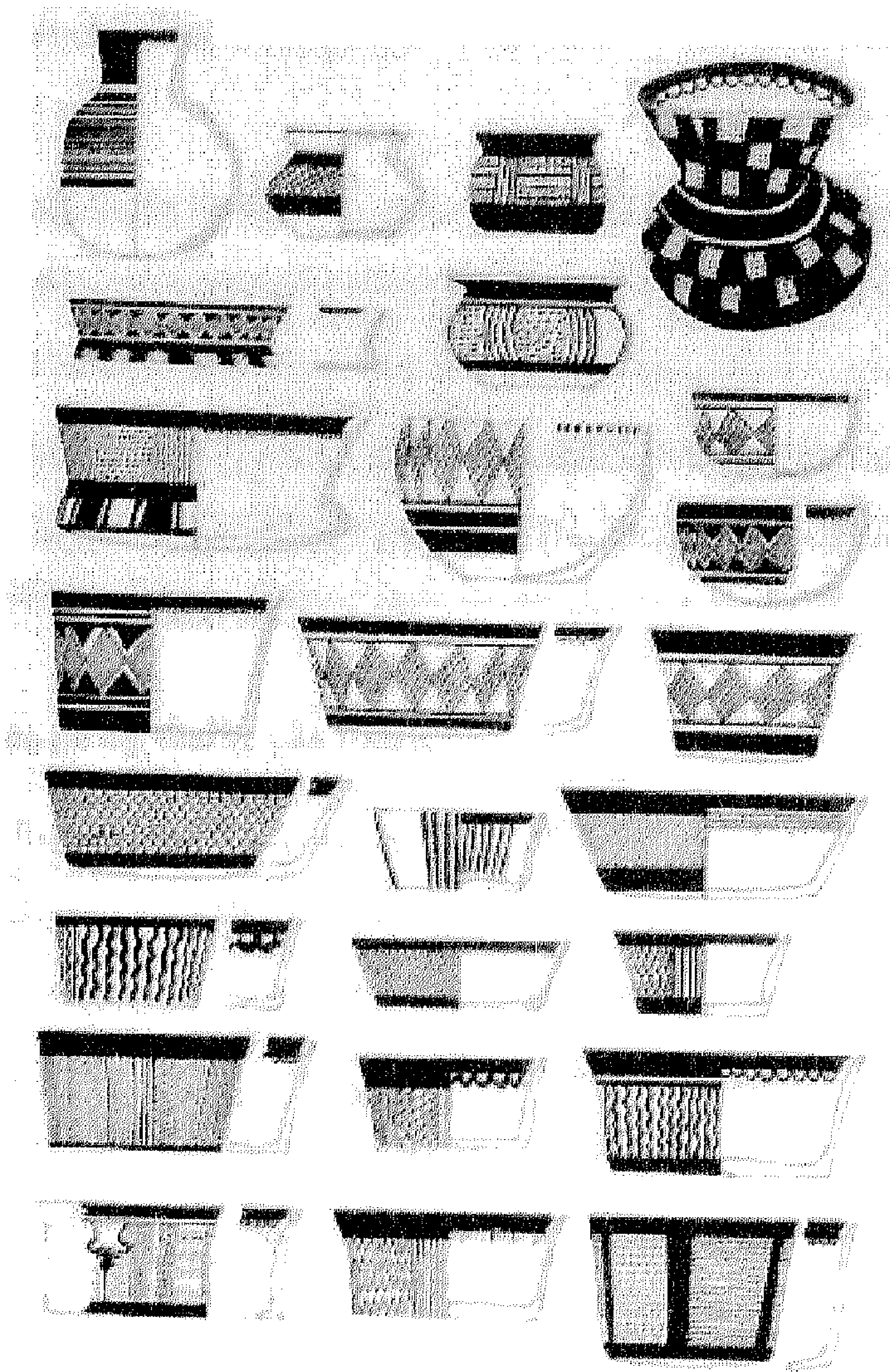
وقد قسم العلماء حضارة حلف إلى ثلاث مراحل هي:

- المبكرة: وتشمل الفترة الأولى التي تأسست فيها حضارة حلف، وشملت المنطقة الممتدة بين نهر الخابور شرقًا والبليخ غربًا.

- الوسطى: وهي الفترة التي شهدت امتدادًا لحضارة حلف حتى وصلت إلى موقع رأس شمرا على سواحل البحر المتوسط.

- المتأخرة: وفيها شملت حضارة حلف كل المناطق المذكورة أعلاه، إضافة لأعالي الفرات وجنوبي بلاد الأناضول.

وعمومًا، جاءت المواقع الحلفية صغيرة المساحة (أقل من هكتار)، ولم تسكن لفترات طويلة، دلت على ذلك قلة ارتفاع تراكم المخلفات الأثرية المكتشفة في هذه المواقع. ويبدو أن عدد سكان الموقع الواحد لم يكن كبيرًا (Akkermans and Schwartz 2003: 119).



الشكل 33: آنية فخارية من فترة حلف المبكرة (عن Mellaart 1975)

وكما ذكر آنفًا، فإن حضارة حلف لم تتسم بظهور أنواع جديدة من الآنية الفخارية وحسب، وإنما أيضًا، بشيوع بناء البيوت الدائرية المقببة والمبنية من الطين المدكوك على أساسات حجرية. ومع حلول مرحلة حلف الوسطى، بنى الناس أيضًا بيوتًا مستطيلة الشكل أكبر مساحة من السابق، لتقف جنبًا إلى جنب مع البيوت المستديرة. أما خلال المرحلة الحلفية الأخيرة؛ فقد اختفت المباني المستديرة، وحلت مكانها بيوت كبيرة ومستطيلة، مبنية من اللبن (المحيسن، سلطان 1994).

مارس الحلفيون عادات دفن مختلفة، منها وضع المتوفى في حفرة ممددًا، أو بوضع قرفصائي. كما لوحظ في بعض الحالات فصل الجمجمة عن باقي الهيكل العظمي في مدافن الأشخاص البالغين. كما مارس الناس حرق عظام المتوفى، ووضع الرماد في جرار فخارية.

وعثر المنقبون في المواقع الحلفية على عدد من القطع الأثرية المهمة والمميزة، مثل الدمى الأنثوية المزخرفة بزخارف مدهونة، والدلايات المصنوعة من الحجارة، والأختام المبسطة، والأدوات الصوانية، والمصنوعة من السبج (الأوبسيديان).

وبالإضافة لزراعة الحبوب، زرع الناس البقوليات واستخدموا الري في الزراعة، كما أكلوا ثمار الأشجار، وربوا الأغنام، والأبقار، والخنازير، واصطادوا بعض الحيوانات البرية.

2. حضارة العبيد في شمالي بلاد الشام

تعد حضارة العبيد المؤرخة للفترة ما بين حوالي 5500-4500 قبل الميلاد مرحلة انتقالية بين مجتمع القرية ومجتمع المدينة، خاصة في بلاد الشام. وترتبط حضارة العبيد بنوع من الفخار أطلق عليه بعض العلماء اسم "فخار العصر الحجري النحاسي المبكر"، بينما أسماه آخرون "فخار العبيد" نسبة إلى موقع تل العبيد بجنوبي بلاد الرافدين. ويتفق العلماء في أن حضارة العبيد هي التي حلت محل حضارة حلف في بلاد الرافدين وشمالي بلاد الشام، خاصة حوض الفرات الأوسط، وشمال غربي سورية، وجنوبي الأناضول. وإذا كان بعض العلماء قد أرجع هذه الحضارة لمنتصف الألف السادس قبل الميلاد (Akkermans and Schwartz 2003: 154)؛ إلا أن آخرين رأوا أنها تبدأ بحوالي 6200

وتنتهي بحوالي 3800 قبل الميلاد (Huot 1997: 251). ومن المعروف أن منطقة جنوبي بلاد الرافدين شهدت الاستقرار فيها لأول مرة خلال هذه المرحلة.

وقسم العلماء مرحلة العبيد الى أربع مراحل فرعية، يعود أقدمها لمطلع الألف السادس قبل الميلاد، وفيه سادت حضارة حلف بين شمالي الرافدين وبلاد الشام. ويسميها بعض العلماء حضارة "أريدو" نسبة إلى الموقع القديم الذي عثر فيه لأول مرة على بقايا من هذه المرحلة، وهو أبو شهرين الحالي. كما أطلق على المرحلة الثانية اسم حضارة "حجي محمد"، وفيها انتشرت حضارة العبيد فوق منطقة أوسع من الأولى؛ فوصلت إلى بابل في الشمال، وسواحل الخليج العربي في الجنوب. لكن هذه الحضارة أضحت أكثر اتساعًا وشمولاً خلال حضارة العبيد الثالثة والرابعة، وأصبح هناك ما يعرف بحضارة "العبيد الشمالية"، و"العبيد الجنوبية".

وتطورت حضارة العبيد بشكل كبير خلال فتراتها الأخيرة، حيث بنيت المباني الضخمة مثل المعابد التي أنشئت على مصاطب مرتفعة. كما أصبح الموقع منقسمًا إلى قطاعين، الأول لعامة الناس، والثاني لبناء المباني العامة فيه. كذلك اختلفت صناعة الآنية الفخارية بسبب اختراع الدولاب؛ فأنتج الصانع الآنية الفخارية بكميات أكبر مما كان في السابق، لكنها جاءت متدنية الجودة. ولم تعد الأشكال المحفورة على الأختام تقتصر على الأشكال الهندسية، بل حفرت عليها أشكال حيوانية مختزلة (المحيسن، سلطان 1994).

هذا في بلاد الرافدين، لكن كيف كانت الأحوال في بلاد الشام؟

إن حضارة العبيد لم تكن حاضرة في بلاد الشام بذات القوة التي كانت عليها في بلاد الرافدين، بل يرى العلماء أن المرحلة المؤرخة لنهاية الألف السادس، والخامس قبل الميلاد شهدت تراجعًا في هذه الحضارة. ولم يعثر على بقايا للعبيد إلا في منطقة محدودة ومحصورة بجزء من منطقة شمالي سورية. كذلك ذكر أن عددًا من التحولات والمتغيرات حصلت في هذه المرحلة، مثل ظهور أنواع جديدة من الفخار وطرز جديدة من المباني، وأن المواقع أصبحت أكبر مساحة وأكثر رسوخًا مما كان في حضارة حلف. وحاول الباحثون إرجاع هذه التحولات لأسباب عدة، منها التغيرات المناخية، والغزوات الخارجية، والجفاف، والقحط، والأمراض. علمًا أن آخرين يرون أن السبب لا يكمن في

أي من تلك، إنما كان مرد ذلك المزيد من الانتشار والامتداد لحضارة العبيد من جنوبي بلاد الرافدين لتسود فوق المناطق الأخرى، وتصل أعالي الفرات. ويؤكد الباحثون هذا الأمر من خلال تشابه المادة الحضارية التي عثر عليها في مواقع انتشرت فوق هذه البقعة الجغرافية الواسعة. ويضيف آخرون أن ما حصل إنما كان نتيجة تطور طبيعي محلي، وأن الحلفيين هم الذين بلغوا هذه المرحلة المتقدمة.

عثر المنقبون في عدد من المواقع بشمالي سورية، مثل تل مفش وتل عقاب، على فخار حضارة العبيد، جنبًا إلى جنب في الطبقات ذاتها التي وجد فيها فخار حلف. كما كشفت الدراسات الميدانية الأثرية بشمالي سورية أن العبيديين مارسوا الزراعة البعلية، علمًا أن أهل جنوبي الرافدين عرفوا الزراعة المروية.

ويبدو أن حضارة العبيد لم تحظ بنفس سعة الانتشار كما كان حال حلف؛ إذ لم يعثر إلا على عدد قليل من المواقع خارج منطقة الجزيرة السورية، حيث عثر على بعضها على سواحل البحر المتوسط الشرقية، وحوض نهر العاصي، خاصة حول مدينة حماة. ومن أهم هذه المواقع، تل كردو في سهل العمق E، وتل الكرخ في حوض الروج، وتل حمام التركمان على نهر البليخ، وتل ليلان وتل براك في أعالي الجزيرة السورية، وقوزاق شمالي، وتل العبر في حوض الفرات الأوسط، وتل زيادة وتل المشنقة في حوض الخابور (Thuesen 2000). أما في الأردن وفلسطين؛ فلا تتوفر لدينا حتى الآن أية معلومات أكيدة حول أي مظهر من مظاهر هذه الحضارة، سوى العثور على عدد قليل جدًا من الكسر الفخارية المزخرفة بشكل يشابه فخار العبيد، والتي عثر عليها في موقعي أبو حامد والكتارة السمرة على الضفة الشرقية لنهر الأردن (كفافي 207:2005).

وخلال حضارة العبيد، اختلفت المساكن في مساحتها، وفي عدد غرف المنزل الواحد منها؛ فثمة مساكن تشكلت من غرفة واحدة، وأخرى من عدد من الغرف. كما أن بعضها تألف من ساحة بني حولها عدد من الغرف، وكلها مبنية إما من الطين أو اللبن، علمًا أن بعضها بني فوق أساسات من الحجر.

استخدم العبيديون أدوات متعددة لاءمت احتياجاتهم لتحضير وجبتهم الغذائية، وصنع أدواتهم. وتركزت هذه بشكل خاص حول صناعة الأدوات الصوانية، وحجارة الطحن والجرش، والآنية الفخارية. علمًا أن رؤوس السهام الصوانية اختفت خلال الألف السادس

قبل الميلاد، مع الأخذ بعين الاعتبار أن صيد الحيوانات بقي شائعًا. وإن دل هذا على شيء؛ فإنما يدل على أن الناس استخدموا طرقًا ووسائل أخرى للصيد (Akkermans and Schwartz 2003: 169). ومن الجدير بالذكر، أن المنقبين عثروا على بعض الأدوات المصنوعة من خامات النحاس، والتي تؤرخ لحضارة العبيد. ويعتقد المختصون بدراسة المعادن أن الناس ربما جلبوا خامات النحاس إما من جبال الأمانوس، أو من جبال طوروس.

دفن الناس خلال حضارة العبيد موتاهم خارج المناطق السكنية في مدافن محددة لديهم، وعثر على بعض القبور في خرائب مهجورة. كما عثر المنقبون على قبور تحت أرضيات البيوت، لكنهم لم يتمكنوا من تحديد فيما إذا كان الدفن جرى خلال فترة سكن البيت أم بعد هجره (Hole 1989; Akkermans 1989). وقد وجدت بعض المرفقات الجنائزية مدفونة مع الشخص المتوفى، مثل الآنية الفخارية، والحلي، وبعض الأدوات الصوانية.

وتعد حلف الأقدم بين حضارات العصر الحجري الحديث الفخاري في شمالي بلاد الشام، وإن كان هناك استخدام لآنية فخارية قبل حلول هذه الحضارة. ولقد عاصرت حضارتي حلف والعبيد جماعاتٌ في جنوبي بلاد الشام استخدمت آنية فخارية اختلفت في أشكالها وزخارفها من منطقة لأخرى. وفيما يلي عرض لثقافات العصر الحجري الحديث الفخاري في جنوبي بلاد الشام.

العصر الحجري الحديث الفخاري في جنوبي بلاد الشام

ذكرنا أعلاه أن بعض مواقع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)، خاصة الواقعة في غور الأردن مثل أريحا والمنحطة، هجرت خلال المدة ما بين حوالي 7500 إلى 6500 قبل الميلاد (حسب تاريخ الكربون المشع المعاير). لكن، وبعد هذه المدة الطويلة من الانقطاع، كانت جماعات، عرفت صنع الآنية الفخارية، أعادت الاستقرار في هذه المواقع. واقترحت كنيون بعد تنقيباتها في موقع أريحا أن يكون صانعو الفخار هؤلاء هاجروا إلى المنطقة من جهة الشمال، وجلبوا معهم صناعة الفخار (Kenyon 1957; 1979). وقد ناقشنا هذا الأمر على الصفحات السابقة، حيث ذكرنا أن نتائج التنقيبات في موقعي عين غزال ووادي شعيب تشير الى أن ما حصل كان تطورًا محليًا، لكن ذلك لا يمنع من وجود

مؤثرات خارجية. ولا يفوتنا أن نؤكد أن عددًا لا بأس به من المواقع قد سكن لأول مرة في هذه الفترة، منها القحوانة وأبو زريق وتليلات البطاشي في فلسطين، وأبو الثواب والذراع والذريح وتل وادي فينان في الأردن (Kafafi 1998).



الشكل 34: جرار فخارية من العصر الحجري الحديث، القحوانة/ فلسطين

وكما أسلفنا، عرف الناس في جنوبي بلاد الشام أكثر من طراز من الآنية الفخارية، والتي اختلف كل واحد منها عن الآخر ببعض الأشكال والزخرفة، لكن جميعها صنعت باليد، دون الدولاب (الشكل 34). وتعد الفخاريات اليرموكية، وما يعرف بأريحا (أ)، متعاصرة، وتمثل أقدم تلك الطرز. يتبعها طراز من الآنية أطلق عليه اسم "فخار وادي رباح" نسبة إلى المنطقة التي عثر عليه فيها لأول مرة في فلسطين، وهو يعاصر فخار أريحا (ب) (Kafafi 1995; Garfinkel 1999). ويرى باحثون أن فخار وادي رباح وأريحا (ب) يمثل العصر الحجري النحاسي المبكر (Lovell 2001; Kerner 2001).

وقد قدمنا على الصفحات السابقة وصفًا لهذه المجاميع الفخارية، خاصة اليرموكية. أما الفخار المعروف باسم أريحا (أ)؛ فقد زخرف بزخارف مرسومة باللون الأحمر أو البني الغامق بشكل خطوط أو مثلثات على أرضية ذات لون كريمي (Kenyon and Holland 1983; Bossut and Kafafi 2005). ولتقوية الإناء الفخاري، أضاف الصانع إلى الصلصال قشًا مسحوقًا. وتشكلت الآنية على الأغلب من الكؤوس والصحون والزبادي والجرار. وانتشر هذا النوع من الفخار فوق شمالي فلسطين، وغور الأردن، وغربي القدس، وفي مناطق وادي شعيب، وحوض الزرقاء، والمناطق الواقعة غربي مدينة الكرك حتى وادي اللعبان عند الطفيلة في جنوبي الأردن (Bossut and Kafafi 2005).

أما فخار وادي رباح؛ فتميز بزخارف مدهونة وأخرى محزوزة، وبظهور أشكال فخارية جديدة، خاصة ذات الجدران المتعرجة ورقاب الجرار المقوسة (Garfinkel 1999). وإضافة لموقع وادي رباح، عثر على مثل هذا النوع من الفخار في مواقع أخرى، مثل أبو حامد في الأردن، لكنها كانت قليلة العدد.

وجاء الفخار المنسوب لأريحا (ب) ذا صنعة أفضل من فخار أريحا (أ)، إذ كانت العجينة أكثر صلابة، وذات حرق أفضل. كما أضاف الفنان زخارف محزوزة غائرة إلى الزخارف المدهونة باللون الأحمر أو البني. وعثر على هذا النوع من الفخار في عدد كبير من المواقع (Kenyon and Holland 1983).

أما الأدوات الصوانية؛ فتكونت من المناقش، والأزاميل، والمخارز، ورؤوس السهام الصغيرة جدًا، وشفرات المناجل المسننة، والسكاكين (Garfinkel 1993; Wada 2001; Kafafi 1993). وفيما يتصل ببناء البيوت، فقد اختلفت هندستها وتنظيمها خلال الفترة الواحدة، ومن منطقة لأخرى، خلال العصر الحجري الحديث الفخاري في جنوبي بلاد الشام؛ فخلال المرحلة المبكرة من هذا العصر (أريحا (أ) واليرموكية)، سكن الناس في بيوت متعددة الغرف، وذات ساحات أمامية فيها حفر ومواقد، وتفصل بين الوحدات السكنية أزقة كما هو الحال في القحوانة وعين غزال. كما ظهرت أشكال أخرى، مثل المنزل الذي يتكون من غرفة أو غرفتين، وساحة أمامية. واستخدم الناس الحجارة واللبن في بناء بيوتهم، حسب ما يتوافر في منطقتهم (Kafafi 1999).

وكانت مجتمعات العصر الحجري الحديث الفخاري مارست الفنون؛ فصنعت الدمى الآدمية والحيوانية من الحجارة والصلصال. وفي اليرموكية، اختار الفنان بعضًا من حجارة السيل، حفر عليها حزوزًا غائرة تمثل وجه الإنسان. وصنع من الصلصال دمى أشهرها ذات العينين بشكل حبة القهوة، والتي عثر على مثيلاتها في جبيل (لبنان)، وفي القحوانة والمنحطة (فلسطين)، وفي أبو الثواب وعين غزال (الأردن) (كفافي 2005:181). ويمتاز هذا النوع من الدمى بأنه ذو رأس هرمي، وكأن الفنان ألبسه قناعًا على الوجه، ويحمل بعضها أقراطًا في الأذنين. ويظهر هذا النوع من الدمى نساءً ذات أرداف وأوراك ضخمة (الشكل 35) (Garfinkel 2004).



الشكل 35: دمى طينية يرموكية من العصر الحجري الحديث الفخاري، القحوانة/ فلسطين (عن Garfinkel 2004)

ولا بد في نهاية حديثنا حول الاستمرارية والتحول في طبيعة المستقرات البشرية في بلاد الشام خلال الألفين السابع والسادس قبل الميلاد من قول إن المكتشفات الآثارية المادية أثبتت وجود صلات حضارية بين المناطق المتباعدة فيها حتى بداية حضارة حلف. فمع

بزوغ فجر هذه الحضارة، أخذ شمالي سورية الحالية، خاصة، يقترب حضاريًا من شمالي بلاد الرافدين وجنوبي الأناضول، بينما يبتعد عن مناطق جنوبي بلاد الشام. ويستطيع الباحث أن يضع حدًا وهميًا فاصلاً بين شمالي بلاد الشام (الذي يضم لواء الإسكندرونة، وحوض الفرات الأوسط، والجزيرة السورية)، وجنوبها الذي يمتد من جبيل غرباً ليصل تل الحريري شرقًا. وعلى الرغم من هذا؛ فإن الفخار الذي ظهر في جنوبي بلاد الشام لأول مرة، له ما يشابهه في مواقع تل الصبي الأبيض في الجزيرة السورية، وفي تل حسونة الشمالي في العراق. كما أن الدمى اليرموكية ذات العيون بشكل حبة القهوة ظهرت في فلسطين، وفي لبنان، وفي بلاد الرافدين. لهذه الأسباب نجد أنفسنا عند الحديث حول خاتمة هذه المرحلة في غاية الاضطراب؛ فتارة تجدنا نقرب من الادعاء بوجود وحدة حضارية في بلاد الشام، وتارة أخرى نجد أن ثمة أقاليم في بلاد الشام تمتعت بشخصية حضارية خاصة بها. لكنها برأينا، وعلى الرغم من ذلك فإنها لم تخرج عن الإطار الحضاري العام لبلاد الشام.

إن الباحث العارف يقر بأن المرحلة التالية للعصر الحجري الحديث الفخاري، أي العصر الحجري النحاسي في جنوبي بلاد الشام، ما هي إلا استمرار لما سبقها، حتى وإن أصبح المعدن وسيلة للتصنيع. أما في شمالي بلاد الشام؛ فإن حضارة الوركاء بخصائصها التي سندرسها في الفصل التالي تمتعت بخصوصية ارتبطت كليًا بحضارة بلاد الرافدين. لكننا نود الاستدراك هنا بالقول إن الوركاء لم تعقب حضارة العبيد مباشرة، بل توسطتهما فترة ما بين حوالي 4500-3600 قبل الميلاد. ولئلا يظن القارئ أن انقطاعًا في التواصل حدث بين حضارتي العبيد والوركاء في شمالي بلاد الشام خاصة، نقدم فيما يلي شرحًا حول هذه المرحلة الانتقالية التي أطلق عليها بعض العلماء العصر الحجري النحاسي المتأخر (Akkermans and Schwartz 2003: Fig. 6.3).

كما أشرنا سابقًا، شهد الربع الأخير للألف الخامس قبل الميلاد، أي زمن حضارة العبيد، تراجعًا في صناعة الآنية الفخارية، إذ أصبحت أقل جودة مما كانت عليه في حضارة حلف. وظهر هذا واضحًا في المكتشفات التي عثر عليها في رأس شمرا IIIC، وفي العمق E، وفي المرحلة الأخيرة من العصر الحجري الحديث في جبيل.

عثر في سورية (خريطة 6) على عدد قليل من المواقع المؤرخة للمرحلة الواقعة بين حضارتي العبيد والوركاء، نذكر منها تل براك والمشنقة وزيادة وتل ليلان، وتتركز كلها في حوض الخابور. وجاء الفخار الذي عثر عليه في هذه المواقع بسيط الصنعة وغير مزخرف. وعزا بعض العلماء السبب في ذلك إلى أن الصانع، بعد معرفته للدولاب، أخذ يصنع أعدادًا كبيرة من الآنية دون الاهتمام بجمالياتها (Akkermans 1988). ورافق هذا النوع من الفخار في شمالي سورية، استخدام الأداة الصوانية المعروفة باسم النصلة الكنعانية، والتي أرخت للألف الرابع قبل الميلاد.

ويعد موقع تل براك من أفضل المواقع التي تزودنا بفكرة حول هذه المرحلة الانتقالية، وذلك لعدة أسباب من أهمها كمية ونوعية المادة الأثرية المكتشفة فيه، والمؤرخة لنهاية الألف الخامس وبداية الرابع قبل الميلاد. إضافة إلى أن الموقع احتل مساحة كبيرة بلغت حوالي 43 هكتارًا (430 دونمًا) في منطقة استراتيجية تسيطر على المنطقة الزراعية المحيطة. وذكر المنقبون أن المكتشفات الأثرية من تل براك من هذه الفترة يجب أن تؤخذ مقياسًا عند دراسة التطور الحضاري لسورية خلال الألف الرابع قبل الميلاد (Oates and Oates 1994; Emberling et al. 1999). واعتمادًا على هذا القول، قسم بعض الدارسين المرحلة المتأخرة من العصر الحجري النحاسي في منطقة الجزيرة السورية إلى خمس مراحل فرعية، وعدوا المراحل الثلاث الأولى مرحلة انتقالية بين حضارتي العبيد والوركاء (Akkermans and Schwartz 2003: 187- 190).



خريطة 6: أهم مواقع بلاد الشام في العصر الحجري النحاسي

لكن الأمر يختلف في منطقة غربي سورية ولبنان، إذ يقول بعض الباحثين (Heinz 2002: 51) إن من الصعب جدًا تتبع كيفية الانتقال من حضارة حلف إلى العبيد أولاً ومن مرحلة القرية إلى مرحلة المدينة ثانيًا. علمًا أن الجميع يتفق في أن المرحلة الانتقالية بين العبيد والوركاء (أي من القرية إلى المدينة) شهدت كثيرًا من المستجدات والتحولات في النواحي البيئية والتقنية والفكرية والاجتماعية والعمائرية (Henrickson and Thuesen 1989)، والتي لم تكن معروفة خلال حضارة العبيد. ويضيف هؤلاء أنه خلال المرحلة الأولى من العصر الحجري النحاسي المتأخر (حوالي 4400- 4200 قبل الميلاد)، ظهرت أنواع جديدة من الآنية الفخارية الرديئة الصنع وذات الحرق السيئ، منها زبادٍ ذات قاعدة مبسطة، وجدران مستقيمة، وحافة بسيطة تستدق عند نهايتها (Akkermans and Schwartz 2003: Fig.6.4h). واستمر هذا الشكل من الزبادي خلال المرحلة الثانية، أي التالية، لكن بعد أن زخرفها الصانع بحزوز غائرة، تتوازى أحيانًا، وتتصل في أحيان أخرى، إضافة لأخرى دائرية. ولا نبالغ هنا، أنه، وعلى وجه التقريب، شاع استخدام هذا الطراز من الزبادي في بلاد الشام خلال الفترة بين حوالي 4500-3500 قبل الميلاد، أي مع نهاية العصر الحجري الحديث الفخاري وبداية العصر الحجري النحاسي (Garfinkel 1999).

ومع بداية مرحلة الوركاء، أي مع حلول منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، بلغ موقع تل براك أقصى اتساع له، إذ تحول من قرية إلى مدينة. كما دلت المسوحات الأثرية في المنطقة المحيطة به (حوض جغجغ) على ارتباط عدد من القرى الصغيرة بهذه المدينة.

ذلك فيما يخص مجتمع القرية في شمالي بلاد الشام، أما حضارة العصر الحجري النحاسي بجنوبي بلاد الشام؛ فهي محور نقاشنا في الصفحات التالية.

العصر الحجري النحاسي في جنوبي بلاد الشام

نود التأكيد هنا أن بداية حضارة حلف في شمالي بلاد الشام شهدت نمطًا حضاريًا مختلفًا عنه في جنوبها؛ فمنذ حوالي 4500 قبل الميلاد، عرفت المجتمعات التي عاشت في هذه المنطقة كيفية استخراج خامات النحاس، وصهرها، وطرقها، وتصنيع أدوات وآنية منها. وأطلق العلماء على الفترة من حوالي 4500-3500 قبل الميلاد اسم "العصر الحجري النحاسي"، والذي قسمه بعض الباحثين إلى ثلاث مراحل فرعية: مبكرة، ومتوسطة،

ومتأخرة (Kerner 2001)، إلا أننا سنتحدث عنها كوحدة واحدة. لكن لا بد من القول إن مصطلح "غسول- بئر السبع" (الموقع الأول في الأردن، والثاني في فلسطين) ارتبط بالفترة ما بين حوالي 4000-3500 قبل الميلاد.

تنازعت بلاد الشام بعد انتهاء العصر الحجري الحديث الفخاري حضارات محلية، وأخرى وافدة خاصة من بلاد الرافدين. وشكلت منطقة شمالي سورية الممتدة من مدينة جبيل على الساحل اللبناني حتى شرقي العراق، وجنوبي غرب إيران، وجنوبي الأناضول وحدة حضارية ذات سمات خاصة عرفت باسم "حضارة الوركاء". وقد لاحظنا في أثناء دراستنا للعصر الحجري الحديث الفخاري أن معظم مواقع هذه الفترة، إن لم يكن جميعها، تركز، غالبًا، على ساحل البحر المتوسط، وبالقرب من مصادر المياه الدائمة. لكن الأمر كان مختلفًا خلال العصر الحجري النحاسي، حيث أنشأ الناس قراهم فوق المنطقة الجافة والصحراوية، مثل صحراء النقب في فلسطين (Levy 2003; Rowan: f.c)؛ فقد عثر على عدد لا بأس به من المواقع التي انتشرت فوق مرتفعات الجولان، ومناطق غور الأردن، والبحر الميت، ووادي عربة، والعقبة، والنقب، ووادي غزة وغيرها (Epstein 1998; Dollfus and Kafafi 2001; Levy 2003). ويرى بعض الدارسين أن قرى العصر الحجري النحاسي، خاصة في المناطق ذات المياه الشحيحة مثل بئر سبع، كانت الدافع إلى ظهور المجتمعات المتمدنة والمدن في جنوبي بلاد الشام خلال المرحلة الثانية من العصر البرونزي المبكر، ويضيف هؤلاء أن حضارة العصر الحجري النحاسي توقفت كليًا وبشكل مفاجئ، وأن التحول إلى المدينة لم يأت إلا نتيجة عدة متغيرات، وليس نتيجة تراكم ثقافي وحضاري (Levy 2003: 263). وبرأينا أن هذا الاستنتاج غير دقيق، لا سيما أن كثيرًا من مواقع العصر الحجري النحاسي، خاصة في وادي الأردن (تل الشونة الشمالية، وطبقة فحل، وأبو حامد) وفي منطقة العقبة (المقص، وحجيرة الغزلان)، أظهرت تتابعًا واستمرارًا من العصر الحجري النحاسي إلى العصر البرونزي المبكر (Kafafi 2010).

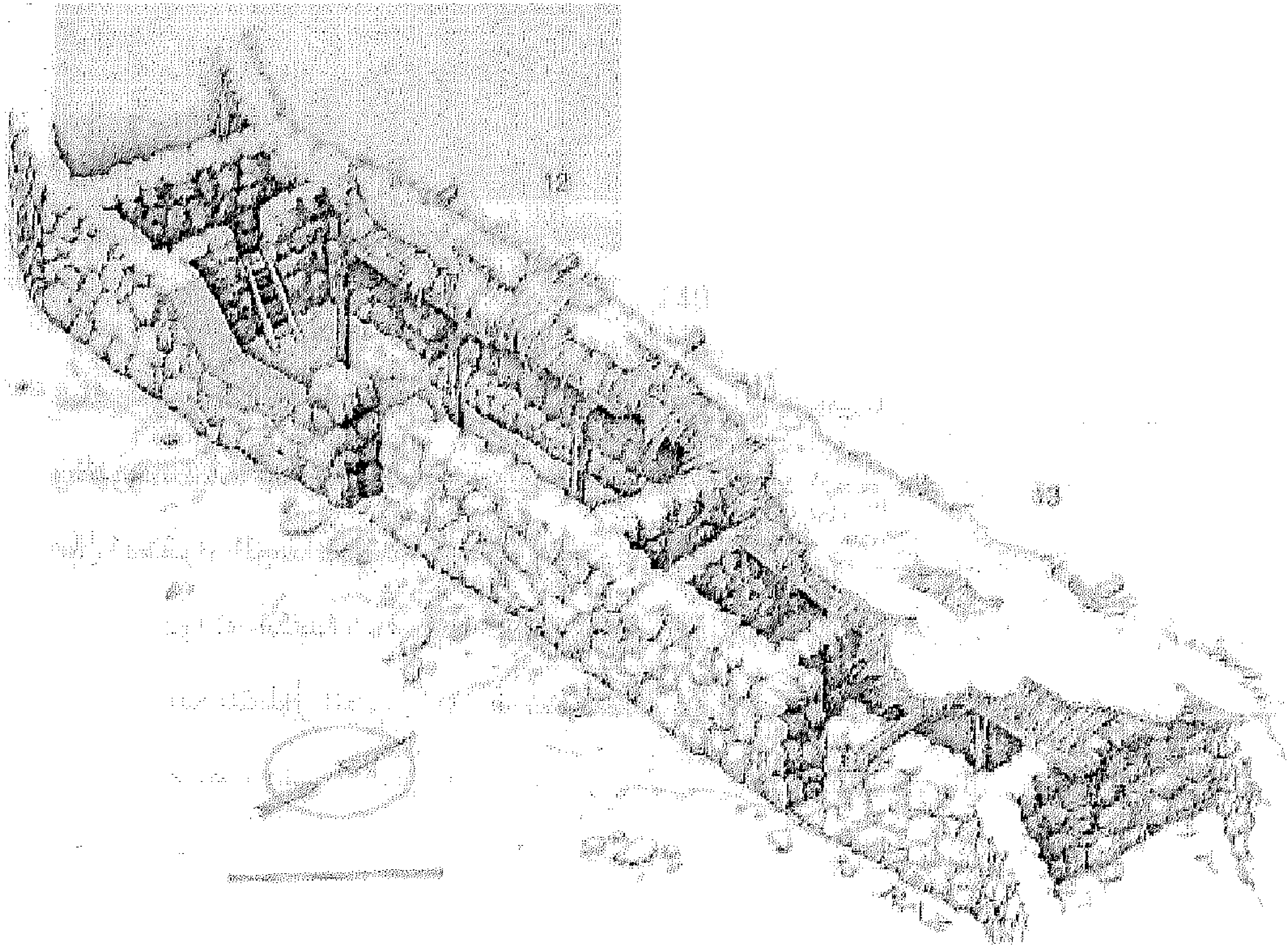
شهدت منطقة جنوبي بلاد الشام خلال العصر الحجري النحاسي زيادة في عدد السكان بدليل زيادة المواقع الأثرية في هذا العصر عما سبقه. واقترح بعض العلماء أن هذه المواقع تركزت في منطقتين هما حفرة الانهدام (غور الأردن ووادي عربة) والنقب. ويضيف

هؤلاء أن كثرة عدد المواقع في هاتين المنطقتين جاء نتيجة زيادة عدد السكان، ليس فيهما وحسب، وإنما في مختلف مناطق بلاد الشام.

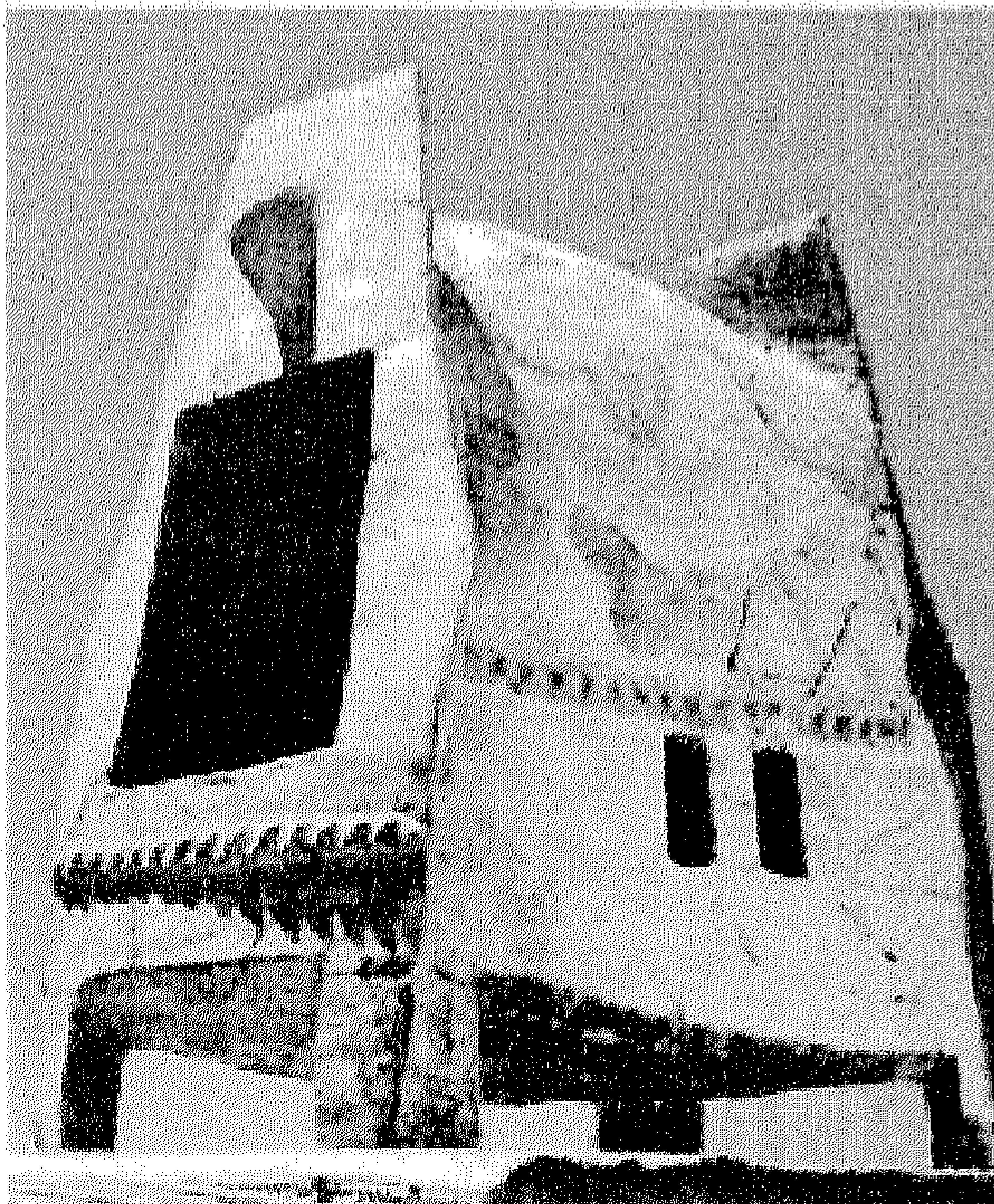
وبمقارنة القرية في العصر الحجري النحاسي بنظيرتها في العصر الحجري الحديث الفخاري، نجد فروقات كبيرة بينهما. فمثلاً، جاءت قرى العصر الحجري الحديث الفخاري صغيرة المساحة، إذ لم تتجاوز مساحة أكبرها 7 هكتارات (70 دونمًا)، بينما تراوح متوسط مساحة قرى منطقة النقب ("شقميم" وبئر الصفدي) حوالي 25 هكتارًا (250 دونمًا)، وبلغت مساحة قرية تليلات الغسول حوالي 52 هكتارًا (520 دونمًا). ويشير هذا إلى أن قرى العصر الحجري النحاسي أصبحت ذات مساحات كبيرة. ويربط بعض العلماء الاختلاف في المساحة بالتغيرات الاجتماعية والسياسية؛ إذ يذكرون أن مجتمعات بلاد الشام تحولت خلال العصر الحجري النحاسي لمجتمع المشيخة أو القبيلة، وأنه كان لكل واحدة منها قريتها الكبيرة الخاصة بها. ويضيفون أن بعض القرى الكبيرة، مثل تليلات الغسول، بنيت وفق مخطط مسبق. واستطاع المنقبون في مواقع أبو مطر وبئر الصفدي و"شقميم" الواقعة على وادي السبع التعرف إلى طبيعة السكنى في القرية هناك خلال سبعمائة عام من الاستقرار في المنطقة. فمثلاً في موقع "شقميم"، وخلال بداية الاستقرار في الموقع، حفر الناس لأنفسهم بيوتًا تحت الأرض "تحأرضية" Subterranaean Houses، وخلال المراحل اللاحقة بنوا بيوتًا مربعة أو مستطيلة فوق سطح الأرض (Levy 2003: 264-265; Levy et al. 1991).

واختلفت طبيعة السكنى في جنوبي بلاد الشام من منطقة لأخرى، حيث كشف في مواقع طبقة فحل وأبو حامد وتليلات الغسول عن بيوت ذات زوايا قائمة وجدران مستقيمة، وعن بيوت ذات جدار منحنٍ في بعض الحالات. وكانت المنازل مبنية من اللبن على أساسات حجرية في أغلب الحالات. كذلك استخدم الناس خلال العصر الحجري النحاسي الكهوف للسكنى كما هو الحال في مواقع تل الفارعة قرب نابلس بفلسطين، وفي سحاب والقويسمة في الأردن (كفافي 1992؛ Bourke 2001; Kafafi: f.c.). وعثر في بعض المواقع، مثل تليلات الغسول وعين جدي وجليلات، على أبنية وصفت بأنها ذات سمة عقائدية، وعدها بعض الدارسين معابد (Alon 1977; Ussishkin 1980). أما في مرتفعات الجولان بسورية؛ فجاءت البيوت ذات عدة غرف تصطف وتلتصق مع بعضها على شكل حبل (الشكل 36).

أما عادات الدفن خلال العصر الحجري النحاسي بجنوبي بلاد الشام؛ فقد تعددت طرقها وأشكالها، فكان الدفن فرديًا في بعض الحالات، وجماعيًا في حالات أخرى. كما دفن الناس موتاهم إما في حفر تحت الأرض، أو في كهوف. وظهرت عادة دفن جديدة، لا سيما في منطقة السهل الساحلي الفلسطيني، حيث دفن الناس موتاهم في صناديق صلصالية أو حجرية عرفت باسم "المعاظم" (Perrot 1978)، حيث كان المتوفى يترك في العراء مدة من الوقت حتى يزول اللحم عن العظم، ثم تجمع العظام في صندوق أو "معظمة" (الشكل 37).



الشكل 36: بيت من العصر الحجري النحاسي، الجولان/ سورية (عن Epstein 1998)



الشكل 37: معظمة صلصالية من يازور/ فلسطين (عن Perrot 1978)

تطلب ازدياد عدد السكان مع نهاية الألف الخامس وبداية الرابع قبل الميلاد إعادة تنظيم وظهور تقنيات جديدة ارتبطت بكيفية استغلال المواد الخام المتوافرة في المنطقة. كذلك فإن استقرار الجماعات في المناطق القاحلة وغير الخصبة، مثل منطقة بئر السبع، تطلب تصنيع أدوات جديدة، ومعرفة تقنيات ووسائل تتواءم والبيئة الجديدة التي تعيش فيها، وذلك لتتابع التطور الذي رافق مجتمع الفلاحين في هذا العصر. فمثلاً، عثر على أدوات صوانية صنعت على شكل مجارف لعزق الأرض، وعلى قداديم للتحطيب. كذلك رأى بعض الباحثين أن زراعة الأراضي في مناطق مثل النقب بفلسطين، والتي تتلقى كميات قليلة جدًا من الأمطار، تطلبت من الناس ابتكار تقنيات جديدة لخزن مياه الأمطار التي تتدفق في الأودية على شكل فيضانات خلال مدة هطل الأمطار، والتي تكون في العادة قصيرة جدًا في هذه المناطق. لذا، اقترح الدارسون أن الناس هناك عرفوا بناء السدود البسيطة لهذا الغرض (Levy 2003: 265). كما عثر على عدد من جرار الخزين الكبيرة في الجولان بسورية، وفي غور الأردن، وشمالي فلسطين (الشكل 38). واعتقد بعض

المختصين بدراسة النبات القديم أن اكتشاف بذور الزيتون والبلح في مواقع مثل تليلات الغسول تشير إلى ممارسة الناس للزراعة المروية (Zohary and Spiegel-Roy 1975).

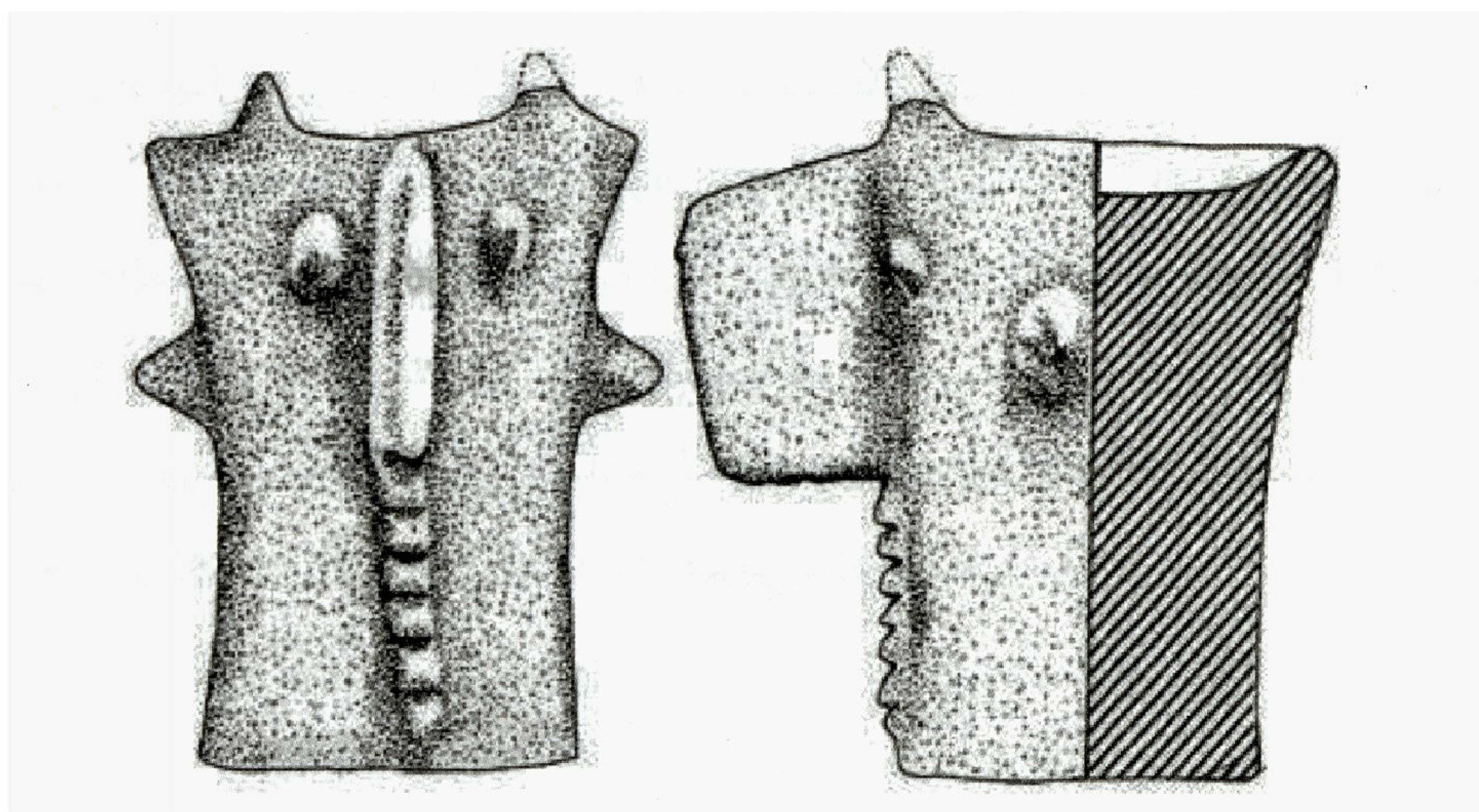
وإلى جانب الزراعة والصيد، مارس سكان جنوبي بلاد الشام خلال العصر الحجري النحاسي تربية الماشية، ورعيها؛ فقد دلت المكتشفات الأثرية بعد دراسة العظام الحيوانية أن الناس أكلوا من لحوم الأبقار والأغنام والماعز والخنازير، وشربوا من حليبها، وأفادوا من صوفها ووبرها. كما استفادوا من الحيوانات الأخرى، مثل الحمار والحصان، في التنقل ونقل أغراضهم (Desse 1988; 2001; Bourke 2001; Levy 2003).

ظهرت خلال العصر الحجري النحاسي في جنوبي بلاد الشام طبقة من الحرفيين الذين مارسوا مهارات وحرف مختلفة؛ فبالإضافة إلى الأدوات الصوانية والآنية الفخارية، نحت الفنان أشكالاً آدمية من العاج والعظم والحجر، كما هو الحال في بئر السبع بفلسطين، والجولان في سورية (الشكل 39)، وفي شمالي الأردن. كما صنع الفنان أدوات وآنية نحاسية ذات أشكال مختلفة، مثل تلك التي عثر عليها في وادي محرس بفلسطين، ورسم على الجدران والأرضيات أشكالاً آدمية وحيوانية وهندسية محورة كتلك التي من تليلات الغسول (الشكل 40).

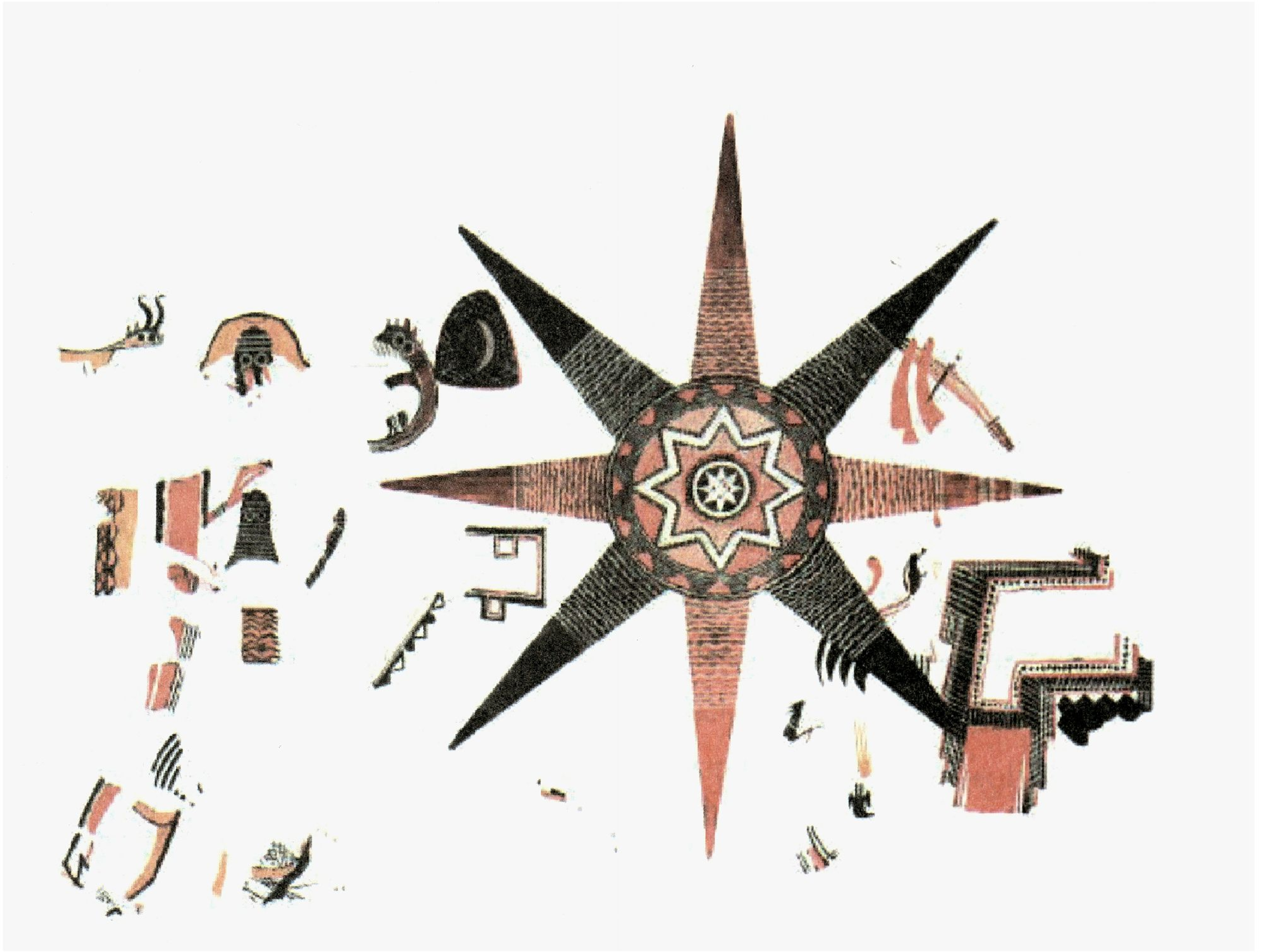
إضافة لهذا وذاك، عثر في مرتفعات الجولان، وفي شمالي الأردن على حجارة منحوتة بأشكال آدمية وحيوانية. ولا ننسى هنا الأشكال الحيوانية والآدمية المصنوعة من الصلصال، والتي تحمل أثقالاً. أما المجوهرات والحلي؛ فقد صنعها الصانع من الأصداف البحرية، والعظام، والأحجار الكريمة (Perrot 1959; Epstein 1985, 1998; Weippert 1988). ولا نستطيع هنا مناقشة كل صناعة من الصناعات أو من الفنون بالتفصيل، لكننا نؤثر أن نتحدث قليلاً عن صناعة الأدوات والآنية النحاسية التي اتسمت بها الفترة ما بين حوالي 4500-3500 قبل الميلاد في جنوبي بلاد الشام.



الشكل 38: جرة خزين من موقع رسم خربوش في الجولان/ سورية (عن Epstein 1998)



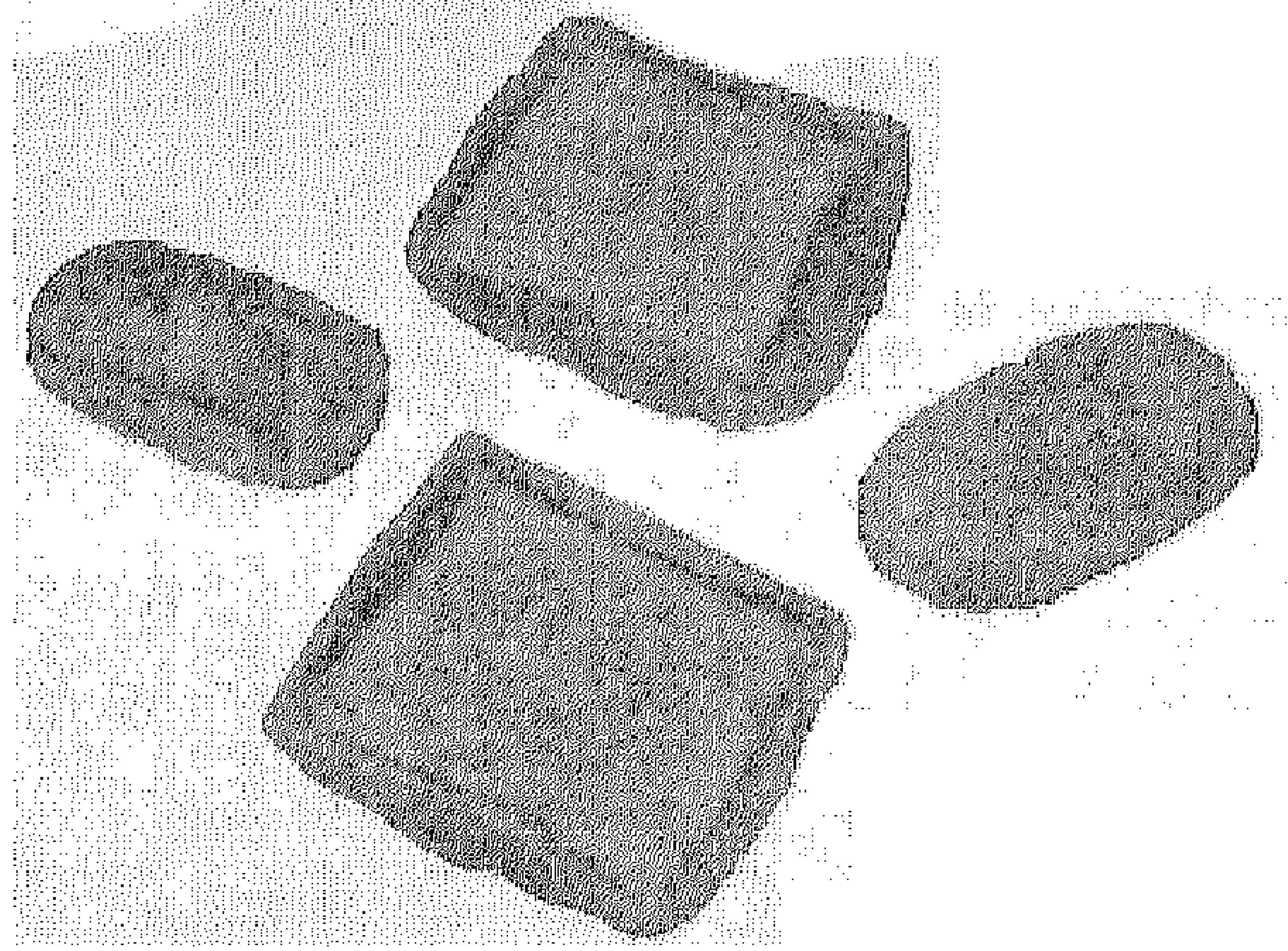
الشكل 39: رسم لمنصة بازلتية نحت عليها وجه آدمي، الجولان/ سورية (عن Epstein 1998)



الشكل 40: جدارية تعود للنصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد ، تليلات الغسول/ الأردن

كما نوهنا آنفًا، فقد جاءت أفضل الأدوات النحاسية من كهف وادي محرس إلى الغرب من البحر الميت، حيث عثر على ما يزيد عن أربعمائة قطعة مصنوعة من خامات النحاس (Tadmor et al. 1995). كذلك عثر في منطقة بئر سبع على بعض من اللقى المشابهة لتلك من وادي محرس. وقد ذكر المختصون أن تلك الأدوات صنعت بطريقتين، الأولى وهي الأبسط، وبها يُصب النحاس بعد صهره في قالب مفتوح، ثم تطرق القطعة النحاسية بعد ذلك على سندان لتأخذ شكلها النهائي، فتستخدم فأسًا، أو قدومًا، أو مخرزًا. أما الطريقة الثانية؛ وهي الأكثر تطورًا، وتسمى lost wax، فتتطلب استخدام نوع من النحاس Arsenical Copper يصب في قالب. وهذه الطريقة تنتج أدوات أو قطع (مثل التاج والصولجانات التي عثر عليها في تل محرس) ذات صلابة وقوة أكثر من الأدوات العادية (Shalev et al. 1992). وقد درس العلماء توزيع المواقع التي عثر فيها على أية مواد أو أماكن لتصنيع الأدوات النحاسية، وخرجوا بنتيجة مفادها أن تصنيع تلك الأدوات جرى في مواقع بئر السبع غالبًا، وفي منطقة وادي فينان أحيانًا. بل زادوا على هذا أن خامات النحاس التي كانت تستخرج من منطقة وادي عربة (وادي فينان أو خربة المنيعة)، أو حتى من سيناء، كانت تحمل على الحمير إلى بئر السبع حيث يجري تصنيعها هناك (Levy 2003: 268). وعززوا رأيهم هذا بما نشر حول نتائج البعثة الأثرية الألمانية في وادي فينان، إذ لم يعثر إلا على قليل من الدلائل الأثرية التي تشير إلى عملية تصنيع الأدوات النحاسية فيه (Hauptmann 1989).

لكن هذا الرأي لم يلق قبولاً لدى جميع الباحثين، فقد أثبتت المسوحات والتنقيبات الأثرية التي جرت في منطقة العقبة بجنوبي الأردن (المقص وحجيرة الغزلان) أن الناس فيها لم يصهروا النحاس وحسب، بل صنعوا منه أدوات، واستخدموها سلعًا للمبادلة (الشكل 41) (Khalil 1992; Khalil and Riederer 1998; Khalil and Eichmann 1999, 2001). ولا بد من ذكر أن الناس في جنوبي بلاد الشام خلال العصر الحجري النحاسي، صنعوا أيضًا خواتم وأساور من الذهب؛ فقد عثر في كهف قانا بشمالي فلسطين على ثمانٍ منها، تعد الأقدم من نوعها في بلاد الشام حتى الآن (Gopher and Tsuk 1996).



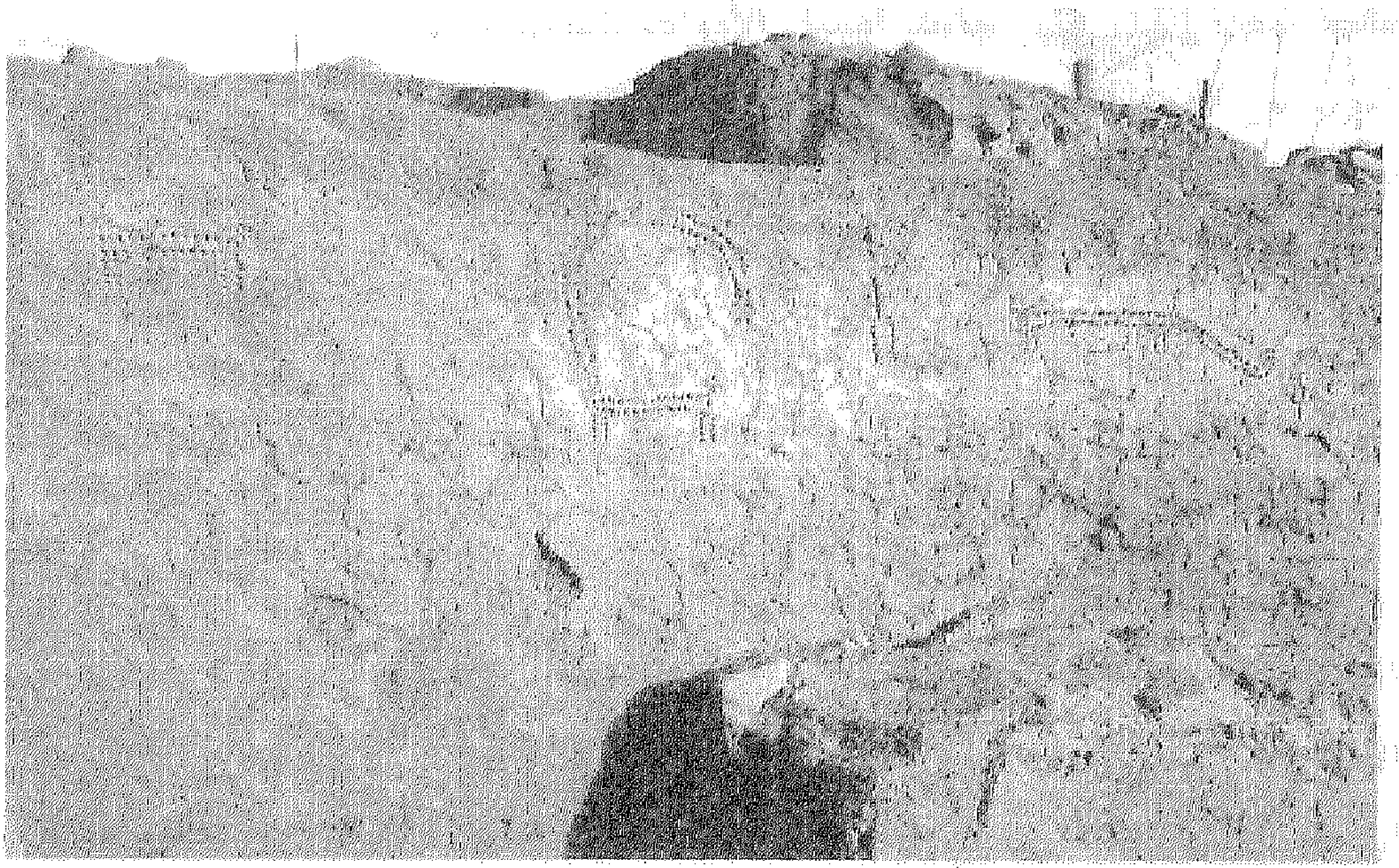
الشكل 41: قوالب لصب النحاس عثر عليها في موقع حجيرة الغزلان/ جنوبي الأردن
(عن Khalil and Schmidt 2009)

لذا نجد أنفسنا نتفق وعددًا من الباحثين في أن الناس في جنوبي بلاد الشام لم يكونوا خلال العصر الحجري النحاسي زُرَّاعًا ورعاة وحسب، بل كان بينهم فئة من الصناع والفنانين والحرفيين المهرة كذلك (Kerner 2001).

واستنادًا إلى ما تقدم حول القرى الزراعية ومجتمعات الفلاحين في بلاد الشام، يمكننا قول إن هذه البقعة الجغرافية من العالم كانت مسرحًا لتطورات حضارية شكلت في مجملها سلسلة من حلقات التطور المحلي، وإن تأثرت في بعض الأحيان بالحضارات المجاورة لها، إذ قدمت قرى بلاد الشام وسكانها شواهد ثرية على التطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي تشكلت تدريجيًا خلال أربعة آلاف عام، هي عمر القرى الأولى في بلاد الشام.

خلاصة

عاش الناس في القرى زُرَّاعًا بادئ الأمر، ثم عرفوا تدجين الحيوان، ولم يتخلوا عن الصيد وسيلة من وسائل العيش، ثم أصبحوا أصحاب حرف. وكانت القرية بدأت صغيرة في مساحتها، وأخذت تكبر بمرور الزمان، ويزداد عدد سكانها، ثم نجدها تتراجع، ثم تعود إلى مساحتها الكبيرة خلال الألف الرابع والنصف الأول من الألف الثالث قبل



الشكل 42: مبنى ربما أنه ذو صفة عقائدية من العصر الحجري النحاسي، حجيرة الغزلان/ جنوبي الأردن (بإذن من لطفي خليل وكلاوس شميدت)

الميلاد. ورافق ذلك جملة من التطورات الفكرية التي نجد مظاهرها في التقنيات التي استخدمها الناس في تصنيع ما يحتاجون. كما أن ممارسة الناس لطقوس دينية، وبناء التماثيل رموزًا لقوى/ أو قوة لا يعرفونها، وإنشاء أبنية (الشكل 42) يؤدون فيها طقوسًا دينية لآلهة أو لإله، يعد دليلاً قويًا على أنها مجتمعات عاشت مرحلة "المجتمع المعقد/ المركب". وقد وضعت هذه المرحلة الأساس لوصول الناس إلى المدينة والتمدن.

الفصل الخامس

آثار العصور البرونزية المبكرة وتاريخها

من القرية إلى المدينة

الفصل الخامس

آثار العصور البرونزية المبكرة وتاريخها: من القرية إلى المدينة

حوالي 3500-2000 قبل الميلاد

شهدت بلاد الشرق الأدنى القديم عامة خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد تحولات كبيرة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. إذ عرف الناس في بلاد الرافدين ومصر الكتابة، وتأسست المدن، وعرف أهلها نظامًا سياسيًا عرف باسم "دولة- المدينة"، وتحولت المجتمعات الزراعية من الحياة البسيطة إلى أخرى معقدة تحكمها أسس وأنظمة قام عليها في بادئ الأمر المعبد، أي السلطة الدينية، ثم شاركتها الحكم سلطة مدنية. وقد أطلق العلماء على هذا الفترة اسم "العصور البرونزية" لأن الناس استخدموا معدن البرونز (خليط النحاس مع القصدير) في صنع أدواتهم وآنيتهم، علمًا أن الاستخدام الفعلي له لم يأت إلا في بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

من القرية إلى المدينة في شمالي بلاد الشام

زودتنا التنقيبات والمسوحات الأثرية في حوض الخابور، والجزيرة السورية، وحوض البليخ وسهل العمق، ومنطقة ساحل البحر المتوسط الممتدة على الحدود السورية واللبنانية وحوض نهر العاصي، والقويق، وحوض الفرات، وسهل البقاع بمعلومات حول المستقرات السكانية التي تأسست فيها عبر العصور (خريطة 7). واستطاع العلماء تكوين حصيلة

من المعلومات حول الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي سادت هذه المناطق خلال العصور البرونزية والحديدية خاصة.

وقد لاحظ العاملون في الآثار السورية انتشارًا واسعًا لحضارة الوركاء (حوالي 4400-3100 قبل الميلاد)، لا سيما في مراحلها الأخيرة (حوالي 3600-3100 قبل الميلاد) في شمالي بلاد الشام. واتسمت المواقع المنتشرة فوق هذه المنطقة بسمات لا تختلف في طابعها الحضاري، سواء من حيث العمارة أو الآنية الفخارية أو الأدوات الأخرى، عما كشف عنه في المواقع المنسوبة لحضارة الوركاء بجنوبي بلاد الرافدين. ولم يقتصر تأثير هذه الحضارة على شمالي سورية ولبنان، بل تعداه إلى مناطق أخرى، مثل جنوب شرقي بلاد الأناضول وغربي إيران (Stein 1999). ومن المعلوم أن المدن الأولى في بلاد الشرق الأدنى القديم ظهرت لأول مرة في جنوب بلاد الرافدين (Nissen 1999).

وحاول العلماء الربط بين أسباب ظهور حضارة الوركاء هناك والعلاقات التي ربطت هذه المنطقة بمناطق بلاد الشرق الأدنى القديم الأخرى، خاصة تلك التي عثر فيها على آثار هذه الحضارة. ولهذا، نجد أن الأمر اختلط لدى الباحثين في كثير من الأحيان، إذ لم يستطيعوا تحديد فيما إذا كان وجود مخلفات أثرية من حضارة الوركاء خارج منطقة بلاد الرافدين يمثل امتدادًا لمستعمرات تجارية رافدية، أم أن ذلك كان نتيجة تطور محلي (Heinz 2002: 63)؟ وبناء عليه، رأى بعض المنقبين والدارسين لآثار حضارة الوركاء التي عثر عليها في مواقع تنتشر فوق شمالي بلاد الشام أنها تمثل امتدادًا لحضارة الرافدين. علمًا أننا لا نرى ما يمنع أن ترافق التدخلات الحضارية الخارجية تطورات محلية ترقى بالناس إلى حياة المدينة والتمدن. وإلا كيف نفسر وصول مجتمع مصر القديمة إلى درجة المدينة وتأسيس دولة الأمة؟

وخلال الستينات من القرن الماضي، وفي أثناء إجراء التنقيبات الأثرية الإنقاذية في منطقة سد الطبقة الذي بني على حوض نهر الفرات الأوسط، كشف عن عدد من المواقع الأثرية التي تأسست خلال الألف الرابع قبل الميلاد، وجاءت المخلفات الأثرية منها مشابهة لتلك المؤرخة للفترة ذاتها في جنوبي بلاد الرافدين، أي أنها تخص حضارة الوركاء. وعدَّ بعض الباحثين هذه المواقع مستعمرات أسسها أناس قدموا من جنوبي بلاد الرافدين. إلا أن الكشف عن مزيد من اللقى الأثرية في تلك المواقع بيَّن أنها قد سكنت لمدة طويلة (من حوالي 3600 إلى 3000 قبل الميلاد)، مما يدل على استقرار

طويل ومتصل فيها، الأمر الذي يدحض عنها صفة المستعمرات الرافدية (Stein 1999; Akkermans and Schwartz 2003).

ويمكن أن نضرب مثالاً على ذلك من موقع حبوبة كبيرة، حيث أثبتت نتائج التنقيبات أن ما حصل في هذا الموقع من تطورات حضارية استمرت خلال المرحلة الأخيرة من حضارة الوركاء لم تخرج عن الإطار المحلي المتأثر بحضارة جنوبي بلاد الرافدين. ويؤكد هذا أيضًا وجود اتصالات حضارية بين مجتمعات عاشت في مناطق متباعدة في بلاد الشرق الأدنى القديم خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. لذا، نرى أن الوصول إلى مرحلة متقدمة من الرقي الحضاري أو التمدن لم يكن مرتبطًا بأي حال من الأحوال بمجتمعات حصرت نفسها داخل حدودها الإقليمية، بل إن الوصول إلى مرحلة المدينة وبناء المدن قد أسهمت فيه عدة عوامل اتسمت بالتعددية والشمولية التي طالت تطورات اقتصادية وفكرية واجتماعية حصلت في عدد من المناطق التي كانت على اتصال ببعضها.

وعلى الرغم من تزايد النشاط الميداني الأثري في سورية ولبنان خلال العقود الأخيرة، الا أننا لا زلنا بحاجة لمزيد من المعلومات حول الفترة ما بين حوالي 3500-2000 قبل الميلاد، لا سيما فيما يتعلق بالتوزيع الجغرافي للمواقع المؤرخة لهذه الفترة، إذ يساعدنا العثور على مثل هذه المواقع، خاصة المدن منها، وما تحويه من مخلفات أثرية، في فهم طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين مراكز التمدن، ووظيفة كل منها، وفي تحديد طبيعة حياة الناس فيها. كذلك لا زلنا بحاجة لمزيد من التنقيبات الأثرية في مواقع تؤرخ لنهاية الألف الرابع والنصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد بهدف التعرف إلى التطورات الحضارية التي حصلت بمجتمع القرية، والتي أدت به للوصول إلى مرحلة التمدن وإنشاء المدن (في حوالي 2650/2700– 2300/2400 قبل الميلاد).



خريطة 7: أهم مواقع بلاد الشام في العصر البرونزي المبكر

ولا يخلو الأمر من معلومات مهمة نشرت حول العصر البرونزي المبكر في شمالي بلاد الشام؛ فمثلاً كشفت التنقيبات في حماة K عن حي سكني ضم عددًا من المنازل التي تكون الواحد فيها من عدد من الغرف (Fugmann 1958). كما عثر في حمام التركمان على بقايا مبنى استعمل معبدًا خلال العصر البرونزي المبكر (Van Loon 1988)، ولم تكشف التنقيبات في موقع رأس شمرا إلا عن بقايا قليلة لبيوت وتحصينات من هذا العصر (Yon 1997a; 1997b). أما موقع جبيل؛ فيبدو أنه هجر لمدة من الوقت بعد نهاية العصر الحجري الحديث، وأعيد الاستقرار فيه خلال النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. وأثبتت المكتشفات الأثرية، لا سيما الآنية الفخارية، وجود علاقات مع مناطق سهل البقاع، وفلسطين، والأردن (Dunand 1968).

وإضافة لهذه المواقع، عثر على أخرى في منطقة الجزيرة، وحوض البليخ، وحوض الخابور، وسهل العمق، وسهل البقاع، ولم تخرج الآثار المكتشفة في معظمها عن مجموعة من الكسر الفخارية المؤرخة للعصر البرونزي المبكر الثالث، الأمر الذي لا يمكننا من رسم صورة واضحة ووافية عن طبيعة هذه المواقع ومساحاتها، ولا عن المخلفات العمائرية فيها؛ لذا فهي لا تصلح لوضع دراسة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي سادت خلال هذه الفترة.

استطاع الآثاريون التعرف إلى عدد من طرز الآنية الفخارية التي ظهرت خلال العصر البرونزي المبكر، وأهمها الفخار المعروف بفخار "نينوى 5" في حوض نهر الخابور، والفخار ذو البطانة Late Reserved Slip، والفخار الأسود المحمَّر المصقول والمعروف بـ"فخار خربة الكرك" (Akkermans and Schwartz 2003: 211). ويمثل فخار "نينوى 5" امتدادًا لما عثر عليه في موقع نينوى بشمالي العراق (Mallowan 1964). واعتمادًا على نتائج فحص الكربون المشع؛ فإن فخار "نينوى 5" يؤرخ للفترة ما بين حوالي 3100 إلى 2500 قبل الميلاد (Weiss et al. 1993). وبطبيعة الحال، فإن انتشار مثل هذا النوع من الآنية فوق منطقة شمالي العراق وشمال شرقي سورية يشير إلى التواصل الحضاري بينهما. ويمتاز هذا النوع من الفخار بالزخارف المرسومة على السطح، وبأخرى محفورة غائرًا. ومن المواقع السورية التي عثر فيها على هذا الطراز، مواقع تل ليلان، وشغار بازار، وتل بديري، وتل رقاعي، وجميعها تقع في أعالي نهر الخابور. وأثبتت التنقيبات التي جرت في معظم تلك المواقع أن الناس فيها اختصوا بنمط معين من الإنتاج

الاقتصادي، وأنها كانت على اتصال بالأقاليم المجاورة. ومن المدهش ملاحظة أن معظم تلك المواقع جاء مزودًا بمخازن للحبوب، كما عثر في بعضها على أبنية مستديرة، ومصاطب مبنية من الطوب، ومخازن/ حفر للخزين، وأفران للخبز (Schwartz 1994b). لذا، نلاحظ أن منطقة أعالي نهر الخابور امتازت بعدد من القرى الزراعية التي اهتم سكانها بزراعة الحبوب وخزنها، مثل قرى الرقاعي، وزيادة، والمشنقة. علمًا أن قرى أواسط حوض الخابور عرفت هذه الظاهرة أيضًا، ولوحظ أن سكانها بنوا لأنفسهم بيوتًا تكونت في معظم الأحوال من أكثر من غرفة واحدة، وأن تلك القرى جاءت محصنة على الرغم من صغر مساحتها. ويعتقد بعض الباحثين أن خزن الحبوب لم يكن بهدف الاستهلاك المحلي وحسب، بل ربما لخزن فائض الإنتاج كذلك. وأضافوا أن المعثورات الأثرية تؤكد أن ثمة سلطة كانت تشرف على كيفية تصريف فائض الإنتاج هذا (Schwartz 1994b; Fortin 1997). ويعني ذلك أن أصحاب السيادة والسلطة في المجتمع هم الذين قاموا بجمع فائض إنتاج الحبوب، وخزنه في صوامع، وهم الذين كانوا يتحكمون بكيفية توزيعه أو تصريفه، وهذا بطبيعة الحال، يزيد ويقوي من سلطتهم في المجتمع. وتعطينا تلك الشواهد فكرة عن تحول نمط الاستقرار من قرية إلى مدينة تحكمها سلطة قادرة على تنفيذ القوانين.

وإضافة للقرى الزراعية التي انتشرت في حوض الخابور، يذكر بعض العلماء أن هذه المنطقة كانت مأهولة أيضًا بالقبائل الرعوية، وأن صوامع الحبوب فيها قد خصت تلك القبائل دون غيرها، إذ حوت، فقط، الشعير علفًا لماشيتها. ويضيف أولئك أن تلك القبائل ابتعدت بقطعانها عن قرى الفلاحين خوفًا من نشوب الخلافات معها. من هنا يمكن القول، صحيح أن الطابع الريفي غلب على حياة الناس في حوض نهر الخابور خلال العصر البرونزي المبكر (بداية الألف الثالث قبل الميلاد)، لكن القرى، وإن كانت مكتفية ذاتيًا بإنتاجها، إلا أنها ارتبطت بعلاقات مع المناطق المحيطة. وإذا كان الناس لم يصلوا خلال بداية الألف الثالث للمدينة، ولم تبن المدن حينها، إلا أن ثمة دلائل على تخصص في الإنتاج، وظهور للمؤسسات الاقتصادية والسياسية فيها.

وكما أشرنا، فإن الوضع في منطقة غربي سورية ولبنان يختلف عن منطقة الجزيرة وخاصة حوض نهر الخابور، حيث جاءت المواقع المؤرخة لبداية الألف الثالث قبل الميلاد قليلة العدد، ومعظم المواقع التي أجريت فيها تنقيبات أثرية كانت صغيرة المساحة، مع

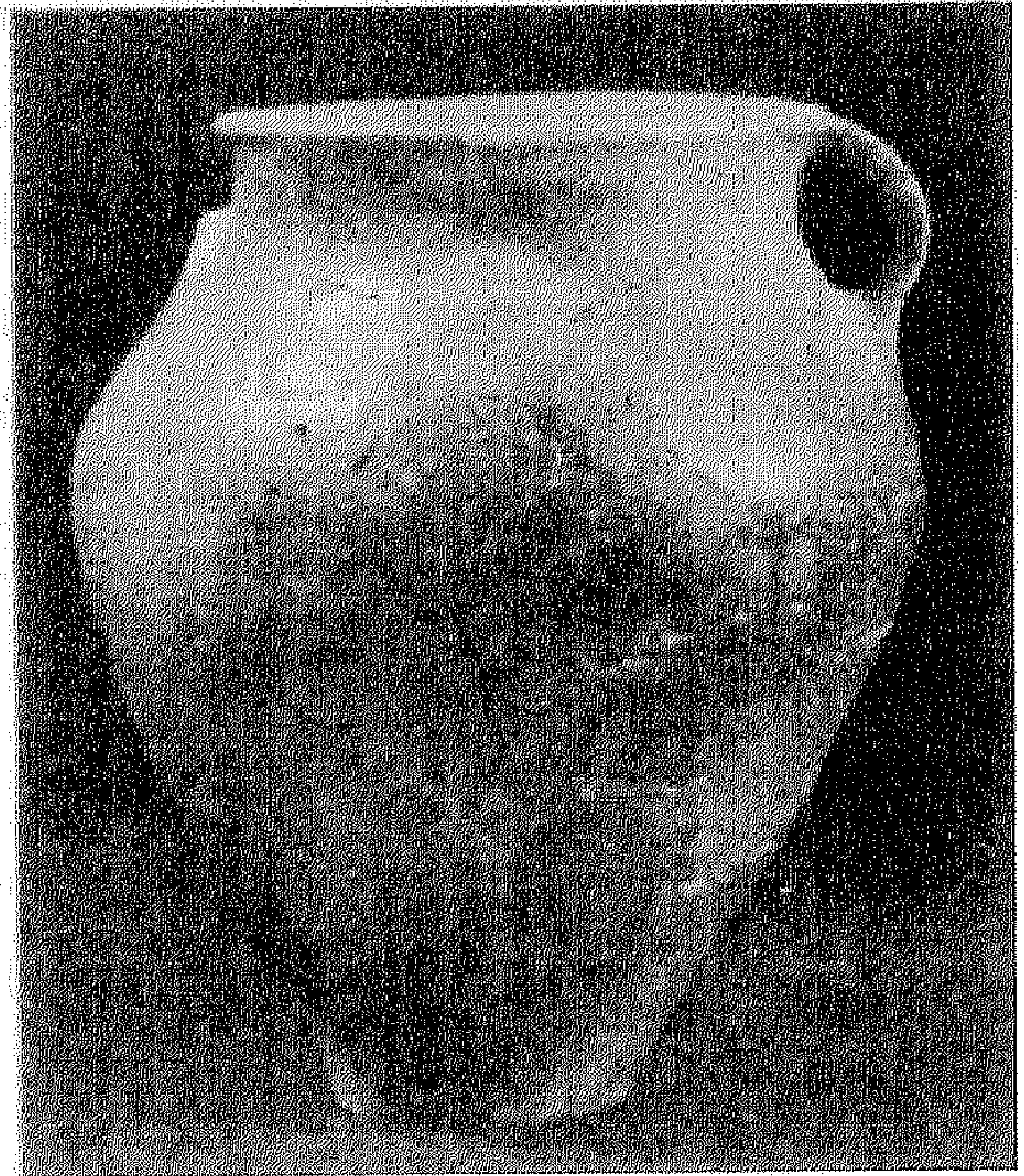
وجود شواهد أثرية قليلة على المباني العامة، أو حتى على وجود طبقات اجتماعية. وقد عثر على عدد من هذه المواقع في منطقة حوض الفرات الأوسط مثل الشيوخ الفوقاني، وتل أحمر، وحبوبة كبيرة شمالي، وكذلك في حوض البليخ مثل حمام التركمان، وفي سهل العمق، وفي حماة على حوض نهر العاصي (Heinz 2002). ونؤكد هنا أن المعلومات المتوفرة من هذه المواقع تشير إلى أنها سكنت من قبل جماعات قليلة.

ومن المواقع الأخرى المؤرخة للنصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، موقع تل مرديخ، حيث عثر في المنطقة الواقعة أسفل مبنى القصر الملكي "ج" على مبنى ذي جدران سميكة. كما عثر في موقع حلاوة، في منطقة سد الطبقة في حوض الفرات، على عدد من المعابد المبنية من اللبن على شكل مصاطب، ولوحظت رسومات جدارية في أحدها (Orthmann 1989).

دلت المكتشفات الأثرية من عدد من المواقع، خاصة الواقعة في شمال غربي سورية، على أن الناس عرفوا تصنيع المعادن، فقد عثر على عدد من الأدوات والآنية والدمى المعدنية النحاسية في موقع حلاوة وتل الجديدة في سهل العمق. كما عثر في موقع حبوبة كبيرة شمالي، وتحديدًا في الطبقات التي تلت حضارة الوركاء الأخيرة مباشرة، على منطقة حريق فسرتها المنقبة بأنها منطقة تصنيع (Strommenger 1980).

وعلاوة على المناطق التي تأسست في المناطق الخصبة، وبالقرب من الأحواض المائية الدائمة، عثر على مواقع أخرى في مناطق شبه قاحلة مارس سكانها الزراعة. ولا بد أن هذا الأمر تطلب منهم معرفة طرق الري بواسطة جر المياه إلى المزارع عبر قنوات. وبهذا توفرت لهم مصادر عيش دائمة، مما أدى إلى دوام الاستقرار في المكان نفسه لمدة طويلة من الزمان. وأثبتت نتائج التنقيبات في مواقع العصر البرونزي المبكر (الأول إلى الثالث) أن الجماعات كانت على اتصال دائم ببعضها. والدليل على ذلك العثور على الأنواع نفسها من الآنية الفخارية في مواقع تل ليلان وتل خويرة في حوض الخابور، وحمام التركمان في حوض البليخ، وفي حوض الفرات الأوسط، وسهل العمق، وجنوبي حلب، وساحل البحر المتوسط، وحوض نهر العاصي. كذلك فإن اكتشاف آنية فخارية من النوع المعروف باسم "فخار خربة الكرك" (نسبة إلى اسم الموقع الذي اكتشف فيه خلال العشرينات من القرن الفائت بالقرب من مدينة بيسان بفلسطين) في مواقع في سهل البقاع وحوض نهر العاصي، وسهل العمق يشير إلى وجود صلات بين هذه المناطق خلال العصر

البرونزي المبكر الثالث (الشكل 43) (Amiran 1968). ومن المعروف أن هذا النوع من الفخار انتشر فوق منطقة واسعة حتى وصل إلى جورجيا وأرمينيا. ولم يستطع الباحثون حتى الآن تحديد الطريقة التي أدت إلى هذا الانتشار الواسع؛ فمنهم من عزا ذلك إلى التجارة، أو إلى هجرات، وكل منهما تؤدي إلى انتقال الصانع من مكان لآخر.



الشكل 43: جرة من طراز فخار خربة الكرك، من الزيرقون/ الأردن، العصر البرونزي الثالث

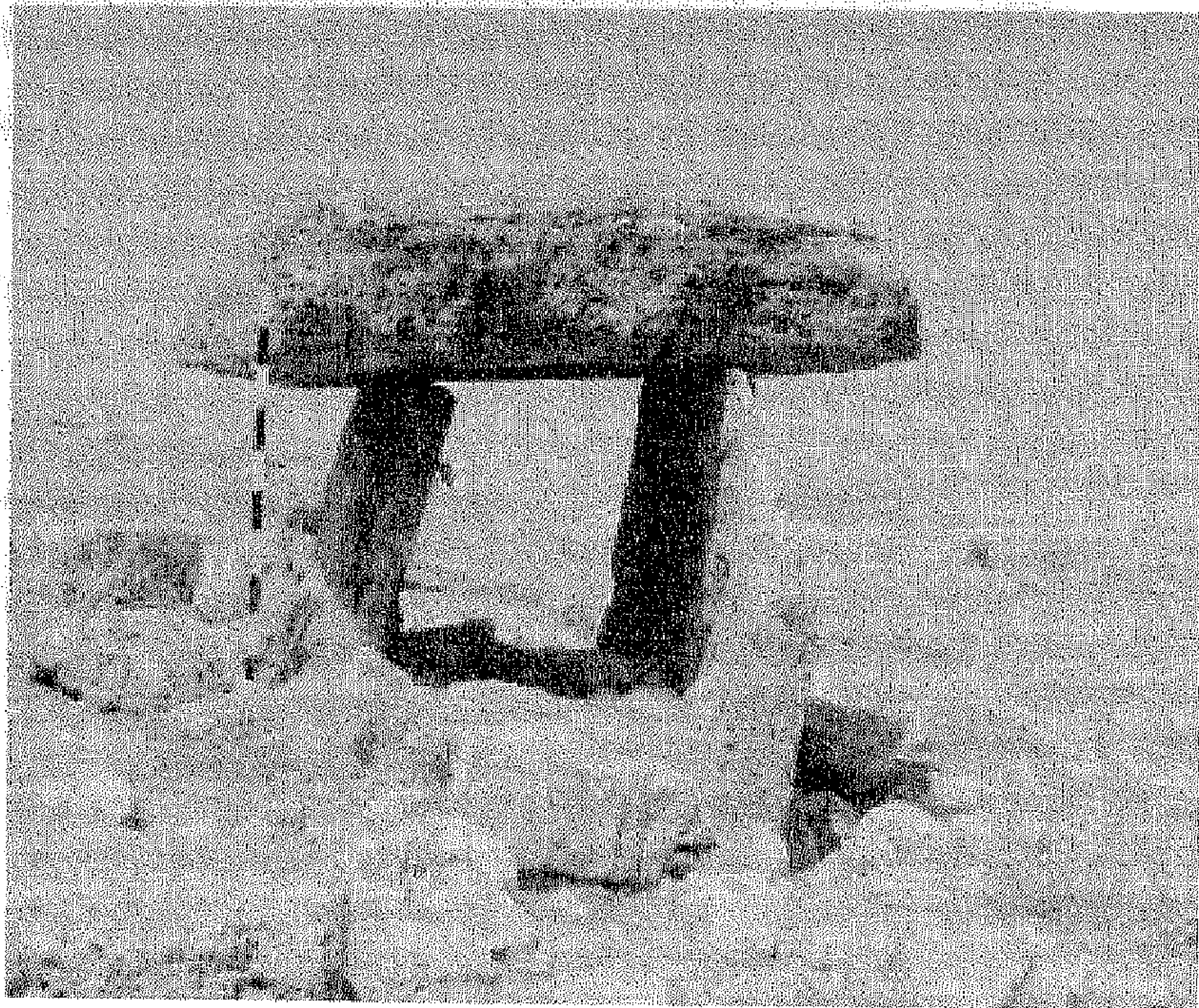
كشفت الأعمال الأثرية الإنقاذية التي جرت في بيروت عن بقايا جدران وكسر فخارية تعود للعصر البرونزي المبكر، خاصة المرحلة الثالثة (بدر 1997: 4-5؛ صادر وفنكبانير 1997: 13). كما عملت بعثة من جامعة بيروت الأمريكية في موقع فدعوس/ كفر عبيدا الواقع على بعد كيلومترين جنوبي مدينة البترون الساحلية، وكشفت عن موقع أرخ للمرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المبكر (.Badreshany et al 2005: 5-115).

اقترح بعض الباحثين في الآثار اللبنانية أن المسوحات التي جرت في منطقة سهل البقاع أثبتت وجود نظام سياسي خلال بداية العصر البرونزي المبكر، يقوم على وجود مركز ارتبطت به قرى أخرى أصغر مساحة، وأقل شأنًا (Marfoe 1995). وأكد هؤلاء أن أفضل الأمثلة على ذلك جاء من حوض نهر الليطاني (Heinz 2002: 59).

ويمكن القول إن منطقة سورية ولبنان لم تعرف خلال المرحلتين الأولى والثانية من العصر البرونزي المبكر نشوء المدن بعد، إنما سادتها قرى زراعية، شكلت إحداها في كثير من الحالات مركزًا للقرى الأخرى المحيطة والأصغر مساحة. لكن الوضع اختلف

خلال العصر البرونزي المبكر الثالث (حوالي 2700/2650–2400/2300 قبل الميلاد)، حين ظهرت المدن الكبيرة والمجتمعات المعقدة. وهذا الأمر ينسحب، كما سنرى، على جنوبي بلاد الشام.

وهنا يبرز تساؤل، وماذا عن موقعي حبوبة كبيرة جنوبي على حوض الفرات الأوسط، وجاوة في الصحراء البازلتية على الحدود الأردنية-السورية؟ فقد كشف فيهما عن بقايا معمارية ومخلفات أثرية لا تبتعد كثيرًا في مستواها عما كان سائدًا خلال نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد في منطقة جنوبي بلاد الرافدين؟ وعلى أية حال، وكي لا نترك القارئ في حيرة، نقدم على الصفحات التالية معلومات موجزة عن كل من هذين الموقعين، لكن بعد أن نعرض للعصر البرونزي المبكر الأول- الثالث في جنوبي بلاد الشام. وقبل بدء الحديث عن أهم مواقع العصر البرونزي في بلاد الشام، نود أن نلفت نظر القارئ إلى ظاهرة معمارية مهمة لفتت أنظار الدارسين، وهي انتشار عدد من النصب الحجرية Dolmens التي تركزت على الأغلب في المناطق المحاذية أو القريبة لحفرة الانهدام الآفرو-آسيوية، والتي اختلف العلماء في تحديد وظيفتها وماهيتها وتاريخها، إلا أن الغالبية منهم تؤرخها إلى بداية العصور البرونزية (الشكل 44).



الشكل 44: نصب حجري في موقع دامية/ الأردن (تصوير يوسف الزعبي)

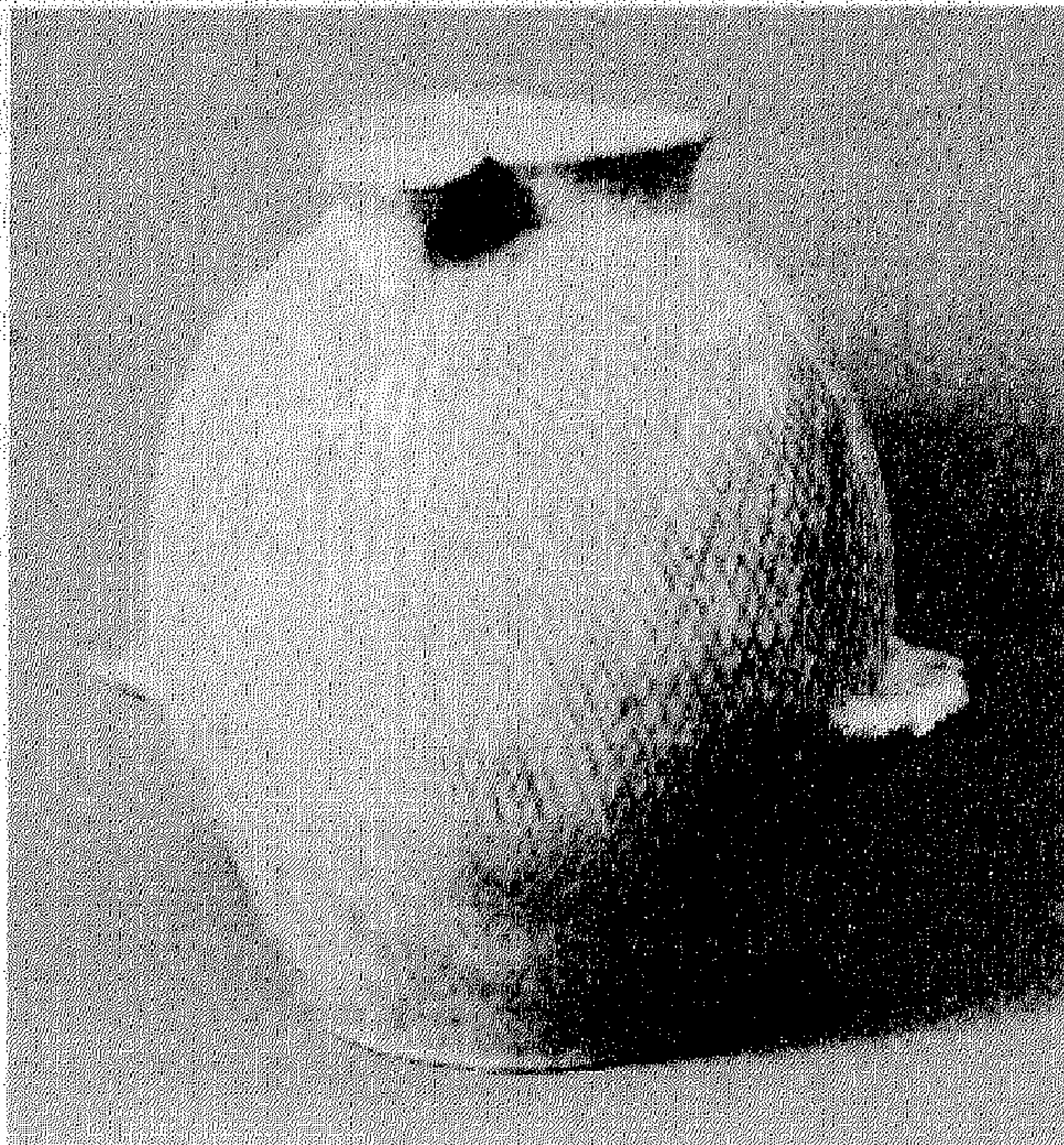
يعد النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد في منطقة جنوبي بلاد الشام مرحلة انتقالية بين فترات ما قبل التاريخ والعصور التاريخية؛ إذ شهد العصر البرونزي المبكر الأول (حوالي 3500-3100 قبل الميلاد) أنماطًا اقتصادية واجتماعية جديدة أدت لظهور المجتمعات المتمدنة، وبناء المدن في المرحلة التي تلته (حوالي 3100-2650/2700 قبل الميلاد). وعلى الرغم من هذا، يرى بعض الباحثين أن تلك التطورات حدثت لأن بلاد الشام تأثرت بشكل كبير بما كان يجري في بلاد الرافدين ومصر، وهما اللتان شهدتا أصل الحضارات الأولى، ساعدهما في ذلك وجود الأنهار الكبيرة، وهذا ما تفتقد إليه بلاد الشام، خاصة جنوبها. ولهذا تحول سكان بلاد الرافدين ومصر إلى حياة التمدن وبناء المدن على نحو أسرع من منطقة بلاد الشام، لا سيما جنوبها. وقد رأى بعضهم أن بلاد الشام، لا سيما جنوبها، لم تكن إلا متلقية للحضارة، وليست صانعة لها (Richard 2003b: 286). إلا أننا نرى أن هذا الادعاء بحاجة لإعادة نظر؛ فمن يقول بهذا الرأي إنما يغض الطرف عن أن البيئة هي التي تجعل من الإنسان متحديًا لها، مما يدفعه إلى اختراع أدوات ووسائل تمكنه من التغلب على صعوبات الحياة، وهو بذلك يسيطر على البيئة التي يعيش فيها، ويحقق من خلالها درجة متقدمة من الرقي والتطور الفكري؛ فربما أن الوصول إلى المدنية والتمدن في مثل هذه المناطق يكون أسرع منه في بيئة تسهل الحياة فيها. كذلك لا بد للباحثين من إعادة النظر في المعايير المتبعة لتحديد مستوى الحضارة، والشروط التي يتحقق بها الوصول إلى المدنية، فلا بد أنها تختلف من منطقة لأخرى. على أية حال، فإن نقاشًا لا يزال يدور بين الباحثين حول هذا الموضوع (Philip 2001).

لقد رأينا كيف أن أقصى شمالي بلاد الشام قد تأثر بشكل كبير بما جرى في بلاد الرافدين خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. لكن منطقة جنوبي بلاد الشام، وتحديدًا الممتدة بين مدينة جبيل على الساحل اللبناني شمالاً وحتى خليج العقبة جنوبًا، ارتبطت حضاريًا بما جرى في مصر، حيث غادرت السفن المصرية ميناء جبيل محملة بأخشاب الأرز، كما أن قوافل الحمير عبرت وادي عربة محملة بخامات النحاس إلى مصر أيضًا.

ويقسم الآثاريون العاملون في آثار العصور البرونزية في الأردن وفلسطين العصر البرونزي المبكر الى أربع مراحل، هي:

- العصر البرونزي المبكر الأول (حوالي 3500- 3100 قبل الميلاد).
- العصر البرونزي المبكر الثاني (حوالي 3100- 2650/2700 قبل الميلاد).
- العصر البرونزي المبكر الثالث (حوالي 2650/2700- 2300 قبل الميلاد).
- العصر البرونزي المبكر الرابع (حوالي 2300- 2000 قبل الميلاد).

ويعد العصر البرونزي المبكر امتدادًا للمرحلة الأخيرة من العصر الحجري النحاسي في جنوبي بلاد الشام؛ والذي شكل بداية استمرار الناس في سكنى الموقع ذاته في كثير من الحالات، وكذلك الاستمرارية في الطرز العمائرية، وفي بعض أشكال الآنية الفخارية وزخرفتها (الشكل 45). علمًا أن تلك الاستمرارية لم تمنع من ظهور سمات حضارية جديدة في طرز المعابد ومخططاتها، والتخطيط المكاني للمواقع، والتغيرات الاقتصادية فيها، والسكنى في مواقع لم تكن مسكونة سابقاً.



الشكل 45: جرة فخارية من العصر البرونزي المبكر الثالث، غور الصافي/ الأردن
(عن Franken 1991)

وفيما يتعلق بالمعابد الدينية خلال العصر البرونزي المبكر الأول، دلت الأمثلة المكتشفة في تل المتسلم (الطبقة XIX) أن المبنى تكون من غرفة واسعة عريضة، وهي في هذه الحالة متطورة عن تخطيط معابد العصر الحجري النحاسي، مثل تلك التي عثر عليها في مواقع عين جدي، وتليلات الغسول، وجليلات. ويتكون مخطط المعبد من غرفة واحدة واسعة مستطيلة الشكل، فتح باب في جدارها العريض، وبني مذبح في صدر الغرفة في الجهة المقابلة للباب. وللمعبد ساحة مكشوفة بنيت فيها حجرة التعبد Temenos، والتي تفصل في الوقت ذاته بين المتعبدين وغيرهم من الناس. ولا بد أن نذكر هنا معابد جبل عرودة/ بالقرب من موقع حبوبة كبيرة شمالي على نهر الفرات، حيث كشف عن عدد من المعابد التي يعود تاريخها للفترة ما بين حوالي 3200-3100 قبل الميلاد. ويعتقد بعض الباحثين أن معابد جبل عرودة كانت تشكل المنطقة الدينية لسكان حبوبة كبيرة شمالي خلال نهاية الألف الرابع قبل الميلاد (عمار عبد الرحمن: اتصال شخصي).

وقد أطلق العلماء عددًا من التسميات على العصر البرونزي المبكر (كفافي 2006: 42-46)، منها "ما قبل الكنعانية" Proto-Canaanite (Richard 2003b: 287). وكما ذكرنا، يرى بعض الدارسين أن جميع مناطق بلاد الشام كانت على اتصال ببعضها خلال هذه الفترة، وأكد ذلك وجود تشابه في صنع الآنية الفخارية وزخرفتها، وفي الأدوات المعدنية والأختام الأسطوانية، وفي تخطيط البيوت، لا سيما المستدير منها أو ذو الجدار المنحني.

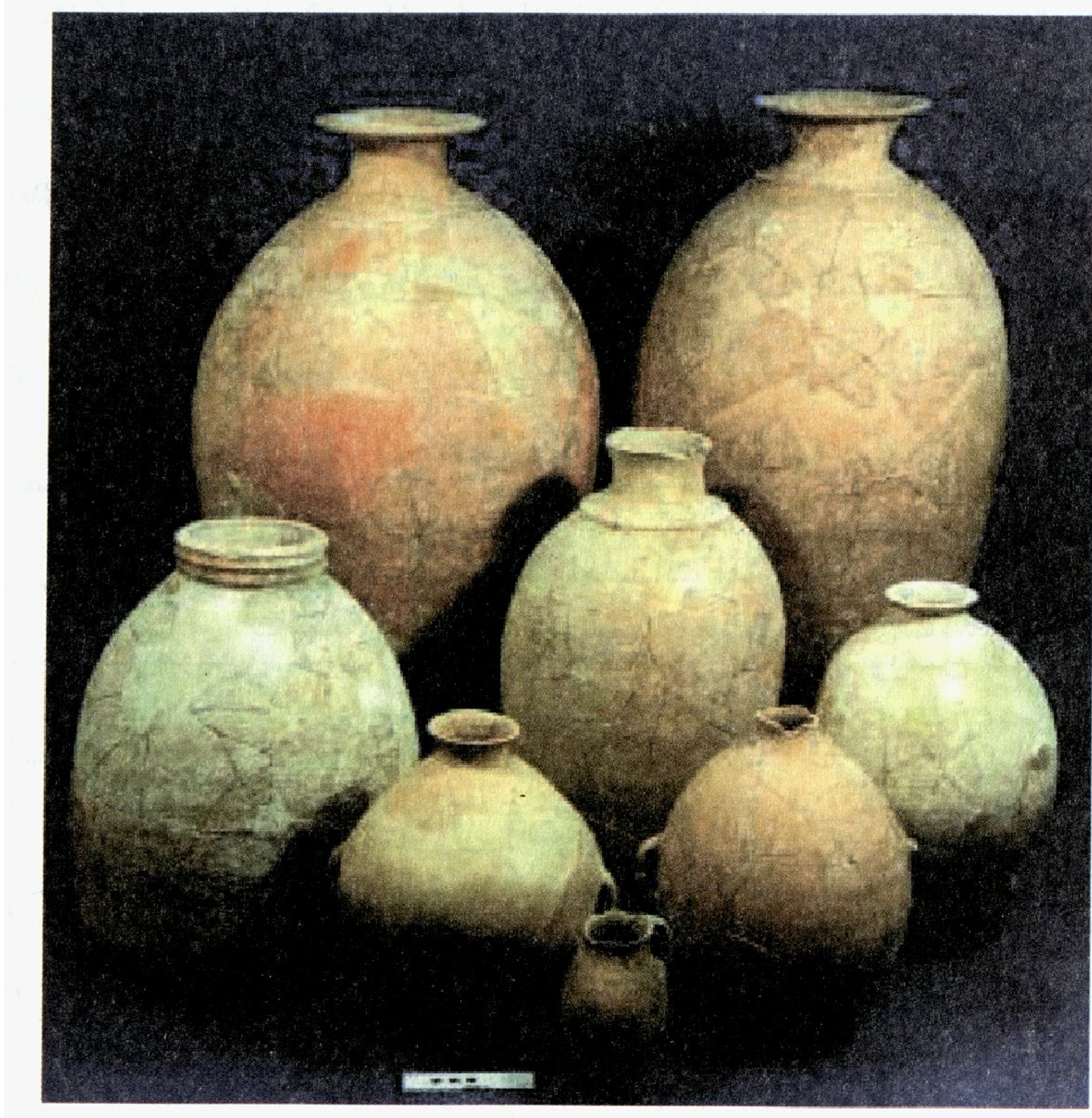
وخلال العصر البرونزي المبكر، مارس بعض الناس في جنوبي بلاد الشام اقتصادًا اعتمد على الزراعة، والبستنة، وتربية الماشية. وهذا لا يختلف كثيرًا عما كان سائدًا في الفترة السابقة إلا باستغلال الناس خلال هذا العصر لمساحات أوسع من الأراضي بغض النظر عن طبيعتها، حتى أنهم زرعوا في المناطق شبه القاحلة. كذلك ازدهرت التجارة كثيرًا خلال العصر البرونزي المبكر، لا سيما في مصر.

واتفق العلماء في تقسيم العصر البرونزي المبكر الأول إلى مرحلتين فرعيتين، هما: (أ) و(ب)، عدّوا الأولى، وهي الأقدم، مرحلة انتقالية من القرية إلى المدينة، إذ انتشرت فيها القرى الزراعية الصغيرة المساحة. بينما امتازت مجتمعات المرحلة (ب) بالنضج الحضاري حيث سكن الناس في قرى كبيرة، وأصبحت لهم علاقات مع البلدان المحيطة (Joffe 1993). وأثبتت الدراسات حدوث تطورات في المجتمع ذاته أدت بالتالي للانتقال من القرية

إلى المدينة خلال العصر البرونزي المبكر الثاني والثالث. ويشير هذا بكل وضوح إلى أن ليس من الضرورة أن يكون السبب الرئيسي في الانتقال من القرية إلى المدينة في جنوبي بلاد الشام هو اتصالها بمصر خلال العصر البرونزي المبكر الأول. لكن برأينا يبقى لهذا الاتصال تأثير حضاري على طبيعة حياة سكان بلاد الشام، لا سيما أن مصريين عاشوا بينهم.

وقد عثر المنقبون على نقوش فرعونية تحمل اسم الفرعون "نعرمر" في عدد من مواقع العصر البرونزي المبكر الأول، لا سيما في الطبقات المؤرخة لحوالي 3100 قبل الميلاد، كما هو الحال في موقعي عراد، وتل الشيخ أحمد العريني. ويمثل هذا التاريخ انتهاء المرحلة الأولى من العصر البرونزي المبكر وبداية الثانية. وتشير هذه النقوش، إضافة لمجموعة من اللقى الأثرية الأخرى، إلى أهمية بلاد الشام عند المصريين القدماء وإلى وجود اتصالات حضارية بين المنطقتين. ففي حجيرة الغزلان بالقرب من العقبة جنوبي الأردن (Khalil and Schmidt 2009)، وفي موقع حمرا افدان في منطقة وادي فينان بوادي عربة (Levy et al. 2001)، عثر مؤخرًا على قوالب وسبائك من النحاس تشابه ما عثر عليه في موقع المعادي بمصر (Hauptmann et al. 2009: 304). وإضافة لهذا، استوردت مصر من بلاد الشام خشب الأرز من لبنان عن طريق ميناء جبيل، ومنتجات زراعية مثل زيت الزيتون من الأردن وفلسطين، واستخدموا في خزنها ونقلها جرارًا فخارية كبيرة الحجم (الشكل 46). وبالمقابل، عثر في عدد من مواقع العصر البرونزي المبكر على آنية فخارية مصرية، وبنى الناس بيوتًا لهم على طراز البيوت المصرية. وبناء عليه، استنتج بعض العلماء أن هذه الأمور تشير إلى سيطرة مصر السياسية على منطقة جنوبي بلاد الشام. بينما يرى آخرون أن الأمر لم يخرج عن نطاق الشراكة بين بلاد كنعان ومصر، وأن المراكز والطرق التجارية في كنعان كانت تحت سيطرة أهل البلاد على الرغم من وجود جاليات وممثلين للسلطة المصرية فيها.

ومن الجدير بالذكر، أنه نتيجة للمسوحات والتنقيبات الأثرية التي جرت في المنطقة الممتدة على ساحل البحر المتوسط في قطاع غزة وسيناء، خاصة، الواقعة بين مدينتي العريش والسويس، كشف عن عدد من المواقع الصغيرة والقلاع، ومنها تل السكن. وأظهرت مواقع أريحا، وتل يرموك، وتل المتسلم، وتل الحسي، وخربة الكرك، وطبقة فحل، وباب الذراع وغيرها من مواقع العصر البرونزي المبكر الأول في جنوبي بلاد الشام



الشكل 46: جرار فخارية من العصر البرونزي المبكر الثالث، خربة الزيرقون/ الأردن
(تصوير يوسف الزعبي)

استمرارية السكنى فيها إلى العصر البرونزي المبكر الثاني. وساعدت نتائج التنقيبات في تكوين فكرة عن كيفية التحول من القرية إلى المدينة؛ إذ نجد أن سكان هذه المدن بنوا أسوارًا وتحصينات لها، كما تبع المدينة المركز عددٌ من القرى الأخرى التي عاش فيها الفلاحون، لكنها كانت أصغر مساحة وأقل شأنًا. ولا بد أن الناس قد خضعوا لسلطة نظمت الأمور داخل المجتمع. وقد أطلق الدارسون على مثل هذا النظام السياسي اسم "دولة المدينة".

استقر سكان بلاد الشام خلال العصر البرونزي المبكر الثاني في مختلف المناطق الجغرافية، حتى ذات الطبيعة الصحراوية مثل منطقة رأس النقب بجنوبي فلسطين، أو حتى القاحلة مثل منطقة وادي عربة، ووادي فينان، ووادي افدان. وربما كان الداعي وراء السكنى في منطقة وادي عربة والنقب هو التنجيم عن النحاس والمتاجرة به. ويدلل

العلماء على هذا بوجود صلات بين مواقع في وادي عربة، وأخرى في رأس النقب، وثالثة في صحراء سيناء (Richard 2003b: 290)، حيث عثر على مخلفات أثرية متشابهة.

وعلى الرغم من أن الوجود المصري في جنوبي بلاد الشام تراجع خلال العصر البرونزي المبكر الثاني، إلا أن التجارة والطرق التجارية بقيت على حالها كما كانت في السابق. ويؤكد هذا ما عثر عليه في عدد من المواقع، مثل عراد وباب الذراع، من لقى أثرية مصرية مثل القوارير الفخارية المعروفة باسم "أبيدوس"، وأخرى من الرخام. ويبدو أن هذا التراجع السياسي كان نتيجة لتركيز المصريين على شؤونهم الداخلية خلال هذه الفترة، بل والأهم من هذا تحول طرق التجارة مع لبنان خاصة من البر إلى البحر. وعلى أية حال، فإننا نرى أن انحسار النفوذ المصري عن المنطقة قد أعطى أهلها فرصة لتأسيس وبناء مدنهم بشكل يضمن قوتها وسلامتهم. وكما سنرى، فإن أفضل مثال على هذا جاء من موقع عراد جنوب غربي البحر الميت.

شهدت نهاية العصر البرونزي المبكر الثاني، أي حوالي 2700 قبل الميلاد، تدمير أو هجران بعض مدن هذه الفترة، بما في ذلك جميع مواقع النقب، وفي مقدمتها عراد. ويعزو كثير من العلماء ذلك إلى الأسرة الثالثة من عهد الدولة القديمة في مصر، والتي قام ملوكها بغزو المنطقة في محاولة لإعادة السيطرة على مناجم النحاس في وادي عربة. كذلك فإن عددًا من المدن الأخرى، والتي وجدت خلال العصر البرونزي المبكر الثاني، مثل تل المتسلم، وتل الفارعة، الشمالي، وأريحا، وخربة الزيرقون، وباب الذراع، والنميرة، وخربة البتراوي، استمرت السكنى فيها خلال المرحلة الثالثة. بل إنها ازدهرت بشكل كبير خلال الفترة ما بين حوالي 2700-2300 قبل الميلاد، إذ بنيت حولها الأسوار والبوابات الضخمة (Douglas 1999). ويرى كثير من الآثاريين أن بناء مثل هذه التحصينات الضخمة، والمباني العامة الأخرى مثل المعابد، يشير إلى قوة سياسية منظمة تقودها نخبة المجتمع.

ويظهر أن تدمير مدن العصر البرونزي المبكر الثاني، خاصة في منطقة صحراء النقب، أدى إلى تحول سكانها لحياة الرعي والتنقل. كذلك ربما انتقلت جماعات من سكان هذه المدن إلى مدن أخرى مجاورة أكثر أمانًا واستقرارًا. ومن أفضل الأمثلة على مدن العصر البرونزي المبكر الثالث تل يرموك جنوب القدس بفلسطين (de Miroschedji 1999)، وخربة الزيرقون/ شمال شرقي إربد في شمال الأردن (Ibrahim and Mittmann 1989).

امتازت مدن العصر البرونزي المبكر الثالث في جنوبي بلاد الشام بوجود مبانٍ دينية فيها، حيث عثر على عدد من الأمثلة في عدد من المواقع، منها تل المتسلم وتل يرموك والتل (في فلسطين) وخربة الزيرقون وباب الذراع (في الأردن). وتكونت تلك المباني في معظم الحالات من غرفة واسعة، وساحة مكشوفة، ومذبح. وإضافة للمعابد، عكست المدافن المؤرخة للعصر البرونزي المبكر الثاني والثالث طبيعة التنظيمات الاجتماعية خلال تلك الفترات (كفافي 393:2006)؛ فقد استخدم الناس خلال العصر البرونزي المبكر في جنوبي بلاد الشام أنواعًا وأشكالاً مختلفة من المقابر، منها الفردية والجماعية، ومنها القبور البئرية، وأخرى بشكل غرفة أو مغارة كبيرة. ووضعت مع الشخص المدفون مرفقات جنائزية، مثل الآنية الفخارية، والأسلحة المعدنية، والحلي. وربما كانت القبور الجماعية، خاصة تلك المؤرخة للعصر البرونزي المبكر الثاني والثالث، مخصصة لعائلات معينة. ونجد أن المكتشفات الأثرية المؤرخة للعصر البرونزي المبكر الثالث، مثل المعبد المبني على شكل "ميجارون" Megaron، والذي عثر عليه في تل المتسلم، وصوامع الحبوب التي عثر عليها في خربة الكرك بفلسطين، والآنية الفخارية المعروفة بفخار خربة الكرك، والأختام الأسطوانية، تشير إلى صلات قوية ربطت بين مختلف مناطق بلاد الشام خلال هذه الفترة.

ويبدو أن معظم مناطق بلاد الشام، خاصة جنوبها، قد تعرض خلال العصر البرونزي المبكر الرابع (حوالي 2300-2000 قبل الميلاد) لكارثة طبيعية أو خطر خارجي، حيث دمرت المدن، وتحول الناس من العيش في المدن إلى الأرياف، أو تحولوا إلى رعاة متنقلين. وحتى الآن، لم يستطع العلماء تحديد السبب وراء هذا التغير، فمنهم من قال إن هجرات البدو الأموريين كانت السبب في ذلك، بينما عزا آخرون الأمر لتحولات مناخية، وأضاف غيرهم الحروب مع مصر، وزاد نفر آخر أن البدو هاجموا الطرق التجارية وقطعوا الاتصالات بين المدن مما أدى إلى تردي الأحوال فيها وهجرانها. وفيما يلي، دراسة موجزة لعدد من القرى والمدن التي ظهرت في بلاد الشام خلال المراحل الثلاث الأولى من العصر البرونزي المبكر.

قرى ومدن من العصر البرونزي المبكر

تناولنا في الصفحات السابقة العصر البرونزي المبكر بمراحله الأولى والثانية والثالثة، وقلنا إن الأولى، وهي الأقدم، تعد مرحلة انتقالية بين القرية والمدينة، وأنها لم تشهد ظهور المدينة بشكل عام. لكننا ذكرنا أن ثمة حالات استثنائية؛ فقد كانت لموقعي حبوبة كبيرة جنوبي في حوض الفرات الأوسط، وجاوة في شمالي الأردن، سمات تجعلنا نعدها أولى المدن التي ظهرت في بلاد الشام عامة. لكن البداية الحقيقية للمدينة في بلاد الشام ولعموم هذه الظاهرة، كانت خلال العصر البرونزي المبكر الثاني، علمًا أن المدن ازدهرت خلال المرحلة الثالثة وانتشرت فوق جميع بلاد الشام، وسوف نقدم أمثلة عليها.

أ. أمثلة من مواقع العصر البرونزي المبكر الأول

(حوالي 3500- 3100 قبل الميلاد)

1. حبوبة كبيرة/ سورية

يقع تل حبوبة كبيرة في حوض نهر الفرات الأوسط، وبالتحديد في المنطقة التي بني فيها سد الطبقة. ويتكون الموقع من منطقتين، الأولى تلة متوسطة الحجم تسمى "تل حبوبة كبيرة"، والثانية مستقرة كبيرة طولها 900م، يطلق عليها "حبوبة كبيرة جنوبي"، بنيت على أحد أطرافها تلة صغيرة تسمى "تل قناص" (Stromenenger 1980).

كُشف عن موقع حبوبة كبيرة بعد إجراء مسوحات أثرية قام بها فريق سوري أمريكي ما بين عامي 1963- 1964. وبعد العثور على الموقع، قام فريق ألماني بإجراء تنقيبات أثرية في كل من التل والمستقرة، وذلك ما بين الأعوام 1969-1975. وما يهمنا في هذا المقام هو موقع حبوبة كبيرة جنوبي.

يعد موقع حبوبة كبيرة جنوبي من مواقع حضارة الوركاء (المرحلة الأخيرة) المؤرخة للنصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، وهو أكبر المواقع المتعاصرة في سورية مساحة. والموقع ذو شكل غير منتظم، إلا أنه أقرب إلى الإهليجي، ويبلغ أطول قطر له 230م، وترتفع فيه التراكمات الأثرية لعلو يصل إلى 9م. وقد تركزت أعمال التنقيب الأثري في الجهة الشرقية من الموقع، حيث كشف عن آثار تعود لحضارة الوركاء والعصر البرونزي المبكر. ويبدو أن الموقع بني وفق مخطط سابق، إذ جاء مخطط المدينة

مكونًا من شارعين رئيسيين يتجهان شمالاً-جنوبًا، ويسيران بمحاذاة نهر الفرات. وتتقاطع مع هذين الشارعين شوارع فرعية أخرى. ولاحظ المنقبون أن المركز الديني- الإداري للمدينة بني في نفس المنطقة التي بني فوقها موقع تل قناص، أي في الجهة الجنوبية من الموقع. ويبدو أن مدينة حبوبة كبيرة جنوبي كانت مركزًا لعدد من المواقع الأخرى المعاصرة لها، مثل تل الحاج وتل الحديدي وتل الشيخ حسن، والتي تعد قرى صغيرة.

وتأتي أهمية تل حبوبة كبيرة من وقوعه على خطوط التجارة التي ربطت بلاد الأناضول وشمالي سورية؛ فأضحى مركزًا ومحطة للتجارة. ويبدو أن هذه الطرق قد حولت خط سيرها عنه خلال نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، مما أدى إلى هجرانه بشكل سلمي خلال العصر البرونزي المبكر الأول (Kohlmeyer 1997: 447). أما البيوت المكتشفة في الموقع؛ فقد تعددت مخططاتها، لكن أكثرها شيوعًا كان ذا مخطط ثلاثي يشبه تخطيط معابد السومريين، إذ تكون البيت من قاعة كبيرة مستطيلة الشكل بني حول ضلعيها الطويلين عدد من الغرف الصغيرة، علمًا أنه أضيفت، في بعض الحالات، غرف أخرى على طول ضلعيها القصيرين. واعتمادًا على اللقى الأثرية المكتشفة داخل البيوت، قرر المنقبون أنها استخدمت، بالإضافة للنوم، للأغراض الحياتية اليومية، ومنها للخزين. كما أن بعض الغرف، خاصة تلك التي بنيت بالقرب من زاوية القاعة الكبيرة وذات مدخل واحد، استخدمت إما مشاغل لتصنيع الآنية الفخارية أو بعض الأدوات الأخرى، أو حتى لتحضير الطعام.

ونظرًا لوقوعه مباشرة على نهر الفرات، أحيط الموقع في جميع جهاته، عدا الشرقية، بسور مزدوج عرضه 3م، وطوله 600م، وجاء مبنيًا من اللبن الطيني، وتعلوه أبراج، وله بوابتان رئيستان في جداره الغربي. ويظهر أن هذا السور لم يبن منذ بدء الاستقرار في الموقع، إنما بني في مرحلة لاحقة.

عثر في الموقع على عدد كبير من اللقى الأثرية المهمة والمتنوعة، منها رقم طينية، وكرات صلصالية وقطع أخرى أصغر حجمًا Tokens، ربما استخدمت للعد أو الحساب، وسدادات صلصالية مختومة بإشارات تمثل أرقامًا، وعدد كبير من الآنية الفخارية، مثل الجرار والقصعات والقدور التي يحمل بعضها طبع أختام، إضافة إلى بعض الأحجار الكريمة، والأدوات النحاسية، والآنية الحجرية، والأختام الأسطوانية.

وتمتاز حضارة الوركاء المتأخرة بالزبادي المصنوعة بالقالب ذات الشكل الجرسي والحافة المشطوفة Bevelled-rim bowls، والتي ربما استخدمت مكيالاً للحبوب.

ويلاحظ أن موقع حبوبة كبيرة جنوبي جاء أقرب في ماهيته وحضارته لمنطقة بلاد الرافدين أكثر منه إلى جنوبي بلاد الشام. كما أن طبيعة الموقع وبناء الأسوار والمباني الضخمة والموجودات الأثرية ترشحه لأن يكون مدينة أكثر من كونه قرية عاشت خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد.

2. جاوة / الأردن

تقع جاوة في منطقة الحرة البازلتية في شمال شرقي الأردن، على الحدود الأردنية السورية (الشكل 47). أسس الموقع خلال بداية العصر البرونزي المبكر الأول، وبنى سكانه أسوارًا للمدينة، وجمعوا مياه الأمطار في خزانات وسدود أقاموها على وادي راجل والأودية الفرعية، والذي يجمع مياهه من مياه الأمطار التي تتساقط فوق جبل العرب (جبل الدروز) في جنوبي سورية.

يبدو أن سكان جاوة الأوائل قد تركوها بعد مدة من سكناهم فيها خلال العصر البرونزي المبكر الأول، ولم يرجع الناس للاستقرار فيها إلا مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد (العصر البرونزي المتوسط الأول) حيث بنيت قلعة داخل أسوار الألف الرابع قبل الميلاد (Helms 1981). وقد اكتشف الموقع صدفة بينما كان أحد المهتمين بالآثار يلتقط صورًا جوية للمنطقة خلال الثلاثينات من القرن الفائت، حين لاحظ وجود هذا الموقع من خلال إحدى الصور، ونظرًا لمساحته الكبيرة وضخامة مبانيه، ظن أنه روماني التاريخ والصبغة. وبقي الأمر هكذا حتى خمسينات القرن الماضي عندما كان المنقبون لانكستر هاردنج (مدير دائرة الآثار الأردنية آنذاك)، وفريدريك وينيت Frederick Winnett، وكريستال بنيت Crystal Bennett في زيارة للمنطقة بحثاً عن نقوش وكتابات صفوية، وأعلن هاردنج أن الموقع يعود للعصر البرونزي المبكر. ولم تجر في الموقع أية أعمال أثرية حتى مطلع السبعينات، وذلك عندما بدأ سفند هلمز Svend Helms بإجراء تنقيبات ومسوحات كشفت عن أهمية الموقع كأحد أهم المواقع المؤرخة للنصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. ولم يكتف هلمز بالتركيز على دراسة الموقع

وحده، فقد قام فريق بريطاني بدراسة المناطق المحيطة من خلال إجراء مسوحات أثرية سجل الفريق خلالها عددًا من المواقع الأثرية الأخرى (Helms 1981; Betts 1991).

بنيت بيوت وأسوار وبوابات جاوة من الحجارة البازلتية المتوفرة بشكل كبير في المنطقة، علمًا أن المنقب يعتقد أن المداميك العلوية من الجدران بنيت من اللبن الطيني. ويبدو أن البيوت سقفت بألواح خشبية أو أعواد من القصب، وحمل السقف على دعامات أو أعمدة خشبية ارتكزت على قواعد بازلتية (Betts 1991: 123-125). وكانت بيوت جاوة بنيت بشكل مستدير، وقسمت المدينة إلى وحدات سكنية يفصلها عن بعضها عدد من الشوارع والأزقة. لكن، لم يكشف في الموقع، حتى الآن، عن أية مبانٍ ذات طابع ديني.

أحيطت المدينة بسور إهليجي تخللته ثلاث عشرة بوابة، منها خمس في المنطقة العليا وثمانٍ في المنطقة السفلى من الموقع. وبني السور من كتل حجرية ضخمة أنشئت مباشرة فوق الصخر الطبيعي.

ويمكن القول إن جاوة في جنوبي بلاد الشام هي أخت حبوبة كبيرة في شمالها، لكن كلاً منها تختلف عن الأخرى في بيئتها وطبيعة المخلفات الأثرية فيها، لا سيما أن حبوبة كبيرة شكلت جزءًا من حضارة الوركاء ذات الطابع الرافدي.

وبالرجوع إلى هذين المثالين، هل نبقى على الرأي الذي يقوله كثير من الباحثين إن طبيعة المواقع التي ظهرت خلال العصر البرونزي المبكر الأول لم تخرج عن كونها قرى زراعية؟ إننا نرى في موقعي حبوبة كبيرة وجاوة مدنًا لا تقل كثيرًا عن بقية المدن المعاصرة لها. ولكن، قبل أن نقرر فيما إذا كان موقع ما قرية أم مدينة، علينا أولاً تحديد السمات والملامح العامة لكل منهما.



الشكل 47: صورة جوية لموقع جاوة/ الأردن (عن Kennedy and Bewlery 2004)

ب. أمثلة من مواقع العصر البرونزي المبكر الثاني

(حوالي 3100-2650/2700 قبل الميلاد)

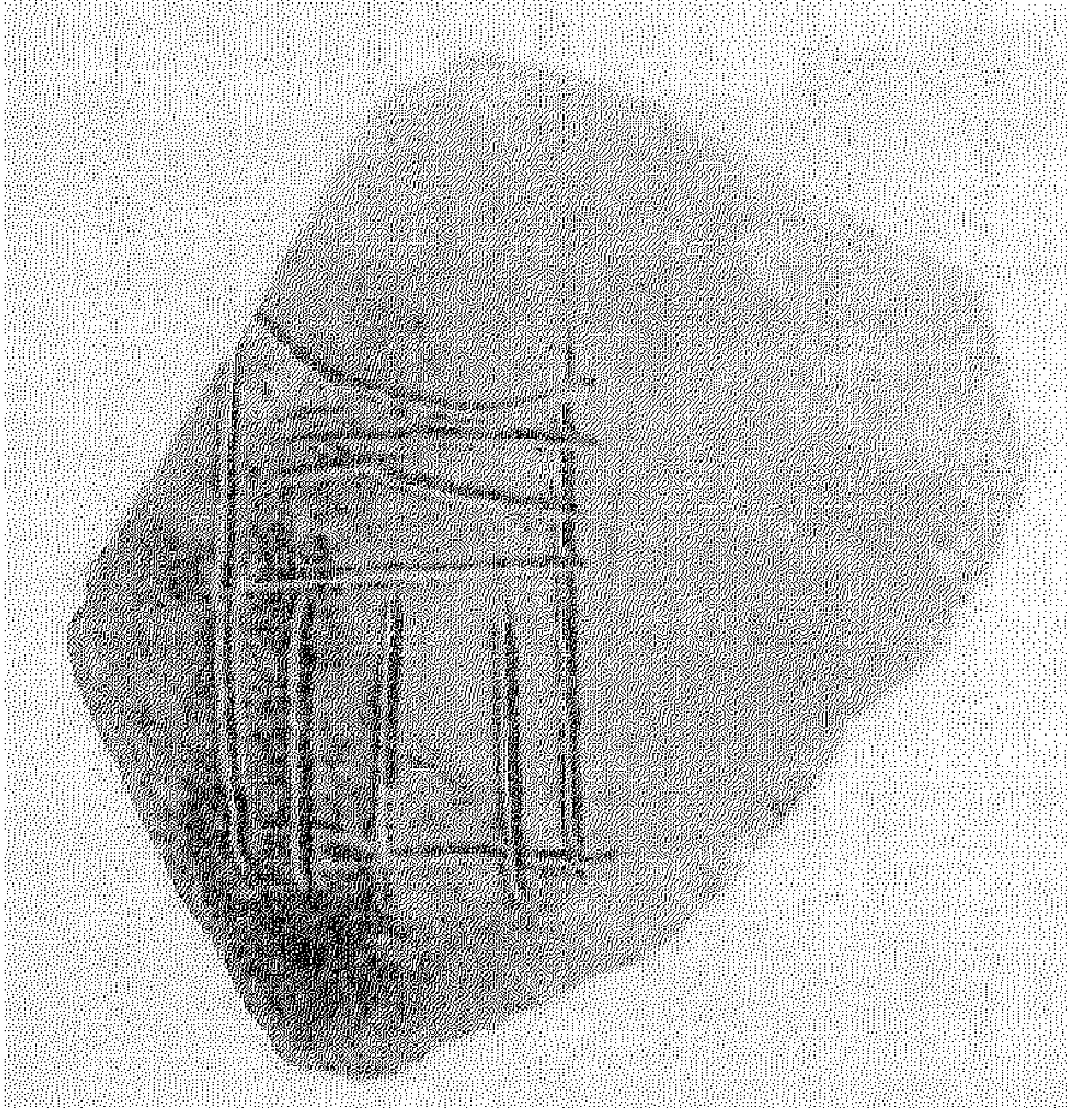
شهد العصر البرونزي المبكر الثاني تطورًا في أنماط الاستقرار، إذ تحولت بعض القرى الزراعية المؤرخة للمرحلة الأولى إلى تجمعات سكنية كبيرة تعددت فيها الطبقات الاجتماعية، وهذه هي المدن. إن نشوء المدينة يعني أن الناس انتقلوا إلى حالة التمدن لكن ليس كل الناس، إذ بقي بعضهم يعيش في قرى، ويعتمد الزراعة وتربية الماشية أساسًا لمعيشته. وقد تطورت بعض المدن، مثل خربة الزيرقون في الأردن، لتبلغ قمة ازدهارها خلال العصر البرونزي المبكر الثالث، كما هو حال العديد من مواقع بلاد الشام. وحيث أن موقع عراد في فلسطين يعد في رأينا أفضل مثال على مدن المرحلة الثانية؛ فإننا نقدم شرحًا عنه.

عراد/ فلسطين

تقع عراد على الأطراف الشمالية الشرقية لصحراء النقب في جنوبي فلسطين، وتحتل مساحة مقدارها عشرة هكتارات. وتتخذ طبيعة الموقع هيئة قصعة (زبدية)، مما جعله مكانًا ملائمًا لتجمع مياه الأمطار. لذا، قام سكان عراد خلال العصر البرونزي المبكر الثاني بحفر حوض تتجمع فيه مياه الأمطار المتساقطة، علمًا أن معدل سقوط الأمطار السنوي في الوقت الحاضر يبلغ 170ملم، وأن طبيعة المنطقة المحيطة بالموقع شبه قاحلة. أما خلال العصر الحجري النحاسي والعصر البرونزي المبكر؛ فقد أكدت الأبحاث أن طبيعة المناخ في المنطقة ظلت رطبة حتى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

ونتيجة للتنقيبات الأثرية التي أجريت في الموقع، جرى التعرف إلى خمس طبقات أثرية يعود أقدمها (الطبقة الخامسة) للعصر الحجري النحاسي. ويظهر أن الموقع هجر لفترة من الزمان خلال أواخر هذه الطبقة، ليعاد سكناه خلال العصر البرونزي المبكر الأول (ب) (الطبقة الرابعة). وأشار المنقبون إلى أن المخلفات الأثرية المكتشفة في الطبقة الرابعة جاءت قليلة، وعثر عليها داخل بعض الكهوف. كذلك عثر على بعض الجدران/ الأبنية التي بنيت تحت أسوار المدينة المؤرخة للعصر البرونزي المبكر الثاني. ولم يستطع المنقبون التثبت فيما إذا كانت قرية عراد خلال العصر البرونزي المبكر الأول (ب) مركزًا لعدد من القرى الأخرى الأصغر مساحة منها (Amiran 1978). ومن الجدير بالذكر أن من أهم الآثار المكتشفة في الطبقة الرابعة آنية فخارية مستوردة من مصر، وكسر فخارية حفر على إحداها علامة الحياة لدى المصريين، والمعروفة لدى الآثاريين باسم "سيرخ" Serekh، وهي تخص الفرعون المصري نعرمر (الشكل 48)، والتي تعد دليلاً صريحًا على قيام تبادل تجاري بين جنوبي بلاد الشام ومصر خلال نهاية الألف الرابع قبل الميلاد (Amiran 1974; 1976).

كما عثر في مغارة في عراد على مدفن يعود للعصر البرونزي المبكر الأول (ب)، دفن فيه ستة عشر ميتًا من الرجال والنساء والأطفال. وقد عثر داخل المدفن على آنية فخارية وحجرية ونحاسية، وعلى خرز ولقى أثرية أخرى.



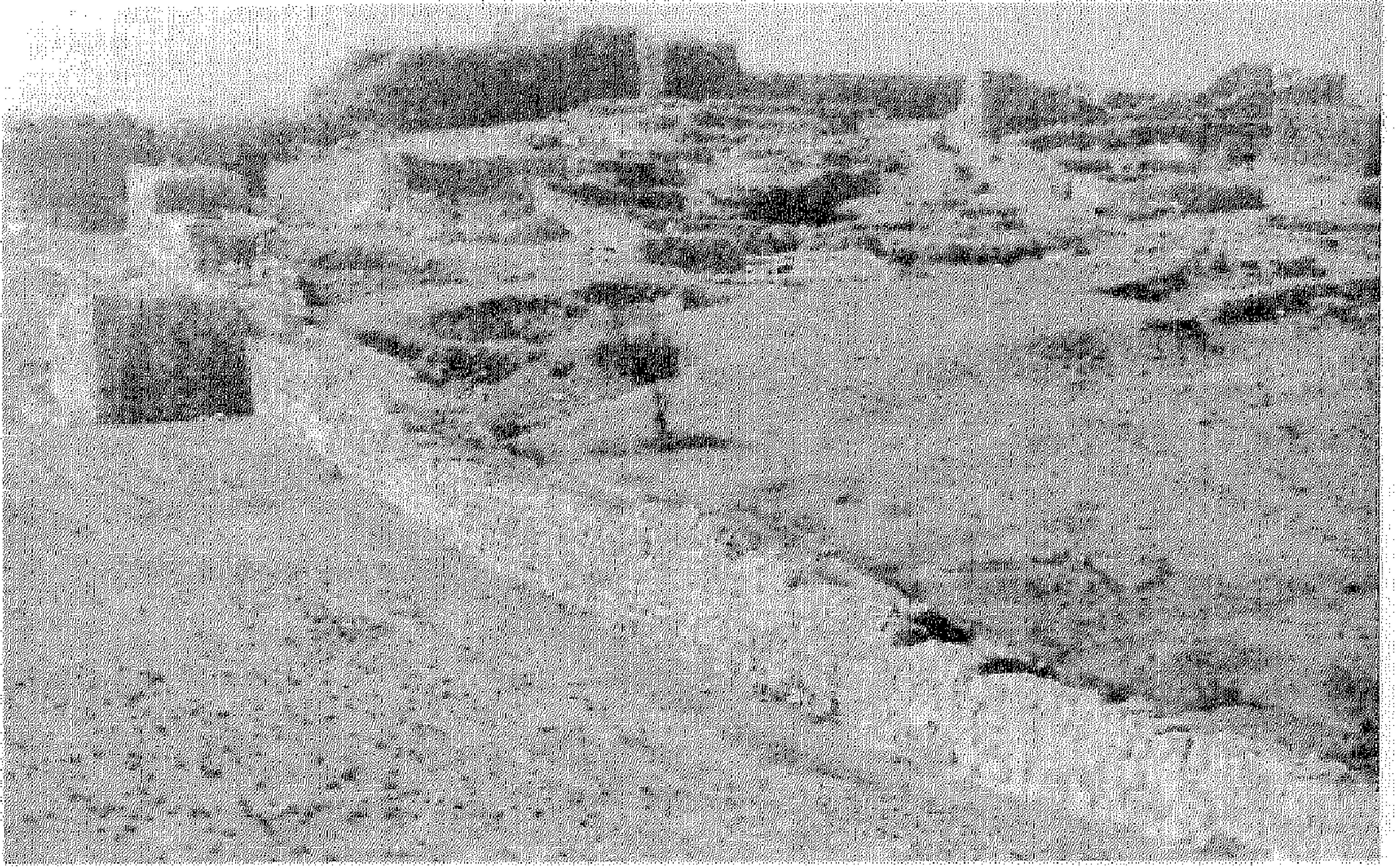
الشكل 48: كسرة فخارية تحمل
علامة الحياة لدى المصريين
(عن Golden 2004)

وأثبتت التنقيبات الأثرية أن الموقع بقي مأهولاً بالسكان خلال العصر البرونزي المبكر الثاني (الطبقة الثالثة)، حيث عثر على مبانٍ مدنية ودينية، وقصر، وحوض حفر لتجميع مياه الأمطار، بني حوله عدد من المباني العامة، كما أحيط الموقع بسور. وتشير تلك الدلائل إلى أن الموقع الذي كان قرية خلال العصر البرونزي المبكر الأول (ب) تحول إلى مدينة خلال العصر البرونزي المبكر الثاني. لكن يبدو أن هذه المدينة دمرت في حروب جرت في حوالي 2800 قبل الميلاد (Ilan and Amiran 1997). أما أهم الآثار المكتشفة في الموقع؛ فهي على النحو التالي:

1. سور المدينة

بعد الدمار الذي أصاب الموقع (الطبقة الثالثة)، يبدو أن عراد لم تهجر، بل استمر الناس بالاستقرار فيها (الطبقة الثانية)، ويدلل المنقبون على هذا من خلال العثور على مخلفات أثرية تشير إلى ذلك.

يبلغ طول سور المدينة 1176م تقريبًا، وسماكته تتراوح بين 2 و2.5م، وارتفاعه 4-5م. ويتألف السور من جدارين بنيا متوازيين، ردمت المنطقة الفارغة بينهما بالحجارة



الشكل 49: مدينة عراد المسورة من العصر البرونزي المبكر (عن Golden 2004)

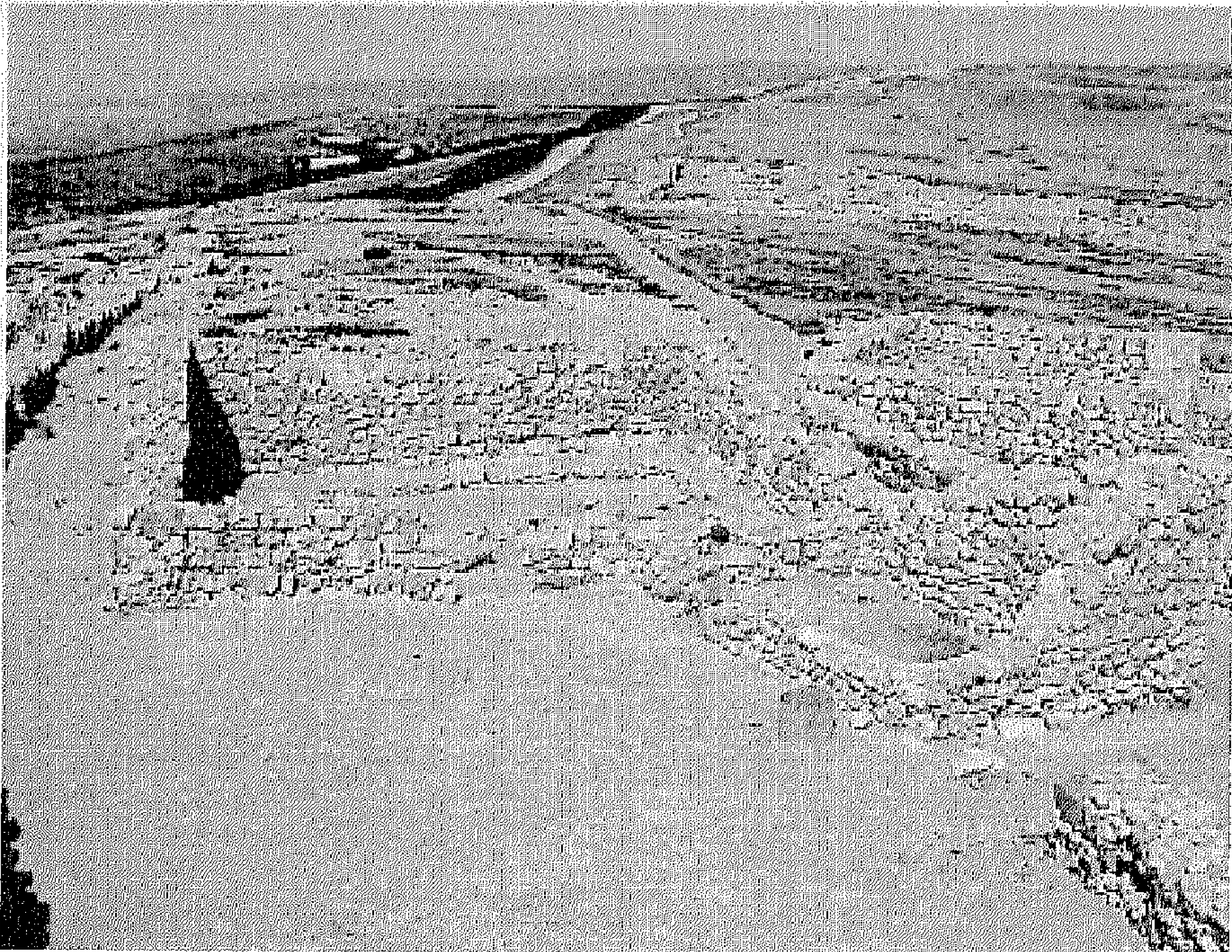
(الشكل 49). وجاء السور معززًا بأبراج وبوابات وفتحات ضيقة تغلق عند الضرورة. وقد اتخذت الأبراج التي بنيت خلال العصر البرونزي المبكر الثاني (الطبقة الثالثة) شكلاً شبه دائري، لكن خلال المرحلة الأخيرة من العصر نفسه (الطبقة الثانية)، جرى استبدال اثنين منها ببرجين مربعي/ مستطيلي الشكل. وعلى أية حال، بلغ عدد الأبراج التي بنيت في السور حوالي أربعين برجًا، أما المسافة التي تفصل الواحد عن الآخر؛ فهي غير ثابتة وتختلف من حالة لأخرى.

وكشف عن بوابتين رئيسيتين تختلفان في الشكل، فتلك التي بنيت في الجهة الغربية من السور جاءت أوسع، ومتصلة في طرفها الشمالي ببرج شبه دائري، بينما تتصل الأخرى، والمبنية في الجهة الجنوبية الغربية، ببرج مربع الشكل.

2. العمارة المدنية

امتازت العمارة المدنية والدينية المكتشفة في عراد بطراز البيوت المستطيلة Broadroom، حيث يفتح في جدارها الطويل باب يفضي إلى الغرفة، ويتصل باب الغرفة بعدة درجات (الشكل 50). وجاءت جميع البيوت المكتشفة في عراد متطابقة في مخططها. وقد بنيت دكة مرتفعة على طول جدران البيت الداخلية، ربما استخدمت للجلوس، كما بني عمود في مركز الغرفة لرفع السقف. وعثر على الحجر الذي يثبت فيه العمود الذي يحمل الباب، مبنيًّا في الجهة اليسرى من مدخل البيت. وجاء شكل سقف البيوت منبسطًا، كما دل على هذا أنموذج البيت المصنوع من الصلصال الذي عثر عليه في الموقع.

ويدل مخطط البيوت المكتشفة على أن البيت تكون في العادة من غرفة رئيسية ذات ساحة، وأن غرفة أخرى أو أكثر، أصغر مساحة من الرئيسية، ألحقت بالبناء لأغراض الخزين. وعثر بداخل البيوت المكتشفة على آنية فخارية، وأدوات من الصوان، والعظم والنحاس، والحجر. إضافة لهذا، جمعت عينات من بقايا العظام الحيوانية، وبقايا النبات مثل الحبوب، والكتان، والبقوليات، والزيتون.



الشكل 50: بيوت العصر البرونزي المبكر الثاني في عراد/ فلسطين

3. المباني العامة

بنيت في البوابة الممتدة بين البوابة الغربية وحوض الماء (البركة) أبنية نسبها المنقبون إلى علية القوم، بينما كان بعضها الآخر ذا صفة عامة، مثل الأسواق والقصر والمعبد والبركة (Ilan and Amiran 1997). وذكر المنقبون أن ثلاثة من المباني الدينية بنيت خلال المرحلة الأخيرة من العصر البرونزي المبكر الثاني (الطبقة الثانية) أسموها "المعبد التوأم الكبير"، و"المعبد التوأم الصغير"، إضافة لغرفة استخدمت للأغراض الدينية. ويطل كلا المعبدين التوأمين على ساحة تفضي بدورها إلى ساحة أخرى أكبر منها، حيث عثر في إحدى الساحات على مذبح كبير ملحق به حوض ماء. كما وجد في إحدى الغرف حجر منصوب على هيئة مسلة، وعدد كبير من الآنية الفخارية، وبذور متفحمة.

أما المعبد التوأم الصغير؛ فيشبه في مخططه المعبد الكبير، وعثر في قاعته الشمالية على مذبح حجري، وعدد من الآنية الفخارية غير المكسرة، وقطع من القار وجدت محفوظة أسفل أرضية القاعة الجنوبية. ويشبه هذا المجمع الديني ذلك الذي عثر عليه في موقع تل المتسلم في سهل مرج ابن عامر في فلسطين، والمؤرخ للعصر البرونزي المبكر الأول.

الاقتصاد

اعتمد سكان مدينة عراد خلال العصر البرونزي المبكر الثاني على اقتصاد متعدد الأوجه، فزرعوا الحبوب (الشعير والقمح) والبقوليات والزيتون، وربوا الماشية (مثل الأغنام والماعز والأبقار والحمير)، كما مارسوا بعض الحرف، لا سيما الحلي حيث عثر على خرز وحلي مصنوعة من الأصداف البحرية، وجدت جنبًا إلى جنب مع بعض المخارز والمثاقب النحاسية والصوانية. كما عثر على عدد من الأختام المشغولة من الحجر الطباشيري المحلي، والتي تذكرنا الأشكال المنحوتة عليها بتلك التي حفرت على مثيلاتها المكتشفة بشمالي سورية وبلاد الرافدين. ويبدو أن سكان عراد تاجروا مع شمالي بلاد الشام ومصر، إذ بادلوا منتوجاتهم الزراعية وزيت الزيتون وخامات النحاس بمنتوجات أخرى. كما تشير الجرار الفخارية المصرية التي عثر عليها في عراد إلى أن

هذه المدينة استوردت من مصر البضائع التي ربما كانت مواد سائلة، وصدرت إليها في المقابل خامات النحاس والملح والقار.

ونود القول إن عراد تحولت إلى مدينة خلال العصر البرونزي المبكر الثاني، وارتبط بها خلال هذه الفترة عدد من قرى الفلاحين. ويعتقد الباحثون أن عراد كانت المدينة الوحيدة في منطقة النقب خلال العصر البرونزي المبكر الثاني، مشكلة مركزًا تجاريًا وسياسيًا إقليميًا (Amiran et al. 1980).

ت. أمثلة من مواقع العصر البرونزي المبكر الثالث

(حوالي 2700-2300 قبل الميلاد)

لاحظ الباحثون والدارسون لآثار بلاد الشام أن عدد المواقع التي تعد مدنًا ارتفع خلال العصر البرونزي المبكر الثالث (حوالي 2700-2300 قبل الميلاد)، وأنها انتشرت فوق مناطق جغرافية مختلفة من بلاد الشام. ففي سورية، عثر على عدد كبير منها، مثل تل براك وتل ليلان وتل خويرة وتل الحريري وخربة أمباشي، وفي لبنان عثر على مواقع على الساحل مثل جبيل، وفي منطقة سهل البقاع، وفي فلسطين: تل المتسلم وأريحا وخربة اليرموك وخربة الكرك وبيسان وتل الفارعة الشمالية وتل تعنك، وأخيرًا في الأردن، مثل خربة الزيرقون وطبقة فحل وتل السعيدية وخربة البتراوي وتل العميري وباب الذراع والنميرة (Weippert 1988; Ben-Tor 1992; Levy 1995; Heinz 2002 ؛2006 كفافي). ولصعوبة تناول المواقع المذكورة أعلاه جميعها؛ فسنكتفي بتقديم بعض الأمثلة، علّها تعطي القارئ فكرة عن طبيعة المدينة في هذا العصر.

1. تل ليلان / سورية

يقع تل ليلان في أعالي نهر الخابور، شمال شرقي سورية، وبالتحديد في منطقة التقاء وادي الجرة والسبلة (الشكل 51). عرف تل ليلان في المصادر القديمة المؤرخة للألف الثالث قبل الميلاد باسم "شخنة"، غير أن المصادر المؤرخة لبداية الألف الثاني قبل الميلاد أسمته "سوبارتو"، ثم "شوباط-إنليل" (Weiss 1997). أسس الموقع ابتداء فوق مرتفع يحاذي وادي الجرة، وبدأ قرية صغيرة خلال المراحل الأخيرة من فترة العبيد، لا تتجاوز مساحتها عشرين هكتارًا، علمًا أن هذه القرية كانت مركزًا لحوالي تسع وأربعين قرية صغيرة في المنطقة المحيطة بها خلال فترة العبيد/ حلف. ويبدو أن الأحوال المناخية خلال هذه الفترة المؤرخة لمنتصف الألف الخامس قبل الميلاد، كانت أكثر رطوبة مما هي عليه في الوقت الحاضر.

تراجع عدد المواقع المحيطة بتل ليلان خلال حضارة الوركاء، وأطلق المنقب على المكتشفات من هذه المرحلة اسم "ليلان الطبقة الخامسة" Leilan V. وبقي الناس يسكنون في الموقع، لكن يبدو أنه دمر مرة أخرى في الفترة التي تلت ما يعرف باسم



الشكل 51: تل ليلان

ليلان الطبقة III a، والتي تعاصر ما عثر عليه في موقع نينوى الطبقة الخامسة، بشمالي العراق، ولهذا هجر تل ليلان لفترة تقرب من مائة عام. بعد هذا ارتفع عدد المستقرات في حوض نهر الخابور، لكن مساحاتها بقيت صغيرة لا تتجاوز عشرة هكتارات، كان تل ليلان واحدًا منها.

وأظهرت المكتشفات الأثرية أن موقع ليلان (الطبقة III d) تحول خلال الفترة ما بين 2900 إلى 2400 قبل الميلاد من قرية صغيرة إلى مدينة أو بلدة كبيرة بلغت مساحتها حوالي مائة هكتار، حيث قدر عدد سكانها في هذه المرحلة بين تسعة آلاف إلى ثمانية عشر ألف نسمة. ويتكون تل ليلان من منطقتين، المدينة العليا وهي "الأكروبول"، والمدينة السفلى. وقال المنقبون إن الأكروبول ضم المباني العامة، بينما ضمت المدينة السفلى المباني السكنية (Weiss 1993; 1996; 1997; Weiss et al. 1993; Heinz 2002). بنيت فوق منطقة الأكروبول، وهي تحتل الجهة الشمالية الغربية، المنشآت الدينية والإدارية والاقتصاديــة (الشكلان 52-53). ويبدو أن السكان قاموا بإزالة المباني التي بنيت في المرحلة السابقة Leilan III c قبل أن يقوموا بإقامة تلك الأبنية عليها. وبقي الموقع على حاله، مع بعض التغيرات والتجديدات البسيطة، لمدة تقارب من الأربعمائة عام، واستمر كذلك حتى نهاية الإمبراطورية الأكادية في حوالي 2200 قبل الميلاد.

ويعد المذبح أهم البقايا التي كشف عنها في منطقة الأكروبول، إذ أقيم فوق مصطبة مرتفعة بنيت من اللبن الطيني، بلغت أبعادها 10 x 15م. وبني في الجهة الشرقية للمذبح عدد من الغرف، وجد في واحدة منها عشرون هيكلاً عظمياً لرجال ونساء وأطفال. كما عثر في الجهة الغربية للمذبح على غرفة بداخلها عدد كبير من طبعات الأختام (Weiss 1997: 343). وذكر المنقب أن طبعات الأختام هذه، والأختام نفسها، هي من صنع محلي، لكنها والمشاهد المحفورة عليها تقليد لتلك التي عثر عليها بجنوبي بلاد الرافدين، وتؤرخ إلى عهد السلالتين السومريتين الأولى والثانية. أما الآنية الفخارية؛ فلها ما يشابهها في عدد من الآنية التي عثر عليها في الطبقة الخامسة في موقع نينوى، والتي امتازت بزخارفها المحزوزة.

قام سكان تل ليلان في الفترة ما بين حوالي 2400-2300 قبل الميلاد (Leilan II a) ببناء سور حول منطقة الأكروبول، دون المدينة السفلى. وهذا يعني أن هذه المنطقة التي تضم ربما مباني الإدارة والمعبد، وتسكنها النخبة وأغنياء الناس، قد فصلت عن أبنية العامة



الشكل 52: مبنى المعبد في تل ليلان

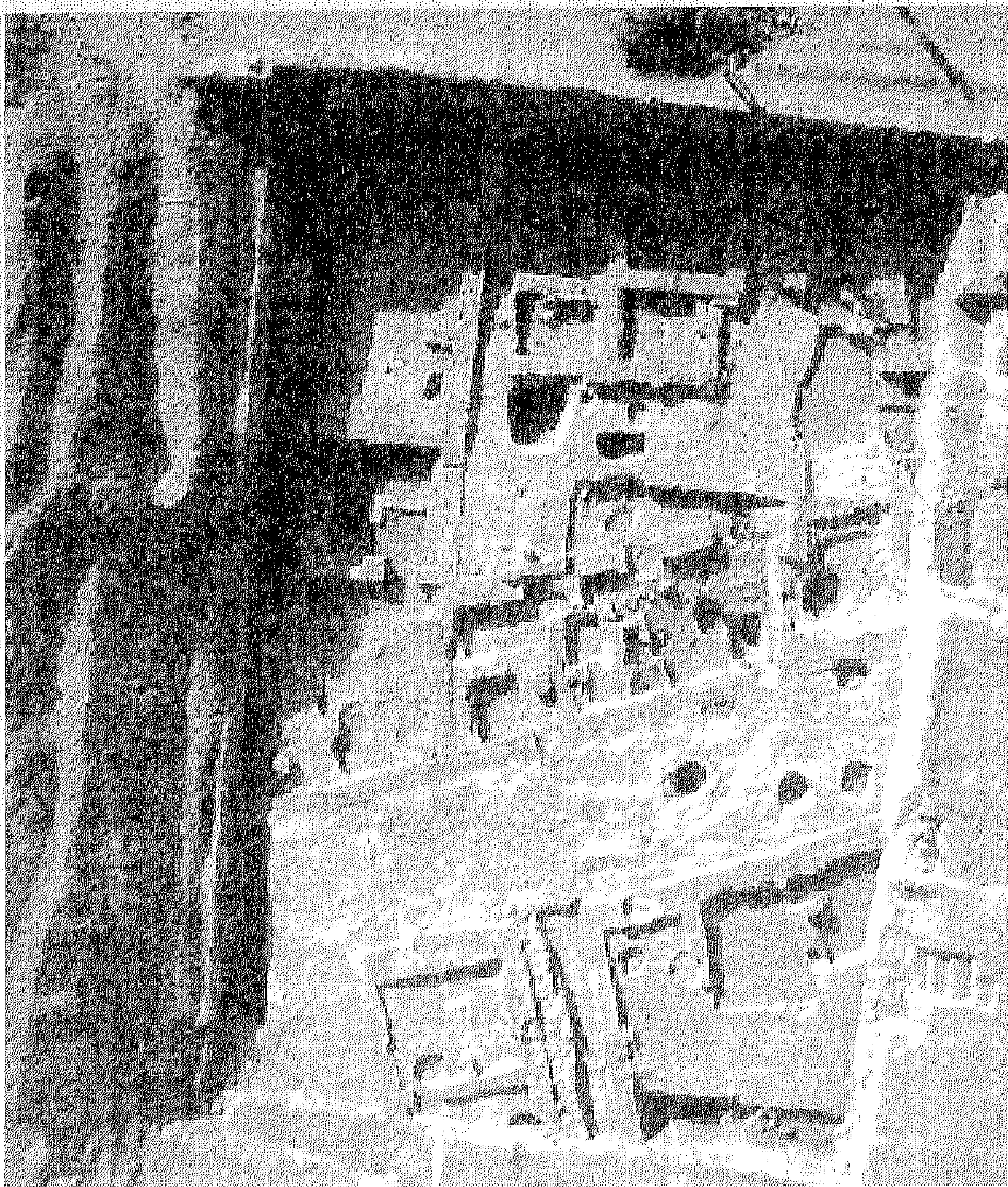
وبيوتها. كذلك لوحظ أن فخار نينوى 5 الذي ساد في المرحلة السابقة قد اختفى كليًا في هذه الفترة، وأن الآنية الفخارية هنا أصبحت تمتاز ببساطة أشكالها وزخارفها.

وتؤكد الرقم الطينية التي عثر عليها في موقع تل بيدر، وهو من مواقع المنطقة ذاتها، أن الصلات الحضارية بين منطقة حوض الخابور وجنوبي بلاد الرافدين أصبحت أقوى مما كانت عليه سابقًا.

وخلال الفترة 2300 و2200 قبل الميلاد، خضعت مدينة تل ليلان، كغيرها من كثير من مدن شمالي سورية، لحكم الإمبراطورية الأكادية، واحتلها الملك الأكادي نرام- سن. ويؤكد هذه السيطرة اثنان من الرقم التي عثر عليها في منطقة الأكروبول. ويبدو أن الملك الأكادي طمع في المنطقة نظرًا لغناها بالمحاصيل الزراعية، لا سيما الحبوب التي كانت الدولة الأكادية بحاجة ماسة إليها. فقد مارس سكان ليلان الزراعة البعلية التي

شكلت العمود الفقري لاقتصاد المدينة، حيث أن معدل سقوط الأمطار السنوي (حوالي 440ملم) يكفي لزراعة المحاصيل الزراعية، لا سيما الحبوب. وأثبتت الآثار المكتشفة أن الموقع أدى دورًا مركزيًا في منطقة الجزيرة السورية، وما يحاذيها من بلاد الرافدين.

كذلك، فإن تل ليلان غني بالمنتجات الزراعية البرية لوقوعه على أطراف المرتفعات الجبلية. كما أن محيط المدينة غني بالموارد الخام، مما يعني أنه أصبح بإمكان السكان تصنيع الأدوات والآنية التي يحتاجونها. وهذا أدى بطبيعة الحال إلى ازدهار عدد من الصناعات في مدينة ليلان، مما دفع عددًا من سكان المناطق المجاورة للهجرة إليها، الأمر الذي أدى إلى انتعاش التجارة وإنشاء الطرق التجارية.



الشكل 53: قصر تل ليلان من الفترة الأكادية

وحال مدينة تل ليلان في العصر البرونزي المبكر حال غيرها من المدن السورية المعاصرة لها مثل تل مرديخ وتل الحريري. إن وضع المدينة كمركز لعدد من القرى والمدن المحيطة وازدهار تجارتها جعلها ترتبط بمحيطها القريب والبعيد بصلات تجارية وسياسية قوية. وبطبيعة الحال، ونتيجة لمثل هذا الوضع، يصل المجتمع إلى تحقيق مستوى حياتي وفكري متقدم يصفه الباحثون بـ"التمدن"، وهذا ما كان عليه حال مدينة تل ليلان خلال الألف الثالث قبل الميلاد.

2. تل خويرة / سورية

يقع تل خويرة في الرقة السورية في منتصف المسافة الممتدة بين نهري الخابور والبليخ، ويحتل مساحة مقدارها حوالي 65 هكتارًا (650.000م^2). وقد اكتشف الموقع في أثناء المسوحات الأثرية التي قام بها ماكس فون أوبنهايم خلال الأعوام 1911-1913 في منطقة جبال عبد العزيز.

بدأت دائرة الآثار العامة السورية التنقيبات بالموقع عام 1955، بالتعاون مع بعثة فرنسية بإشراف الفرنسي جان لوفري Jean Lauffray. لكن منذ عام 1958 وحتى عام 1976، بدأت مؤسسة فون أوبنهايم بمشروع تنقيبات أثرية طويل الأمد بإشراف الألماني أنطون مورتغارت، ثم تولت زوجته أوزولا مورتغارت- كورنز التنقيب في الموقع خلال الأعوام 1982-1985 (Moortgart-Correns 1972; 1988a; 1988b). ومنذ عام 1986، تابع وينفريد أورتمان التنقيبات في الموقع (Orthmann et al. 1986; Orthmann 1990).

بدأ الاستقرار في الموقع خلال النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. واعتمادًا على نتائج التنقيبات، قسم المنقبون مراحل الاستقرار فيه إلى مرحلتين رئيسيتين، على النحو التالي:

- المرحلة الأولى والأقدم، وتبدأ في حوالي 2800 وتنتهي في 2300 قبل الميلاد، وتغطي نهاية العصر البرونزي المبكر الثاني وجميع الثالث. تبعتها فترة هجران للموقع استمرت حتى حوالي 1600 قبل الميلاد.

- المرحلة الثانية وهي الأحدث، وتبدأ في حوالي 1600 وتنتهي في حوالي 1100 قبل الميلاد، أي تغطي العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي.

ويبدو أن الموقع ازدهر خلال العصر البرونزي المبكر الثالث، إذ قام سكانه ببناء سور من اللبن الطيني، وحفروا خندقًا حوله. ومن الجدير بالذكر أن الموقع يقسم إلى منطقتين: عليا، وسفلى. وتغطي المنطقة السفلى مساحة قدرها 220.000م^2، بنيت فوقها بيوت خاصة. كما كشفت التنقيبات الحديثة أن منطقة القلعة كانت محصنة داخليًا (Orthmann 1997). وكشفت التنقيبات في تل خويرة عن عدد من المعابد، ثلاثة منها بنيت على المنحدر الجنوبي للتل، وكانت مادة البناء هي الحجارة. ولاحظ المنقبون أن بقايا اثنين من هذه المعابد قد غطتها طبقة من الرماد، مما يوحي بأن سبب دمارهما كان ربما نتيجة إشعال النار فيهما. إضافة إلى أنه عثر على هياكل عظمية ملقاة كيفما اتفق في الغرف، وفي الأزقة بين البيوت (Orthmann 1990; 1995).

كذلك وجد معبدان صغيران، أحدهما في الجهة الشمالية للموقع، بني بكامله من الحجارة فوق مصطبة من اللبن الطيني. أما المعبد الآخر؛ فبني من اللبن الطيني في وسط الموقع. وعثر المنقبون على عدد من المساكن التي بنيت في المناطق المجاورة لهذين المعبدين.

وكان عثر في الجهة الشمالية الغربية للموقع، غربي القلعة، على مبنى ضخم بلغت أبعاده 70x 60م، مما دفع المنقبين إلى عده قصرًا. وكشفت التنقيبات عن عدد من الساحات، وعن قاعة كبيرة بنيت ملاصقة لجدارها الشرقي غرفة يعتقد أنها كانت غرفة العرش. كذلك عثر في الجهة الجنوبية على حي للبيوت الخاصة. وجاءت البيوت ملاصقة لبعضها مع وجود أزقة ضيقة بينها. وكان لكل بيت ساحة خاصة، يوصل إليها من الزقاق أو الشارع عن طريق ممر، كما بنيت غرفة في المنطقة الفاصلة بين الساحة والزقاق.

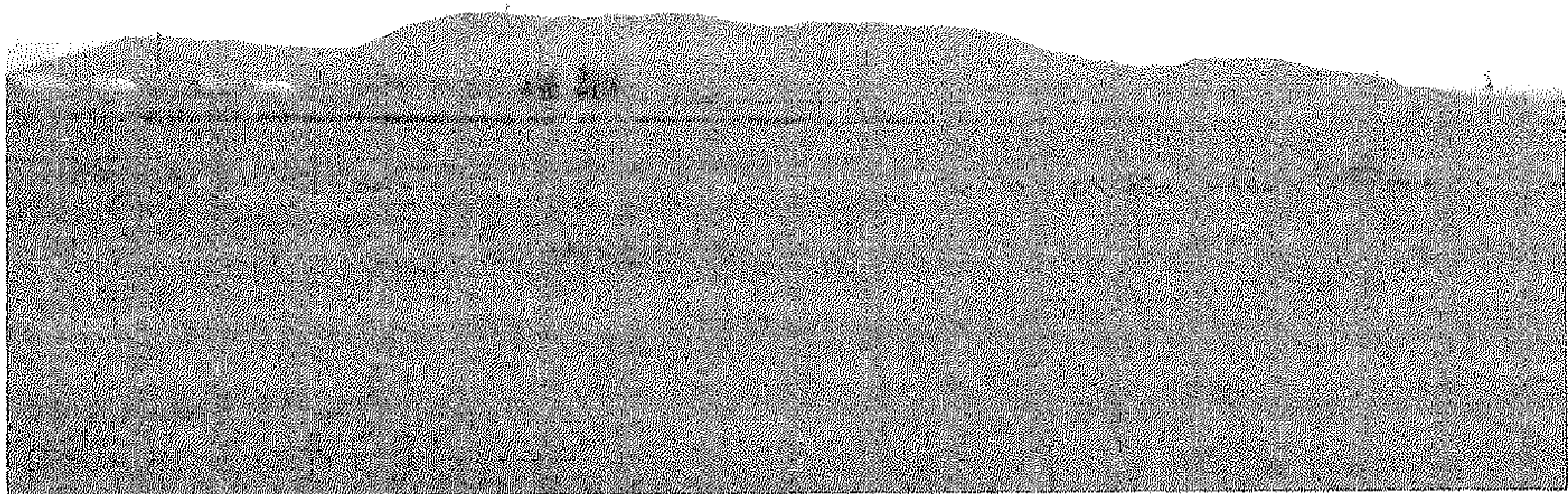
ومن أهم المكتشفات الأثرية في تل خويرة، والمؤرخة للعصر البرونزي المبكر، نصب حجرية على هيئة مسلات، وتماثيل مشابهة لتلك التي عثر عليها في تل الحريري، سميت "تماثيل المصلين". وإضافة لهذا، عثر على عدد من الأختام وطبعات الأختام التي مكنت الباحثين من الكشف عن طبيعة العلاقات، لا سيما الاقتصادية، والتي كانت قائمة بين تل خويرة والمناطق المجاورة له. أما الأشكال المحفورة على الأختام وموضوعاتها؛ فقد جاءت مشابهة لمثيلاتها من جنوبي بلاد الرافدين، في حين غلب الطابع المحلي على بعضها.

وعلى الرغم من أن طبيعة الموقع لم تساعد سكانه كثيرًا على التحول من حياة القرية إلى حياة المدينة خلال العصور البرونزية المبكرة، إلا أن المساحة الكبيرة التي سكنها

الناس، والتي بلغت أكثر من ستين هكتارًا، تشير إلى أنه أصبح مركزًا للمناطق المحيطة به خلال العصر البرونزي المبكر الثالث، وأن آهليه بلغوا درجة من الرقي الحضاري والفكري؛ فبنوا المعابد والقصور، ومارسوا الفنون، وذلك دليل على بلوغهم مرحلة التمدن.

3. تل براك / سورية

يقع تل براك بالقرب من وادي جغجغ في منطقة السهول الواقعة في أعالي نهر الخابور على بعد حوالي 50كم إلى الجنوب الغربي من تل ليلان، ويعد من أقدم المواقع في شمال شرقي سورية (الشكل 54). وبلغت مساحة الموقع خلال العصر البرونزي المبكر الثالث حوالي 43 هكتارًا، غطت مساحة أبعادها 800 x 600م. ولم يعثر في الموقع حتى الآن على دلائل على وجود أسوار تحيط بالموقع خلال هذه الفترة. وعلى الرغم من أن منطقة أعالي نهر الخابور معروفة بخصوبتها، إلا أن الموقع أسس في منطقة تتسم بالجفاف، مما يدل أن الناس استفادوا من موقعه الاستراتيجي، حيث كان بوابة الدخول لمنطقة سهول حوض الخابور الجنوبية الشرقية، ويتحكم في الطرق الواصلة بين منطقة جبل سنجار وجنوبي بلاد الرافدين.



الشكل 54: تل براك

بدأت التنقيبات في تل براك عام 1937 على يد ماكس مالوان M. Mallowan من المدرسة البريطانية للآثار في العراق، وكان من أهم اكتشافاته المعبد الذي سمي "معبد العين"، وقصر نارام- سن. وفي عام 1976، استأنف البريطاني جون أوتس J. Oates من معهد الآثار بجامعة لندن، وزوجته جوان، التنقيب في الموقع حتى عام 1993. ومنذ عام 1994، تابع الإشراف على التنقيبات روجر ماثيوس R. Mathews من المدرسة البريطانية للآثار في العراق (Mallowan 1947; Oates, D. 1982; Oates, J. 1982; Mathews et al. 1994; Oates and Oates 1994).

ويعتقد العلماء أن الاسم القديم لموقع تل براك كان "نجار"، أو "نوار"، إذ عثر على غطاء لقارورة من الصلصال، يعود للألف الثالث قبل الميلاد، كتب عليه Na-gar ki. كذلك عثر خلال التنقيبات التي أجراها ماكس مالوان بين عامي 1937-1938، على طبعة ختم، معروضة الآن في متحف الآثار بحلب، كتب عليها "تلبوش-أتيلي" Talpuš-atili، أي "شمس الأرض في نجار". وأخيرًا عثر على رقم من العصر البرونزي المتأخر في قصر بناه الميتانيون، كتب عليه "نوار في مقاطعة تأيدوا" (Schwartz 1997: 355).

وأثبتت التنقيبات أن بداية الاستقرار في تل براك كانت خلال الألف السادس قبل الميلاد، أي فترة العبيد. وكشف فوقها عن مخلفات أثرية أرخت لبداية حضارة الوركاء (نهاية الألف الخامس/ بداية الألف الرابع قبل الميلاد).

وجاءت أهم المكتشفات من سويات منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وما تلاها، إذ أصبحت للموقع أهمية كبرى بين المواقع الأخرى، وارتبط بعلاقات وطيدة بجنوبي بلاد الرافدين. ومن أهم المكتشفات في تل براك "معبد العين"، والذي سمي بهذا الاسم نسبة إلى دمى نحتت على ألواح حجرية وصلصالية مبسطة لها شكل العين، والتي عثر على ما يشابهها في جنوبي الرافدين. وتؤكد الملتقطات الأثرية من الموقع سكناه خلال مراحل الوركاء المتوسطة، والمتأخرة، وجمدة نصر (حوالي 3600-3000 قبل الميلاد). كما عثر في السويات المؤرخة للوركاء على عدد من الأختام الأسطوانية والرقم عليها كتابة تصويرية، وعلى رقيمين آخرين عليهما إشارات تدل على أعداد. ولما كانت جميع هذه اللقى الأثرية ذات طابع رافدي، فإن كثيرًا من العلماء يرى أن هذا الموقع كان خلال فترة الوركاء الأخيرة مستعمرة رافدية تحكمت في الطريق الواصلة إلى مناجم النحاس

في شرقي الأناضول، بينما رأى آخرون أن تلك اللقى هي نتاج حضارة محلية متأثرة بجنوبي بلاد الرافدين.

وربما أن أهمية الموقع تراجعت مع بداية الألف الثالث قبل الميلاد، إذ أصبحت مساحته أقل، كما لم يعثر فيه، حتى الآن، على أية بقايا عمائرية مهمة كالمعابد والقصور. ومع انتصاف الألف الثالث قبل الميلاد، عادت أهمية الموقع إلى سابق عهدها، وربما شكل مركزًا رئيسًا لدولة منتعشة سياسيًا واقتصاديًا. لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ يظهر من طبقة الحريق التي كشف عنها أن الموقع دمر على أيدي الأكاديين بعد انتهاء العصر البرونزي المبكر الثالث. لكن هذا الأمر لم يؤد لهجران الموقع كليًا كما حدث لغيره من المواقع الأخرى في المنطقة، إذ يبدو أن الأكاديين قاموا بتحويله إلى مركز إداري يسيطر ويشرف على سهول حوض الخابور. فبعد احتلال المدينة، قام الأكاديون بإعادة بنائها من جديد، حيث كشفت التنقيبات عن عدد من المباني التي بنيت خلال هذه الفترة. وأكدت الوثائق المكتوبة المكتشفة أن الموقع أدى دورًا مهمًا خلال العصر البرونزي المبكر، إذ عثر في الجهة الغربية الجنوبية للتل على قصر نرام-سن، والذي يمكن لزائر الموقع مشاهدته عن بعد وبكل يسر، وكان باستطاعة سكان هذا القصر الإطلال على الحي السكني والمنطقة المحيطة به. إلا أن سهولة الوصول لمبنى القصر جعلته عرضة للهجمات، لذا، بني في هذه المنطقة جدار ضخم لحماية القصر والمنطقة المحيطة به. وأثبتت الأختام التي عثر عليها في المبنى، أن صاحبه كان الملك الأكادي نرام-سن. ويبدو أن مبنى القصر الذي كان مقرًا للملك، كان أيضًا مركزًا إداريًا، ومنزلاً للطبقة الحاكمة المتنفذة، ومستودعًا للبضائع.

وعثر في الجهة الشمالية من الموقع على مجمع مركزي يتكون من عدد من الغرف التي تحيط بساحة، عثر بينها على بناء استخدم معبدًا. ويبدو أن هذا المجمع خدم الجهة الشمالية من المدينة، وكان علامة فارقة في الموقع. أما في الجهة الجنوبية الغربية؛ فقد عثر على مجمع بنائي آخر، ربما استخدم للأغراض الإدارية والدينية، حيث تكون من معبد، وساحات رئيسية وجانبية، ومبانٍ أخرى. ويبدو أن الموقع انتهى وهجر سلميًا، مع سقوط الدولة الأكادية، لأسباب لا زلنا نجهلها.

وإضافة للمخلفات المعمارية، عثر في تل براك، لا سيما في المباني الدينية، على تماثيل رخامية ربما قدمت نذورًا. كما عثر في ساحة المعابد على أسلحة من النحاس، وحلي من

الذهب والفضة. والأهم من هذا كله، العثور على عدد كبير من الرقم الطينية التي تحمل كتابات تتصل كثيرًا بالأحوال الاقتصادية.

ويبدو أن سكان تل براك مارسوا الزراعة المروية، علمًا أن المنطقة غنية بالمراعي الصالحة لرعي الماشية، مما يؤكد عمل الناس في الرعي كذلك. وإضافة لهذا وذاك، فإن إنشاء الموقع على نهر فرعي يصب في نهر الخابور، والذي يصب بدوره في نهر الفرات، أدى دورًا مهمًا في الاتصال والتجارة بين شمالي سورية وبلاد الرافدين.

جاءت بداية الاستقرار في تل براك خلال الألف السادس قبل الميلاد، لكن الموقع بلغ قمة ازدهاره خلال العصر البرونزي المبكر الثالث والرابع، بينما فقد أهميته بسقوط الدولة الأكادية، وبقي كذلك حتى مجيء دولة ميتاني التي أسسها الحوريون في العصر البرونزي المتأخر.

4. خربة الأمباشي/ جنوبي سورية

فيما بين عامي 1984-1993، وما بين عامي 2003-2005، قامت بعثة سورية فرنسية بمسوحات أثرية في مناطق جنوبي سورية الحالية، كشفت النقاب عن عدد كبير من مواقع العصر البرونزي المبكر، وساعدت كثيرًا في فهم طبيعة التطورات الحضارية في المنطقة خلال الألف الرابع قبل الميلاد. وتبين من خلال المسوحات أن هذه المنطقة لم تسكن بالكثافة ذاتها عبر الفترات المختلفة، إذ ارتبطت طبيعة الاستقرار فيها بمدى توفر أسباب العيش من مياه دائمة، وأرض خصبة، ومراعٍ. وقد أثرت الخصائص البيئية للمواقع التي استقر بها الناس في منطقة حوران واللجاة والحرة البازلتية على طبيعة التنظيمات الاجتماعية والسياسية فيها.

ويمكننا الادعاء أن ما قامت به البعثة السورية الفرنسية بجنوبي سورية يكمل العمل الذي قامت به البعثة الأسترالية الإنجليزية في منطقة الحرة البازلتية بشمالي الأردن (Betts 1998). ومن الجدير بالذكر أن التقارير العلمية المنشورة حول نتائج تلك المسوحات قد زودتنا بمعلومات دقيقة عن مواقع يعد بعضها قرى (أي مواقع صغيرة المساحة)، مثل موقع الشرايا الذي يؤرخ للعصر البرونزي المبكر الأول (Nicolle and al-Maqdissi 2006)، بينما يعد بعضها الآخر قرى كبيرة أو بلدات/مدن، مثل موقع لبوة

في منطقة حوران الشرقية، والمؤرخ للعصر البرونزي المبكر الثالث، وهو موقع محاط بسور ضخم ذي بوابات رئيسة، ويشابه ويعاصر مدينة خربة الزيرقون بشمالي الأردن (al-Maqdissi and Braemer 2006). وقد لاحظ الآثاريون الذين قاموا بمسح منطقة اللجاة وجود حقول للنصب الحجرية Dolmens تنتشر فوق المنطقة التي أنشئت فيها خربة الأمباشي في حوران، كما كان الحال بالنسبة لجبل المطوق في حوض نهر الزرقاء في الأردن. ومن النتائج المهمة التي توصلت إليها البعثة العاملة بجنوبي سورية، أن التمدن وإعادة إعمار المدن خلال العصر البرونزي المتوسط حصلت في هذه المنطقة البعيدة والمعزولة، حتى قبل حصولها في فلسطين (Braemer et al. 2004: 8).

وقد زودتنا خربة الأمباشي بصورة واضحة عن طبيعة القرى الكبيرة المؤرخة للعصر البرونزي المبكر، والتي بنيت في مناطق بعيدة جغرافيًا عن المواقع المعاصرة لها (Braemer et al. 2004).

ويبدو أن الاهتمام بدراسة منطقة اللجاة، أو المسماة "الصفاة"، بدأ منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حينما زارها الرحالة والمستكشف سيريل غراهام Cyril C. Graham عام 1857، وتبعه آخرون في السنوات اللاحقة. وكان اهتمام هؤلاء منصبًا على دراسة النقوش الصفوية المنتشرة في المنطقة، وليس على الآثار فيها. وكان أول آثاري زار خربة الأمباشي هو الفرنسي موريس دونان، وكان هذا عام 1929، إلا أنه لم يكن مهتمًا بدراسة آثار الموقع قدر اهتمامه بجيولوجية المنطقة.

بدأت البعثة الأثرية السورية الفرنسية، بإشراف فرانك بريمر F. Braemer، التنقيب في خربة الأمباشي عام 1991، واستمر العمل عدة مواسم حتى عام 1995. وهدفت التنقيبات إلى دراسة المخلفات العمائرية في خربة الأمباشي، ووضع جدول زمني لها من خلال دراسة اللقى الأثرية المكتشفة، لا سيما الآنية الفخارية، والأدوات الحجرية، والبقايا العضوية التي يجري تحليل عينات منها بالكربون المشع 14، وذلك لمحاولة فهم طبيعة الاستقرار في الموقع.

أكدت نتائج التنقيبات والمسوحات الأثرية في اللجاة أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان خلال العصر البرونزي المبكر الرابع (حوالي 2400/2350-2000 قبل الميلاد). وعلى أية حال، شهد موقع خربة الأمباشي خلال الربع الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد، أي

العصر البرونزي المبكر الأول، استقرار أولى الجماعات فيه، والتي بنت سورًا يحيط بمساحة مقدارها حوالي 4 هكتارات (40 دونمًا). ويبدو أن توفر المياه والمراعي في وادي الأمباشي، إضافة إلى قرب الموقع من جبل العرب (جبل الدروز) الذي يصلح للإقامة الصيفية، كانا السبب وراء هذا الاستقرار. وإضافة للسور، عثر على مبانٍ قليلة شيدت فوق السفح الشمالي للموقع، وعلى أبنية صغيرة بنيت فوق أعلى نقطة في الموقع. ويظهر أن الموقع لم يحظ خلال المرحلة اللاحقة، أي خلال العصر البرونزي المتأخر الثاني، بما حظي به في الأولى، إذ تحول الناس للسكنى في موقع يعرف حاليًا بخربة الدبب، والتي تبعد حوالي 7كم عن خربة الأمباشي.

أعيد سكنى خربة الأمباشي بشكل مكثف خلال منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، أي العصر البرونزي المبكر الثالث، حيث عثر على عدد من المباني التي شيدت فوق الجهة الشمالية لوادي الأمباشي. وحيث لم يعثر في هذه المنشآت على كثير من المخلفات الأثرية، كما أنها جاءت مبعثرة فوق المنطقة، لم يستطع المنقبون رسم صورة واضحة لطبيعة الموقع في هذه الفترة، لا من حيث المساحة ولا التخطيط. ولم يكن الموقع محصنًا، وحتى البيوت جاءت مبنية من الطين على أساسات حجرية، وكانت مسقوفة بمواد خفيفة. وعلى أية حال، فإنها تمثل أول تجمع سكني في خربة الأمباشي. ويضيف المنقبون أنهم استطاعوا التعرف إلى مخطط البيت في خربة الأمباشي، حيث تكون المسكن من عدة غرف تلتصق ببعضها حول ساحة مكشوفة فيها موقد للنار. ومثل هذا الطراز من البيوت عرف في هضبة الجولان خلال العصر الحجري النحاسي (Epstein 1998).

وفي المحصلة، ظهر خلال نهاية الألف الرابع والنصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد طرازان عمائريان: الأول، بنيت فيه البيوت بشكل متواضع، حيث شيد البيت من صف واحد من الحجارة، كما هو الحال في خربة الأمباشي في المنطقة الواقعة داخل السور، وفي خربة الدبب. أما في الطراز الثاني؛ فقد بنيت البيوت من الطين المدكوك، مع وجود أعمدة داخلية أحيانًا، ربما كانت من الخشب، كما هو الحال في خربة الأمباشي.

ويرى المنقب بريمر (Braemer et al. 2004: 19، "ملخص الكتاب بالعربية") أن أهل الموقع كانوا خلال هذه المرحلة مربي ماشية، لا سيما الماعز والأغنام، وليسوا مزارعين ولا صيادين.

وعلى الضفة الجنوبية لوادي الأمباشي، عثرت البعثة الأثرية على عدد من البيوت الصغيرة المساحة محاطة بسور، ربما بنتها جماعة قدمت للمكان خلال العصر البرونزي المبكر الثالث. وقد وجدت في المنطقة كميات كبيرة من العظام الحيوانية المحروقة لأغنام، وماعز، وأبقار. كما عثر في المنطقة الجنوبية ذاتها على مدافن للموتى. ويلاحظ أن الاستقرار في الموقع استمر خلال الفترات التالية؛ فنجد أن عدد الغرف في الوحدة السكنية خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط وصل في بعض الحالات إلى عشر غرف، مما يدل على ازدياد عدد أفراد الأسرة. كذلك لم يلاحظ أي تمايز في طبيعة الوحدات السكنية، أو في مواد بنائها، مما يشير إلى أن جميع سكان الموقع كانوا سواسية خلال هذه الفترة، إذ يعتقد بريمر وزملاؤه أنهم كانوا مربي ماشية كما ذكر أعلاه.

وجدت البعثة الأثرية في موقعي خربة الأمباشي والهبارية منشآت معمارية مبنية من حجارة ضخمة تختلف في مساحاتها، إذ بلغت أبعاد أحدها 14 x 4م، بني وسط ساحة مساحتها لا تقل عن 300م^2، تؤرخ للنصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. ويمكن أن تتضاعف المساحة خاصة في حالة وجود عدد من التسويرات الحجرية المرتبطة ببعضها. كما عثر على منشآت ضخمة ذات أعمدة حجرية كبيرة، حيث بنيت تلك المنشآت وفق مخطط مستطيل، وامتازت ببناء السقوف ببلاطات حجرية كبيرة تستند إلى أعمدة في الوسط أو على الجدران.

استفاد الناس من استخدام الأعمدة في تطوير بناء بيوتهم وتعدد مخططاتها؛ فكانت هناك بيوت ذات مخطط مستطيل، كما هو الحال في الأبنية المبنية من الحجارة الكبيرة، والتي وجدت أمثلة لها في خربة الأمباشي والهبارية، وبيوت متطاولة كالتي ظهرت في القطاع الشمالي من خربة الأمباشي. كما استخدمت تلك الأعمدة في القلاع التي انتشرت فوق منطقة واسعة من اللجاة. كذلك عثر المنقبون على أبنية بني جزء منها تحت مستوى سطح الأرض.

ويعتقد بريمر (Braemer 1984) أن الثلث الثالث من الألف الثالث قبل الميلاد شهد ظهور تخطيط للقرية في منطقة اللجاة يختلف عما سبقه من فترات، إذ أصبح المسكن مكونًا من عدة غرف، وجاءت المساكن متلاصقة لتكون وحدات سكنية متعددة. ويقترح بريمر أن سكانها كانوا فلاحين، بدلالة أدوات الطحن والجرش التي عثر عليها في

تلك الغرف، وأن خربة الأمباشي ضمت عددًا من القرى الفلاحية الصغيرة خلال تلك الفترة. كما كان لهذه المنطقة اتصال بمناطق أخرى في الأردن وفلسطين، دلت على ذلك الآنية الفخارية المشابهة التي وجدت فيهما، وممارسة الناس لزراعة الزيتون في تلك المناطق في الوقت ذاته.

سيطر سكان منطقة اللجاة، ومنهم سكان خربة الأمباشي، على البيئة المحيطة بهم حيث عاشوا في بيئة جافة؛ فاعتمدوا تربية المواشي في أوقات طويلة أساسًا لمعيشتهم، مع إمكانية الزراعة المحدودة شريطة استخدام الري. لذا استخدم الناس، خلال الألف الثالث قبل الميلاد، نظامًا لتجميع مياه الأمطار وتخزينها لأغراض سقي الماشية، وليس للزراعة (Braemer et al. 2004: 247-260). علمًا أن الزراعة لم تمارس إلا خلال الألف الثاني قبل الميلاد وبشكل محدود.

وإضافة للمخلفات المعمارية، كشفت التنقيبات الأثرية في منطقة اللجاة عمومًا، وفي خربة الأمباشي خصوصًا، عن عدد من اللقى الأثرية الحجرية والفخارية. وغطت هذه اللقى العصر البرونزي المبكر بمراحله الأربع، والمرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط. وحملت إحدى جرار العصر البرونزي المبكر (ربما الثالث) طبعة لختم أسطواني تذكرنا بتلك التي وجدت في خربة الزيرقون وباب الذراع في الأردن.

ويمكن القول إن موقع خربة الأمباشي في منطقة اللجاة التي تتوسط المسافة بين حوض نهر الفرات الأوسط، والأردن، وفلسطين يقدم دليلاً واضحًا على أن هذه المنطقة كانت منطقة اتصال بين بلاد الشام، وأنها أدت دورًا مهمًا في التكامل الحضاري للمنطقة، لا سيما في العصر البرونزي المبكر.

5. جبيل "بيبلوس"/ لبنان

يعد ميناء جبيل اللبناني الواقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط من أهم الموانئ التي أنشئت خلال العصور القديمة. ويبعد هذا الموقع حوالي 60كم إلى الشمال من مدينة بيروت. وجاء أقدم ذكر لمدينة جبيل في المصادر الرافدية من عهد سلالة أور الثالثة (كان ذلك في حوالي 2050 قبل الميلاد)، إذ يذكر نص من هذه الفترة اسم "عبدادي" حاكم مدينة جبيل (Ward 1963).

بدأت التنقيبات الأثرية في الموقع، ولأول مرة عام 1860، حينما قام الفرنسي إرنست رينان بحفر مربعات تجريبية في الموقع، وبرسم مخططات لجميع الآثار الظاهرة فيه. وعلى الرغم من محدودية المساحة التي جرت فيها التنقيبات، إلا أنها كشفت عن عدد من البيوت، واللقى الأثرية، والنقوش.

بعد انتهاء الحرب الأولى، وفي الفترة ما بين 1921-1924، قامت بعثة فرنسية بإشراف بيير مونته بالتنقيب في الموقع، حيث اكتشف معبد "سيدة جبيل"/"بعلة جبيل"، بالإضافة لكثير من النقوش الهيروغليفية المؤرخة لزمن المملكة المصرية القديمة (Montet 1928). وإثر انزلاق للأرض حدث عام 1922، كشف عن تابوت لأحد ملوك مدينة جبيل، وعن لقى أثرية مصرية تعود لزمن الفرعون أمنحوتب الثالث (القرن التاسع عشر قبل الميلاد). وفي عام 1926، تابع الفرنسيون أعمال التنقيب في الموقع، لكنها جرت هذه المرة بالتعاون مع الحكومة اللبنانية، وذلك بعد حصول لبنان على الاستقلال، وكانت بإشراف موريس دونان الذي تابع التنقيب في الموقع حتى السبعينات من القرن الفائت.

ودلت التنقيبات الأثرية على أن بداية الاستقرار في الموقع كانت خلال العصر الحجري الحديث (حوالي 6000 قبل الميلاد). لكن البقايا الأثرية من هذا العصر، والتي عثر عليها في الموقع، لم تزد على عدد من اللقى الأثرية، وغابت عنها البقايا المعمارية.

استمر الاستقرار في الموقع خلال الفترات اللاحقة، حيث عثر على بقايا لعدد من البيوت المؤرخة لحوالي 4500 قبل الميلاد، وعلى عدد من القبور المعاصرة لها. كما امتازت الفترة الواقعة بين حوالي 3500 و3000 قبل الميلاد ببيوت كان لبعضها تقسيمات داخلية، كما عثر على هياكل عظمية لأفراد دفنوا في جرار.

أصبحت جبيل خلال الفترة ما بين 3000-2300 قبل الميلاد أهم الموانئ والمدن الساحلية في بلاد الشام، حيث كانت الميناء الذي تصدر منه الأخشاب إلى مصر، خاصة في زمن الدولة المصرية القديمة. وكشفت التنقيبات الأثرية عن عدد من النقوش الهيروغليفية التي حملت أسماء فراعنة مصريين قاموا بإرسال رسلهم إلى ميناء جبيل لطلب شحن خشب، وزيت شجر الأرز الذي كان يستخدم في التحنيط، إلى مصر.



الشكل 55: بيوت ذات تقطيعات داخلية، من العصر البرونزي المبكر في جبيل/ لبنان

وكما ذكرنا سابقًا، كشفت التنقيبات الأثرية عن بقايا بيوت مستطيلة مبنية من الحجارة، وذات تقطيعات داخلية، تعود بتاريخها لحوالي عام 3000 قبل الميلاد (الشكل 55). كما أن معبد سيدة جبيل بني في هذا الوقت. ومن المعلوم أن الإلهة بعلات (أو بعلة) عند الكنعانيين تقابل الإلهة حاتحور عند المصريين. وقد عثر في مبنى المعبد على عدد من اللقى الأثرية المصرية التي تحمل نقوشًا هيروغليفية، والتي ربما قدمت نذورًا للآلهة. وبمرور الزمان، تطورت المدينة وأضحت في حوالي 2800 قبل الميلاد محاطة بالأسوار، ولها بوابتان، الأولى تفتح على جهة البر، والثانية على جهة البحر، الأمر الذي دفع الباحثين للاعتقاد أن المدينة بنيت حسب مخطط مسبق في تلك الفترة. وحيث أن بناء الأسوار مجاور لمياه البحر، قام الناس بتدعيم السور في جهته الشمالية الخارجية بمنحدر زلق بني من حجارة مكورة الشكل، كما دعموه من الداخل بدعامة حجرية مستطيلة (Saghieh 1983: 65). كذلك كشف عن مبنى لمعبد آخر يقابل معبد سيدة جبيل تفصل بينهما بركة. وكان هذا المعبد بني في حوالي 2600 قبل الميلاد، وجاء مخططه بشكل حرف L (Joukowsky 1997).

ومن الملاحظ أن سكان جبيل التي احتلت مساحة قدرها خمسة هكتارات خلال العصر البرونزي المبكر، بنوا أبنية عامة وخاصة، لكن لم يفصلوا بينها. ولاحظ المنقبون أن السكان الذين استقروا في الموقع بعد تلك الفترة أعادوا استخدام الأبنية القديمة بعد تأهيلها وتحديثها، وأحيانًا بنوا فوق ركامها.

ولم تقتصر اتصالات جبيل على مصر، وإن كانت واقعة تحت سيطرتها، بل امتدت إلى المناطق المحيطة. ولتأكيد هذا الأمر، ذكر المنقبون أنهم عثروا في معبد سيدة جبيل على ختم أسطواني من بلاد الرافدين ويعود لزمن الأسرات الأولى فيها. كما عثر على رقم طيني كتب عليه ensi، أي "حاكم جبيل"، وهذا المصطلح كان مستخدمًا في بلاد الرافدين، ووجوده هنا يشير إلى الصلات بينهما. كذلك عثر في مباني المعابد والمجمع الإداري على عدد من الآنية المرمرية والفخارية تشابه في شكلها وصناعتها تلك التي في مصر وبلاد الشام الأخرى.

وبعد تدمير الموقع في حوالي 2300 قبل الميلاد، أعيد بناؤه حيث بنى الناس بيوتهم فوق أنقاض الموقع القديم، فاستفادوا من المباني الضخمة، لا سيما التحصينات والمعابد وأعادوا استخدامها. وإضافة لهذا، قاموا ببناء مبانٍ جديدة، مثل "معبد المسلة" في مركز

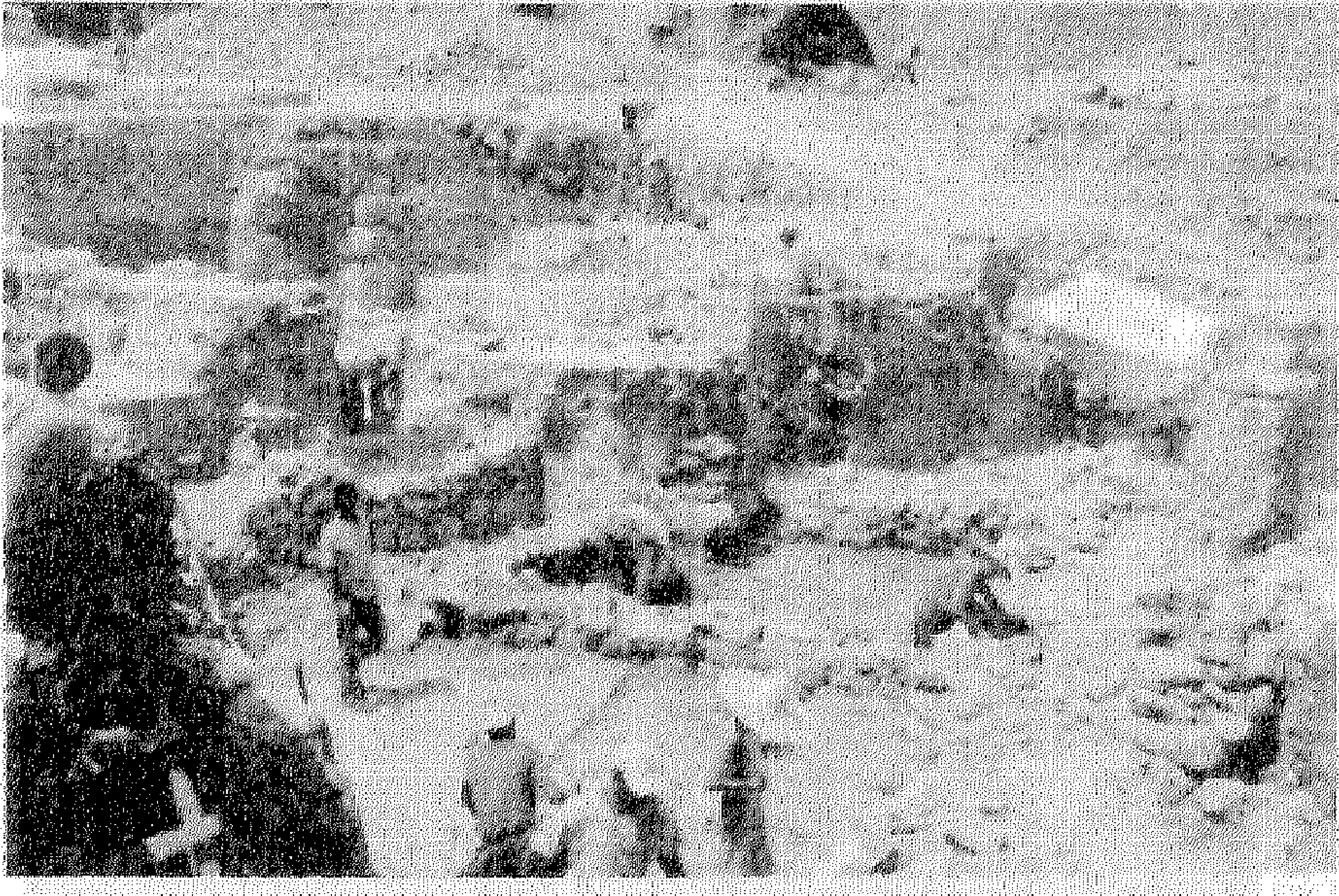


الشكل 56: معبد المسلة في جبيل/ لبنان

المدينة (الشكل 56)، والذي تطلب إنشاؤه إزالة عدد من مباني الفترات السابقة. ويقول بعض الدارسين إن مدينة جبيل دمرت نتيجة لغزوات الأموريين خلال نهاية الألف الثالث قبل الميلاد (Joukowsky 1997)، لكنها لم تهجر تمامًا، وأعاد الناس سكناها في مطلع العصر البرونزي المتوسط.

6. صيدا/ لبنان

تقع مدينة صيدا على بعد حوالي 20كم إلى الجنوب من بيروت، وهي تعد من أهم المواقع الكنعانية والفنيقية في بلاد الشام. وقد ورد ذكر اسم هذه المدينة في المصادر المصرية، والرافدية، واليونانية. وقبل إجراء التنقيبات التي قامت بها البعثة البريطانية اللبنانية المشتركة عام 1998 (Doumet-Serhal 2006a)، اشتهرت مدينة صيدا بالتوابيت التي عثر عليها في مقبرتها، والتي تخص عددًا من ملوكها، مثل تبنيت (نهاية القرن السادس قبل الميلاد)، وإشمون-عازر (القرن الخامس قبل الميلاد) (Contenau 1920; 1923; 1924a; 1924b; Jidèjian 1971). كما عثر على معبد الإله إشمون-عازر في موقع بستان الشيخ الذي يبعد حوالي ثلاثة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من صيدا (Dunand 1965; Stucky 1998).



الشكل 57: جانب من التنقيبات الحديثة في صيدا (عن Doumet-Serhal 2010)

ما يهمنا في هذا الفصل، هو التعرف على بقايا العصر البرونزي المبكر التي كشف عنها في أثناء التنقيبات التي جرت في مواسم 1998، 2000 و2001، والتي نشرتها كلود ضومت-سرحال C. Doumet-Serhal وآخرون (الشكل 57)، فقد استطاع المنقبون في صيدا التعرف إلى عدة مراحل من العصر البرونزي المبكر استنادًا إلى دراسة الفخار الذي اكتشف في الموقع خلال التنقيبات الأخيرة (Doumet-Serhal 2006a: 69)، وهي:

- الحجري النحاسي/ العصر البرونزي المبكر الأول والثاني.
- العصر البرونزي المبكر الثاني (أ) و(ب).
- العصر البرونزي المبكر الثاني – الثالث.
- العصر البرونزي المبكر الثالث (أ) و(ب).

ومن أهم ما عثر عليه في صيدا، إضافة للفخار، والأدوات الصوانية، والعظام الحيوانية والبقايا العمائرية، طبعتان لختمين أسطوانيين طبعا على بدن جرار من الخارج، ويؤرخان للعصر البرونزي المبكر الثاني والثالث. ويحمل الختم الأول زخارف هندسية تمثل أشكالاً حلزونية متتالية، أما الختم الثاني؛ فيمثل أشكالاً آدمية وحيوانية محوَّرة (Doumet-Serhal 2006a: 259 - 270). وكما سنرى؛ فقد عثر على طبعات أختام مشابهة في مواقع في فلسطين، والأردن من أهمها خربة الزيرقون.

أما فيما يتعلق بالبقايا العمائرية؛ فكشفت التنقيبات عن جدران مبنية من الحجارة (Doumet-Serhal 2000: 82, Figs. 9-11)، وعن مبانٍ تكونت من عدد من الغرف، ومستودع للخزين عثر فيه على كمية كبيرة من الشعير المتفحم بلغ وزنها حوالي 160كغم (Doumet-Serhal 2006: 131-140).

7. خربة الزيرقون / الأردن

تقع خربة الزيرقون على بعد 13كم إلى الشمال الشرقي من إربد بشمالي الأردن. جرى اكتشاف الموقع في أثناء المسوحات الأثرية لشمالي الأردن، والتي قام بها الألماني سيغفريد متمان (Mittmann 1970) في بداية الستينات من القرن الماضي. وكانت بعثة أردنية ألمانية بدأت التنقيب في الموقع عام 1984 بإشراف معاوية إبراهيم من جامعة اليرموك، وسيغفريد متمان من جامعة تيوبنجن. وعثرت البعثة خلال المواسم السبعة التي نقبت فيها على مخلفات أثرية يعود أقدمها للعصر البرونزي المبكر، إضافة لكسر فخارية من العصرين الروماني والبيزنطي.

ويبدو أن الناس جاؤوا إلى الموقع خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، وبدأت الملامح الأولى للمدينة تتشكل خلال العصر البرونزي المبكر الثاني، إلا أنها وصلت إلى قمة ازدهارها خلال العصر البرونزي المبكر الثالث. ويبدو أن الموقع تراجع خلال العصر البرونزي المبكر الرابع كغيره من كثير من مواقع جنوبي بلاد الشام، إلا أنه لم يهجر تمامًا، فقد عثر على بقايا أثرية قليلة وبسيطة تؤرخ لهذه المرحلة. بعد هذا، مرت بالموقع خلال العصرين الروماني والبيزنطي الطرق التجارية الواصلة بين مناطق سهل حوران ومدينة أم قيس في مرتفعات الأردن الشمالية.

يشرف الموقع في جهته الشرقية على وادي الشلالة، وهو شديد الانحدار في هذه المنطقة (الشكل 58). أما المناطق الأخرى؛ فقد جاءت الشمالية أعلى في مستواها الطبيعي عن الجنوبية، لذا قسمها المنقبون إلى قسمين: العليا وتحتل الجزء الشمالي، وخصصت للأغراض العامة، حيث مباني الإدارة والمعبد ومساكن الطبقة العليا من الناس، والسفلى وتحتل الجزء الجنوبي، وكشف فيها عن عدد من البيوت السكنية. وجاءت المساكن، بما في ذلك التحصينات، مبنية مباشرة فوق الصخر الطبيعي، حيث عثر على مخلفات أثرية تعود إلى العصر البرونزي المبكر الأول. وقد قام فريق العمل بالتنقيب

في كلتا المنطقتين، وكشف عن بقايا عمائرية ضخمة تختلف في طبيعتها ووظيفتها، وعن نظام للمياه، إضافة لعدد كبير من المخلفات الأثرية التي تشير إلى أهمية الموقع وعلاقاته الداخلية والخارجية. وتاليًا دراسة لأهم المكتشفات في خربة الزيرقون.



الشكل 58: صورة جوية لخربة الزيرقون/ الأردن (عن Kennedy and Bewlery 2004)

أ. نظام التحصينات

جاء موقع خربة الزيرقون محاطًا بالأسوار من جهاته الثلاث: الشمالية والغربية والجنوبية، وبنيت هذه من الحجارة الغفل الكبيرة والمتوسطة الحجم. وتخللت السور المحيط بالمدينة، في بعض أجزائه، ممرات عرض الواحد منها مترًا على وجه التقريب. ويبدو أن الهدف من ذلك هو إحداث مداخل في الجدار لتسهيل الخروج أو الدخول إلى وسط المدينة دون الحاجة للالتفاف والسير مسافات طويلة للوصول إلى البوابتين الرئيستين الشمالية والجنوبية. وقد بلغ العرض الأساسي للسور أربعة أمتار، وأضيفت إليه من الخارج، وعلى مراحل، صفوف من الحجارة على شكل جدران رصت خلف

بعضها بعضًا ليصل عرض السور في هذه المناطق إلى سبعة أمتار (Ibrahim and Mittmann 1994).

وإضافة للسور، كانت هناك بوابتان رئيستان، الأولى في المدينة العليا، والثانية في السفلى. وربما تكون البوابة التي بنيت في الجهة العليا هي البوابة الرئيسة للمدينة حيث تؤدي إلى المنطقة التي تضم المباني العامة مثل المعبد والمبنى الإداري (هودلية 1992). وللدخول من هذه البوابة إلى وسط المدينة؛ على الشخص السير أولاً في ممر منحنٍ في جهتيه اليمنى واليسرى، عرضه 2م، وطوله 15م، وبعد أن يتجاوزها يجد نفسه في منطقة فسيحة تفصل بين برجين وغرفتين. وأوضحت التنقيبات أن البوابة العليا بنيت على ثلاث مراحل، بني في كل مرحلة منها باب بين البرجين الرئيسين.

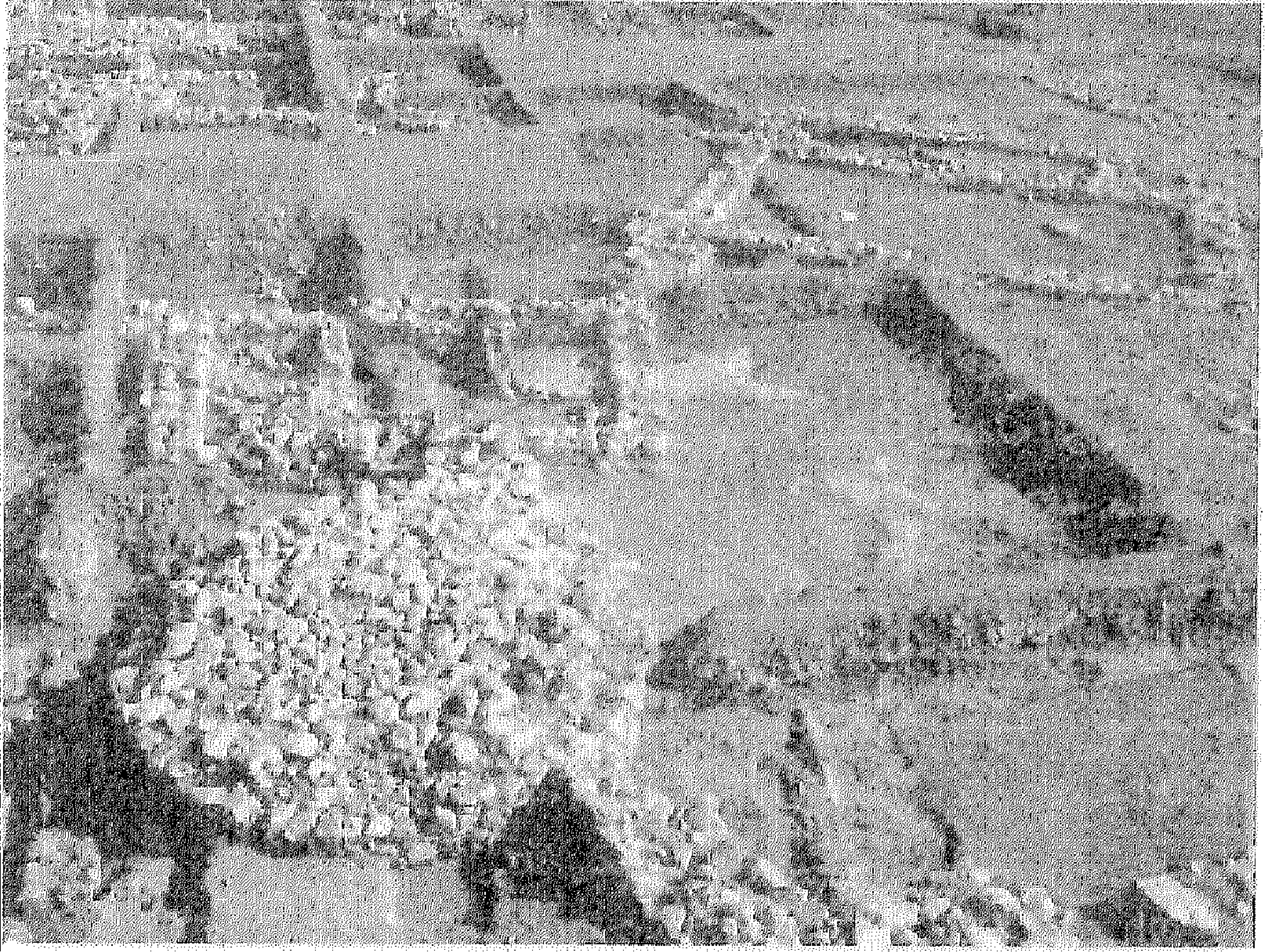
أما البوابة الجنوبية؛ فتؤدي إلى الحي السكني في المدينة، وتتألف من برج على كل جهة من المدخل، إضافة لبعض الغرف الجانبية. وقد أثبتت التنقيبات أن هذه البوابة بنيت فوق الصخر الطبيعي، وعلى عدة مراحل، خلال العصر البرونزي المبكر (Douglas 1999).

ب. المعبد

عثر في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من بوابة المدينة العليا (الشمالية) على مجمع بنائي ضم عدة غرف، ومذبحاً، وساحة مكشوفة، أكد المنقبون أنه كان معبدًا (الشكل 59). وتشرف المنطقة التي بني فيها هذا المجمع الديني على المنطقة المحيطة بها، وتتصل بها عن طريق شوارع، أو أزقة أحيانًا.

بلغ قطر مذبح المعبد حوالي 6.5م، وارتفاعه متر عن مستوى المنطقة المحيطة، وبني من الحجارة الطباشيرية الخفيفة، وأضيفت إلى واجهته طبقة من القصارة. ويصعد إلى سطح المذبح بأربع درجات. ويرتبط ببناء المعبد عدد من الغرف التي تتجه باتجاه شرق- غرب، عدا الغرفة الواسعة (Ibrahim 1999)، إذ ألحقت بالمبنى، إضافة للحجرة المقدسة، غرف أخرى ربما استخدمت مخازن. ومن الملاحظ أن هذا المعبد يتشابه في مخططه مع عدد من المعابد الأخرى المعاصرة له، مثل باب الذراع في الأردن، وتل المتسلم في فلسطين.

مارس سكان خربة الزيرقون الفنون، حيث عثر على عدد من الدمى الصلصالية (الشكل 60)، والمنحوتات البازلتية الأخرى، ويُعتقد أن بعضها ذو صفة عقائدية.



الشكل 59: المعبد والمذبح في خربة الزيرقون/ الأردن



الشكل 60: مذبح من الصلصال عثر عليه في خربة الزيرقون/الأردن

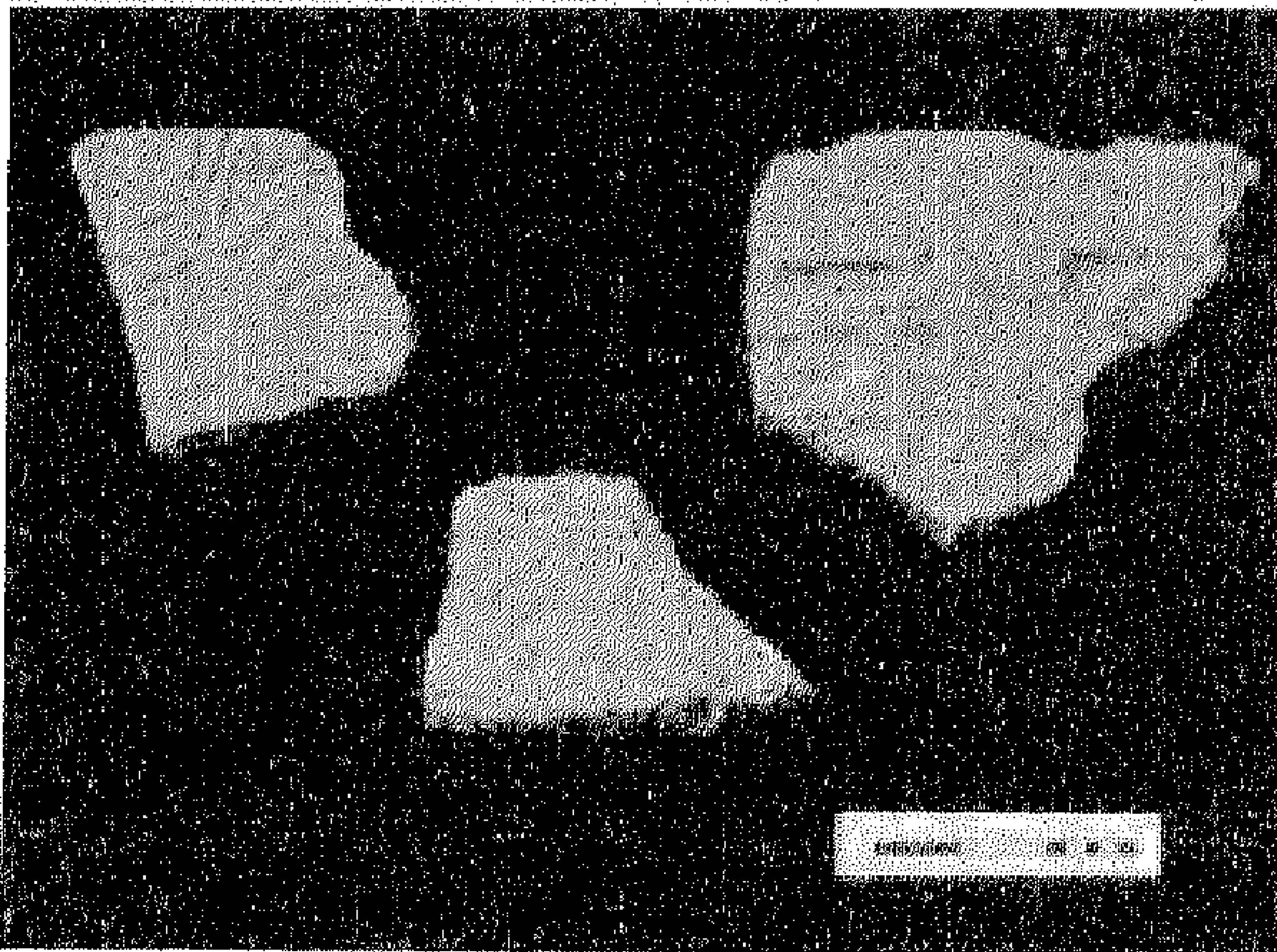
ت. المبنى الإداري

أظهرت التنقيبات الأثرية في خربة الزيرقون بقايا معمارية مدنية ودينية، جاءت كلها مبنية من الحجارة، وجاءت الوحدات السكنية والعامة مفصولة عن بعضها بشوارع وأزقة فرعية. وقد كشفت التنقيبات في الجهة الشمالية للشارع الرئيسي، والذي يقطع المدينة العليا باتجاه شرق-غرب، عن مبنى ضم عددًا من الغرف الصغيرة، ربما استخدم لأمور إدارية، أو مكان إقامة الطبقة الحاكمة في المدينة، ويفصله عن المعبد زقاق ضيق.

ث. نظام المياه

يبدو أن الناس في خربة الزيرقون خلال العصر البرونزي المبكر لم يكتفوا بمياه عين الشلالة في الوادي الذي يحيط بالموقع من جهته الشرقية، بل حفروا ثلاثة أنفاق بعمق حوالي مائة متر، تصل بين المدينة ومصدر المياه الجوفية. وربما يكون هذا الإجراء احترازيًا لتزويد المدينة بالمياه في حال تعرضها لحصار أو هجوم ما.

وتجدر الإشارة إلى أن المنقبين في خربة الزيرقون عثروا على عدد من الآنية الفخارية التي تشير إلى علاقات المدينة الخارجية (Genz 2000)، وعلى طبعات أختام فاق عددها المئتين (الشكل 61). وبرأينا أن الآنية الفخارية من طرازي أبيدوس وخربة الكرك تشير إلى العلاقات بمصر وبفلسطين على التوالي. أما طبعات الأختام؛ فتظهر علاقة الزيرقون ببلاد الرافدين.



الشكل 61: طبعات أختام من خربة الزيرقون (بإذن من معاوية إبراهيم وسيغفريد متمان)

8. خربة البتراوي / الأردن

تقع خربة البتراوي في الجهة الشمالية الغربية لمدينة الزرقاء في الأردن. يتمركز الموقع فوق تلة صخرية ترتفع حوالي 660م عن مستوى سطح البحر، وتشرف على مجرى نهر الزرقاء من جهته الجنوبية الشرقية. اكتشف الموقع على يد خالد دوغلاس من الجامعة الهاشمية بالأردن، وتقوم بعثة مشتركة من جامعة روما لاسبينزا والجامعة الهاشمية ودائرة الآثار الأردنية بالتنقيب في الموقع (Nigro 2006a). ويحتل الموقع الأثري مساحة قدرها أربعون دونماً (أربعة هكتارات)، ويشبه في شكله شكل السرج، وهو محاط بسور ذي بوابات، وتشرف جهتاه الغربية والجنوبية على منحدر سحيق شكّل حماية طبيعية للموقع.

تتألف المنطقة العليا في خربة البتراوي من خمس مصاطب متراكمة فوق بعضها (الشكل 62)، تنحدر من الغرب باتجاه الشرق. وجاءت هذه المنطقة التي أطلق عليها المنقبون "الأكروبول" (المصطبة 1) معرضة للرياح الغربية الشديدة، لذا فهي لا تصلح لبناء مساكن الناس فوقها، بينما جاءت ملائمة لإنشاء المباني العامة لمراقبة ما يجري في داخل المدينة وما حولها. ويبدو أن الناس قاموا حديثاً بتجميع الحجارة المتناثرة فوق هذه المصطبة، وجعلوها في كومتين. وتحتل الجهة الشمالية من الأكروبول منطقة منبسطة محاطة بسور دائري قطره 15م. كما لاحظت البعثة الأثرية وجود درجات في الجهتين الشمالية والجنوبية من الأكروبول، وسياج حجري (Fence C) مربع الشكل، بلغت أبعاده حوالي 42م باتجاه شمال -جنوب، و30م باتجاه شرق -غرب (Nigro 2006b).

أما المصطبة الثانية، والتي أخذت شكلاً هلاليًا؛ فتغطي المنطقة المحيطة بالأكروبول وأعلى المصطبة الأولى في جهاتها الشمالية والشرقية والجنوبية. وقد بني في طرفها الشمالي سياج حجري (Fence D). ويحيط بهذه المصطبة جدار هلالي في منطقة ترتفع حوالي 660م عن مستوى سطح البحر، يتصل به شارع عُدَّ علامة على بدء المصطبة الثالثة.

وتتكون المصطبة الثالثة من شريط عرضه حوالي 20م، وتنحدر بالاتجاه الجنوبي، وبني على طرفها الشمالي-الشرقي سياج حجري (Fence B). قبل البدء بالتنقيب، لاحظ المنقبون في هذه المنطقة عددًا من الجدران التي شكلت، برأيهم، أساسات لمباني العصر البرونزي المبكر الثالث (Nigro 2006b: 21).



الشكل 62: صورة جوية لخربة البتراوي (من Lorenzo Nigro)

المصطبة الرابعة مستوية السطح، وترتفع عن مستوى سطح البحر ما بين 656 إلى 654.5م، ويبلغ عرضها حوالي 30م باتجاه شرق -غرب، تتناقص إلى 20م في جنوبها. وفي هذه المنطقة بنيت إحدى بوابات المدينة.

وتشكل المصطبة الخامسة في شرقي الموقع أخفض منطقة فيه، وهي مثلثة الشكل وتظهر فيها أساسات لبناء ضخم. كما توجد في أقصى طرفها الشرقي كومة من الحجارة تشبه في طريقة بنائها الكومتين الأخريين فوق الأكروبول.

تسلسل الطبقات والمراحل الزمنية في خربة البتراوي

أكد المنقبون أن بداية الاستقرار في خربة البتراوي كانت في العصر البرونزي المبكر الأول، واستمر دون انقطاع في العصر البرونزي المبكر الثاني والثالث والرابع، وحتى



الشكل 63: آنية فخارية وأدوات معدنية عثر عليها في إحدى غرف القصر (من Lorenzo Nigro)

بداية العصر البرونزي المتوسط. وهجر الموقع بعد ذلك نهائيًا. وجاءت الشواهد على أقدم البقايا من الجهة الشمالية الغربية، حيث عثر في كهف محفور في الصخر الطبيعي على كسر فخارية ساعدت في تأريخ الموقع (الشكل 63).

ويبدو أن الموقع بدأ قرية صغيرة خلال العصر البرونزي المبكر الأول، ثم تحول إلى مدينة مسورة خلال المرحلة الثانية من العصر البرونزي المبكر، لكنها دمرت خلال المرحلة الثالثة (ب) من العصر ذاته. غير أن الموقع بقي مسكونًا حتى حوالي 2000 قبل الميلاد، أي أنه لم يهجر خلال المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر. وقد جرى التعرف إلى ست مراحل زمنية عايشها موقع خربة البتراوي، جاءت موزعة على النحو الآتي (جدول 7):

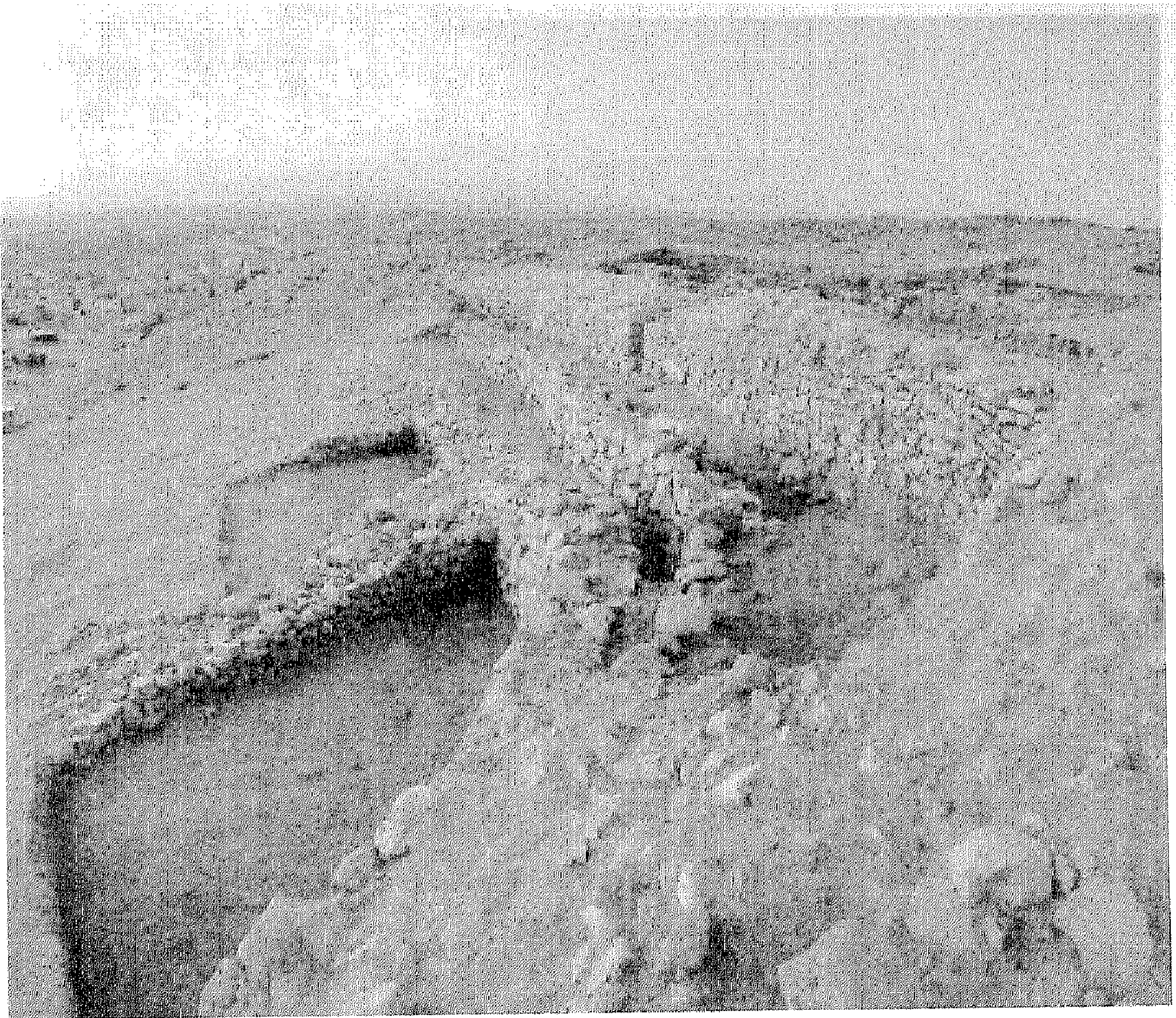
الفترة الزمنية	التاريخ التقريبي	مرحلة الاستقرار
العصور الحديثة	1900 – 2005 للميلاد	البتراوي VI
ما بعد العصر البرونزي المبكر	2000 قبل الميلاد – 1950 للميلاد	البتراوي V
العصر البرونزي المبكر الرابع (ب)	2200 – 2000 قبل الميلاد	البتراوي IVb
العصر البرونزي المبكر الرابع (أ)	2300 – 2200 قبل الميلاد	البتراوي IVa
العصر البرونزي المبكر الثالث (ب)	2500 – 2300 قبل الميلاد	البتراوي IIIb
العصر البرونزي المبكر الثالث (أ)	2700 – 2500 قبل الميلاد	البتراوي IIIa
العصر البرونزي المبكر الثاني	3000 – 2700 قبل الميلاد	البتراوي II
العصر البرونزي المبكر الأول	3400 – 3000 قبل الميلاد	البتراوي I

جدول 7: الجدول الزمني لخربة البتراوي (عن Nigro 2007)

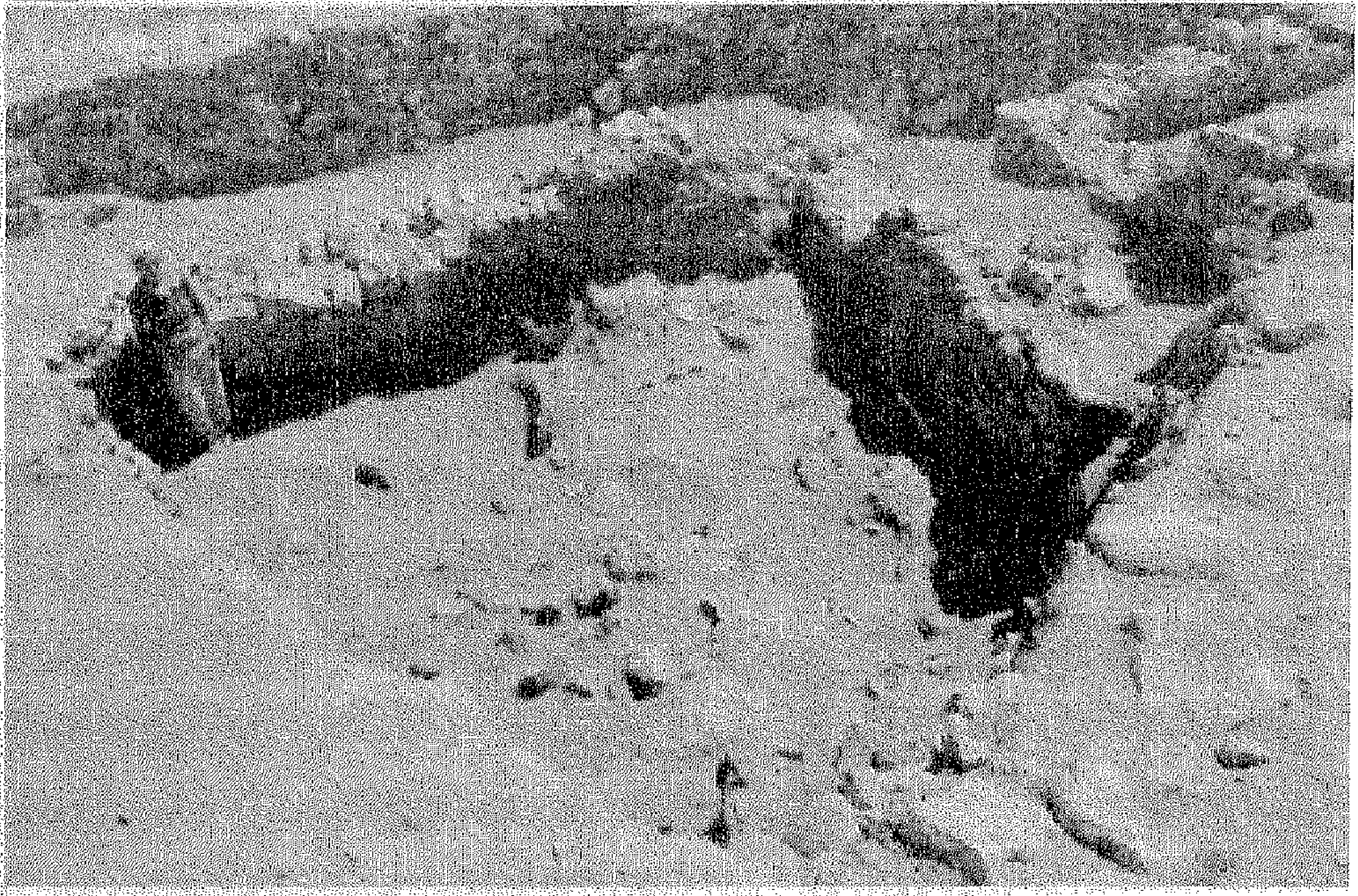
نظام التحصينات

كشفت التنقيبات والمسوحات الأثرية عن أن الموقع كان محاطًا بسور يتراوح عرضه بين 2.9 و3.6م. وللسور بوابات وأبراج ودعامات حجرية، طرأت عليها تعديلات وإضافات متعددة خلال الفترة الممتدة بين حوالي 3000 وحتى 2300 قبل الميلاد (Nigro 2007: 349-352; 2008: 65-106; Douglas and Nigro 2008: 241-268). وبنيت جميع التحصينات من الحجارة فوق الصخر الطبيعي بحسب المعطيات الطبيعية للمناطق التي بنيت فوقها (الشكل 64). وحيث أن الموقع ذو شكل ثلاثي، فقد تركزت المناطق الأكثر تحصينًا في زوايا السور لأنها تشكل مناطق دفاعية ضعيفة، وفي المنطقة الشمالية التي يسهل

الوصول إليها، حيث بني في الزاوية الشمالية الغربية برج مربع الشكل، مدعم بدعامتين حجريتين في مقدمته. ويعتقد المنقبون أن البوابة الرئيسة للموقع بنيت في منتصف الجدار الشمالي لسور المدينة الذي يأخذ شكلاً منحنيًا عند أقصى الزاوية الشرقية مشكلاً ما يشبه البرج. ويستطيع الناظر إلى السور أن يرى في منطقة تبعد حوالي 45م إلى الغرب من الزاوية الشرقية منطقة منخفضة، وربما يشير هذا إلى أن ثمة بوابة أخرى فتحت في السور. كما لوحظ في الزاوية الجنوبية الغربية من السور برج آخر (12 x 8م)، يشرف على المنطقة الواقعة حول مجرى نهر الزرقاء (Nigro 2007: 356). ويظهر أن المنطقة الغربية للموقع هي الأكثر أمانًا، بسبب ميلان الصخر الطبيعي فيها وانحداره، ووجود مصطبتين طبيعيتين بنيت عليهما أبراج مراقبة دفاعية (Nigro 2006b: 25-37).



الشكل 64: أسوار خربة البتراوي (من Lorenzo Nigro)



الشكل 65: غرفة مليئة باللقى الأثرية المؤرخة للعصر البرونزي المبكر الثالث في خربة البتراوي

البيوت/ المساكن

عثر في خربة البتراوي على مبانٍ استخدم بعضها بيوتًا للسكنى. ونجد من البيوت المؤرخة للمرحلة الثالثة (ب) (حوالي 2500-2300 قبل الميلاد) من العصر البرونزي المبكر الثالث، البيت المسمى B1، والذي بني في منطقة تقع إلى الداخل من بوابة المدينة الرئيسة (الشكل 65). ويبدو أن هذا البيت القائم الزوايا كان ذا أكثر من طابق، حيث عثر على درج يقود إلى طابق علوي. كما عثر في المنطقة الملاصقة خارج جدار المبنى الشرقي على فرن ذي سقف مقبب وأرضية من الحجارة البازلتية (Nigro 2008: 141-145; 2007: 353). وعثر في الجهة الغربية من الموقع على بقايا لجدران، وأرضيات مبنية من الحجارة الجيرية المكسرة والمطحونة، وجدت عليها جرار كبيرة مزخرفة بزخارف على شكل الحبل أضيفت إلى سطحها الخارجي، وتعود جميعها للمرحلة الثالثة من العصر البرونزي المبكر (Nigro 2008: 20-27).

المعبد

عثرت البعثة الأثرية العاملة في خربة البتراوي (المنطقة F) على بقايا لمبنى كبير يحتل مساحة قدرها 400م^2 (Nigro 2008: 276-293). ونسب المنقبون هذا المعبد إلى النوع

المعروف بـ"معبد الغرفة العريضة" Broad-room Temple، وأرجعوا بداية إنشائه إلى المرحلة الثانية من العصر البرونزي المبكر، واستمر استخدامه خلال المرحلة الثالثة. ويتكون مخطط المبنى من بناء قائم الزوايا مكون من غرفة عريضة تتقدمها ساحة، بنيت جميعها من الحجارة الغفل. وبلغ سمك الجدار الجنوبي حوالي مترًا، وبنيت زوايا المبنى، أي أماكن التقاء الجدران ببعضها، فوق الصخر الطبيعي مباشرة، بينما بني الجزء الداخلي من المبنى فوق منطقة من الحجارة الصغيرة والتراب المرصوص أو المدكوك. وللمبنى باب عرضه 1.40م، ويقدر ارتفاعه بمترين، بني في الجدار العريض للمبنى، وله درجة تقود إلى الداخل. وبالإضافة للغرفة الرئيسة، وجد في المعبد مذبح دائري الشكل.

اقترح المنقب (Nigro 2008: 290) أن بناء المعبد كان خلال المرحلة الثالثة (F2) مبنيًا باللبن الطيني، وأن جدرانه الداخلية كانت مكسوة بطبقة من القصارة، بينما كسيت من الخارج بطبقة من الطين. ويعتقد أن ارتفاع المبنى بلغ أربعة أمتار تقريبًا، وأن السقف كان من جذوع الخشب.

التحول والتغير: من التمدن إلى الفلاحة والبداوة

العصر البرونزي المبكر الرابع (حوالي 2300-2000 قبل الميلاد)

نوقشت سابقاً مسألة انتقال المجتمعات الريفية خلال العصر البرونزي المبكر الأول إلى الحالة المتمدنة خلال العصر البرونزي المبكر الثاني والثالث، أي الانتقال من مجتمع القرية إلى مجتمع المدينة، والذي يعني من الناحية السياسية الانتقال من حكم عشوائي غير منظم إلى حكم مركزي مؤسسي. وشهدنا مدى تأثير الأحداث في كل من بلاد الرافدين ومصر على ما جرى في بلاد الشام خلال العصر البرونزي المبكر. وبقي الأمر على حاله حتى حوالي 2300 قبل الميلاد، حين أضحت مراكز التمدن في معظم مناطق بلاد الشام تحت مطرقة التحول والتغير، وذلك بالعودة إلى الفلاحة والرعي مرة أخرى كما كان الحال في العصر البرونزي المبكر الأول. وعزا العلماء ذلك لأسباب عديدة نوقشت في دراسات سابقة خصصت لآثار الأردن في العصور العصور البرونزية والحديدية (كفافي 2006)، إلا أننا نقدمها أدناه في سياق البحث في آثار بلاد الشام عموماً.

أطلق العلماء على مرحلة العصر البرونزي المبكر الرابع عدة تسميات، فمنهم من عدّها مرحلة انتقالية بين مرحلتين عاش الناس فيهما في مدن العصر البرونزي المبكر الثاني/ الثالث والعصر البرونزي المتوسط. بينما عدّها آخرون مرحلة مظلمة في حياة سكان بلاد الشام استمرت من حوالي 2300 إلى 2000 قبل الميلاد.

نشأت المدن في بلاد الشام نتيجة لعدد من العوامل الداخلية والخارجية التي تفاعلت مع بعضها بعضًا مما أدى لظهور بناء سياسي في أوساط المجتمعات القروية، نتج عنه نشوء المدينة. ومن أهم تلك العوامل، التجارة مع البلدان المجاورة، وهذا الأمر يتطلب، بطبيعة الحال، وجود علاقات منظمة تقوم عليها مؤسسات ذات سلطة تنفيذية. ولتسهيل التجارة الخارجية، لا بد من وجود شبكة من الطرق التجارية التي تبنى عليها مراكز تجارية وهذا بدوره يؤدي إلى انتعاش اقتصادي وتطور فكري وثقافي في مختلف المواقع ذات العلاقة. وهذا الشكل من العلاقة التبادلية القائم على متغيرات متعددة أدى إلى ظهور أنظمة وقوانين شاملة، وعلاقات خارجية وداخلية متميزة، استمدت استمراريتها من قوة مضمونها. علمًا أن حصول بعض التعديلات والتغييرات على تلك القوانين وارد، خاصة عند ظهور حالات طارئة، لكن جوهرها لا يتغير تحت أي ظرف من الظروف.

ومن البديهي أن أمر وضع قوانين وأنظمة خلال المراحل الأولى في أي عملية بناء تكون غير واردة. وخير دليل على هذا، أن الصلات التجارية بين الناس خلال مراحل الحياة الأولى، اعتمدت على المقايضة دون التفكير في تأطير العمل ضمن أنظمة وقوانين معينة. على أية حال، ساد المراحل الأولى من العصر البرونزي المبكر في بلاد الشرق الأدنى القديم عامة ثبات في الأحوال السياسية والتجارية. ومع قرب انتصاف النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد شهدت المنطقة متغيرين أساسيين هما :

- حصول تغيرات في علاقات مصر مع الخارج، خاصة مع جنوبي بلاد الشام، إذ شهدت نهاية حكم الأسرة السادسة (حوالي 2360-2160 قبل الميلاد)، وخلال حكم الأسرتين السابعة والثامنة (حوالي 2160- 2134 قبل الميلاد)، اضطرابات وعدم استقرار داخلي في مصر. وأثر هذا الأمر، بطبيعة الحال، في طبيعة علاقات مصر مع المحيط الخارجي. فمثلاً، انخفض حجم الاستيراد، خاصة من لبنان، واختفى ذكر الرحلات التجارية المصرية إلى مدينة جبيل الساحلية في المصادر المصرية المكتوبة. كما أن اللامركزية في الحكم في مصر خلال هذه الفترة أدت الى ضعف العلاقات السياسية والعسكرية المصرية الخارجية أيضًا.

- بالنسبة لبلاد الرافدين، اختلف الوضع فيها عما كان يجري في مصر. إذ نعلم أن الفترة التي سبقت ظهور الدولة الأكادية تميزت بوجود المدن السومرية، والتي كانت كل مدينة فيها تشكل، بحد ذاتها، دولة. لذا فإن دويلات المدن لم يكن يحكمها حاكم أو حكم مركزي، بل لم يتعدَّ الأمر دويلات صغيرة ذات طابع محلي وعلاقات خارجية محدودة. لكن الأمر اختلف تمامًا عند قيام الدولة الأكادية في حوالي 2340 قبل الميلاد، حيث ظهرت قوة مركزية واحدة ذات نظام اقتصادي وسياسي موحد ساد وسط بلاد الرافدين وجنوبيها.

ومن هنا نرى، أنه في الوقت الذي كانت تسود الفوضى في مصر، كانت بلاد الرافدين تنعم بالتفوق والاستقرار والنفوذ العسكري في المنطقة، وحافظت بهذا على طابع الحكم المركزي. كما أنها سيطرت على مناطق خارج حدودها، ومنها المنطقة الشمالية لسورية، والتي تضم الجزيرة السورية وحوض الفرات الأوسط. ومن المعلوم أن الحملات العسكرية الأكادية وصلت إلى مناطق في كليكيا في جنوبي الأناضول.

والسؤال هنا، كيف أثرت الدولة الأكادية في مسيرة الأحداث التي جرت خاصة بشمالي بلاد الشام خلال الجزء الأخير من النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد؟

وللإجابة عن هذا السؤال، كان لا بد لنا من العودة لنتائج التنقيبات الأثرية وتدعيمها بالنصوص المكتوبة المؤرخة لهذه الفترة، والتي عثر عليها في مواقع بلاد الشام، وفي أكاد نفسها. دلت التنقيبات الأثرية التي جرت في تل مرديخ على أن الموقع، وفي حوالي 2250 قبل الميلاد، دمر جزئيًا في حريق شب في منطقة القصر، ولم يستطع المنقبون معرفة سبب ذلك الحريق، لكنهم اقترحوا عدة أسباب كأن يكون وراءه فاعل، إما من داخل القصر، أو من خارجه، أو عن طريق هجوم خارجي.

أما فيما يتعلق بتل الحريري؛ فمن المعروف أن المدينة دمرت مع نهاية حكم الأسرات الأولى في بلاد الرافدين، لكنها لم تختف تمامًا عن مسرح الأحداث في بلاد الشرق الأدنى القديم. حيث وقعت بعد ذلك تحت حكم الأكاديين. ودليلنا على هذا أن النصوص المكتشفة تذكر أن الملك الأكادي نرام-سن (حوالي 2260-2223 قبل الميلاد) عين اثنتين من بناته كاهنتين في تل الحريري. وخلال حكم أسرة أور الثالثة في بلاد الرافدين، ظلت مدينة تل الحريري تحت حكم هذه الأسرة التي خلفت الأكاديين، إذ عين ملك أور حاكمًا من بلاده عليها، وهذا أدارها حسب القوانين السياسية والاقتصادية التي كان معمولاً بها في جنوبي بلاد الرافدين.

كذلك وقعت مدينة تل ليلان تحت الحكم الأكادي في الفترة بين حوالي 2300 و2200 قبل الميلاد. لكن بعد سقوط الدولة الأكادية، بقي الموقع مهجورًا لبضع مئات من السنين (من حوالي 2200 إلى 1900 قبل الميلاد).

وإذا ما درسنا المكتشفات الأثرية من تل خويرة، نجد أنه كان مزدهرًا جدًا خلال العصر البرونزي المبكر الثاني والثالث، أي خلال عهد الأسرات الأولى في بلاد الرافدين. وكما نوهنا أعلاه؛ فإن تل خويرة تحول إلى مدينة مركزية في منطقة أعالي الخابور خلال هذه الفترة. كما لاحظ المنقبون أن السكان هجروها سلميًا في الفترة الواقعة بين عهد الأسرات الأولى وتأسيس الدولة الأكادية. لكنهم عادوا إليها وسكنوها خلال منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

ويعد تل براك من أكبر وأهم المراكز الحضارية التي ظهرت في منطقة الجزيرة السورية خلال حكم الأسرات الأولى في بلاد الرافدين. علمًا أن الموقع تعرض للدمار أكثر من مرة خلال هذه الفترة وزمن حكم الدولة الأكادية، وعلى الرغم من هذا بقي مأهولاً بالسكان.

وكما كان حال تل ليلان وتل الحريري، خضع تل براك للحكم الأكادي، حيث كشفت التنقيبات فيه عن قصر للملك الأكادي نرام- سن، ومنه كانت تسيَّر أمور المدينة السياسية والاقتصادية. وكما ذكرنا آنفًا، فإن مبنى هذا القصر كان مكان إقامة لكبار الموظفين، وعلية القوم، وعموم الذين كانوا يقومون على تصريف الأمور. وبعد سقوط الدولة الأكادية، انتهى أمر هذا الموقع.

من هنا نرى، أن موقع الجزيرة السورية خاصة قد ازدهر بشكل كبير خلال الحكم الأكادي على بلاد الرافدين. لكن الغريب في الأمر، أن أهمية هذه المراكز الحضارية تنتهي بانتهاء الحكم الأكادي، وكأنها كانت ترتبط معها ليس اقتصاديًا وحسب، وإنما سياسيًا وعسكريًا كذلك. ففي الوقت الذي حدث فيه هذا التغير السياسي في بلاد الرافدين، تعرض عدد من المدن السورية للتدمير بالقوة، مما أدى إلى فقدان بعض هذه المدن لطابعها المدني، وإلى تحولها إلى بلدات وقرى صغيرة، بينما حافظت الأخرى على كينونتها كمدينة، لكنها لم تعد مركزية كما كانت سابقًا، لذا لم تعد تلعب دورًا رئيسًا ومهمًا في الحياة الاقتصادية والسياسية في المنطقة.

وننتقل الآن بالحديث إلى منطقة أخرى في بلاد الشام، وهي ساحل البحر المتوسط، ونأخذ مثالاً من مدينة جبيل في لبنان، إذ ارتبطت هذه المدينة بمصر تجاريًا، وربما خضعت سياسيًا لحكم الفراعنة. وقد عثر في جبيل على عدد من التماثيل الفرعونية والكتابات الهيروغليفية التي تؤكد ما ذهبنا إليه. ومن المعلوم أن مدينة جبيل دمرت مرتين خلال العصر البرونزي المبكر، لكنها بقيت مأهولة بالسكان رغم ذلك، حيث دمرت لأول مرة خلال المراحل الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد، أي في الوقت نفسه الذي سادت فيه الفوضى مصر (مع نهاية حكم الأسرة السادسة، وظهرت حالة من الضعف في الدولة الأكادية، خاصة بعد وفاة الملك شار- كلي- شري في حوالي 2198 قبل الميلاد). أما التدمير الثاني؛ فحصل مع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، إذ تغيرت الأحوال في بلاد الرافدين، وأصبحت دولة أور الثالثة ذات حكم وسلطة قوية في بلاد الرافدين. ويظهر أن هذه الدولة حاولت تقوية صلاتها التجارية بمدينة جبيل. وربما

يكون هذا نتيجة لضعف مصر في هذه المرحلة. ففي الوقت الذي بدأت فيه قوة مدينة جبيل بالتراجع، اعتلى الحكم في أور ملك قوي. ويبدو أن الفوضى التي عانت منها مصر خلال هذه الفترة لم تجد طريقها للحل بعد (أي في حوالي 2000 قبل الميلاد).

أما بخصوص التغيرات الحضارية والثقافية التي حصلت في الفترة بين حوالي 2300-2000 قبل الميلاد في منطقة جنوبي بلاد الشام؛ فقد اختلفت التفسيرات حولها في الوقت الحاضر عما كان سابقاً. ففي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، شدَّد الباحثون على أن مرحلة العصر البرونزي المبكر الرابع، والتي سادت خلالها المجتمعات الرعوية/البدوية في هذه المنطقة، إنما تمثل مرحلة انتقالية بين مجتمعات المدينة في العصر البرونزي المبكر والعصر البرونزي المتوسط. لكن الطروحات المنشورة حديثاً حول هذا الأمر تربط تبني الناس لطرق معيشة تختلف عن سابقتها بالتكيف مع طبيعة المناخ الذي تغير خلال نهاية الألف الثالث قبل الميلاد.

وعلى أية حال، أكدت النشاطات والدراسات الميدانية أن كثيرًا من مواقع العصر البرونزي المبكر الثالث في منطقة جنوبي بلاد الشام لم تهجر، وأنها بقيت مأهولة بالسكان (Palumbo 2001). وعلى سبيل المثال، لاحظ المنقبون استمرارية السكنى من العصر البرونزي المبكر الثالث إلى الرابع في مواقع أردنية، مثل خربة إسكندر، وباب الذراع، وتل إكتنو، وأم حماد، وتل الحيات، وأبو النعاج (كفافي 2006). أما في فلسطين؛ فهناك مواقع مثل تل بيت مرسيم، وبئر رساسيم (Rosen and Finkelstein 1992).

ويعد موقع خربة إسكندر في وسط الأردن، جنوبي مأدبا، أفضل مثال على المواقع الكبيرة في العصر البرونزي المبكر الرابع، حيث كشفت التنقيبات عن موقع ذي مساحة كبيرة، ربما كان مركزًا إقليميًا ارتبط به عدد من القرى الزراعية الصغيرة. وقد دلت المكتشفات الأثرية في خربة إسكندر على وجود مستقرة زراعية محصنة، عاش سكانها حياة تمدن ضمن طبقات اجتماعية متعددة. كما عثر فيه على عدد من المباني العامة والخاصة، وعلى مقبرة كبيرة ولقى أثرية تشير إلى الاستمرارية بين العصرين البرونزي المبكر الثالث والرابع (Richard and Long 2007). ولكن، لا بد من الإقرار أنه على الرغم من ظاهرة الاستمرارية، إلا أن طبيعة موقع خربة إسكندر والمواقع الأخرى المشابهة اختلفت عن طبيعة المدن السابقة، إذ حصل تراجع في مستويات الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية (Richard 2003b: 294). ويؤكد ذلك أن

تعميم نظرية تحول كافة المجتمعات التي عاشت في بلاد الشام خلال العصر البرونزي المبكر الرابع بحاجة لإعادة دراسة. لذا، لا بد من عرض عدد من الآراء العلمية التي تناولت أسباب التحول من التمدن للبداوة.

فقد أكد كثير من الآثاريين، خاصة أولئك الذين بحثوا في المسألة خلال النصف الأول وبداية النصف الثاني من القرن العشرين، أن التحول إلى الحياة البدوية/ الرعوية خلال العصر البرونزي المبكر الرابع نتج عن هجرات القبائل البدوية الأمورية التي ذكرت في الكتابات السومرية باسم "مارتو"، وفي الأكادية باسم "أمورو"، وأن تلك القبائل هي المسؤولة عن التدمير الذي أصاب المواقع خلال هذا العصر (Kenyon 1971).

ودلت التنقيبات الأثرية أن تل إكتنو في الأردن من المواقع المهمة المؤرخة للعصر البرونزي المبكر الرابع، حيث خلصت المنقبة كي براغ Kay Prag، بعد مقارنتها لمكتشفات هذا العصر بما اكتشف في أريحا بفلسطين، أن ما حصل يعكس حال الجماعات التي عاشت في الأردن وفلسطين، والتي اعتمدت الزراعة والرعي منذ العصر البرونزي المبكر الثالث، واستمرت كذلك خلال العصر البرونزي المبكر الرابع. لذا فهي ترى أن هؤلاء الناس هم محليون وليسوا مهاجرين إلى المنطقة (Prag 1974). لكن بعد فترة من نشرها هذا الرأي، أبدت رأيًا آخر ربطت فيه بين التطورات المحلية والهجرات الخارجية، وقالت إنها لا تستبعد حدوث غزوات لجماعات بدوية قدمت إلى جنوبي بلاد الشام من الصحراء السورية (Prag 1985).

وخلال السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، بدأ بعض الباحثين باستخدام مناهج علم الأنثروبولوجيا للمساعدة في تفسير اللقى الأثرية وتحديد وظائفها. لذا نجد أنهم وضعوا عددًا من النظريات التي اعتمدت على تدخل عدة علوم لفهم طبيعة حياة المجتمعات خلال العصور القديمة. وطبعًا، أدى هذا لاستخدام النظريات الاجتماعية في دراسة الآثار (Hodder 1991). فمثلاً، رأوا أنه نتيجة لتغير الأحوال المناخية والبيئية خلال هذه الفترة، أصبح لزامًا على الناس تغيير طبيعة نشاطاتهم اليومية المعتادة.

ونادى بعض المختصين بضرورة الأخذ بالحسبان ظهور تنظيمات اجتماعية؛ أي أن الجماعات الرعوية البدوية التي ظهرت في بلاد الشام خلال العصر البرونزي المبكر الرابع شكلت جزءًا من التنظيم الاجتماعي المحلي (Richard 1980; Dever 1980; 1995). ويرى

بعض الآثاريين أن عدم وجود آثار تدل على استمرارية المدن خلال العصر البرونزي المبكر الرابع يعود إلى أن المخلفات من هذه الفترة جرفت عند بناء التحصينات الضخمة خلال العصر البرونزي المتوسط. ومن الأمثلة على هذا ما حصل في مدن أريحا وتل المتسلم، وتل بيت مرسيم، وتل القاضي، وخربة الكرك، وبيسان (Richard 2003b). وإضافة لهذه الفرضيات والنظريات، نادى آخرون بضرورة الأخذ بعين الاعتبار مسألة التخصص في الإنتاج أو عدمه عند تفسير الأسباب التي أدت إلى التحول للبداوة والرعي خلال نهاية الألف الثالث قبل الميلاد (Long 2003). إذ ينادي أصحاب هذا الرأي بأن الناس كانوا أكثر تخصصًا في طرق معيشتهم خلال العصر البرونزي المبكر الثاني والثالث منه في العصر البرونزي المبكر الرابع. وأنه خلال العصر البرونزي المبكر الرابع، حصل تبادل تجاري بين المزارعين والبدو، حيث بادل الفلاحون منتجاتهم الزراعية بمنتجات الماشية التي يربيها البدو. لذا، فإن أي تغير في المناخ لا بد أن يؤثر في حياة الفلاحين والبدو، وفي طبيعة أنشطتهم اليومية.

وتشير الدراسات الميدانية إلى أن سكان منطقة النقب بجنوبي فلسطين وخلال العصر البرونزي المبكر الرابع ساروا على خطى أسلافهم في التأقلم مع طبيعة المنطقة الجافة التي عاشوا فيها؛ فمارسوا الزراعة وتربية الماشية في الوقت نفسه. هذا مع العلم أنهم تاجروا مع مصر، فقاموا بتصدير سبائك النحاس المستخرج من وادي فينان. وربما عاش الناس في هذه الفترة إما في قرى ثابتة، أو بدوًا متنقلين، أو كلا الحالتين، أي أن قسمًا من الناس استقروا في القرية، والقسم الآخر رعوا الماشية.

من هنا نرى أن سكان منطقة النقب كانوا محليين، وهم الذين سيطروا على التجارة والطرق التجارية، وليس المصريون كما كان الحال عليه في العصر البرونزي المبكر الأول والثاني والثالث. ومن الجدير بالذكر، أن التجارة في هذه الفترة كانت محدودة جدًا، ولم تخرج عن النطاق الإقليمي، وذلك لأن الناس لم يكونوا بطبيعتهم تجارًا أو صنّاعًا، بل كانت التجارة بين مصر وسكان النقب حالة استثنائية.

لاحظنا خلال دراستنا لآثار بلاد الشام خلال العصر البرونزي المبكر أن المرحلة الأولى لم تختلف في طبيعتها عن سابقتها، حيث سادتها مجتمعات قروية على الرغم من ظهور مواقع، مثل حبوبة كبيرة جنوبي وجاوة، اتسمت بكبر مساحتها وظهور مجتمع مركب فيها. كذلك بدأت بعض القرى، مثل تل مرديخ وباب الذراع وخربة الزيرقون وتل المتسلم وغيرها، بوضع اللبنات الأولى للمجتمعات المتمدنة. لكننا وعلى الرغم من اكتشاف بعض الرقم الطينية في حبوبة كبيرة وتل قناص في حوض الفرات الأوسط، إلا أننا لا نستطيع القول إنها زودتنا بمعلومات حول الحياة المدينية مثلاً. وبقي الوضع على ما هو عليه حتى اكتشاف أرشيف تل مرديخ المؤرخ لحوالي 2400 قبل الميلاد، ل يمكن القول إن هذا التاريخ يمثل بداية التاريخ في بلاد الشام حتى الآن، علمًا أن هذه الفترة بدأت في بلاد الرافدين ومصر خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. وكما ذكرنا، فإن النظام السياسي الذي ساد المنطقة هو نظام دولة المدينة، لكننا لا نستطيع أن نتحدث عن أسماء ملوك وحكام في بلاد الشام إلا خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد ومن خلال نصوص تل مرديخ.

يبدو أنه في الوقت نفسه الذي أخذت فيه الدولة الأكادية تمد نفوذها وسيطرتها في المنطقة، بدأت تدخل إلى بلاد الشرق الأدنى القديم موجات جديدة من المهاجرين الأجانب، مما أدى الى حدوث تحولات سياسية واقتصادية في المنطقة، فمثلاً في منطقة شمال غربي سورية سيطرت مدينة تل مرديخ على الإدارة والاقتصاد في كل المنطقة المحيطة بها. أما في حوض نهر الفرات؛ وبالتحديد في شرقي سورية الحالية، أدى تل الحريري دورًا رئيسًا في التبادل التجاري بين سورية وجنوبي بلاد الرافدين بشكل خاص.

وللحديث عن تاريخ بلاد الشام في العصر البرونزي المبكر، لا بد من معرفة ما كان يجري في كل دولة من دول المدن. إلا أننا سنكتفي هنا بتقديم بعض الأمثلة على أهم المواقع المكتشفة.

أشارت التنقيبات والمكتشفات والنصوص الأثرية من مدينة تل مرديخ إلى أن سكانها قد اختصوا خلال العصر البرونزي المبكر بصنع المنسوجات والمشغولات المعدنية والخشبية والأحجار الكريمة. وكانت خامات هذه الصناعات تستورد من الخارج، ثم

يتم شغلها وتصنيعها بدقة ومهارة فائقتين. كذلك ذكرت النصوص أن تل مرديخ صدر خلال هذا العصر الأصواف والمنسوجات. لذا، فمن السهل الاستنتاج أن وجود طبقة من الصناعيين الحرفيين في المدينة إلى جانب ممارسة الاستيراد والتصدير أدى إلى ظهور الملكية، وإلى تشكل قطاعات اقتصادية متعددة. كذلك ربط الموقع مع المناطق المجاورة بشبكة من الطرق التجارية وصلت إلى شمالي بلاد الرافدين وجبال الأمانوس وطوروس ولبنان وفلسطين. وعند ظهور الدولة الأكادية، مدت نفوذها إلى خارج بلادها وسيطرت على كثير من المناطق المجاورة، وأخضعتها لحكمها. ونتيجة لهذه المتغيرات السياسية، حدثت تغيرات وظهرت أشكال جديدة من العلاقات الخارجية، فأصبح هناك شركاء تجاريون جدد. ومن المعروف أن الأكاديين قاموا بهذا التوسع لعدة أسباب منها:

1. عوامل اقتصادية، كانت من أهمها ضرورة الحصول على بعض المواد غير المتوفرة في بلاد الرافدين، واللازمة لتصنيع بعض المواد، مثل الفضة.

2. دفعت خصوبة المنطقة المحيطة بمدينتي تل ليلان وتل براك الأكاديين لاحتلالها، حيث مارس سكانهما الزراعة وتربية الماشية. كما ارتبطت هاتان المدينتان بالخارج بشبكة من الطرق التي سهلت الاتصال فيما بينها.

3. أدى تعاظم قوة الأكاديين العسكرية إلى الخروج عن حدودهم والسيطرة على المناطق المجاورة.

من هنا نرى أن الدولة الأكادية ركزت جل جهودها على إخضاع شمالي بلاد الشام وحكامها تحت سيطرتها، فأقامت مراكز إدارية في داخل المدن التي احتلتها، مثل تل ليلان وتل براك. وعلى أية حال، يبقى من غير الواضح فيما إذا كان الأكاديون قد عينوا على هذه المدن، بعد احتلالها، حكامًا من أبنائها المحليين (من الطبقة العليا في المجتمع) أو قاموا هم أنفسهم بتسيير الأمور. كذلك سيطر الأكاديون على شبكة الطرق التي ربطت المدن المختلفة، خاصة في حوض نهر الخابور، بالمناطق المجاورة في الشمال والغرب. وقد استفاد الأكاديون من هذه الطرق في نقل البضائع والحاجيات من المناطق التابعة لسلطانهم إلى أكاد. ويبدو أن سكان المدن من الجيش المحتل بنوا لأنفسهم الكثير من المباني، كما طبقت على الناس قوانين جديدة.

ويظهر أن الموقع المتوسط لمدينة تل الحريري على مجرى نهر الفرات جعل منها على الدوام مركزًا تجاريًا مهمًا يربط بين بلاد الشام وبلاد الرافدين. كما كانت ميناءًا رئيسًا لنقل البضائع من وإلى جنوبي بلاد الرافدين. لذا، قام الملك الأكادي نرام- سن باحتلالها، وأصبح يتحكم بطرق المواصلات في المنطقة.

ويبدو أنه كان من الصعب على الأكاديين السيطرة تمامًا على المنطقة الواقعة غربي نهر الفرات حيث تقع مدينة تل مرديخ التي تمتعت باقتصاد ومركز إداري قويين. وينسحب هذا القول على منطقة جبال الأمانوس وشمالي لبنان (حيث أشجار الأرز)، وعلى جبال طوروس حيث يصعب الوصول إلى مناجم الفضة. كما أن طبيعة هذه المناطق الوعرة لم تمكن الأكاديين من السيطرة عليها تمامًا. وعلى الرغم من هذا، فإن كلاً من سرجون ونرام- سن ذكرا بأنهما دخلا هذه المناطق وسيطرا عليها، وأنهما دمرا عددًا من المدن التي كانت قائمة مثل تل مرديخ. ونستطيع القول إن القراءة المتأنية لبعض النصوص الأكادية التي تتحدث عن معارك الأكاديين في هذه المناطق، تؤكد أن غزواتهم لم تتجاوز النهب والسلب لبعض المواد الخام التي احتاجوا إليها، ومن ثم العودة إلى بلادهم دون الإقامة الدائمة في هذه المدن أو المناطق.

وعلى أية حال، فإن المصادر والوثائق المكتوبة والمكتشفات الأثرية تؤكد احتلال الأكاديين وسيطرتهم على بعض مناطق بلاد الشام والإقامة فيها، خاصة القريبة من أكاد. وينعكس هذا الاحتلال في البنى التحتية لمدن بلاد الشام، خاصة تلك التي تأسست في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

إن احتلال الأكاديين لمدن أعالي الخابور وسيطرتهم على المناطق الشمالية الشرقية لبلاد الشام أثر كثيرًا في البنى التحتية، وفي التحولات والعلاقات التي كانت قائمة بين دول المدن في تلك المناطق. فمثلاً، عوضًا عن ارتباط العلاقات التجارية للأرياف بالمركز، أي المدينة، أصبحت الأمور كلها مرتبطة بالعاصمة أكاد في بلاد الرافدين. لذا، نرى أن الاهتمام بالطرق التجارية التي كانت قائمة قبل الاحتلال الأكادي قلَّ عما كان عليه، مما أدى إلى تدميرها. وربما يكون هذا هو السبب الذي أدى إلى هجران موقع تل خويرة بعد انتهاء حكم الأسرات الأولى وبداية الدولة الأكادية. وبالطبع، فإن تغير النظم للطرق التجارية، يؤدي بالتالي لتعديل مساراتها. كذلك، فإن تراجع أهمية الطرق التجارية، نتج عنه ضعف في الاتصالات الحضارية بين المدن والأرياف. ونتيجة

لذلك، فقدت المدينة وظيفتها كمركز للاتصالات الثقافية والتجارية مع مراكز المدن الأخرى، ففقدت بذلك إمكانية استمرارية وجودها.

ويظهر أن الأحوال في منطقة غربي بلاد الشام تأثرت أيضًا بتغيير سير واتجاهات الطرق والأنظمة التجارية. فمثلاً، نجد أن مدينة تل مرديخ فقدت أهميتها كمدينة صناعية؛ فبعد احتلال الأكاديين لها، فقدت نفوذها وسيطرتها في مناطق غابات شجر الأرز ومناطق خامات المعادن، مما أدى إلى تراجع الحرف الصناعية التي لا تتحقق إلا بتوفر المواد الخام. ومن ناحية أخرى، وفي الوقت نفسه، أدت سيطرة الأكاديين على مدينة تل الحريري إلى حدوث تحولات سياسية، ليس فقط في بلاد الرافدين، وإنما في شمالي بلاد الشام كذلك. إذ نلاحظ أن العلاقات التجارية الخارجية، والتي تميزت بها كل مدينة عن الأخرى في منطقة حوض الفرات الأوسط، تراجعت وضعفت. لذا، نستنتج أن مدينة تل مرديخ توقفت خلال هذه الفترة عن إنتاج البضائع والمصنوعات الفخمة والباهظة الثمن.

وكما ذكرنا أعلاه، فإنه ومع تدهور العلاقات التجارية بين المدن والأرياف، فإن المدن الواقعة في غربي بلاد الشام فقدت كثيرًا من أسباب استمراريتها ووجودها. فقد أدى الهجوم الأكادي المتواصل على طرق التجارة إلى توقف الاتصالات والتجارة بين المدن المستقلة، ونتج عن هذا، أيضًا، تدمير التجارة التي كانت رائجة بين المدن والأرياف بجنوبي بلاد الرافدين.

أدت الثورات الداخلية والغزوات الخارجية لسقوط الدولة الأكادية، واستدعى هذا إعادة تنظيم وهيكلة نظام الحكم في وسط بلاد الرافدين وجنوبه، حيث أخذت التقسيمات الإدارية طابعًا إقليميًا. هذا معناه، أن حالة من الفوضى والارتباك سادت المنطقة بعد سقوط الدولة الأكادية في حوالي 2160 قبل الميلاد، الأمر الذي انعكس على شمالي بلاد الشام خاصة. وللأسف، فإن المعلومات المتوفرة حول هذه المرحلة الانتقالية، وما حصل خلالها في بلاد الشام، خاصة في سورية ولبنان، لا تزال فقيرة وقليلة. وبقي الأمر على حاله حتى مجيء أسرة أور الثالثة وتسلمها مقاليد الحكم بجنوبي بلاد الرافدين. وتشير المصادر المكتوبة المؤرخة لفترة حكم هذه الأسرة إلى أن حكامها حاولوا تقليد ملوك الأكاديين في السيطرة على مدينة تل الحريري. وبالطبع، فإن الأساس والهدف من هذا التوجه، هو السيطرة على تجارة شمالي بلاد الشام مع بلاد

الرافدين. لذا، نجد أن أحد ملوك أسرة أور الثالثة ينصِّب حاكمًا إداريًا من بلاده على تل الحريري، كما أنه أجرى عمليات صيانة وترميم للمعابد القديمة، وبنى أخرى جديدة فيها. وبهذا نجد أن مدينة تل الحريري أصبحت شريكًا تجاريًا لمدينة أور. وكما كان الحال في دولة أكاد، فإن ملك أور أطلق على نفسه لقب "ملك الجهات الأربع"، ووصل إلى مصادر خشب الأرز في شمالي بلاد الشام.

أما جنوبي بلاد الشام (الأردن وفلسطين)؛ وكما نعلم، دانت السيطرة عليها خلال العصور البرونزية المبكرة للمصريين، وإن تجارة النحاس بين مدن هذه المنطقة ومنطقة الدلتا المصرية كانت رائجة. لكن الأمر اختلف في حوالي 2150 قبل الميلاد، حيث فقد الفراعنة سيطرتهم على هذا الجزء من بلاد الشام. وبطبيعة الحال، أدى هذا إلى تراجع التجارة بين جنوبي بلاد الشام ومصر، وفقدت مصر نفوذها على ميناء جبيل في لبنان. كما لاحظ الباحثون أن مدينة جبيل فقدت دورها كشريك سياسي وتجاري في المنطقة. وعلمًا أنها تعرضت للتدمير، إلا أنها لم تهجر تمامًا، حيث قام الناس بإعادة بنائها، واستفادوا من العلاقات السياسية الطيبة التي أقاموها مع أسرة أور الثالثة بجنوبي وادي الرفدين. ودليلنا على هذا أن حاكم مدينة جبيل أطلق على نفسه لقب "إنسي" ensi، كما كان الحال بجنوبي بلاد الرافدين. ويمكن القول إن الدارسين حصلوا على معلومات كافية للاستدلال على طبيعة العلاقات التي سادت المنطقة خلال نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، خاصة بين جبيل ومصر من جهة، وجبيل وبلاد الرافدين من جهة أخرى، والتي تدل على ضعف الارتباط السياسي والتجاري بمصر، وارتباط ميناء جبيل بمحيطها الإقليمي، مما نتج عنه استمرارية الحياة في بعض مدن بلاد الشام خلال العصر البرونزي المبكر الرابع، مثل مدينة تل الحريري.

وخاتمة القول، إن قوة مدن بلاد الشام وضعفها خلال العصر البرونزي المبكر ارتبطا بشكل كبير بالأحوال في بلاد الرافدين ومصر. كما نستطيع أن نؤكد أن تاريخ بلاد الشام خلال نهاية الألف الرابع والألف الثالث قبل الميلاد اختلف في شماله عن جنوبه، حيث ارتبط أهل الشمال، خاصة حوض الفرات الأوسط، بمجريات الأحداث ببلاد الرافدين، بينما ارتبط أهل الجنوب بمصر.

الفصل السادس

بلاد الشام في العصر البرونزي المتوسط

الحضر والبدو

الفصل السادس

بلاد الشام في العصر البرونزي المتوسط: الحضر والبدو

حوالي 2000 – 1550 قبل الميلاد

انتهى العصر البرونزي المبكر بنهاية الألف الثالث قبل الميلاد، تبعه ما يعرف بالعصر البرونزي المتوسط (حوالي 2000 -1550 قبل الميلاد)، حين عادت خلالها الحياة المدينية، تدريجيًا، لربوع بلاد الشام، وصبغت المدينة البلاد بطابعها. وكما حار العلماء في الأسباب التي أدت إلى تدمير المدن، خاصة في جنوبي بلاد الشام، فإنهم لم يتفقوا على العوامل التي كانت خلف عودة الحياة المدنية للمدينة. فمنهم من عدَّ المتغيرات الاقتصادية والسياسية التي حصلت في المنطقة، نتيجة لدخول جماعات جديدة إليها، أساسًا لهذه التطورات. في حين ربط باحثون آخرون بين استمرارية جماعات محلية ظلت تسكن في بلاد الشام بعد تدمير مدن الألف الرابع قبل الميلاد، وحصول تقدم تقني في الصناعات، وتحسن مناخي، ودخول عناصر بشرية جديدة، وبين التقدم الحضاري الذي حصل مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد (Akkermans and Schwartz 2003: 288).

من المعلوم أن المنطقة الممتدة بين نهري الفرات والنيل تضم مناطق صحراوية جافة وقليلة الأمطار، كانت ولا زالت موطنًا للبدو الرحل. وتذكر نصوص تل الحريري أن الأموريين هم من استقروا في منطقة بادية الشام خلال العصر البرونزي المتوسط، وتركزوا على طول الجبال التدمرية، وعلى جبل بشري الذي وصفه السومريون بأرض أمور المرتفعة. ويبدو أنهم كانوا يهاجمون السكان الحضر كلما أتيحت الفرصة لذلك (فرزات 200: 110). ويظهر دور الأموريين جليًا وواضحًا في عودة المدنية للظهور من خلال ما ذكرته

الوثائق والنصوص المكتوبة المؤرخة للنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، والتي ذكرت أسماء عدد من أعلام الأموريين الذين كانوا ملوكًا على عدد من الدول في كل من سورية وبلاد الرافدين. ومن أشهرهم الملكان الأشوري شمشي- أدد، والبابلي حمورابي. وعلى أية حال، فإن سطوة الأموريين واستلامهم زمام الحكم في عدد من مناطق بلاد الشام وبلاد الرافدين بدأت مع بداية حكم أسرة أور الثالثة (حوالي 2060 -1950 قبل الميلاد)، والأسرة البابلية الأولى (Ahlström 1993: 161).

عاصر الأموريون بداية حكم الأسرة الثانية عشرة في مصر، والتي حاول حكامها استعادة أمجادهم السياسية والاقتصادية في بلاد الشام. ويظهر أن الاهتمام المصري بفلسطين مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد لم يتعد منطقتي السهل الساحلي الفلسطيني، وسهل مرج ابن عامر. وكي يتمكن المصريون من حماية طرق التجارة في هذه المنطقة، تحول موقع تل المتسلم، خلال حكم الأسرة الثانية عشرة، إلى مكان إقامة لحامية مصرية (Harif 1978). ويبدو أنه خلال العقود الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد، أي العصر البرونزي المتوسط الأول (حوالي 2000-1800 قبل الميلاد)، لم تخرج علاقة مصر بقرى الساحل الفلسطيني عن كونها علاقة تجارية، ولم تخضع هذه البلاد للسيطرة السياسية أو العسكرية المصرية. وبقيت مدينة جبيل على الساحل اللبناني المركز التجاري الفرعوني خلال هذه الفترة، حيث كانت تتوزع البضائع المصرية منه إلى داخل بلاد الشام، وفيه تحمل الأخشاب والذهب والفضة المصدرة من بلاد الشام إلى مصر.

وإذا كان الأموريون هم من سيطروا على بادية الشام، وأسسوا الممالك في حوض الفرات الأوسط، وفي بلاد الرافدين؛ فمن الذي كان يقطن ساحل البحر المتوسط، وجنوبي سورية، ولبنان، وفلسطين خلال العصر البرونزي المتوسط إذن؟ وللإجابة عن هذا السؤال، اقترحت كاثلين كنيون أن الكنعانيين هم من سكنوا هذه المناطق (Kenyon 1963)، وأكد ذلك آخرون (Tubb 1998).

شهد العصر البرونزي المتوسط في بلاد الشام تقدمًا اقتصاديًا، وبناء المدن المحصنة، مثل مدن: تل وقاص، وتل المتسلم، وتل بلاطة، وتل بيت مرسيم، وتل السلطان/أريحا وجميعها في فلسطين. لكن الكنعانيين بلغوا شأوهم خلال العصر البرونزي المتأخر. ولتبيان دور سكان بلاد الشام المحليين في بناء حضارتهم في العصر البرونزي المتوسط نقدم دراسة موجزة عن أهم الجماعات التي سكنت هذه المنطقة في هذه الفترة، وهي:

الأموريـون والكنعـانيون، آخـذين بالحـسبان وجـود عناصـر أخـرى، مثـل: الحوريـون والحثيـون. وقـد عـد العلماء الأموريين بدوًا، بينمـا كـان الكنعانيون هـم سـكان المدن والأريـاف. ولا بـد مـن القـول إن هـاتين الجمـاعتين كانتـا علـى تواصـل وتمـاس دائـم، لـذا نقدم لمحة عن طبيعة العلاقة فيما بينهما.

البدو والحضر في بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتوسط

جـاءت جميـع النـصوص المكتوبـة الـتي تتحـدث عـن سـكان بـلاد الـشام مـن أمـاكن الاستقرار الدائمة، أي المناطق الحضرية. ومن الملاحظ أن حضارة المدينـة ازدهـرت خـلال المرحلـة الثانيـة مـن هـذا العـصر في بـلاد الـشرق الأدنـى القـديم، علمًـا أن بعـض المنـاطق شهدت تراجعًا حادًا في طبيعة الاستقرار خلال نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، خاصـة في بلاد الشام، حيث تحول النـاس إلى بداة في أغلـب المنـاطق. ومـع حلـول القـرن التاسـع عشر قبـل المـيلاد نلاحـظ أن النـاس عـادوا للاسـتقرار في مـدن كـبيرة، كمـا حـصل في منطقـة شمالي سورية.

عاشت إلى جانب الحضر في بلاد الشام، خـلال العـصر البرونـزي المتوسـط، جماعـات مـن البدو الرحل الذين كانوا على اتصال دائم بسكان المدن والقرى المحيطة. وكـان هـؤلاء البدو اعتمدوا في معيشتهم على تربية الماشية أساسًا. ويبدو أنه بمـرور الوقـت أصـبح لزامًـا على البدو والحضر التعامل مع بعضهم بعضًا، فـازداد التمـاس فيمـا بينهم، ممـا نـتج عنـه شكل من الصراع على السلطة السياسية في المنـاطق المختلفـة مـن الـشرق الأدنـى القـديم. ودونـت أخبـار هـذه الـصراعات في الـسجلات المكتوبـة الـتي عثـر عليهـا في مـدن مختلفـة، مثل أرشيف مدينة تل الحريري (ماري)، إذ وصـفت الجمـاعـات البدويـة في هـذه الـسجلات الـتي دوَّنهـا أهـل المـدن بـأكثر مـن صـفة، بعـضهـا غـيرودي الطـابع. وعرفـت الـسجلات والوثـائق التاريخيـة الرافديـة المؤرخـة لنهايـة الألـف الثالـث قبـل المـيلاد تلـك الجمـاعـات البدويـة باسـم "الأموريين"، أي الـذين جـاؤوا مـن الجهـة الغربيـة لـبلاد الرافـدين. وعلـى أيـة حال، فإننا لا نـستطيع الجـزم فيمـا إذا كـانـت هـذه التـسمية تـشير في الأسـاس إلى الجهـة الـتي دخـل منهـا الأموريـون إلى بـلاد الرافـدين، أم أنهـا تـدل علـى جماعـة عرقيـة أو قبليـة.

لكننا نعتقد أن تلك التسمية لا تدل على جنس أو عرق، وإنما تشير إلى أن هؤلاء القوم هم في الأصل بدو، أو أشباه بدو، وأنهم جاؤوا من الغرب.

اعتمدت حياة الجماعات الرعوية على تربية المواشي، لا سيما الأغنام والماعز؛ فاستفادت من حليبها ولحومها وصوفها، وحتى من عظامها التي استخدمت في صنع الأدوات. ونتيجة لطبيعة بلاد الشرق الأدنى القديم الجافة، تطلب الأمر من القبائل الرعوية المتنقلة من مكان لآخر بحثاً عن الماء والكلأ، عدم الاستقرار في مكان واحد طيلة أيام السنة؛ فاضطرت أن تمكث خلال فصل الصيف الحار والجاف بالقرب من الأنهار ومصادر المياه الدائمة الأخرى، بينما انتقلت خلال فصل الربيع إلى مناطق المراعي. وبهذا تكون تلك القبائل في الحالة الأولى قريبة من القرى والمدن، وعلى تماس مع سكانها، أما في الحالة الثانية؛ فإنها تعود إلى نفس المراعي والأماكن التي تحل بها كل ربيع. وبهذا نجد أن هؤلاء الرعاة يتحولون إلى السكنى في قرى ثابتة خلال الصيف، بينما يرتحلون في الربيع والشتاء.

لذا، نجد أن الحضر والبدو كانوا على تواصل فيما بينهم على عدة مستويات. فمن الناحية الاقتصادية، نجد أنهم يتكاملون، إذ يحتاج الواحد إلى ما ينتجه الآخر، سواء من المنتجات الحيوانية، أو الزراعية، أو الصناعية. وكان لا بد من ترتيبات مشتركة بين المزارعين المستقرين والرعاة المتنقلين، بحيث لا تتعرض المزروعات والمحاصيل التي يملكها أهل القرى والمدن إلى تعديات قطعان الماشية التابعة للبدو خلال وجودهم في المناطق القريبة من الحقول الزراعية. لذا، كان من الضروري ترك بعض المناطق خالية من الزرع لتشكل مراعي لقطعان المواشي التي يملكها البدو. وحيث أن الأمر هكذا، أصبح لا بد للدولة من السيطرة على مناطق الرعي، وعلى الرعاة. وبهذا أصبح الرعاة، أو أشباه البدو، خاضعين لسلطة الدولة، وفرضت عليهم الضرائب، ودخلوا الجيش. وفي الوقت الذي يكون فيه البدو على اتصال بالحضر، نجد أن أهل المدن يقومون بتسجيل صفات هؤلاء القوم في سجلاتهم. وهذا ما نستدل عليه من قراءة النصوص التي عثر عليها حتى الآن في المدن المؤرخة للنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. ولا بد من التذكير، مرة أخرى، بأن أرشيف تل الحريري "ماري" يعد أنموذجًا واضحًا لمثل هذه الحالة، فقد سيطرت مملكة ماري على أجزاء كبيرة من حوض الفرات الأوسط، وشملت هذه المساحة مدنًا وقرى، خاصة في منطقة السهوب السورية. ومن ناحية

اجتماعية، توصف هذه الجماعات بأنها ذات تنظيم قبلي، أي أنها تتكون من عدد من القبائل، الأمر الذي يعني أن أبناء كل قبيلة ينحدرون من أصل واحد، لكن هذا لا يمنع أن تنضوي بعض القبائل الصغرى تحت مظلة الكبرى.

وإذا ما أردنا وصف العلاقة التي كانت قائمة بين سكان مدينة تل الحريري والقبائل الرعوية المنتشرة في المناطق الجغرافية التابعة لها، فإنه يمكننا الاستنتاج بأن القصر، أي الملك، كان مسيطرًا على جميع قرى هؤلاء القوم، فخضع سكانها للمراقبة، وشكلوا العنصر الرئيسي في الجيش، كما جرى تعيين شيوخ على هذه القبائل كانوا على اتصال دائم بالقصر. لكن سجلات ماري تذكر بعض القبائل، مثل السوتيون، وتصفهم بصورة سيئة، مثل لصوص، وقطاع طرق، ومجرمين. وللأسف؛ فإن هذه صورة يرسمها غالبًا الحضر عن البدو. لكن، يمكننا الاستخلاص بأن هذه الصورة جاءت نتيجة للصراع الدائم والقائم حول التحكم بالسلطة، وبالمصادر الطبيعية التي يحتاجها المزارعون والرعاة على حد سواء.

وتشير الدراسات الإثنوغرافية إلى أن أفراد القبائل الرعوية هم، في العادة، من الأغنياء والفقراء على السواء. فمثلاً عندما يملك أحد البدو قطيعًا كبيرًا من الأغنام، فإنه لا يستطيع مضاعفة عدد هذا القطيع لحاجته لمزيد من الأعلاف والمراعي الشاسعة. وعليه، فإنه يتوجه لاستثمار ثروته في نواحٍ أخرى، مثل استغلال الأرض عوضًا عن قطعان الماشية، وهذا يستدعي الاستقرار في أماكن ثابتة. أما الراعي الفقير، فإن العدد القليل من أغنامه ربما لا يفي بحاجاته الضرورية مما يستدعي اللجوء إلى المدينة للعمل فيها إلى جانب العمل بالرعي. ومن هنا نرى، أنه مع نهاية الألف الثالث والقرون الأربعة الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد، ازداد وجود الأموريين بين سكان المدن المنتشرة فوق بقاع مختلفة من بلدان الشرق الأدنى، وأن هؤلاء كانوا دائمًا يذكرون أصلهم الأموري. ومن المعلوم أن نصوص تل مرديخ وشوروباك المؤرخة لمنتصف الألف الثالث قبل الميلاد ذكرت الأموريين، وتزايد ذكرهم في النصوص المؤرخة لأسرة أور الثالثة.

ومن الواضح أن القبائل شبه البدوية، ذات الأصل السوري، انتشرت فوق مساحات واسعة في بلاد الشرق الأدنى القديم. ودخل أفراد من هذه القبائل معترك الحياة السياسية في دويلات المدن، لا سيما عبر الجيش. وبعد سقوط أسرة أور الثالثة في بابل، استطاع بعض الأموريين الأقوياء الاستيلاء على السلطة في عدد من دويلات المدن. وربما

يكون هذا نتيجة للصراع القديم الذي كان قائمًا بين السلطة السابقة واللاحقة في جنوبي بلاد الرافدين، أي بين المجتمعات المتمدنة في سومر وأكاد، والأموريين غير المتمدنين، والذي لا يزال يعشعش في مخيلة أبناء هذه الجماعات. وحيث أن الأموريين ينحدرون جميعًا من أصل واحد، فربما دفعهم هذا إلى تأسيس دولة الأمة عوضًا عن دولة المدينة، وهو النظام السياسي الذي كان سائدًا في مختلف مناطق الشرق الأدنى القديم خلال معظم الألف الثالث قبل الميلاد. وعلى أية حال، يظهر أن سيطرة الأموريين لم تترجم إلى سيطرة ثقافية على بلدان الشرق الأدنى، بل على العكس، نجد أنهم، أي الأموريون، تبنوا اللغة السومرية والأكادية، ولم تصبح اللغة الأمورية لغة الدولة الرسمية خاصة في السجلات والوثائق الرسمية.

ومن الجدير بالذكر أن الموقع المتوسط لبلاد الشام حكم عليها بأن لا تسكنها جماعة عرقية واحدة، بل كان سكانها على الدوام يتشكلون من عدد من الأجناس المختلفة. ويبدو، اعتمادًا على النصوص والوثائق المكتوبة، وكما ذكر أعلاه، أن العنصر الأموري كان هو السائد خلال العصر البرونزي المتوسط، علمًا أن الكنعانيين أخذوا يظهرون على الساحة السياسية فعليًا خلال القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد (Tubb 1998). وتفاديًا للإسهاب، نقدم أدناه دراسة مختصرة عن كل منهما.

الأموريون

عرف الأموريون في السجلات السومرية باسم "مارتو"، وفي الأكادية باسم "أمورو". وعرف هؤلاء القوم من خلال النصوص والوثائق التاريخية المكتوبة، أكثر من معرفتنا بهم من خلال الآثار الباقية. ووصفتهم الكتابات السومرية على النحو الآتي: "الأموري الذي ينبش الفطر من سفح الجبل، الذي لا يحني ركبته، الذي يأكل اللحم النيئ، الذي لا يعرف طيلة حياته بيتًا يملكه، والذي لا قبر له ليدفن فيه بعد موته، والذي لا يزرع الحبوب" (فرزات 2003: 115؛ Buccellati 1997: 110). وجاءت أول إشارة إلى الأموريين من بلاد الرافدين من عهد الملك الأكادي شار- كلي- شري الذي افتخر بانتصاره عليهم عند جبل بشري.

جاء البدو الأموريون إلى منطقة حوض الفرات الأوسط في بلاد الشام، طلبًا للأرض الخصبة والمياه الدائمة. لكنهم اصطدموا في بداية الأمر بدول قوية كانت قائمة في بلاد

الرافدين، مثل السومرية، ومن بعدها الأكادية. وخلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، استطاعت مدينة ماري (تل الحريري) أن تقطع عليهم الطريق إلى بلاد الرافدين. غير أن ثمة من يرى عكس هذا، إذ يعتقد جيورجيو بوتشيلاتي Giorgio Buccellati (1992) أن الأموريين هم في الأصل فلاحون من حوض الفرات الأوسط، تحركوا بقطعانهم إلى مناطق السهوب بحثاً عن مراعٍ لهم. وللعلم، تعد المنطقة التي عاش بها الأموريون من المناطق الجافة التي لا تصلح للزراعة البعلية، إذ لا يتجاوز معدل هطل الأمطار السنوي فيها 200ملم. وربما كان هذا هو العامل الذي حدد طبيعة الحياة فيها، وأثر في نشوء مراكز للتمدن فوق أرضها، حيث لم يعثر فيها إلا على مدينة واحدة، هي ماري، والتي سيطرت خلال فترات ازدهارها (العصر البرونزي المتوسط) على منطقة واسعة في حوض الفرات. كذلك، فإن استغلال منطقة سهوب حوض الفرات الأوسط كمراعٍ، يتطلب توافر عدة مقومات فيها، من أهمها: شبكة لآبار المياه لسقي الماشية التي ترعى فيها. وبهذا، شكلت المراعي مناطق اقتصادية مهمة لكل من البدو، وأنصاف البدو، وحتى للفلاحين الذين عاشوا في المناطق المحاذية لمجرى نهر الفرات. ويرى بوتشيلاتي أن هؤلاء تمتعوا بحرية مطلقة في مناطق عيشهم، حيث كانوا بعيدين عن أنظار سلطة الحكومة المركزية التي سعت لإدخالهم في الجيش وفرض الضرائب عليهم (Buccellati 1997: 108).

ويرى بعض الباحثين أن عناصر أمورية استقرت في الأردن خلال القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد، وأنه نتيجة لهذا، حلّت ثقافة نصف بدوية جديدة محل المدنية (فرزات 2003: 113). لكن هذا الأمر اختلف مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد، فقد طرأت تغيرات كبيرة على الحياة المادية في كل من فلسطين والأردن، وهذه تعزى للتوسع الأموري. وبدأ في حوالي 2000 قبل الميلاد، عصر جديد أطلق عليه العصر البرونزي المتوسط. ومن الجدير بالذكر أن ماري كانت على اتصال ببعض مدن جنوبي بلاد الشام، وتحديدًا تل وقاص "حاصور"، إذ ورد في نصوص ماري التي تتحدث عن تجارة القصدير ما يلي: إن ثلاثين مينا من القصدير أرسلت إلى الملك بن-حدد ملك حاصور "تل وقاص" (Malamat 1971).

وعلى أية حال، يظل الأموريون من الجماعات البدوية التي عاشت في بلاد الشام خلال العصور البرونزية، والتي لم تعش البداوة طيلة حياتها، إذ تحول الأموريون خلال العصر البرونزي المتوسط للحياة المدنية، وأنشأوا العديد من دويلات المدن، كما سنرى أدناه.

الكنعانيون

يعتقد كثير من الناس أن الكنعانيين خرجوا من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، لكن، وحتى الآن، لم تؤكد هذا الأمر أو تنفه المصادر والوثائق التاريخية المكتوبة (Lemche 1991: 25).

ظهر اسم الكنعانيين لأول مرة في نصوص تل الحريري "ماري" المؤرخة للقرن الثامن عشر قبل الميلاد، واختفى بعدها من الوثائق والنصوص التاريخية، ولم يعاود الظهور إلا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد في نص للفرعون أمنحوتب الثاني، والذي يذكر فيه أنه طارد الكنعانيين. بعد هذا تكرر ذكر كنعان في وثائق القرون اللاحقة، مثل ما ورد في رسائل تل العمارنة، وفي نقش الملك إدريمي ملك تل العطشانة "ألالاخ" بشمال غربي سورية (Astour 1965). ويمكن القول إن اسم "كنعان" ورد في النصوص المسمارية على هيئة "ك ن خ ن"، وهي لفظة أطلقها سكان بلاد الرافدين خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد على منطقة سواحل البحر المتوسط الشامية.

وورد اسم "كنعان" على نحو "ك ن ع ن" في النصوص الأوغاريتية والفنيقية البونية، وكتب بأشكال مختلفة في وثائق بلاد الرافدين ومصر وبلاد الأناضول (Gray 1965; Hackett 1997: 408). وتشير النصوص التوراتية إلى أن الكنعانيين شكلوا العنصر الرئيسي من بين سكان فلسطين، وذكروا في مواضع عديدة في النصوص التوراتية، والتي أطلقت اسم "ملك كنعان" على حاكم مدينة حاصور "تل وقاص" بشمالي فلسطين (القضاة 4: 2، 23-24).

ويبدو أن حدود كنعان لم تكن ثابتة، إذ إنها تختلف من نص تاريخي لآخر، ومن فترة لأخرى. لكن العلماء اتفقوا في أنها المنطقة الممتدة من وادي العريش بقطاع غزة في فلسطين جنوبًا وحتى شمالي أعالي جبال لبنان شمالاً، وما بين البحر الأبيض المتوسط غربًا وحفرة الانهدام (سهل البقاع، وجبال الجولان، وغور الأردن، والبحر الميت) شرقًا (Hackett 1997: 409).

ويمكننا وصف المجتمع الكنعاني بأنه مجتمع متحضر عاش في مدن ومراكز حضارية، وكانت التجارة هي الأساس الذي اعتمد عليه الناس في معيشتهم. كما كان المجتمع الكنعاني متعدد الطبقات، إذ كان فيه الغني، والفقير، والتاجر، والعامل، والفلاّح. وكانت للكنعانيين ديانتهم الخاصة التي تمثلت بتعدد الآلهة وتقديم الأضحيات لها (الشكل 66)، وتجلى هذا الأمر بكل وضوح في نصوص رأس شمرا "أوغاريت" (Miller 1981). وقد بلغ الكنعانيون قمة ازدهارهم خلال العصر البرونزي المتأخر، وإن كان نجمهم بزغ خلال العصرين البرونزي المبكر والمتوسط (Tubb 1998).



الشكل 66: دمية برونزية للإله بعل حدد الكنعاني، تل المتسلم/ فلسطين

تاريخ بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتوسط

لاحظ الباحثون أن منطقة الشرق الأدنى القديم تمتعت خلال الفترة ما بين حوالي 2000-1550 قبل الميلاد بسمات سياسية واجتماعية متشابهة، إذ ساد عدد من الدول على المنطقة الممتدة من إيران شرقًا وحتى البحر المتوسط غربًا، وحكمها عدد من الملوك الأقوياء الذين تحالفوا ضد بعضهم بعضًا. وتؤكد هذا القول النصوص التاريخية المكتشفة، مثل تلك الرسالة التي عثر عليها في مدينة تل الحريري (ماري) وتعود للقرن الثامن عشر قبل الميلاد، والتي تذكر أن عددًا من ملوك الدول، خاصة في لارسا وإشنونا وقطنا (المشرفة)، قد تبعوا حمورابي في بابل، بينما انضم آخرون إلى ياريم- ليم ملك يمحاض (حلب)، كما أن عددًا قليلاً من الحكام الأقوياء فرضوا الجزية على ملوك البلاد الضعيفة. كذلك، وفي النصف الثاني من النصف الأول من الألف الثاني

قبل الميلاد، استطاع بعض هؤلاء الملوك مد نفوذ بلادهم، وتوسيع حدود مملكتهم على حساب الممالك الأخرى، وإن كان ذلك حدث لفترة وجيزة. وفي واقع الأمر، لم يستطع الباحثون وضع حد زمني دقيق بين تشرذم هذه الدول ووحدتها سياسيًا في بلاد الشرق الأدنى القديم. وسوف نقدم في هذا الفصل دراسة لبعض دويلات المدن أولاً، ثم نتبعها في الفصول التالية بدراسة لدولة الأمة.

من المؤكد أنه أصبح بمقدور الباحثين الحصول على معلومات كثيرة مسجلة حول الشرق الأدنى القديم خلال بداية الألف الثاني قبل الميلاد، نتيجة لتوفر النصوص المكتوبة. فالكتابة بالخط المسماري أصبحت شائعة في بلاد الشرق الأدنى القديم، سواء في جنوب شرقي إيران، وفي أواسط بلاد الأناضول، أو في غربي سورية. وكانت بابل المركز الرئيسي للحصول على الوثائق والمصادر التاريخية المكتوبة، خاصة إذا ما علمنا أن اللهجة الأكادية، والخط الأكادي، أصبحا متداولين عند بعض الأمم المتحدثة باللغات الأخرى مثل الأمورية، والحورية، والعيلامية. وجاء الاستثناء الوحيد من أواسط الأناضول، حيث عثر على رقم في مستعمرة تجارية آشورية، مكتوبة بالخط المسماري، لكن باللهجة الآشورية القديمة. كما أن الإشارات أو العلامات المسمارية السومرية اختلفت عن تلك الأكادية. ومما تجب الإشارة إليه، أن اللغة السومرية بقيت لغة الثقافة والدين، لكنها ظلت، خلال هذه الفترة، قيد الاستعمال فقط في بلاد بابل.

إن المصادر المكتوبة التي عثر عليها في بلاد الشرق الأدنى القديم، والعائدة للنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، جاءت تخص مصادر وأماكن محددة، إما من المؤسسات التابعة للدولة، أو من ملكيات ومقتنيات خاصة. وعلى أية حال، فإن ما عثر عليه في بابل، اكتشف ضمن ملكيات خاصة لأفراد، وذلك على العكس من النصوص المؤرخة لزمن مملكة أور الثالثة، حيث جاءت جميعًا من الأرشيف التابع للدولة. كذلك فإن النصوص الآشورية التي عثر عليها في بلاد الأناضول تصنف ضمن المجموعات الخاصة، علمًا أنه في مناطق بلاد الشرق الأدنى القديم الأخرى وجدت النصوص المكتوبة فقط في القصور، وفي مباني المؤسسات الملكية الأخرى. وتحدثت غالبية النصوص عن الأعمال التجارية، والعلاقات الشخصية بين الناس، لذا فإنها لا تسعفنا كثيرًا في معرفة الأحوال السياسية التي سادت خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد.

ومعلوم أن تاريخ بلاد الشام خلال هذه الفترة والفترات اللاحقة ارتبط بشكل كبير ببلاد الرافدين ومصر. ونقدم أدناه شرحًا موجزًا عن طبيعة العلاقة بين هذين البلدين وبلاد الشام خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد.

بابل وبلاد الشام في العصر البرونزي المتوسط

جاءت نهاية مملكة أور الثالثة على يد العيلاميين، علمًا أن ملوك هذه المملكة حافظوا على طابع الحياة الثقافية والسياسية السومرية والأكادية في بلاد الرافدين. وخلال حكم الملك أبي- سن آخر ملوك أسرة أور الثالثة، استطاع أحد قادته، وهو إشبي - إرًا، أن يؤسس أسرة حاكمة في مدينة إسين، وأن يطرد العيلاميين من البلاد. وتضاعفت قوة هذه الأسرة خلال القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد. وتشكلت في كل من إسين ولارسا في الجنوب، وبابل في الشمال منهما، أسر تحكم في هذه المدن. أما في المنطقة الواقعة شرقي نهر دجلة؛ فتشكلت أسرات مستقلة تحكم في مدينتي أشنونا وآشور، علمًا أنه كان في كل من مدن الوركاء وكيش وسيبار ملك يحكم عليها، بينما بقيت عيلام خارج السيطرة البابلية.

ومع بداية القرن التاسع عشر قبل الميلاد، تفجر الصراع بين حكام هذه المدن مما تسبب في وقوع حروب بينها. ومع ذلك، اتفقت هذه الممالك التي نشأت في بابل، في أن تتبع نظامًا دينيًا موحدًا، مركزه مدينة نيبور. ولهذا، فإن الملك الذي كان يسيطر على هذه المدينة، كان له الحق في تسمية نفسه ملك سومر وأكاد. كما أن المباركة التي يحظى بها أي ملك من الكاهن الأعظم في نيبور تمنحه وضعية خاصة بين الملوك الآخرين. وكان ثمة عامل مشترك آخر يربط بين هذه المدن، ألا وهو، الاتفاق على تعيين الكاهنة الأعظم في مدينة أور. وفي العادة، كان هذا المنصب مخصص لابنة الحاكم. لكن ومع بداية الألف الثاني قبل الميلاد تحول هذا المنصب لابنة ملك الأسرة التي تحكم مدينة أور.

وعلى الرغم من الصراعات السياسية التي كانت قائمة في منطقة بابل، إلا أن الأحوال الاقتصادية بقيت منتعشة. ودلت على ذلك النصوص المكتوبة التي عثر عليها في أكثر من مدينة بابلية. فمع بداية الألف الثاني قبل الميلاد ظهر ما يمكن تسميته بالملكيات

الخاصة. وحصل هذا الأمر بشكل تدريجي دون قصد أو تخطيط مسبق. لكن المؤسسات العامة، مثل القصر والمعبد، بقيت تحتفظ بمصادرها التمويلية الخاصة بها. فالقصر في مدينة إسين بقي هو المتحكم في صناعة البضائع الصوفية، وأعواد القصب، والجلود، والأخشاب. وكان يشرف على المصانع إداريون تابعون للقصر. كذلك قام ملاك الأراضي بإعطاء أراضيهم للفلاحين لاستغلالها مقابل حصة معينة من منتوج الأرض. كما كان هناك رعاة للمواشي مقابل أجر، لكن كان عليهم أن يسلموا إلى أصحابها حصصًا محددة من الصوف، والشعر، والمنتجات الحيوانية.

كما عين على بعض الوظائف الإدارية أشخاص مستقلون، فعوضًا عن تشغيل أناس تحكمهم بيروقراطية الوظيفة، قامت المؤسسات العامة بتعيين أشخاص مستقلين للوساطة بينها وبين المواطنين. وكان هذا النظام الاقتصادي علامة فارقة في الفترة ما بين حوالي 2000-1600 قبل الميلاد، والذي أثر في شكل المجتمع في بلاد بابل، وانعكس بدوره على المجتمعات المعاصرة لها في المناطق المجاورة، ومنها أواسط بلاد الشام وشماليها. ويظهر أن الأعباء التي ألقيت على كاهل المزارعين والمنتجين الآخرين كانت عالية جدًا، مما أدى إلى عجزهم عن الوفاء بها واللجوء إلى أرباب العمل للاستدانة منهم، الأمر الذي رتب عليهم ديونًا كبيرة. وقد عثر ضمن السجلات التجارية على نصوص عقود للقروض والسلف، إذ يضطر القصر في مثل هذه الحالات إلى التدخل لإعادة جدولة ديون بعض أولئك المزارعين.

دخلت القبائل الأمورية بابل كما دخلت غيرها من مدن بلاد الرافدين خلال نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد، وتمكنت إحداها في مطلع القرن التاسع عشر قبل الميلاد من تأسيس دولة عرفت بالدولة البابلية الأولى، والتي كان من أشهر ملوكها حمورابي (حوالي 1792 - 1750 قبل الميلاد) (قابلو وفرعون 2006: 60). وفي بداية حكمه، حكم آشور الملك القوي شمشي-أدد، وبوفاته في حوالي 1782 قبل الميلاد، تخلص حمورابي من أهم منافسيه الأقوياء، وتحالف في بداية الأمر مع زمري- ليم ملك تل الحريري، ثم انضم إليهما ملك مملكة يمحاض "حلب"، الذي كان يسيطر على معظم شمالي سورية. لكن هذا التحالف لم يدم طويلاً، فبعد أن تخلص من أعدائه ومنافسيه في بلاد الرافدين وشرقيها، وجه حملاته العسكرية على حلفاء الأمس، خاصة في تل الحريري. وربما أراد حمورابي بهذا أن يسيطر على التجارة في منطقة

شرقي البحر المتوسط، لا سيما إذا علمنا أن تل الحريري كانت هي عقدة المواصلات التجارية في المنطقة. وقد حكم بعد حمورابي عدد من الملوك حتى استطاع الحثيون بقيادة ملكهم مورسيل الأول (في حوالي 1595 قبل الميلاد) الهجوم على سورية، وأتبعوه بمهاجمة بابل وإسقاطها. وشاركتهم في هذا الهجوم عناصر من الكاشيين الذين كانوا في خدمة البابليين، والذين استلموا الحكم في بابل بعد البابليين الأوائل.

آشور وبلاد الشام خلال العصر البرونزي المتوسط

مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد، أصبح هناك تركيز على التجارة الدولية التي قام بها تجار من مدينة آشور، والتي يبدو أنها كانت مركزًا تجاريًا مهمًا يربط بين عدد من الطرق التجارية. فقد تاجر أهلها بالقصدير الذي جلبوه من إيران في الشرق، وبالفضة والذهب من بلاد الأناضول، وبالمنسوجات من بابل. وسيَّر التجار قوافل من حمير استخدمت في نقل البضائع. وقد تمكن الباحثون من الحصول على هذه المعلومات بعد دراسة وتحليل النصوص المكتوبة على أكثر من عشرين ألف رقم عثر عليها في مستعمرة آشورية، هي كاروم Kārum في كانيش (تقع في شرقي تركيا، واسمها الحالي Kültepe، وتبعد حوالي 1000كم شمال آشور)، والتي أقيمت في وسط الأناضول.

استطاع شمشي-أدد، وهو من أصل أموري، قيادة جماعة من البدو واحتلال مدينة آشور، ثم قام بتوسيع منطقة حكمه في المناطق المجاورة. وقام هذا الملك ببناء معبد للإله إنليل سيد مجمع الآلهة السومري في مدينة آشور. كما سمى مدينته في أعالي بلاد الرافدين باسم شوباط-إنليل، والتي ربما تكون موقع تل ليلان الحالي بالقرب من القامشلي في شمال شرقي سورية. ومعظم المعلومات المتوفرة لدينا حول الملك شمشي-أدد مستمدة من أرشيف ماري، حيث عثر على حوالي 129 رسالة مرسلة من هذا الملك إلى ملك ماري. وكان شمشي-أدد أوكل أمر المقاطعات الشرقية والجنوبية الشرقية لابنه إشمي داجان، ومنطقة ماري إلى ابنه يسمح-أدد.

شملت الدولة الآشورية القديمة القسم الشمالي كله من بلاد الرافدين، لكن قوتها كانت مرتبطة بشمشي-أدد. لكن، بعد وفاته، لم يستطع ولي عهده إشمي داجان المحافظة على وحدة دولة أبيه، فعاد زمري ليم إلى مدينة ماري بمساعدة ملك يمحاض،

وقام ملك أشنونا بمهاجمة آشور من الجنوب والاستيلاء على أجزاء منها. كما فقدت الدولة عدة مناطق في الشمال/ أعالي الرافدين، مما أدى إلى تقليص آشور إلى دولة صغيرة لم يعد لها ذكر في السرديات التاريخية.

مصر وبلاد الشام خلال العصر البرونزي المتوسط

على الرغم من أن جنوبي بلاد الشام لم يشكل لدى المصريين خلال حكم الأسرة الثانية عشرة المصرية نفس الأهمية العسكرية أو الاقتصادية التي شكلتها منطقتا شمالي هذه البلاد، وسيناء، إلا أنها بقيت معبرًا للبضائع والناس، ومصدرًا لاستيراد المنتجات الزراعية والحيوانية خلال العصر البرونزي المتوسط. وعندما اعتلى الفرعون أمنحوتب الأول (حوالي 1991-1962 قبل الميلاد) سدة الحكم في البلاد، قام ببناء القلاع والتحصينات في منطقة الدلتا المصرية بهدف وقف تسرب الآسيويين غير الشرعي إلى مصر. ومن الواضح أن المصريين القدماء كانوا غير راغبين برؤية دول قوية في المناطق المحيطة بمصر، خاصة في بلاد الشام عامة، والأردن وفلسطين خاصة، والتي كانت تشعرهم دائمًا بأن الخطر يهددهم من جهة مصر الشمالية الشرقية. لذا، قام المصريون ببناء وتحصين مواقع لهم خلال العصر البرونزي المتوسط في جنوبي بلاد الشام، كما كان الحال في تل المتسلم الذي كان مقرًا لمندوب الفرعون المصري، ووظيفته جمع المحاصيل والغلال، والمنتجات الأخرى من حبوب وخمور، والماشية، وإرسالها للفرعون في مصر. بل لم يكتف المصريون بهذا، ففي زمن الفرعون سنوسرت الثالث (حوالي 1878-1842 قبل الميلاد)، جردت حملة عسكرية على جنوبي بلاد الشام، وبالتحديد على منطقة بلاطة بالقرب من نابلس (Ahlström 1993: 166)، يبدو أن الغرض منها، إضافة لإضعاف دول المدن الشامية عسكريًا، كان حماية الطريق التجاري الواصل بين بلاد الشام ومصر. وكانت التنقيبات الأثرية أكدت حدوث تدمير لعدد من المدن الشامية خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد، أي فترة العصر البرونزي المتوسط الثاني. كذلك، عثر على عدد من المسلات والتماثيل المصرية في مواقع عدة من بلاد الشام، مثل بيروت، وقطنا، ورأس شمرا، وتل الجزر، وتل المتسلم، وغزة. إضافة لهذا، عثر في عدد من مواقع العصر البرونزي المتوسط في بلاد الشام على لقى أثرية مصرية أخرى، مثل الجعلان، والآنية المرمرية، والحلي المصنوعة من الذهب والفضة،

وقطع الأثاث. ومن الجدير بالذكر، أن كميات اللقى الأثرية المصرية التي عثر عليها في بلاد الشام تفاوتت بين مرحلة وأخرى، إذ كانت قليلة جدًا خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط (حوالي 2000-1800 قبل الميلاد)، ثم ازدادت كمياتها وأعدادها في الفترات اللاحقة من العصر نفسه (حوالي 1800-1550 قبل الميلاد). وربما يعود السبب في هذا إلى أن عددًا من المدن الشامية، خاصة الفلسطينية، مثل تل وقاص، وتل المتسلم، وتل السلطان/أريحا، وتل العجول، كان واقعًا على الطرق التجارية الواصلة بين مصر وبلاد الشام خلال المراحل الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط.

وشهدت فترة حكم الأسرات المصرية، منذ الثالثة عشرة وحتى نهاية السابعة عشرة، انقسامات داخلية، وتراجع خلالها نفوذ مصر وعلاقاتها، خاصة مع النوبة في الجنوب (Heinz 2002: 121). لكن مصر حافظت على علاقاتها التجارية ببلاد الشام، ويظهر هذا بوضوح في المخلفات الأثرية التي عثر عليها في مدينة جبيل، على الساحل اللبناني (قابلو وفرعون 2006: 297). فعلى سبيل المثال، استطاعت إحدى الأسرات المصرية تأسيس مملكة لها في غربي الدلتا، فكانت الأسرة الرابعة عشرة، أما في منطقة الدلتا فحكم الهكسوس (الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة)، وتأسست الأسرة السابعة عشرة في مدينة طيبة خلال نهاية حكم الهكسوس. وذكر الدارسون أنه من الصعب تحديد الدور الذي أداه الهكسوس في بناء الإرث الحضاري في بلاد الشام، لكن يظهر أنه كانت هناك صلات سياسية قوية بين هاتين المنطقتين. وانعكست هذه الصلات على المخلفات الأثرية المنسوبة للكنعانيين (Tubb 1998: 64).

ويدور نقاش بين العلماء حول أصل الهكسوس، لكن هناك اتفاق على أصلهم السامي وعلى أنهم دخلوا شرقي الدلتا المصرية سلميًا، ربما عن طريق التجارة. وبمرور الوقت، ازدادت قوتهم وتعاظم نفوذهم، واتخذوا من مدينة أواريس عاصمة لهم. وعلى الرغم من تبني هؤلاء لبعض الأسماء والآلهة المصرية، إلا أن المصريين ظلوا يعدونهم غرباء عن مصر؛ فعملوا على طردهم منها، حتى تحقق لهم هذا نهائيًا في حوالي 1550 قبل الميلاد، على يد أحمس الأول أحد ملوك الأسرة السابعة عشرة في طيبة، والتي عاصرت الهكسوس لفترة من الوقت.

أما فيما يتعلق ببلاد الشام (خريطة 8)؛ وكما ذكرنا أعلاه، فقد تأسس خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد في أواسط وشمالي بلاد الشام عدد من الممالك، منها: تل

الحريري (ماري)، وحلب (يمحاض)، وتل مرديخ (إبلا)، وتل العطشانة (ألالاخ). أما في جنوبي بلاد الشام؛ فقد ساد نظام سياسي هو دولة المدينة، ومن أهم دول المدن، تل القاضي، وتل المتسلم، وتل السلطان/أريحا (في فلسطين)، وجاوة وطبقة فحل (في الأردن). لكن هذه الأخيرة لم تتمتع بالقوة والاستقلالية التي تمتعت بها الممالك الشمالية.

آثار بلاد الشام في العصر البرونزي المتوسط

كان لموقع بلاد الشام الجغرافي دور كبير في الاتصالات والتجارة العالمية على امتداد العصور، إذ تحتل هذه البلاد طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط، فهي بهذا تربط آسيا بأوروبا وإفريقيا عن طريق البحر، كما تعد منطقة فاصلة وواصلة بين الحضارات التي نشأت وانتهت في بلاد الرافدين ومصر القديمة والأناضول. لذا، نجد أن المادة الحضارية المكتشفة في بلاد الشام تعكس طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بينها وبين هذه البلدان. ومن المعلوم أن بلاد الشام خضعت في معظم فترات العصور البرونزية المتوسطة والأخيرة للسيطرة المصرية على جنوبها، والحثية والميتانية على شمالها. لكن، لم يخل الأمر من بعض مراحل الاستقلال، خاصة لبعض مراكز المدن التي اتبعت النظام السياسي المعروف باسم دولة المدينة، أي أنه كان لكل مدينة حاكمها.

وتؤكد الأبحاث الميدانية التي جرت بشمال سورية، وغربيها، أن المواقع الأثرية، والمؤرخة للفترة ما بين حوالي 2000 - 1800 قبل الميلاد، تراجعت مساحاتها عن الفترة السابقة، حتى أن بعض مواقع العصر البرونزي المبكر هجرت، عدا موقع تل مرديخ الذي كان مدينة كبيرة ومسورة. وللأسف؛ فإن الدراسات المنشورة حول الأعمال الميدانية في مناطق الشاغور، وجبول، وقويق، والعمق، وعكار، وحتى رأس شمرا لم تساعدنا في تمييز الفروقات بين آثار المرحلتين الأولى والثانية من العصر البرونزي المتوسط (Akkermans and Schwartz 2003: 294). لكن الأمر يختلف في منطقة حوض الفرات الأوسط، حيث عثر على بقايا لمواقع صغيرة، يبدو أنها لم تعمر طويلاً، كمواقع سلنكحية، وسويحات، وتل الكبير، وتل الحديدي، وحلاوة. أما في مواقع أخرى، مثل حماة؛ فأعيد سكناها خلال العصر البرونزي المتوسط الأول، بعد هجرانها لفترة من الزمان. وجاءت آثار العصر البرونزي المتوسط الأول من منطقة الجزيرة السورية

فقيرة وقليلة، مما يدل على وجود تراجع حضاري فيها بعد نهاية العصر البرونزي المبكر. ولا أدل على ذلك من هجران مواقع العصر البرونزي المبكر الكبيرة أو تراجع مساحاتها، مثل تل براك. ومن المواقع الممثلة لهذة الفترة ومن هذه المنطقة موقعا تل بيعة، وحمام التركمان، ويقع الأخير في حوض نهر البليخ. وحتى موقع تل الحريري واجه تراجعًا حضاريًا، حسب رأي المنقبين فيه. ويمكننا القول إن التنقيبات الأثرية في موقع تل بيعة أنتجت كمية كبيرة من الآنية الفخارية المؤرخة لبداية الألف الثاني قبل الميلاد (Einwag 1998).

وإذا ما أردنا الحديث عن طبيعة الاستقرار خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط في جنوبي بلاد الشام، نستطيع القول إن الأمر لم يخرج عن كونه إعادة للسكنى في عدد من مواقع العصر البرونزي المبكر المبكر، والتي لم تتعد في طبيعتها عن قرى صغيرة. إلا أنه في بعض الحالات أعيد الاستقرار في بعض المواقع، مثل موقع جاوة في شمالي الأردن (كفافي 2006)، وتل الفارعة الشمالية (de Vaux 1962)، كما أسست مواقع لأول مرة، مثل تل بلاطة بالقرب من نابلس في فلسطين (Gerstenblith 1983; Cole 1984). وتشير نتائج التنقيبات أن معظم المواقع العائدة لهذه الفترة لم تكن محصنة، إلا في حالات قليلة، مثل جاوة وخربة إسكندر في الأردن، وفي رأس العين وتل برقا في فلسطين (Ahlström 1993: 164). كذلك كشف عن عدد من المعابد التي تؤرخ للعصر البرونزي المتوسط الأول، في عدد من المواقع، مثل تل الحيات في غور الأردن، وتل المتسلم في سهل مرج ابن عامر.

وسكن الناس في هذه المرحلة في مناطق متفرقة، مثل الساحل، وسهل مرج ابن عامر، وشمالي غور الأردن، والحرة البازلتية بشمالي الأردن. ومن المحير أن مناطق خصبة وصالحة للزراعة، مثل سهل الحولة بشمالي فلسطين، وسهل البقاع في لبنان لم يجر الاستقرار فيهما خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط (Ahlström 1993: 163). كما نود التذكير بأنه خلال العقود الفائتة اقترح عدد من الباحثين أنه كان للأموريين اليد الطولى في تدمير مدن العصر البرونزي المبكر في كل من الأردن وفلسطين، لكن هذا القول لم يعد مقبولاً الآن (كفافي 2006).



خريطة 8: أهم مواقع بلاد الشام في العصر البرونزي المتوسط

ويبدو أنه مع بداية المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط وحتى نهايتها (خلال حكم الهكسوس)، انتشر الناس فوق مناطق أوسع، وأصبحوا أكثر عددًا، وسكنوا بكثافة في المدن، وزاد الغنى بين الناس. لذا، أخذ ساكنو المدن يحصنون مدنهم، ويبنون داخلها القصور والمعابد. ووصلت المدن إلى قمة ازدهارها مع نهاية هذه المرحلة. ومن أفضل الأمثلة على تلك المدن من منطقة جنوبي بلاد الشام: تل القاضي، وعكا، وتل وقاص، وبلاطة، وأريحا في فلسطين. ومن الأردن: طبقة فحل، وتل الحيات، وتل نمرين في غور الأردن، وتل العميري في المرتفعات الجبلية، واركيس قي منطقة الحرة في شمال شرقي الأردن (كفافي 2006).

وتعد المرحلة من حوالي 1800 إلى 1550 قبل الميلاد من أزهى فترات جنوبي بلاد الشام. ويمكننا القول إن مدن الساحل تطورت على نحوٍ أفضل من مدن الداخل في جنوبي بلاد الشام، والسبب في هذا أن الأولى تأثرت بالتجارة الداخلية والخارجية، بينما تعرضت مدن المرتفعات الجبلية لغزوات خارجية من جهة الشمال، ولدخول أقوام جديدة إليها، مثل الحوريون والحثيون (Ahlström 1993: 173). ومن الضروري التنبه إلى أنه خلال حكم الهكسوس على الدلتا المصرية، استطاعت المدن الشامية تنفس الصعداء من التبعية لمصر، وأن تتمتع بنوع من الاستقلالية، ولو إلى حين. وربما يعزى السبب في ذلك إلى أن حكام مصر آنذاك، الهكسوس، كانوا من أصل آسيوي، وربما من بلاد الشام تحديدًا.

ولم يترك لنا البدو الأموريون آثارًا كثيرة تعود لبداية حياتهم في بلاد الشام، أي خلال الألف الثالث قبل الميلاد، لأنهم كانوا بدوًا رحلاً، لكن الوضع اختلف بعد تأسيسهم لعدد من الدول في كل من شمالي بلاد الشام وبلاد الرافدين خلال الألف الثاني قبل الميلاد. إذ راجت التجارة في بلاد الشرق الأدنى القديم، وأصبحت العامل الأساسي في العلاقات بين الدول والناس خلال العصر البرونزي المتوسط. وترك أهل بلاد الشام الذين عاشوا في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد آثارًا ضخمة، نلخص الحديث عنها، أدناه. وسيكون حديثنا حول تلك الآثار موزعًا على المناطق الجغرافية، وحسب الفترات الزمنية، من أقدمها لأحدثها.

أ. آثار العصر البرونزي المتوسط الأول في شمالي بلاد الشام

عكست الآثار المكتشفة في منطقة شمالي بلاد الشام طبيعة الأحوال التي سادت هناك خلال العصر البرونزي المتوسط، وبشكل خاص بين حوالي 2000 -1800 قبل الميلاد، وحصلنا على أفضل الأمثلة من موقع تل مرديخ. واستطاع المنقبون في الموقع التعرف على بقايا مدينة من العصر البرونزي المتوسط، تبعت مدينة العصر البرونزي المبكر، جاءت متراتبة عموديًا، حيث نسبت الطبقات المعروفة بـ"مرديخ III A" إلى العصر البرونزي المتوسط الأول، وفوقها الطبقات الموسومة بـ"مرديخ III B" العائدة للعصر البرونزي المتوسط الثاني (Matthiae 1997). وإضافة لتل مرديخ، هناك مواقع أخرى في منطقة شمال وشمال غربي سورية، مثل حماة وتل العطشانة، قدمت لنا مخلفات أثرية بتراتب طبقي، وتحوي آثارًا من العصر البرونزي المتوسط. ونقدم في هذا الفصل شرحًا كاملاً عن كل موقع من هذه المواقع.

لاحظ المختصون بدراسة الآنية الفخارية المكتشفة في منطقة شمالي، وشمال غربي سورية، أن هناك فروقات واختلافات واضحة في أشكالها، وزخارفها، وعجينتها، وطريقة تشكيلها في مرحلتي العصر البرونزي المبكر، والمتوسط الأول. كما تمايزت أشكال الدمى الصلصالية، ومخططات البيوت في بداية الألف الثاني عن نهاية الألف الثالث. وأثبتت التنقيبات التي جرت في مواقع في شمال غربي سورية، مثل تل مرديخ والسويحات وتل الحديدي، وجود تدرج في هذا الانتقال من الفترة السابقة إلى بداية العصر البرونزي المتوسط (Cooper 1998). وذكر الباحثون أن فخار المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط بشمالي سورية تميز بخشونة الصلصال المصنوعة منه الآنية، وكبر حجم المواد المضافة للعجينة لتقويتها، وسماكة جدران الآنية، وضعف درجة الحرق، مقارنة بالمرحلة السابقة. ويبدو أن صناع الآنية الفخارية كان همهم الكم، وليس الكيف. وبطبيعة الحال، فإن ما يساعد على هذا الأمر استخدام العجلة السريعة في تشكيل الآنية. وقد شملت الآنية الفخارية الكؤوس، والصحون، والزبادي، والأباريق، والجرار، وآنية الطبخ. وامتازت هذه الآنية بقواعدها المنبسطة، وتعرج بدنها، وبحوافها السميكة أحيانًا. كما زخرفت الآنية بزخارف محزوزة أو مدهونة، وبأشكال هندسية في أغلب الحالات، ولم يخل الأمر من رسومات لحيوانات أو نباتات.

كما قام الصانع بصقل أسطح بعضها (Nigro 1998). وظهرت في هذا الوقت أيضًا، وفي منطقة الجزيرة السورية، آنية فخارية عرفت بـ"فخار الخابور".

عادت المدينة بشمالي بلاد الشام مع نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد لتصبغ حضارة هذه المنطقة بطابعها. فمن ناحية، تشكلت وحدات سياسية في عدد من الأماكن ترك لنا فيها أصحابها وثائق وسجلات مكتوبة، مثل تل الحريري، وتل ليلان. وأصبحت هذه المراكز الحضارية تسيطر على مساحات كبيرة من الأراضي والمناطق المجاورة لها. وبدأ عدد من الممالك الكبيرة بالظهور، مثل يمحاض (حلب)، وقطنا (المشرفة). وتحدثت الوثائق المكتوبة المعاصرة بشكل مطول حول مملكة يمحاض ودورها السياسي في المنطقة. وأكدت أهميتها الآثار المكتشفة في عاصمتها حلب والمناطق التابعة لها.

كذلك الأمر حصل في منطقة شمال غربي بلاد الشام إذ أصبحت المدينة هي الأساس خلال الفترة ما بين 1800 وحتى 1600 قبل الميلاد، مثل تل مرديخ وتل العطشانة. ولاحظ الدارسون وجود كميات كبيرة من الآنية الفخارية البسيطة الصنع والخالية من الزخارف، والتي تؤرخ للمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط في تل مرديخ.

أما منطقة أواسط بلاد الشام فخلال بداية العصر البرونزي المتوسط، تحدثت وثائق تل الحريري عن وجود مملكة في دمشق اسمها "أبوم" (Akkermans and Schwartz 2003: 318). ودعمت هذا القول الدلائل الأثرية المكتشفة في عدد من المواقع المحيطة بدمشق نفسها، والتي يؤرخ بعضها للعصر البرونزي المتوسط، مثل تل سكا، والدرخبية، وتليلات سكا، ويبرود، وتل الصالحية (Von der Osten 1956; Abou Assaf 1967; Taraqji 1999). وتعد منطقة حوران ذات الأرض الخصبة امتدادًا لمنطقة جنوبي غوطة دمشق، وإن كانت تختلف عنها في جغرافيتها. ولم تخل هذه المنطقة على مدى العصور من السكان. أما عن العصر البرونزي المتوسط في هذه المنطقة، فقد كشفت المسوحات الأثرية في الجزء الشرقي منها، خاصة في المنطقة المحيطة بمدينة السويداء، عن عدد من المواقع المؤرخة للنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، منها موقع دبه Debbeh إلى الشمال من مدينة السويداء (Braemer 1988; al-Maqdissi 1991). أما في غربي حوران، أي المنطقة المحيطة بمدينة درعا، فعثر على مخلفات أثرية تعود للعصر البرونزي المتوسط، في مواقع تل عشترة (Abou Assaf 1968)، وتل الأشعري، ودرعا نفسها (al-Maqdissi 1993).

أما عن لبنان؛ فلا تزال معلوماتنا حول العصر البرونزي المتوسط بسيطة، ولا تتعدى كونها نتف من المعلومات موزعة على تقارير التنقيبات المختلفة. وقد عثر على بقايا آثار تؤرخ لهذه الفترة في مواقع عدة، منها: بيروت، وبعلبك، وتل كزل، وعرقة، وكامد اللوز، وجبيل (Chehab 1965; Saidah 1971; Heinz 2002: 118-158). ولم يعثر في هذه المواقع على أي أرشيف أو مكتبة تحوي رقمًا كما كان حال مدن العصر البرونزي المتوسط في سورية، باستثناء عدد من الرقم التي وجدت في حفرية غير شرعية في كامد اللوز، وأرخت للفترة البابلية القديمة. وهي بهذا لا تختلف عن مدن جنوبي بلاد الشام. وتؤكد المنقبة في كامد اللوز، مارليز هاينتس، أن معبدًا، وجزءًا من الحي السكني، وربما قصر العصر البرونزي المتأخر تأسس خلال العصر البرونزي المتوسط (Heinz 2002: 143-144). ولا بد من التذكير بأن موقع سهل البقاع في لبنان حيث يتمركز موقع كامد اللوز، كان بحق حلقة وصل ومعبرًا تجاريًا عبر العصور بين جنوبي بلاد الشام ومصر في الجنوب، وشمالي بلاد الشام وبلاد الرافدين والأناضول من جهة أخرى.

وكانت المراحل الأخيرة (الثانية والثالثة) من العصر البرونزي المتوسط امتازت بظهور أنواع جديدة من الآنية الفخارية، خاصة في جنوبي بلاد الشام، ومنها المعروف بفخار تل اليهودية، والثاني المزخرف بزخارف مدهونة بلون بني غامق (لون الشيكولاتة) على أرضية بيضاء اللون. واكتشف الطراز الأول في مناطق مختلفة، مثل موقع تل الضبعة في الدلتا المصرية، وكان هذا الموقع عاصمة للهكسوس، وفي كثير من مواقع الأردن وفلسطين (Amiran 1969). وعثر على فخار تل اليهودية أيضًا في مواقع في سورية، مثل رأس شمرا على الساحل السوري للبحر المتوسط، وفي موقع تل الغسيل (القبر رقم 1) في سهل البقاع في لبنان، والذي أرخته المنقبة لحوالي 1730- 1550 قبل الميلاد (Badre 1982: 132)، وفي موقع مدافن حينه (تل الكروم) في منطقة جبل الشيخ حيث عثر على عدد كبير من الآنية من هذا النوع (حمود 2010).

ولتلخيص سمات مواقع العصر البرونزي المتوسط في سورية، يبدو من الواضح وجود تنوع واختلاف في مساحاتها وطبيعة الاستقرار فيها، إذ نجد المدن والبلدات والقرى والمخيمات موزعة في مختلف أنحاء البلاد. كما نجد أن معظم المدن كان محصنًا بالأسوار والبوابات، كما هو الحال في تل مرديخ والمشرفة وجرابلس. والسبب في بناء هذه

التحصينات هو الدفاع عن المدينة في حالة الحرب، ودلت على حصول هذا الأمر، أيضًا، الأسلحة المعدنية البرونزية التي وجدت مدفونة مع الأشخاص المتوفين في عدد من القبور.

أما بخصوص عمارة العصر البرونزي المتوسط؛ فجاءت المباني، عمومًا، مبنية من اللبن الطيني على أساسات حجرية. وتوزعت العمارة إلى شقين هما: المدنية، والدينية. وإذا ما بدأنا الحديث عن الطراز الأول، يمكننا القول إنه عثر في موقعي تل الحريري وتل ليلان في منطقة الجزيرة السورية على قصور جاء تخطيطها مشابهًا لمخططات قصور جنوبي بلاد الرافدين. إذ كان العنصر المعماري الأساسي في القصر هو وجود ساحة كبيرة، وواسعة، ومربعة أو مستطيلة الشكل، ويلتف حولها عدد من الغرف، وفيها تناظر في القطاعات المعمارية. وهي بهذا تختلف عن القصور التي اكتشفت في موقعي تل مرديخ وتل العطشانة في شمال غربي سورية. ومن المعلوم أن مبنى القصر لم يبن فقط لسكنى الملك أو الحاكم، بل كان، أيضًا، مركز الحكم والإدارة، ومستودعًا لجميع احتياجات المواطنين من مؤن، وطعام، وغذاء. وفيه يستقبل الملك وكبار رجال الدولة ضيوفهم.

ويظهر من نتائج التنقيبات الأثرية أن عمارة البيوت السكنية خلال العصر البرونزي المتوسط كانت أقل ضخامة من القصور، لكن البيت كان يسكن لفترة طويلة من الوقت بدليل أن المنقبين لاحظوا إعادة البناء، أو ترميم نفس البيت، أو حتى إجراء تعديلات على المبنى نفسه لأكثر من مرة. ولاحظ المنقبون في مواقع تل مرديخ، وشغار-بازار، أن الوحدة المنزلية تكونت من عدد من الغرف الكبيرة التي استخدمت الأقواس في بناء بعضها.

أما عن العمارة الدينية؛ فقد عثر في مواقع العصر البرونزي المتوسط في سورية ولبنان، مثل ليلان، وتل حريري، والمشرفة، وتل مرديخ، وألالاخ، وجبيل، على عدد من المعابد جاءت جدرانها أكثر سماكة من جدران معابد المرحلة السابقة، وربما يدلل هذا على وجود أكثر من طابق. واختلفت هذه في تخطيطها، فمثلاً وجدنا معبد تل ليلان متأثرًا جدًا بتخطيط المعابد الآشورية المعاصرة، والتي تتكون من غرفة متطاولة ومذبح، وحنايا، ومنصة. أما المعبد الذي اكتشف في تل محمد دياب؛ فجاء صغيرًا في مساحته، وتكون من غرفة واحدة فقط (Akkermans and Schwartz 2003: 321). ويؤكد

وجود المعابد المتعددة الأشكال والطرز على تعدد الآلهة. ويبدو أنه كانت هناك معبودات محلية، وأخرى خارجية.

وتشير عادات الدفن خلال العصر البرونزي المتوسط إلى تعدد في طبقات المجتمع، فهناك أشخاص دفنوا في قبور ملكية، كما هو الحال في تل مرديخ، والمشرفة (قطنا)، وهناك من دفنوا داخل حفرة بسيطة في الأرض، وأما الأطفال فدفنوا داخل جرار. وعثر في بعض المواقع على مدافن لأشخاص بالغين، وأطفال مدفونين تحت أرضيات البيوت. ووجدت مع الأشخاص المدفونين جرار، وآنية برونزية. كذلك عثر في صيدا على عدد من المدافن تعود للمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط. وقسمت المنقبة هذه المدافن إلى أربع مجموعات هي: القبور المبنية، والمحفورة في الأرض الكلسية، والمحفورة في الرمل، وأخيرًا الدفن في جرار. وجاءت هذه المدافن فردية، بينما عثر أيضًا على مدافن جماعية (Doumet-Serhal 2001: 162-171; 2002: 188-191).

امتازت الآنية الفخارية بتعددها، واختلاف أشكالها، وتنوع زخارفها، وبصناعة أكبر عدد منها دون الالتفات للنوعية. وظهر هناك عدد من هذه الصناعات، هي:

1. فخار الخابور.
2. الفخار السوري – الكليكي المدهون.
3. فخار تل مرديخ المدهون.
4. فخار بلاد الشام المدهون.

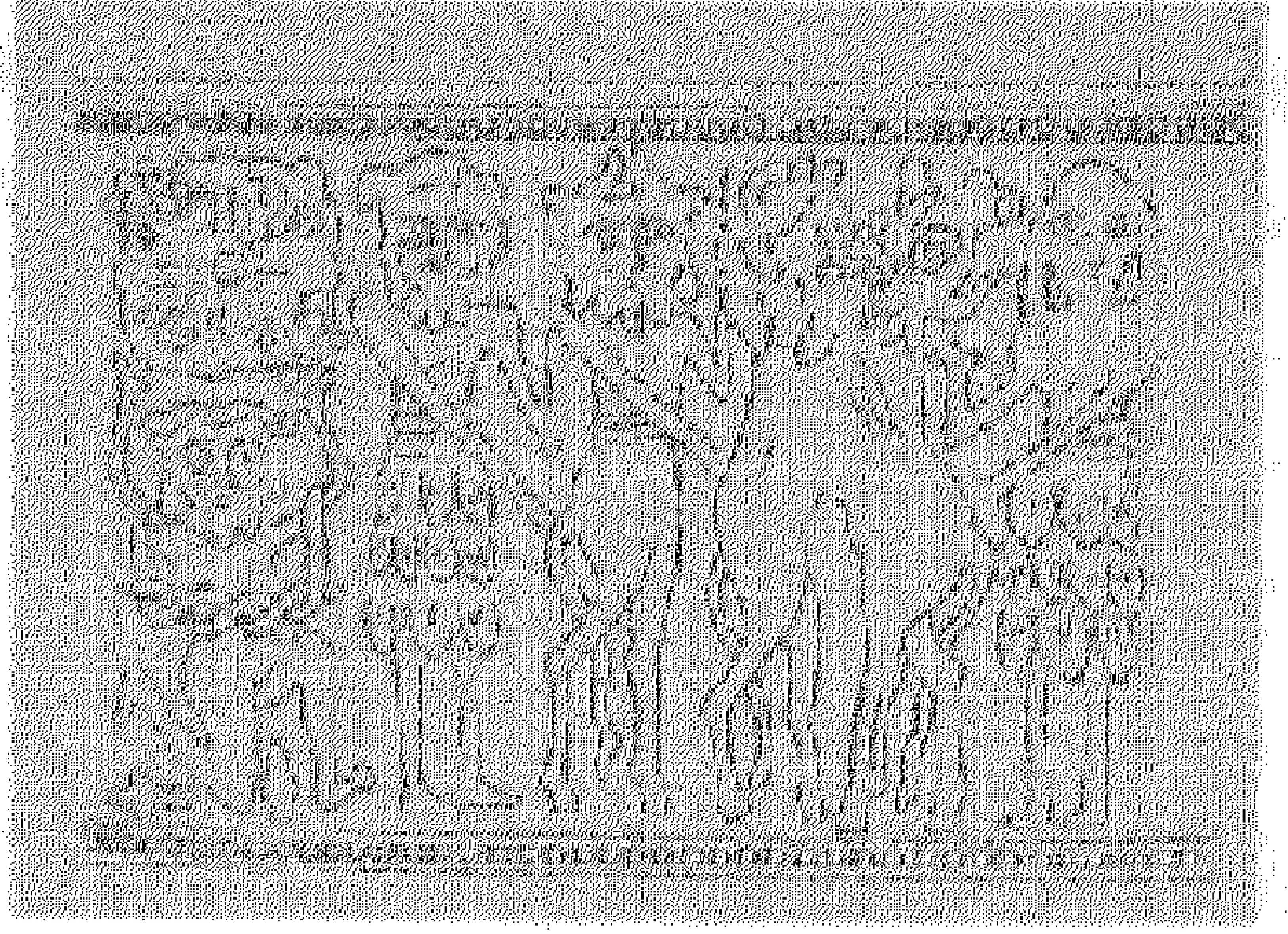
وكغيرها من الآثار المكتشفة، دلت هذه الصناعات الفخارية على تواصل حضاري بين جميع بلاد الشام، وعلى صلتها مع المناطق المحيطة. وتؤكد ذلك النصوص المكتوبة المكتشفة في موقع تل الحريري والمؤرخة لزمن ملكها الأموري زمري- ليم، والتي بينت طبيعة العلاقات التجارية التي ربطت بلاد الشام بالمناطق الأخرى. ولا أدل على هذا من المكتشفات الأثرية التي عثر عليها في أحد القبور الملكية في مدينة جبيل اللبنانية، حيث عثر فيه على قطع أثرية مصرية تعود إلى زمن الدولة الوسطى (Montet 1928). وحتى بعد أن تولى الهكسوس الحكم في الدلتا، بقيت العلاقات التجارية قائمة بين مصر وبلاد الشام، كما دلت على ذلك الجعلان المصرية التي عثر على أعداد كبيرة منها في مواقع شامية مختلفة.

ويجب ألا يفوتنا ذكر فن النحت في بلاد الشام، وبشكل خاص النحت على الأختام الأسطوانية (الشكل 67 أ-ب). إذ لاحظ الباحثون شدة تأثر النحات الذي حفر الموضوعات على أسطح الأختام، خاصة تلك التي عثر عليها في قصر زمري - ليم في تل الحريري، بمثيلاتها في جنوبي بلاد الرافدين. فمثلاً تكررت أشكال الآلهة والملوك نفسها، هنا، وهناك. أما خلال الفترة اللاحقة لحكم زمري – ليم؛ فتبين أن الطبقة الحاكمة، والعليا، في ممالك المدن السورية، بشكل عام، تأثرت بأكثر من مدرسة، غير مدرسة جنوبي الرافدين، كما تنوعت فيها الأشكال المصورة على الأختام (Weiss et al. 1990). لكن الأشكال المنحوتة على الأختام في منطقة شمال غربي سورية، مثل مواقع في حلب وتل العطشانة، كانت متأثرة بالمصرية.

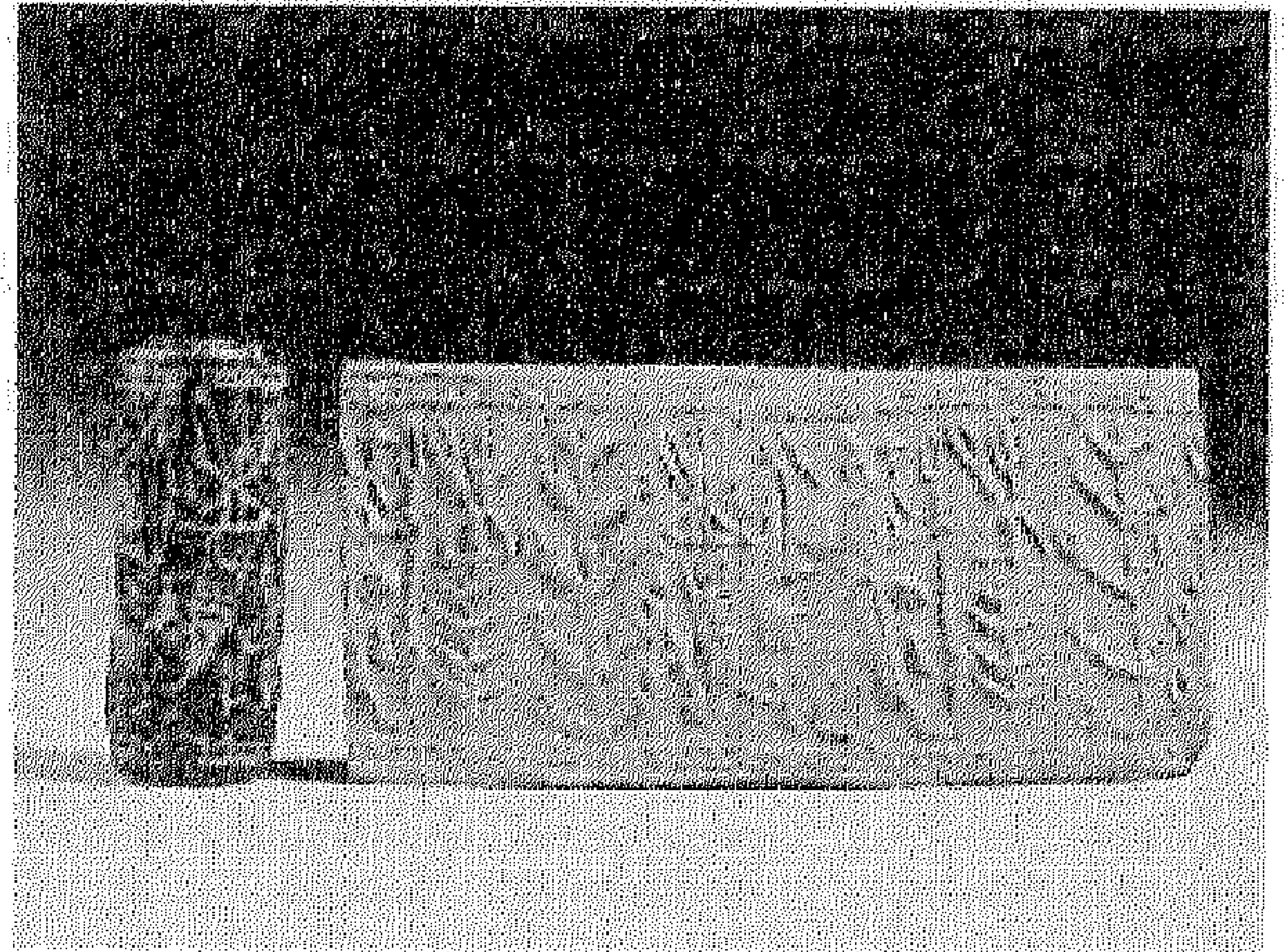
كذلك مارس الناس خلال العصر البرونزي المتوسط في بلاد الشام فنونًا أخرى، مثل صناعة الدمى يدويًا. ومن الأشكال الشائعة التي عثر عليها، كانت تمثل أنثى عارية، مصفوفة الشعر، بعينين شكلهما الفنان بشكل ثقوب، كما كان حال الأذنين (Marchetti 2000).

انتهت حضارة العصر البرونزي المتوسط في منطقة شمالي بلاد الشام بشكل دراماتيكي، وذلك عندما هاجم الحثيون مملكتي حلب وتل العطشانة، وفرضوا نوعًا من الوصاية عليهما. وربما قام هؤلاء أيضًا بمهاجمة تل مرديخ وإحراقها. إذ نجد أنها لم تعد تشكل ثقلاً سياسيًا، بل تراجعت، خاصة بعد سقوط مملكتي حلب وتل العطشانة.

ونقدم أدناه دراسة مختصرة لبعض مواقع العصر البرونزي المتوسط بشمالي بلاد الشام علّها توضح لنا أيضًا الجوانب الأثرية. وهذه المواقع هي: مملكة حلب "يمحاض"، ومملكة تل الحريري "ماري"، ومملكة المشرفة "قطنا"، وتل مرديخ "إبلا"، وتل عرقة، وجبيل.



67 أ



67 ب

الشكل 67 أ: رسم لمشهد محفور على ختم أسطواني من تل مرديخ
الشكل 67 ب: ختم أسطواني من شمال سورية، معروض في متحف اللوفر بباريس

1. حلب "يمحاض" / سورية

شكلت مملكة يمحاض (حلب الحالية)، خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، مع غيرها من الممالك الأمورية الأخرى، مثل مملكة تل العطشانة (ألالاخ)، قوة سياسية مركزية في شمال غربي بلاد الشام. وسيطرت هذه مجتمعة على المنطقة الممتدة بين نهري الفرات في الشرق والعاصي في الغرب. وجاء أول ذكر لكيان سياسي يدعى "يمحاض" في تقرير للملك يخدون-ليم (حوالي 1825 – 1810 قبل الميلاد) حاكم مدينة تل الحريري، وهو ابن الملك يجيد-ليم. علمًا أن وثائق تل مرديخ تثبت أن المدينة كانت موجودة خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وأن اسمها كان "خلب" وكانت مرتبطة بمملكة "إبلا" (ڤابلو وفرعون 2006: 150). ونتيجة لعدم تمكن الآثاريين من إجراء

تنقيبات موسعة في مدينة حلب الحديثة بسبب وجود المباني الحديثة مبنية فوق القديمة، اضطر الباحثون للاعتماد على المصادر التاريخية المكتشفة في المدن المحيطة، مثل أرشيفات تل الحريري، وتل العطشانة، وبوغاز-كوي، وتل ليلان.

يذكر أحد النقوش التي وجدت مكتوبة على جدران معبد الإله شماش في تل الحريري أن الملك يخدون- ليم جرد حملة على سورية بهدف الحصول على الأخشاب، ووصل فيها إلى شواطئ البحر المتوسط، فأخضع أهل هذه المنطقة وأجبرهم على دفع الجزية. ويظهر أنه في السنة نفسها التي جرت فيها الحملة، قام حكام المدن الواقعة على مجرى نهر الفرات بمهاجمة جيش الملك يخدون - ليم، ودعمهم في هذا الهجوم الملك سمو- إبوخ حاكم بلاد "يمحاض". وكان النصر في هذه المعركة حليف ملك تل الحريري الذي بسط سيطرته بعدها على وادي الفرات (كلينغل 1998 : 55).

ويبدو أن سمو-إبوخ حكم حلب لمدة طويلة، وسّع خلالها حدود مملكته لتمتد بين الفرات شرقًا والعاصي غربًا، ومن حدود مملكة قطنا جنوبًا حتى حدود مملكة جرابلس (كركميش) شمالاً. كما هاجم عدة مناطق تابعة لمملكة آشور، مثل قلعة دور شمشي-أدد. ومن هنا نستطيع القول إن هذا الملك الذي عاصر عددًا من الملوك الأقوياء في المنطقة، مثل حمورابي في بابل، وشمشي- أدد في آشور، وابنه يسمح -أدد في تل الحريري، ولم يكن يقل عنهم شأنًا. وشكلت الممالك الأشورية، وتل الحريري، وقطنا وغيرها الواقعة في شمالي بلاد الشام وجنوبي الأناضول، مثل جرابلس، تحالفًا ضد مملكة يمحاض في حلب. واستمر الصراع بينهما حتى بعد وفاة "سمو-إبوخ".

تولى الحكم بعد سمو-إبوخ ابنه الملك ياريم – ليم الأول (حوالي 1780 - 1765 قبل الميلاد)، وعاصر الملكين إشخي- أدد وابنه أموت-بيل في قطنا. أما في تل الحريري؛ فتولى الحكم زمري- ليم بعد طرد الملك الآشوري يسمح- أدد منها. ويقول بعض العلماء إن تاريخ يمحاض السياسي ارتبط في عصره بما كان يجري من أحداث في مملكة تل الحريري. والسبب في ذلك الصداقة التي جمعته بملكها زمري - ليم الذي عاش مدة من الوقت في حلب، بعد أن أقصاه الآشوريون عن الحكم، أي قبل توليه الحكم مرة أخرى.

حصلت في عهد الملك ياريم-ليم الأول عدة حروب، لا سيما مع مملكتي آشور وقطنا، ووقف في صفه ملوك إشنونا وبابل في بلاد الرافدين، وتوفي الملك شمشي-أدد الأول ملك

آشور في أثناء الحروب (في حوالي 1776 قبل الميلاد)، وملك قطنا إشخي-أدد. وأدى هذا الأمر، بطبيعة الحال، لتغير الأوضاع السياسية والعسكرية في المنطقة، إذ عاد زمري-ليم لتولي الحكم في تل الحريري، وتحالف مع ياريم -ليم الأول، بل تزوج ابنته تأكيدًا للصداقة بينهما. أقام ياريم - ليم الأول علاقات طيبة مع الممالك الواقعة للشمال من مملكته، مثل كركميش وأورشو، ومع ملك مملكة تل وقاص (حاصور) بشمالي فلسطين المدعو بن -حدد، لكنه تدخل في شؤون ممالك بلاد الرافدين، خاصة الواقعة في أواسطها وما وراء نهر دجلة (كلينغل 1998: 61 - 62).

بعد وفاة الملك ياريم - ليم الأول في حوالي 1765 قبل الميلاد، خلفه على الحكم ابنه حمورابي الأول، الذي تميز حكمه بإقامة علاقات طيبة مع ملوك تل الحريري ورأس شمرا وبابل، وطلب منه الأخير الوساطة لدى ملك تل الحريري، زمري -ليم، للسماح له بزيارة قصره الشهير. كذلك أرسل فرقًا من الجند لمساعدة حمورابي ملك بابل في الدفاع عن عرشه. وتشير الوثائق المؤرخة لفترة حكمه أن مملكة جرابلس (كركميش) خضعت إبّان حكمه لمملكة يمحاض. كما أن الصراع بين مملكته، يمحاض، ومملكة قطنا توقف.

تولى الحكم من بعد حمورابي الأول اليمحاضي عدد من الملوك هم على التوالي: آبا – إيل، وياريم - ليم الثاني، ونيقيميبا، وإركابتوم، وياريم- ليم الثالث، وأخيرًا حمورابي الثاني. ضعفت مملكة يمحاض خلال حكم بعض هؤلاء الملوك، وفقدت سيطرتها على كثير من أملاكها. بعد أن بقيت يمحاض مسيطرة على منطقة شمالي سورية الحالية لمدة تقرب من القرنين، سقطت على يد الملك الحثي مورسيل الأول في حوالي 1650 قبل الميلاد.

2. تل الحريري "ماري"/ سورية

يتبع تل الحريري (ماري) محافظة دير الزور حاليًا، بالقرب من الحدود السورية العراقية. وبدأت التنقيبات الأثرية في الموقع ابتداء من عام 1933، ولا تزال مستمرة حتى الآن على يد بعثة أثرية فرنسية، رأسها أول الأمر أندريه بارو. وتركزت أعمال التنقيب في الجهة الواقعة على يمين نهر الفرات. أحرزت مدينة تل الحريري أهمية اقتصادية وسياسية عبر العصور، نظرًا لموقعها المتوسط بين بلاد الرافدين وسواحل البحر المتوسط الشرقية.

كما أن سكانها سيطروا على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية الممتدة بين نهري الخابور والبليخ، علمًا أن المنطقة التي أسست فوقها مدينة تل الحريري لا تصلح على الإطلاق للزراعة البعلية. ويذكر جان-كلاود مارغيرون Jean-Claude Margueron (1997: 413; 2004) الذي أشرف لبعض الوقت على العمل الميداني في الموقع أن المسوحات الأثرية التي أجريت في المنطقة المحيطة بتل الحريري عام 1980 كشفت عن عدد من قنوات الري، ومن أهمها وأطولها (حوالي 120كم) تلك التي ربطت بين نهر الفرات وفرعه الخابور. لكننا لا نستطيع الاتفاق مع المنقب حول تاريخ القناة، لأنه لم يبين الأسس التي اعتمدها في إعطائه هذا التاريخ. كما ذكر العاملون في الآثار السورية أن هناك قناة قديمة تمتد من نهر الفرات وتمر في مدينة تل الحريري وتزودها بالمياه التي تحتاجها (عمار عبدالرحمن: اتصال شخصي).

وكشفت أعمال التنقيب أن بداية الاستقرار في تل الحريري كانت بداية الألف الثالث قبل الميلاد (Margueron 1997: 413; 2004)، وأن المدينة شهدت فترتي ازدهار، الأولى خلال منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وعاصرت عصر السلالات الأولى في بلاد الرافدين. وأما المرحلة الثانية؛ فكانت معاصرة للملكة البابلية الأولى (مملكة حمورابي) في بلاد الرافدين، ومملكة حلب (يمحاض) في شمالي بلاد الشام. وأعلن المنقبون أن المعلومات حول بداية الاستقرار في الموقع لا تزال شحيحة، والسبب في هذا يعود إلى أنه لم يعثر على مخلفات أثرية، تعود لبداية الألف الثالث قبل الميلاد، إلا في حفريتين تجريبيتين، الأولى في الجزء الشمالي من الموقع، والثانية في وسط منطقة دينية تؤرخ للفترة السابقة لظهور المملكة الأكادية في بلاد الرافدين. ويرى المنقبون في الموقع أن مخطط المدينة خلال بداية الألف الثالث قبل الميلاد كان دائريًا، بقطر بلغ حوالي 1900م، وأنها كانت محاطة بخندق لحمايتها من مياه فيضان نهر الفرات، علمًا أنها لا تقع مباشرة على النهر. كما لوحظ وجود قناة وصلت بين نهر الفرات والموقع، كانت تسمح للقوارب بالسير فيها. ولم يعثر في الموقع على أية بقايا أثرية مميزة حتى بداية مرحلة ما قبل الأسرات القديمة الثالثة (حوالي 2400 قبل الميلاد)، فقد عثر على بيت في المربع B وبداخله رقم، كما كشف عن عدد من البيوت تعود للفترة التي يطلق عليها ما قبل سرجون، وسوق صغير المساحة، ومعابد للآلهة عشتار، ونيني - زازا، وعشتارت، ونينخور- ساج، ومنحوتات لتماثيل لحكام تل الحريري. ويظهر أن نهاية المدينة كانت

خلال القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، أي أيام حكم المملكة الأكادية، دون معرفة الأسباب التي كانت وراء تدميرها.

ويذكر بعض الباحثين (قابلو وفرعون 2006: 161) أن وثائق تل مرديخ كشفت عن أسماء الملوك الذين حكموا تل الحريري خلال منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وهم: إنا دجن، وأنوبو، وسأمو، وإشتوب إشتار، وإيبلول إل، وإيكون إشار، وآخرهم خيدار، وأن مدينة مرديخ دفعت الإتاوة لتل الحريري خلال هذه الفترة.

تلا المرحلة الأولى من الاستقرار في تل الحريري مرحلة ثانية، عرفت فيها المدينة باسم مدينة الشكاناكو، وتبدأ مع نهاية حكم المملكة الأكادية في بلاد الرافدين. ومن الجدير بالذكر أن تل الحريري، خلال الفترة السابقة لحكم أسرة الشكاناكو خضعت للحكم الأكادي، لكنها تمتعت بنوع من الاستقلالية في عهد أسرة أور الثالثة. ويؤكد هذا الأمر أن الملك أورنمو (أحد ملوك أسرة أور الثالثة) يزوج ابنه من ابنة ملك تل الحريري، المدعو أبيل كين شكاناكو (قابلو وفرعون 2006: 161). وهذا يثبت أن هذه الأسرة (الشكاناكو) كانت تحكم تل الحريري أيام الأكاديين، وأنها كانت خاضعة لهم. لكن بعد استقلالها وتحررها من الحكم الأكادي، جرى بناء عدد من الأوابد الضخمة، مثل بناء قصر ملكي فوق أنقاض قصر سابق، لكن بمخطط مختلف، عدا المنطقة الدينية التي بقيت قيد الاستعمال فيه. وتكون مخطط القصر من عدد من الغرف، كما كان هناك ساحة سميت "ساحة النخلة" التي ارتبطت بها قاعتان طويلتان، بنيتا على التوالي، واستخدمت القاعة الثانية قاعة للعرش. وهذه كلها من سمات القصور المؤرخة للفترة بين فترة حكم مملكة أور الثالثة في بلاد الرافدين (القرن الحادي والعشرون قبل الميلاد) ونهاية الدولة البابلية الأولى (منتصف الألف الثاني قبل الميلاد). كما بني قصر آخر، لكنه أصغر مساحة من القصر الأول، في منطقة تقع إلى الشرق من مبنى المعبد، فوق عدد من القبور الملكية. ويظهر أنه كان مؤقتًا، واستخدم لحين الانتهاء من القصر المذكور. كما بنيت في هذه الفترة مصطبة عالية، أسماها بعض الآثاريين "زقورة"، جاءت ملاصقة لمبنى معبد الأسود (Margueron 1997: 415).

ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، حكمت تل الحريري أسرة أمورية، وأول من ذكر من ملوكها في أرشيف تل الحريري هو الملك يجيد – ليم الذي قام بتوسيع حدود مملكته على حساب مدينة تل العشارة الحالية (ترقا القديمة) (خليف 2005: 133).

وبعد وفاته خلفه ابنه يخدون - ليم (حوالي 1825 – 1810 قبل الميلاد) الذي بنى معبد الإله شمش، إله الشمس، ووصل إلى شواطئ البحر المتوسط في حملة هدفت على الأغلب الحصول على خشب الأرز (Heinz 2002: 128). ويبدو أن يخدون-ليم قتل اغتيالاً على يد الملك إل- كبكابو ملك الأشوريين في تل العشارة (ترقا)، فخلفه على العرش، ولمدة قصيرة أخوه سومويميم. بعد حكم سومويميم، خضع تل الحريري كليًا لحكم الآشوريين. وقام الملك الأشوري شمشي-أدد في عام 1795 قبل الميلاد بطرد الملك المعين زمري-ليم الذي هرب إلى حلب عاصمة مملكة يمحاض وبقي هناك طيلة حكم الآشوريين، وعين ابنه يسمح- أدد ملكًا على تل الحريري. وخلال حكم هذا الملك الأشوري، لعب تل الحريري دورًا محوريًا في التجارة التي كانت رائجة بين بلاد الرافدين وبلاد الشام والبلدان الأخرى المجاورة، إذ نجد أنه سيطر على الطريق التجاري الذي كان بينها وبين المشرفة (قطنا)، وبينها وبين واحة تدمر، حيث كانت تمر بهذه الطرق الدواب، مثل الخيول، محملة بالخشب والبضائع الأخرى من سورية، ولبنان، وفلسطين عبر نهر الفرات، إلى بلاد الرافدين وعيلام. ولتمتين علاقات مملكته بمملكة المشرفة، قام بتزويج ابنه من ابنة ملكها (Kuhrt 1995).

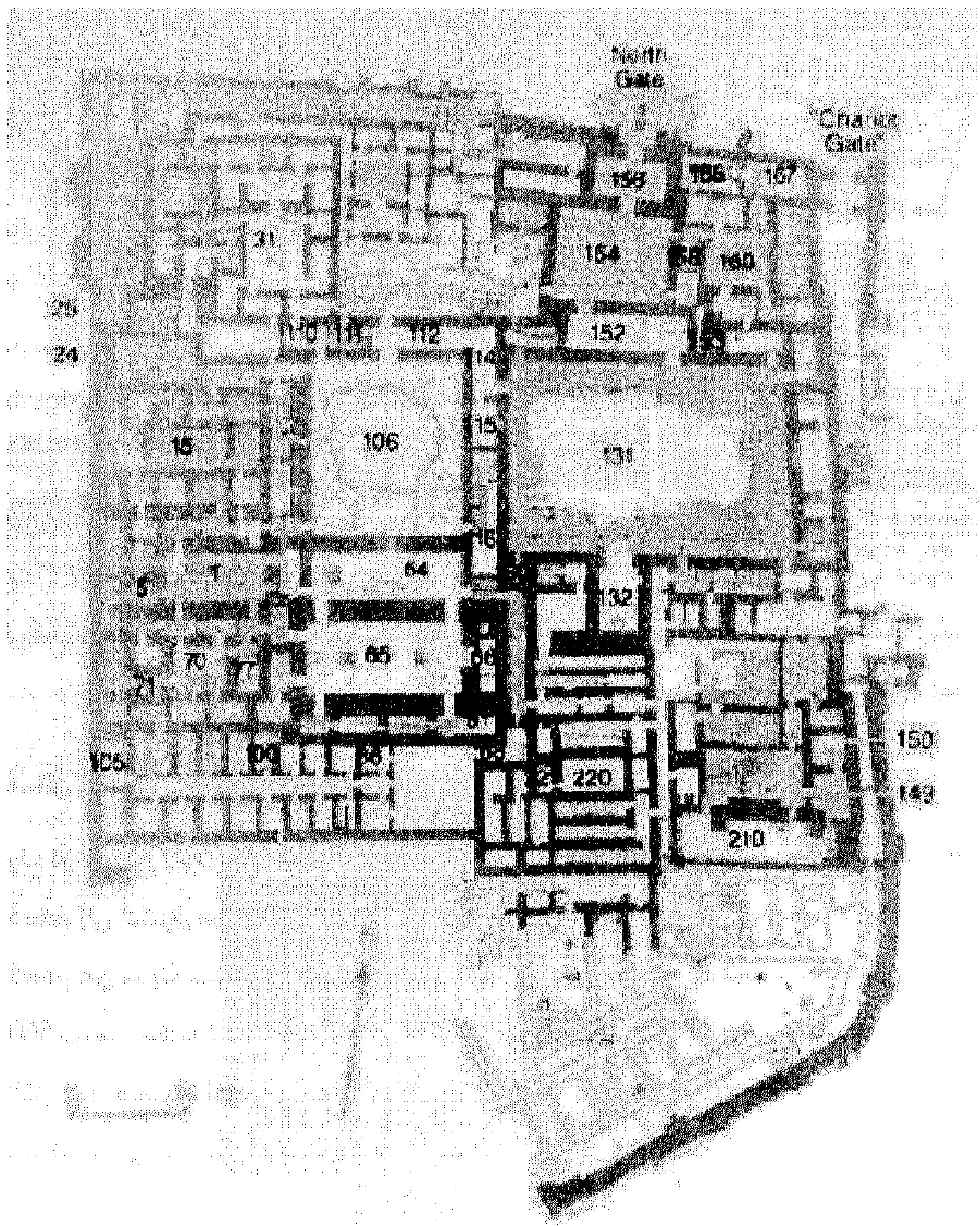
بعد وفاة الملك الأشوري شمشي-أدد عام 1782 قبل الميلاد، انهارت آشور، ولم يستطع أبناؤه المحافظة على إمبراطوريته، فتخلصت تل الحريري من حكمهم، وعاد ملكها زمري-ليم من ملجئه في حلب إلى بلاده ليحكمها. وساعده في هذا ملك يمحاض ياريم -ليم. ولتمتين روابط الصداقة بينهما قام زمري-ليم بالزواج من ابنة ياريم -ليم، واسمها شيبتو. وأصبح صديقًا حميمًا لابنه وخلفه حمورابي. كذلك ارتبط زمري - ليم بعلاقات طيبة مع الملك حمورابي، ملك بابل. بل شاركت جيوش تل الحريري وحلب إلى جانب الجيش البابلي في حروبه ضد عيلام وأشنونا. كما حاول تحسين العلاقات بين مملكتي حلب (يمحاض) والمشرفة (قطنا)، خاصة بعد وفاة الملك الأشوري شمشي-أدد، بأن دخل وسيطًا بينهما. وكان يساعده في هذا عدد كبير من الموظفين، كما كان لديه سفراء لدى الممالك الأخرى. كما كانت مملكة تل الحريري مقسمة إلى عدة مقاطعات يحكم على كل منها ممثل للملك (قابلو وفرعون 2006: 164).

بلغت مملكة تل الحريري أوج ازدهارها في زمن زمري-ليم، وشكلت قوة سياسية واقتصادية كبيرة في المنطقة، حيث أدى تحكمها بالطرق التجارية البرية والنهرية إلى

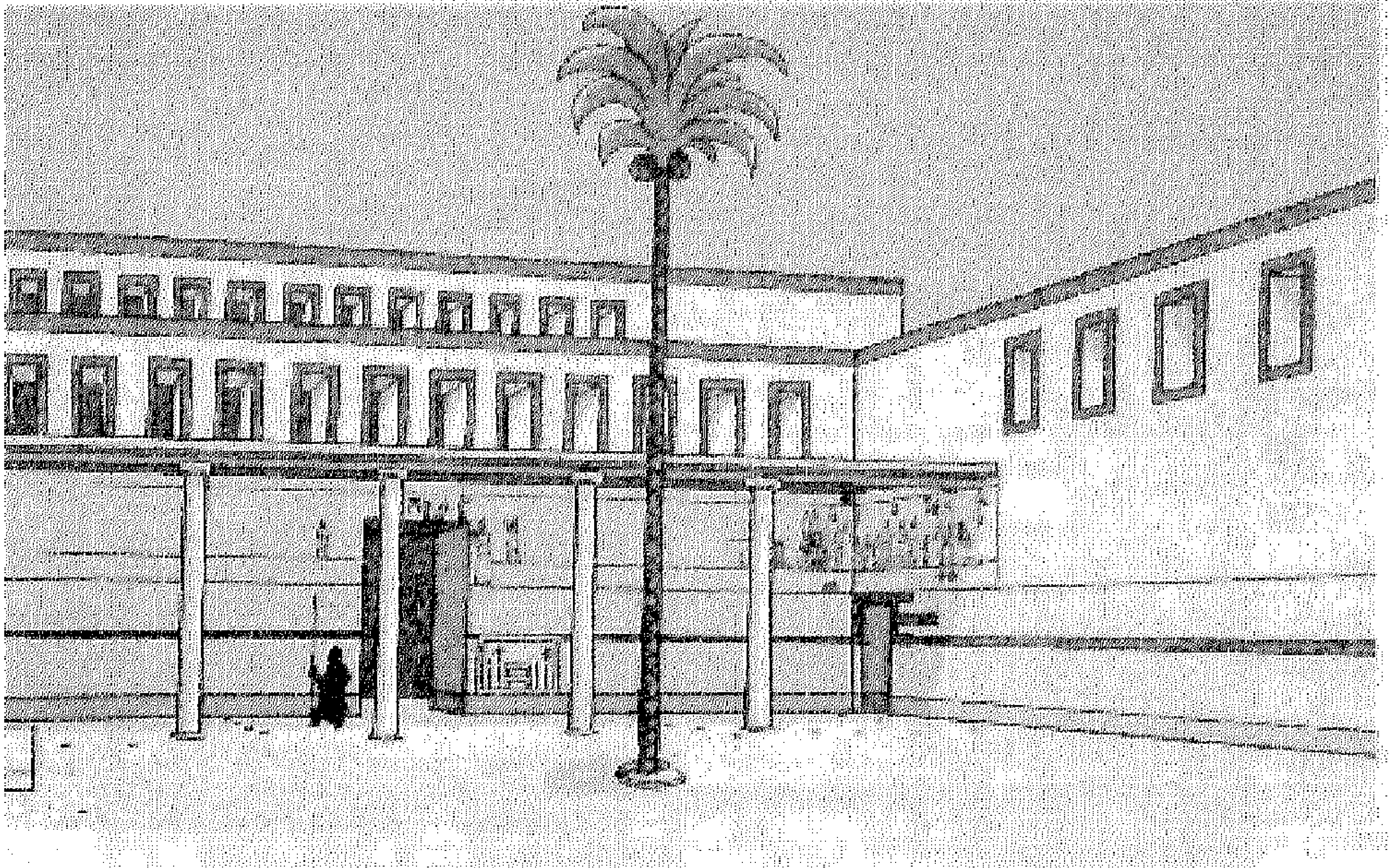
غناها وزيادة قدرتها على تمويل المشاريع الكبرى فيها، وقامت بتمرير تجارة الأخشاب والخمور والخيول وزيت الزيتون والعسل من مدن بلاد الشام إلى بلاد الرافدين. واستفادت مملكة تل الحريري كثيرًا من تجارة القصدير، حيث استوردته من شمال غربي إيران، وأعادت تصديره إلى البلدان الشامية. لذا يمكن القول إن تجارة تل الحريري امتدت فوق مناطق شاسعة لتشمل الخليج العربي في الجنوب وحتى كاروم كانيش في بلاد الأناضول، ومن إيران في الشرق وحتى البحر الأبيض المتوسط في الغرب (Heinz 2002: 130-131).

إضافة لما ذكر أعلاه، اهتم الملك زمري –ليم بشؤون مملكته الداخلية، فبذل عناية كبيرة لتحسين شبكات الري وتوسيعها، بهدف توسيع الرقعة الزراعية في البلاد. كما كان مولعًا ببناء المباني الفخمة والضخمة، فقام ببناء قصر ضخم، عدَّ أعجوبة زمانه، بمساحة قدرها 200 x 120م، ويتألف من 300 غرفة وباحة، وبنيت جدرانه من اللبن فوق أساسات حجرية، كما أحيط البناء بسور ضخم (الشكلان 68-69). وكانت بعض قاعات القصر مزخرفة برسومات جدارية، منها مشهد تنصيب زمري - ليم على العرش. وقد عثر في غرف القصر على عدد كبير من التماثيل.

ومن أهم المقتنيات التي وجدت داخل غرف قصر زمري - ليم أرشيف مكون من حوالي خمسة وعشرين ألفًا من الرقم الطينية التي كتبت بالخط المسماري وباللغة الأكادية. ويؤرخ هذا الأرشيف للنصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ويشمل وثائق اقتصادية، وإدارية، ودينية، ورسائل، وتقارير، ونصوصًا أخرى مختلفة. ويقوم المختصون بهذا النوع من الكتابات بدراسة هذه النصوص وتحليلها ونشرها في سلسلة علمية، هي Archives Royales de Mari.



الشكل 68: مخطط قصر الملك زمري-ليم في تل الحريري



الشكل 69: رسم لقصر تل الحريري (عن كتاب كنوز سورية القديمة)

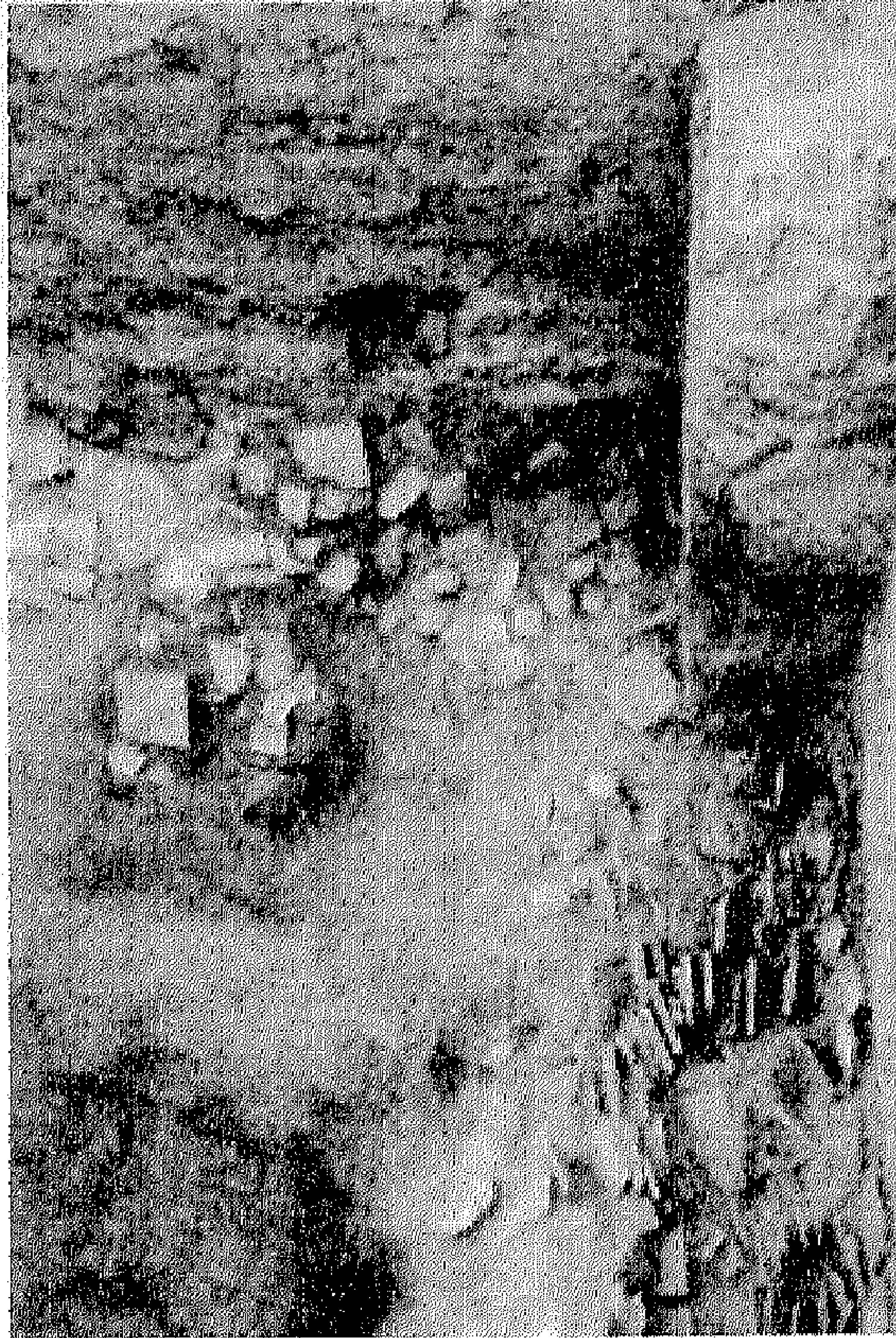
3. تل مرديخ "إبلا"/ سورية

يقع تل مرديخ (إبلا) على بعد 70كم إلى الجنوب من مدينة حلب السورية، وعلى مسافة 3كم إلى الشرق من الطريق العام الواصل بين مدينتي حلب وحماة، وبالتحديد على بعد 5كم عن مدينة سراقب التابعة لمحافظة إدلب بشمالي سورية. وتبلغ مساحة التل حوالي 560 دونمًا، كما تبلغ أبعاده حوالي 1800م شمال-جنوب، و700م شرق-غرب. وقد بني التل فوق هضبة طبيعية بيضاء اللون. وجاءت مدينة العصر البرونزي المتوسط محصنة بساتر ترابي ضخم، أخذ شكله من شكل المدينة شبه المنحرف (Matthiae 1980: 114). وكان تل مرديخ اكتسب أهمية استراتيجية خاصة نظرًا لموقعه المتوسط بين منطقتي حوض الفرات الأوسط والساحل الشرقي للبحر المتوسط. كما أنه سيطر على الممر المؤدي عبر جسر الشغور إلى جبال الساحل، ومن ثم إلى جنوبي بلاد الأناضول.

اكتشف الموقع صدفة عام 1955 حين كان أحد الفلاحين السوريين يقوم بحراثة حقله فعثر على تابوت حجري مزخرف بنقوش في إفريزين، حفر على الأول شكل عدد من الأشخاص، أما الثاني؛ فحوى رسمًا لعدد من السباع الفاغرة أفواهها. وبعد دراسة

النواحي الأثرية والفنية، أرخ هذا التابوت إلى الفترة ما بين حوالي 1900-1850 قبل الميلاد (القيم 1989 : 12).

بدأت بعثة إيطالية من جامعة روما لاسبينزا، بإشراف باولو ماتييه، التنقيب في موقع تل مرديخ عام 1964، ولا تزال حتى الآن. وكان الهدف الرئيسي من التنقيب هو معرفة التسلسل الطبقي لتحديد التسلسل الزمني للموقع، وخاصة فترات العصور القديمة، لا سيما البرونزية. ولتحقيق هذا الغرض، قامت بعثة التنقيب بالعمل في أربع مناطق (أ، ب، ج، د) موزعة على مناطق مختلفة من تل مرديخ (البني 1968 : 155). وفي موسم عام 1975، وبينما كان أحد العمال يقوم بتنظيف إحدى غرف القصر الملكي من التراب، لاحظ فتحة في أرضية الغرفة أمكن من خلالها رؤية غرفة واسعة تضم آلافًا من الرقم الطينية (الشكل 70). كما كشفت التنقيبات التي أجريت بين أعوام 1978 و1982 عن مبنى لقصر آخر سمي القصر الغربي، حيث كشف تحت أرضيته عن مقابر ملكية تعود للعصر البرونزي المتوسط.



الشكل 70: الرقم الطينية في مكانها الأصلي في تل مرديخ

واستنادًا لنتائج التنقيبات في التل، تعرف المنقبون إلى بقايا أثرية تتراوح في تاريخها من منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وحتى الفترات الإسلامية، موزعة على النحو التالي (جدول 8):

الطبقة	التاريخ
I	حوالي 3500 – 2900 قبل الميلاد (فجر التاريخ)
IIA	حوالي 2900 – 2400 قبل الميلاد (العصر البرونزي المبكر الأول إلى الثالث)
IIB1	حوالي 2400 – 2250 قبل الميلاد (العصر البرونزي المبكر الرابع أ)
IIB2	حوالي 2250 – 2000 قبل الميلاد (العصر البرونزي المبكر الرابع ب)
IIIA	حوالي 2000 – 1800 قبل الميلاد (العصر البرونزي المتوسط الأول)
IIIB	حوالي 1800 – 1600 قبل الميلاد (العصر البرونزي المتوسط الثاني)
IVA	حوالي 1600 – 1400 قبل الميلاد (العصر البرونزي المتأخر الأول)
IVB	حوالي 1400 – 1200 قبل الميلاد (العصر البرونزي المتأخر الثاني)
VA	حوالي 1200 – 900 قبل الميلاد (العصر الحديدي الأول)
VB	حوالي 900 – 720 قبل الميلاد (العصر الحديدي الثاني)
VC	حوالي 720 - 535 قبل الميلاد (العصر الحديدي الثالث)
VIA	حوالي 535 – 325 قبل الميلاد (العصر الفارسي)
VIB	حوالي 325 – 60 قبل الميلاد (العصر الهلنستي)
VII	العصران الروماني والبيزنطي حتى عام 700 للميلاد

جدول 8: تتابع الطبقات وتاريخها في تل مرديخ

ورد ذكر اسم "إبلا" في عدد من المصادر التاريخية، وكان أقدمها في الرقم التي عثر عليها في موقع نفر بجنوبي العراق، في نص يتحدث فيه الملك الأكادي سرجون (حوالي 2340 – 2284 قبل الميلاد) عن استيلائه على ثلاث مدن هي "ماري"، و"إبلا"، و"يارموتي" وهو في طريقه إلى جبال الأمانوس. وفي نص أكادي آخر من زمن الملك نرام – سن (حوالي 2259 – 2223 قبل الميلاد)، حفيد سرجون، يرد ذكر اسم مدينة "إبلا" على أنها أحد مراكز صناعة النسيج. كما ذكر اسم "إبلا" في نص منقوش على تمثال للملك جوديا، ملك لجش، يعود لأواخر الألف الثالث قبل الميلاد. وبالإضافة للنصوص الرافدية، ورد اسم "إبلا" في النصوص الفرعونية، في القوائم الطوبوغرافية للفرعون تحتموس الثالث (حوالي 1490 – 1436 قبل الميلاد). أما في المدينة نفسها؛ فكشف عن تمثال بازلتي عام 1968، عليه نقش يذكر اسم ملكها: "إبّط– ليم، ابن إرقش– ليم، ملك إبلا" (Matthiae 1997a: 180). كذلك ورد اسم "إبلا" في نصوص كبادوكيا وتل العطشانة.

وعلى الرغم من أن موقع تل مرديخ شهد استقرارًا لفترات طويلة ومتتالية دون انقطاع، إلا أن المدينة مرت بمرحلتين مختلفتين من الازدهار: الأولى من حوالي 2400 إلى 2250 قبل الميلاد؛ والثانية من حوالي 2000 إلى 1750 قبل الميلاد. وانتهت المرحلة الأولى بعد تدمير المدينة على يد الملك الأكادي نرام – سن. ومما تجدر الإشارة إليه أن مدينة تل مرديخ كانت خلال هذه الفترة تصدر الأخشاب من منطقة شمالي سورية إلى أكاد.

وبعد فترة امتدت حوالي 250 عامًا، لم يكن لتل مرديخ أي دور فاعل في المنطقة، بدأت المدينة تستيقظ من جديد؛ فخلال فترة الازدهار الثانية، امتد نفوذ مملكة تل مرديخ ليشمل مناطق واسعة في بلاد الشام. واتسمت علاقاتها بجيرانها بنوع من التناقض؛ إذ كانت تربطها بها علاقات تجارية وسياسية قوية أحيانًا، وفي فترات أخرى تشتعل الحروب فيما بينها. وقد كشفت التنقيبات في الموقع عن عدد من اللقى الأثرية التي توضح طبيعة العلاقة بين تل مرديخ والبلدان الأخرى القريبة والبعيدة. فمثلاً، عثر في أنقاض القصر الملكي G، وفي القبور الملكية وقبور كبار الموظفين، على عدد من الآنية الحجرية المستوردة من مصر، والمؤرخة لعهد الأسرات الثلاث الأولى. وعثر على ما يشابه هذه الآنية في مدينة جبيل اللبنانية. كما عثر على آنية أخرى تحمل نقوشًا هيروغليفية يظهر فيها اسما الفرعونين خفرع، وبيبي الأول.

أما علاقات تل مرديخ ببلاد الرافدين، فيبدو أنها كانت قوية خلال العصر البرونزي المبكر، ويبدو أن سكان المدينة تأثروا كثيرًا بطريقة الكتابة هناك، فاستعاروا الخط المسماري منها. ومن المؤكد أن مدينة تل مرديخ، خلال هذه الفترة، بدأت تؤسس لنفسها دولة قوية أخذت أبعادًا مستقلة في التجارة والدين والنواحي الاجتماعية، فعكست بهذا تميزًا للحضارة في شمالي بلاد الشام عن غيرها من المناطق المجاورة. وفي الفترة التي كتب فيها أرشيف تل مرديخ، أي العصر البرونزي المبكر، كانت علاقات تل مرديخ جيدة ببلاد الرافدين، وتمتعت المدينة باستقلالية تامة. إلا أن الأمر تغير في زمن الملك سرجون الأكادي، حيث دفعت تل مرديخ الجزية للأكاديين، ومن ثم قام نرام – سن بتدميرها. وربما يكون السبب وراء هذا أنها كانت تسيطر على سورية الداخلية، وتتحكم بمصادر الأخشاب التي تقطع في جبال الأمانوس، وجبال الساحل، وجبال لبنان، وتصدر إلى أكاد. كذلك كانت مرديخ هي المعبر لدخول خامات معادن النحاس والفضة والذهب من مناطق جبال طوروس إلى بلاد الرافدين. ومن هنا نرى أن التجارة، التي كانت سببًا في نهضة تل مرديخ، هي السبب في خرابها وتدميرها على يد الأكاديين.

كشفت التنقيبات الأثرية في موقع تل مرديخ عن كميات كبيرة من المكتشفات المهمة، سواء من الآثار المنقولة أو غير المنقولة، إذ بينت أن المدينة كانت محصنة بسور، كما عثر على قصور، ومعابد، ومقابر، ولقى أثرية فنية، ورقم. أما سور المدينة؛ فتكون من ساتر ترابي ضخم، بني خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط، وقد بلغ سمك قاعدة السور حوالي 40م، وتغطي الجزء السفلي من واجهتي الساتر ألواح حجرية، كما دعمت منحدراته الخارجية بملاط من الجص الأبيض. وكانت للسور أربع بوابات، وبني في الجهة الخارجية منه عدد من الأبراج، أما في باطنه فشيدت مخازن لا أبواب لها، وينزل إلى داخلها من الأعلى.

ووجدت في المدينة ثلاثة قصور، منها القصر G الذي أرخ للنصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد (العصر البرونزي المبكر الرابع)، والذي يعد الأهم بين القصور الأخرى، بسبب العثور على السجلات الملكية بداخله (الشكل 71). أما القصران الآخران؛ فبنيا خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد (العصر البرونزي المتوسط الأول)، وشيد أحدهما في شمالي التل (المنطقة E)، بينما الآخر في غربيه (Matthiae 1980: 68).



الشكل 71: مبنى القصر G في تل مرديخ

وعثر في تل مرديخ على أربعة معابد بنيت خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط، أي الفترة التي ساد فيها الأموريون فوق مناطق واسعة من بلاد الشام. ومن المعلوم أن معابد بلاد الشام، خلال العصر البرونزي المتوسط، امتازت بشكلها المستطيل وبوجود الأروقة في البناء. وواحد من هذه المعابد الأربعة، معبد D، وهو المعبد الكبير الذي بني داخل القلعة فوق قمة التل، وكرس لعبادة الإلهة عشتار. وقد أقيم هذا المعبد وفق مخطط ثلاثي يتألف من هيكل طويل، يتقدمه رواق عريض وردهة أمامية. وبني المعبد فوق مصطبة مرتفعة، بنيت من اللبن الطيني. أما المعابد الثلاثة الأخرى؛ فقد بنيت في المدينة السفلى للموقع، كرِّس أحدها لعبادة الإله شمش، وآخر للإله رشف (Matthiae 1997a: 182).

كشفت التنقيبات الأثرية في تل مرديخ عن مقبرة ملكية، حفرت تحت أرضية القصر الغربي، وفي المنطقة التي شيد فوقها المعبد B والمَقْدِس B2. وكانت هذه المدافن على شكل كهوف تتصل ببعضها، حيث عثر على ثلاثة قبور أرخت للفترة من حوالي 1825 إلى 1650 قبل الميلاد، وجدت فيها كمية من المجوهرات الذهبية، والآنية الفخارية والعاجية، والأسلحة البرونزية، والآنية الحجرية، ورأس قنوة مصرية (Matthiae 1997a: 182).



الشكل 72: تمثال ذهبي لثور برأس إنسان، عثر عليه داخل القصر (عن كتاب كنوز سورية القديمة)

ومن أهم المعثورات الأثرية التي عثرت عليها البعثة الإيطالية في الموقع، الأحواض الحجرية المزخرفة، والتماثيل بأشكال مختلفة (الشكل 72)، والحلي، والأختام الأسطوانية، وصولجانات من الحجر الكلسي، والآنية الفخارية. ومن المجوهرات التي عثر عليها كان خاتم مزخرف بأزهار اللوتس، وعلى وجهيه شكل خنفساء، وهذا يدل على أصله المصري. كذلك عثر على كسرة من جرة عليها طبعتان لختمين أسطوانيين، تحمل الطبعة الأولى مشهدًا للإله حدد، والإلهة عنات وهي تهب الحياة لأحد الأمراء. أما المشهد في الطبعة الثانية؛ فيتكون من رسم منحوت لعدد من وجهاء القوم في حضرة الإله حدد.

ولم يشتهر موقع تل مرديخ بغناه بالمخلفات الأثرية وحسب، إنما جاءت شهرته الأوسع نتيجة لاكتشاف مكتبة في القصر G ضمت آلافًا من الرقم (تجاوز عددها الخمسة عشر ألفًا)، وقد كتبت هذه الرقم بخط مسماري، ورتبت فوق رفوف خشبية، مصنفة حسب موضوعاتها. ويظهر أن المكتبة هذه دمرت عند تدمير القصر من قبل الملك الأكادي نرام – سن. ومما يذكر أن محتوى النصوص المنقوشة على الرقم (التي درست حتى الآن) لا يحمل في ثناياه معلومات تاريخية، بل يشير إلى أنها مسك لدفاتر وتسجيل

حسابات (أي أنها تتضمن معلومات اقتصادية)، إضافة لعدد قليل من النصوص الشرعية (Matthiae 1980).

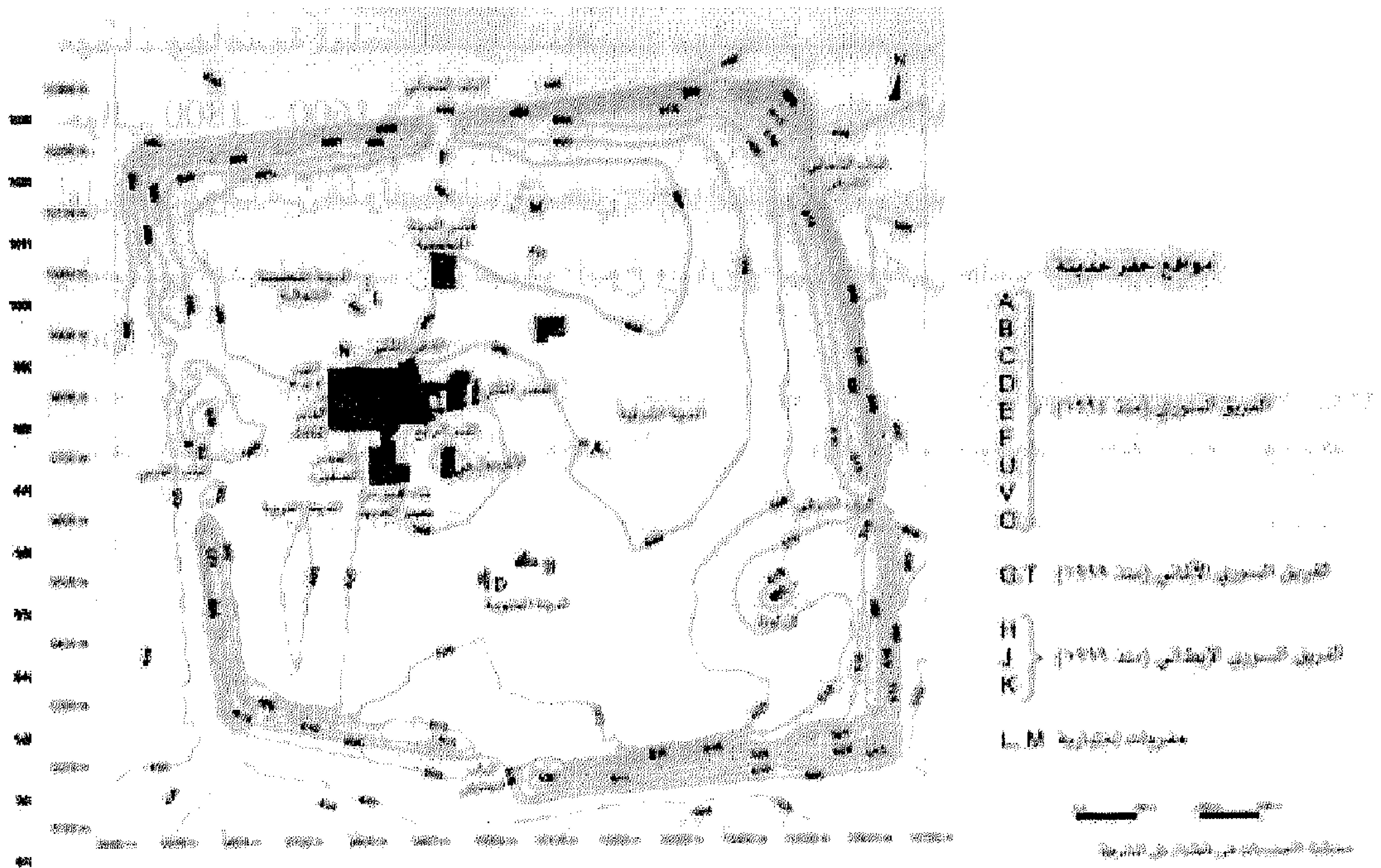
4. المشرفة "قطنا"/ سورية

يقع تل المشرفة على بعد حوالي 18كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص، في منطقة متوسطة بين بادية تدمر ووادي نهر العاصي. وأثبتت التنقيبات أن أقدم البقايا الأثرية في الموقع تعود لنهاية الألف الثالث قبل الميلاد (العصر البرونزي المبكر الرابع)، لكن الموقع بلغ أوج ازدهاره وعظمته خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد (العصر البرونزي المتوسط)، وقد عرف في ذلك الوقت باسم "قطنا"، وكان يمثل مركزًا تجاريًا مهمًا، وعاصمة لملكة أمورية نافست مملكتي يمحاض وماري خلال الفترة ما بين حوالي 1800 – 1600 قبل الميلاد (Klengel 1992; al-Maqdissi et al. 2002: 7). وكان أول من عرف من ملوك قطنا إشخي– أدد الذي عاصر يسمح– أدد ملك تل الحريري، وشمشي-أدد ملك آشور، وسومو-إبوخ وياريم-ليم ملكي حلب (يمحاض) (Klengel 1992).

استفادت المشرفة/ قطنا خلال العصر البرونزي المتوسط من موقعها الجغرافي المتوسط، فهي تقع على ملتقى طرق تجارية ربطت بين الأناضول وفلسطين، ومنها إلى مصر، وبين بلاد الرافدين وساحل البحر المتوسط الشرقي (المقدسي وآخرون 2002:7؛ Heinz 2002: 132-134). وارتبطت هذه المملكة في المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط، أي زمن ملكها إشخي-أدد (القرن الثامن عشر قبل الميلاد)، بعلاقات دبلوماسية وتجارية مع مملكة آشور زمن ملكها شمشي- أدد، ومع مملكة ابنه يسمح – أدد في تل الحريري. وكان الهدف من هذا التحالف الوقوف في وجه مملكة يمحاض (Klengel 1992: 65). كذلك دلت الموجودات الأثرية، خاصة التي عثر عليها في مبنى القصر، أن المدينة ارتبطت أيضًا بعلاقات طيبة مع مصر.

أظهرت نتائج التنقيبات الأثرية التي قامت بها البعثة الأثرية السورية الألمانية الإيطالية المشتركة منذ عام 1999، ولا تزال حتى الآن، عن بقايا معمارية تعود للعصر البرونزي المتوسط (الشكل 73). فعلى سبيل المثال، وجدت، بالإضافة للتحصينات، جدران من

اللبن الطيني مبنية فوق أساسات حجرية تعلو مباني من الفترة السابقة أي العصر البرونزي المتأخر. كما أثبتت التنقيبات أن الساتر الترابي في حقل البوابة الشمالية بني في بداية الألف الثاني قبل الميلاد. كذلك كشف عن عدد من الغرف السكنية ذات الشكل المستطيل، بلغت أبعاد إحداها 8.10 x 5.20م، حيث عثر فيها على عدد من اللقى الأثرية والآنية الفخارية المؤرخة للعصر البرونزي المتوسط الأول والثاني، وبداية العصر البرونزي المتأخر (al-Maqdissi et al. 2002: 22-37). ومن أهم ما كشف عنه في قطنا، مبنى ضخم بلغت مساحته حوالي مائة دونم (عشرة هكتارات)، ويعتقد المنقبون أنه أسس خلال العصر البرونزي المتوسط، وكان قصراً لإقامة ملوك المدينة، ومنهم: إشخي- أدد وأموت - بي- إيل، وقد ذكر اسماهما في أرشيف تل الحريري.



الشكل 73: مخطط التنقيبات في قطنا/ تل المشرفة (عن كتاب كنوز سورية القديمة)

ويشابه هذا القصر (الشكل 74) في تخطيطه معبد زمري – ليم في تل الحريري. وبينت التنقيبات أن القصر بقي قيد الاستخدام خلال العصر البرونزي المتأخر، والعصر الحديدي. كما قام الناس في القرن الماضي، وتحديداً في عام 1924، ببناء وحدات سكنية في داخل

المبنى بعد أن أزالوا الأجزاء العلوية من جدران القصر. لقد بني القصر، حتى أساساته من اللبن، ووصلت في عمقها إلى أربعة أمتار تحت مستوى سطح الأرض، أما سمك الأساسات؛ فزاد عن عشرة أمتار في كثير من الأماكن. وجاءت أكبر وحدات القصر مساحة، قاعة الاحتفالات C، بأبعاد بلغت 36 x 36م، أطلق عليها اسم معبد "نين-أي-غال"، وهي واحدة من الآلهة الرافدية. وكانت هذه القاعة مسقوفة بسقف حمل فوق أربعة أعمدة بقواعد من الحجر البازلتي، إلا أن البنَّاء ترك المساحة بين الأعمدة الأربعة دون سقف بهدف تجميع مياه الأمطار. وقد عثر في هذه القاعة على عدد من المكتشفات الأثرية المهمة، مثل رقم منقوشة بالخط المسماري، وأخرى مصرية تخص ابنة الفرعون أمنمحات الثاني، من السلالة الثانية عشرة المصرية. كما عثر في الموقع على عدد من الأختام وطبعاتها، والدمى الطينية، والآنية الفخارية (Novak and Pfälzner 2002: 71 – 110).

وكشفت التنقيبات الأثرية الحديثة في تل المشرفة عن أرشيف وقبر ملكي يعودان للمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط. وعثر بداخل القبر (الشكل 75) على توابيت ومجموعة ثمينة من اللقى الأثرية، خاصة تلك المصنوعة من العاج والذهب، عرضت موجوداتها في معرض خاص أقيم في متحف فورتمبرغ في مدينة شتوتغارت الألمانية (المقدسي وآخرون 2009).

5. تل عرقة "عرقاتا"/ لبنان

يقع تل عرقة في سهل عكار، جنوبي النهر الكبير، واستمر الاستقرار فيه منذ الألف السادس قبل الميلاد وحتى بداية العصر المملوكي. وكانت التنقيبات الأثرية بدأت في الموقع عام 1972، واستمرت حتى عام 1975، ثم استؤنفت خلال الأعوام 1978-1981 على يد بعثة فرنسية ترأسها إرنست فيل Ernest Will. وخلال هذه المواسم، كشف عن آثار تعود للفترات الكلاسيكية (Thalmann 1978). وفي عام 1992، استؤنفت التنقيبات بإشراف جان- بول تالمان Jean-Paul Thalmann الذي ركز أعمال التنقيب في الجهة الغربية للتل، حيث عثر على بقايا العصر البرونزي المبكر الثالث (المرحلة R حوالي 2700-2400 قبل الميلاد)، والمتوسطة (المراحل P, N, M المؤرخة لحوالي 2000 – 1550 قبل الميلاد)، والمتأخرة (المرحلتان K, L) (Thalmann, 2000; 2006).



الشكل 74: صورة جوية لقصر قطنا (عن كتاب كنوز سورية القديمة)





الشكل 75: واجهة وداخل أحد القبور الملكية التي اكتشفت مؤخرًا في قطنا/سورية

(عن كتاب كنوز سورية القديمة)

استطاع تالمان التعرف في تل عرقة إلى بقايا أثرية تعود لمرحلتين: الأولى ممثلة بالسوية 14/ المرحلة N، والثانية تمثلها السوية 13/ المرحلة M من العصر البرونزي المتوسط. وجاءت المكتشفات الأثرية من كلا المرحلتين قليلة، ولم تتعد في المرحلة الأولى قبرًا لمحارب، وحفرة كبيرة شكلت جزءًا من مصنع للفخار، وحفرًا أخرى وضع بداخلها عدد من الجرار الكبيرة. ويبدو أنه خلال المرحلة الثانية توقف مصنع الفخار عن العمل لكن الحفرة الكبيرة استخدمت بركة للمياه. كذلك بنيت خلال هذه المرحلة الثانية وعلى حافة التل، مباني مستطيلة الشكل، كما عثر على عدد من القبور لبالغين وأطفال (Thalmann 2006: 33-79).

6. جبيل "بيبلوس"/ لبنان

ذكرت جبيل في النصوص المصرية وأرشيف تل الحريري المؤرخة للنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. كذلك عثر في المدينة نفسها على كتابات هيروغليفية، غير أن دورها في المنطقة خلال هذه الفترة لا يزال غير واضح، ويكتنفه الغموض. علمًا أن أرشيف تل الحريري يذكر أن هناك علاقات تجارية كانت موجودة بين البلدين. ويعتقد هورست كلينغل أن المدينة كانت تحكمها خلال العصر البرونزي المتوسط سلالة ذات أسماء أعلام أمورية، وذلك استنادًا لنقوش هيروغليفية وجدت في جبيل (Klengel 1992).

أما عن علاقات جبيل بمصر؛ فربما كانت مستقلة سياسيًا عنها، لكنها مرتبطة بها تجاريًا. إذ كان الأموريون هم أصحاب النفوذ السياسي في بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتوسط، وهم الذين كانوا يصفون أنفسهم بـ"خدَّام الفرعون المصري". كما كانوا على علاقات طيبة بملوك الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة.

كشفت التنقيبات في جبيل عن عدد من البقايا الأثرية المؤرخة للنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، ومنها أن المدينة كانت محصنة. كما عثر على معابد منها معبد الإلهة بعلات، ومعبد المسلة، ويظهر أن ممارسة العبادات والطقوس الدينية مورست في عدد من الغرف الصغيرة التي أضيفت لمبنييهما (Wein and Opificius 1963). ولاحظ المنقبون وجود مشاغل لصنع الأدوات المعدنية، في المنطقة الشرقية من الموقع، وعلى

أطراف الحي السكني. ومن الجدير بالذكر أنه عثر في مبنى معبد المسلة على عدد من الأدوات، والدمى المعدنية.

وقد عثر في المنطقة الجنوبية الغربية، الواقعة على الساحل، على مدفن مكون من غرفة حفرت في باطن الأرض، ووجدت بداخلها تسعة توابيت من الحجر الجيري، عثر فيها على عدد من اللقى الأثرية المهمة، مثل قطع معدنية، وأخرى عليها كتابات. وأرخ المختصون النصوص المكتشفة إلى زمن الفراعنة أمنمحات الثالث، وأمنمحات الرابع، من الأسرة الثانية عشرة المصرية (أي من حوالي 1840 – 1790 قبل الميلاد). كما تذكر هذه النصوص اسم ملك جبيل "أبيشمو"، وابنه. وتشير الآثار المكتشفة في جبيل إلى الصلات القوية التي ربطتها بمصر في زمن الأسرة الثالثة عشرة، كما كان الحال على الدوام. وهذا ينسحب أيضًا على المكتشفات الأثرية في موقع تل الضبعة (أواريس اسمها القديم)، عاصمة الهكسوس في الدلتا المصرية، حيث عثر على جرار فخارية وشواهد أثرية أخرى تدل على استيراد الخمور وزيت الزيتون من مدن بلاد الشام لمصر. ولا بد من أن يكون بعضها قد وصل إلى مصر عن طريق ميناء جبيل.

كذلك بينت دراسة أرشيف تل الحريري طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين البلدين من خلال التبادل التجاري، خاصة تجارة النسيج، وزيارات الناس. ويعتقد بعض الدارسين أن المشرفة (قطنا) كانت من أهم المحطات التي يقصدها الناس من جبيل في طريقهم إلى تل الحريري.

ب. آثار العصر البرونزي المتوسط في جنوبي بلاد الشام

يعد العصر البرونزي المتوسط في جنوبي بلاد الشام مرحلة ذهبية من الناحيتين السياسية والتجارية، إذ لم تعد مصر تشكل ضغطًا عسكريًا عليها، خاصة خلال حكم الهكسوس، وأنها ارتبطت بعلاقات تجارية قوية بمصر. لذا، يتوقع الباحث أن يجد أثر ذلك على المخلفات الأثرية من الفترة ذاتها في كل من الأردن وفلسطين؛ فقد دلت على صحة ذلك القول العمائر الضخمة، والتحصينات القوية، وقطع الأثاث الفخمة، والآنية الفخارية، والمجوهرات المكتشفة في مواقع أريحا، وتل بلاطة، وشيلو، وبيتين، والخليل، وتل بيت مرسيم، وتل المتسلم، وطبقة فحل.

وعلى الرغم من العدد الكبير من المسوحات الأثرية التي جرت في الأردن وفلسطين، إلا أن عدد مواقع العصر البرونزي المتوسط فيهما كانت قليلة مقارنة بالفترة السابقة. ورأى كثير من الباحثين أن مواقع المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط لم تخرج عن كونها قرى ومواقع صغيرة، مما دفع يغال يادين (Yadin 1972; 1978) للقول بأن سكان هذه المنطقة ظلوا يعيشون أحوالاً مشابهة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر. إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت عدم صحة هذا الزعم (Herzog 1997)، خاصة بعد تنقيبات خربة إسكندر في الأردن، حيث عثر فيها على موقع مسور (Richard 2007). وعلى أية حال، فإن عددًا من المواقع المؤرخة للمرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط عثر عليها في الأردن وفلسطين، لكن أغلبها كانت مواقع لقبور، أكثر منها حواضر (Gerstenblith 1983: 50-51). ومن أهم المواقع الممثلة لهذه الفترة في الأردن هي طبقة فحل، وتل الحيات، وجاوة (كفافي 2006). ودلت التنقيبات الأثرية في تل الحيات على أن الآنية الفخارية صنعت في الموقع نفسه، حيث عثر على أفران بنيت خصيصًا لحرقها. واستخدم الخزاف عدة أساليب في زخرفة آنيته الفخارية، مثل الدهان باللونين الأحمر والأسود، والتحزيز على شكل خطوط متموجة، وإضافة بطانة (روبة) إلى بدن الإناء وكذلك الضغط، أو إضافة أشكال على سطح الإناء الخارجي (Falconer and Magness-Gardiner 1984: 54-56; Figs.14-19).

واختلف الأمر كثيرًا بجنوبي بلاد الشام في المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط، أي بعد 1800 قبل الميلاد، فقد شهدت هذه الفترة المدن الكبيرة المحصنة بالأسوار والبوابات، وتقدمًا في الصناعات المختلفة. فعلى سبيل المثال ظهرت الآنية الفخارية ذات الجدران الرقيقة، وكذلك آنية جؤجؤية البدن، وآنية طبخ جديدة. واتسمت المرحلة المؤرخة من حوالي 1800 إلى 1550 قبل الميلاد بظهور صناعات مختلفة للآنية الفخارية، هي:

1- فخار تل اليهودية: عثر على آنية منه في منطقة ساحل البحر المتوسط وفي الأردن وفلسطين. وامتازت الآنية الفخارية المنسوبة لهذا الطراز، خاصة الأباريق الصغيرة، بلونها الأسود أو البني الداكن، وبزخرفة سطوح الآنية بنقاط محفورة ومملوءة بمادة كلسية بيضاء. وأخذت هذه الصناعة اسمها من الموقع الذي عثر عليها فيه لأول مرة، في الدلتا المصرية.

2- الفخار المدهون بلون بني غامق (لون الشيكولاتة) على أرضية بيضاء اللون (الشكل 76).



الشكل 76: جرة فخارية مدهونة بلون بني غامق على أرضية بيضاء، طبقة فحل/الأردن

3- الآنية ذات اللون الثنائي (الأسود والأحمر) Bichrome.

4- عثر على فخار مستورد من قبرص، ينسب إلى أواخر العصر البرونزي المتوسط.

إضافة لهذه الأنواع، عثر على فخار محلي بسيط الصنع، خاصة من المرحلة الأولى للعصر البرونزي المتوسط (Amiran 1969; Gerstenblith 1983; Cole 1984).

أما فيما يتعلق بالعمارة بجنوبي بلاد الشام خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط في الأردن؛ فقد جاءت الأمثلة قليلة من مواقع في غور الأردن، مثل طبقة فحل وتل الحيات، وأخرى من منطقة الحرة البازلتية، مثل موقعي جاوة وتل اركيس. وبطبيعة الحال، عثر على مبانٍ مدنية، وأخرى دينية. بالنسبة للمساكن في تل الحيات، فكل ما كشف عنه كان بعض الجدران المبنية من اللبن، والأرضيات الطينية (Falconer and Magness-Gardiner 1997; 1984: 55). أما تلك في جاوة؛ فبنيت من الحجارة البازلتية بمخطط مستدير الشكل. وقد تعرف المنقبون في جاوة على عدة طرز بنائية منها البيت المكون من غرفة صغيرة المساحة ذات ساحة مكشوفة، وأخرى بنيت على شكل قبو وحظائر للماشية (Helms 1981; 1989). وللمقارنة، وفي دراسة أجريت حول عمارة القرية في العصر البرونزي المتوسط الأول في فلسطين، ثبت للدارسين أن القرى من هذه

الفترة، وفي هذه المنطقة، لم تكن محصنة، وأن الوحدة المنزلية تكونت من ثلاث غرف: اثنتان منها واسعتان بنيتا على الجانبين، وربما استخدمتا للناس والماشية معًا، أما الثالثة؛ فتفصل بينهما، وربما استخدمت للمعيشة (Ben-Tor 1992: 99).

أما فيما يتعلق بالمباني العامة في الأردن خلال العصر البرونزي المتوسط الأول؛ فقد جاءت قلعة جاوة الأنموذج الوحيد عليها، حيث سادت القرية في هذه الفترة على المدينة في كافة أنحاء جنوبي بلاد الشام. وشيدت القلعة والتحصينات في جاوة فوق أعلى منطقة في الموقع، وبلغت أبعادها 26 x 18م، وتشكلت من عدد من الحجرات الصغيرة، متوسط عرض أصغرها حوالي 3م، وأقصى طول لها بلغ حوالي 6.5م، وتتصل الغرف مع بعضها بعضًا بمداخل ضيقة وقليلة الارتفاع (Helms 1989: 142).

عثر على بقايا معمارية تؤرخ لحوالي 1800 وحتى 1650 قبل الميلاد في الأردن في مواقع تل اركيس، وطبقة فحل، وتل نمرين (كفافي 2006). وعلمًا أن المنقبين في تل اركيس أصروا على أهمية الموقع، خاصة أنه محاط بسور ذي بوابات، إلا أنهم لم يستكملوا التنقيب في الموقع، ولم يعلنوا إلا عن عثورهم على بقايا بيوت وجدران تعود لهذه المرحلة. وبشكل عام، فإن الغرف التي عثر عليها في موقع اركيس كانت مستطيلة أو مربعة، ومبنية بأكملها من الحجارة، بما في ذلك سقوفها وأرضياتها. وكشف عن المساكن في المنطقة المحاذية لأسوار المدينة (Betts et al. 1996: Fig. 2).

وامتازت المساكن في فلسطين خلال العصر البرونزي المتوسط بتعدد أشكالها، فهناك البيوت ذات الساحة، والتي تبنى فيها غرف البيت في جهة واحدة فقط من الساحة. وقد عثر على مثل تلك البيوت في بلاد الرافدين، وفي تل بيت مرسيم بفلسطين (Albright 1938: 35). وعلى أية حال، عثر في مواقع فلسطينية أخرى، مثل تل المتسلم وتل العجول، على بيوت مكونة من ثلاث غرف تلتف حول ساحة (Beebe 1968).

وفيما يتعلق بالتحصينات في الأردن خلال بداية المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط في الأردن؛ فثمة مثال جيد عليها من موقع اركيس، حيث بني سور حجري حول المدينة، وهو ذو بوابة تفضي إلى الداخل، وبنيت غرف على جوانب مداخلها، وهي لا تزال ظاهرة للعيان (Betts et al. 1996; 1995). أما في موقع طبقة فحل، فبالإضافة للمباني السكنية، فكشف عن سور يحيط بالمدينة، بني من اللبن فوق أساسات حجرية

(Potts et al. 1985: 196-202; Bourke et al. 1994: 96; 1998: 194). من هنا، نلحظ أن التحصينات في بداية المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط جاءت على شكل قلعة، أي أسوار ذات بوابات تحيط بالمدن والبلدات.

ذكرنا آنفًا أن أقدم التحصينات في الأردن جاءت من موقع جاوة، وتعود لبداية العصور البرونزية، وكانت على شكل قلعة. أي أن الموقع كان محاطًا بأسوار ذات بوابة أو أكثر. واستمر هذا النظام خلال المرحلتين الأولى وبداية الثانية من العصر البرونزي المتوسط. وجاء المثال الثاني من موقع اركيس، وهو من البيئة ذاتها التي تقع فيها جاوة، أي منطقة الحرة. لكن التحصينات اختلفت في المرحلة الأخيرة (حوالي 1650- 1550 قبل الميلاد) حيث بني منحدر زلق ملاصق للأسوار ينتهي طرفه الخارجي في بعض الحالات بخندق محفور. ويعتقد بأن أصل هذا النوع من التحصينات هو بلاد الرافدين وشمالي سورية (Kempinski 1992: 175-177). ويعتقد بعض العلماء أن مثل هذا النوع من التحصينات هو من اختراع الهكسوس (Ahlström 1993: 201). وقد كشف عن هذا النوع من التحصينات في عدد من المواقع الشامية، مثل تل العطشانة، وتل المشرفة، وتل تعنك، وتل الفارعة الشمالية، وأريحا، وتل القاضي، وتل وقاص، وتل المتسلم، وتل بيت مرسيم، وتل المفراك، وتل الدوير، وطبقة فحل، وجبل القلعة/عمان، وربما في تل صافوط.

عثر في الأردن على معابد تعود للعصر البرونزي المتوسط، لكنها تخلو من أية محفوظات كتابية تدل على اسم المعبود الذي كرس له المعبد كما كان الحال في معابد شمالي بلاد الشام. وفي أثناء التنقيبات التي جرت في موقع تل الحيات خلال السنوات 1982 و1983، و1985، كشف عن أربعة معابد في هذه القرية الصغيرة، أو العزبة، مبنية من اللبن. ويعد هذا من أهم الاكتشافات الأثرية في الأردن آنذاك، خاصة أنها غطت المراحل الأولى والثانية والثالثة من العصر البرونزي المتوسط (Falconer and Magness-Gardiner 1999). ويعود أقدم هذه المعابد الأربعة إلى بداية المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط، حيث جاء المعبد بسيط البناء مبنيًا من اللبن، ويتكون من غرفة مستطيلة شكلت قاعة المعبد الرئيسة، ولها مدخل مبني من الطين. وخلال المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط، أصبح المعبد مكونًا من قاعة رئيسة ذات مدخل بشكل غرفة، وهو بذلك يشبه المعابد المسماة معابد الحصن، أو المعابد ذات الأبراج (الشكل

77)، وعثر على أمثلة مشابهة له في تل بلاطة وتل المتسلم في فلسطين (Falconer and Magness-Gardiner 1997: 487).

وخلال المواسم الأخيرة للتنقيبات التي تقوم بها البعثة الأسترالية في طبقة فحل، كشف عن معبد ضخم بني من الحجارة، بلغ أقصى اتساع له خلال المرحلة الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط وبداية العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1650-1500 قبل الميلاد)، وهو من طراز المعابد ذات الأبراج.

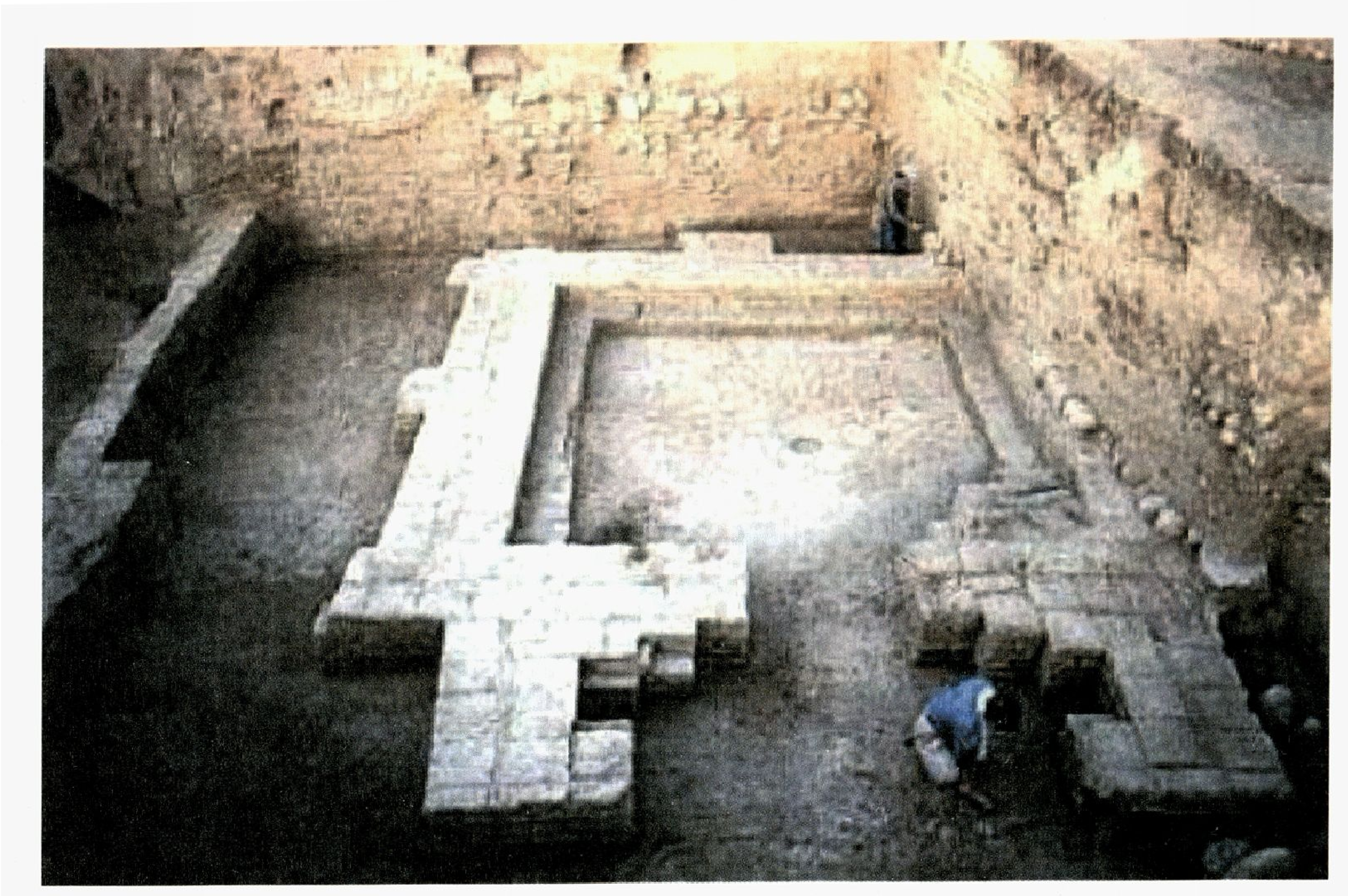
كذلك عثر في فلسطين على عدد من المعابد المؤرخة للعصر البرونزي المتوسط، خاصة المرحلة الثانية منه، مثل معبد بلاطة الذي بني داخل الطرف الجنوبي للبوابة الشمالية الغربية (Dever 1974). وعلى أية حال، استطاع الباحثون تمييز ثلاثة طرز من المعابد في فلسطين من هذه الفترة، هي:

1- المعبد ذو الغرفة الطويلة Long-room Temple، والتي لم تستخدم فيها أعمدة لرفع السقف.

2- المعبد ذو الغرفة المستعرضة Broad-room Temple، والتي استخدمت فيها أعمدة لرفع السقف، كما هو الحال في المعبد الذي اكتشف في نهاريا بالقرب من مدينة عكا.

3- معبد القلعة Fortress Temple، وينسب للطراز المعروف باسم المعبد ذي الغرفة الطويلة، لكنه يمتاز بجدرانه السميكة، وبوجود برج.

ولدراسة عادات الدفن في العصر البرونزي المتوسط بجنوبي بلاد الشام، فإن ما عثر عليه في قبور تل السلطان/أريحا يزودنا بفكرة جيدة حول ذلك. فمثلاً، نجد أن القبور الجماعية التي ميزت العصر البرونزي المبكر، استبدلت في أغلب الحالات بقبور فردية. إلا أنه جرى استخدام المدافن لأكثر من مرة. وعثر في قبور العصر البرونزي المتوسط في أريحا، بالإضافة للآنية الفخارية، على قطع آثاث منزلي مثل الطاولات الخشبية وقطع خشبية أخرى (الشكل 78) (Kenyon 1965; 1960).



الشكل 77: معبد من العصر البرونزي المتوسط، تل الحيات/ الأردن



الشكل 78: قبر في أريحا من العصر البرونزي المتوسط، يحتوي على آنية خشبية وأثاث وسلال ونسيج (Tubb 1998)

وتعد حقول المدافن التي نقب عنها في طبقة فحل، وفي المناطق المحيطة بها في وادي الأردن، أغنى الحقول باللقى الأثرية، والتي يعود معظمها إلى المراحل الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط. وقد عثر على مدافن للأطفال داخل جرار (Smith 1973: 367) إضافة للقبور المحفورة في باطن الأرض. ودفن في أحد القبور مع المتوفى ماعز، وآنية فخارية، وخنجر، وحبة رمان، وعدد قليل من الأدوات الصوانية (Walmsley et al. 1993: 180). كذلك عثر على عدد آخر من القبور في عمان وضواحيها (كفافي 2006).

ويبدو من خلال اللقى الفنية المؤرخة للعصر البرونزي المتوسط أن فنون المنطقة الساحلية كانت متأثرة إلى حد كبير بالفن المصري، بينما جاءت فنون المنطقة الداخلية لبلاد الشام أكثر تأثرًا بحضارة بلاد الرافدين (Kaplan 1971).

لم يعثر في الأردن إلا على عدد قليل من اللقى الفنية من العصر البرونزي المتوسط مقارنة بما عثر عليه في مناطق بلاد الشام الأخرى. فلم تزد تلك اللقى عن بعض الدمى المعدنية، والحلي والمجوهرات، والأختام الأسطوانية، والجعلان، وقطع العظم والعاج التي استخدمت في تطعيم الصناديق الخشبية. ومن أجمل تلك اللقى الفنية، وأشهرها، الصناديق الخشبية المطعمة بالعاج التي عثر عليها في المنطقة Plot IIIC في موقع طبقة فحل، حيث عثر في حفرة كانت مغلفة بطبقة من القصارة الجيرية على صندوقين مطعمين بالعاج، وكسرتين من رقيمين طينيين نقش عليهما بالخط المسماري (Potts 1987; Potts et al. 1985: 200-202).

وحقيقة الأمر أن نظام الدولة المدينة كان، أيضًا، ممارسًا بوصفه نظامًا سياسيًا في منطقة جنوبي بلاد الشام، لكن لم تكن هذه المدن بعظمة أخواتها في شمالي بلاد الشام، مثل تل مرديخ وتل الحريري. علمًا أنها أدت دورًا كبيرًا في الحياة الاقتصادية والسياسية في بلاد الشام والمناطق المجاورة خلال العصر البرونزي المتوسط. ومن تلك المواقع: تل القاضي، وتل وقاص (حاصور)، وتل المتسلم، وطبقة فحل، وجاوة.

1. تل القاضي "دان" / فلسطين

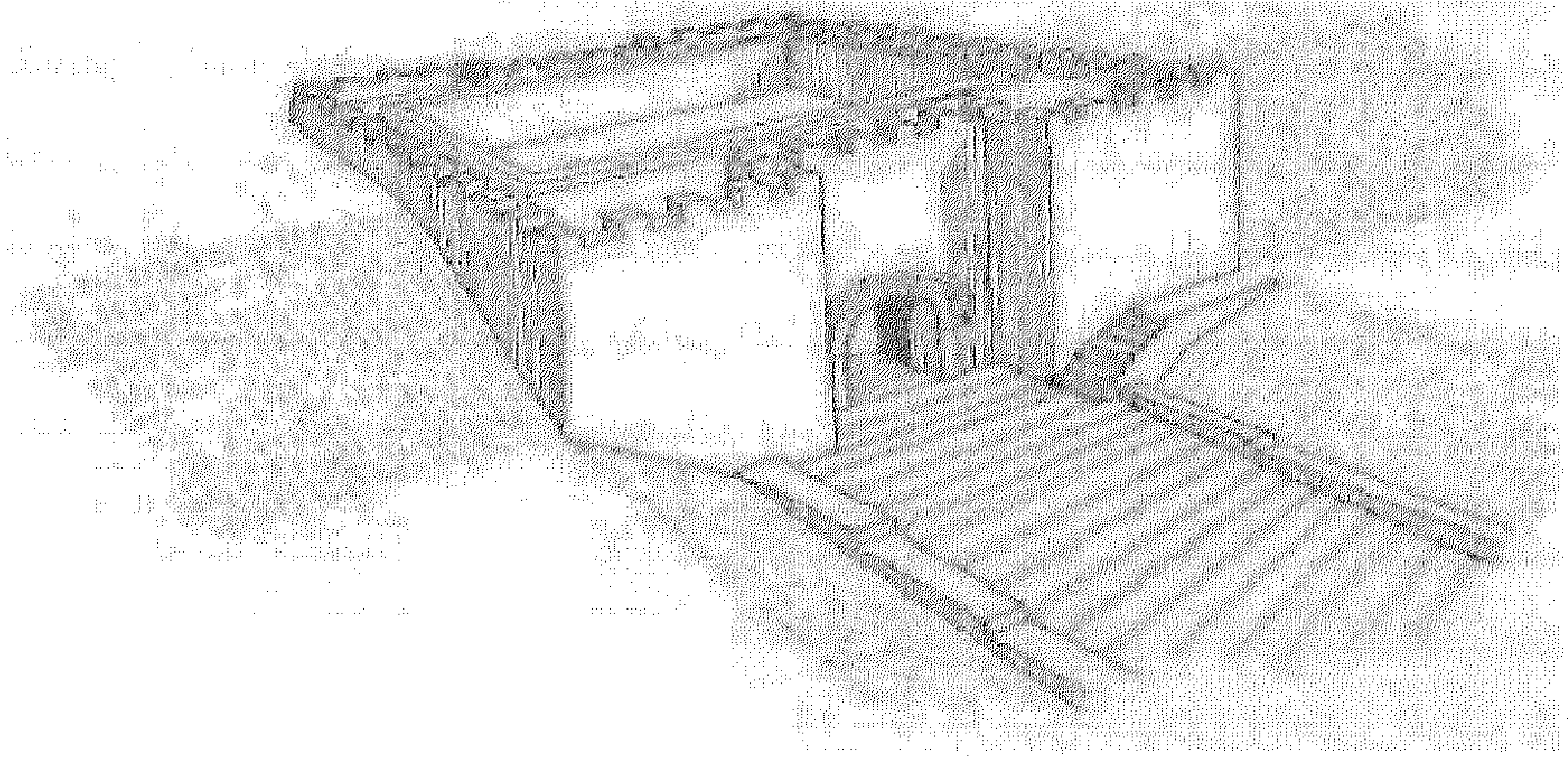
يتمركز تل القاضي في المنطقة الشمالية الشرقية لسهل الحولة، على سفح جبل الشيخ وأطراف جبال الجولان الشمالية، بالقرب من منابع نهر الأردن، بارتفاع 20م عن المنطقة

المحيطة به. والتل ذو شكل مستطيل نتج عن إحاطته بأسوار ترابية خلال العصور البرونزية المبكرة. وقد عثر في التل على نقش مكتوب باللغتين الآرامية واليونانية، يذكر أن اسم الموقع هو "دان" (Ilan 1997: 108). ويعتقد بعض الباحثين أن الموقع الحالي "دان" هو الموقع التوراتي "ليش" Laish الذي ذكر في نصوص اللعن المصرية المؤرخة للقرن التاسع عشر قبل الميلاد. كما ورد ذكر اسم الموقع في نصوص تل الحريري إلى جانب اسم موقع تل وقاص الذي يقع إلى الجنوب الغربي من تل القاضي وذلك في سياق يتعلق بشحن بعض البضائع. ومن المعلوم أن الموقع كان نقطة اتصال على الطريق التجاري بين مصر، وشمالي بلاد الشام، والأناضول.

وتكرر ذكر اسم الموقع "ليش" في السجلات المصرية، مثل القوائم الطوبوغرافية، من زمن الفرعون تحتموس الثالث (حوالي 1490 – 1436 قبل الميلاد). وذكر الموقع في أكثر من موضع في النصوص التوراتية المتعلقة بالأحداث التي جرت خلال العصور الحديدية. ويظهر أن الموقع بقي يؤدي دورًا مهمًا في العصور الكلاسيكية، فقد ورد اسمه في كتابات يوسوبيوس.

بدأت بعثة أثرية إسرائيلية التنقيبات في الموقع عام 1963، بإشراف تسييف ييفن Zeev Yeiven، ثم خلفه أفراهام بيران Avraham Biran في عام 1966. ويبدو أن بيران تبين أهمية الموقع، لذا بدأ منذ عام 1974 بإجراء تنقيبات سنوية فيه، استمرت حتى وفاته في عام 2008. وكشفت تلك التنقيبات عن بقايا أثرية أقدمها يؤرخ للعصر الحجري الحديث الفخاري، وأحدثها إسلامي العهد (Biran 1994). وما يهمنا في هذا المقام هو الحديث حول تل القاضي في العصر البرونزي المتوسط.

أكدت التنقيبات الأثرية أن تل القاضي كان مسكونًا خلال المرحلة السابقة للعصر البرونزي المتوسط، ولو بشكل بسيط. لكن أهم البقايا الأثرية المكتشفة في الموقع هي التحصينات، والبوابة ذات المدخل القوسي، والمؤرخة للعصر البرونزي المتوسط (الشكل 79). وللبوابة ثلاثة مداخل رئيسة قوسية، وعلى جانبي المدخل يقف برجان، وجاءت جميعها مبنية من اللبن. وعندما كشفت تنقيبات بيران عنها، كانت شبه كاملة. ويظهر أن سكان الموقع حافظوا على هذا البناء بقصارته بالطين. وبعد الاستغناء عنه، أغلقت مداخل البوابة، وغطيت بطبقة من القصارة الطينية.



الشكل 79: مخطط بوابة العصر البرونزي المتوسط في تل القاضي/ فلسطين

جاءت بيوت العصر البرونزي المتوسط مكونة من طابقين، وساحة مورست فيها النشاطات المنزلية اليومية، حيث عثر على أفران للخبز، ومواقد للطبخ، وحفر للخزين. ودفن الناس موتاهم داخل قبور حفرت تحت أرضيات البيوت، بينما دفن الرضّع في جرار فخارية.

ويعتقد المنقبون في تل القاضي أن الموقع دمر في القرن السادس عشر أو بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد نتيجة لعمل عسكري.

2. تل وقاص "حاصور"/ فلسطين

يقع تل وقاص (أو تل القدح في مصادر أخرى) على مسافة 14كم إلى الشمال من بحيرة طبرية، في منطقة الجليل الأعلى (الشكل 80). ويتكون الموقع من منطقتين، عليا وهي منطقة التل الذي يرتفع حوالي 40م عن المناطق المحيطة به، ومساحته حوالي 120 دونماً؛ وسفلى وهي منطقة مستطيلة الشكل تقع إلى الشمال من التل، وتبلغ أبعادها حوالي 1000 x 700م. والمدينة السفلى محمية في جهتها الغربية بمرتفع ترابي وخندق. أما في الجهات الأخرى؛ فهناك خندق في الجهة الجنوبية ويفصلها عن التل. وفي الجهة الشمالية



الشكل 80: صورة جوية لموقع تل وقاص/ فلسطين

يوجد فقط سور ترابي. كما يحيط بالموقع في جهته الشرقية منحدر طبيعي، وسور ومنزلق صناعي.

ذكرت هذه المدينة الكنعانية لأول مرة في أرشيف تل الحريري المؤرخ للقرن الثامن عشر قبل الميلاد. وتردد ذكرها كثيرًا في السجلات والوثائق المصرية، خاصة من زمن الدولة المصرية الحديثة. وكانت المدينة بلغت أوج عظمتها في العصر البرونزي المتأخر، كما سنرى في الفصل التالي.

بدأت التنقيبات في تل وقاص عام 1928، وذلك عندما قام البريطاني جون غارستنج بحفر مربعات تجريبية في الموقع. وفي الفترة ما بين الأعوام 1955-1958 أجرت بعثة إسرائيلية، بإشراف يغال يادين، تنقيبات أرخت الموقع للعصرين البرونزي المتوسط والمتأخر (Yadin 1972). وفي عام 1968، قام يادين وآخرون باستئناف التنقيبات لموسم واحد. وبعد وفاة يادين، تولى التنقيبات من بعده الإسرائيلي أمنون بن-تور Amnon Ben-Tor الذي بدأ موسمه الأول عام 1990 بالتعاون مع مؤسسات أمريكية وإسبانية، ولا يزال العمل في الموقع جاريًا.

ونتيجة لتنقيبات يادين في مدينة تل وقاص السفلى، أمكن معرفة أن الموقع سكن من القرن الثامن عشر وحتى نهاية الثالث عشر قبل الميلاد دون انقطاع. واستطاع المنقب التعرف إلى خمس طبقات، هي: 1a وتعود للقرن الثالث عشر قبل الميلاد، والطبقة 1b وتؤرخ للقرن الرابع عشر قبل الميلاد، والطبقة 2 وتؤرخ للقرن الخامس عشر قبل الميلاد والطبقة 3 وتؤرخ للقرنين السادس عشر والسابع عشر قبل الميلاد، وأخيرًا الطبقة 4 وتعود للقرن الثامن عشر قبل الميلاد. وهذا يعني أن الطبقتين 3 و4 تؤرخان للعصر البرونزي المتوسط، وهما موضوع نقاشنا.

فكما ورد أعلاه، أرخت الطبقة الرابعة في المدينة السفلى، بما تحوي من بقايا عمائرية ولقى أثرية، لمنتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهذا يوافق التاريخ الذي بنيت فيه أولى وأقدم التحصينات في الموقع. ومن أهم الموجودات التي عثر عليها في هذه الطبقة نقش حفر بالخط المسماري الأكادي على سطح جرة، يذكر اسم صاحبها.

ومن أهم ما عثر عليه في تل وقاص من المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط الطبقة 4، جاء من المنطقة F في المدينة السفلى، وتكون من قبور مقطوعة في الصخر تربطها ببعضها قنوات. ويتكون القبر من حفرة بئرية مستطيلة أو مربعة الشكل تنتهي بتجويف على شكل كهف. ولم يعثر في هذه القبور إلا على كسر فخارية بسيطة، مما يشير إلى أنها نهبت خلال العصور القديمة.

ووجد في المنطقة H التي تشكل الجهة الشمالية للمدينة السفلى، مبنى معبد بني ملاصقًا للوجه الداخلي لسور المدينة. وجاء المبنى الذي وجد في الطبقة 3 مكونًا من صالة مستعرضة، وله حنية صغيرة في جهته الشمالية، ربما كانت قدس الأقداس. كما عثر المنقبون في وسط القاعة الكبيرة على قاعدتين لعمودين حملا سقفها، وعلى بقايا لبرجين مربعين، انتصبا على جانبي مدخل القاعة الرئيسي. وبنيت إلى الجنوب من القاعة منصة مرتفعة تتصل بدرجات من الحجارة البازلتية المشذبة تقود إلى أعلاها. وبلطت المناطق المتاخمة لمبنى المعبد بالحجارة. ويعتقد أن مخطط هذا المعبد يشابه إلى حد كبير مخطط المعابد المعاصرة التي وجدت في بلاطة، وتل المتسلم (الطبقة VIII).

يبدو أن الطبقة 3 دمرت خلال الأحداث الحربية التي وقعت بين المصريين والهكسوس وكل ما عثر عليه من المرحلة الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط، قبور لرضع وضعوا

داخل جرار دفنت تحت أرضيات البيوت. وعثر في المنطقة F، الطبقة 3، على مبنى مستطيل ذي جدران سميكة جدًا، أرخ لنهاية العصر البرونزي المتوسط. واعتقد المنقبون أن هذا المبنى ضم معبدين كرّسا لعبادة إلهين مختلفين.

أما في المدينة العليا من التل؛ فقد قام المنقبون خلال الأعوام 1955 وحتى 1958 بالحفر في ثلاث مناطق، حيث جرى التعرف على إحدى وعشرين طبقة، تعود أقدمها (الطبقة XXI) لنهاية العصر البرونزي المبكر الثاني وبداية الثالث، وبنيت فوق الصخر الطبيعي، وأحدثها (الطبقة I)، وتعود للعصر الهلنستي. وما يعنينا هنا هو الطبقتان XVII-XVI المؤرختان للعصر البرونزي المتوسط، واللتان توازيان الطبقتين 3-4 في المدينة السفلى. ففي المنطقة A عثر المنقبون على جزء صغير من مبنى يعتقد أنه كان قصرًا ومبنى آخر لمعبد، وجدار سميك. كما أثبتت نتائج التنقيبات في المنطقة B استمرارية السكنى في الموقع خلال العصر البرونزي المتوسط، حيث كشف عن قلعة من اللبن بنيت على الحافة الغربية للتل، ووجدت في المنطقة حولها كسر فخارية تعود لبداية العصر البرونزي المتوسط. كما عثر في المنطقة G على بقايا تحصينات من العصر البرونزي المتوسط.

3. تل المتسلم "مجدو"/ فلسطين

يعد تل المتسلم من أهم المواقع في جنوبي بلاد الشام لعدة أسباب، منها: موقعه الاستراتيجي، واستمرارية الاستقرار فيه منذ العصر الحجري الحديث الفخاري وحتى مجيء الإسكندر المكدوني، إضافة إلى كبر مساحته (الشكل 81). ويختلف ارتفاع التل من منطقة لأخرى، لكنه يبلغ في أقصاه حوالي 60م عن المنطقة المحيطة. ويتمركز التل في المنطقة التي يتصل فيها وادي عارة بسهل مرج ابن عامر، وبهذا تحكم في طرق التجارة الداخلة والخارجة من بلاد الشام ومصر وإليها. وكان هذا المكان خلال العصور البرونزية مسرحًا للقتال، ومن أهم المعارك التي جرت فوق أرضه، المعركة التي دارت بين الفرعون المصري تحتموس الثالث (حوالي 1490-1436 قبل الميلاد) وعدد من حكام، وأمراء دويلات المدن في العصر البرونزي المتأخر. لذا، نجد أن سكان هذه المدينة، وعلى مدى العصور، قاموا على تحصينها بالأسوار والبوابات.



الشكل 81: منظر عام لتل المتسلم في سهل مرج ابن عامر في فلسطين

ذكرت مدينة تل المتسلم في النصوص والوثائق المكتوبة، خاصة المصرية منها، إذ كانت من المدن الكنعانية المهمة خلال العصور البرونزية والحديدية. وبما أن اسم المدينة "مجدو" تردد ذكره في النصوص التوراتية (مثلاً، سفر القضاة 5: 19)؛ فقد بدأت التنقيبات الأثرية فيها منذ مطلع القرن العشرين (1903 -1905) على يد بعثة أثرية ألمانية، بإشراف غوتليب شوماخر G. Schumacher، والذي وصل في تنقيباته إلى طبقات العصر البرونزي المتوسط، حيث كشف النقاب عن مبنيين ضخمين بنيا خلال ذلك العصر، واستمرا قيد الاستخدام خلال العصر البرونزي المتأخر (Schumacher 1908).

واستؤنفت التنقيبات في تل المتسلم في عام 1925، على يد بعثة أثرية أمريكية من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو. ووضعت البعثة نصب عينيها حفر التل كله،

طبقة بعد أخرى، لكن هذا الأمر لم يتحقق لضخامة التل. وعليه، قرر القائمون على البعثة تركيز العمل في منطقتين للتل، ووصلوا في المنطقة الشمالية (Area AA) الواقعة بالقرب من بوابة المدينة إلى طبقات العصر البرونزي المتوسط (Stratum XIII)، بينما وصلوا في الجهة الشرقية إلى الصخر الطبيعي، ووجدوا فوقه بقايا من العصر الحجري الحديث الفخاري (Stratum XX) (Shipton 1939). وأهم ما كشف عنه في هذه التنقيبات، النظام المائي الذي يعتقد أنه أنشئ خلال العصر البرونزي المبكر.

وقامت الجامعة العبرية في أعوام 1960، و1961، و1966، و1967، و1971 بإجراء تنقيبات أخرى في تل المتسلم، بإشراف يغال يادين، هدفت إلى الحصول على مزيد من المعلومات حول فترات العصر الحديدي، والنظام المائي الذي أرخه يادين إلى العصر الحديدي، وليس البرونزي المبكر (Yadin 1971). وبعد انقطاع دام عدة سنوات بسبب وفاة يادين، استأنف فريق من الجامعة نفسها، بإشراف كل من إسرائيل فنكلشتاين I. Finkelstein، وديفيد أوسيشكين D. Ussishkin التنقيب في الموقع منذ عام 1994 وحتى الوقت الحاضر.

ما يهمنا في هذا الفصل هو الحديث عن تل المتسلم في العصر البرونزي المتوسط. واعتمادًا على تقارير التنقيبات المنشورة فإن ما عثر عليه في الموقع في الطبقات XV وحتى X يؤرخ للعصر البرونزي المتوسط (الطبقتان XV وXIV تؤرخان للمرحلة الأولى من ذلك العصر، والطبقات XIII وحتى نهاية X تؤرخ للمرحلة الثانية منه). ويعتقد المنقبون أن نهاية العصر البرونزي المبكر (Stratum XVI) شهدت تدميرًا شاملاً للموقع، إلا أنه أعيد بناؤه في بداية العصر البرونزي المتوسط. ولاحظ المنقبون أن سكان الموقع بنوا خلال هذه الفترة ثلاثة معابد في المنطقة المجاورة لمذبح معبد العصر البرونزي المبكر الثالث، تشابهت في مخططاتها إلى حدٍ كبير، حيث تكون المعبد من غرفة رئيسية مستعرضة يدخل إليها عن طريق رواق/دهليز متصل بجهتها الشمالية. ويذكرنا هذا الشكل بمخططات المعابد الإيجية المعروفة باسم Megaron. وبني مذبح مربع الشكل في منتصف الجدار الجنوبي لكل معبد، في مواجهة المدخل الرئيسي، وبنيت للواحد منها درجات تقود لأعلى المذبح. كما عثر في وسط القاعة الرئيسة على قاعدتين لحمل الأعمدة التي رفعت السقف. وبعد دراسة الفخار الذي اكتشف في داخل المعابد (الطبقة XV)، تبين أنه مختلط يؤرخ للعصر البرونزي المبكر الثالث، والمرحلتين الأولى والثانية من العصر البرونزي المتوسط (Shiloh 1993: 1006-1007). كذلك ظهر أن فخار

المرحلة الأولى وجد في المنطقة السكنية، بينما عثر على فخار العصر البرونزي المتوسط الثاني في قبور حفرت تحت مصاطب البيوت. كذلك الحال بالنسبة للفخار المكتشف في الطبقة XIV، إذ جاء مخلوطًا بين فخار المرحلتين الأولى والثانية. إلا أنه من الضرورة التنويه بأن البقايا المعمارية من هذه الطبقة كانت فقيرة جدًا، وتنسب للمرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط.

اكتشف في الطبقة XIII المؤرخة للمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط في موقع تل المتسلم عدد من الغرف وأبنية أخرى، تفصل بينها أزقة وشوارع ضيقة جدًا. وعثر في الطبقات XII–IX على عدد من اللقى الأثرية، مثل نصب حجرية ودمى برونزية تركت فوق أرضيات كان بعضها مبلطًا. ويرى بعض الباحثين أن هذه الأنواع من اللقى ذات أهمية دينية، فربما أن الناس بنوا معبدًا في هذه المرحلة.

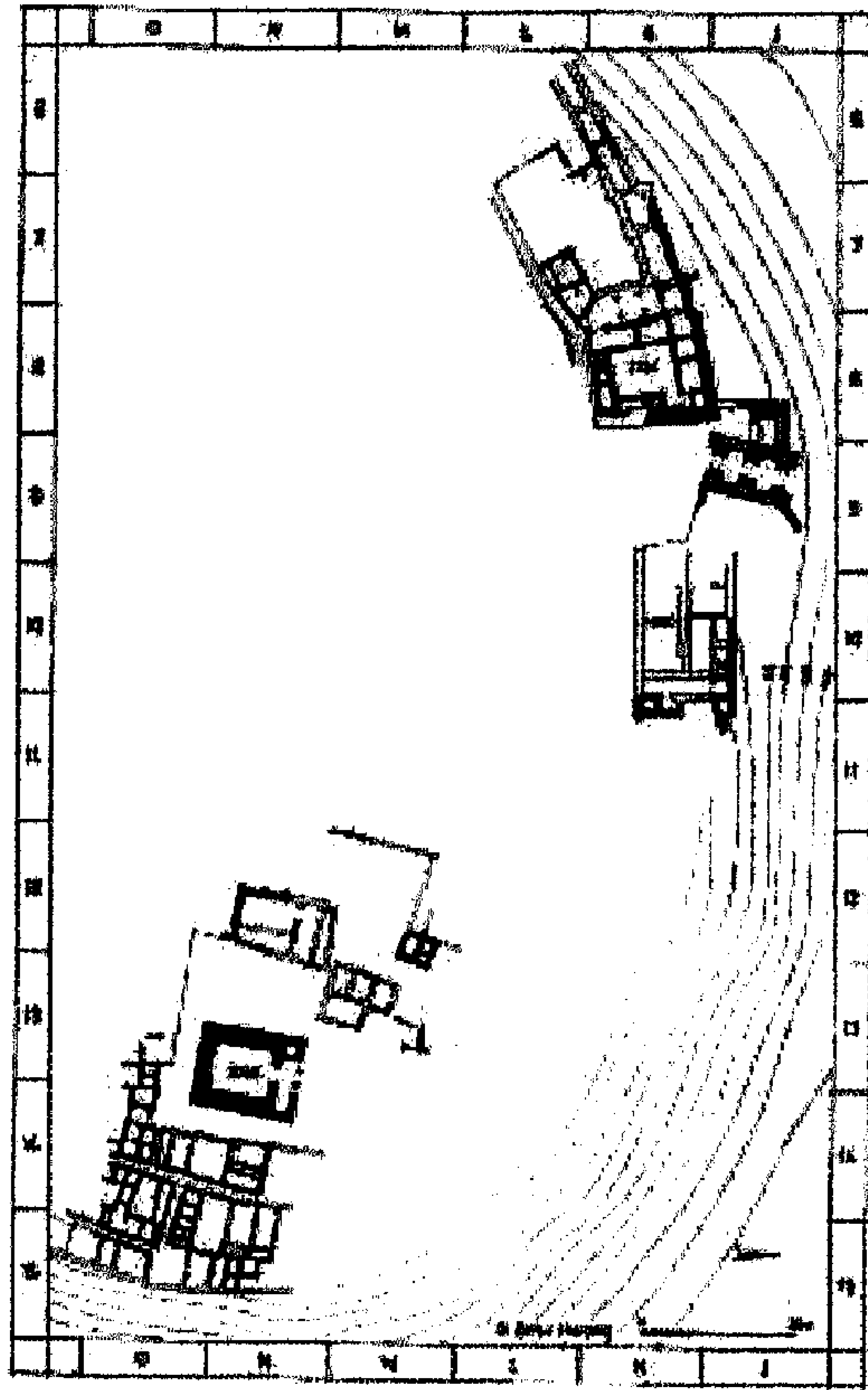
كما بني إلى الغرب من سور مدينة العصر البرونزي المبكر، سور جديد بني من اللبن الطيني فوق أساسات حجرية. كما عثر على بوابة بنيت في بوابة العصر البرونزي المبكر نفسها، وكانت أيضًا مبنية من اللبن على أساسات حجرية. وأحاط بالبوابة برجان، واحد عن كل جانب، وبداخل أحدهما بني درج ربما كان يؤدي لطابق ثانٍ. علمًا أن للبوابة مدخلين ضيقين لا يتسعان إلا للمارّة. ودعم السور بمنحدر زلق.

ولاحظ المنقبون أن ما عثر عليه في الطبقات XII-X، المؤرخة للفترة من القرن الثامن عشر وحتى منتصف السادس عشر قبل الميلاد، تشير إلى استمرارية الاستقرار في الموقع من الفترة السابقة، علمًا أنه كان هناك تغير ملحوظ في مخططات البنايات. ويبدو أن السور الذي أنشئ في بداية المرحلة الثانية (الطبقة XIII) ظل قيد الاستخدام في الطبقة XII (الشكل 82)، علمًا أن سماكته تضاعفت بعد إضافة عدد من الجدران لواجهته الخارجية، وربما يعود السبب في هذا إلى بناء المنزلق من خلفه. كما بني شارع موازٍ لجدار السور، وبني في المسافة بين السور والشارع عدد من البيوت تفتح أبوابها على الشارع. وجاء مخطط هذه البيوت متشابهًا، إذ تكون من ساحة مركزية بني حولها عدد من الغرف. وتكون أحد هذه البيوت من عشر غرف، كما حفرت بئر في وسط ساحته.

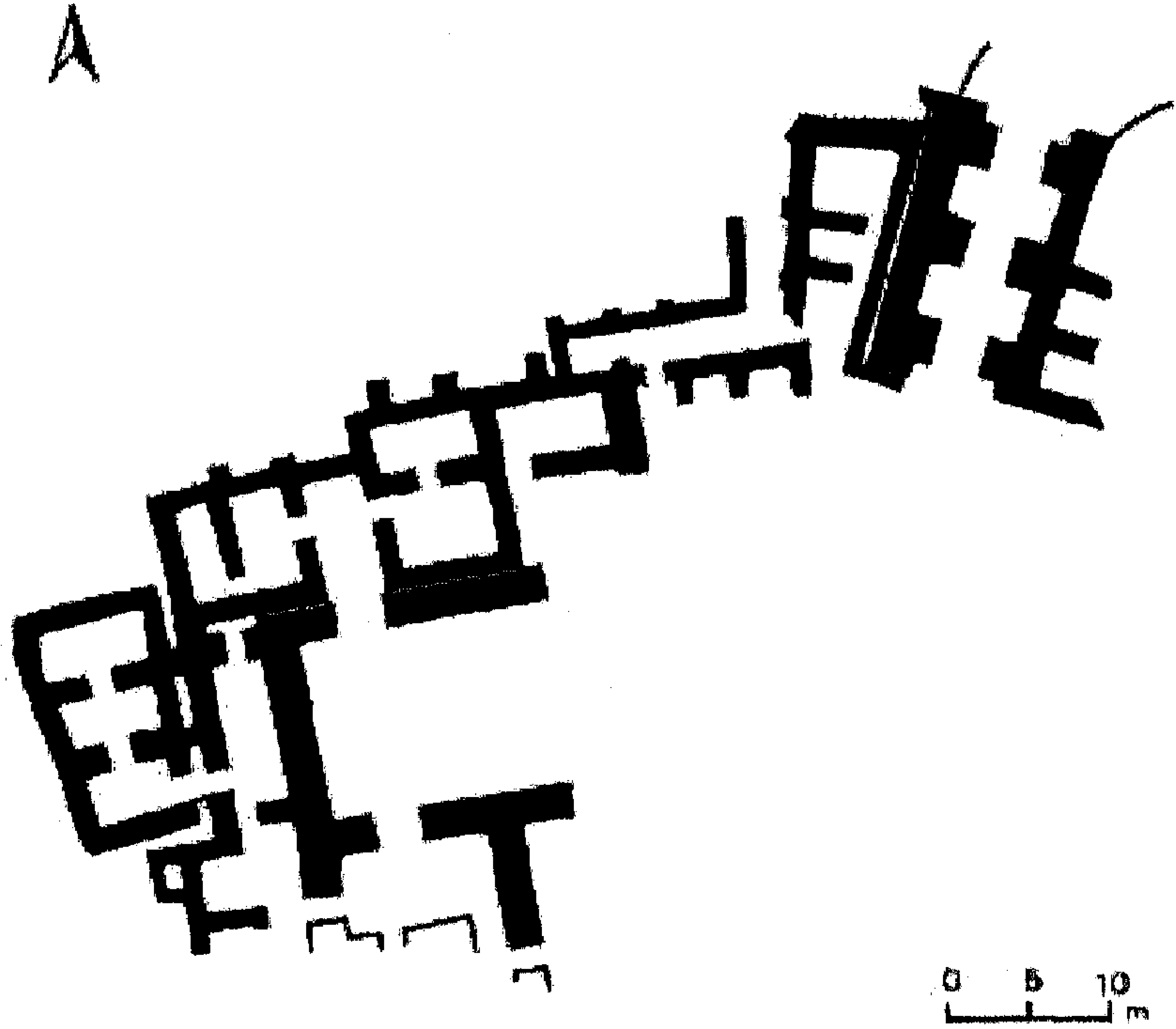
بني في تل المتسلم في نهاية العصر البرونزي المتوسط (Stratum X) قصر بالقرب من البوابة الرئيسة، تمت توسعته، وأعيد استخدامه في العصر البرونزي المتأخر (الشكل 83). وعثر

في داخل هذا المبنى على مجموعة من المجوهرات، وعلى قطع عاجية مزخرفة بزخارف محفورة لأشكال آدمية وحيوانية. كما بنيت بوابة ضخمة في هذه الفترة المتأخرة من العصر البرونزي المتوسط، وبقيت قيد الاستخدام طيلة العصر البرونزي المتأخر (Shiloh 1993).

وعلى الرغم من التغيرات السياسية التي حصلت في بلاد الشام خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر قبل الميلاد، فإن مدينة تل المتسلم بقيت في قمة أوجها الحضاري والتجاري والسياسي. ويكفينا مثلاً أنه في عام 1468 قبل الميلاد ترأست هذه المدينة تحالفاً من حكام وأمراء مدن بلاد الشام لرد الغازي الفرعون المصري تحتموس الثالث إلا أنه لم يقيض لها النصر. لكنها لم تنته، وبقيت تؤدي الدور ذاته كما كان الحال سابقاً، لكنه دور يكشف عن تبعيتها للفرعون المصري. وهذا ما سنتحدث عنه لاحقاً.



الشكل 82: أسوار تل المتسلم، بنيت في العصر البرونزي المتوسط وبقيت قيد الاستخدام في المتأخر (عن Herzog 1997)



الشكل 83: بوابة المدينة وقصر تل المتسلم/فلسطين، العصر البرونزي المتأخر (عن Ben-Tor 1992)

4. طبقة فحل / الأردن

بني موقع طبقة فحل في منطقة غنية بالمياه على سفوح جبال إربد المطلة على غور الأردن، إذ تأسس التل بشكله الإهليجي على الجهة الشمالية لوادي جرم- الموز الذي تفيض فيه مياه عين للماء. ويرتفع التل في جهته الجنوبية حوالي 30م عن أسفل الوادي. أما في الجهة الجنوبية للوادي؛ فيرتفع تل الحصن الذي كشف فيه عن عدد كبير من القبور خاصة من العصور البرونزية المتوسطة والمتأخرة. ويتمركز موقع طبقة فحل في منطقة استراتيجية تشرف على سهل مرج ابن عامر في فلسطين، وربما كان يتحكم بالطرق التجارية المارة بالمنطقة.

زار موقع طبقة فحل خلال القرن التاسع عشر عدد من الرحالة والمستكشفين نظرًا لأهميتها الدينية لدى أبناء الديانات السماوية. ورأى وليم ألبرايت أنها موقع "پ خ ل" أو "پ خ ر" الذي ورد في المصادر المصرية (Smith 1973). وكانت المدارس الأمريكية للأبحاث الشرقية قد أجرت أعمال تنقيب تجريبية في طبقة فحل في عام 1958، لكن

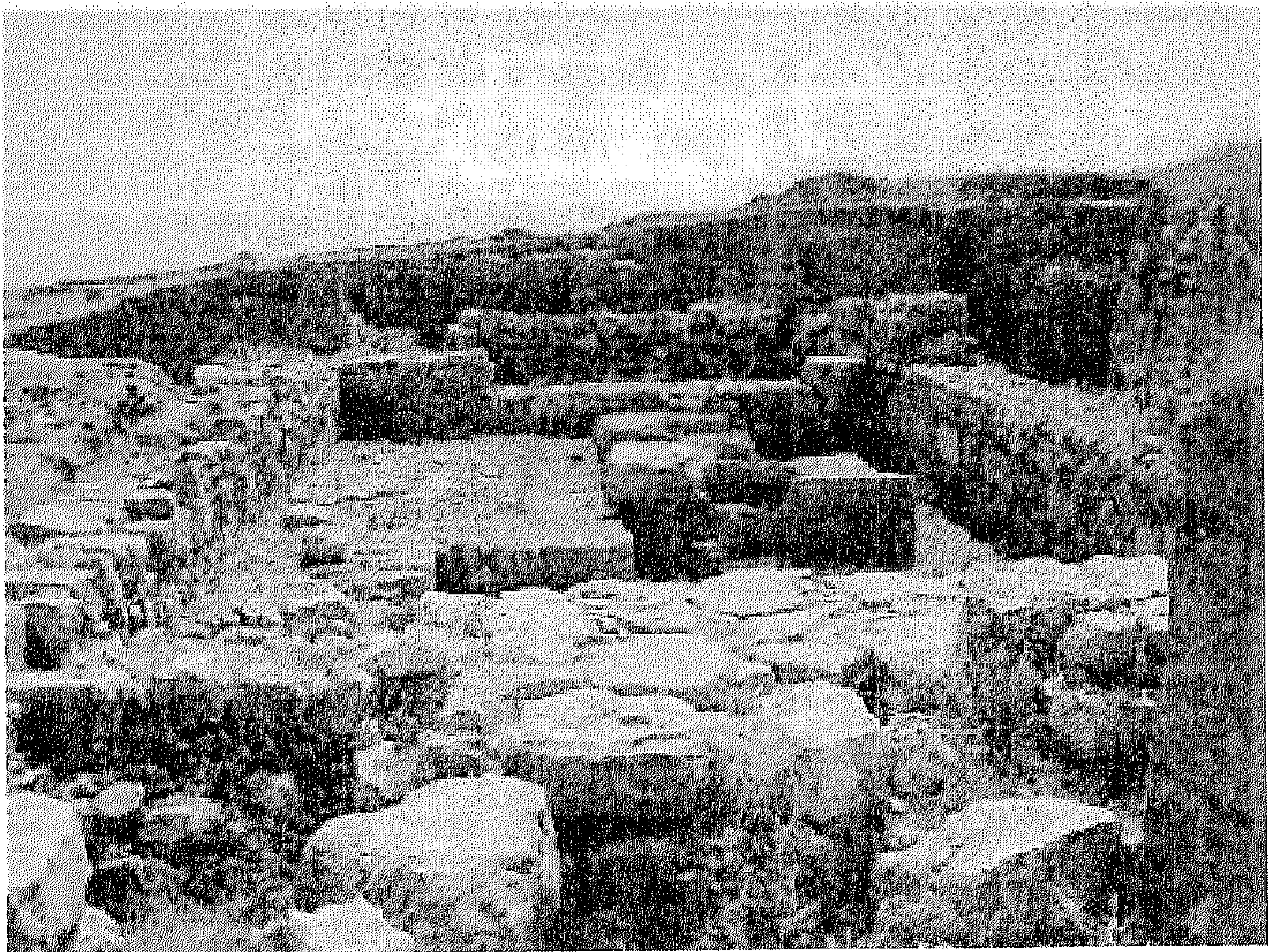
التنقيبات المنتظمة لم تبدأ إلا في عام 1967، بإشراف روبرت سميث Robert Smith. وتحول مشروع التنقيبات، منذ موسم عام 1979، إلى مشروع أمريكي أسترالي مشترك توقف في عام 1985، لكن جامعة سدني الأسترالية استمرت، ولا تزال، بأعمال التنقيب في الموقع. ولم يقتصر العمل الميداني على تل طبقة فحل، بل تعداه إلى المناطق المجاورة عبر إجراء تنقيبات ومسوحات أثرية كشفت عن مواقع وبقايا أثرية تؤرخ منذ العصور الحجرية القديمة وحتى الوقت الحاضر.

أظهرت التنقيبات في طبقة فحل مباني أرخت للمرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المتوسط. وكان سور المدينة وبيوتها المبنية من اللبن مقامة على أساسات حجرية. ولا تزال بعض الجدران تقف لارتفاع يصل حوالي 1م وأكثر، وكانت واجهاتها مطلية بطبقة من القصارة (الطينية غالبًا) (Pott et al. 1985; Bourke et al. 1998) وقصرت الأرضيات بقصارة بيضاء. وكشف عن حفرة عمقها 2م محفورة في هذه الأرضيات، وجدرانها محاطة بالحجارة. وعثر في منطقة أخرى من طبقة فحل على مجمع بنائي مكون من ثلاث غرف أمامها شارع. ويرى المنقبون أن هذا المجمع كان ذا أغراض مدنية كالسكنى (Bourke et al. 1998: 186). وعثر في هذه المنطقة على جدران مبنية من اللبن فوق أساسات حجرية (Walmsley et al. 1993: 178-179). وإذا كانت التنقيبات في المناطق ذوات الأرقام VIII, XXV, XXVIII في طبقة فحل كشفت عن بقايا معمارية من المرحلتين الثانية والثالثة للعصر البرونزي المتوسط؛ فإن المنطقة III الواقعة في القطع الشرقي للتل قدمت معلومات دقيقة استخلصت من تسلسل طبقي دقيق، حيث عثر فيها كذلك على بقايا عمائرية تبعد مسافة قصيرة عن الوجه الداخلي لسور المدينة (Smith and Potts 1992: 44-47; Fig. 8). وإضافة للمباني السكنية كشف عن سور يحيط بالمدينة، بني من اللبن فوق أساسات حجرية (Potts et al. 1985: 196-202; Bourke et al. 1994: 96; 1998: 194).

وخلال السنوات الأخيرة، كشفت التنقيبات في موقع طبقة فحل عن معبد ضخم بني من الحجارة (الشكل 84)، بلغ أقصى اتساع له خلال مرحلة العصر البرونزي المتوسط الثالث وبداية العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1650-1500 قبل الميلاد)، إذ بلغت أبعاده حوالي 32 x 24م. لذا، فهو يعد من أضخم المعابد التي عثر عليها في جنوبي بلاد الشام إن لم يكن أضخمها. ويرى المنقب أن المعبد شهد أربع مراحل بنائية، وبقي قيد

الاستخدام حتى حوالي 800 قبل الميلاد. لكن مساحته تناقصت تدريجيًا عبر العصور وبلغت أقلها في العصر الحديدي الثاني، إذ كانت أبعاده 18 x 10م (Bourke 2003: 5). ويتكون مخطط المعبد من قاعة كبيرة طويلة تتقدمها ساحة صغيرة، وهو من طراز المعابد ذات الأبراج (Bourke 1999: 57)، ويكرس في العادة لعبادة الإله إيل كبير الآلهة الكنعانية. ويشابه هذا المعبد في تخطيطه معابد العصر البرونزي المكتشفة في موقع تل الحيّات إلى الجنوب الغربي من طبقة فحل في الأردن، وفي مواقع تل بلاطة وتل القدح وتل المتسلم في فلسطين (Bourke 1999: 57; Kamlah 2004: 109-110).

وتعد حقول المدافن التي كشفت عنها البعثة الأسترالية والبعثة الأمريكية/الأسترالية في طبقة فحل هي الأغنى بالمخلفات الأثرية المؤرخة للعصر البرونزي المتوسط في الأردن. وعلى الرغم من أنها لم تنشر بشكلها النهائي حتى الآن، إلا أن ما كشف عنه حول موجودات القبور، خاصة المؤرخة للمراحل الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط، يدل



الشكل 84: معبد طبقة فحل، العصر البرونزي المبكر إلى العصر الحديدي الثاني
(تصوير يوسف الزعبي)

على أن الموقع أدى دورًا مهمًا في تاريخ المنطقة، خاصة خلال المرحلة الانتقالية بين العصور البرونزية المتوسطة والمتأخرة. واستطاع المنقبون التعرف إلى نوعين من مقابر المرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المتوسط، وهما:

1. دفن الأطفال داخل جرار، إذ عثر في المنطقة الثامنة Area VIII في طبقة فحل على جرة فيها هيكل عظمي لطفل (Smith 1973: 367).

2. الدفن داخل القبور المحفورة في باطن الأرض، وجاء معظم هذه القبور مدمرًا، إما عن طريق سارقي القبور أو بفعل العوامل الطبيعية.

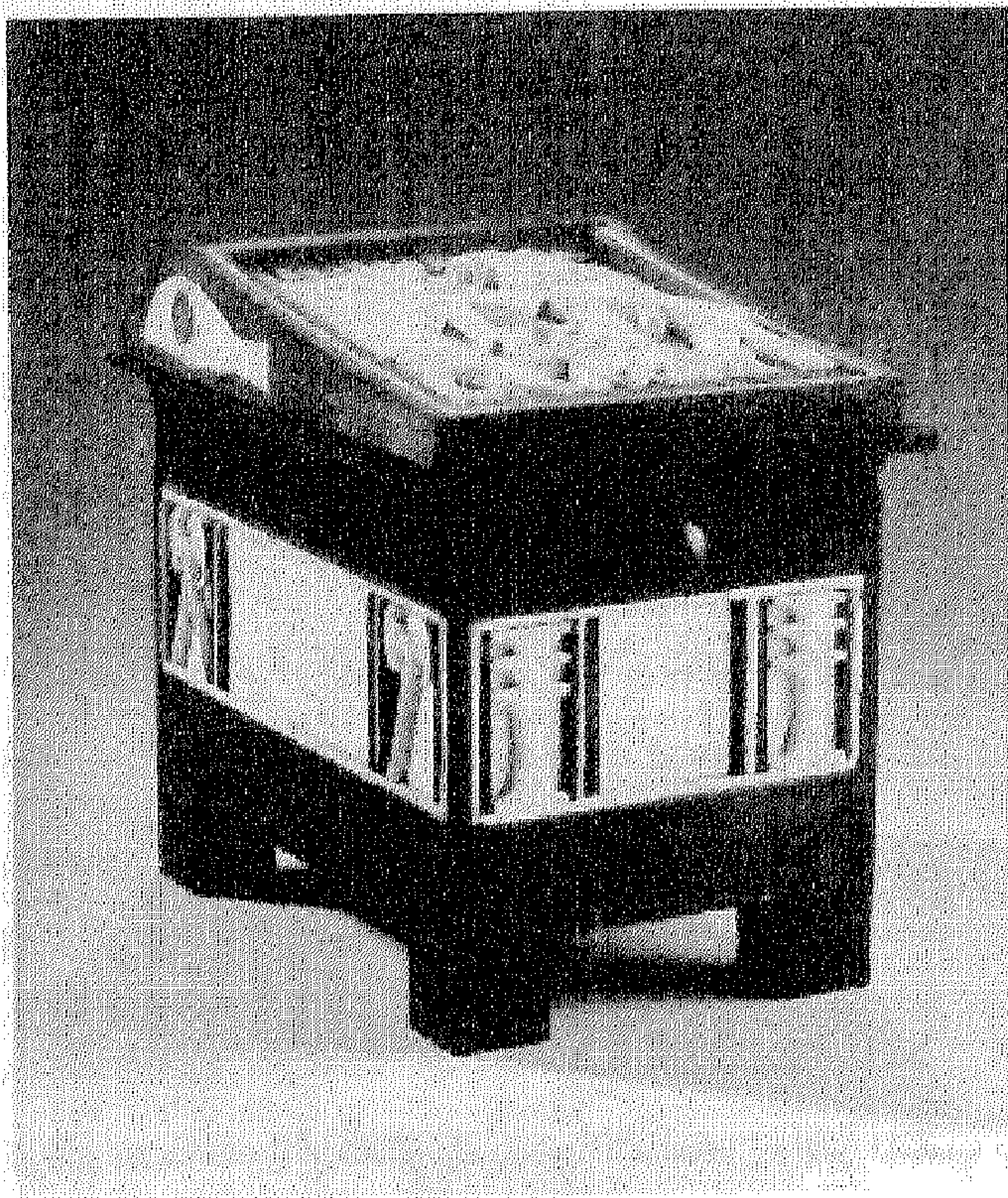
وفي تنقيبات عام 1990 التي جرت في المنطقة Plot III C في طبقة فحل، لاحظت البعثة الأسترالية أن هذه المنطقة خصصت للدفن بعد المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط، إذ عثرت في ذلك الموسم على قبر يضم رفات شخص بالغ، وبقايا هيكل عظمي لماعز، وآنية فخارية، وخنجر، وحبة رمان، وبعض الأدوات الصوانية. علمًا أنه لم يكن القبر الوحيد من هذه المرحلة في هذا الموقع. وأرخ المنقبون هذا القبر للفترتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المتوسط (Walmsley et al. 1993: 180).

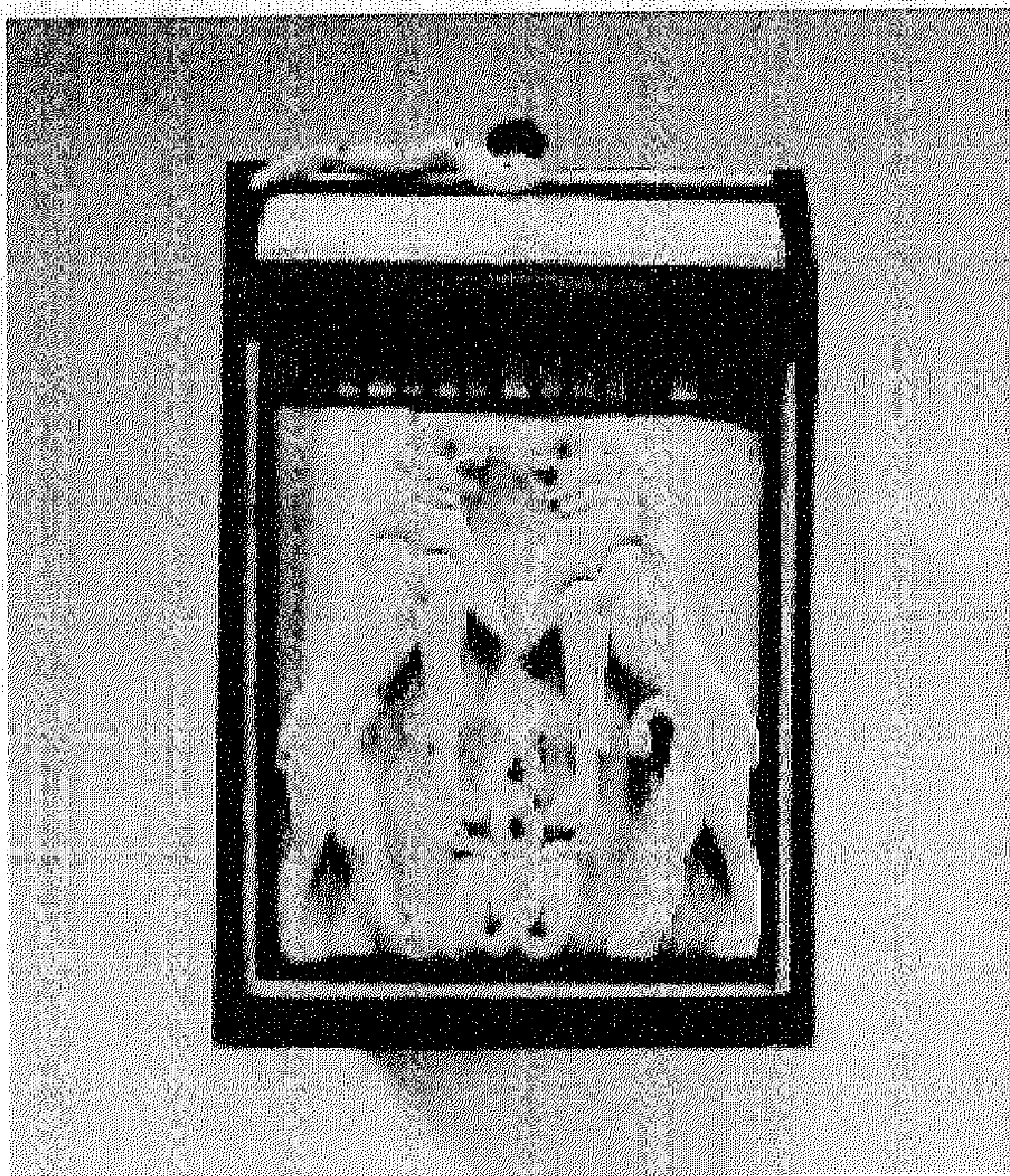
ومن المعروف أن التنقيبات التي قامت بها البعثة الأسترالية في المدافن الموجودة في المناطق الواقعة إلى الشرق من تل طبقة فحل Area II، وفي الجهة الشمالية لتل الحصن الواقع على الضفة الجنوبية لوادي الجرم Area XI، كشفت عن عدد كبير من المقابر المؤرخة للعصرين البرونزيين المتوسط والمتأخر. وتنوعت أشكال المقابر المؤرخة للمرحلة الثالثة من العصر البرونزي المتوسط بين الدفن في حجرات، أو في حفر على شكل صندوق محفورة في الأرض.

وكشفت البعثة الأسترالية في عام 1980 في تل الحصن، في منطقة طبقة فحل، عن أربعة قبور، ثلاثة منها تعود للمرحلة الثالثة من العصر البرونزي المتوسط، أما الرابع فأرخ لبداية العصر البرونزي المتأخر (Hennessy et al. 1981: 267-269). وعثر بداخل القبور الثلاثة على عدد كبير من الآنية الفخارية، مثل الصحون، والزبادي، والمكاييل والأسرجة، والقوارير ذات شكل حبة الكمثرى أو الشكل الأسطواني، علمًا أن أحد الآنية زخرف بشكل وجه بشري، بينما زخرف بعضها الآخر برسومات من النوع المعروف بدهان لون الشوكولاتة على أرضية بيضاء. وبالإضافة للآنية الفخارية، عثر

المنقبون على لقى أثرية أخرى، مثل دبوس من البرونز، وخرز من الزجاج الأخضر، وقطع من المرمر، وبقايا عظام استخدمت في تطعيم الصناديق الخشبية.

ومن أشهر اللقى الفنية التي عثر عليها في طبقة فحل، الصناديق الخشبية المطعمة بالعاج، فقد عثر على صندوقين مطعمين بالعاج. ويعد الصندوق الذي أسماه المنقب "صندوق الأسد" الأكمل والأجمل؛ فهو مصنوع من الخشب، ومطعم بالعاج على الجوانب (الشكل 85). وشكل الصندوق مستطيل، وتبلغ أبعاده 13.2 x 8.6سم. ولدى التدقيق في الأشكال المطعمة، يرى الناظر نبات البردي، وقرصًا مجنحًا، وشكل "عين الإله حورس المصري"، مما يدل على التأثير المصري القوي. وللصندوق غطاء مطعم يحمل شكل أسد هائج. وعلى الرغم من أن العلماء أرخوا مثل هذا النوع من الصناديق للقرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، إلا أن المكتشفات الأثرية الأخرى التي رافقت الصندوق في الحفرة التي وجد فيها، تؤرخ إلى القرن السادس عشر أو الخامس عشر قبل الميلاد (Potts et al. 1985: 200-202; Potts 1987).





الشكل 85: صندوق خشبي مطعم بالعاج من طبقة فحل/ الأردن (عن Der Königs Weg)

5. جاوة / الأردن

جرى لدى حديثنا حول مواقع العصر البرونزي المبكر في بلاد الشام تقديم صورة وافية حول موقع جاوة، والنظام المائي فيه، ومساكن وتحصينات العصر البرونزي المبكر. ونقدم أدناه شرحًا موجزًا عن تحصينات العصر البرونزي المتوسط الأول.

لقد تبين نتيجة للتنقيبات الأثرية، أن بناء قلعة جاوة التي تبلغ أبعادها 26 x 18م يعود إلى المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط، وأنها شيدت من الحجارة البازلتية فوق أعلى نقطة في الموقع. وعدَّت هذه القلعة أفضل وأوسع بناء عام بني خلال هذه المرحلة في هذا الموقع (Helms 1989). ويتكون البناء في إحدى جهاته من حجرات صغيرة، يبلغ متوسط عرض الواحدة منها 3م، وأطول طول لها 6,5 م. وتتصل هذه الحجرات ببعضها بأبواب ضيقة قليلة الارتفاع (Helms 1989: 142).

كما أن هناك وحدة أخرى من هذا البناء تتكون من طابقين، ولا تزال بعض جدران الطابق العلوي ترتفع مدماكين أو ثلاثة في بعض الأماكن. وأقر المنقب باحتمالية إعادة استعمال بعض جدران المرحلة الأولى من العصر البرونزي المبكر خلال العصر البرونزي المتوسط (Helms 1989: Fig. 3).

وفي الخلاصة، نجد أن بلاد الشام ساد فيها خلال العصر البرونزي المتوسط عدد من دويلات المدن التي شهدت تداخلاً وتشابهًا كبيرًا جدًا في إرثها الحضاري، لكنها لم تسع على الإطلاق لوحدة سياسية تضم جميع هذه الدويلات في عاصمة واحدة. ومما خفف الأمر على دويلات المدن في بلاد الشام خلال هذا العصر، لا سيما في جنوبها حكم الهكسوس في مصر. وعلى أية حال، فإن انعدام الوحدة السياسية لا يعني حدوث تراجع حضاري، بل رأينا كيف أن المخلفات الأثرية من معابد وقصور في عدد من المواقع دلت على التقدم الفكري والاقتصادي، ودعمت هذا الكتابات التي اكتشفت خاصة في تل الحريري. لذا يمكن القول إن الاختلاف السياسي بين هذه الدول لم يلغ استمرار التواصل بين سكانها. وإن أهم ما ميز الوحدات السياسية المتنافسة في بلاد الشام في فترة العصر البرونزي المتوسط، تمتعها بنوع من الاستقلال السياسي، وهذا ما افتقدت إليه دول المدن في الفترة التالية، العصر البرونزي المتأخر، كما سنرى في الفصل التالي.

الفصل السابع

العصر البرونزي المتأخر

دول المدن الشامية تحت السيطرة المصرية والحثية

الفصل السابع

العصر البرونزي المتأخر

دول المدن الشامية تحت السيطرة المصرية والحثية

شكلت حادثة طرد الهكسوس من مصر، وتأسيس الدولة الحديثة على يد الأسرة الثامنة عشرة بداية لعهد جديد، ليس في مصر وحدها، وإنما في بلاد الشام أيضًا. ومع تعاظم قوة هذه الأسرة المصرية، بدأت تظهر على الساحة الدولية في المناطق المجاورة لبلاد الشام، وخلال الفترة بين حوالي 1550 وحتى 1200 قبل الميلاد، قوى عظمى أخرى، مثل الممالك الحثية، والميتانية، والكاشية. وأطلق الباحثون على هذة الفترة اسم "العصر البرونزي المتأخر". ولم تشهد هذه الفترة فقط الحملات العسكرية على بلاد الشام، بل شهدت صراعًا دوليًا وعسكريًا بين تلك القوى للسيطرة على المقدرات الاقتصادية للمنطقة. وظلت العلاقات القائمة بين حكام هذه القوى بين مد وجزر، حتى آلت جميعها للسقوط مع اقتراب نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

إن الأحوال التي اتسمت بها العلاقات بين القوى العظمى في مصر القديمة وبلاد الرافدين والأناضول أثرت سلبًا في ممالك المدن التي كانت تتمتع بنوع من الحرية والاستقلالية في بلاد الشام. فتقاسم المصريون والحثيون السلطة على بلاد الشام إذ سيطرت الأولى على المناطق الواقعة جنوبي مدينة حلب، بينما مد الحثيون نفوذهم على شمالي هذه المنطقة. وأدى هذا إلى فقدان ممالك بلاد الشام، ليس فقط استقلالها السياسي -على الرغم من الصراعات التي كانت دائرة بينها- بل ذهبت مقدرات البلاد الاقتصادية وثرواتها الطبيعية إلى غيرها نتيجة فرقة أهلها، وعدم توحدهم في دولة موحدة ذات عاصمة

واحدة. وحيث أن الأمر هكذا، فإن تاريخ هذه البلاد أصبح مدونًا، بل جزءًا من تاريخ البلدان المجاورة.

وعلى الرغم من الضعف السياسي الذي واجهته دويلات المدن في بلاد الشام خلال فترة العصر البرونزي المتأخر، إلا أن البلاد ارتبطت بشبكة قوية من العلاقات التجارية الداخلية والخارجية. وتدل على ذلك اللقى الأثرية المصدرة منها أو المستوردة إليها. وبما أن ممالك المدن في بلاد الشام لم تكن تتمتع بالاستقلالية التامة خلال العصر البرونزي المتأخر، وخضعت في معظم الأوقات لواحدة أو أكثر من القوى المحيطة بها، فمن الضروري تقديم لمحة عن طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بينها وبين الدول الكبرى آنذاك.

بلاد الشرق الأدنى القديم في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد

رأينا كيف أن بلاد الشام تمتعت بنوع من الحرية السياسية خلال العصر البرونزي المتوسط، لكن الأمر اختلف خلال القرن السادس عشر قبل الميلاد، حيث استطاع المصريون طرد الهكسوس من بلادهم وتأسيس الدولة الحديثة. كما استطاع الحثيون تشكيل دولة عظمى عاصمتها حاتوشا في بلاد الأناضول. أما في بلاد الرافدين؛ فبعد القضاء على دولة حمورابي البابلية، ظهر الكاشيون في بابل، وتأسست الدولة الآشورية الوسطى في الشمال. لذا، أطلق العلماء على الفترة بين حوالي 1550 -1200 قبل الميلاد في بلاد الشرق الأدنى القديم اسم "عصر الإمبراطوريات". وإضافة لهذه الإمبراطوريات، ظهرت على الساحة دول أخرى، مثل ميتاني التي أطلق عليها اسم "بلاد الحوريين" في المصادر الحثية، و"نهارينا" في المصادر المصرية الفرعونية.

ونعلم أن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة المصرية، خاصة تحتموس الثالث وابنه أمنحوتب الثاني، جردوا عددًا من الحملات العسكرية على بلاد الشام، وحققوا انتصارات على ممالك المدن فيها. وتركوا لنا قوائم بأسماء الغنائم والأسلاب التي أخذوها معهم إلى مصر، ومن بينها الأسرى، مثل: النهاشيشي (أسمتهم المصادر المصرية باسم "النيجس" Neges، ربما كانوا في شمالي سورية)، والحوريون، والشاسو (البدو)، والكنعانيون والعابيرو (Wilson 1969: 246-247). وتساعد مثل تلك القوائم في التعرف على التوزيع الجغرافي للجماعات السكانية في بلاد الشام، فمثلاً شكل الحوريون سكان

فلسطين، والنيجس سكان سورية، والشاسو كانوا هم سكان البوادي. كذلك عرفتنا تلك القوائم بطبقات المجتمع في بلاد الشام آنذاك، فمثلاً كان "الماريانو" طبقة الأشراف ومحاربي العربات، والكنعانيون هم التجار، أما العابيرو Apiru/'Abiru؛ فلم يشكلوا جنسًا أو عرقًا واحدًا، بل خليطًا من الأعراق، وكانوا مرتزقة (Ahlström 235 :1993). وإضافة لهؤلاء، كانت في بلاد الشام جاليات مصرية، حيث أسس الفراعنة في زمن الدولة الحديثة حاميات لهم في عدد من المدن الكنعانية، مثل غزة وتل المتسلم، وعينوا على كل منها مندوبًا مصريًا، أسمته الوثائق المصرية باسم Rābsu، أي المفوض أو المفتش. ويبدو من قراءة النصوص والوثائق المصرية العائدة للدولة الحديثة أن مصر لم تكن قادرة على إخضاع دويلات المدن في بلاد الشام لإدارتها تمامًا كما كان الحال في النوبة (جنوبي مصر)، بدليل قيام الناس في هذه البلاد بثورات عدة أجبرت الفراعنة على تجريد عدد من الحملات العسكرية لإخضاعهم. واتبعوا نظامًا سياسيًا وإداريًا يلبي مصالحهم الاقتصادية أكثر من أي أمر آخر. فالمندوب والحامية المصرية يجمعان الأموال ويرسلانها إلى مصر، ويبقى حاكم المدينة المحلي فوق كرسيه مواليًا لمصر وتحت حمايتها. وكان حاكم المدينة المحلي يعين من قبل الفرعون المصري وينتمي غالبًا لإحدى الأسرات المحلية الأرستقراطية، أي أنه كان ذا مكانة رفيعة في مجتمعه. وأشارت إحدى رسائل تل العمارنة إلى عمل موظفين اثنين (مندوبين) في سورية المصرية، أقام أحدهما في سهل عكار، والآخر في سهل البقاع الجنوبي، في موقع كامد اللوز (كوميدي القديمة) (كلينغل 1998: 115). وكان الفرعون المصري يتصل بالحكام المحليين عن طريق المندوبين المصريين، بأن يرسل مبعوثين خاصين لهم، أو رسائل يوصلونها بدورهم إلى ملوك المدن الشامية.

وفي الوقت الذي تكون فيه حامية عسكرية مصرية في مكان ما، فلا بد من وجود جالية مصرية، وهذه يصاحبها، بطبيعة الحال، إنشاء كل ما تحتاجه هذه الجالية من ضروريات المعيشة ومتطلبات الحياة الأخرى، مثل الدينية؛ فقد تأسست في بلاد الشام المعابد المصرية، وعثر على أمثلة لها في بيسان وعسقلان وخربة المنيعة، وجميعها في فلسطين. وكرّس معبد خربة المنيعة "تمناع" لعبادة الإله حاتحور الذي شاعت عبادته زمن الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين (Rothenberg 1972). ويبدو أن المتعبدين فيه كانوا على الأغلب، من العمال المصريين الذين عملوا بمناجم النحاس في منطقة وادي عربة

بدلالة أن الفخار الذي وجد بداخل المبنى كان ميدي الطابع، أي محلي الصنعة، ويخص الميديين سكان المنطقة المحليين.

لاحظنا أن منطقة بلاد الشام دانت خلال العصر البرونزي المتوسط لممالك المدن التي كانت في غالبيتها أمورية الطابع. ولم يقتصر حكم الأموريين على بلاد الشام، بل امتد إلى بلاد الرافدين. وخلال السنوات الأخيرة من حكم مملكة بابل القديمة، أي مملكة حمورابي، تعرضت البلاد لغزوات متعددة من شعوب المناطق الجبلية المجاورة لها في زاغروس، وفي آخر الأمر استطاعت القبائل الكاشية الاستيلاء على السلطة في بابل بعد أن أسقطها الملك الحثي مورسيل الأول. إذ يعتقد أن الحثيين، سكان الأناضول ساعدوا الكاشيين في السيطرة على بابل. ويظهر أن الكاشيين وصلوا في سيطرتهم للمنطقة الممتدة بين تل الحريري ونهر الخابور (فرزات 2003: 137). وطبعًا، انتشرت قبائلهم، الدخيلة على المنطقة، جنبًا إلى جنب مع الأموريين سكان البلاد الأصليين.

ولم يكن جميع سكان بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر من الحضر، بل كانت هناك أيضًا قبائل بدوية تتنقل في جميع أطراف بادية الشام. ونذكر من هؤلاء قبائل الشاسو الذين ورد ذكرهم في أكثر من وثيقة مصرية. ويعتقد آلستروم (Ahlström 1993:276) أنهم هم السوتيون الذين ذكروا في الكتابات الأكادية ووصفوا بأنهم بدو سوريون. كما ورد الاسم "سوتو" في بعض رسائل تل العمارنة على أنهم بدو من منطقة جنوبي سورية. ويظهر بأن هؤلاء السوتيين اندمجوا في فترة لاحقة مع القبائل الآرامية. ومن الجدير بالذكر أن قبائل الشاسو ذكروا أيضًا في قوائم تحتموس الثالث بأنهم كانوا سكان منطقة البقاع (Görg 1979). وهنا يجب التفريق بين الشاسو والعابيرو، لأن العابيرو كانوا مرتزقة لا تجمعهم أية صفة عرقية، ويختلفون في نمط حياتهم عن الشاسو.

وبما أن تاريخ بلاد الشام، وكما نوهنا أعلاه، ارتبط بشكل مباشر بتاريخ الأمم المجاورة، فإننا نقدم أدناه ملخصًا لطبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين هذه الإمبراطوريات المجاورة وممالك المدن الشامية خلال العصر البرونزي المتأخر. وذكرنا في أكثر من موضع على الصفحات السابقة أن مصر سيطرت معظم الفترات على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة حلب الحالية، بينما تناوب على السيطرة على شمالي بلاد الشام عدد من القوى، خاصة الحثية في بلاد الأناضول.

بعد تولي الأسرة الثامنة عشرة الحكم في مصر، وطد المصريون حكمهم في بلادهم بطرد الهكسوس نهائيًا على يد الفرعون المصري أحمس الأول (حوالي 1575 قبل الميلاد)، وقاموا بالتدخل في شؤون بلاد الشام، خاصة الجنوبية، ونعتقد أن الدافع الأساسي لذلك كان اقتصاديًا. لذا، كان لا بد للجيش المصري أن يواجه القوى الطامعة الأخرى، مثل الميتانيون الذين كسبوا لهم موطىء قدم إبان فترة حكم الهكسوس. ويظهر أن الحملات العسكرية المصرية بدأت تشن على بلاد الشام خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة، مؤسسة الدولة المصرية الحديثة، وخلال حكم الفرعون أمنحوتب الأول (حوالي 1525 – 1504 قبل الميلاد) الذي هاجم المنطقة الواقعة بين مدينة جبيل الساحلية وسهول حمص. وتبعه فراعنة آخرون من أمثال تحتموس الأول (حوالي 1504 – 1492 قبل الميلاد)، وتحتموس الثالث (حوالي 1490 – 1436 قبل الميلاد) الذي جرد حوالي سبع عشرة حملة عسكرية على بلاد الشام. وتشير النقوش المصرية المكتشفة إلى النشاطات المصرية في بلاد الشام، فمثلاً هناك نقش من زمن الملكة حتشبسوت (الوصية على تحتموس الثالث في الفترة بين حوالي 1490 وحتى 1468 قبل الميلاد) عن اصطياد الفيلة في منطقة "نيا" Niya، أي سهول الغاب الحالية. ولا ننسى معركة تل المتسلم "مجدو" بين الفرعون تحتموس الثالث وتحالف ممالك المدن الشامية بقيادة ملك مدينة النبي مند (قادش القديمة) الواقعة على نهر العاصي، والتي انتهت بانتصار مصري نتج عنه تغلغل واستيلاء المصريين على مقدرات معظم مناطق بلاد الشام. وتذكر القوائم الطوبوغرافية التي تركها لنا تحتموس الثالث أسماء الأماكن التي جاء منها الأسرى. كما قام هذا الفرعون بحملة على السهول الواقعة على أطراف المناطق الساحلية شمالي مدينة جبيل، انتصر فيها على حامية أرسلتها تونيب، وهاجم في سنوات أخرى مدينة النبي مند وسهول عكار. ونظرًا لغنى المنطقة الساحلية شمالي جبيل بالأخشاب والكرمة، ترك هذا الفرعون حامية مصرية هناك، وشيد فيها عددًا من الحصون (كلينغل 1998: 108). وفي الوقت الذي كانت فيه السلطة المصرية تتغلغل في شمالي سورية، لم نقرأ عن أي رد فعل من قبل مملكة ميتاني المفترض أنها كانت مسيطرة على هذه النواحي من بلاد الشام. لكن، يبدو أن الجيشين المصري والميتاني كان لا بد أن يتقابلا، وهذا ما حصل في موقع أم قرقر إلى الغرب من مدينة حلب حيث

هـزم الجيش الميتاني. ونتيجة لهذه المعركة، تراجعت ميتاني من منطقة الفرات إلى سهول شمالي بلاد الرافدين. بعد هذه المعركة، والمعارك التي تلتها، نجد أن الدور الذي كانت تقوم به ميتاني في مساندة ممالك المدن الشامية الواقعة في وسط وشمالي البلاد، في مواجهة المد العسكري المصري، قد توقف. لكن نشاط الفرعون تحتموس الثالث العسكري تراجع خلال سنوات حكمه الأخيرة، مما ساعد الميتانيين في العودة إلى المنطقة، فانحصرت السيطرة المصرية على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من خط يمتد من الساحل عبر سهل عكار إلى منطقة حمص.

ويبدو أن هذا الفرعون كان مهابًا من ملوك وأمراء المدن الأمورية السورية، فقد تلقى منهم رسائل الولاء، والهدايا، وفرض عليهم الضرائب. ومن المعلوم أن تحتموس الثالث أقام له نصبًا على نهر الفرات إلى جانب نصب تحتموس الأول. فمثلاً، بعد حملته الثالثة عشرة، قدم له حاكم تل العطشانة (ألالاخ) هدايا من عبيد ونحاس وأخشاب (كلينغل 1998: 110).

وبعد وفاة تحتموس الثالث، خلفه ابنه أمنحوتب الثاني (حوالي 1436- 1413 قبل الميلاد) الذي جرد عدة حملات عسكرية على بلاد الشام، كان بعضها لإخماد الثائرين. وكانت حملته الأولى على منطقة البقاع الشمالي (تخشي Tahshi قديمًا)، ويذكر نص من فترة حكمه أنه جرى ذبح سبعة لصوص في هذه المنطقة. ويبدو أنه خلال حكمه خطا خطوات المصالحة الأولى بين مصر وميتاني، وجاءت الخطوة الأولى عن طريق ملك ميتاني عندما قام بإرسال هدايا للفرعون المصري. وتعززت هذه العلاقة الحميمة في عهد خلفه الفرعون تحتموس الرابع (حوالي 1413- 1405 قبل الميلاد) الذي تزوج أميرة ميتانية، والأمر نفسه فعله خليفته أمنحوتب الثالث (حوالي 1405- 1367 قبل الميلاد). ويعتقد أن السبب وراء هذا التقارب بين مصر وميتاني تمثل بوجود عدو مشترك يحكم في بلاد الأناضول، وهم الحثيون الذين باشروا القيام بحملات عسكرية على مناطق أعالي الفرات وشمالي سورية.

تغير الحال مع بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، حينما زالت السيطرة الميتانية عن شمالي بلاد الشام، وحلت مكانها الحثية. كما أن مصر، باعتلاء الفرعون أمنحوتب الرابع (أخناتون) على العرش، والذي تزامن مع وجود صراعات داخلية، لم تعد تعنى بالأمور العسكرية كما كان الحال سابقًا. وتؤكد رسائل تل العمارنة المرسلة من

ملوك وأمراء المدن الشامية أن الفراعنة الذين حكموا خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد لم يعطوا الدعم العسكري الكافي لحكام هذه المدن، والذين أقسموا لهم الطاعة. وأدى هذا إلى أن يستغل الحثيون الوضع، وينقضوا على شمالي بلاد الشام، حيث وصل ملكهم شبليوليوما إلى المنطقة الواقعة إلى الغرب من مدينة حلب. وعندما دخل شبليوليوما تل العطشانة، قدم إليه ملك رأس شمرا (أوغاريت)، واسمه نيقمادو، وعقد معاهدة معه. وبعد وصول جحافل الجيش الحثي إلى حمص، اتصل به الملك عزيرو حاكم أمورو الذي كان يتبع رسميًا للفرعون المصري. وفي إحدى رسائل تل العمارنة (EA 169, 170) المرسلة من حاكم مدينة جبيل يتهم فيها عزيرو بخيانة الفرعون المصري، فما كان من هذا إلا أن سافر إلى مصر لإظهار ولائه، ودحض اتهامات حاكم جبيل.

وفي الوقت الذي كان فيه شبليوليوما يحاصر مدينة جرابلس (كركميش) تلقى رسالة من ملكة مصرية، اقترحت فيها تحالفًا بين البلدين يدعم بزواجها من أحد أبنائه. وهذا الأمر يظهر اعترافًا مصريًا بالقوة العسكرية الحثية ودورها في المنطقة. فقام الملك الحثي بإرسال أحد أبنائه تلبية لرغبة الملكة المصرية، إلا أن المصريين قتلوه وهو في طريقه إلى بلادهم. فما كان من عزيرو، الملك الأموري، إلا أن أظهر ولاءه لشبليوليوما. وهكذا أصبحت المنطقة الواقعة إلى الشمال من مدينة حمص بأيدي الحثيين.

وبعد تأسيس الأسرة المصرية التاسعة عشرة، بدأ صراع خفي بين مصر وحاتاي (بلاد الحثيين)، تأجج في معركة قادش التي جرت بين رمسيس الثاني وموتاليس الثاني في حوالي عام 1260 قبل الميلاد. وانتهت هذه المعركة بتوقيع معاهدة سلام بين الطرفين وقعها عن الجانب الحثي الملك حاتوسيل الثالث، نتج عنها اقتسامهما لبلاد الشام فحكمت مصر على المنطقة الواقعة للجنوب من سهل حمص، ووصلت في المنطقة الساحلية إلى مدى أبعد باتجاه الشمال. لكن، سبق هذه المعركة عدد من الحملات العسكرية المصرية على بلاد الشام، حيث جرد الفرعون المصري سيتي الأول (حوالي 1309-1291 قبل الميلاد) حملة على بلاد الشام، ووصل إلى سهل عكار ومنطقة أمورو والنبي مند. واكتشف له في المنطقة عدد من النصب التذكارية التي تركها لتخلد انتصاراته فيها، مثل، نصب تل الشهاب في حوران بسورية، وتل بيسان في فلسطين. كما سجل انتصاراته في عدد من النصوص على جدران المعابد في مدينة الكرنك

بمصر، وفي قوائم طوبوغرافية تشير لأسماء البلدان التي مر بها أو انتصر عليها. وكان من أهم نتائج حملاته العسكرية هذه، تجديد ولاء ممالك أمورو والنبي منذ لمصر.

على أية حال، حددت معاهدة السلام الموقعة بين المصريين والحثيين طبيعة العلاقة بينهما، وضمان عدم اعتداء أحدهما على الآخر، والتحالف ضد الأعداء والمتمردين. كما لا بد من الإشارة إلى أن مصر وحاتاي شعرتا بخطر مشترك يهددهما، وهو تنامي قوة الآشوريين في الشرق، وهجرات شعوب البحر.

المملكة الحثية في بلاد الأناضول

ظهر الحثيون على مسرح أحداث بلاد الشرق الأدنى القديم في منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد، وذلك عندما أسسوا المملكة الحثية القديمة (حوالي 1650 – 1430 قبل الميلاد)، والتي غدت بمرور الأيام إمبراطورية واسعة (حوالي 1430 – 1200 قبل الميلاد) تنافس الإمبراطورية المصرية على مقدرات بلاد الشام. لذا، نرى أن الحثيين، منذ زمن المملكة القديمة، حاولوا التوسع على حساب المناطق السورية الشمالية، ودار بينهم وبين الإمارات الحورية الموجودة في هذه المنطقة على سفوح جبال طوروس صراع عنيف، خاصة في أيام الملك الحثي حاتوسيل الأول الذي هزم تحالفاً سورياً حورياً قرب حلب. واستمر هذا الصراع في عهد وريثه مورسيل الأول الذي تابع سياسة والده التوسعية تجاه شمالي بلاد الشام، واستطاع الاستيلاء على مدينة حلب عاصمة مملكة يمحاض، كما هاجم بابل عام 1595 قبل الميلاد، وأسقطها وسلمها لحلفائه الكاشيين. ونرى، أنه خلال القرن السادس عشر قبل الميلاد، انفردت بشؤون بلاد الرافدين وبلاد الشام قوى من خارجها، مثل: الحثيون، والحوريون-الميتانيون، والكاشيون، والمصريون. وخرج من الساحة السياسية أهلها (الأموريون والكنعانيون) الذين وقعوا تحت رحمة القوى المتصارعة.

بعد موت الملك الحثي مورسيل الأول (حوالي 1550 قبل الميلاد)، ضعفت الدولة الحثية واستطاعت مملكة ميتاني أخذ زمام الأمور في شمالي بلاد الشام. لكن الأمر لم يدم طويلاً لميتاني، فبعد تولي الفرعون تحتموس الثالث (حوالي 1490 – 1436 قبل الميلاد) الحكم في مصر، وتجريده حملات عسكرية على بلاد الشام، استطاعت الأسرة المصرية الثامنة عشرة السيطرة على معظم بلاد الشام، خاصة جنوبها ومنطقة الساحل.

ويظهر أن المصريين اتفقوا مع الحثيين على أن تقوم الأخيرة بمهاجمة حلب. كما أن قيام مملكة ميتاني القوية في المنطقة الواقعة إلى الشرق منها أزعجها كثيراً، إذ قامت بعض الإمارات الحثية الشرقية بالانضمام لمملكة ميتاني ومهاجمة المملكة الحثية مما أضعفها.

انتهت فترة ضعف المملكة الحثية بعد اعتلاء الملك شبليوليوما على العرش في حوالي 1380 قبل الميلاد، فقام بتحصين عاصمته حاتوشا بالأسوار، وبغزو شمالي سورية وواجه الملك الميتاني توشراتا، وخسر المعركة أمامه. ويبدو أنه أخذ العبر والدروس من هزيمته تلك، واستفاد منها في غزوته الثانية، حيث هاجم ميتاني من منطقة غير محصنة، فسقطت بيده عاصمتها وشوجاني، وأماكن أخرى مثل واشوكاني. ونتيجة لهذا الانتصار، وهجماته المتكررة على ممالك شمالي بلاد الشام، قدمت هذه الولاء والجزية للملك الحثي، وجعل شبليوليوما نهر العاصي حدوده الجنوبية. وبعد عودته لبلاده، انقسمت هذه الممالك في ولائها بين حاتاي وميتاني. وفي هذا الوقت حصلت فتنة في البيت الميتاني الحاكم نتيجة لتحالف ملكها توشراتا مع مصر، مما مكن الآشوريين من احتلال ميتاني، فتحوَّل ملكها إلى الحثيين. وهذا، بطبيعة الحال، أعطى الحثيين الفرصة للتفرد بشمالي بلاد الشام. ونتيجة للانتصارات المتكررة لهذا الملك، قام عدد من مدن الدول الشامية، مثل رأس شمرا وحلب ونوخاشي وأمورو وتونيب (تل العشارنة)، بتوقيع اتفاقيات ومعاهدات سلام معها (كلينغل 1998: 128). ولم تكن المعاهدات تكفي شبليوليوما، إذ نصب أحد أبنائه ملكًا على جرابلس (كركميش)، والابن الآخر على حلب، وذلك من أجل مراقبة الأحوال في شمالي بلاد الشام.

بعد وفاة شبليوليوما، تولى الحكم من بعده عدد من الملوك، مثل ابنه أرناوانداس، ثم مورسيل الثاني الذي أثبت جدارة في إخضاع الممالك السورية الثائرة. وتذكر النصوص الحثية من عهد مورسيل الثاني أنه تدخل لحماية كركميش من هجوم الآشوريين الذين حاولوا الاستفادة من حالة الفوضى التي كانت سائدة في بداية حكمه. كما أنه أقام تحالفًا مع مملكة راس شمرا. واستمرت ثورات، هنا وهناك، في المدن الشامية الشمالية ضد الحثيين، إلا أن ملك النبي مند (قادش) قتل على يد أحد أبنائه، وأعلن هذا ولاءه للحثيين. ويبدو أن ما دفع مورسيل الثاني للتدخل بالشؤون السورية هو أن الآشوريين وصلوا إلى الأجزاء الشرقية من أراضي مملكة جرابلس (كركميش).

وبعد توليه الحكم، وقف الملك موتاليس في وجه أطماع الأسرة المصرية التاسعة عشرة التي أراد ملوكها إعادة نفوذ مصر في بلاد الشام، خاصة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. فعلى سبيل المثال، قام الفرعون المصري سيتي الأول في حوالي 1300 قبل الميلاد بتسيير حملة عسكرية وصلت إلى قادش (النبي مند الحالية) على نهر العاصي، لكنه واجه مقاومة حثية عنيفة. واحتدم الصراع الحثي المصري بعد اعتلاء الفرعون المصري سدة الحكم في بلاده، وتوج هذا بمعركة قادش المشهورة (حوالي 1260 قبل الميلاد). وتقابل الجيشان، الحثي بقيادة موتاليس، والمصري بقيادة رمسيس الثاني، وانتهت المعركة بتوقيع معاهدة سلام بين الطرفين.

بعد وفاة موتاليس، تولى الحكم من بعده ابنه أورهي- تشوب الذي نافسه عمه حاتوسيل على العرش، وانتهى الأمر لصالح الأخير. وصادف هذا الأمر أن ظهرت في آشور دولة قوية، مما حدا بالحثيين إلى مد يد العون للمصريين، فيتزوج الفرعون رمسيس الثاني من أميرة حثية. لكن وفي الوقت نفسه، كانت المناطق الغربية من المملكة الحثية تتعرض لهجوم من المناطق المجاورة، وتدهورت الأحوال بشكل أكبر في المناطق الغربية خاصة بعد وفاة حاتوسيل وتولي ابنه تودهالياس الرابع الحكم. ويبدو أن الأخير لم يهتم كثيرًا بالنواحي العسكرية قدر اهتمامه بالأمور الدينية، مما أدى إلى تزايد الأحوال سوءًا في المناطق الغربية للبلاد. أدى هذا الأمر، في نهاية المطاف، وفي عهد الملك أرنونداس الثالث إلى سقوط الإمبراطورية الحثية على يد تحالف القبائل القاطنة بغربي البلاد وشعوب البحر. وحل الفريجيون مكان الحثيين قوة حاكمة في بلاد الأناضول.

مملكة ميتاني

كانت منطقة شمالي سورية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر قبل الميلاد مأهولة بأعداد كبيرة من الحوريين، يحكمهم، خاصة في شرقي المنطقة، حكام حوريون أيضًا. وعندما حاول الحثيون في هذه الفترة الدخول إلى شمالي سورية، تصدت لهم الإمارات الحورية التي ساندت سكان البلاد في حربهم مع الحثيين. وبعد أن استطاع الملك الحثي مورسيل الأول احتلال مدينة حلب، والتي انسحب منها لاحقًا، أفسح المجال

للعناصر الحورية الميتانية لدخول المنطقة وملء الفراغ السياسي الذي حصل بعد انسحاب الملك الحثي (كلينغل 1998 : 101).

اشتعلت الصراعات الداخلية في المملكة الحثية خلال القرن السادس عشر قبل الميلاد مما أفسح المجال لظهور مملكة قوية على خريطة الشرق الأدنى القديم، أسسها عدد من الأسرات الحورية والأمورية في المنطقة الممتدة فوق شمالي بلاد الرافدين، ومنطقة الجزيرة السورية الحالية. احتلت مملكة ميتاني المنطقة الممتدة بين أعالي نهري دجلة والفرات، وعندما كانت في أوج قوتها، مدت نفوذها إلى الشرق من دجلة، وإلى سواحل البحر المتوسط في الأناضول، كما سيطرت على أواسط نهر الفرات، وأصبحت مجاورة لبابل (Wilhelm 1989). ويبدو أن الدافع وراء تأسيس تلك الممالك كان اندفاع عدد من القبائل الهندو-أوروبية باتجاه الجنوب، مما دفع العناصر الحورية للتقدم نحو منطقة بلاد الشام. ووجدت كثير من الشواهد الأثرية والكتابية على تواجدهم في مدن تل العطشانة، ورأس شمرا، وتل المشرفة. وعلى الرغم من أن مدينة رأس شمرا تقع على ساحل البحر المتوسط الذي لم يكن جزءًا من ميتاني، إلا أنها لم تخضع لسيطرة الحوريين. وعلمًا أن مملكة ميتاني غلب عليها الطابع الحوري، إلا أن حكامها كانوا من أصول هندو-أوروبية (فرزات 2003: 141). وبلغت هذه المملكة ذروة عظمتها زمن ملكها شوستاتور، أي في القرن السادس عشر ومطلع الخامس عشر قبل الميلاد.

تذكر المصادر المصرية أن مملكة ميتاني بدأت زمن حكم الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية. وأصبحت منطقة شمالي بلاد الشام خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد مكتظة بالمدن الحورية. وسيطرت مملكة ميتاني على شمالي بلاد الشام حتى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، حين انفجر صراع بينها وبين مصر للسيطرة على هذه المنطقة (Klengel 1992; Akkermans and Schwartz 2003: 329). لكن هذا الأمر لم يدم طويلاً، حيث تدخل الحثيون، جيران ميتاني، في شؤونها الداخلية، وتحولت ميتاني في الفترة بين حوالي 1365 – 1335 قبل الميلاد من قوة إقليمية إلى دولة خاضعة للحثيين. كذلك انتهز الآشوريون ضعف الإمبراطورية الحثية بعد وفاة ملكها شبليوليوما، وبدأوا بالضغط عسكريًا على مناطق ميتاني المجاورة لهم بشكل خاص، حتى استطاعوا تحويلها إلى مقاطعة آشورية في عهد الملك الآشوري أدد- نيراري الأول (حوالي 1305 – 1274 قبل الميلاد)، وفي عهد خلفه شلمناصر الأول (حوالي 1273 – 1244 قبل الميلاد).

المملكة البابلية الوسطى (الكاشيون)

قضى الحثيون على مملكة بابل في حوالي 1595 قبل الميلاد، لكنهم انسحبوا منها تاركين فراغًا كبيرًا شغله الكاشيون. والكاشيون هم من الشعوب الهندو-أوروبية التي بدأت بالظهور في بلاد الرافدين قبل سقوط بابل بيد الحثيين بوقت طويل. ويعتقد أن مكانهم الأصلي هو المناطق الجبلية الواقعة شرقي الرافدين. وعلى أية حال، يختلف العلماء في موطنهم الأصلي، فمنهم من يرى أنهم أتوا من منطقة لورستان في جبال زاغروس ومنهم من يعتقد أنهم قدموا من بلاد القوقاز. ويبدو أن السبب في دخولهم إلى هذه البلاد هو الحاجة إلى العمل بسبب الفقر، وتوفر أسباب العيش في بلاد الرافدين.

ويبدو أن الكاشيين حاولوا الدخول إلى بابل عن طريق القوة، لكن الملك سمسو إلونا (1749- 1712 قبل الميلاد) استطاع الانتصار عليهم، وكذلك فعل خليفته أبي – أشوخ (1711- 1684 قبل الميلاد). بعد ذلك، قام الكاشيون بدخول البلاد مهاجرين مسالمين وبدأوا بالعمل في الأعمال الزراعية مثل جني المحاصيل، ثم عملوا في الجيش، فساعدوا الملك مورسيل الأول في هجومه ضد بابل. وحكموا بابل مدة تقرب من 400 سنة، ومن ملوكهم: أقوم Agum، وجانداش Gandash، وبورنا بورياش الأول. وفي هذا الوقت بالذات (القرن 15 قبل الميلاد) شهدت بلاد الشرق الأدنى القديم تعاظم قوة مصر، إذ جرد الفرعون تحتموس الثالث 17 حملة عسكرية على بلاد الشام، وقام باحتلال سورية، ووصل إلى نهر الفرات، وقابله هناك ملك بابل (يعتقد أنه كارا- إنداش) وقدم له الهدايا. لكن بابل أصبحت قوة كبيرة في عهد الملك كوريجالزو، أي في حوالي 1380 قبل الميلاد، وهو من بنى قلعة كوريجالزو (عقرقوف حاليًا).

وفي الوقت نفسه الذي كانت ترتبط فيه بابل بعلاقة حميمة مع مصر، استطاعت آشور أن تستعيد استقلالها عن ميتاني شيئاً فشيئاً، وأقام الملك الآشوري آشور– أوباليط الأول (حوالي 1363- 1328 قبل الميلاد) علاقات جيدة بمصر. وبذلك نشأت قوة جديدة بشمالي بلاد الرافدين نازعت الكاشيين في السيادة على البلاد. استمر الكاشيون في الحكم حتى منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد، عندما قضى عليهم العيلاميون خلال حملاتهم المتلاحقة على بابل.

مملكة آشور الوسطى

من المعلوم أن مملكة آشور الأولى، انتهت بموت الملك شمشي – أدد الأول. ومع نهاية القرن السادس عشر قبل الميلاد، وجد الآشوريون أنفسهم تابعين للميتانيين. لكنهم خلال القرون التالية، وجدوا أنفسهم متحالفين مع جيرانهم الكاشيين في بابل، وثاروا على الميتانيين أكثر من مرة. وبعد حدوث اضطرابات في بيت الحكم في ميتاني ومهاجمتها من قبل الحثيين، استطاع الملك الآشوري آشور- أوباليط الأول (حوالي 1363 – 1328 قبل الميلاد) أن يرتبط بعلاقات قوية مع بابل في الجنوب، ومصر في الغرب. وتوالى على حكم آشور عدد من الملوك، كان أكثرهم قوة وشهرة الملك توكلتي – ننورتا الأول (حوالي 1243 – 1203 قبل الميلاد) الذي تمكن من إخضاع بابل لحكمه لكنه سقط في النهاية على يد مؤامرة بطلها ابن له، وضعفت بعدها آشور وعادت وخضعت لبابل.

ثم عادت آشور لتنهض من جديد على يد ملكها تيجلات بلاصر الأول (حوالي 1174 - 1112 قبل الميلاد)، الذي وسّع حدود مملكته الشمالية، ودفعت له الجزية ممالك مدن جبيل وصيدا وأرواد في بلاد الشام. وبعد تيجلات بلاصر الأول، تولى الحكم في آشور ملوك ضعاف مما أدى إلى تراجع قوتها، وانتهاء حكم دولة آشور الوسطى.

آثار العصر البرونزي المتأخر في شمالي بلاد الشام

على الرغم من أن بلاد الشام (خريطة 9) كانت واقعة خلال العصر البرونزي المتأخر تحت سيطرة القوى العظمى المحيطة بها، وأن تراثها الأثري جاء متأثرًا إلى حد ما بآثار تلك القوى، إلا أن النزعة المحلية في المكتشفات الأثرية تبقى ظاهرة للعيان. فعلى سبيل المثال، يستطيع المختص تمييز عدد من اللقى الأثرية والكتابات الحثية في عدد من مواقع شمال غربي بلاد الشام، مثل تل العطشانة، ورأس شمرا، ومسكنة (Beyer 2001)، لكن الآثار المحلية بقيت هي السائدة في تلك المواقع. وعلى الرغم من أن القوى الأخرى، المصرية والميتانية، كانت أقل تأثيرًا من الناحية السياسية والإدارية على هذه المنطقة، إلا أن الآثاريين كشفوا النقاب عن عدد من آثار هاتين الدولتين في مواقع، مثل رأس شمرا والمنباقة. كما عثر في موقع تل العطشانة على آنية فخارية من النوع الراقي

المعروف باسم "فخار نوزي"، وعلى بعض المباني التي جاءت مخططاتها مشابهة لما عثر عليه في تل براك الميتانية. ويدل هذا على أن طبقة عليا في البناء الاجتماعي لمدن الدول هذه استخدمت أدوات منزلية ومباني ضخمة اختلفت عما كانت تستخدمه عامة الناس. كما كانت هناك عائلات ملكية تحكم في هذه البلاد، وتدل على ذلك أيضًا اللقى الأثرية المتميزة عن غيرها بماهيتها وطريقة صنعها (مثل القطع العاجية، والذهبية والآنية المصنوعة من الحجارة الكريمة)، ومباني القصور، وعثر عليها في مواقع مثل رأس شمرا، وتل العطشانة، ورأس ابن هانئ. ويعتقد بعض الباحثين أن هذا الأمر انحصر على الأغلب في المناطق الساحلية، أو القريبة منها، في بلاد الشام. أما في المناطق الداخلية فيبدو أن طبيعة الحكم لم تكن ملكية، ويستدل على ذلك من المخلفات الأثرية.

ويمكننا الاستدلال كذلك على التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية من خلال دراستنا للوحدات السكنية التي استخدمتها عامة الناس، ومن اللقى الأثرية التي يعثر عليها في داخلها. فقد عثر على عدد من الطرز أو المخططات التي بنيت وفقها البيوت، مثلاً، جاء بعضها، في رأس شمرا، مكونًا من عدد من الغرف حول ساحات، أو كما في تل العطشانة حيث تكون بيت كبير من عدد من الغرف التي تفتح أبوابها على ممر. أما في موقعي منباقة وبازي؛ فقد تكون البيت من عدد من الغرف التي تلتف حول غرفة مركزية مسقوفة. وثمة طراز آخر من البيوت اكتشف في مسكنة، يتكون من غرفة واسعة أمامية خلفها غرف أخرى (Akkermans and Schwartz 2003: 352, Fig. 10.12). أما في مسكنة "إيمار"؛ فقد عثر على نماذج للبيت السكني مصنوعة من الصلصال، تبين أن المنزل كان ذا شكل مستطيل يتكون من عدد من الغرف، وفيه طابق علوي أصغر مساحة من السفلي. وحاول بعض الباحثين الربط بين طراز ما وشريحة اجتماعية معينة بالاستناد إلى اللقى الأثرية التي وجدت في تلك البيوت (McClellan 1997). ومن سمات عمارة هذه الفترة استخدام الأخشاب في عملية البناء، لا سيما في بيوت الطبقة العليا من المجتمع.

وفيما يتعلق بتخطيط بناء المعابد، نجد أن المعابد في المنطقة الغربية لشمال غربي بلاد الشام تكونت من غرفة طويلة ذات ردهة أمامية، كما هو الحال في معبد بعل في رأس شمرا. أما في الجزيرة السورية؛ فكان تخطيط المعابد متأثرًا بتلك التي في بلاد الرافدين، فمثلاً، بنيت أعمدة نصف أسطوانية من اللبن لتشكل جزءًا من جدران معبد تل براك.



خريطة 9: أهم مواقع بلاد الشام في العصر البرونزي المتأخر

ولم تكن جميع مواقع العصر البرونزي المتأخر بشمالي بلاد الشام محصنة فثمة مواقع لم تكن محصنة مثل حمام التركمان ومسكنة، بينما جاءت مواقع أخرى، مثل رأس شمرا ورأس ابن هانئ وتل العطشانة، محصنة.

تعد الآنية الفخارية من الآثار المهمة التي نستدل بها على العصور المختلفة لأنها تتطور بسرعة وحسب الحاجة والطلب. وتتوفر مادة الصلصال التي تصنع منها هذه الآنية بكثرة في الطبيعة، كما أنها تحافظ على ماهيتها أمام عاديات الزمن. وقد امتازت الآنية الفخارية المكتشفة في مواقع سورية ولبنانية من العصر البرونزي المتأخر بأنها تضم صحونًا وزبادي غير عميقة ذات حواف مثنية قليلاً للداخل، وجرارًا ذات رقاب طويلة وأباريق وأباريق صغيرة، وأسرجة كان بعضها، في حالات نادرة، ذا موضعين لوضع فتيلة الإشعال، إضافة إلى بعض الدوارق الجؤجؤية البدن، وهي طرز عرفت في المرحلة السابقة. كما عثر على كؤوس بعضها منتفخ البدن، وآنية أخرى كبيرة مثل الجرار.

ويبدو أن مدن بلاد الشام الساحلية أسهمت خلال العصر البرونزي المتأخر بشكل كبير في التجارة العالمية التي كانت رائجة في حوض البحر المتوسط، خاصة مع قبرص وبلاد الإغريق، إذ عثر على فخار قبرصي ومايسيني مستورد من قبرص وبلاد الإغريق. وبدأ استيراد الآنية القبرصية في مرحلة أقدم من استيراد المايسينية. لكن هذه التجارة البحرية كانت حكرًا على بعض مدن الساحل، مثل رأس شمرا وجبيل. وبشكل عام، امتازت الآنية المستوردة بزخارفها المدهونة بأشكال هندسية ونباتية. ووجد في المواقع الميتانية طراز من الآنية الفخارية، امتاز برقة البدن، وبقاعدة مرتفعة صنعت على شكل زر في بعض الأحيان. أما في منطقة الجزيرة السورية؛ فإن فخار الخابور الذي عرف في العصر البرونزي المتوسط، تعاصر هنا مع الفخار المعروف باسم فخار نوزي "يورغان – تبه" بشمالي العراق، والذي امتاز بزخارف مدهونة داكنة اللون رسمت على أكتاف الكؤوس ذات القاعدة الشبيهة بالزر (Oates et al. 1997).

ويعتقد كثير من الباحثين أن العربات التي تجرها الأحصنة، والتي كانت قيد الاستخدام منذ العصر البرونزي المتوسط، هي من اختراع الشعوب الهندو-أوروبية، وهي من أدخلتها للاستعمال في منطقة بلاد الشام. لكن، ما تعكسه الصورة المرصعة على القصعة الذهبية التي عثر عليها في رأس شمرا، تبين أن هذه العربات استخدمت من قبل الطبقة العليا في المجتمع، سواء للصيد أو في أيام الحرب (Littauer and Crouwel 1979).

وفيما يتعلق بالآنية والأدوات ذات الاستخدام اليومي، فبالإضافة للآنية الفخارية (انظر أعلاه)، هناك أدوات طحن وجرش حجرية عكست مهارة الصناع وبراعتهم بدقة صنعها وتعدد أشكالها. ويعتقد بعض الدارسين أن أدوات الطحن والجرش البازلتية كانت تصدر من بلاد الشام إلى قبرص خلال العصر البرونزي المتأخر (Elliot 1991). كذلك تبين للباحثين أن الناس خلال هذه الفترة استمروا باستخدام الأدوات الصوانية، إذ عثر داخل بيوت رأس شمرا على كميات منها، لا سيما شفرات المناجل، مما يشير إلى تعدد الصناعات في ذلك الوقت، فعلى الرغم من معرفة الناس لصناعة أدواتهم من المعدن، ظلوا يستخدمون الأدوات الصوانية، خاصة في الأعمال الزراعية.

وتبين الأعمال الفنية المكتشفة في مواقع العصر البرونزي المتأخر، عالمية الفن في ذلك الوقت. فمثلاً نجد كثيرًا من العناصر الفنية المصرية، والرافدية، والميتانية، والحثية والإيجية في فنون بلاد الشام المختلفة. فقد عكست اللقى الذهبية التي عثر عليها في رأس شمرا فنون المجتمع الراقي في المدينة، فبالإضافة للقصعة الذهبية المذكورة أعلاه، والمرصعة بمناظر للصيد باستخدام العربات والتي تظهر تأثيرات ميتانية وهندو-أوروبية كانت هنالك دلاية ذهبية مرصعة بشكل عارية للإلهة عشتاروت، وشكل شعرها يشبه شعر الإله حاتحور المصري. أما القطع الفنية العاجية؛ فحفرت عليها أشكال آلهة وأشخاص وحيوانات ومخلوقات أسطورية. كما عثر في عدد من المواقع، مثل تل العطشانة، وتل براك، وتل بيدر، وتل الفخارية على صناديق من العاج بشكل بطة (Akkermans and Schwartz 2003: 354).

وجاءت أفضل الأمثلة على التماثيل المنحوتة خلال العصر البرونزي المتأخر في منطقة شمالي سورية من موقع رأس شمرا، حيث عثر على عدد من النصب، حفرت عليها أشكال لآلهة، بعضها يمثل الإله بعل وهو يحمل في يده سلاحًا مثل الرمح، وتحيط به الأشجار والخضروات. كذلك عثر في الموقع نفسه على تمثال، ربما يمثل الإله إيل وهو في حالة الجلوس. ويستطيع المختص أن يلاحظ في كثير من التماثيل والدمى المعدنية التي تمثل آلهة، عناصر فنية مصرية، مثل اليد المرفوعة والتنورة القصيرة (Yon 1995). ولا بد من ذكر أنه عثر على عدد من الدمى الصلصالية، يمثل بعضها أنثى عارية ممسكة بثدييها، وتمثل الأخرى حيوانات، خاصة البقرية.

ومن أهم اختراعات العصر البرونزي المتأخر، الزجاج والآنية المزججة، حيث كشف عن بعض الآنية الصلصالية محاطة بطبقة زجاجية، أي مزججة (Moorey 1994). ويقول بعض العلماء إن هذا الاختراع جاء على يد الميتانيين، إذ عثر على قطع زجاجية، وعلى سبائك من الزجاج، في عدد من المواقع الميتانية، مثل: تل العطشانة وتل براك (في شمالي بلاد الشام) وتل الرماح ونوزي (في شمالي العراق) (Matoian and Bouquillon 1999).

وقد عثر في بلاد الشام على عدد كبير من الأختام الأسطوانية، جاء بعضها مصنوعًا من الفاينس الذي شاع استخدامه في الفترة الميتانية. وحفرت الأشكال، خاصة الإنسانية والحيوانية والهندسية والنباتية، على الأختام بمثقاب. وشكلت بعض المناظر المحفورة على الأختام احتفالات دينية، أو/ وأشجارًا محورة (Salje 1990). ونظرًا لتكرار بعض المشاهد على عدد من الأختام، اعتقد العلماء بوجود مشاغل خاصة لصناعتها موزعة في عدد من مدن العصر البرونزي المتأخر في بلاد الشام، مثل تل العطشانة، ورأس شمرا وبيسان. وكانت أختام الحكام والطبقة العليا، في الفترة الميتانية، تصنع في حالات كثيرة من الحجارة الصلبة، وكان الختم الملكي يتوارث من ملك لآخر. كما عثر على أختام تعود للفترتين الآشورية الوسطى والحثية. أما الجعلان المصرية، والتي كانت معروفة منذ العصر البرونزي المتوسط، فبقيت قيد الاستخدام في العصر البرونزي المتأخر، لكن استخدامها كان لبيان الملكية الشخصية للأفراد العاديين، وليس للطبقة الحاكمة.

ولإلقاء مزيد من الأضواء على آثار شمالي بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر، نقدم أدناه شرحًا لأهم المواقع الأثرية، وهي:

1. رأس شمرا/ أوغاريت
2. تل العطشانة/ ألالاخ
3. مسكنة/ إيمار
4. جبيل/ بيبلوس
5. كامد اللوز/ كوميدي

1. رأس شمرا "أوغاريت"/ سورية

تبعد رأس شمرا حوالي 10كم إلى الشمال من مدينة اللاذقية على ساحل البحر المتوسط. والتلة المقام عليها الموقع محاطة من الشمال بجدول الشبيب، وبجدول الدلبة من الجنوب، حيث يفيضان في منطقة زراعية خصبة هي "مينة البيضا". ويبعد موقع رأس ابن هانئ، المؤرخ للعصر البرونزي المتأخر، 5كم إلى الجنوب من رأس شمرا. وكما أشرنا (في الفصل الثاني من هذا الكتاب) إلى أنه في عام 1929، كشف النقاب عن أولى الرقم في الموقع، والتي جاءت منقوشة بخط مسماري، لكنها بألفبائية جديدة وباللغة الأوغاريتية. وبعد دراسة وتحليل النصوص المكتوبة على الرقم، تبين أنها تعود للقرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وتعالج كثيرًا من النواحي، خاصة الدينية منها (Pardee 1997).

يبدو أن مدينة أوغاريت كانت مقسمة إلى قسمين، خصص القسم الأول للعائلة المالكة، وكان بعيدًا عن بقية أحياء المدينة، بينما خصص القسم الباقي للأحياء السكنية، ولاستخدامات أخرى مثل أماكن للصنّاع. وبني معبدان كبيران فوق أعلى نقطة في الموقع (الأكروبول).

أثبتت التنقيبات الفرنسية التي بدأت في الموقع منذ عام 1929 وحتى الآن، أن بداية الاستقرار في الموقع كانت خلال الألف السابع قبل الميلاد، واستمر دون انقطاع حتى نهاية العصر البرونزي المتأخر. وجاءت مخلفات عصور ما قبل التاريخ متواضعة، مقارنة بمواقع حوض الفرات الأوسط المعاصرة. إلا أن المدينة شهدت انطلاقة كبيرة في حوالي 2000 قبل الميلاد، ويعتقد أن ذلك كان مرده دخول القبائل الأمورية إليها من مناطق استقرارهم في مناطق سورية أخرى، وهؤلاء كانوا على معرفة جيدة بتصنيع المعادن، لا سيما المجوهرات والأسلحة. ويبدو أنه في الفترة ما بين حوالي 1900-1650 قبل الميلاد حصنت التلة التي بنيت فوقها المدينة بسور. كما أظهرت التنقيبات عددًا من اللقى الأثرية ذات الأصل المصري، بعضها يحمل كتابات هيروغليفية، من طبقات العصر البرونزي المتوسط في الموقع.

استمرت السكنى في الموقع خلال العصر البرونزي المبكر، إذ عثر على مبنى سمي القصر الشمالي، بني خلال المرحلة الأولى من هذا العصر. ويبدو أن المدينة شهدت خلال

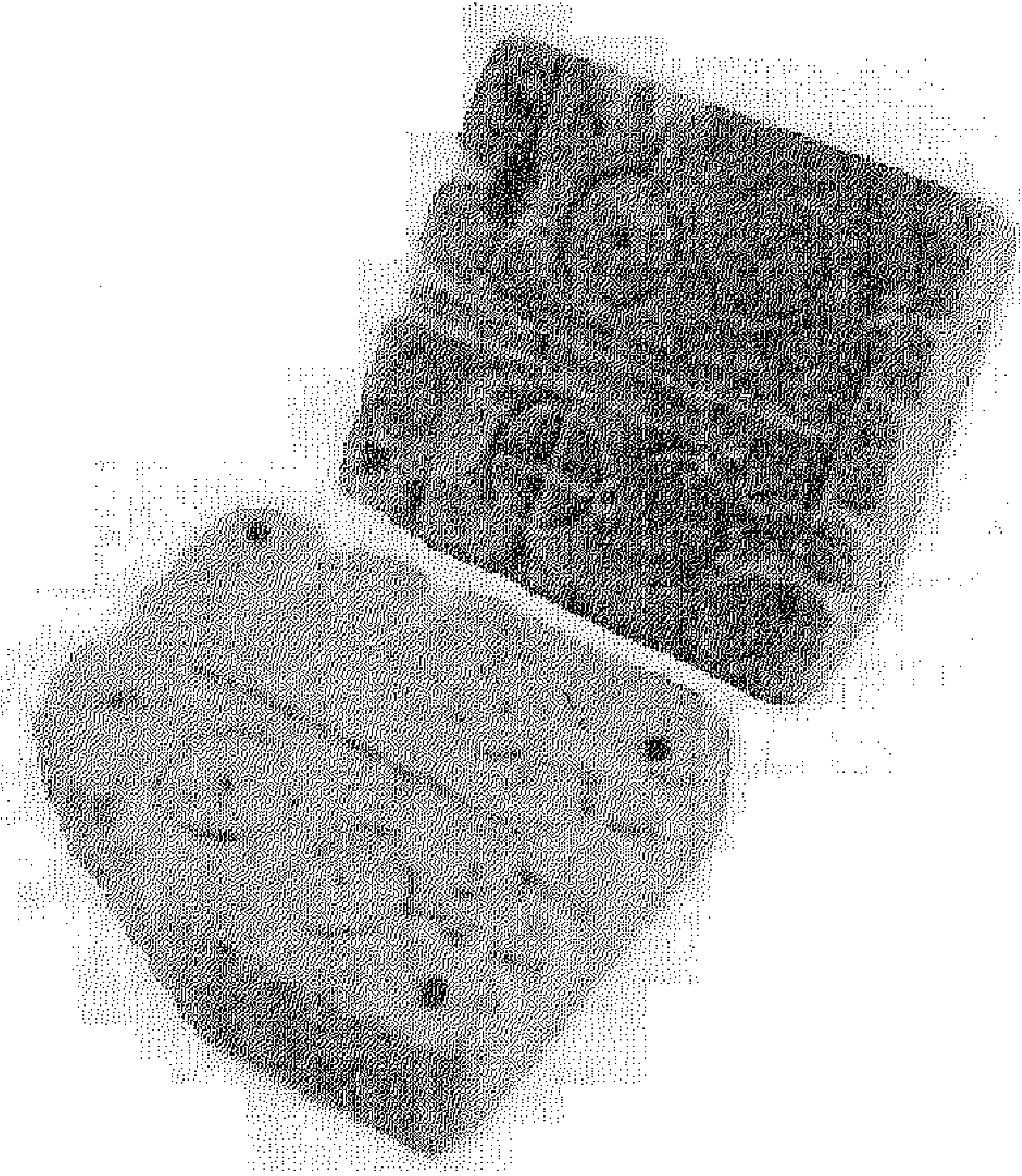
القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد توسعًا هائلاً، وحكمتها أسرة ملكية قوية. ويوضح أرشيف رأس شمرا التطورات التي حصلت في الموقع خلال الفترة ما بين حوالي 1350-1200 قبل الميلاد. وكشفت النصوص الأوغاريتية عن أسماء عدد من الملوك، مثل: نيقمادو الثاني، ونيقميبا /نيقميبوخ، وعميشتمرو الثاني (كلينغل 1998: 146 – 165).

كانت مدينة العصر البرونزي المتوسط محصنة بسور. وعثر في الجهة الشرقية على تحصينات خاصة بالقصر الملكي، مكونة من منزلق حجري يحمي بوابة، ويتصل بسور المدينة. وكانت المنطقة ذاتها استخدمت كذلك خلال العصر البرونزي المتأخر، لكن جرت توسعة وتقوية البوابة التي تحمي القصر من جهة الغرب.

ويعد القصر الملكي تحفة معمارية بنيت على مراحل خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وتبلغ أبعاده 120م (شرق – غرب)، و90م (شمال – جنوب)، حيث جرت توسعته عدة مرات. ويبدو أن القصر كان مكونًا من أكثر من طابق، حيث عثر على أدراج، وجدران ترتفع لأكثر من طابق. واستخدمت في بنائه الحجارة المقطوعة والحجارة الغفل، والأخشاب، والطين. وخدم القصر عدة أغراض، منها الإدارية والرسمية، والشعبية، والخاصة. فكان يدخل إلى جهته الشمالية الغربية من ساحة مربعة ومبلطة، تفتح على بوابة محصنة ذات مدخل مهيب، بني على كل جانب منها عمود، ويلج منها الداخل إلى ساحة واسعة تؤدي إلى عدد من الغرف الصغيرة، وبها درج يقود للطابق العلوي من المبنى. كما كان فيه عدد كبير من الغرف الأخرى موزعة على جميع مناطق القصر، حيث لوحظ وجود بيوت، ربما تكون لعلية القوم، إذ عثر فيها على عدد من القبور العائلية. وعثر في بعض الغرف على عدد كبير من اللقى الأثرية النادرة، مثل الأختام والرقم. كما ضم الجانب الشرقي للقصر حديقة بني حولها عدد من البيوت الخاصة، حيث وجد في إحداها قطع مرصعة بالعاج، ودبابيس ثمينة، وطاولة مستديرة، إضافة للعثور على مكان لإقامة قائد الجيش، ومعبد سمي المعبد الحوري.

أما المعابد التي بنيت فوق أعلى منطقة في التلة؛ فخصص أحدها للإله بعل، والثاني للإله داجن. وبني معبد الإله بعل على شكل برج، فوق أساسات حجرية دعمت بمصطبة، ويمكن الوصول إلى داخل المعبد بدرجات. ويعتقد المنقبون أن الطقوس الدينية التي مورست في المعبد، كانت تجري فوق تلك المصطبة.

عثر في رأس شمرا على لقى أثرية متميزة تدل على وجود طبقة من الصنّاع المهرة (الشكل 86). ومن تلك اللقى المنحوتات، فقد عثر على عدد من النصب الحجرية المنحوتة أهمها مسلة الإله بعل وهو رافع يده ويهم بضرب شيء ما. كذلك، وجد عدد من الدمى والأدوات والآنية المصنوعة من المعدن، وقليل منها من الذهب والعاج (Yon 1997a, b).



الشكل 86: قالب لصب الحلي والمجوهرات من العصر البرونزي المتأخر، رأس شمرا/ سورية

2. تل العطشانة "ألالاخ"/ سورية

يقع تل العطشانة (ألالاخ قديمًا) في منطقة خليج الإسكندرونة، في سهل العمق، عند مصب نهر العاصي في البحر المتوسط. لذا، يعد نقطة اتصال بين حضارات بلاد الشام وبلاد الأناضول، وبلاد الإغريق. ويأخذ التل شكلاً بيضاويًا، تبلغ أبعاده حوالي 750 x 300م. وكانت مدينة ألالاخ عاصمة لمقاطعة موكيش التي تبعت مملكة يمحاض فيما بين القرنين الثامن عشر والسادس عشر قبل الميلاد (عبد الرحمن 2008)، كما تبعت مملكة متياني خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد.

بدأت التنقيبات الأثرية في الموقع عام 1936 بتمويل من المتحف البريطاني في لندن بإشراف الإنجليزي ليونارد وولي Leonard Woolley، واستمرت على نحو متقطع حتى عام 1949. ركز وولي نشاطاته الميدانية على مناطق التل الشمالية والشمالية الغربية. وكشفت التنقيبات عن قصور، ومعابد، وتحصينات، ولقى أثرية أخرى، مثل الأختام والآنية الفخارية، يعود أقدمها لبداية العصر البرونزي المتوسط، وأحدثها لنهاية العصر البرونزي المتأخر. كما عثر على أرشيف في الطبقتين VII وIV، حيث كشف عن رقم

طينية نقشت عليها أسماء عدد من ملوك السلالة التي حكمت المدينة خلال الألف الثاني قبل الميلاد (Woolley 1955).

وقد استطاع وولي التعرف إلى سبع عشرة مرحلة سكنية في الموقع، موزعة على النحو التالي:

- الطبقات X – XVII وتؤرخ لبداية العصر البرونزي المتوسط (أسماها وولي Middle Bronze Age IIA وتقابل Middle Bronze Age I في جنوبي بلاد الشام في حوالي 2000 – 1800 قبل الميلاد).

- الطبقات VII– IX وتؤرخ للمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط (أسماها وولي Middle Bronze Age IIB، وتقابل مرحلة Middle Bronze Age II في منطقة جنوبي بلاد الشام، حوالي 1800 – 1650 قبل الميلاد).

- الطبقات IV – VI، وأعادها وولي للفترة الانتقالية بين العصرين البرونزي المتوسط والمتأخر (Middle Bronze Age II C – Late Bronze Age I).

- الطبقات I – III، أرخت للعصر البرونزي المتأخر الثاني (Late Bronze Age II A- B).

ومن خلال قراءة النصوص المكتشفة، تبين أن ملك تل العطشانة (آلالاخ) ياريم – ليم الذي حكم خلال الفترة ما بين 1720-1650 قبل الميلاد، هو حفيد الملك ياريم – ليم ملك حلب (يمحاض)، وكان معاصرًا لحمورابي في بابل وزمري – ليم في تل الحريري (ماري). ويظهر أن الحثي حاتوسيل الأول هو من دمر مدينة تل العطشانة (آلالاخ) المؤرخة للعصر البرونزي المتوسط خلال حملته الثانية على سورية (Stein 1997: 56). وبعد هذا التدمير (أي خلال فترة الطبقتين VI وV)، وفي فترة نهاية العصر البرونزي المتوسط وبداية البرونزي المتأخر، أعيد ترميم قلعة المدينة وبناؤها. تبع ذلك (في الطبقة IV) بناء قصر الملك نيقميبا الذي دمر في عهد خلفه، ابنه إليمي– ليمّا، أي خلال العصر البرونزي المتأخر الأول (Woolley 1955).

أما الطبقات I–III المؤرخة للعصر البرونزي المتأخر الثاني؛ فقد عثر فيها على آنية فخارية متشابهة المنشأ والشكل. فمثلاً، حوت الطبقة II آنية قبرصية من النوع المعروف باسم Late Cypriot IIB، ودمرت هذه الطبقة بانتهاء السيطرة الحثية على المدينة (حوالي 1340/1350 – 1275 قبل الميلاد). أما الطبقة I؛ فعثر فيها على آنية فخارية

قبرصية من النوع المعروف باسم Late Minoan IIIB، والمؤرخ لنهاية القرن الثالث عشر وبداية الثاني عشر قبل الميلاد.

وكما ذكرنا أعلاه، فبعد تدمير القصر الذي بني خلال العصر البرونزي المتأخر الأول، قام المحتلون الحثيون بإعادة بناء المعبد وقلعة المدينة. وتحتل هذه المباني الجزء الشمالي الغربي داخل أسوار المدينة، بما في ذلك المنطقة التي بني عليها القصر السابق. وبعد تدميرها في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أعيد بناء هذه المنشآت، لكن على نطاق ضيق. إضافة لذلك، وجدت أبنية لثلاثة معابد تؤرخ للعصر البرونزي المتأخر وهي ذات ساحات أقيمت في وسط بعضها مذابح، وتحيط بالساحات غرف عدة، كما كانت في كل معبد منها غرفة مقدسة. وقد بني أحد تلك المعابد، وهو المعبد الثالث، من طابقين، بدليل وجود درج يصعد للأعلى.

وعثر في طبقات المرحلة الانتقالية بين العصر البرونزي المتوسط والمتأخر (الطبقة VI) على آنية فخارية متعددة، مثل الفخار القبرصي ذي اللونين، والفخار ذي البطانة البيضاء I، والفخار ذي القاعدة الحلقية I. كذلك وجدت في الطبقتين V-IV المؤرختين للعصر البرونزي المتأخر الأول آنية فخارية مستوردة من قبرص كذلك، لكنها من أنواع الفخار ذي البطانة البيضاء I وII، والفخار ذي القاعدة الحلقية I وII، وفخار خابور المتأخر والفخار الأسود المطبوع. ونلاحظ هنا اختفاء الفخار المدهون باللونين الأحمر والأسود Bichrome، وزيادة في استيراد الفخار القبرصي، وظهور أنواع جديدة من الفخار، سواء المحلي، أو ما يعرف بفخار نوزي، والذي شاع استخدامه في العصر البرونزي المتأخر الثاني (الطبقات III-I). لكن، وفي الطبقة II، دخل الفخار المستورد من مايسينيا في الاستخدام، وأصبح شائعًا في أواخر العصر البرونزي المتأخر (الطبقة I)، ليس في تل العطشانة وحسب، وإنما في مواقع أخرى.

إضافة للعمارة والآنية الفخارية، وجدت لقى أثرية أخرى مهمة في تل العطشانة مثل الأختام الأسطوانية، وطبعات الأختام. وجرى التعرف على أسماء أصحاب بعضها، مثل أسماء حكام ممالك تل العطشانة، وحلب، وميتاني. وقد امتازت أختام الطبقة السابعة بوجود ثلاثة أشكال محفورة تمثل الملك، والإله، والمعبودة، بمصاحبة نقش.

كما عثر على عدد من التماثيل واللقى المنحوتة الأخرى، من أهمها رأس ياريم – ليم المنحوت من الديورايت، وتمثال الملك إدريمي الذي وجد مكسورًا ومدفونًا في أنقاض أحد المعابد (معبد IB). وقد نقش على الجزء السفلي من تمثال الملك إدريمي بعض من سيرة حياة هذا الملك، وأهم الإنجازات التي قام بها (الشكل 87). كما عثر بجانبه على تمثال كرسي العرش المنحوت من حجر البازلت. كذلك وجدت دمى معدنية، مثل دمية إله مصنوعة من معدن البرونز، وهو في حالة الجلوس، ورأس رمح يقبض عليه أسد بأسنانه، وسيف بمقبض هلالي. وعثر على عدد من اللقى الفنية العاجية، وآنية مصنوعة من الفاينس.

وخاتمة القول إن الأشكال المنحوتة على اللقى الفنية المكتشفة في تل العطشانة والمؤرخة للعصر البرونزي المتأخر، تظهر تأثيرات مصرية، وحثية، وميتانية، ورافدية إضافة للعناصر المحلية.



الشكل 87: تمثال الملك إدريمي من تل العطشانة "آلالاخ"/ سورية (عن Von Orthmann 1975)

3. مسكنة "إيمار"/ سورية

أدت مدينة مسكنة (إيمار قديمًا) دورًا مهمًا في تجارة الشرق الأدنى القديم منذ العصر البرونزي المتوسط، واستمر هذا الدور في العصر البرونزي المتأخر (جاموس 2004). فقد تحكمت إيمار في فترة من الفترات بتجارة حوض الفرات الأوسط، خاصة شرقي مدينة حلب. لكنها وللأسف، خضعت طيلة الوقت لسلطة غيرها من الدول المجاورة، مثل وقوعها تحت حكم مدينة جرابلس، والحثيين في عهد ملكهم شبليوليوما الأول (حوالي 1400 قبل الميلاد). ودمرت إيمار، مثل غيرها من مدن الشرق الأدنى القديم، في حوالي 1200 قبل الميلاد، نتيجة الحروب.

وقد أظهرت التنقيبات أن المخلفات الأثرية المكتشفة تعود برمتها للعصر البرونزي المتأخر، حيث لم يتبق من العصور البرونزية المبكرة والمتوسطة أية بقايا. وربما يعود السبب في هذا، كما يعتقد المنقبون (Margueron and Sigrist 1997)، إلى أن الموقع أُسس بداية في مجرى وادٍ، فجرفته مياهه إلى أمكنة أخرى.

وكشف خلال التنقيبات عن عدد من النصوص المكتوبة على رقم، تتحدث عن الأحوال الاقتصادية والدينية خاصة. وهذه النصوص مكتوبة بلغات عدة، منها السومرية والأكادية، والحثية، والحورية. كما عثر على القصر المسمى قصر "بيت حلاني"، وعلى مساكن للناس، ومعابد، وطبعات أختام، وآنية فخارية، ودمى من الطين والمعدن (Margueron 1975).

4. جبيل "بيبلوس"/ لبنان

على الرغم من الدور المهم الذي أدته مدينة جبيل اللبنانية الساحلية في الاتصال الحضاري بين مدن بلاد الشام منذ تأسيسها في العصر البرونزي المبكر مرورًا بالمتوسط وحتى في المتأخر، فقد كانت كذلك حجر الزاوية في الاتصال العالمي لبلاد الشام خلال جميع تلك الفترات. وبما أننا أبرزنا دورها لدى حديثنا عن مواقع العصرين البرونزي المبكر والمتوسط، فمن الضروري التحدث بشكل موجز حول دورها في العصر البرونزي المتأخر كي يكتمل المشهد الثقافي لهذه المدينة.

وجدت مكتشفات أثرية في الموقع تعود للعصر البرونزي المتأخر في قبور حفرت في الجهة الجنوبية من الموقع، من بينها قبر الملك الفنيقي أحيرام (حوالي 1000 قبل الميلاد) ولقى أثرية تخص الفرعون المصري رمسيس الثاني (حوالي 1290-1224 قبل الميلاد) وقطع عاجية، ربما جيء بها من تل المتسلم في فلسطين في حوالي 1200 قبل الميلاد (Wein and Opficius 1963: 26). ويجب التنويه إلى أن ملك جبيل هو واحد من أصحاب رسائل تل العمارنة الموجهة إلى الفرعون المصري خلال بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد (Klengel 1992).

5. كامد اللوز "كوميدي"/ سورية

يعد موقع كامد اللوز (كوميدي قديمًا) من أكبر التلال الأثرية الواقعة في سهل البقاع اللبناني. والتل ذو شكل بيضاوي تبلغ أبعاده 300م باتجاه شمال – جنوب، و240م باتجاه شرق – غرب. ويعد سهل البقاع، عبر العصور، منطقة عبور ووصل بين منطقتي بلاد الأناضول في الشمال، ومصر في الجنوب. وتفرع من هذه المنطقة عدد من طرق المواصلات كالتي ربطتها بجبال الجليل والكرمل، ومنها لسهل مرج ابن عامر، ومنطقة الأغوار في فلسطين، ومع منطقة ساحل البحر المتوسط، ومنطقة دمشق. وكانت منطقة البقاع، خلال العصور البرونزية، مأهولة بالسكان. لذا، فإن ازدهار التجارة، خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد في بلاد الشام والمناطق المحيطة، أثر كثيرًا في طبيعة السكنى في موقع كامد اللوز. وعلمًا أن التل سكن خلال العصر البرونزي المتوسط، إلا أنه لم يعثر فيه على أية نصوص مكتوبة أو رقم منقوشة من هذه الفترة. وحيث أن الأمر هكذا، لم يستطع الآثاريون ربطه بمحيطه الجغرافي والسياسي خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد (Heinz 2002: 143). وخلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، أي خلال العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550 – 1200 قبل الميلاد)، أصبح موقع كامد اللوز واحدًا من دول مدن بلاد الشام المركزية، وذكر اسمه في رسائل تل العمارنة.

وقد كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت في الموقع منذ ستينات القرن الفائت وحتى الآن عن بقايا أثرية تعود للعصر البرونزي المتأخر، من أهمها: معبد بني في وسط المدينة، تمت

صيانته وإعادة بنائه أكثر من مرة خلال العصر البرنزي المتوسط (Metzger 1991). كما أمكن التعرف على حي سكني يعود لنفس فترة المعبد، امتد فوق منطقة واسعة من الموقع، شملت المناطق الغربية والشرقية والشمالية. ويعتقد أن القصر المكتشف في الموقع، والمؤرخ للعصر البرونزي المتأخر، قد بدأ بناؤه في فترة العصر البرونزي المتوسط (Hachmann 1982; 1996). وعثر بداخل القصر على رقم تعود لزمن الفرعون المصري أمنحوتب الثالث (حوالي 1390 – 1352 قبل الميلاد). وذكرت رسائل تل العمارنة أن الفرعون المصري أمنحوتب الرابع (أخناتون) (1352 – 1336 قبل الميلاد) تسلم رسالة من حاكم كامد اللوز يطلب منه العون (Hachmann 1982: 33). وإضافة للقصر، ومن الفترة ذاتها، أمكن التعرف على مبانٍ لمشاغل احتلت مساحة كبيرة من الموقع في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، بني إلى الشمال منها معبد، وحي سكني، وبوابة تدل على أن المدينة كانت محصنة خلال العصر البرونزي المتأخر (Heinz 2002: 168). وقد بني المعبد فوق أعلى نقطة في المدينة، كما عثر بالقرب من مبنى القصر على بيت مبني من الحجارة، مكون من ثلاث غرف ومدخل مبني فوق قبو. وعثر في القبو على قبور لطفلين وشخص بالغ، وضمت القبور، إضافة لرفات الموتى، آنية فخارية، وحجرية، وقطعًا زجاجية أو مزججة (فاينس)، وقطع معدنية، وعاجية، وحلي ومجوهرات صنع بعضها من الذهب. لذا أطلق المنقب على هذا البيت اسم "بيت الكنوز" لكثرة اللقى الأثرية التي وجدت فيه. ويظهر أن ذلك البيت والقبور خصت عائلة مهمة من أعيان مجتمع كامد اللوز، نظرًا لطبيعة المكتشفات، ولقرب البيت الذي دفنوا فيه من مبنى القصر الملكي. وأثبتت التنقيبات الأثرية أن البيت هجر لفترة من الوقت، حيث أعيد بناؤه في فترة لاحقة مما أدى إلى تخريب القبو الذي يضم القبور، إذ استخدم البيت الجديد مستودعًا للمنتجات والبضائع التجارية. وربما استخدم من قبل أصحاب المشاغل في المنطقة المجاورة له، والذين عملوا بدورهم في خدمة القصر.

وعلى أية حال، أثبتت الآنية الحجرية والقطع العاجية المكتشفة في الموقع وجود علاقات متينة بمصر. كما تشير طبيعة دفن الموتى، سواء تحت البيوت أو في المناطق الجبلية المجاورة، إلى تشابه مع ما كان يحدث في المدن القريبة، مثل مدينة رأس شمرا، أو البعيدة في فلسطين، حيث دفن الناس موتاهم في مغاور خارج المناطق السكنية.

واستنادًا إلى ما سبق، يلاحظ أن مدينة كامد اللوز بدأت خلال العصر البرونزي المتوسط قرية تطورت حتى أصبحت إحدى المدن المهمة في العصر البرونزي المتأخر. أما ما حدث بعد هذه الفترة؛ فيبدو أن كامد الوز بقيت مسكونة خلال الفترة اللاحقة (أي العصر الحديدي)، فقد عثر في الموقع على بقايا عمائرية من هذه الفترة (Heinz et al. 2004: 102-105). كما كشفت أعمال التنقيب عن بقايا بيوت تعود للعصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي الثاني (Heinz et al. 2006: 88-93)، وعن كسر فخارية أرخت للعصر البرونزي المتأخر الأول (Kulemann-Ossen 2006: 97- 101).

بعد هذا العرض الموجز لآثار شمالي بلاد الشام في العصر البرونزي المتأخر يمكن القول إنه على الرغم من تأثر حياة الناس فيها بطبيعة الحياة في الإمبراطوريات المحيطة بها، وتقليدهم لها في بعض الحالات، إلا أن الطابع المحلي لم يكن غائبًا في المخلفات الأثرية التي وجدت في المواقع الشامية الشمالية. وفيما يلي، نعرض لآثار جنوبي بلاد الشام (الأردن وفلسطين) لنشهد التكامل الحضاري الذي كان حاضرًا في هذه المنطقة على الرغم من النزاعات الداخلية والحروب الخارجية.

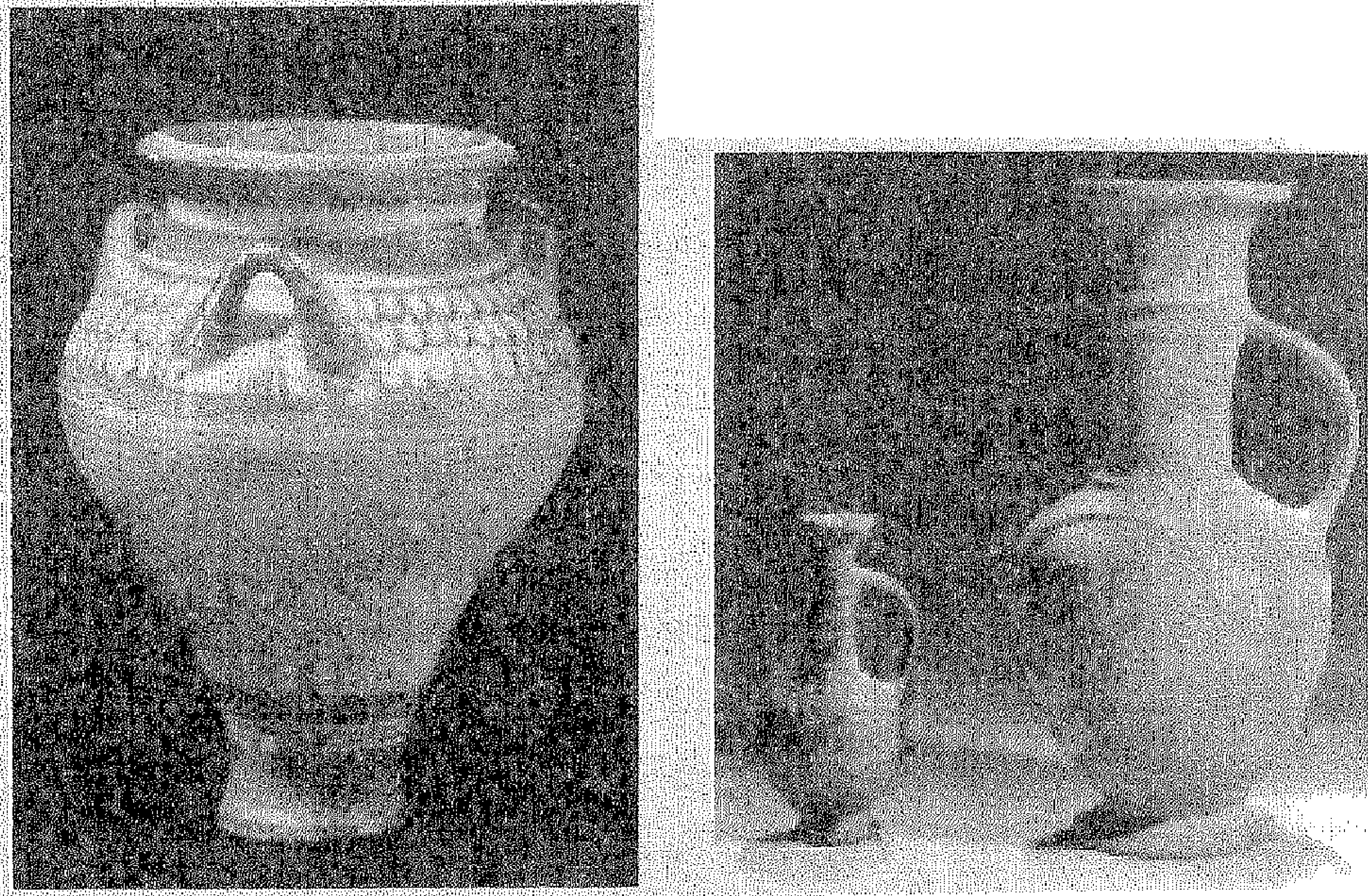
آثار العصر البرونزي المتأخر في جنوبي بلاد الشام

يستطيع الباحث العارف والمتابع ملاحظة طبيعة وسمات المكتشفات الأثرية من المرحلة الأخيرة للعصر البرونزي المتوسط واستمراريتها في المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتأخر في جنوبي بلاد الشام. فعلى سبيل المثال، نجد أن طرق وأشكال التحصينات وأشكال وطرز وزخارف الآنية الفخارية التي كانت موجودة في العصر البرونزي المتوسط قد استمرت في المتأخر. لكن هذا لا يعني عدم وجود عناصر جديدة بدأت مع بداية العصر البرونزي المتأخر، لا سيما عن طريق التجارة مع كل من قبرص وبلاد الإغريق. ويبدو أن التجارة ازدهرت خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد بين مايسينيا في بلاد الإغريق وقبرص وبلدان شرقي البحر المتوسط. وقامت قبرص بدور الوسيط التجاري بين بلاد الإغريق ومصر ومدن ساحل المتوسط الشرقي، مثل رأس شمرا في سورية، وأبو حوَّام قرب حيفا في فلسطين. وعثر على كميات من الفخار القبرصي والمايسيني المستورد مباشرة أو عن طريق قبرص، في كثير من مواقع العصر البرونزي

المتأخر في فلسطين والأردن. ومن أنواع الفخار الجديدة في العصر البرونزي المتأخر، ذلك المدهون باللونين الأحمر والأسود Bichrome، والذي يعود بأصوله إلى قبرص، ويمتاز بالأشكال المرسومة باللونين الأحمر والأسود، خاصة أشكال الماعز والطيور والأسماك. كما نعلم أن الآنية الفخارية المزخرفة بزخارف هندسية مدهونة بلون الشوكولاتة على أرضية بيضاء اللون Chocolate-on-White أصبحت شائعة في المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتأخر (Amiran 1969). ولا بد من التذكير أن الفخار المرسومة زخارفه بلونين عثر عليه في عدد من مدن جنوبي الأناضول، وشمال غربي بلاد الشام، ومدن الساحل، وفي عدد قليل جداً من مدن الداخل، مثل طرسوس، وميرسين، وتل العطشانة، ورأس شمرا، وتل سوكاس، وتل وقاص، وتل الفارعة الجنوبية، وتل العجول. ويشير التوزيع الجغرافي للمواقع التي عثر فيها على هذا النوع من الفخار إلى أن انتشاره كان، على الأغلب، في المدن التي تقع على الطرق التجارية، وإلى أن التركيز السكاني في جنوبي بلاد الشام خاصة، كان على الساحل أكثر منه في المناطق المرتفعة. ولا نريد أن نغفل عن ذكر نوع آخر من الفخار القبرصي المستورد إلى بلاد الشام، والمعروف باسم "الفخار ذي البطانة البيضاء".

وقد عثر في عدد من المواقع الأردنية المؤرخة للعصر البرونزي المتأخر، مثل طبقة فحل وتل أبو الخرز، وتل السعيدية، وتل ديرعلا، وقويلبة، وتل إربد، وأم الدنانير، وعمان، وتل العميري، وسحاب، على آنية فخارية لها ما يشابهها في فلسطين (الشكل 88) (كفافي 2006). وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على الوحدة الحضارية لمناطق شرقي وغربي نهر الأردن، وعلى أن التجارة كانت رائجة، ليس فقط في منطقة وادي الأردن كما نشر سابقاً (Ahlström 1993: 224)، وإنما في جميع أرجاء المنطقة، حيث وجدت آنية فخارية مشابهة لتلك التي عثر عليها في الأردن وفلسطين في مناطق سورية ولبنانية مثل جبيل وكامد اللوز في لبنان، ورأس شمرا في سورية.

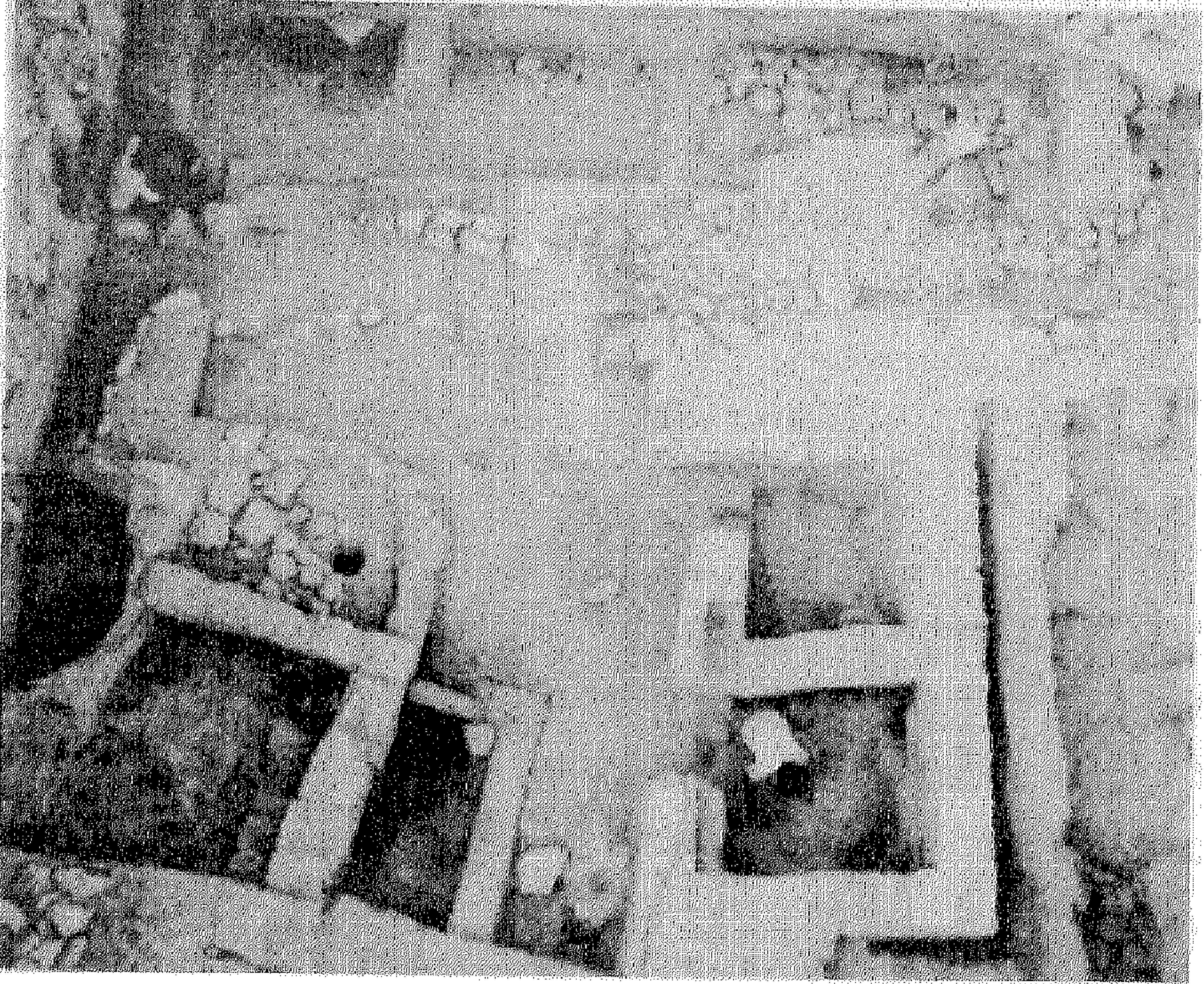
وفي سياق الحديث عن الآنية الفخارية، من الجدير بالذكر أن بلاد الشام كانت خلال العصور المختلفة، تصدر بضائع مختلفة لمصر وبلاد الإغريق، مثل الحبوب، والخمور وزيت الزيتون. ولتصدير بعض البضائع السائلة مثل الخمور والزيت، صُنعت جرار فخارية كبيرة ذات أغطية، أطلق عليها اسم "الجرار الكنعانية" (Amiran 1969: 140-141, pl. 43). وقد عثر على أعداد من هذه الجرار في أثينا في اليونان، وفي طيبة بمصر. كما



الشكل 88: إبريقان قبرصيان وجرة مايسينية، طبقة فحل/ الأردن (عن كتالوج Faces of the Orient)

لوحظ أن بلاد الشام استوردت، خلال نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أعدادًا كبيرة من الآنية الفخارية القبرصية والمايسينية، خاصة الزبادي المعروفة باسم "زبادي الحليب" و"الأباريق ذات الأعناق الطويلة". وربما يعود السبب في ذلك إلى أن مصر لم تعد تستورد مثل هذه الآنية بعد أن أصبح ميناء رأس شمرا تحت السيطرة الحثية.

أما العمارة في فلسطين والأردن خلال العصر البرونزي المتأخر؛ فجاء كثير منها محلي الطابع، علمًا أن بعضها الآخر حمل بعض التأثيرات الخارجية. فمثلاً، عثر على عدد من المباني في مواقع في فلسطين والأردن، مثل بيسان وطبقة فحل وتل السعيدية، تحمل تأثيرات مصرية، سواء في تخطيطها أو زخرفتها، أطلق عليها الباحثون اسم "بيوت المندوبين المصريين" (الشكل 89). ويعتقد بعض الدارسين أن مثل هذه المباني لا تعد مصرية صرفة، بل كنعانية أو أمورية بنيت بتأثيرات مصرية (Kafafi 2002). كما عثر على عدد من المعابد المصرية في مدن شامية نذكر منها، غزة، وبيسان، وعسقلان (Rowe 1940; Alt 1944). ومن المعابد الأخرى المكتشفة في فلسطين، معبد الإله حاتحور ذو الشكل المربع، في تل المنيعة (تمنع) الذي يبعد حوالي 25كم إلى الشمال من



الشكل 89: بيت المندوب المصري في تل السعيدية، القرن الثاني عشر قبل الميلاد (عن Tubb 1998)

خليج العقبة، والذي استخدمه عمال مناجم النحاس الذين عملوا في منطقة وادي عربة خلال حكم الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين المصريتين.

ومما هو جدير بالذكر أنه لم يكن هناك مخطط موحد لبناء المعابد خلال العصر البرونزي المتأخر في منطقة جنوبي بلاد الشام، لكن ثمة سمات عامة مشتركة بينها منها الغرفة المقدسة، والتي تضم حنية في بعض الأحيان، أو منصة مرتفعة في أحيان أخرى لنصب تمثال الإله. وقد عثر في بعض المعابد على دكّة بنيت بمحاذاة جدران المبنى الداخلية خصصت لجلوس الناس عليها. وعلى الرغم من هذا، يمكن القول بوجود ثلاثة أنماط من المعابد في هذه الفترة: المعبد ذو الغرفة الطويلة، والمعبد ذو الغرفة العريضة والمعبد ذو الشكل المربع. وعثر في تل وقاص، في المنطقة C، على عدد من النصب الحجرية تصطف إلى جانب بعضها بعضًا، ويحمل إحداها شكلاً منحوتًا على هيئة ذراعين مرتفعين للأعلى، ففُسر المكان على أنه معبد أقيم في الهواء الطلق (الشكل 90). ولا نستطيع هنا أن نعرض لجميع المباني الدينية المكتشفة بجنوبي بلاد الشام

ولكننا نذكر أهم المواقع التي عثر فيها على مبانٍ وصفت بأنها دينية، مثل أبو حوّام وتل وقاص، وبيسان، وتل المتسلم، وتل الفارعة الشمالية، وتل مبارك، وتل الدوير (في فلسطين)، وطبقة فحل، ودير علا، ومطار عمان (في الأردن) (كفافي 2006). ولوحظ في كثير من الحالات، كما في مواقع تل وقاص وتل المتسلم وتل الدوير، أن الناس كانوا يقومون ببناء معابدهم فوق المعابد التي سبق وتهدمت، أي في المكان ذاته، وهذا يشير إلى قدسية المكان والمبنى (Ahlström 1993: 259). كذلك وجدت بعض المعابد مثل معبدي تل بلاطة ومطار عمان، حيث بنيا في مكان لا يرتبط بمدينة أو قرية، مما دفع بعض الباحثين للقول إنها خدمت القبائل البدوية المحيطة بالمنطقة التي بني فيها المعبد. وفي أحيان أخرى وجدت معابد مبنية في منطقة محاذية خارج المدينة، مثل معبد تل الدوير.

تأثرت الفنون خلال العصر البرونزي المتأخر في جنوبي بلاد الشام بكثير من المؤثرات الخارجية، لا سيما المصرية. وربما تكون تلك المؤثرات دخلت هذه المنطقة بشكل مباشر كما هو الحال مع مصر، أو عن طريق مراكز حضارية أخرى كما هو الحال في الفنون القبرصية والإيجية التي دخلت عن طريق المدن الساحلية، مثل رأس شمرا وجبيل.

ونقدم أدناه شرحًا مختصرًا حول آثار أهم مواقع جنوبي بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر، وهي: تل وقاص، وتل المتسلم، وبيسان، وتل العميري.



الشكل 90: نصب عثر عليها في أحد معابد تل وقاص/ فلسطين (عن Yadin 1972)

1. تل وقاص أو تل القدح "حاصور"/ فلسطين

ذكر سابقًا أن مدينة تل وقاص تعد أهم المدن الكنعانية في جنوبي بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتوسط، وأنها ذكرت في نصوص تل الحريري. ويبدو أن المصريين القدماء، وخلال مطاردتهم لفلول الهكسوس، دمروا مدينة العصر البرونزي المتوسط.

أما في العصر البرونزي المتأخر؛ وفي المدينة السفلى من تل وقاص، فقد جاءت مخلفات الطبقة 2، المؤرخة للمرحلة الأولى من العصر البرونزي المتأخر، فوق طبقة من الرماد نتجت عن حريق شب في المدينة. وجرى خلال هذه الفترة بناء عدد من المباني. أما الطبقة 1 التي تعود للعصر البرونزي المتأخر الثاني والثالث؛ فقسم المنقب محتوياتهما إلى مرحلتين فرعيتين هما: a وb. وعاصرت الطبقة 1b ما يعرف باسم فترة رسائل تل العمارنة (العصر البرونزي المتأخر الثاني). أما الطبقة 1a؛ فتعود للعصر البرونزي المتأخر الثالث (حوالي 1300- 1200 قبل الميلاد)، وفيها بلغت المدينة أوج ازدهارها.

وإذا أردنا الحديث حول مدينة تل وقاص خلال العصر البرونزي المتأخر الأول (حوالي 1550-1400 قبل الميلاد)، يمكن القول إن الموقع كان غنيًا بآثار هذه المرحلة، والتي وجدت موزعة في كل مناطق التنقيبات في المدينة السفلى. ففي المنطقة H مثلاً، تبين للمنقبين أن المعبد الذي بني خلال أواخر العصر البرونزي المتوسط بقي قيد الاستخدام خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتأخر، لكن بعد أن أجرى سكان الموقع بعض التعديلات على بنائه، حيث رفع مستوى مصطبته بعد تبليطها بالحجارة، ووضعت فوقها طبقة من التراب الأبيض (الحوَّر) والصلصال. كما أضيفت في جهة المبنى الجنوبية ساحة مبلطة بالحجارة، يدخل إليها بعد المرور بردهة مستعرضة، وبني في داخلها منصة مرتفعة وضع فوقها عدد من المذابح الحجرية الصغيرة. ويظهر أن التقدمات الحيوانية كانت تذبح في هذا المكان بدليل وجود قناة لتسيل فيها دماء الحيوانات المذبوحة. وعثر حول المنصة على كومة من الآنية الفخارية المستخدمة في ممارسة الطقوس الدينية لوحظ من بينها بعض كسر فخارية على شكل كبد حيوان، جاء على إحداها كتابة مسمارية أكادية.

إضافة لهذا، كشف النقاب في المنطقة F، وفي الطبقة المؤرخة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي العصر البرونزي المتأخر الثاني، عن منطقة اعتقد المنقب أنها ذات صفة

دينية، حيث وجد فيها مذبحًا حجريًا كبيرًا، وحُفرت في وسطه قناة صغيرة، ربما لتسيل فيها دماء الضحية المقدمة قربانًا للإله، إذ اتصلت القناة المحفورة في المذبح بقنوات أرضية أخرى. وبني حول المذبح عدد من الأبنية، عثر فيها على لقى أثرية تتصل بطقوس العبادة، مثل مباخر رخامية وآنية صلصالية متعددة. كذلك عثر في المنطقة نفسها على قبر عثر فيه على عدد من الآنية الفخارية، بعضها مايسيني يؤرخ للقرن الرابع عشر قبل الميلاد. كما كشف في منطقة المذبح عن عدد من الآنية الفخارية، بعضها مستورد من مايسينيا كذلك، لكنه يعود للقرن الثالث عشر قبل الميلاد، أي المرحلة الثالثة من العصر البرونزي المتأخر.

لاحظ المنقبون في الموقع أن سكان القرن الثالث عشر قبل الميلاد استمروا في استخدام عمائر القرن الرابع عشر بعد صيانتها. وأعيد خلال هذه المرحلة الأخيرة استخدام مبنى المعبد الذي بني على طراز "معبد الغرفة المستعرضة"، والذي بني في المرحلة السابقة في منطقة ملاصقة لسور المدينة. وعثر بداخل مبنى المعبد على عدد من المسلات (حفرت على إحداها يدان ترتفعان للأعلى باتجاه هلال يرمز لإله القمر)، والتماثيل، واللقى الأثرية الأخرى التي استخدمت تقدمات لإله المعبد، وبقيت قيد الاستخدام خلال المرحلة اللاحقة. وعثر في المنطقة السكنية على بقايا أفران لصنع الآنية الفخارية، ربما لاستخدامها في الأعمال اليومية للمعبد.

كذلك عثر في المنطقة H في المدينة السفلى على معبد أسس في القرن الرابع عشر قبل الميلاد (العصر البرونزي المتأخر الثاني)، يختلف في مخططه عن مخططات المعابد السابقة. ويتكون مبنى المعبد من ثلاث وحدات بنائية هي: المدخل، والقاعة، وقدس الأقداس. ويعتقد المنقب أن هذا التخطيط يشابه مخطط معبد مدينة تل العطشانة في سورية. وتعد أهم سمة عمائرية لهذا المبنى هي وجود نصب حجرية بازلتية مبنية في المدماك السفلي لجدار ردهة المدخل من الداخل وفي قاعة قدس الأقداس. ونصب على كل طرف من طرفي المدخل، نصب بازلتي منحوت عليه شكل أسد. واستمر استخدام مبنى هذا المعبد للأغراض الدينية ذاتها، لكن بعد إجراء بعض التعديلات الطفيفة عليه خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

ومن أهم اللقى الأثرية الأخرى التي أرخت للعصر البرونزي المتأخر الثاني والثالث، والتي عثر عليها في المدينة السفلى، قناع صلصالي استخدم في ممارسة الطقوس الدينية،

ولقية برونزية مفضضة (عليها طبقة من الفضة) تحمل رسومات لأفاعٍ، ويبدو أنها كانت مثبتة على عمود خشبي، وتستخدم في أغراض دينية.

أما في المدينة العليا (التل)؛ فجاءت مخلفات العصر البرونزي المتأخر من الطبقات XV وتعاصر الطبقة 2 في المدينة السفلى (العصر البرونزي المتأخر الأول)، والطبقة XIV وتماثل الطبقة 1b في المدينة السفلى (العصر البرونزي المتأخر الثاني)، وأخيرًا الطبقة XIII وتعاصر الطبقة 1a وتؤرخ لمرحلة العصر البرونزي المتأخر الثالث. وكشف في الطبقة XV في أعلى التل على معبد، عثر فيه على كسر فخارية من الطراز الثنائي اللون. أما في الطبقات المؤرخة للعصرين البرونزي المتأخر الثاني والثالث؛ فعثر على عدد من المذابح، وعدد من البيوت، وبعض النصب. كذلك أكدت المكتشفات الأثرية في أماكن التنقيب الأخرى في التل استمرارية السكنى فيه خلال جميع مراحل العصر البرونزي المتأخر.

ويعتقد بعض الباحثين أن مدينة العصر البرونزي المتأخر في تل وقاص دمرت على يد المصريين أيام حملة قام بها الفرعون سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة.

2. تل المتسلم "مجدو"/ فلسطين

ذكرنا أن مدينة تل المتسلم كانت مأهولة بالسكان خلال العصر البرونزي المتوسط وأنه إضافة للمباني السكنية، عثر في الموقع على قبور موتى دفنوا إما في الحي السكني أو في خارجه. كما أشرنا إلى العثور على آنية فخارية من الطراز الثنائي اللون، والتي تعد دلالة واضحة على نهاية العصر البرونزي المتوسط وبداية المتأخر. كذلك، فإن الحملة العسكرية التي شنها أحمس الأول (حوالي عام 1550 قبل الميلاد) على بلاد كنعان، وتشريد الهكسوس من آخر معاقلهم، تؤكد بداية عصر جديد في المنطقة، وهو العصر البرونزي المتأخر. لكن ما دور تل المتسلم في كل هذا؟

مع استلام الأسرة الثامنة عشرة الحكم، خضعت ممالك المدن في بلاد الشام، ومنها تل المتسلم، للسيطرة المصرية. وتلقت هذه المدينة الضربات المصرية، خاصة بعد المعركة الشهيرة التي انتصر فيها الفرعون تحتموس الثالث على تحالف المدن الكنعانية فوق أرض تل المتسلم. ويظهر أن المدينة لم تهجر على الرغم من الحملات العسكرية المتواصلة عليها.

كما ورد اسمها "مجدو" في أكثر من نص مصري، خاصة تلك من زمن الدولة الحديثة والمسجلة على جدران معبد الكرنك؛ فمثلاً تردد اسمها لأكثر من مرة في رسائل تل العمارنة من زمن الفرعونين أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (أخناتون). وكتب حاكمها بيريديا إلى الفرعون المصري معلنًا ولاءه، ويشكو له لابايو حاكم مدينة بلاطة "شكيم". كما ورد اسمها في الوثيقة المصرية المؤرخة للقرن الثالث عشر، والمعروفة باسم "بردية أنستازي I"، بأنها مكان في كنعان (Ussishkin 1997: 463).

أما آثار العصر البرونزي المتأخر المكتشفة في تل المتسلم؛ فإن أهم ما كشف عنه كان عددًا من القصور، منها قصر ملكي بني في شمالي الموقع (Stratum IX) في المكان ذاته الذي شيدت فيه قصور المراحل السابقة، فقد وجدت أربعة قصور أخرى بنيت في مراحل زمنية مختلفة (الطبقات VIIA– IX). وحملت جدران القصر الذي بني في الطبقة VIIA رسومات جدارية تظهر بعض التأثيرات الفنية المصرية. ويرى أحد المنقبين في الموقع (Loud 1948) أن قصور الطبقتين VIIA وVIIB دمرت عنفيًا. على أية حال، فإن قصر الطبقة VIIA ضم ثلاث غرف وملحقًا، حيث عثر في إحدى هذه الغرف على 382 قطعة عاجية مزخرفة، تعد أكبر مجموعة عثر عليها في بلاد الشرق الأدنى القديم حتى الآن. وعلمًا أن معظمها يحمل زخارف محلية الطابع، إلا أن بعضًا منها تبدو عليه تأثيرات مصرية، وحثية، وآشورية، وإيجية (Loud 1939). وجاءت واحدة منها تحمل خرطوش الفرعون المصري رمسيس الثالث (حوالي 1182 – 1151 قبل الميلاد)، مما يشير إلى أن الموقع لم يدمر بعد انتهاء العصر البرونزي المتأخر. ويؤكد هذا الأمر أيضًا تمثال للفرعون رمسيس السادس (حوالي 1141 – 1133 قبل الميلاد) وجد مدفونًا في حفرة، ربما نصب داخل مبنى المعبد.

وقد عثر على طريق مبلطة مدعومة بجدار استنادي، توصل إلى بوابة المدينة الموجودة قرب القصر. وأثبتت التنقيبات أن هذه الطريق أنشئت خلال الفترات السابقة لبناء المدخل الذي أطلق عليه اسم Gate-house، لكنها بقيت قيد الاستعمال حتى نهاية العصر البرونزي المتأخر. والمدخل مكون من ثلاث فتحات مبنية من الحجارة المشذبة لكن دون أساسات. ومن المحير أن هذا المدخل الثلاثي غير متصل بأي سور للمدينة من العصر البرونزي المتأخر، لكن ربما اتصل بالمنزلق المؤرخ للعصر البرونزي المتوسط. إن غياب أسوار للمدينة من العصر البرونزي المتأخر حيَّر الباحثين، فنحن نعلم أن الفرعون

المصري تحتموس الثالث حاصر المدينة قبل دخولها (Gonen 1987). وللخروج من هذا المأزق، اقترح بعضهم أن المدينة كانت خلال العصر البرونزي المتأخر لا تزال تستخدم منزلق العصر البرونزي المتوسط، وأن البيوت التي بنيت فوق أعلى نقطة في التل شكلت خطًا دفاعيًا عنه (Ussishkin 1997: 463).

ومما يثبت استمرار السكان بالاستقرار في تل المتسلم بعد سقوطه بيد تحتموس الثالث، أن المعبد (ذا الرقم 2048) الذي شيد في المنطقة BB خلال العصر البرونزي المتوسط استمر قيد الاستعمال، لكنه دمر بحريق شب في نهاية العصر البرونزي المتأخر. ويعتقد المنقبون أن نهاية الموقع كانت في حوالي 1130 قبل الميلاد، وهي نهاية الحكم المصري على تل المتسلم، لكنهم لم يوضحوا أسباب ذلك التدمير (Ussishkin 1997: 464).

3. بيسان / فلسطين

تقع مدينة بيسان في فلسطين، في منطقة استراتيجية في شمالي وادي الأردن، إلى الجنوب من بحيرة طبرية. ويتمركز التل الأثري المعروف باسم "تل الحصن" في منطقة تقاطع الطرق التجارية التي تربط بين شرقي النهر وغربيه، وبين شمالي وادي الأردن وجنوبه. كما تمتاز المنطقة بغناها بالمصادر المائية الدائمة وبخصوبة أراضيها. ودلت التنقيبات الأثرية أن بداية الاستقرار في الموقع كانت خلال العصر الحجري الحديث الفخاري (الألف الخامس قبل الميلاد) وحتى الوقت الحاضر، دونما انقطاع.

ذكر اسم مدينة بيسان في المصادر التاريخية المصرية، خاصة من زمن الدولة الحديثة ومنها قوائم تحتموس الثالث في معبد الإله أمون في الكرنك، ورسائل تل العمارنة من زمن الأسرة الثامنة عشرة، وفي القوائم الطوبوغرافية لفرعوني الأسرة التاسعة عشرة سيتي الأول ورمسيس الثاني. كما تردد اسمها في أكثر من موضع في الأسفار التوراتية (يوشع 17 : 11؛ القضاة 1:27؛ والملوك الأول 4: 12). وعرفت المدينة خلال العصور الكلاسيكية باسمين هما: "نيسا" Nysa، و"سكايثوبولس" Scythopolis، أما بعد الفتح الإسلامي؛ فسميت "بيسان" (Mazar 1993: 214).

ونظرًا لأهمية الموقع التاريخية والجغرافية، قامت بعثة أمريكية من جامعة بنسلفانيا بالتنقيب فيه بين عامي 1921 و1933، بإشراف ثلاثة بحّاثة توزع عملهم على ثلاث فترات على النحو التالي: كلارنس فيشر Clarence Fischer من 1921 إلى 1923، وألان رو Alan Rowe من 1925 إلى 1928، وجيرالد م. فتزجيرالد Gerald M. FitzGerald في عامي 1930 و1933. وكانت التنقيبات الأولى التي جرت بإشراف فيشر تركزت في الطبقات المؤرخة للعصر البيزنطي وصدر الإسلام. أما رو؛ فقد استكشف طبقات العصرين البرونزي المتأخر والحديدي، بينما قام فتزجيرالد بالتنقيب في طبقات العصرين البرونزيين المبكر والمتوسط. وقد عثر في الجهة الشمالية للموقع على مقبرة ضمت 230 قبرًا، تراوحت في تاريخها بين العصر البرونزي المتوسط الأول والعصر الروماني.

وبعد سقوط فلسطين، بما فيها بيسان، بيد الإسرائيليين عام 1948، قام كل من يغال يادين Yigael Yadin وشولاميت جيفا Shulamit Geva في عام 1983، نيابة عن الجامعة العبرية في القدس، بحفر مجسات اختبارية فوق قمة تل بيسان بهدف التثبت من النتائج التي نشرها المنقب الأمريكي رو حول بيسان في العصر الحديدي الأول. وتابعت الجامعة تنقيباتها في التل عام 1989، لكن بإشراف أميحاي مازار Amihai Mazar الذي ركز جهوده في منطقة قمة التل، وكشف عن بقايا أثرية من العصور البرونزية المتوسطة والمتأخرة، والعصر الحديدي الأول.

ذكر سابقًا أن المكتشفات الأثرية في بيسان أثبتت أن الموقع سكن منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى الوقت الحاضر دونما انقطاع، مما يعني أن مكتشفات العصر البرونزي المتأخر جاءت استمرارية للفترة التي سبقتها، أي العصر البرونزي المتوسط. واستطاع المنقبون العثور على بقايا تمثل مراحل العصر البرونزي المتأخر جميعها من الأولى أ، وحتى الثالثة (الطبقات IX-VII). وبعد المرحلة الأولى أ (حوالي 1550 – 1468 قبل الميلاد)، أصبحت بيسان قلعة لحامية مصرية.

ومن أهم المكتشفات المؤرخة للعصر البرونزي المتأخر الأول أ وب (حوالي 1550 – 1400 قبل الميلاد) معبد (11.7 x 14.6م) مبني من اللبن، ومكون من ثلاث غرف موزعة على النحو التالي: غرفة مدخل، وقاعة مركزية فيها دكّة مرتفعة بموازاة الجدران من الداخل، ومنصات مرتفعة. ويظهر مخطط المعبد تناظرًا في المرفقات العمائرية كما هو الحال في المعابد المعاصرة التي وجدت في تل الدوير وتل مبارك. ولم يعثر في مبنى المعبد على لقى أثرية

متميزة، غير بعض الآنية الفخارية المزخرفة بزخارف مدهونة باللون البني الغامق على أرضية بيضاء Chocolate-on-white. وعثر في المقبرة الشمالية في تل بيسان على قبر (رقم 42) فيه عدد كبير من الآنية الفخارية المؤرخة للعصر البرونزي المتأخر الأول.

أما في بداية المرحلة اللاحقة، أي العصر البرونزي التأخر الثاني، فقد لاحظ المنقبون أن ردم بناء المعبد من المرحلة الأولى قد سوي بالأرض، وخصص معظم المساحة الناتجة عن ذلك ساحة لبناء مبنى ديني جديد. كذلك بني عدد من الغرف على جهتي الساحة، من الشمال والجنوب. وعثر في عدد من تلك الغرف على آنية فخارية شملت زبادي وباطيات وآنية مصرية الطابع، كانت تستخدم في تقديم التقدمات للآلهة في المعابد. ودلت دراسة الآنية الفخارية على أن هذه المخلفات تعود بتاريخها للفترة اللاحقة لاحتلال تحتموس الثالث للمنطقة، أي عندما تحولت بيسان لمركز إداري مصري في نهاية القرن الخامس عشر والقرن الرابع عشر قبل الميلاد (Mazar 1993: 217). وهذا الرأي يتعارض مع رأي المنقب الأمريكي رو الذي أرخ هذا المجمع الديني لفترة تحتموس الثالث (Rowe 1940). وقد تكون مبنى المعبد الجديد من ساحة مركزية، يضم جانبها الشرقي ساحة واسعة مسقوفة وجد في طرفها الجنوبي مذبح، أو ربما منصة مرتفعة استخدمت لأغراض دينية، وهي ذات درجات تقود إلى أعلاها. ولوحظ وجود حنية في الطرف الشمالي للساحة الأولى. وعثر على عدد من المذابح المبنية من الطوب الطيني في الساحة المركزية. وقد عثر على عدد من الغرف التي بنيت على طول الجهة الجنوبية للساحة المركزية، واستخدمت لممارسة الطقوس والشعائر. وكانت في إحدى تلك الغرف دكّة مرتفعة تستخدم للجلوس، وفي وسطها حفرة رصف وجهها الداخلي بالحجارة، يعتقد المنقب أنها ربما استخدمت لشواء اللحوم. كذلك عثر في الجهة الجنوبية الشرقية لهذا المجمع على بناء مماثل، لكن عثر في داخله على حجر أو نصب يقف عموديًا إلى جانب بئر. وعثر في المبنى على عدد من الآنية واللقى الأثرية التي استخدمت في ممارسة الطقوس الدينية، ومن بينها مسلة الإله مكائيل. ويعتقد المنقب (Mazar 1993: 216) أن هذا المبنى الديني يظهر تأثيرات مصرية قوية. كما عثر على الطرف الجنوبي للتل، وبالقرب من المجمع الديني المذكور، على مبنى وجدت بداخله مسلة بازلتية منحوت عليها مشهد أسد وكلب في حالة قتال، وتعود بتاريخها للعصر البرونزي المتأخر الثاني.

ويظهر أنه خلال المرحلة الأخيرة من العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1300 – 1200 قبل الميلاد)، أي زمن حكم الأسرة المصرية التاسعة عشرة، أعيد تخطيط المدينة. وحيث عثر على مسلة للفرعون سيتي الأول الذي يعد من مؤسسي تلك الأسرة، اعتقد مازار أن إعادة التخطيط جرى في عهد هذا الفرعون، بينما رأى المنقب رو أنها تعود لعهد الفرعون أمنحوتب الثالث، أي أنها أقدم بحوالي مائة عام من التاريخ الذي افترضه مازار Rowe) (1930. وعلى أية حال، فإن مازار يقترح أن الطبقة VII هي آخر مراحل العصر البرونزي في بيسان، والتي تعود محتوياتها الأثرية لزمن الأسرة المصرية التاسعة عشرة. كما عثر في هذه الطبقة على بناء لمعبد يتكون من غرفة أمامية استخدمت مدخلاً للبناء، وقاعة رئيسة ذات عمودين، وقاعة قدس الأقداس التي ترتفع حوالي 1.5م عن مستوى أرضية المعبد، ويوصل لأعلاها بدرجات بنيت لهذا الغرض. ويعتقد أن المبنى كله أو جزءًا منه كان مسقوفًا، وعثر فيه على عدد من الأختام الأسطوانية والحلي.

وكان الحي السكني بني في الجهة الجنوبية الشرقية من المعبد، كما كان الحال في الفترة السابقة. كذلك شيد مبنى ضخم في الجهة الجنوبية الغربية من المعبد، أسماه المنقب رو Migdol، أي قلعة، سكنها المندوب أو الحاكم المصري على المدينة.

ومن المعثورات الأثرية المهمة التي وجدت في بيسان، وتؤرخ للعصر البرونزي المتأخر، ثلاث مسلات تعود بتاريخها للفترة ما بين حوالي 1300-1200 قبل الميلاد، اثنتان منها للفرعون سيتي الأول، وواحدة للفرعون رمسيس الثاني. وتخلد مسلة سيتي الأول "الكبيرة"، ذكرى إخضاعه للثائرين في تل الحمة Hammath، وفي طبقة فحل. وتذكر المسلة أسماء عدد من المواقع، مثل: رحوب، وينوعم، وبيسان (Kafafi 2005). وتذكر المسلة الثانية لسيتي الأول غاراته على العابيرو في المناطق الجبلية المحيطة ببيسان. وهاتان المسلتان البازلتيتان نحتتا في بيسان، لكن على الطراز المصري.

أما مسلة رمسيس الثاني البازلتية؛ فتحمل نقشًا على أحد وجهيها يذكر أسماء الملك ويعدد صفاته، ويبرز شجاعته في القتال، ودفاعه عن الفقراء والضعاف، لكنه لم يذكر أي حدث تاريخي مهم. ويؤكد وجود هذه المسلات الثلاث في بيسان أهميتها كحامية مصرية خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

4. تل العميري / الأردن

يبعد موقع تل العميري حوالي 15كم إلى الجنوب من الدوار السابع في مدينة عمان وغرب الطريق الواصل بين هذا الدوار ومطار الملكة علياء الدولي. ويبدو أن وجود نبع قريب إلى الشمال من التل كان السبب في استقرار الناس في هذا المكان عبر العصور المختلفة.

وتقوم بالتنقيب في الموقع بعثة أثرية من جامعة أندروز الأمريكية منذ عام 1984 وحتى الوقت الحاضر، بالتعاون مع دائرة الآثار العامة الأردنية وجهات أمريكية أخرى، وذلك ضمن مشروع سهول مأدبا Madaba Plains Project. وقد أثبتت التنقيبات أن بداية الاستقرار في الموقع كانت خلال الألف الرابع قبل الميلاد، واستمرت حتى الوقت الحاضر، وجاءت موزعة على 22 طبقة سكنية، تعود الطبقة 14 للعصر البرونزي المتأخر الثاني، بينما تعود الطبقتان 12- 13 لنهاية العصر البرونزي المتأخر الثالث وبداية العصر الحديدي.

ويذكر المنقبون أنهم لم يعثروا، حتى الآن، على أية مخلفات أثرية أو كسر فخارية من العصر البرونزي المتأخر الأول. لكنهم عثروا على كثير من المخلفات التي تؤرخ للفترات اللاحقة. فمثلاً، وجد مبنى في المنطقة المسماة B يعود للمرحلة الثانية من هذا العصر ويتألف من خمس غرف، ولا تزال بعض جدرانه تقف لارتفاع يبلغ حوالي المترين. ويمكن الدخول إلى المبنى من باب واسع فتح في الجهة الشرقية منه. وقد لاحظ المنقبون وجود درج داخل الباب، ربما كان يؤدي لطابق علوي. كما بنيت عدة درجات تقود إلى قاعة ضيقة تفضي إلى غرفة مقدسة ذات بابين، وشيدت في جدارها الغربي، وعلى ارتفاع حوالي المتر من أرضيتها، حنية مقصورة أقيمت فيها خمسة نصب حجرية تتفاوت في ارتفاعها وحجمها، وعثر معها على آنية فخارية، يعتقد المنقبون أنها لا تستخدم إلا في الطقوس الدينية. كما عثر فوق مصطبة الغرفة ذات الحنية على كميات كبيرة من العظام الحيوانية. وأمام الحنية، وجد مذبح مغطى بالقصارة. كما فتح في الجدار الجنوبي باب يؤدي إلى غرفتين لم يعثر فيهما على أية مخلفات أثرية. ويظهر أن المنقبين في الموقع لم يستطيعوا حتى الآن تقرير فيما إذا كان هذا المبنى قصرًا أم معبدًا.

وفي أثناء إزاحة الطمم الموجود داخل المبنى، عثر المنقبون على بقايا طوب ربما استخدم لبناء الطابق العلوي، وعلى بقايا دعائم خشبية استخدمت في بناء السقف، وعلى كسر فخارية، بعضها قبرصي، والآخر مايسيني.

ويذكر المنقبون أن هزة أرضية دمرت الموقع مع نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولم تجر إعادة السكنى فيه إلا خلال نهاية العصر البرونزي المتأخر (الطبقة 13)، لكنهم يرون أن مبنى القصر/المعبد بقي مهجورًا خلال هذه المرحلة. وفيما بعد، وخلال الطبقة 12، بنى سكان الموقع لأنفسهم بيوتًا في الجهة الغربية من التل، وجاءت طبيعة السكنى مختلفة تمامًا عما سبقتها في العصور السالفة، ولم يبق قيد الاستخدام إلا التحصينات التي بنيت في العصر البرونزي المتوسط. لذا، افترض المنقبون أن سكان الموقع كانوا من القادمين الجدد (Herr and Clark 2007: 125)، حيث قام هؤلاء بتنظيف الخندق الذي بني في نهاية منزلق العصر البرونزي المتوسط، وبنوا جدارًا استناديًا للسور في الجهة الغربية للتل، بني فوقه بيت من طراز "البيت ذي الأربع غرف"، حيث عثر في إحدى الغرف الخلفية للبناء على أكثر من ثمانين جرة كبيرة من نوع "الجرار ذات الياقة" Collared-rim Jars. كما عثر في واحدة من الغرف على نصب حجري، مما يشير إلى استخدام هذه الغرفة لأغراض دينية (Clark 2007; 2001).

ويعتقد المنقبون أن نهاية هذه الفترة كانت عنفية نتيجة مهاجمة الموقع من وافدين جدد ويدعم هؤلاء رأيهم هذا بوجود أسلحة، وبالطمم الموجود قرب جدران المبنى، والذي عثر فيه على عظام محروقة، وجماجم بشرية لأربعة أشخاص ربما سقطوا من الطابق العلوي وهم في حالة دفاع. ويعتقد المنقبون أنهم عثروا على بوابة من هذه الفترة (Herr and Clark 2007: 125).

الفصل الثامن

بلاد الشام في العصر الحديدي

ممالك ومشيخات في بلاد الشام

الفصل الثامن

بلاد الشام في العصر الحديدي

ممالك ومشيخات في بلاد الشام

شهد القرن الثالث عشر قبل الميلاد العديد من المعارك والصراعات، خاصة بين مصر وحاتوشا (مملكة الحثيين في بلاد الأناضول)، كانت آخرها معركة قادش (حوالي 1260 قبل الميلاد) التي انتهت بمعاهدة صلح بين الطرفين، أبرمها الفرعون المصري رمسيس الثاني والملك الحثي حاتوشيل الثالث. ويذكر بعض الباحثين أن الدافع وراء هذه المصالحة هو شعور الطرفين بالخطر المشترك القادم من آشور، وتدخل عيلام في شؤون بابل لوقف الزحف الآشوري عليها، وتحركات شعوب البحر في منطقة شرقي البحر المتوسط. وعلى الرغم من هذه المتغيرات السياسية على ساحة الشرق الأدنى القديم، إلا أن الخطر الذي أطاح بحاتوشا وأضعف مصر، كان الهجوم المتكرر لشعوب البحر، والتي لم يوقفها إلا الفرعون رمسيس الثالث من الأسرة المصرية العشرين.

انتهى العصر البرونزي المتأخر في بلاد الشرق الأدنى القديم بتدمير كامل للإمبراطوريات المصرية في وادي النيل، والحثية في بلاد الأناضول، والكاشية في بلاد الرافدين. وتذكر الوثائق التاريخية المكتوبة أنه في حوالي 1200 قبل الميلاد تولى الحكم في حاتوشا، في الأناضول، آخر ملوك الحثيين، الملك شبليوليوما الثاني، والذي لم يستطع إخماد الثورات المستمرة التي اندلعت في بلاده إثر تعرضها لأحداث جسام، وهي:

- عم الجوع البلاد.

- إحراق العاصمة حاتوشا.
- استقلال الولايات التابعة للمملكة الحثية، وانفصالها عن مركز الحكم.
- تعرض البلاد لهجوم خارجي مدمر على يد شعوب البحر؛ وهي التي أسقطت الدولة الحثية، وهددت الحكم في مصر ودويلات المدن في بلاد الشام.

لذا، سادت بلاد الشرق الأدنى القديم في حوالي 1200 قبل الميلاد أحوال عدم استقرار، لا سيما بعد انهيار الإمبراطوريات الكبرى. وأدى زوال السيطرة المصرية والحثية عن بلاد الشام، وتعرضها لهجمات شعوب البحر إلى حدوث تغيرات في الأحوال والتنظيمات السياسية في بلاد الشام كافة. وللأسف؛ فإن الفترة المؤرخة بين حوالي 1200 و1000 قبل الميلاد في بلاد الشام تفتقر إلى الشواهد المكتوبة التي تحدثنا حول هذه الفترة، الأمر الذي دفع الباحثين نحو الكتاب المقدس بحثاً عن المعلومات حولها. ونظرًا لغياب الشواهد التاريخية، وصفت هذه الفترة بالعصر المظلم. ويفسر بعض الباحثين غياب المصادر والوثائق المكتوبة إلى تغيرات ارتبطت أساسًا بالجماعات الآرامية التي سيطرت على مقاليد الحكم في البلاد، والتي رافقها تطور نظام كتابي جديد استخدمت فيه مواد كتابية كانت قابلة للاندثار.

حكم في منطقة شرقي بلاد الشرق الأدنى القديم خلال الألف الثاني قبل الميلاد، ثلاث قوى هي: آشور، وبابل، وعيلام. وبقيت هذه هي القوى المسيطرة على المنطقة حتى مطلع الألف الأول قبل الميلاد. وفي فترة من الفترات، ظهرت على الساحة قوة جديدة هي أورارتو (أرمينيا الحالية). أما الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلال الألف الأول قبل الميلاد؛ فقد وصلنا العديد من الكتابات والنقوش من مواقع شامية متعددة. كما ساعدتنا الوثائق الفرعونية والرافدية في فهم ما جرى في هذه المنطقة خلال هذه المرحلة (انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب). ومن المعلوم أن آشور أصبحت القوة المسيطرة على شرقي البحر المتوسط خلال الفترة ما بين حوالي 900-609 قبل الميلاد، والتي أطلق عليها الباحثون اسم "عصر الإمبراطورية الآشورية" (Akkermans and Schwartz 2003: 377).

ويرى كل من أكرمنز وشفارتز (Akkermans and Schwartz 2003: 360) أن العصر الحديدي يبدأ في بلاد الشام في حوالي 1200 قبل الميلاد، وينتهي بمجيء الإسكندر المكدوني في حوالي 330 قبل الميلاد، وقد شهدت المنطقة متغيرات كبيرة أدت إلى ربط بلاد الشام خلال هذه الفترة بعلاقات دولية أوسع مما كانت عليه في العصر البرونزي

المتأخر. وانعكس هذا الأمر بوضوح في المخلفات الأثرية المكتشفة، من عمارة ولقى أثرية أخرى، والتي أسهمت في إغناء معلوماتنا عن حضارة بلاد الشام في هذه الفترة. ولا مندوحة عن القول إن شيوع استخدام خامات الحديد في صنع المعدات والأدوات والآنية خلال هذا العصر أسهم إلى حد كبير في التقدم التقني والتجاري والحضاري في المنطقة.

ولم يقتصر التطور الحضاري في العصر الحديدي على الصناعات والعمارة، بل تعداه إلى عالم الكتابة، حيث ظهرت الأبجدية، واستخدم الناس مواد أخرى للكتابة عليها، مثل ورق البردي، والكسر الفخارية، إضافة إلى الرقم الطينية. إن اختراع الحروف الأبجدية على يد الفنيقيين، والتي تبناها الآراميون والإغريق من بعدهم، أدى إلى تسهيل التواصل بين المجتمعات، وزيادة العمليات التجارية، وتعميم المعرفة بين المجتمعات المختلفة. ولا تزال المرحلة الانتقالية بين نهاية العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي موضوعًا يشغل الباحثين في محاولة لمعرفة أسباب تلك التطورات. ولتحقيق ذلك، ركز الباحثون على سؤالين متصلين، هما: هل حصلت هذه التطورات نتيجة لدخول أقوام جديدة لمنطقة بلاد الشام، خاصة شعوب البحر؟ أم أنها كانت ناتجة عن تطورات محلية؟ إلا أنهم لم يتفقوا حتى الآن على إجابة واحدة: وعلى أية حال، ربط بعضهم تدمير مدن رأس شمرا وتل العطشانة في نهاية العصر البرونزي المتأخر بقدوم شعوب البحر. لكن مدنًا أخرى في شمالي بلاد الشام (خريطة 10)، مثل جرابلس (كركميش) وحماة، ظلت على حالها. وحتى على الساحل؛ بقيت مدن أخرى لم تدمر مع قدوم شعوب البحر (Akkermans and Schwartz 2003: 361). وأفضل مثال على هذا القول نجده في موقع تل آفس إلى الشمال من تل مرديخ (Cecchini and Mazzoni 1998). بل والأهم من هذا وذاك، فإن كانت شعوب البحر هي من دمرت مدن العصر البرونزي المتأخر، فأين مدنها التي بنتها هي في منطقة شمالي بلاد الشام؟ علمًا أن العلماء اتفقوا في أنه بعد دحر قبائلها، ومنها شعب البلست، والتي هاجمت مصر، سمح لها ببناء مدن، مثل عسقلان. لكن هذا كان أيضًا في مرحلة متأخرة بعض الشيء.



خريطة 10: أهم مواقع بلاد الشام في العصر الحديدي

ونعجب كثيرًا حين نقرأ ما نشر حول بلاد الشام في العصر الحديدي، إذ لا نجد ما يذكر حول علاقة هذه المنطقة، خاصة جنوبها، بالجزيرة العربية. ألم تكن هناك طرق تجارية، وقوافل جمال تعبر الجزيرة العربية إلى بلاد الشام محملة بالبضائع خاصة البخور واللبان؟ وفي رأينا أن القبائل العربية في الجزيرة العربية خلال العصر الحديدي وربما قبله، كان لها دور في التأثير على ما كان يجري في بلاد الشام لا يقل أهمية عن دور الأمم الأخرى المجاورة.

ومع نهاية الألف الثاني وبداية الأول قبل الميلاد، تغيرت خريطة بلاد الشام بظهور عدد من الممالك والمشيخات، مثل الآرامية، والفنيقية، وإسرائيل الفلسطينية، ومملكة شعوب البحر، والعمونية، والمؤابية، والإدومية، إلا أنها ظلت، بشكل مباشر أو غير مباشر، على تماس وتهديد القوى المجاورة، خاصة في بلاد الرافدين. وفيما يلي معلومات موجزة عن هذه الممالك، وعن طبيعة علاقاتها ببلاد الشام خلال العصر الحديدي.

آشور وبلاد الشام

خلال القرن العاشر قبل الميلاد، تعرضت حدود آشور لهجوم القبائل الآرامية، مثل ممالك بيت زماني، وبيت عديني، وبيت بحياني، والتي أسست عددًا من الممالك لها في بلاد الشام، وفي أجزاء من بلاد الرافدين. لكن الوضع تبدل تمامًا باعتلاء الملك الآشوري آشور-دان الثاني (حوالي 935-912 قبل الميلاد) العرش، وقيامه بإصلاحات اقتصادية وعسكرية، وتوطيده للسلطة الملكية في البلاد. إلا أن النهوض الحقيقي لآشور بدأ في زمن حكم الملك أدد-نيراري الثاني (912-891 قبل الميلاد) الذي استطاع السيطرة على منطقة الخابور وصولاً إلى بيت عديني الآرامية على نهر الفرات. كذلك أخضع المملكة الآرامية الأخرى في الشمال، بيت زماني، وهاجم بابل في الجنوب واستطاع إلحاق بعض مقاطعاتها بمملكته. وبعد وفاته، خلفه ابنه توكلتي- ننورتا الثاني (حوالي 891 -884 قبل الميلاد) الذي تابع سياسة والده التوسعية، وفرض السلطة الآشورية على البلدان المجاورة، وقام بتشييد القلاع والحصون لتأمين طرق المواصلات التجارية والعسكرية.

ثم وصلت فتوحات خليفته الملك آشور-ناصربال الثاني (حوالي 884 -859 قبل الميلاد) إلى الجبال الشرقية والشمالية المحيطة بمملكته، وحصل منها على غنائم كثيرة. وأخمد آشور-ناصربال الثاني عددًا من الثورات التي قامت ضد آشور في منطقة أعالي الرافدين ووصل بجيوشه إلى البحر المتوسط. ومن الناحية الإدارية، قسم البلاد إلى عدة ولايات يحكم على كل منها والٍ (قابلو وفرعون 2006: 93-95).

وتابع شلمناصر الثالث (حوالي 858 -824 قبل الميلاد) سياسة من سبقه من ملوك آشور التوسعية، فقضى على إمارة بيت عديني الآرامية، وحولها إلى مقاطعة آشورية، وألحق كثيرًا من المناطق الواقعة حول منابع دجلة والفرات لحكمه. وتخلد النصب والمسلات التي تركها انتصاره في عام 853 قبل الميلاد في معركة قرقر الواقعة على نهر العاصي على تحالف الممالك السورية بقيادة ملك مملكة دمشق الآرامية "هدد عزر". ويرى بعض الباحثين أن شلمناصر الثالث لم ينتصر في هذه المعركة بدليل أنه لم يستمر في سيره باتجاه الجنوب، مما اضطره للعودة إلى هذه المنطقة عدة مرات بعد انتهاء المعركة (قابلو وفرعون 2006: 96). كذلك شهدت آشور خلال آخر سني حكمه ثورات داخلية، تزعم إحداها أحد أبنائه. ويظهر أن شلمناصر الثالث توفي قبل القضاء على هذه الفتنة، وانتقلت المسؤولية إلى ابنه شمشي – أدد الخامس الذي أخمد ثورة أخيه. لكن بعد وفاته، عمت البلاد حالة من الفوضى، حتى تولى الحكم الملك تيجلات بلاصر الثالث (حوالي 745 -727 قبل الميلاد)، ويعد توليه المُلك بداية لعهد الإمبراطورية الآشورية الثانية.

قام الملك تيجلات بلاصر الثالث في أثناء حكمه بإصلاحات داخلية، مثل إعادة تنظيم أمور الحكم والجيش، وتقوية السلطة المركزية في البلاد. أما في المسائل الخارجية؛ فاستطاع إخضاع بابل وضمها لإمبراطوريته، وهاجم عددًا من مدن بلاد الشام، فاحتل دمشق ووصل بحملاته العسكرية إلى مدينة غزة. وبعد وفاته، تولى الحكم ابنه شلمناصر الخامس (حوالي 727– 722 قبل الميلاد) الذي حاصر مدينة السامرة عاصمة ملك بيت عَمري "مملكة إسرائيل" لمدة ثلاثة أعوام، لكنها لم تسقط إلا على يد خليفته سرجون الثاني (حوالي 722– 705 قبل الميلاد).

وعندما تولى الملك سنحاريب (حوالي 704 – 681 قبل الميلاد) الحكم بعد وفاة سرجون الثاني، واجه عددًا من الأخطار، ومنها ثورات المدن في بلاد الشام، فقام بغزو المدن الساحلية في فلسطين وحاصر القدس. وبعد اغتياله (يعتقد أنه قتل بيد أحد أبنائه)

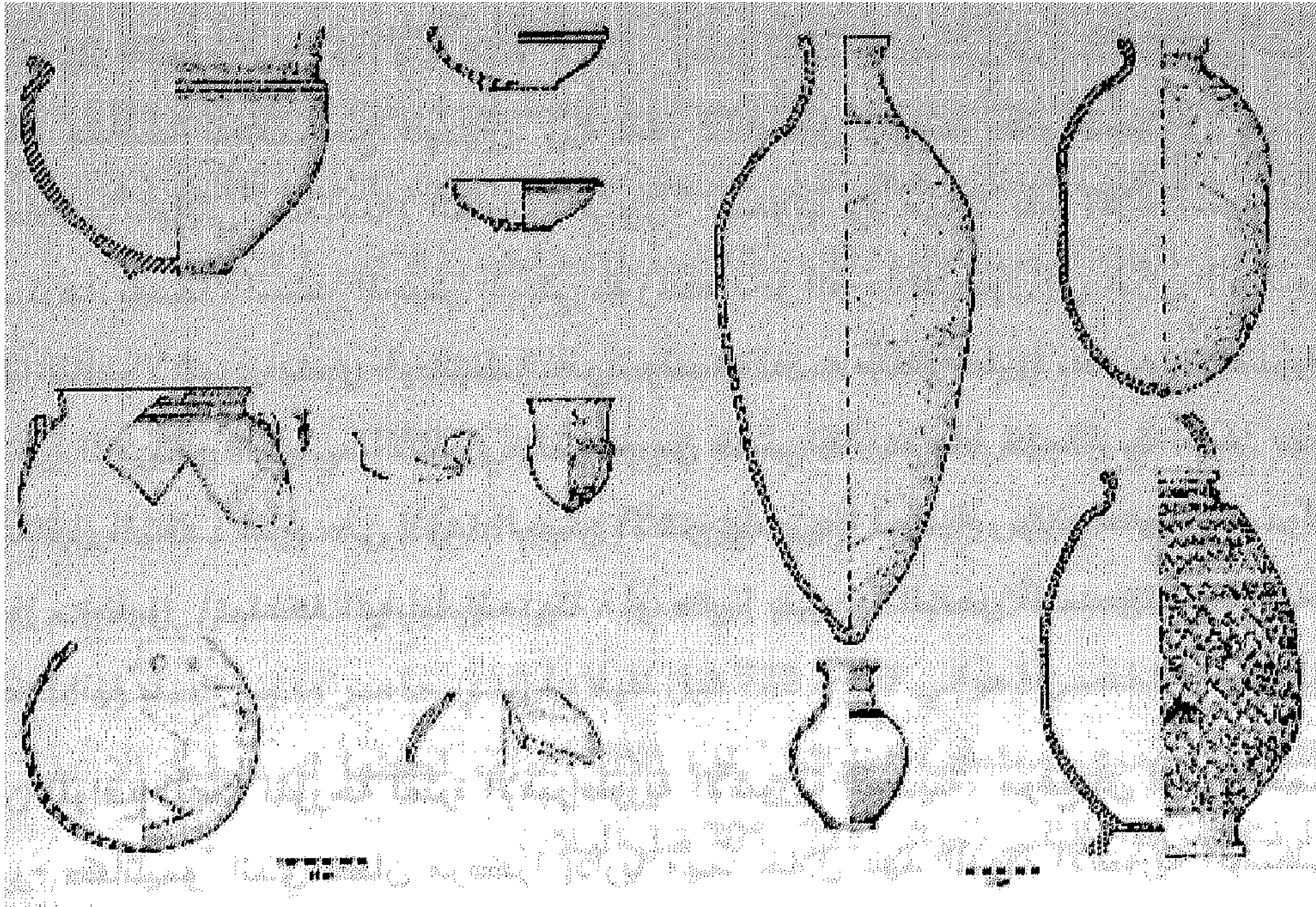
تنافس على استلام الحكم عدد من أبنائه، وفي نهاية الأمر فاز به أسرحدون (حوالي 681 – 661 قبل الميلاد). وأول ما قام به هو إنهاء تمرد عصيان إخوته في آشور، وإخماد الثورات في المدن الفنيقية. كما قام في عام 676 قبل الميلاد بأول حملة آشورية ضد مصر، باءت بالفشل. لكنه عاد وهاجم مصر في عام 671 قبل الميلاد وهزم ملكها طهرقة (ملك الأسرة النبتاوية) الذي فر هاربًا إلى صعيد مصر (عصفور 1981). وتوفي أسرحدون في بلاده إثر إصابته بمرض عضال.

وبعد وفاة الملك أسرحدون، تولى الحكم الملك آشور – بانيبال (حوالي 668 – 626 قبل الميلاد) الذي تابع الهجوم على مصر وألحق بجيشها هزيمة نكراء، ودخل مدينة سوسة عاصمة عيلام فاتحًا. وقد شهدت آشور في نهاية حكمه ضعفًا عسكريًا، حتى أن جيشها لم يستطع التصدي لهجمات القبائل في سورية.

بعد آشور – بانيبال، حكم هذه البلاد عدد من الملوك الضعاف، وحدثت منازعات داخلية على العرش، كما انفصل عدد من المقاطعات الآشورية عن مركز الدولة، مما أعطى الفرصة للميديين في إيران لمهاجمة آشور والوصول إلى العاصمة نينوى، لكنهم فشلوا في اقتحام أسوارها. وفي هذه الأثناء، وصل الملك الكلدي نبو-بلاصر إلى آشور وعقد معاهدة تحالف مع الميديين. وفي عام 612 قبل الميلاد، قام الجيشان الميدي والكلدي/البابلي بمحاصرة العاصمة نينوى، ودخولها وتدميرها بعد ثلاثة أشهر من حصارها. بعدها، استمر الجيش البابلي في زحفه نحو الغرب للوصول إلى حرّان التي لجأ إليها الملك الآشوري آشور -أوباليط الثاني، ونصب نفسه ملكًا عليها بمساعدة مصرية. والتقى الجيشان البابلي والآشوري المدعوم من مصر في معركة فاصلة في حرّان عام 609 قبل الميلاد، هزم على إثرها الجيش الآشوري هزيمة نكراء، ونتج عنها زوال دولة آشور، وظهور المملكة البابلية الحديثة، أو كما يسميها البعض "المملكة الكلدية/ الكلدانية".

ومن المواقع المهمة المؤرخة لفترة الإمبراطورية الآشورية الحديثة، موقع تل الشيخ حمد "دور- كاتليمو" الذي كان مركزا إداريًا مهمًا خلال عهد الدولة الآشورية الوسطى لكن أهمية الموقع ازدادت خلال القرن الثامن قبل الميلاد. وذكر المنقب أنه اكتشف في المدينة عددًا من المباني المؤرخة للفترة الآشورية الحديثة، ومنها مبنيان كبيران، أرخ الأول للقرن السابع قبل الميلاد، أما الثاني، والمسمى "البيت الأحمر"، فقد استمر

استخدامه من الفترة الآشورية الحديثة وخلال الفترة البابلية المتأخرة (;Kühne 2008 1997). وعثر في مبنى البيت الأحمر المكون من تسعين غرفة على كميات من الآنية الفخارية التي أرخت للفترة ما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد (الشكل 91) (Kreppner 2008a). وبعد دراسة الآنية الفخارية من الفترة الآشورية الحديثة، خرج كريبنر (Kreppner 2008b) بنتيجة مفادها أن الفخار الأحمر ذا البطانة الحمراء الذي شاع استخدامه خلال هذه المرحلة في منطقة غربي الفرات السورية، كان قليل الاستخدام في موقع تل الشيخ حمد. كما لوحظ أن الناس مارسوا عادة حرق الموتى، بوضعهم على منصات خشبية تنصب فوق حفرة القبر ثم تشعل فيهم النار (Kreppner 2008c). وكان سكان موقع تل الشيخ حمد اعتمدوا في معيشتهم على الزراعة المروية، فحفروا قنوات المياه لتوصيل مياه الخابور لمزارعهم. أما خارج منطقة الجزيرة السورية، وإلى الغرب منها، فإن أهم المواقع المكتشفة هي: تل أحمر (تل بارسيب)، وأرسلان طاش، والجرن الكبير، والشيوخ الفوقاني.



الشكل 91: آنية فخارية (القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد) من مبنى البيت الأحمر في تل الشيخ حمد/ سورية (Kreppner 2008a; 2008b)

واستنادًا إلى ما ذكر عن علاقة الآشوريين ببلاد الشام خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، نرى أن الأمر لم يخرج عن علاقة الحاكم بالمحكوم. وأفضل دليل على هذا القول، تمثال حاكم تل حلف، واسمه حدد- يسعي، والذي عثر عليه في تل الفخيرية (ربما تكون هي شوكاني عاصمة ميتاني) في حوض نهر الخابور عام 1979 وعليه نقش بخطين: آرامي وأكادي. ففي النص المنقوش بالخط الآرامي، حمل هذا الحاكم لقب "ملك"، بينما في الأكادي لقب بحاكم (Massetiti – Rouault 2001). ولا ننكر كذلك أن الآشوريين أسسوا مراكز حضارية ونقاط مراقبة لهم في منطقة الجزيرة دون غيرها من مناطق بلاد الشام، لتكون جزءًا وامتدادًا لمملكتهم (Liverani 1988). وكما أعطت آشور لبلاد الشام، أخذت منها أيضًا، حيث عمل عدد لا بأس به من سكانها الآراميين في آشور.

مملكة بابل الحديثة وبلاد الشام

أما في بابل؛ فيمكننا القول إن الفترة من حوالي 1200 إلى 626 قبل الميلاد تعد من أصعب الفترات التي مرت بها البلاد، إذ عمت الفوضى، وتنافس عدد من القوى للسيطرة عليها سياسيًا. ومن الناحية الاقتصادية، تراجعت البلاد نتيجة انهيار البنية التحتية للزراعة، وفقدان السيطرة على الطرق التجارية. وبالمفهوم السياسي، فإن انتقال السلطة في بابل من الكاشيين للكلدانيين مر بمرحلة طويلة من عدم الاستقرار في البلاد، وبكثير من التعقيد. ويعزو الباحثون هذا الأمر إلى تدخل عدد من العناصر الداخلية والخارجية في أمور بابل.

بعد انهيار الدولة الكاشية في بابل حوالي عام 1150 قبل الميلاد حكم البلاد أسرتان، الأولى في وسط بابل وتسمى أسرة إيسين الثانية، والثانية في أقصى جنوب بلاد الرافدين، وتسمى أسرة البحر. وسنتابع الحديث عن مملكة بابل الحديثة في الفصل التالي.

مصر وبلاد الشام في العصر الحديدي

واجهت مصر منذ تولي الأسرة الحادية والعشرين (حوالي 1080-946 قبل الميلاد) وحتى احتلالها على يد الإسكندر المكدوني تحديات خارجية عديدة. فقد تمكنت أسرة ليبية

من الاستيلاء على الحكم من المصريين في منطقة الدلتا، بينما استلم الحكم في الوقت ذاته في طيبة كبير كهنة الفرعون رمسيس الحادي عشر. وخلال العصرين الحديديين الثاني والثالث، خضعت مصر لحكم الأسرة النبتاوية من النوبة، كما احتلها الآشوريون، ومن بعدهم الفرس، لمدد مختلفة. من هنا، وبالمقارنة بالعصور البرونزية، نجد أن التأثيرات المصرية خلال العصور الحديدية على بلاد الشام كانت ضعيفة.

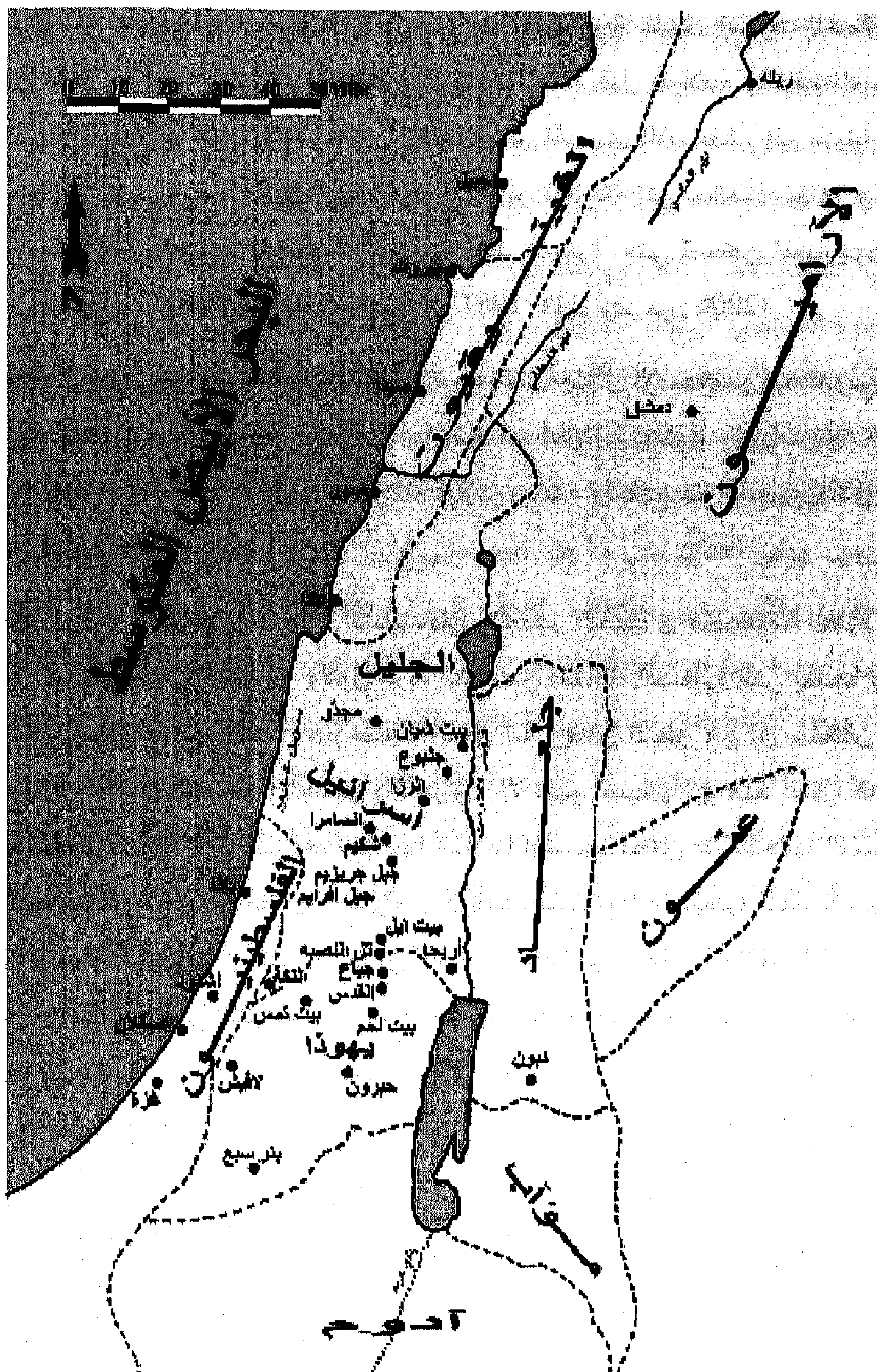
وخلال حكم الأسرة الثانية والعشرين، تمكن مؤسسها الليبي الأصل، شيشنق الأول بمساعدة العناصر الليبية، السيطرة على كامل أراضي مصر. وبعد أن ثبت الأوضاع الداخلية في البلاد، وجه حملة إلى فلسطين هدفت لاستعادة النفوذ المصري فيها، وفرض الجزية على أهلها، فكان له ما أراد. وبعد وفاته، خلفه عدد من الفراعنة الذين لم يتدخلوا في شؤون بلاد الشام إلا بتحريض ملوك دول بلاد الشام على الثورة ضد الآشوريين. وبقي الحال على ما هو عليه حتى تولت الحكم في مصر الأسرة الخامسة والعشرون، والتي حاول ملوكها إيقاف الزحف الآشوري على مصر. ونعلم أن الملك الآشوري أسرحدون هو أول ملوك آشور الذين احتلوا مصر، وكان هذا في عام 670 قبل الميلاد. وبعد أن تمكن المصريون في بادئ الأمر، زمن ملكهم النبتاوي طهرقة، من تحرير مصر لبعض الوقت، إلا أن وريث أسرحدون، ابنه آشوربنيبال، تابع حملة أبيه التي أعدت بدعم من دول بلاد الشام، فألحق هزيمة فادحة بطهرقة الذي هرب إلى نباتا، وفي الوقت ذاته، عين الآشوريون نكاو حاكمًا على منطقة الدلتا. لكن، ابن نكاو، بسماتيك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين، هو من استطاع طرد الآشوريين من بلاده. ومما يؤخذ على الفرعون بسماتيك أنه اعتمد في جيشه على الجنود المرتزقة وبشكل خاص من بلاد الإغريق. بعد وفاة بسماتيك، خلفه ابنه نكاو الثاني الذي أخذ يتدخل في شؤون دويلات بلاد الشام، ووقف إلى جانب الآشوريين في الدفاع عن بلادهم ضد غزوات الميديين والبابليين الجدد.

وبعد أن تولى البابليون الجدد في بلاد الرافدين، ودانت السيطرة لهم في المنطقة، حاول ملكهم نبوخذنصر الثاني التخلص من الميديين، شركاء الماضي، فهاجمهم. وخلال هذه الفترة، تولى الحكم في مصر الفرعون أبريس من الأسرة السادسة والعشرين، والذي استغل انشغال الآشوريين بحروبهم مع الميديين، فقام بمهاجمة الفنيقيين.

وبعد أن قضى الفرس على البابليين، ومع تولي ملكهم قمبيز الحكم، رأى أن الأحوال في مصر غير مستقرة مما حدا به لتجريد حملة عسكرية عليها. فسارت الحملة عبر أراضي بلاد الشام ووصلت إلى مدينة غزة في عام 525 قبل الميلاد، والتحم الجيشان الفارسي والمصري هناك، اضطر على أثرها الجيش المصري للانسحاب إلى مدينة منف والتحصن فيها. وتبعهم قمبيز إلى هناك وحاصر المدينة التي سقطت بيده. وخلال الحكم الفارسي لمصر، تكررت الثورات ضد قمبيز، حتى تمكن المصريون من طرده في حوالي عام 404 قبل الميلاد (عصفور 1981؛ قابلو وفرعون 2006).

واستنادًا إلى ما تقدم عن مصر في الفترة التي سبقت احتلال الإسكندر المكدوني لها، نجد أنها واجهت صعوبات عديدة وقفت حائلاً أمام إطلاق يدها في مقدرات بلاد الشام خلال العصر الحديدي، علمًا أن بعض المحاولات جرت، وأصبح هم المصريين الأول درء الخطر عن بلادهم.

لم يعد الوضع السياسي في بلاد الشام خلال العصر الحديدي محكومًا لنظام دولة المدينة، إذ ظهر على الساحة، ولأول مرة، عدد من الممالك الصغيرة التي يعدها بعض الباحثين مشيخات (خريطة 11). وحسبنا القول إنه وبغض النظر عن أن سكان بلاد الشام تكونوا من عدد من الأجناس والأعراق، إلا أنهم أصبحوا في هذه الفترة قادرين على تشكيل الدولة الأم التي يحكم فيها أبناؤها أنفسهم. لكن الاستقلالية السياسية لتلك الممالك لم تكن كاملة في كثير من الأوقات؛ فبعد زوال السيطرة المصرية، وقعت البلاد فريسة أطماع دول بلاد الرافدين وإيران. وكنا بينا أعلاه العلاقة التي كانت قائمة بين ممالك بلاد الشام والدول المحيطة بها. وتاليًا نقدم معلومات موجزة عن أهم الممالك التي قامت فوق أرض بلاد الشام، والتي لم تجمعها عاصمة مركزية، بل وظلت متناحرة ومتقاتلة.



خريطة 11: توزيع الممالك بجنوبي بلاد الشام خلال العصر الحديدي الثاني

(عن حتي 1982)

أ. ممالك المدن الحثية المتأخرة بجنوبي الأناضول وشمالي بلاد الشام

تعرضت منطقة جنوبي بلاد الأناضول، وشمالي بلاد الشام التي كانت خاضعة لها، لتغيرات سياسية مهمة خلال نهاية الألف الثاني قبل الميلاد؛ حيث هاجر عدد من القبائل اللوفية من أواسط بلاد الأناضول باتجاه الجنوب. واستقرت هذه القبائل في مناطق كليكيا وشمالي سورية الحالية مؤسسة مع من كان هناك من اللوفيين وغيرهم عددًا من الحكومات أو الإمارات المحلية، مثل ما حصل في كركميش وتل أحمر/بارسيب في أعالي الفرات، وفي حماة في حوض نهر العاصي. وكانت هذه الحكومات المحلية حافظت على الطابع الحثي، كما أن حكامها والطبقة العليا فيها انحدروا من أصول الأسرات التي حكمت في الأناضول خلال عهد الإمبراطورية (Hawkin 1995: 57-65).

وعليه، نرى أن طبيعة الحكم الحثي اختلفت من حكم مركزي في زمن الإمبراطورية إلى حكم لامركزي بعد زوالها. أما عن الأحوال والتطورات الثقافية؛ فيبدو أن بعض التقاليد السابقة من عهد الإمبراطورية استمرت بعدها. فعلى سبيل المثال، نجد أن أساليب النحت من حيث الطرق والموضوعات التي سادت خلال زمن الإمبراطورية استمرت في الفترة التي تلتها، إلا أن الباحثين أطلقوا على هذه الفترة عددًا من التسميات مثل: "الفترة الحثية المتأخرة"، و"الإمبراطورية الحثية الجديدة"، و"الفترة السورية الحثية". أما المصادر الآشورية المعاصرة؛ فتحدثت عن "حاتاي" Khatti (Hawkins 1995).

جاءت أسماء الملوك والأعلام من هذه الفترة مشابهة للأسماء الحثية من الفترة السابقة وكذلك خطوط الكتابة المشابهة للخطوط الهيروغليفية الحثية المؤرخة لفترة الإمبراطورية. ولكن الذي تغير هنا هو لغة النصوص الحثية التي لم تعد حثية تمامًا، وإنما غلب عليها الطابع اللوفي (Kuhrt 1995). كما كان هنالك عدد من اللغات المحكية التي استخدمت في الوقت ذاته، مثل: اللوفية، والحثية، والحورية، والآرامية.

وتعد مدينة جرابلس (كركميش) أفضل مثال على ممالك المدن الحثية بشمالي بلاد الشام من هذه الفترة. ويبدو أنه بعد سقوط العاصمة الحثية حاتوشا في حوالي 1180 قبل الميلاد بقيت تحكم في جرابلس أسرة محلية لوفية تدين بالولاء للبلاط الملكي الحثي. وإضافة لجرابلس، بقيت هناك مدن أخرى في شمالي بلاد الشام تحكمها أسرات لوفية الأصل، مثل تل بارسيب، وحماة. وعكست المكتشفات الأثرية تأثيرات حثية عليها.

ويجب ألا نغفل هنا عن ذكر بعض الأسرات اللوفية التي حكمت بعض مدن شمالي بلاد الشام، والتي قدمت نفسها على أنها آرامية، وتكتب بالخط الآرامي (Lipinski 2000).

وتجدر الإشارة إلى أن المراكز الحضرية اللوفية/الآرامية التي وجدت في شمالي بلاد الشام خلال العصر الحديدي كانت أصغر مساحة من سابقاتها الحثية التي وجدت في العصر البرونزي المتأخر.

ب. شعوب البحر

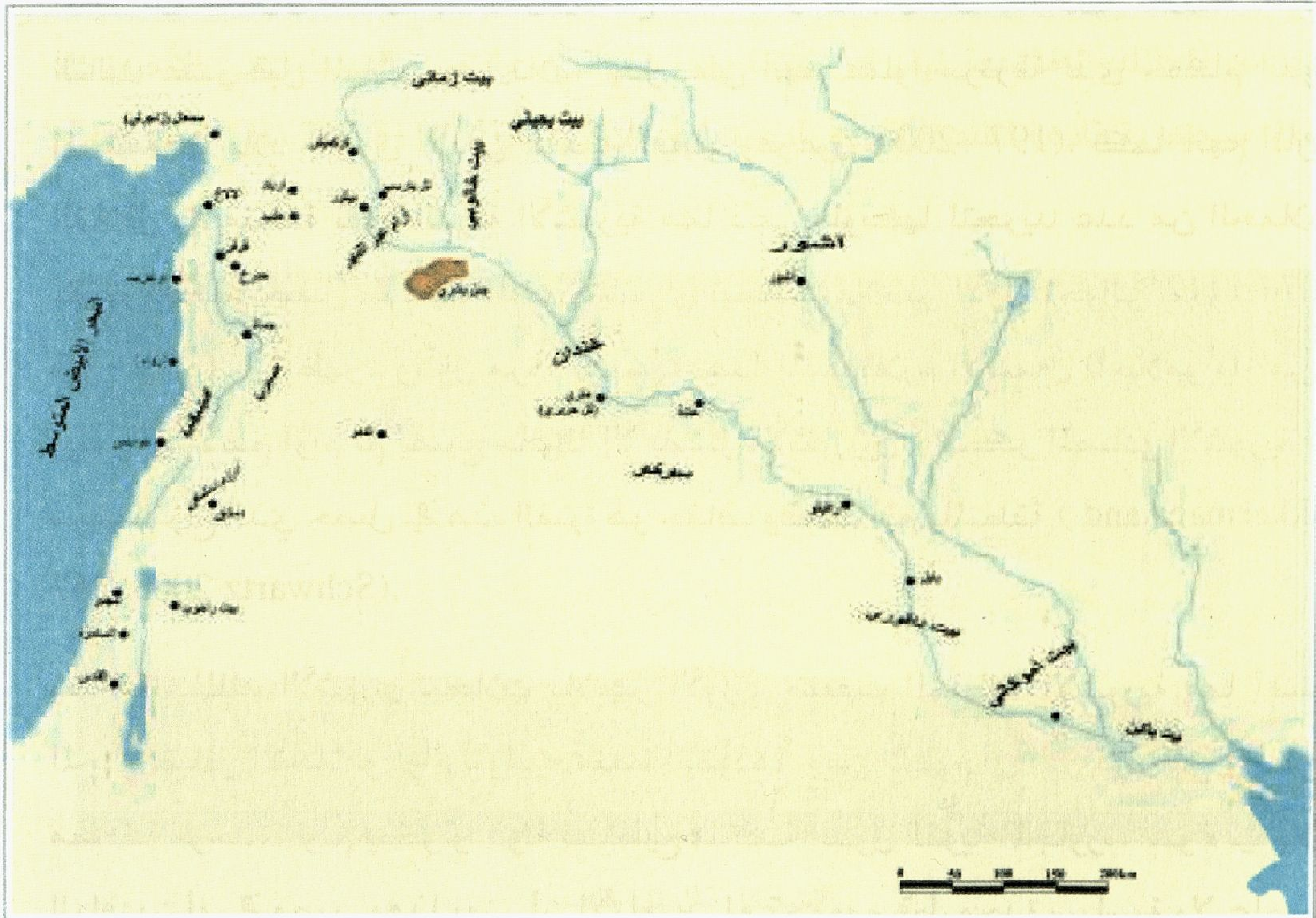
ورد ذكر اسم شعوب البحر أول مرة في رسائل تل العمارنة المؤرخة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد، إذ ترد إشارات مصرية تصف أهلها بأنهم محاربون وبحارة عملوا جنودًا مرتزقة لمن يستأجرهم. كذلك ورد أنهم هاجموا المدن الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وقاموا بنهبها. ويظهر أن إشعال الحروب والاستعانة بجنود مرتزقة، سواء في البر أو في البحر، كان أمرًا شائعًا في تلك الفترة. على أية حال، قامت قبائل شعوب البحر خلال نهاية القرن الثالث عشر والقرن الثاني عشر قبل الميلاد بمهاجمة سواحل البحر المتوسط، سواء المصرية أو التي كانت خاضعة لها (Dothan and Dothan 1992).

وفي الوقت الذي هاجمت فيه قبائل شعوب البحر سواحل البحر المتوسط الشرقية، هاجرت إلى المنطقة جماعات أخرى منها، جاءت من مناطق متباعدة، ومن أصول مختلفة، أهمها "البلست" الذين استقروا في الجزء الجنوبي من الساحل الفلسطيني، وأعطوا اسمهم للمنطقة هذه. إلا أن جماعات أخرى توجهت نحو سورية ولبنان (الحاليين)، واستقروا في مناطق واقعة على ساحل البحر المتوسط. كذلك وصلت قبائل أخرى لبلاد الأناضول وسكنت فيها.

إن الموطن الأصلي لقبائل شعوب البحر غير معروف على وجه الدقة، لكن العلماء ربطوا بينها وبين أحوال عدم الاستقرار التي سادت بلاد بحر إيجه ومايسينيا خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إذ اضطر عدد من القبائل لهجرتها والتوجه نحو بلاد المشرق نتيجة للجفاف الذي ساد هناك.

ث. الآراميون

ما انفك الباحثون في أصل الآراميين يقولون إنهم من الجماعات التي هاجرت من الجزيرة العربية خلال الألف الثالث إلى بلاد الشام والرافدين (سومر 2007: 7). ويبدو أن الآراميين كانوا من الجماعات السامية التي تركزت في المنطقة الغربية للهلال الخصيب، خاصة ضفاف الفرات وفرعه الخابور (خريطة 12). ويذكر علي أبو عساف (1988) أن أقدم ذكر لاسم "آرام" كإقليم جاء في الوثائق التي تعود لزمن الملك الأكادي نرام-سن (حوالي 2270-2233 قبل الميلاد). وتتحدث هذه الوثائق عن انتصار الملك الأكادي على شيخ آرام (Hirsch 1963). كما عثر على وثائق تجارية من عهد أسرة أور الثالثة في بلاد الرافدين تعود لعهد الملك شولجي (2093-2046 قبل الميلاد) والتي دوّن عليها اسم "آرامي" لمدينة أو إقليم (أبو عساف 1988: 11). وبناء عليه، جرى استنتاج أن هذه المدينة تقع بالقرب من مدينة أشنونا على نهر دجلة، حيث أسسها أسلاف الآراميين الذين ظهروا على الساحة السياسية في بلاد الشام مع بدايات العصر الحديدي.



خريطة 12: الممالك الآرامية في الشرق الأدنى القديم

وإضافة لهذا، ورد ذكر اسم آرام في وثائق تجارية من أرشيف تل الحريري (ماري) الذي يؤرخ للقرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد، والتي ذكرت أن أفرادًا من قبيلة "آرام" أو "أحلامو" وفدوا إلى مدينة "ماري" للمتاجرة (Birot 1955).

لذا نرى أن قبائل الأحلامو، وهم من الآراميين، ذكرت في الوثائق الرافدية ووثائق آسيا الصغرى بأنها جماعات بدوية سكنت البادية السورية، وشكلت خطرًا على الطرق التجارية التي مرت بأراضيها (قابلو وفرعون 2006: 196-198). واستمر ذكر الآراميين في السجلات التاريخية المؤرخة للنصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، مثل الرسائل الموجهة من حاكم مدينة "نفر" والمؤرخة لنهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ووثائق مدينة إيمار (مسكنة) الواقعة على نهر الفرات، وتعود للقرن الرابع عشر قبل الميلاد. كما ورد ذكر الآراميين في رسائل تل العمارنة (الرسالة EA 200:8-10)، وفي رسالة أخرى وجهها الملك الحثي حاتوشيل الثالث (حوالي 1282-1250 قبل الميلاد) إلى الملك الكاشي في بابل يشكو إليه أن الطريق التجاري بين البلدين أصبحت غير آمنة بسبب القبائل الآرامية (أبو عساف 1988 : 13).

كما أن تكرار ذكرهم متلازمين مع الأحلامو في الوثائق الآشورية المؤرخة للقرن الثالث عشر قبل الميلاد، وما تلاه، يدل على أنهم عملوا مرتزقة لدى حكام الدول المختلفة في بلاد الشرق الأدنى القديم (قابلو وفرعون 2006: 197). كما أنهم أثاروا القلاقل في منطقة نفوذ الدولة الآشورية مما دعى ملوكها لتجريد عدد من الحملات عليهم، كما حصل في عهد الملك الآشوري تيجلات بلاصر الأول (حوالي 1112-1074 قبل الميلاد)، إذ ظهر، ولأول مرة، في عهد هذا الملك تلازم الاسمين (أحلامو وآرامي). ويبدو أن الاسم آرام لم يصبح مألوفًا إلا بفضل الآشوريين. وتذكر المصادر الآشورية أن سبب النزاع الذي حصل في هذه الفترة هو جفاف وقحط ألم بالمنطقة (Akkermans and Schwartz 2003: 367).

بعد وفاة الملك الآشوري تيجلات بلاصر الأول، ضعفت المملكة الآشورية مما أفسح المجال لقبائل الأحلامو-آرام لتوسيع منطقة نفوذها. ومن المعلوم أن الآراميين لم يؤسسوا مملكة موحدة، ولم يكونوا دولة تستطيع منافسة الدول القوية المجاورة، سواء في بلاد الرافدين أو في مصر. وهذا يعني أن الآراميين لم تجمعهم قط وحدة سياسية ولا عاصمة مركزية واحدة، بل ألّفوا وحدات سياسية صغيرة بشكل ممالك وإمارات متفرقة،

لكل منها حاكمها وعاصمتها. ففي منطقة حوض الفرات، كانت هناك ممالك تل أحمر (بارسيب) التي ورثت الممالك الحثية الحديثة في حكم هذه المنطقة، وتأسست فيها سلالة حكم بيت عديني، والتي سيطرت على المنطقة الواقعة إلى الغرب من وادي البليخ، كما قدمت الولاء والطاعة للملك الآشوري أدد نيراري الثاني (حوالي 909 – 889 قبل الميلاد). لكن يظهر أن حكام بيت عديني لم يبقوا على ولائهم للآشوريين مما أدى إلى تدمير عاصمتهم تل بارسيب على يد الملك شلمنصر الثالث عام 856 قبل الميلاد (أبو عساف 1988: 35).

وتأسست في منطقة منابع نهر الخابور دولة آرامية باسم "بيت بحياني"، اتخذت من مدينة جوزانا (تل حلف الحالية) عاصمة لها (الشكل 92). ومن المرجح أن هذه الدولة سيطرت على منطقة واسعة من حوض الخابور الأعلى، حيث كشف عام 1979 في موقع تل الفخيرية عن تمثال يعود للقرن التاسع قبل الميلاد، نقشت على واجهته الأمامية كتابة آشورية، وعلى ظهره نص آرامي. ويذكر النص أسماء ملكين من حكام مملكة بيت بحياني. ويبدو أن علاقة بيت بحياني مع مملكة آشور لم تكن ثابتة؛ فتارة تدفع لها الجزية، وفي أخرى تثور عليها. لكن هذا الحال لم يدم، إذ شهدت المملكة الآشورية تمرد عدد من الممالك الخاضعة لها، من بينها بيت بحياني، وانتهى بالقضاء على الأخيرة في حملة عسكرية قادها الملك الآشوري أدد نيراري الثالث (حوالي 811-782 قبل الميلاد).



الشكل 92: تل حلف

كما أسست مملكة بيت آجوشي (أو بيت جش) في منطقة حلب، وكانت عاصمتها أرفاد (تل رفعت حاليًا). ويستقي الباحثون معلوماتهم عن هذه الدولة الآرامية، كغيرها من بنات جنسها، من المصادر والوثائق الآشورية المكتوبة، ومن المادة الأثرية المكتشفة في نفس المنطقة. ويستدل من هذه الكتابات أن أول ذكر لمملكة بيت آجوشي الآرامية ورد في سجلات الملك الآشوري آشور ناصر بال (حوالي 883-859 قبل الميلاد). ومثلما كان حال الدول الآرامية الأخرى، دفعت مملكة بيت آجوشي الجزية لآشور في بعض الأحيان، وتمنعت في أحيان أخرى. لكن مصيرها آل إلى النهاية على يد الملك الآشوري تيجلات بلاصر الثالث بعد أن حاصر عاصمتها أرفاد بين عامي 742-740 قبل الميلاد، وألحقها بملكه.

ومن الممالك الآرامية المهمة، مملكة شمأل (وتدعى الآن زنجرلي) التي تأسست في منطقة جبال الأمانوس قرب منابع نهر الأسود (قرة صو). وقد أجرت بعثة ألمانية في الفترة بين أعوام 1888-1902 تنقيبات أثرية في الموقع كشفت عن مدينة كبيرة مسورة بسور مزدوج تدعمه الأبراج، وتزينه البوابات المزخرفة، وعن قصور ومعابد بنيت داخل أسوار المدينة. لكن أهم ما عثر عليه في المدينة كان عددًا من النقوش الآرامية، أهمها نقش الملك كيلاموا المؤرخ لحوالي 825 قبل الميلاد، والذي يسرد فيه الملك إنجازاته التي لم يسبقه إليها أحد غيره من ملوك شمأل، ويضيف فيه كيف أنه حقق التوافق بين الحضريين والبدو في مملكته. ويبدو من السجلات والوثائق الآشورية أن هذه المملكة الآرامية قد ضمت لآشور في عام 725 قبل الميلاد.

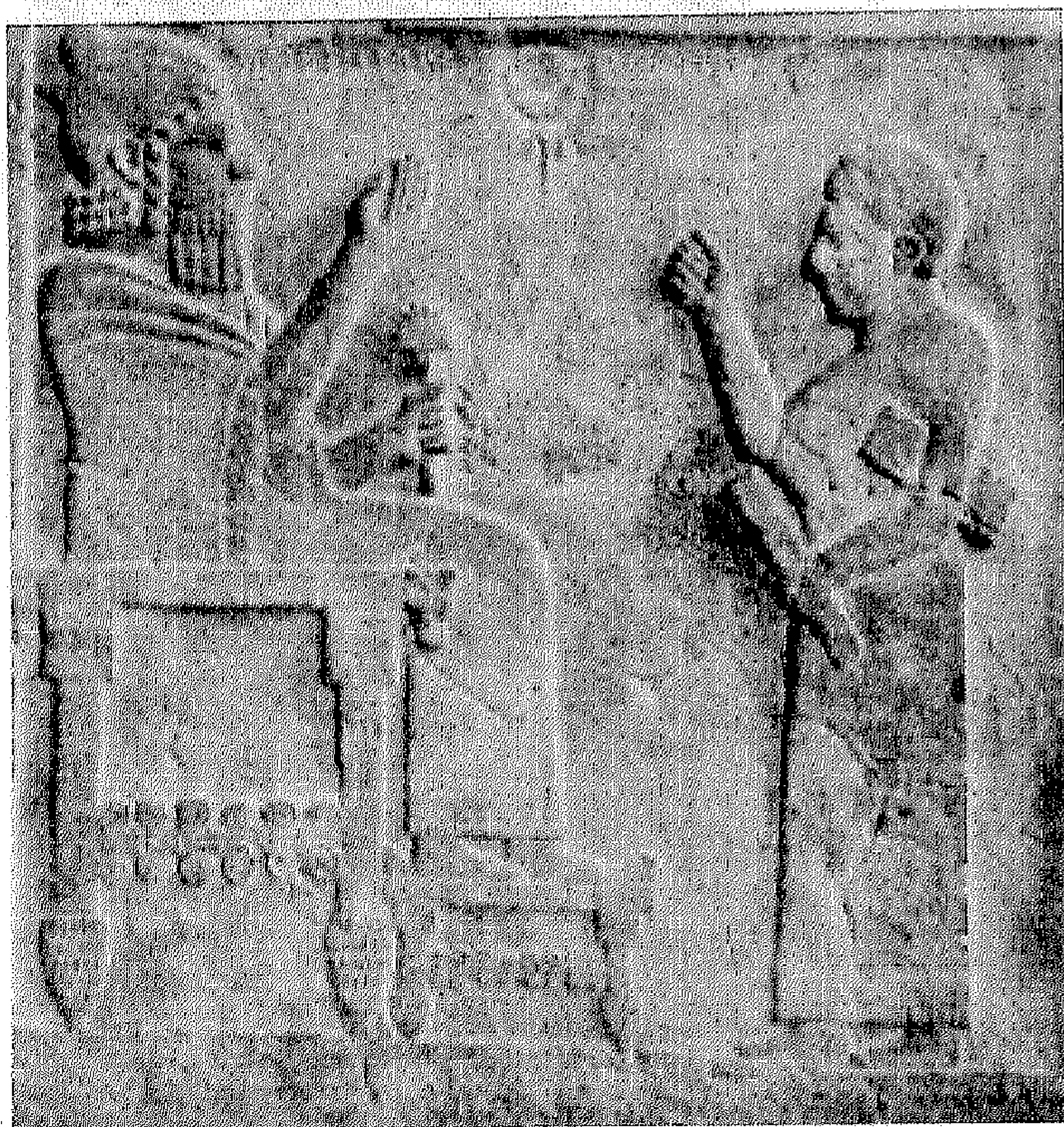
وتعد مملكة حماة من أهم الممالك الآرامية بعد مملكة دمشق. ويبدو أن سكانها كانوا خليطًا من الأعراق المختلفة. فبالإضافة للكنعانيين والآراميين، سكنها لوفيون من الهنود-الأوروبيين (أبو عساف 1988: 53-54). ووصلتنا معلومات حول هذه المملكة من كتابات العهد القديم (التوراة) التي توضح تحالف ملكها مع مملكة إسرائيل ضد مملكة صوبا الآرامية. ومن المعلوم أن حماة تحولت إلى ولاية آشورية بعد أن استطاع الملك الآشوري سرجون الثاني (حوالي 722-705 قبل الميلاد) هزيمة تحالف الممالك الشامية في معركة قرقر عام 720 قبل الميلاد.

أما مملكة دمشق الآرامية؛ فلم تختلف عن سابقاتها إلا في أنها كانت الأقوى. وكما هو الحال لدى دراستنا للممالك الآرامية الأخرى، فإن السجلات الآشورية تأتي في المقام الأول في مصادر الدراسة. على أية حال، فإن أول الملوك الآراميين الذي حكموا مملكة

دمشق كان الملك برهدد الأول الذي حكم في بداية القرن التاسع قبل الميلاد. وكذلك ابنه برهدد الثاني، أو كما يسمى هدد عازر، الذي حاول توحيد صفوف الممالك الشامية في وجه الغزو الآشوري. لكن بعد الهجمات الآشورية المتكررة على بلاد الشام، ألم ضعف بمملكة دمشق، نتج عنه أن دفعت هذه الجزية لآشور. لكن الهجمات الآشورية لم تتقطع، إذ احتلها تيجلات بلاصر الثالث عام 732 قبل الميلاد.

وتعد اللغة الآرامية فرعًا من اللغات السامية الشمالية الغربية. ويبين رسم كاتبًا يكتب بالآرامية وهو ممسك بملف بردي وريشة. وكان استخدام اللغة الآرامية شاع خلال النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد؛ فأصبحت اللغة الرسمية في معظم مناطق الهلال الخصيب، إن لم يكن جميعها (حتي 182:1982). فقد عثر في عدد من المواقع الآرامية، مثل تل حلف، على عدد من النصوص المكتوبة بالخط الآرامي، والتي تعود لمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد، وما بعده.

خلف لنا الآراميون إرثاً حضاريًا ماديًا غنيًا تمثل في المعمار وفن النحت (الشكل 93)، فقد كشف عن أبنية لقصور ومعابد في عدد من العواصم الآرامية، مثل دمشق وتل حلف وأرسلان طاش وتل بارسيب وزنجرلي (أبو عساف 1988: 184-204).



الشكل 93: نصب آرامي منحوت (عن أبو عساف 1988)

ث. العبرانيون/ الإسرائيليون

تذكر المصادر الدينية خاصة أن العبرانيين، والذين عرفوا في مرحلة لاحقة باسم "الإسرائيليين"، استقروا فيما يعرف اليوم باسم فلسطين. ولا عجب إذا ما قلنا إن هؤلاء القوم هم جزء من المجتمع الكنعاني الذي عاش في بلاد الشام خلال العصور البرونزية والحديدية، لكن كانت لهم خصوصيتهم الدينية والاجتماعية، وتقلبت عليهم الأزمان والظروف كغيرهم من أبناء المنطقة، فهاجروا، وتاجروا، وأسسوا دولة لم تستقم لها الأيام طويلاً، فاختفت عن مسرح الأحداث في زحام الإمبراطوريات المتصارعة في المنطقة، مثل: الآشورية والكلدانية والمصرية والفارسية. وغابوا عن الساحة آلاف السنين، واختفى العبرانيون الأوائل في ثنايا الأيام.

ولا بد من القول إننا لا نرى أي رابط بين العبرانيين "الإسرائيليين" الأوائل وصهاينة هذه الأيام. فالأوائل هم أبناء هذه المنطقة، آمنوا برسالة موسى عليه السلام، ولا اختلاف بيننا وبينهم إلا في الديانة (علمًا أنها سماوية أيضًا). أما صهاينة العصر الحديث؛ فهم من أعراق وأجناس عدة، لم تضمهم جغرافيا واحدة في يوم من الأيام، ولا يربطنا بهم أي رابط. واستنادًا إلى ذلك، فإن ما نورده هنا من معلومات تاريخية لا يتصل، في أي حال من الأحوال، بإسرائيل العنصرية الصهيونية الحديثة، إنما تتصل بحلقة من حلقات تاريخ بلادنا العربية.

– أصل العبرانيين

يرادف الاسم "عبري" مفردة "يهودي"، إذ يسمى أبناء الطائفة اليهودية في النصوص التوراتية تحديدًا باسم "العبرانيين" (Lemche 1992a:95). واستنادًا إلى النصوص التوراتية؛ فإن عابر وأخاه مَلْكيئيل هما من سلالة أشير (التكوين 46: 17؛ العدد 26: 44-46). وعلى أية حال، ورد في العهد القديم (التكوين 11: 14-17) أن عابر ابن شالح من نسل سام.

أما الاسم "إسرائيل"؛ فإن سفر التكوين في العهد القديم يبين كيف ظهر هذا الاسم، إذ قال الرب ليعقوب "لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل" (التكوين 35: 10). وتظهر نصوص العهد القديم أن الإسرائيليين هم من نسل إبراهيم

الذي أسمته أبرام، والذي ارتحل من أور بجنوبي بلاد الرافدين إلى حاران باتجاه الشمال، ومن هناك توجه إلى أرض كنعان. وقد ولد لإبراهيم ولدان، إسحق وإسماعيل. وإلى هؤلاء تنسب عدة أقوام، مثل: العرب، وهم من أصل إسماعيل، والإسرائيليون، وهم من أصل يعقوب. ومن الجدير بالذكر، أن معظم الدراسات التوراتية يتمحور حول نسل إسحق/يعقوب، وأن قليلاً منها يتناول نسل إسماعيل بالدراسة.

ولا بد من القول إن المصادر والوثائق التاريخية المكتوبة لم تشر إلى سيدنا إبراهيم لا في حله ولا في ترحاله. علمًا أن بعض التوراتيين حاولوا الربط بين جماعة إبراهيم وما ذكر في أرشيف تل الحريري "ماري" حول وجود قبائل بدوية رعوية. كما رأى آخرون أن قافلة الحمير، والتي رأسها شخص يدعى أبشاي، والمرسومة على جدران أحد مقابر بني حسن في مصر، تخص سيدنا إبراهيم (Isserlin 2001: 49).

وتذكر القصص التوراتية أن سيدنا إبراهيم ذهب إلى مصر، وبقي نسله هناك مدة أربعمائة وثلاثين سنة (الخروج 12: 40). ويصف سفر الخروج بشكل مبالغ فيه كيفية خروج بني اسرائيل من مصر بقيادة سيدنا موسى عليه السلام، حيث أنهم تزايدوا تزايدًا كبيرًا، مما شكل خطرًا على الدولة المصرية. وبناء عليه، قرر الفرعون المصري استعبادهم بالقيام بأعمال بنائية شاقة، وقتل الأطفال الذكور منهم. ولا نود في هذا المقام مناقشة أمر خروجهم من مصر بالتفصيل. لكن إن كان ذلك حصل فعلاً؛ فلا بد أن عددًا قليلاً من العائلات توجهت إلى بلاد الشام، لا ذاك العدد البالغ ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد، إضافة إلى المواشي، بحسب النصوص التوراتية (الخروج 12: 37).

وتذكر قصة الخروج أن الإسرائيليين تاهوا أربعين سنة في صحراء سيناء، وفي أثناء ذلك تسلم موسى الوصايا العشر بعد أن رأى الرب فوق جبل لا يزال موقعه غير معروف. فمن العلماء من يعتقد أن المكان ربما يكون في موقع قادش الذي يبعد حوالي ثمانين كيلومترًا إلى الجنوب من مدينة بئر السبع بجنوبي فلسطين، بينما يرى آخرون أن هذا الجبل يقع في أرض مدين بجنوبي الأردن (Isserlin 2001: 53).

ويذكر القرآن الكريم كيف انقلب هؤلاء على سيدنا موسى، وعبدوا العجل في غيابه. وتجدر الإشارة إلى أن الإسرائيليين تبنوا عدة أسماء للإله، فهناك اسم يهوه، وكذلك

الاسم إيل، وهو كنعاني الأصل، وشاع استخدامه في كنعان كبيرًا للآلهة، خلال الألف الثاني قبل الميلاد.

وحسب الروايات التوراتية، دخل الإسرائيليون فلسطين عن طريق الأردن بقيادة يوشع "يشوع"، بعد أن توفى موسى وأخوه هارون فوق تراب الأردن (العدد 21؛ التثنية 2 و3؛ القضاة 11؛ يشوع 1-12). ولا تغفل القصص التوراتية عن وصف انتصارات الإسرائيليين على الممالك والدول التي مروا بها، كما حصل مع الملك الأموري "سيحون" وتدمير عاصمته "حشبون"، والتي نقبت عنها بعثة أثرية أمريكية لسنوات عديدة بحثاً عن آثار تعود لزمن الخروج، لكن دون جدوى (Geraty et al. 1989). ومن منا لا يعرف قصة نفخ الأبواق الخرافية، وتدمير أسوار مدينة أريحا على يد الإسرائيليين.

هذه قصة احتلال أرض كنعان حسب الرواية التوراتية التي أخذ بها التوراتيون التقليديون. لكن هذه الرواية لم تلق القبول لدى جميع المشتغلين بالآثار التوراتية، فهذا الألماني ألبرشت ألت Albrecht Alt يقدم لنا نظريته المعروفة باسم "التسرب السلمي التدريجي"، والتي تنص على أن أصل العبرانيين بداة رعاة تسربوا بشكل سلمي تدريجي من شرق الأردن إلى فلسطين (Alt 1934). وقد اعتمد ألت في دراسته هذه على تحليل المعلومات الواردة في النصوص المصرية المؤرخة للفترة الممتدة من القرن العشرين إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (أبو طالب 2006: 155).

ويرى العالم الأمريكي جورج مندنهول أن هاتين المدرستين لا تختلفان كثيرًا في طرحهما لمسألة أصل الإسرائيليين، إذ تتفقان في أن الإسرائيليين أتوا إلى فلسطين من خارجها، وأنهم بداة، ومرتبطون عرقيًا (Mendenhall 1970). ويقدم مندنهول مقترحًا حول احتلال الإسرائيليين لفلسطين، يقول فيه إن جماعة صغيرة مكونة من سبعين عائلة كانت مستعبدة في مصر، وهربت منها، وتبنت إلهًا هو يهوه، وعاشت في الصحراء تحت رحمته. ولأن أفرادها لم يكونوا بداة (أي لم يألفوا العيش في الصحاري)، ودخلوا إلى فلسطين سلمًا، ولأنهم كانوا أصحاب رسالة، فقد لقوا قبولاً من فئة كبيرة من الناس هناك، واستطاعوا، بمرور الزمن، السيطرة على المدن الكنعانية في فلسطين.

واعتمادًا على ما طرحه مندنهول من أفكار حول استيلاء القبائل الإسرائيلية على فلسطين الكنعانية، تقدم الباحث الأمريكي نورمان غوتوالد Norman Gottwald

بنظريته المعروفة، والتي تنص على أن جماعات الفلاحين في المدن والقرى الفلسطينية انسحبت من مراكز القوة إلى الهضاب الحرجية قليلة السكان، فاستصلحتها زراعيًا مما أدى إلى ارتفاع مدخولاتها. وانضمت إلى هؤلاء الفلاحين جماعة صغيرة خرجت من مصر، واتفقوا معًا على عبادة إله واحد. وأسست هاتان الجماعتان مجتمعًا جديدًا تمكن بعد مدة من السيطرة على معظم بلاد فلسطين (Gottwald 1979).

إن المتفحص للنظريات المذكورة حول أصل الإسرائيليين يرى أنها جميعًا تعتمد في حقيقتها على النصوص التوراتية مع بعض التحويرات والتعديلات هنا وهناك، وأنها نظريات تستبعد الأدلة الأثرية عن دراستها. وبعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية في حرب عام 1967، انشغل الآثاريون الإسرائيليون كثيرًا بالدراسات الميدانية لهذه المناطق. وتركز جل الأبحاث على إجراء المسوحات الأثرية. وعلى أية حال، واعتمادًا على نتائج التنقيبات الأثرية التي أجريت في مواقع يعتقد التوراتيون أنها ذات صلة من قريب أو بعيد بالأحداث التوراتية؛ فإننا نعتقد على الوجه الأعم، بوجود استمرارية في المخلفات الأثرية، المنقولة وغير المنقولة، من القرن الثالث عشر وحتى العاشر قبل الميلاد. ويمكن ملاحظة ذلك في أشكال الآنية الفخارية ومخططات بعض المباني.

لقد حاول الباحثون الإسرائيليون والتوراتيون البحث عن أصل الإسرائيليين في المصادر والوثائق التاريخية المكتوبة، فتارة يربطونهم بالعابيرو الذين ورد ذكرهم في رسائل تل العمارنة المؤرخة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد، وفي أحيان أخرى بقبائل الشاسو البدوية التي سكنت جنوبي الأردن في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ولم يلق أي من هذين الرأيين إجماع الباحثين، والذين لم يبق أمامهم إلا القصص التوراتية. وبرأينا أن الإسرائيليين هم فرع من الشعوب التي سكنت بلاد الشام، مثل الآراميين، والعمونيين، والمؤابيين، والإدوميين. وهم جميعًا، في رأينا، أبناء عمومة، على اختلاف أطيافهم السياسية والعقائدية والاجتماعية.

المناهج المتبعة في دراسة التاريخ العبراني/ الإسرائيلي القديم

تعرضت فلسطين لموجات كبيرة من المسوحات والتنقيبات الأثرية انطلاقًا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الوقت الحاضر. ولا يخفى على أحد أن ذلك كان بدافع الربط بين الحدث التوراتي والمكان الفلسطيني؛ فجاء المنقبون، ومن وقف

خلفهم، إلى فلسطين حاملين المعول بيد والتوراة باليد الأخرى. لكن، وفي الآونة الأخيرة، خرج علينا بعض الباحثين، ومنهم من يعتنق اليهودية أو يتبناها، برأي ينادي بعدم اعتماد القصص التوراتية أساسًا لدراسة التاريخ اليهودي القديم، لأنها كتبت في فترة متأخرة جدًا عن نزولها على سيدنا موسى عليه السلام. وفي نظرنا، أن كلتا المدرستين، وإن اختلفت منهجيتهما، فإنهما تسعيان لخدمة الهدف الصهيوني المعلن، وهو "الحق التاريخي لليهود في فلسطين". وفيما يلي نقدم موجزًا للمناهج التي اتبعها كل من التوراتيين التقليديين، والتوراتيين المحدثين.

1. المنهج التوراتي التقليدي

أنشئ خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عدد من المدارس والمؤسسات الأوروبية والأمريكية بهدف تنظيم الأعمال الميدانية الأثرية في فلسطين وما جاورها من البلاد. وبالإضافة لتوفير المخصصات المادية والبشرية اللازمة، نجد أن تلك المدارس حددت أهدافها بتركيز التنقيبات الأثرية في مواقع ورد ذكرها في كتاب العهد القديم، فكانت تنقيبات القدس، وأريحا، وتل المتسلم (مجدو)، وتل وقاص (حاصور)، وتل الدوير (لخيش)، والتل (عاي)، وتل بيت مرسيم. وكي يستقيم الأمر، وجب على المنقبين اتباع منهج بحثي يساعد في تفسير اللقى الأثرية وربطها بالقصص التوراتية. ولتحقيق هذه الغاية، بحث كثير من المنقبين في تلك المواقع عن الطبقات المؤرخة للمرحلة الانتقالية بين نهاية العصور البرونزية وبداية العصور الحديدية (حوالي 1300 – 1100 قبل الميلاد)، والتي يعتقدون أنها دمرت على يد الإسرائيليين في أثناء احتلالهم لها من أهلها الكنعانيين. وتزعم هذه المدرسة الأمريكي وليم ألبرايت الذي أشرف على تنقيبات تل بيت مرسيم، تبعه تلميذه جورج إرنست رايت، الذي نقب في موقع بلاطة.

لكن بعض الآثاريين الأوروبيين، مثل مارتن نوت (Noth 1971) ورونالد دي فو (De Vaux 1970)، نبهوا إلى خطورة تفسير المكتشفات الأثرية اعتمادًا على الروايات التوراتية.

وتقسم المدرسة التقليدية تاريخ إسرائيل إلى عدة فترات هي: فترة الآباء، تليها فترة الإقامة المؤقتة في مصر، والخروج منها، والتيه، وآخرها احتلال فلسطين من أهلها الكنعانيين، ثم المملكة الموحدة، وتاريخ مملكتي إسرائيل ويهوذا (Lemche 1992b: 530). لذا، جاءت دراساتهم جميعها مقسمة على هذا النحو، مستندة إلى أن أصل

العبرانيين/الإسرائيليين الأوائل كان مصريًا، وأنهم خرجوا من مصر إلى فلسطين، الأرض التي وعدهم بها إلههم يهوه.

وبتقدم العلوم البحتة واستخدام تطبيقاتها في تفسير اللقى والظواهر الأثرية، ظهر التناقض الواضح بين النص التوراتي وكثير من نتائج التنقيبات التي أجريت في مواقع ذكرتها التوراة؛ فأصبح من الصعب على كثير من الباحثين، ومنهم بعض اليهود الاستمرار في اتباع هذا المنهج التقليدي.

2. المنهج التوراتي المحدث/ الجديد

مع أواخر سبعينات القرن الفائت، وجد كثير من الباحثين أن الاعتماد على دراسة كتاب العهد القديم كمصدر أساسي ووحيد لفهم تاريخ إسرائيل القديمة لا يجدي نفعًا. لذا، بدأ عدد منهم بالدعوة لاتباع منهج جديد لدراسة تاريخ الإسرائيليين، ووقف إلى جانب هذا الرأي عدد من الباحثين الإسرائيليين، وعلى رأسهم إسرائيل فنكلشتاين. وقد دفع هذا الأمر الباحثين التوراتيين التقليديين (Maximalists، وهم الذين يعلون من شأن التوراة لدى دراستهم للتاريخ القديم) إلى وصف التوراتيين المحدثين بأنهم "معدّلون" أو "تعديليون" (Revisionists أو Minimalists)، (أو تفكيكيون ومحرفون وراديكاليون بحسب ترجمة محمود أبو طالب 2006: 167). وكانت تسمية الراديكاليين قد أطلقت على الألمان والفرنسيين المعارضين للمنهج التوراتي التقليدي (Lemche 1998: 58). ومن الجدير بالذكر، أنه وعلى الرغم من أن منتسبي هذا المنهج يدعون بأنهم خرجوا على المنهج التوراتي، إلا أننا نرى غير ذلك؛ فصحيح أنهم لا يرون في العهد القديم مصدرًا تاريخيًا أساسيًا، وأن الأسفار الخمسة الأولى صيغت في بابل، وكتبت بعد العودة من السبي، أي في وقت متأخر جدًا عن نزول التوراة على سيدنا موسى؛ إلا أنهم ما انفكوا يسمون فلسطين باسم "الأرض الموعودة". وإذا كان زئيف هيرتزوغ Ze'ev Herzog، وغيره من التوراتيين المحدثين، يرون زيف ادعاءات الصهيونية بحقها في أرض فلسطين، فلماذا لا يتركوها ويعودوا من حيث أتوا؟

وحقيقة الأمر أن منهج البحث الذي اتبعه التوراتيون التقليديون، والذي يقوم على استنطاق المكتشفات الأثرية واستخدامها في تفسير الأحداث والروايات التوراتية، قد تحقق فشله، لذا قام التوراتيون المحدثون باتباع منهج آخر. وفي نظرنا أن إسرائيل

فنكلشتاين هو من بدأ الخطوة الأولى بهذا الاتجاه، إذ قام بعد حرب عام 1967 بإجراء مسوحات أثرية في منطقة مدينة رام الله، في محاولة منه للعثور على أماكن الاستقرار اليهودية (Finkelstein 1988)، إذ تقول أسفار العهد القديم إن الاستقرار في جنوبي بلاد الشام تحول خلال نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد (أي زمن الخروج) من المدينة إلى القرية والمخيم، وأن الناس تحولوا من سكان مدن إلى بداة ورعاة، أي أنصاف مستقرين. لذا نجد أن أصحاب هذه المدرسة يبحثون عن مواقع ينطبق عليها ذلك الوصف التوراتي، وهو المنهج ذاته الذي يحاول التوراتيون المحدثون اتباعه في الوقت الحاضر؛ فهل اختلفوا عن التوراتيين التقليديين في أهدافهم؟

- تاريخ الإسرائيليين

كان كتاب العهد القديم، ولا يزال لدى بعضهم، الأساس لدراسة تاريخ العبرانيين ودولة شاؤول الإسرائيلية، ودولتي إسرائيل ويهوذا. وبعد أن تبين لعدد من الباحثين أن هذا المنهج غير كافٍ، قرروا أنه لإثبات صحة الروايات التوراتية لا بد من الاعتماد على إجراء تنقيبات أثرية. وحيث أن دولة إسرائيل الأولى قامت فوق الجزء الجنوبي الغربي لبلاد الشام، فإنها كانت على الدوام على تماس بالأحداث التي كانت تجري في مصر وبلاد الرافدين، ولهذا نجد أن المصادر التاريخية والوثائق المكتوبة القديمة جاءت على ذكر هذه المملكة وملوكها والحروب التي شنت ضدها. وتتوزع تلك المصادر في:

- المصادر المصرية.
- المصادر الرافدية.
- النقوش والكتابات المحلية.

ونقدم تاليًا شرحًا موجزًا عن كلٍ من هذه المصادر:

3. المصادر المصرية

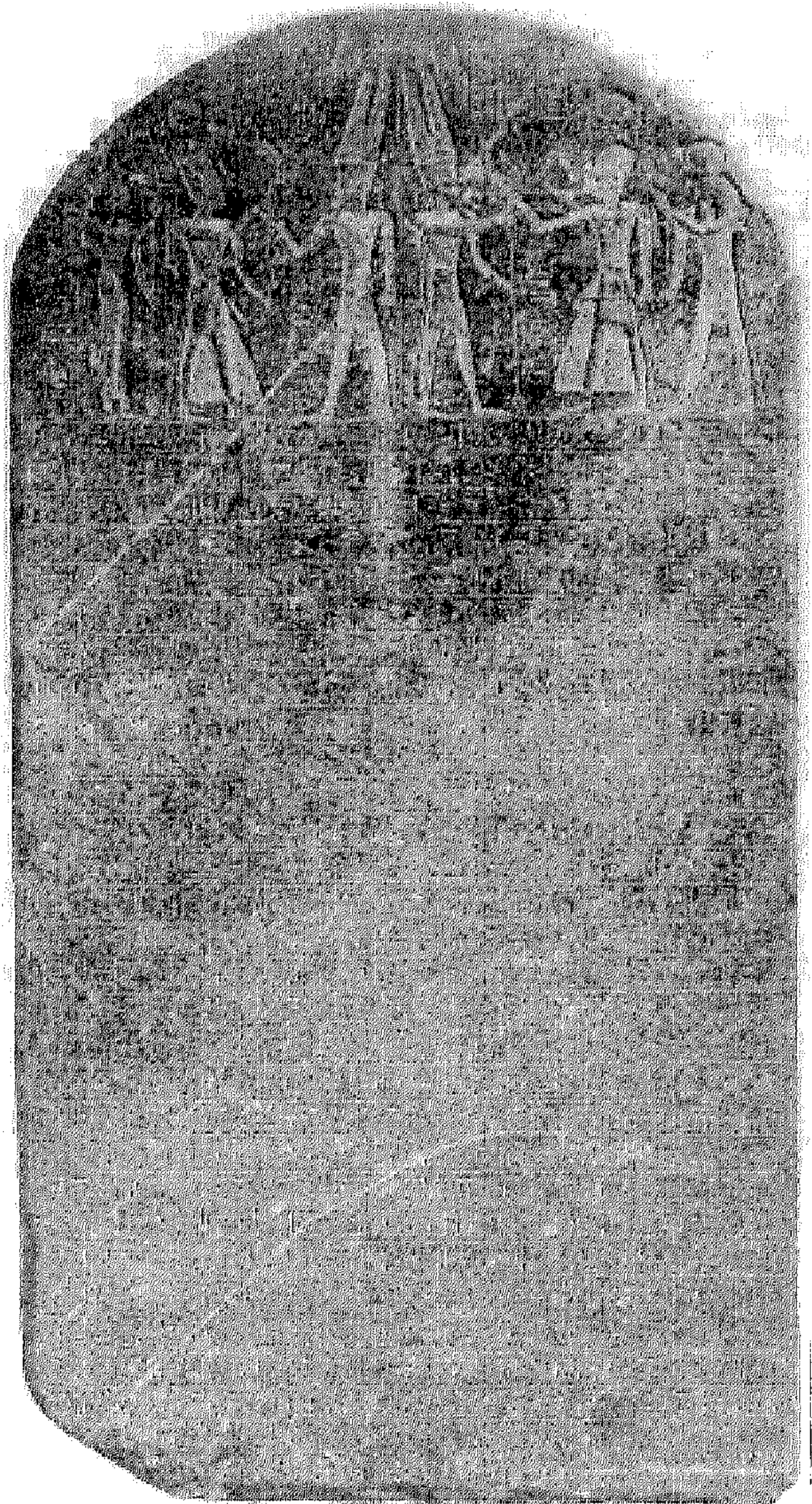
يحادد كل من مصر وفلسطين بعضهما بعضًا، حيث نتجت عن ذلك علاقات قوية بينهما، لا سيما في النواحي التجارية. ومن المعلوم أن فلسطين، خلال العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550-1200 قبل الميلاد)، شكلت جزءًا من أملاك الإمبراطورية

الفرعونية في منطقة غربي آسيا. وعلى الرغم من هذا، فإن المصادر المصرية المؤرخة للعصر الحديدي لم تتحدث لا من قريب أو بعيد عن مملكة إسرائيل الأولى ولا عن مملكتي إسرائيل ويهوذا، بالاسم، علمًا أنها ذكرت أسماء بعض المدن الواقعة فيها. وعلى أية حال، فإن أقدم ذكر لهذه المنطقة، خلال هذه الفترة، جاء من زمن الفرعون المصري شيشنق (حوالي 945 – 924 قبل الميلاد) ذي الأصول الليبية، إذ يعدد أسماء المدن الآسيوية التي تغلب عليها في حملة قام بها على منطقة جنوبي بلاد الشام (Simons 1937; Hermann 1964).

وإذا ما عدنا للفترة التي سبقت العصر الحديدي مباشرة، أي العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550 -1200 قبل الميلاد)، نجد أن الباحث الألماني فيلهلم شبيغلبيرغ Wilhelm Spiegelberg نشر في عام 1896 نقشًا يخلد انتصارات الفرعون المصري مرنبتاح (1213-1204 قبل الميلاد) على الليبيين (الشكل 94) (Spiegelberg 1896). وتحوي الأسطر الأخيرة في النقش معلومات عن حملات هذا الفرعون على منطقة جنوب غربي آسيا. ومن ضمن المعلومات الواردة في هذا النقش كما فسرها بعض الباحثين ذكر لإسرائيل شعبًا، وليس أرضًا (Wilson 1969: 378). وقد ربط بعض العلماء بين هذا النص وحادثة الخروج من مصر، وحيث أن المعلومة الواردة تقول إن الحملة على ليبيا حدثت في السنة الخامسة من حكم مرنبتاح، فإنهم يرون أن الخروج كان في عام 1225 قبل الميلاد. ويرى آخرون أن المعلومات الواردة في هذه المسلة ما هي إلا معلومات عن جماعات عاشت في المنطقة خلال نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لا أكثر ولا أقل. كما يشكك هؤلاء بمصداقية حدوث حملة عسكرية قام بها مرنبتاح في هذا الوقت على آسيا، لأن الأسطر التي تتحدث حول الموضوع جاءت على شكل حاشية للنص وليست ضمنه (Lemche 1998: 36)، أي أنها ربما أضيفت في وقت لاحق.

كذلك حاول بعض الباحثين الربط بين اسم عابيرو/خابيرو الذي ذكر في نصوص رسائل تل العمارنة (المؤرخة لبداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد) والعبرانيين (Loretz 1984). ويرفض كثير من العلماء هذا الربط كون أن اسم خابيرو وجد مذكورًا في سجلات حثية في آسيا الصغرى، وفي مدينة سوسة/عاصمة العيلاميين في بلاد فارس. أي أن الاسم بحسب تلك السجلات انتشر في منطقة أوسع من فلسطين، ولذا لا يمكن ربطهم بالعبرانيين (Lemche 1998: 59).

ويمكن القول إن المصادر المصرية المؤرخة للعصر الحديدي لا تأتي على ذكر مملكتي إسرائيل ويهوذا بالاسم. وهذا برأينا لا يعكس الحالة في فلسطين آنذاك، إذ تؤكد السجلات والوثائق الرافدية وجود هاتين المملكتين، لكنها تؤكد تراجع قوة مصر أمام القوة الآشورية في هذه المرحلة، وانكفاءها عن منطقة بلاد الشام.



الشكل 94: مسلة مرنبتاح
(عن Isserlin 2001)

1. المصادر الرافدية

من الملاحظ أن المصادر والوثائق التاريخية التي عثر عليها في بلاد الرافدين، سواء الآشورية أو البابلية، لم تأت غالبًا على ذكر دولة إسرائيل باسم "مملكة إسرائيل". وعندما تذكر يهوذا؛ فإنها تأتي على شكل "مملكة يهوذا"، وليس "بيت داوود". وقد نعتت الكتابات الآشورية إسرائيل باسم "بيت عَمري" أو السامرة. وثمة نص واحد من زمن الملك الآشوري شلمنصر الثالث (حوالي 858-823 قبل الميلاد) يصف فيه انتصاره على تحالف ملوك سورية وفلسطين ضده، ويذكر من بينهم الملك آحاب ملك إسرائيل، والذي تبرع بألفي عربة قتال وعشرة آلاف مقاتل راجل (ANET: 278-279). كما تذكر المسلة السوداء (الشكلان 95 و96) المؤرخة لسنة 830 قبل الميلاد اسم الملك يهوه بن عَمري من بين دافعي الجزيـة للملك شلمنصر الثالث (ANET: 280-281). ويظهر من هذا الأمر، انهيار تحالف الممالك الشامية في وجه القوة الآشورية بعد موت الملك آحاب.

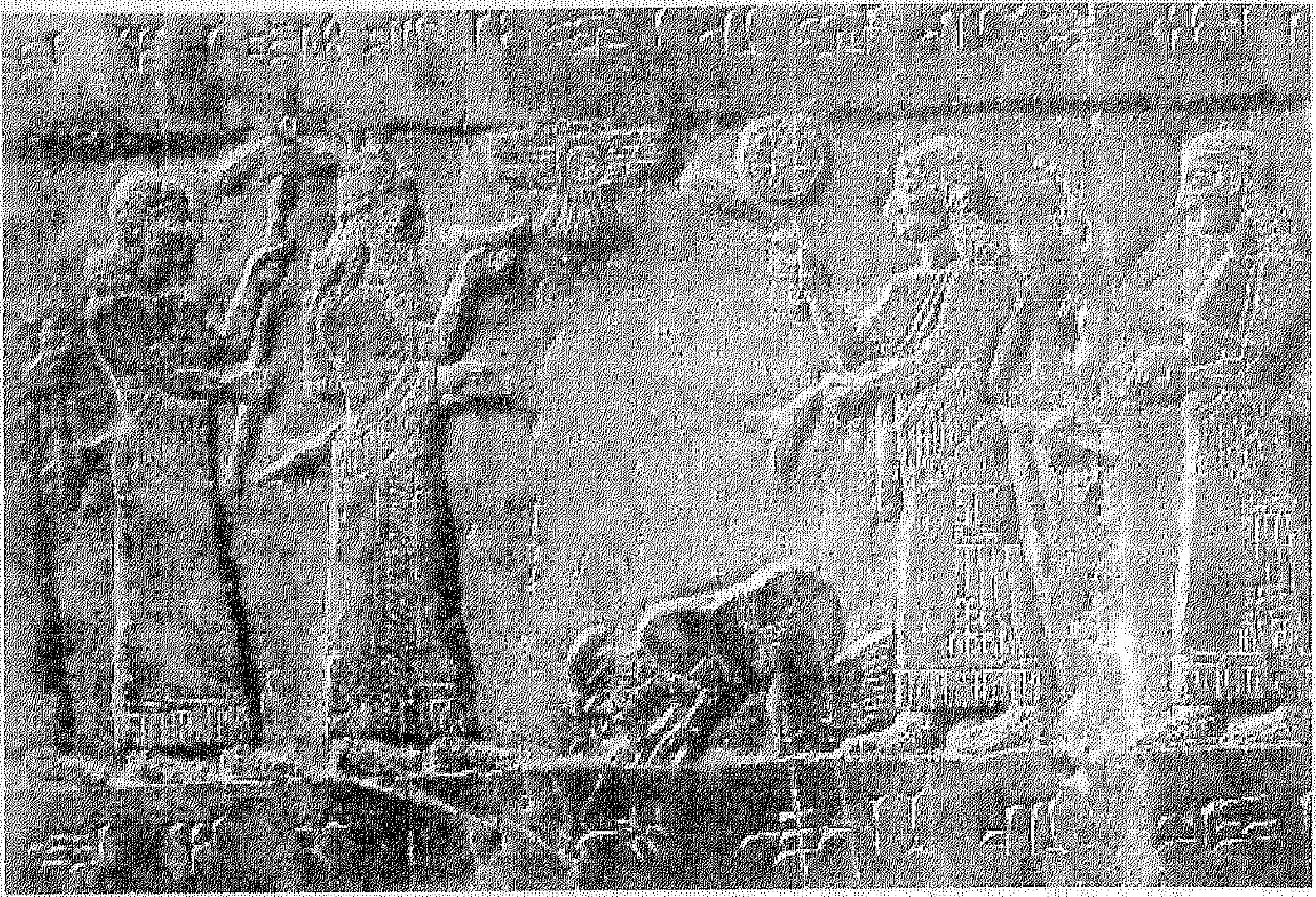
ثم نجد أن الملك الآشوري أدد- نيراري الثالث (810-783 قبل الميلاد) يذكر في حولياته اسم بيت عَمري بوصفه جزءًا من مملكتــه التي ضمت ممالك صـور وصيـدا وإدوم وفلسطين (Miller and Hayes 1986: 299). كما توالى ذكر السامرة وبيت عَمري في سجلات تيجلات بلاصر الثالث (744-727 قبل الميلاد). وبعد أن حكم سرجون الثاني في حوالي 721-705 قبل الميلاد، أطلق اسم السامرة على المملكة الشمالية، ونجده يفرق بين مملكة السامرة وبيت عَمري (ANET: 284-285). من هنا نتبين أن الآشوريين لم يسموا المملكة الشمالية باسم "إسرائيل" نهائيًا، وإنما بأرض "بيت عَمري"، وعاصمتها السامرة (Lemche 1998: 53). ولا بد من التنويه أن هذا يختلف عما ورد في مسلة الملك المؤابي ميشع، والذي أسمى مملكة آحاب بن عَمري باسم "إسرائيل".

أما فيما يتعلق بمملكة يهوذا في السجلات الرسمية الآشورية؛ فقد ورد اسم يهوذا وأسماء ملوكها بين أسماء الممالك والملوك الآخرين في سورية وكليكيا وفنيقيا وفلسطين والأردن. ونضرب مثالاً على هذا من زمن الملك الآشوري سنحاريب الذي حاصر القدس عام 701 قبل الميلاد، ووصف محاصرته للملك حزقيا في عاصمته أور-ساليمو Ur-salimmu بـ"عصفور في قفصه" (ANET: 282). وتوالى ذكر مملكة يهوذا في المصادر الآشورية بأنها دافعة للجزية، وبأن ملوكها عوملوا كغيرهم من ملوك الدول الأخرى المجاورة. وخلال حكم الدولة البابلية الحديثة "الكلدية"، نجد أن الملك

نبوخذنصر يذكر في سجلاته أنه حاصر مدينة يهوذا وتغلب عليها، ونهبها، ونصب عليها ملكًا مواليًا له (ANET: 564). ويمكن القول إن الآشوريين لم يولوا مملكة يهوذا أي اهتمام قبل حكم الملك تيجلات بلاصر الثالث، ربما لضعفها وعدم قدرتها على مجاراة الأحداث في المنطقة، على عكس السامرة. ومن الممكن الاستنتاج أن الوثائق والكتابات الآشورية والبابلية الحديثة لا تساعد كثيرًا في دراسة أحوال دولتي إسرائيل ويهوذا، إذ لم تشر هذه الوثائق إطلاقًا إلى التركيبة السكانية والعرقية لهاتين الدولتين.



الشكل 95: المسلة السوداء التي تسجل انتصار الملك الآشوري على ملك إسرائيل يهوه بن عَمري (عن Isserlin 2001)



الشكل 96: مقطع من المسلة السوداء، ربما يمثل الشخص الراكع الملك يهوه بن عَمري (عن Tubb 1998)

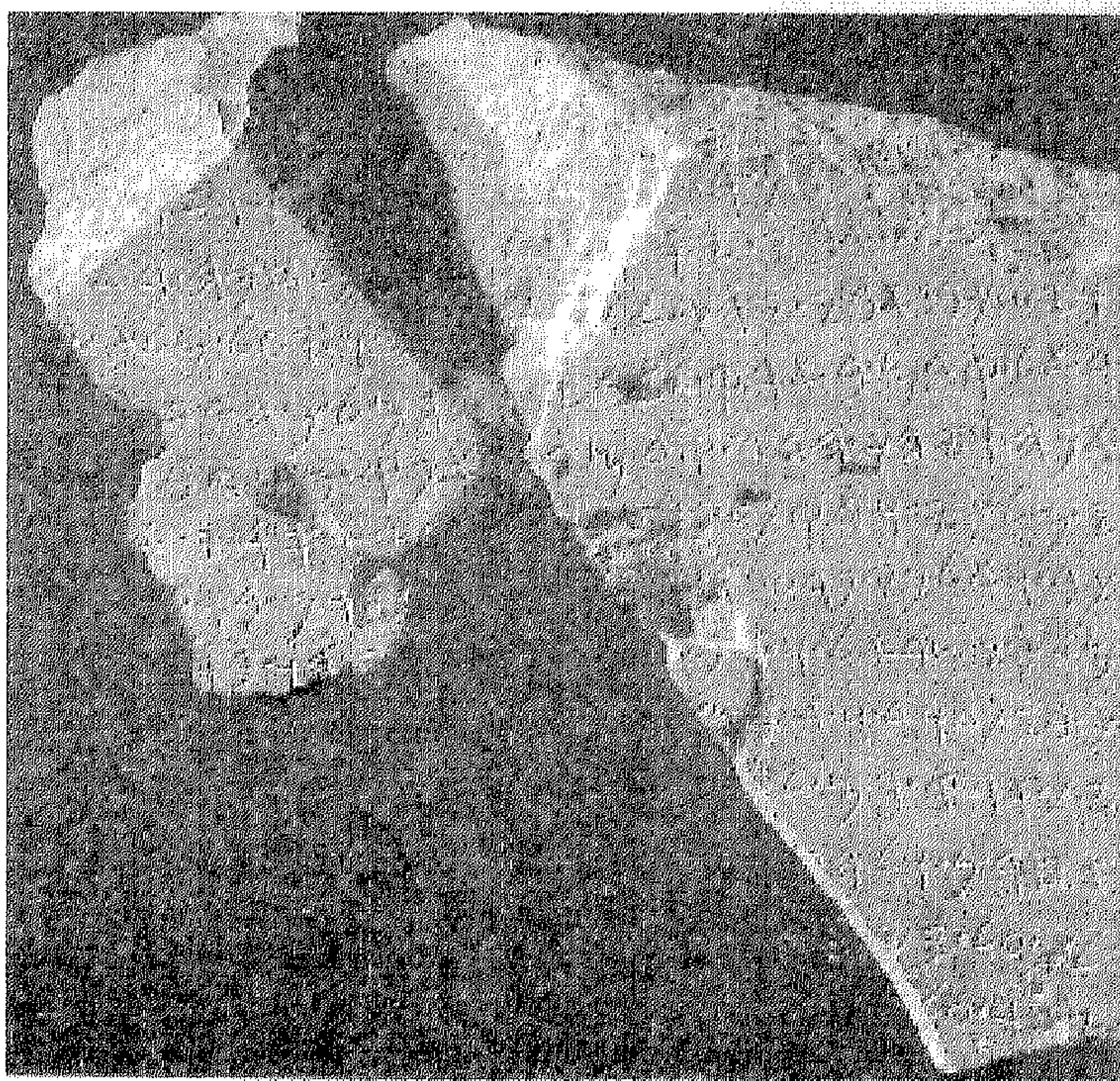
2. النقوش والكتابات المحلية

كشف خلال العقود المنصرمة عن عدد من النقوش ذات العلاقة بتاريخ إسرائيل والإسرائيليين القدماء. لكن المجال لا يتسع هنا للبحث في كل كسرة أو نص مكتوب بالعبرية. لذا سنقدم معلومات مختصرة عن أهمها، وهي: نقش تل القاضي (دان)، ومسلة الملك المؤابي ميشع التي عثر عليها في ذيبان في الأردن، ونقش سلوان من منطقة القدس.

يقع تل القاضي في أسفل المنحدر الجنوبي لجبل الشيخ في منطقة تربط جبال الجولان/سورية ومزارع شبعا/ لبنان وشمالي سهل الحولة في فلسطين. وكانت بعثة أثرية إسرائيلية بدأت التنقيب في التل عام 1966 بإشراف أفراهام بيران (Biran 1994). ومن أهم ما كشف عنه في هذا الموقع، ثلاث كسر تمثل أجزاء من مسلة بازلتية وجدت مكسَّرة. وكانت الكسرة الكبيرة أعيد استخدامها في بناء الوجه الخارجي لأحد أسوار المدينة بالقرب من البوابة الجنوبية، والمؤرخ لمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد.

يبلغ ارتفاع كسرة الحجر هذه 32سم، وأقصى عرض لها 22سم (الشكل 97). وكان عثر على الكسرة الكبيرة في موسم عام 1993، بينما عثر على الكسرتين الصغيرتين في عام 1994 (Biran and Naveh 1993; 1995). ولا يزال الجدل قائمًا بين الباحثين حول إذا ما كانت هذه الكسر الثلاث من مسلة واحدة، إذ يعتقد بعضهم أن الكسر الثلاث هي في الأصل من نقشين مختلفين (Lemche 1998: 39). وقد نقش النص على المسلة بالخط الآرامي، ويعتقد أن المسلة تنسب لأحد ملوك مملكة دمشق الآرامية، والذي حارب تحالف إسرائيل وبيت داوود (يهوذا) خلال القرن التاسع قبل الميلاد وانتصر عليهما.

ويذكر المختصون أن اللغة وشكل الخط هما من الآرامية المبكرة التي تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد. ومن الجدير بالذكر، أن الجزء المكتشف من النقش يحوي 13 سطرًا منقوشة بآلة معدنية ذات رأس حاد، وتفصل بين كل كلمة وأخرى نقطة. ويعتقد أن النقش على هذه المسلة أتى على ذكر اسم بيت داوود ومملكة إسرائيل. وعلى الرغم من محاولة بيران وجوزيف نافه Joseph Naveh تأريخ النقش لمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد، فإن من الباحثين من يشكك في تاريخ هذا النقش، بل يوجد بينهم من يشكك في أصالته (Lemche 1998: 41, 181).



الشكل 97: نقش تل القاضي/ فلسطين (عن Isserlin 2001)

ويعد نقش ميشع الذي عثر عليه في بلدة ذيبان في وسط الأردن من الوثائق التاريخية المؤرخة لمنتصف القرن التاسع التي أتت على ذكر إسرائيل. إذ تخلد المسلة التي كتب عليها النقش انتصارات الملك ميشع المؤابي على آحاب بن عَمري ملك إسرائيل. ويذكر النقش أيضًا أن الملك ميشع استطاع طرد المحتل الإسرائيلي من أرضه بعد احتلال دام أربعين عامًا. كما يذكر عددًا من أسماء الأعلام والأماكن والآلهة التي ورد ذكرها في التوراة (طوقان 1971).

وبالإضافة لهذين النقشين، عثر على عدد من الكسر الفخارية المكتوبة Ostraca، وعلى بعض الأختام وطبعات الأختام وكتابات أخرى تؤرخ بشكل خاص للعصر الحديدي الثاني. ومن أهمها تلك التي وجدت في مدينة سبسطية (السامرة)، والتي تؤرخ إلى القرن الثامن قبل الميلاد (Reisner et al. 1908-1910). وقد جاءت غالبية النصوص التي كتبت على هذه الكسر قصيرة، ولا تتضمن إلا أسماء بعض الملوك أو الآلهة، ولا تخرج عن نطاق الدوائر الرسمية. ويستثنى من ذلك نقش سلوان الذي يصف حفر النفق الواصل بين عين أم الدرج وبركة سلوان، إذ يذكر الكاتب كيف أن مجموعتين من العمال الذين كانوا يحفرون بداخل النفق سمعوا ضرب معاول بعضهم وهم يقتربون من إكمال فتح النفق (Donner and Röllig 1962-64). وينسب معظم الباحثين هذا النقش لزمن الملك حزقيال عندما هاجمه الملك الآشوري سنحاريب في حوالي 701 قبل الميلاد (Rogerson and Davies 1996). غير أن الباحث نيلس لمكه (Lemche 1998: 47) يعتقد أن تأريخ النقش لا يمكن البت به، نظرًا لغياب أية إثباتات علمية تدل على أنه كتب في زمن الملك حزقيال. كما يعتقد لمكه بأنه نقش احتفالي يجب أن يؤخذ كمصدر ثانوي لدى دراسة تاريخ دولة إسرائيل.

ويمكن القول إن المصادر المكتوبة القديمة لا تقدم معلومات مفصلة عن العبرانيين/الإسرائيليين، ولا تقدمهم كعرق منفصل. ولا يتعدى تاريخ إسرائيل الموحدة السبعين عامًا بكثير، كما أن مملكتي إسرائيل ويهوذا لم تعمرا طويلاً. وعلى أية حال، فإننا نرى أن الإسرائيليين الأوائل هم في الأصل من سكان بلاد الشام المحليين، وأن دورهم اقتصر على تأسيس دولة لهم في فلسطين، كما كان حال غيرها من دول المنطقة.

ج. الفنيقيون

يذكر بعض الباحثين أن الفنيقيين هاجروا مع الجماعات السامية الأخرى من الجزيرة العربية خلال منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (فرزات 2003: 163). وحدد آخرون مكان خروجهم بمملكة البحرين الحالية، على وجه التحديد، نظرًا للشبه بين مقابر عثر عليها هناك وغيرها في الساحل الفنيقي (قابلو وفرعون 2006: 220).

تقابل مفردة "الفنيقيون" اليونانية Phoinix أو Phoinikos، وتعني اللون الأحمر الداكن أو الأرجواني، إذ كان اللون الشائع للمنسوجات الفنيقية التي تاجروا بها مع البلدان الأخرى أو حتى دهنوا أنفسهم أو لونوا شعرهم به (Moscati 1997: 234; 1988; Markoe 2000: 10). وكان الشاعر الإغريقي هوميروس استخدم هذا الاسم في كتاباته (Muhly 1970) لذا نرى أن الفنيقيين لم يسموا أنفسهم بهذا الاسم، بل أطلقه عليهم الآخرون. لكننا نود أن نذكر أن سكان هذه المنطقة خلال العصور السابقة كانوا جزءًا من أرض كنعان وأن أهلها كانوا يسمون بالكنعانيين، فهل كان الفنيقيون من نسل الكنعانيين؟ أم أنهم الكنعانيون أنفسهم؟ أم أنهم جماعة عرقية أخرى؟ ولم يتفق العلماء على الإجابة عن هذا السؤال، وإن كان العالم الألماني ولفغانغ رولغ Wolfgang Röllig يرى أنه من الصعوبة تحديد عرق أو جنس الفنيقيين، علمًا أنه اقترح أن مكانهم الأصلي في الجزيرة العربية هو منطقة البحر الأحمر (Röllig 1983: 83).

وعلى الرغم مما ذكر، وصف الدارسون الفنيقيين بأنهم مخترعو الأبجدية، وتجار بحّارة، ومكتشفون، ومهندسون بارعون في بناء الموانئ البحرية، وفنانون موهوبون. وقد مدحهم الشاعر هوميروس في كتاباته، ووصف الصيداويين بالصنّاع المهرة.

ويتفق معظم الدارسين في أن فنيقيا خلال العصر الحديدي (حوالي 1200-332 قبل الميلاد) شملت جزءًا من الساحل السوري، والساحل اللبناني كله، وجزءًا من الساحل الفلسطيني، وأنها كانت تنحصر في شريط ضيق بين المرتفعات الجبلية في الشرق وساحل البحر المتوسط في الغرب، امتد من مدينة أرواد في الشمال وحتى جنوبي مدينة عكا في الجنوب (Ward 1997: 313). ولم تكن في فنيقيا دولة واحدة ذات عاصمة موحدة، بل ضمت عددًا من المدن المتنافسة، مثل أرواد وجبيل وصيدا وصور. وانعكس

هذا الأمر في معتقداتهم، إذ لم يعبد الفنيقيون إلهًا واحدًا، بل كانت لكل مدينة آلهتها الخاصة (Ward 1997: 316; Markoe 2000: 10).

ذكرنا سابقًا أن بلاد كنعان كانت خلال العصور البرونزية تشمل المنطقة التي يعدها بعض الباحثين فنيقيا، وأن مدنها كانت فنيقية بقدر ما هي كنعانية. لذا، ربما يختلط الأمر على القارئ فيما سنقدمه أدناه. ولتوضيح الأمر، نقول إن فنيقيا لم تأخذ هويتها السياسية إلا في العصر الحديدي، أي وقت ظهور دولة الأمة في بلاد الشام. وعلى الرغم من أن فنيقيا كانت تضم سلسلة من المدن المتناحرة سياسيًا، إلا أن عوامل ثقافية مشتركة قد جمعتها وصبغتها بهوية حضارية واحدة.

وفي رأينا أن طبيعة هذه المنطقة هي التي حددت طبيعة حياة الفنيقيين، فقد شكلت المرتفعات الجبلية حاجزًا بينها وبين منطقة الداخل في بلاد الشام. وكانت هذه المرتفعات مصدرًا أساسيًا للأخشاب التي شكلت البضاعة الرئيسة، حيث تكثر أشجار الأرز والصنوبر والسرو والسنديان. كما أن وقوع فنيقيا على الساحل جعل من أهلها أمة بحرية أبدعت في إنشاء الموانئ وبناء السفن. وقد ذاع صيت الفنيقيين في مختلف أصقاع العالم، نظرًا لدورهم المهم في الحضارة العالمية، وللانتشار الجغرافي الواسع الذي حققوه في منطقة حوض البحر المتوسط وخارجها على مدى فترة طويلة تزيد على الألف عام.

تاريخ الفنيقيين

لدراسة تاريخ الفنيقيين وآثارهم، لا بد من الرجوع لعدة مصادر أصلية إضافة للفنيقية، وهي: المصرية، والآشورية، والبابلية، واليونانية. أما المصادر الفنيقية؛ فتشمل اللقى الأثرية، والكتابات والنقوش الفنيقية التي نقشت على التماثيل والأعمال الفنية الأخرى، والتي تتحدث عن عدد من الموضوعات ذات الطابع الثقافي والديني والسياسي والتجارة الدولية خلال الألف الأول قبل الميلاد. وتضم النصوص الفنيقية المؤرخة للعصر الحديدي عددًا من النقوش الجنائزية القصيرة، أو تلك التي تخلد بناء أحد المعابد، أو تدوّن القيام بتصليحات فيها أو بترميم مبانيها (Ward 1997: 314).

أما الآثار الفنيقية في فنيقيا ذاتها؛ فإن ما كشف عنه لا يزال قليلاً، إذ بنيت المدن الحديثة مباشرة فوق المدن الفنيقية القديمة، الأمر الذي شكل صعوبة كبيرة في وصول

المنقبين والباحثين إليها. وعلى الرغم من النشاطات الأثرية التي جرت في عدد من مواقع فنيقيا الأم، مثل جبيل وصيدا وصور، إلا أنها لم تزودنا بالكثير من النصوص المكتوبة حول حضارة الفنيقيين (Markoe 1997: 324)، ربما لأن الفنيقيين كتبوا على ورق البردي، وحفظوا ما كتبوا في مكتبات خاصة، وعند تعرض هذه المدن للدمار والحريق- كما حصل لصور في لبنان على يد المكدونيين، ولقرطاجة في تونس على يد الرومان- حرقت معظم الوثائق المكتوبة، إن لم يكن جميعها.

ذكر الفنيقيون في المصادر المصرية في رسائل تل العمارنة المؤرخة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد، وفي قصة ونأمون المؤرخة للقرن الحادي عشر قبل الميلاد. كذلك ذكروا في المصادر اليونانية ابتداء من المايسينية، ومرورًا بسجلات هيرودتس، وانتهاءً بتقارير الرحالة والمؤرخين الأوائل. وذكر الفنيقيون، بشكل متقطع، في السجلات الآشورية والبابلية، لا سيما في حوليات الملوك الذين أخضعوا بعض المدن الفنيقية لسلطانهم.

كانت فنيقيا خلال منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد مقسمة إلى ثلاثة أقسام، هي:

1- القسم الجنوبي، ويشمل المنطقة الممتدة بين مدينتي عكا وبيروت، وتضم مدينتي صور وصيدا، وكان جزءًا من بلاد كنعان الخاضعة للمصريين.

2- المنطقة الداخلية والممتدة في المناطق الداخلية التي تشمل أجزاء من شمالي فلسطين بما فيها جبال الجليل، وسهل البقاع في لبنان، وسمتها المصادر المصرية باسم "آبو" Apu.

3- المنطقة الشمالية، وامتدت بين مدينتي جبيل وأرواد، ومركزها مدينة عكار وكانت تتبع مملكة أمورو التي شملت المنطقة بين ساحل البحر المتوسط ونهر العاصي. وسمى المصريون القدماء هذه المنطقة باسم "جاهي"، ربما لتمييزها عن المنطقة الجنوبية (Markoe 2000: 16).

ومن المستغرب أن أيًا من المدن الواقعة على الساحل الجنوبي من مدينة جبيل، مثل صيدا وصور، لم تحظ بأي اهتمام، ولم تذكر في النصوص التي كتبت في زمن الفرعون تحتموس الثالث. وأظهرت أعمال تنقيب تجريبية أجريت خلال السبعينات في مدينة صيدا، أن مدينة العصر البرونزي المبكر هجرت طوال العصر البرونزي المتوسط، ولم تسكن إلا في القرن السادس عشر قبل الميلاد. وهذا القول ينسحب على موقع مدينة صرفند الواقعة إلى الشمال من صيدا.

وبينت السجلات المصرية المؤرخة للعصر البرونزي المتأخر مدى الأهمية الاقتصادية لتجارة القصدير والنحاس في منطقة شرقي حوض البحر الأبيض المتوسط خلال هذه الفترة. فقد صدرت إلى مصر خلال فترة حكم الفرعون تحتموس الثالث كميات كبيرة من النحاس، خاصة القبرصي، عبر الموانئ الفنيقية/الكنعانية. وتشهد على هذا رسائل تل العمارنة من الفترات اللاحقة لحكم تحتموس الثالث. كذلك عثر في عدد من الموانئ، مثل عكا وصيدا وصرفند، على كميات كبيرة من الآنية الفخارية القبرصية. وساعد تنامي قوة الدولة الحديثة في مصر على خلق أسواق تجارية أوسع لتجارة خشب الأرز من لبنان إلى الدول الأخرى، خاصة إذا ما علمنا أن أخشاب الأرز كانت تستخدم في بناء المعابد والتوابيت في مصر القديمة. وهذا انعكس بطبيعة الحال على الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به موانئ الساحل الفنيقي إذ ذاك.

واختلف الحال مع نهاية حكم الأسرة الثامنة عشرة وتولي الأسرة التاسعة عشرة الحكم، حيث سيطر الحثيون على شمالي كنعان/فنيقيا، أي المنطقة الممتدة بين مدينتي رأس شمرا وجبيل. لكن المنطقة الجنوبية (من عكا إلى شمالي صور) بقيت تخضع للمصريين، لا سيما بعد قيام الفرعون سيتي الأول بتجريد عدد من الحملات العسكرية عليها. ويبدو أن هذا التقسيم ثبت بعد المعاهدة الموقعة بين مصر وحاتاي، حيث نصب الفرعون المصري رمسيس الثاني مسلته على نهر الكلب.

ويبدو أن تجارة فنيقيا مع قبرص تراجعت خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد عن القرن السابق، بدلالة تراجع أعداد الآنية الفخارية المستوردة إلى المدن الكنعانية/ الفنيقية خلال هذه الفترة. وعوضًا عنها بدأت الآنية الفخارية المايسينية/ الإغريقية بالظهور بكميات كبيرة كما هو الحال في موقع صرفند. ومع بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد وتدمير الإمبراطوريتين المصرية والحثية، أفسح المجال للمدن الفنيقية أن تبرز على الساحة في المنطقة. وتؤكد المصادر التاريخية المكتوبة من بلاد الرافدين ومصر أن مدن صور وصيدا وصرفند وجبيل وأرواد ازدهرت خلال الفترة بين حوالي 1200-1000 قبل الميلاد (Markoe 2000: 314). وربما حصل ذلك بسبب حالة الفوضى التي عانت منها مصر في تلك الفترة، إضافة لانقطاع طرق التجارة بين بلاد اليونان وبلاد حوض البحر المتوسط الأخرى، واستقرار شعوب البحر في منطقة جنوبي الساحل الفلسطيني.

تراجعت التجارة الفنيقية الداخلية خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، زمن الفرعون المصري رمسيس الرابع (حوالي 1153-1147 قبل الميلاد)، وانحدرت الأسواق التجارية واختفت الطرق التجارية، وهكذا كان الوضع في بلاد الرافدين. وأدى تراجع القوة الآشورية، والقضاء على الإمبراطورية الحثية إلى تراجع طرق التجارة التي تعبر حوض الفرات، كما وقعت هذه الطرق تحت سيطرة القبائل الآرامية البدوية. وأفضل مثال على هذا، موقع كامد اللوز في البقاع، والذي كان محطة تجارية ومركزًا تجاريًا مهمًا خلال العصر البرونزي المتأخر، لكنه تراجع في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. كذلك كان حال تل وقاص في شمالي فلسطين.

وبطبيعة الحال، أدت الأسباب المذكورة إلى تراجع الأهمية التجارية للموانئ الفنيقية مثل صور وصيدا. لكن، رب ضارة نافعة، إذ إن تدمير مدينة رأس شمرا مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، والتي كانت الميناء الرئيسي والمحطة التجارية المهمة التي تنقل من خلالها البضائع بواسطة البر والبحر إلى بلدان حوض البحر المتوسط، مثل قبرص وبلاد الإغريق من جهة، وبلاد الشرق الأدنى القديم من جهة أخرى، فسح المجال للموانئ الفنيقية لتأخذ الدور نفسه الذي كان لرأس شمرا، فتعود للساحة التجارية مرة أخرى.

ولا يزال الغموض يكتنف عودة المدن الفنيقية للظهور خلال منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد، سواء من الناحية الأثرية أو التاريخية. وقد حصلنا على أولى المعلومات عن هذه المرحلة من نص كتب زمن الملك الآشوري تيجلات بلاصر (حوالي 1114-1076 قبل الميلاد) يذكر فيه أنه جرد حملة في العام الخامس من حكمه للحصول على خشب الأرز لترميم معبد الإله آنو هدد في آشور. تبع هذه الحملة فرض الجزية على عدد من المدن الفنيقية، منها جبيل وصيدا وأرواد. كما ذكرت مدينة جبيل في السجلات الفرعونية المؤرخة للقرن الحادي عشر قبل الميلاد (زمن الفرعون رمسيس الحادي عشر)، إذ تظهر قصة ونأمون أنه لقي معاملة طيبة من الملك زكر بعل ملك جبيل، مما يدل على أن المدينة لم تعد خاضعة للفراعنة. وتزودنا هذه القصة بفكرة عن الأحوال التجارية في تلك الفترة فلم يعد الخشب يهدى للفرعون، بل يشترى له (Markoe 2000: 27).

وأثبتت التنقيبات الأثرية التي أجريت في مينائي كيتون وإنكومي على الساحل الشرقي لقبرص وجود علاقات تجارية مزدهرة مع فنيقيا خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأن سكان كلتا المدينتين خلال هذه الفترة برعوا في الصناعات النحاسية التي صدرت

إلى بلدان حوض البحر المتوسط، خاصة بلاد الشام. وتظهر العلاقات القوية التي كانت قائمة بين قبرص وبلدان ساحل البحر المتوسط الشرقي بوضوح من خلال طرق العبادة والعمارة الدينية التي اتبعت في هاتين المدينتين القبرصيتين، إضافة لاستيرادهما الآنية الفخارية من بلاد الشام. وربما جاء هذا التواصل التجاري والحضاري نتيجة لتأسيس شعوب البحر دولة لهم على الجزء الجنوبي للساحل الفلسطيني خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد. لذا كانت مدنهم، مثل عسقلان وأسدود وتل القصيلة، محصنة، وفاعلة في التجارة البرية والبحرية. فقد ارتبطت هذه المدن مع مثيلاتها في قبرص وفنيقيا بعلاقات تجارية قوية، وحلت المدن الفنيقية مكان مدينة رأس شمرا في تجارة حوض البحر المتوسط مع البلدان الواقعة إلى شرقيه.

دخل الفنيقيون بحلول منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وكما تدل الآثار المكتشفة، مرحلة تجارية نشطة، ووسعوا نشاطاتهم التجارية التي وضعت الأساس لتوسعهم التجاري خلال الألف الأول قبل الميلاد. وكانت الآنية الفخارية ذات اللونين الأحمر والأسود من أهم البضائع التي صدرت من فنيقيا إلى الخارج. وشهدت مدينة صيدا إعادة بناء الجدران والمباني المتهدمة خلال الفترات السابقة. كذلك كان حال صور وصرفند حيث خططت الشوارع، والمباني المنشأة من الحجر المدقوق. وتبين المكتشفات الأثرية أن نشاطًا تجاريًا ملحوظًا شهدته المنطقة الممتدة بين مدينة صيدا شمالاً وحتى جبال الجليل بشمالي فلسطين. ونتيجة لهذا، وخلال القرن الحادي عشر قبل الميلاد، دخلت موجات من الفنيقيين شمالي فلسطين. وتظهر النصوص أن مدينة صيدا كانت المنطلق لهذه الموجات، وأنها كانت في تلك الفترة المدينة الساحلية الأولى.

مع نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد، بدأ ميزان القوى يميل لصالح مدينة صور على حساب صيدا. وبدأت قبرص باستيراد الفخار الفنيقي، وأصبحت تجارته رائجة حيث وصل إلى مناطق بعيدة في جنوبي قبرص وغربيها. وعاد الفخار القبرصي للظهور من جديد في الموانئ الفنيقية، مثل صور وصرفند. ووصلت تجارة الفخار الفنيقي خلال منتصف القرن العاشر قبل الميلاد إلى أبعد من قبرص حتى دخلت جزيرة كريت. وقد عثر في كنسوس على زبدية برونزية عليها نقش فنيقي، أرخت لحوالي 900 قبل الميلاد (Markoe 2000: 33)، مما يدل على تواجد الفنيقيين في كريت بدءًا من ذلك التاريخ.

ويبدو أن تجارة مدينة صور، خاصة البحرية، ازدهرت كثيرًا في زمن ملكها أحيرام الأول (حوالي 971 -939 قبل الميلاد). ويقول التوراتيون، اعتمادًا على النص التوراتي، إن الفنيقيين الصوريين هم من ساعدوا الملك سليمان في بناء ميناء له على خليج العقبة. ويبدو أن علاقة جيدة ربطت بين الملك داوود، ملك مملكة إسرائيل الفلسطينية، بالملك أبي-بعل والد الملك أحيرام الأول. لكن لا بد من التذكير أن داوود، وبحسب الروايات التوراتية، سيطر على منطقة فنيقيا الجنوبية (عكا والجليل)، فأصبح بهذا على حدود صور الفنيقية، ويهددها. وربما، اتقاء لشره، قام ملك صور بإرسال الهدايا له لاستمالته. لكن لا بد لنا من التساؤل: إذا كانت الروايات التوراتية صحيحة، فلماذا لم تقم بين البلدين حالة من العداء والحرب نتيجة لاحتلال داوود لأراضي فنيقية؟ إلا أننا نستدرك بالقول إن السبب وراء حالة السلم والتحالف هذه، إن كانت حصلت، ينحصر في أمرين هما:

- إن ظهور الدول الآرامية في المنطقة المجاورة لهما قد هدد أمن البلدين.

- إن سيطرة مملكة إسرائيل على عدد من الدول الآرامية الصغيرة، مثل آبل القمح (آبل مَعْكة) الواقعة جنوبي جبل الشيخ، تسهل على تجار وأهل صور الفنيقيين الوصول إلى نهر الأردن، والدخول عبر وادي الأردن إلى شرقيه، ومن ثم إلى الجزيرة العربية، وبذا تفتح لهم أسواق تجارية جديدة. وقد كشفت التنقيبات الأثرية في موقعي تل القاضي وتل وقاص عن عدد كبير من الآنية الفخارية الفنيقية.

إن الحديث حول طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين الفنيقيين والدول الآرامية خلال القرن العاشر قبل الميلاد لا تزال محض تكهنات، نظرًا لغياب الشواهد والوثائق المكتوبة. إلا أنه يمكننا التكهن بأن الأحوال التجارية للمدن الفنيقية، صيدا وجبيل وأرواد، ربما تراجعت خلال هذه الفترة بسبب خضوع المنطقة المحيطة بهذه المدن لسيطرة الدول الآرامية، والتي سيطرت بدورها على الطرق التجارية التي ربطت سواحل البحر المتوسط ببلاد الرافدين وغيرها من بلدان الشرق الأدنى القديم.

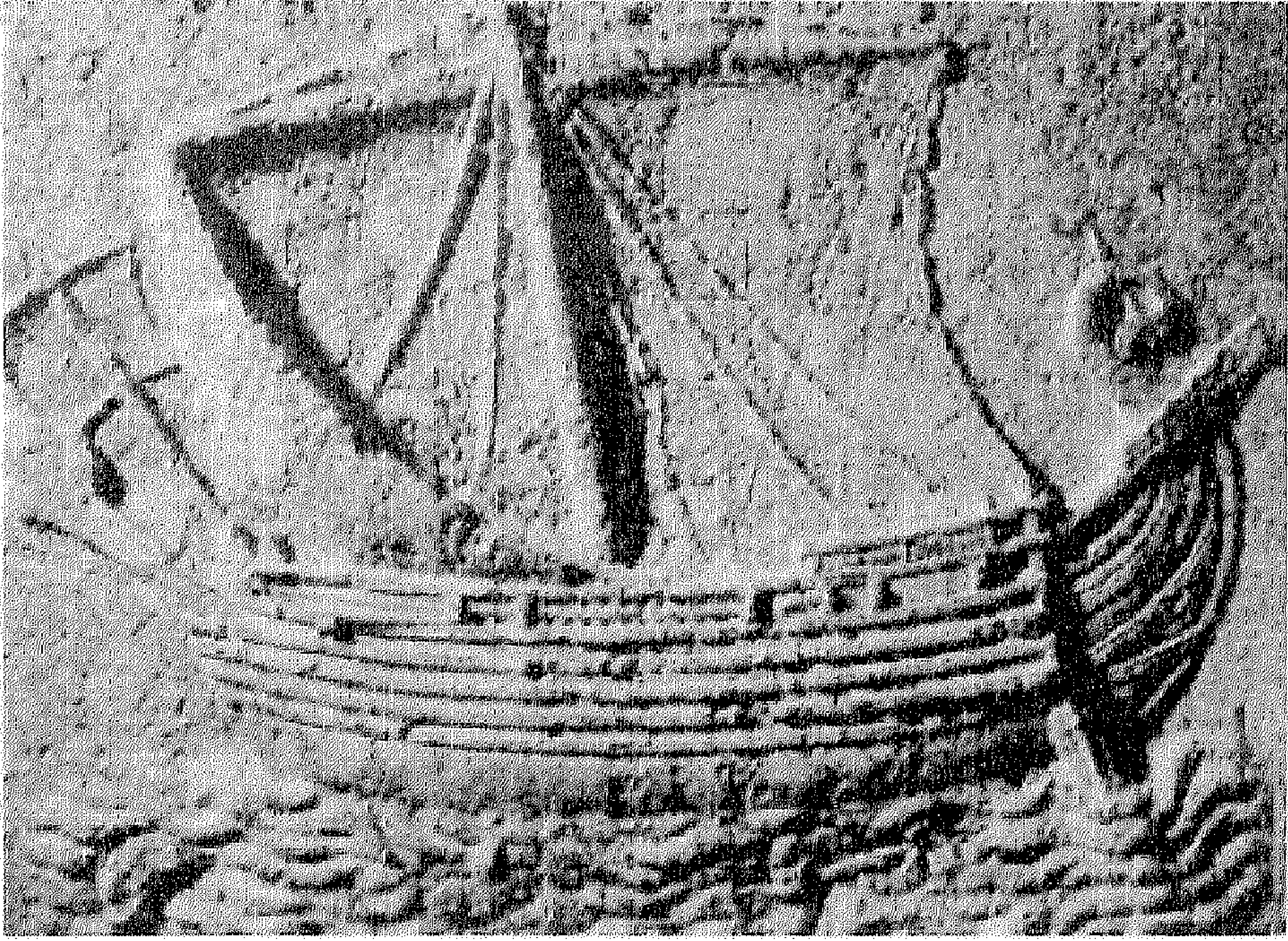
وكان النصف الثاني من القرن العاشر قبل الميلاد شهد تطورًا في الأحوال التجارية والعسكرية في كل من مصر وآشور، حيث نفض هذان البلدان عن نفسيهما الغبار، وعادا إلى ساحة الدول المؤثرة في الشرق الأدنى القديم. فمثلاً، قام الملك آشور-دان الثاني (حوالي 934-912 قبل الميلاد) بعد توليه الحكم في آشور بتجريد عدة حملات على

الممالك الآرامية في محاولة لإعادة السيطرة على المناطق والطرق التجارية التي سيطرت عليها هذه الممالك. وتبعه بهذا الملكان أدد- نيراري الثاني (911-891 قبل الميلاد)، وآشور ناصر بال الثاني (883 -859 قبل الميلاد) (Ward 1997: 314).

أما في مصر؛ فقد اعتلى الحكم الفرعون شيشنق الأول (945-924 قبل الميلاد) مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (الأسرة الليبية)، والذي أعاد وحدة مصر العليا والسفلى، وأعاد فتح الطرق التجارية مع بلاد النوبة للمرة الأولى بعد انتهاء حكم الأسرة العشرين. وقام شيشنق بشن هجوم على مملكتي يهوذا وإسرائيل، وحاصر القدس، لكنه لم يدمرها ووصل بحملته إلى سهل مرج ابن عامر.

شهد القرن التاسع قبل الميلاد توسعًا في تجارة صور، لا سيما في زمن حكم الملك إتو-بعل الأول (حوالي 887- 856 قبل الميلاد) وخلفائه من الملوك، إذ بني ميناء جديد في الجزء الجنوبي للمدينة سمي "الميناء المصري"، وهذا يشير إلى استئناف التبادل التجاري مع مصر. كذلك يبدو أن تجارة فنيقيا وصلت إلى جنوبي بلاد الأناضول، حيث وجدت آثارها في لواء الإسكندرونة وكليكيا في تركيا الحالية على الساحل الشمالي للبحر المتوسط. وأصبح ميناء طرسوس مكان رسو القوارب والسفن الفنيقية المحملة بالبضائع إلى منطقة جبال طوروس ومحيطها (الشكل 98). وعادت العلاقة الحميمة بين صور ومملكة إسرائيل لسابق عهدها، والتي عززتها المصاهرة بين المملكتين، حينما تزوج ملك إسرائيل آحاب (874- 853 قبل الميلاد) من اليصابات Jezebel ابنة ملك صور إتو-بعل. كذلك حاول ملك صور تحسين العلاقة والتحالف مع مملكة دمشق الآرامية وحاولت مملكتا إسرائيل ويهوذا الفلسطينيتين التحالف مع بن-حدد ملك آرام-دمشق. ومن المعلوم أن ملك دمشق هاجم مدن مملكة إسرائيل التي كانت واقعة على الخط التجاري الواصل بين صور على الساحل ودمشق في الداخل مرورًا بمنطقة سهل البقاع اللبناني (Markoe 2000: 37-39). ويبدو أن إتو-بعل أسس عددًا من المستعمرات الفنيقية داخل البلاد مثل البترون شمالي مدينة جبيل في لبنان، وخارجها مثل عزّا Auza على الساحل الليبي، وقرطاجة في تونس.

أما العلاقات بين فنيقيا وآشور؛ فكانت تحكمها علاقة الضعيف بالقوي، إذ قدم الفنيقيون خامات النحاس وآنية نحاسية وغيرها هدايا إلى الملك الآشوري آشور بنيبال الثاني (حوالي 883- 859 قبل الميلاد) خلال زيارته لمنطقة ساحل المتوسط الشرقي عام



الشكل 98: نحت لسفينة فنيقية

870 قبل الميلاد. وكان الملك الآشوري قصد المنطقة؛ فزار مدينة كركميش بهدف استطلاع إمكانية استئناف العلاقات التجارية بين المنطقتين. لكن ابنه شلمنصر الثالث (حوالي 858-824 قبل الميلاد) جرد حملة عسكرية ضد شمالي سورية وجنوبي الأناضول فارضًا الجزية على جميع الممالك بما فيها الفنيقية.

لكن فنيقيا شهدت خلال نهاية القرن التاسع وبداية الثامن قبل الميلاد حرية تامة في جميع النواحي السياسية والتجارية. ويبدو أنه مع ظهور مملكة أورارتو بجنوبي بلاد الأناضول، التفت الآشوريون لهذا الخطر الجديد، فتركوا لفنيقيا العنان وحرية التجارة. وأما مصر؛ فكانت خلال حكم الأسرة الثانية والعشرين مقسمة إلى قسمين: الشمال وتحكمه الأسرة الليبية، والجنوب في طيبة، ويحكمها الكهنة. وقد أتاح هذا الأمر أيضًا، المجال لملكة دمشق الآرامية للنهوض والتمتع بنوع من الاستقلال والحرية. كما وصلت مملكة دمشق الآرامية خلال نهاية القرن التاسع قبل الميلاد إلى قمة ازدهارها. وتمتعت خلال هذه الفترة بعلاقات تجارية مع فنيقيا، نظرًا إلى وقوع منطقة شمال شرقي

الأردن خلال هذه الفترة تحت سيطرة آرام-دمشق، مما وفر لها نافذة على الجزيرة العربية، فاستفادت من عاملين، هما:

- الوصول إلى طريق البخور القادم من اليمن إلى جنوبي بلاد الشام عبر الجزيرة العربية.

- حصول مملكة صور الفنيقية، عن طريق مملكة آرام-دمشق، على صوف الأغنام المتوافر بكثرة لدى القبائل الرعوية العربية الموجودة في بادية الشام والجزيرة العربية.

لكن الوضع اختلف مع بداية القرن الثامن قبل الميلاد، إذ ضعفت مملكة آرام-دمشق نتيجة للهجوم المتكرر عليها من قبل الملك الآشوري أدد-نيراري الثالث (حوالي 810- 783 قبل الميلاد)، مما أدى إلى استفادة مملكة إسرائيل من هذا، وقيامها باحتلال أجزاء من شرقي الأردن في زمن الملك يربعام الثاني (حوالي 782-753 قبل الميلاد)، والذي كانت قد فقدته في السابق لحساب مملكة دمشق الآرامية. ونتيجة لهذا التغير السياسي حولت صور الفنيقية ارتباطاتها التجارية من دمشق نحو مملكة إسرائيل. ويمكن القول إن أصحاب الحرف والفنانين الفنيقيين نشطوا بالعمل في مملكتي دمشق-الآرامية وإسرائيل، حيث عثر خلال هذه المرحلة، فقط، على عمائر فنيقية في المستعمرات الفنيقية خارج البلاد، مثل قبرص وشمالي إفريقيا وسردينيا وإسبانيا.

وخلال النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد، وبعد اعتلاء الملك تيجلات بلاصر الثالث (حوالي 744- 727 قبل الميلاد) الحكم في آشور، انتهى استقلال الممالك الفنيقية السياسي، إذ جرد هذا الملك عدة حملات عسكرية على بلاد الشام، فانتصر عليها وضمها لحكمه. وعلى أية حال، نجد أن تيجلات بلاصر الثالث، وفي عام 734 قبل الميلاد، يترك مدينة صور بعد اعترافه باستقلالها السياسي، وبدورها كمركز تجاري مهم يخدم الإمبراطورية الآشورية.

بعد توليه الحكم، قام سرجون الثاني (721-705 قبل الميلاد) بمهاجمة السامرة عاصمة مملكة بيت عَمري (إسرائيل). وكان همه الأول السيطرة على تجارة صور البحرية، لا سيما تجارة النحاس مع قبرص، ففرض الجزية على المدن القبرصية، ولم يتدخل بشؤون المدن الفنيقية ما دامت موالية لحكمه، وتدفع له الجزية.

وبعد موت سرجون الثاني، خلفه في الحكم الملك سنحاريب (704-681 قبل الميلاد). ويبدو أن مدينة صور تمنعت عن دفع الجزية لآشور، مما حدا بسنحاريب إلى تجريد

حملة عسكرية ضدها في عام 701 قبل الميلاد. ونتيجة لهذه الحملة، هرب ملك صور إلى قبرص، وأعطى الملك الآشوري مدينة صور وما تملكه لمدينة صيدا. لكن سيطرة صيدا على صور لم تدم طويلاً، إذ قام أسرحدون (680-669 قبل الميلاد) بمحاصرة صيدا وضمها وما تملك لحكمه.

وبعد أن اعتلت الأسرة النبتاوية الحكم في مصر، وخاصة في عهد الفرعون طهرقة (حوالي 690-664 قبل الميلاد)، تمتعت فنيقيا بعلاقات تجارية جيدة مع مصر. وعلى أية حال، حاول المصريون قبلاً، وبالتحديد في زمن أسركون الرابع (حوالي 730-715 قبل الميلاد) آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين، العودة لبلاد الشام، فقاموا بدعم مملكة إسرائيل عسكريًا في محاولة لوقف التدخل الآشوري في المنطقة. وفي مرحلة لاحقة تحالفت الأسرة النبتاوية المصرية مع مدينة صور الفنيقية ضد الملك الآشوري أسرحدون والذي قام في عام 671 قبل الميلاد بمهاجمة صور عقابًا لها على فعلتها، ومن ثم تابع سير حملته إلى مصر لملاقاة ملكها طهرقة. وبعد المعركة التي هزم فيها المصريون، اضطر طهرقة للهرب إلى بلاد النوبة جنوبي مصر. ثم وقعت صور بعد ذلك تحت السيطرة الآشورية، وفرض عليها الآشوريون الجزية من جديد، وأخذوا يتحكمون بتجارة صور البحرية. لكن المدن الفنيقية الأخرى، مثل أرواد وجبيل، بقيت تتمتع بحريتها التجارية على الرغم من أنها ظلت تدور في فلك آشور.

وبعد اعتلاء الملك آشور- بنيبال (حوالي 668-631 قبل الميلاد) الحكم في آشور، أعادت صور، وبتحالف مع أرواد وبعض مدن بلاد الشام الأخرى، الثورة ضد الحكم الآشوري الأمر الذي دفع الملك الآشوري لتجريد حملة عسكرية على المنطقة في عام 662 قبل الميلاد، فهاجم أولاً طيبة عاصمة المصريين وأسقطها، ثم التفت إلى صور، وفرض عليها حصارًا استسلمت له فيما بعد. وفي عام 640 قبل الميلاد أصبحت صور وجميع المدن والقرى التابعة لها تحت سيطرة الآشوريين.

وبعد أن أسس الملك بسماتيك (حوالي 664 – 610 قبل الميلاد) الأسرة السادسة والعشرين في مصر، حاول إعادة سيطرة مصر على فنيقيا والساحل الفلسطيني. وبحسب المصادر المصرية، نجح المصريون في هذا، وأصبحت فنيقيا تحت سيطرتهم، وتحكموا بتجارة الأخشاب فيها.

وبعد سقوط الدولة الآشورية واعتلاء البابليين الجدد سدة الحكم في بلاد الرافدين، قام الملك الكلداني نبوخذنصر الثاني (حوالي 604-562 قبل الميلاد) بمهاجمة سورية، وأحكم سيطرته على ملوك الممالك الحثية في شمالي سورية، وملوك الممالك الفنيقية، مطالبًا إياهم دفع الجزية، فدفعوها. وبتحريض من مصر، قام عدد من ممالك بلاد الشام، ومن بينهم الفنيقيون، بالثورة على الحكم البابلي. فما كان من الملك نبوخذنصر البابلي إلا أن جرد حملة على المنطقة، وحاصر مدينة القدس ودمرها، كما أخضع مدن الساحل الفنيقي فيما بعد. وقام نبوخذنصر في عام 585 قبل الميلاد بحصاره المشهور لمدينة صور، والذي دام مدة ثلاثة عشر عامًا. ويبدو أن نتيجة الحصار لم تحسم لصالح أحد بقدر ما انتهت بالتراضي فتمتعت صور بالحكم الذاتي، لكنها بقيت تحت السيطرة البابلية الحديثة. ويبدو أن تجارة الفنيقيين مع ممالك المنطقة والجزيرة العربية وصلت خلال سيطرة البابليين على ممالك بلاد الشام إلى أدنى مستوى لها، فوجه الفنيقيون أنظارهم نحو بلاد الرافدين، وعمل عدد من الفنانين والعمال المهرة في خدمة المملكة البابلية الحديثة. لكن الحال تبدل بعد وفاة نبوخذنصر وتولي نابونيد (حوالي 556-539 قبل الميلاد) الحكم في بابل، إذ تمتعت فنيقيا بنوع من الاستقلال، ربما لأن البابليين ركزوا جل جهودهم في حل مشاكلهم الداخلية أكثر من الخارجية.

استطاع الملك الفارسي قورش في عام 539 قبل الميلاد احتلال مدينة بابل الكلدية، ولم تصلنا أية معلومات حول ما آلت إليه أحوال فنيقيا السياسية في بداية عهده. لكن جميع الممالك التي خضعت لحكم بابل، ومنها فنيقيا، قدمت الولاء والجزية طواعية لقورش. ونظرًا لأهمية تجارتها البحرية، حظيت فنيقيا بمنزلة لدى الفرس أكثر من غيرها من الممالك الشامية الأخرى. وكانت فنيقيا طوال الحكم الأخميني الذراع الأيمن لفارس في سيطرتها على تجارة البحر المتوسط. وظهر هذا واضحًا في أثناء حملة الملك قمبيز التي جردها على مصر في عام 525 قبل الميلاد بدعم من أسطول صور الحربي (Markoe 2000: 49). لذا، عوملت الممالك الفنيقية معاملة الشريك، وليس التابع للإمبراطورية الفارسية. وضمنت ممالك صور وصيدا وجبيل وأرواد استقلالها، واكتفت فارس منها بمشاركة أساطيلها البحرية في حروبها عوضًا عن دفع الجزية. وكانت المدن الفنيقية قبلها قد شكلت مقاطعة إدارية ضمت، إضافة لها، بلدانًا أخرى في بلاد الشام والرافدين. وخلال بداية القرن الخامس قبل الميلاد، وبعد أن تولى الملك داريوس الأول (حوالي 522 –

486 قبل الميلاد) الحكم على فارس، قام بإعادة توزيع الوحدات الإدارية في إمبراطوريته، ومنها المقاطعة التي أسماها "عبر النهر"، والتي ضمت قبرص وبلاد الشام.

مع بداية القرن الخامس قبل الميلاد، أخذ التجار الإغريق ينافسون الفنيقيين على تجارة البحر المتوسط. ووصلت تجارة الإغريق إلى عدد من مناطق بلاد الشام، خاصة الشمالية. ويظهر أن هذه المنافسة التجارية بين فنيقيا والمدن الإيجية على التجارة البحرية في بحري المتوسط وإيجة، كانت السبب الذي دفع الممالك الفنيقية للوقوف إلى جانب بلاد فارس في حروبها ضد الإغريق. وبالمقابل، تحالف الإغريق مع ملوك الأسرة المصرية السادسة والعشرين في زمن ملكها بسماتيك الأول، وأسسوا لهم قاعدة حربية في عاصمته سايس في الدلتا المصرية. لكن هذا التحالف الإغريقي المصري انتهى بعد أن استطاع الفرس هزيمة مصر والسيطرة على الدلتا المصرية. وبطبيعة الحال، كان المستفيد الأول من هذا الصراع المصري الفارسي هو مملكة صور الفنيقية، فقد خلا لها الميدان في التجارة البحرية والبرية.

وخلال القرن الخامس قبل الميلاد، تبدلت الأحوال والأدوار بين مراكز القوى في الممالك الفنيقية، وانتقل لواء الزعامة خلال هذا القرن من مملكة صور إلى مملكة صيدا. والدليل على هذا أن الأخمينيين اتخذوا من مدينة صيدا مركزًا إداريًا إقليميًا لهم ومكان إقامة للحاكم، وبنوا لهم حامية فيها، وسمحوا لها سك نقود تظهر عليها صورة الملك الأخميني. ويبدو أن ذلك التحول كان بسبب تعاظم قوة أسطول صيدا البحري وتفوقه على أسطول صور. وظهر هذا جليًا خلال حملة الملك الأخميني إكسركسيس على بلاد الإغريق في حوالي 480 قبل الميلاد، عندما تولى دفة قيادة المعركة البحرية ضباط من مدينة صيدا.

وخلال الحكم الفارسي على فنيقيا، استطاعت بعض المستعمرات الفنيقية، مثل قرطاجة في تونس، وفي قبرص، الاستقلال عن الدولة الأم صور. ويعتقد بعض الباحثين (Markoe 2000: 54) أن قرطاجة تمتعت باستقلالها التام في حوالي عام 525 قبل الميلاد. أما قبرص؛ وكما نوهنا أعلاه، فقد أدرك الفنيقيون، منذ البداية، مكانتها الاستراتيجية والتجارية، ودورها في ربط طرق التجارة البحرية بين سواحل البحر المتوسط، إضافة لكونها مصدرًا لخامات النحاس. كما بدأ في القرن الخامس قبل الميلاد التغلغل الإغريقي في جزيرة قبرص، وأخذت الجزيرة تميل نحو بلاد بحر إيجة

أكثر من ميلها نحو سواحل البحر المتوسط الشرقية، مما دفع الأخمينيين، بمشاركة الفنيقيين، إلى مهاجمة قبرص وإعادة الأمور إلى نصابها السابق. وعلى الرغم من هذا بقي الصراع حول السيطرة على جزيرة قبرص قائمًا بين الشرق والغرب.

غير أن السنوات الأخيرة من القرن الخامس قبل الميلاد شهدت ثورات داخلية وتراجعًا في سيطرة أخمينيا على المناطق الغربية من إمبراطوريتها. فمثلاً قامت ثورة في ليديا في غربي آسيا الصغرى (بلاد الأناضول) بدعم ومساندة من أثينا التي كانت حينها في صراع مع إسبارطة الإغريقية، فما كان من الأخمينيين، في عهد الملك داريوس الثاني (حوالي 423-405 قبل الميلاد) إلا أن تحالفوا مع الإسبارطيين في حربهم مع أثينا، وساعدهم في هذا الأسطول الفنيقي. وفي الفترة ذاتها، قامت أسرة مصرية جديدة، وأعلنت العصيان والحرب على الأخمينيين، وطردتهم من البلاد بعد احتلال دام حوالي مائة عام. هذه المتغيرات على الساحة السياسية في بلاد الشرق الأدنى القديم وبلاد الإغريق والمستعمرات الفنيقية أثرت كثيرًا، وبشكل سلبي، في تجارة الممالك الفنيقية الموجودة على سواحل البحر المتوسط الشرقية. لذا ساعد الفنيقيون الأخمينيين في حملتهم الفاشلة على مصر في عام 373 قبل الميلاد. وكان من نتيجة هذا الفشل إغراء المقاطعات الأخمينية الغربية الواقعة في غربي آسيا الصغرى في الفترة ما بين حوالي 365-360 قبل الميلاد بالثورة عليها. كذلك ساعدت مصر في حوالي 362 قبل الميلاد فنيقيا بقيادة ملكها عبد-عشتارت بالثورة ضد الأخمينيين. وعلمًا أن الثورة نجحت لوقت قصير في التخلص من سيطرة الأخمينيين، إلا أن هؤلاء جردوا بعد حوالي عام حملة على صيدا وأعادوها لحكمهم. وفي عام 351 قبل الميلاد، هاجم الفرس بمشاركة الصيداويين مصر، لكنهم هُزموا شر هزيمة على يد التحالف المصري الإغريقي. بعدها، ثارت صيدا مرة أخرى على الأخمينيين، لكن هؤلاء دخلوا المدينة في حوالي 345 قبل الميلاد وقتلوا كثيرًا من أهلها، ووقع آخرون في الأسر وجُروا إلى مدينتي بابل وسوسة. ولما دخل الإسكندر المكدوني، في حوالي 333 قبل الميلاد، صيدا فاتحًا، هلل أهلها فرحين بعد ما حصل لهم من دمار على يد الفرس الأخمينيين. وكان هذا على عكس ما جرى في مدينة صور التي قاومت احتلال الإسكندر، فقد كانت مستقلة قبل مجيئه، لكنه دخلها في منتصف شهر تموز من عام 332 قبل الميلاد، بعد حصار دام سبعة أشهر.

بعد هذا العرض المسهب لتاريخ الفنيقيين، يمكن القول إن تاريخهم شكل جزءًا مهمًا من تاريخ بلاد الشام، خاصة خلال العصر الحديدي. كما لا بد من الإشارة مرة أخرى إلى أن هذا التاريخ الطويل والمتشعب يدعمه قليل من الوثائق المكتوبة والمكتشفة حتى الآن. وأغلب الوثائق التي تتحدث عن تاريخ الفنيقيين تعد مصادر غير مباشرة. وربما تكشف لنا التنقيبات الأثرية المستقبلية عن مزيد من الكتابات والنصوص في المدن الفنيقية ذاتها.

الحضارة والآثار الفنيقية

1. **اللغة**: تعد اللغة الفنيقية شكلاً من أشكال اللغة الكنعانية، وهي فرع من اللغات السامية الشمالية الغربية. وشاع استخدام هذه اللغة في الفترة بين القرن الحادي عشر والقرن الأول قبل الميلاد. وانتشرت فوق منطقة جغرافية واسعة، فإضافة لفنيقيا ذاتها استخدمت اللغة الفنيقية في مناطق أخرى، مثل شمالي سورية، وكليكيا، وقبرص (Ward 1997: 315). أما عن النصوص المكتشفة؛ فثمة قليل منها، ويتناول موضوعات دينية، أو تاريخية، أو اقتصادية. وكانت الفنيقية، كغيرها من اللغات السامية، تكتب من اليمين إلى الشمال، وعلى مواد صلبة مثل الحجارة والمعادن، وربما على مواد أخرى تفنى بفعل العوامل الطبيعية، مثل ورق البردي (Gibson 1982). ويعد اختراع الأبجدية، والتي تتكون من اثنين وعشرين حرفاً، من أهم ما أنجزه الفنيقيون.

ومن أهم النصوص الفنيقية المكتوبة التي عثر عليها حتى الآن، نذكر مثلاً تابوت الملك أحيرام من القرن العاشر قبل الميلاد، ونقش الملك كيلاموا، ملك مملكة سمعال (زنجرلي) بجنوبي تركيا، والذي يؤرخ لحوالي 825 قبل الميلاد، ومسلة الملك الفنيقي يحوملك التي وجدت في جبيل وتؤرخ للقرن الخامس قبل الميلاد (Markoe 2000).

2. **الديانة**: أتت معرفتنا بالديانة الفنيقية من خلال عدد من المصادر الثانوية التي تحدثت في هذا الموضوع في العصور الكلاسيكية المبكرة، ومما ورد في الأسفار التوراتية. ومن المؤكد أنه كان لكل مدينة إلهها الرئيسي إلى جانب عدد آخر من الآلهة الثانوية. فكان الإله بعل في جبيل، وأشمون إله الشفاء في صيدا. كما كانت هناك إلهات مثل بعلة (أو بعلات)، والتي كانت الإلهة الرئيسية في جبيل، وتمثل الخصوبة والتكاثر، والإلهة عشتارت في صيدا وصور وتانيت. أما إله صور الرئيسي؛ فكان

ملكارت أو ملقارت، ويعني سيد المدينة. ويبدو أن بعض تلك الآلهة كان على ارتباط بظواهر الطبيعة والكواكب السماوية. أما البعض الآخر؛ فكان ذا صفة شخصية، مثل الإله بعل إله مدينة جبيل، ويعني السيد، أو كأن يقال "بعل السماء" (قابلو وفرعون 2006 : 232-233؛ Ward 1997: 316; Markoe 2000: 115-142).

مارس الفينيقيون طقوسهم الدينية في الأماكن المرتفعة، على مقربة من الأشجار والينابيع. وعلى الرغم من أن النصوص المكتوبة ذكرت بناء عدد من المعابد، إلا أنه لم يعثر، حتى الآن، إلا على عدد قليل جدًا منها، مثل معبد الإله أشمون في عمريت، بالقرب من صيدا، ومعبد صغير في تل الغسيل في سهل البقاع، ووجد مذبح صغير في أثناء عمليات التنقيب في صرفند (Ward 1997: 316).

3. **عادات الدفن**: تنوعت أشكال القبور الفنيقية، فكانت منها القبور البئرية التي تنتهي بحجرة دفن، وحفرة في الأرض مدعمة جدرانها من الداخل بجدار حجري، إضافة إلى الكهوف الطبيعية، والتوابيت. ومارس الفنيقيون عادة حرق الموتى، سواء للبالغين أو الأطفال. وتدعي الأسفار التوراتية أن الفنيقيين ضحوا بالأطفال، علمًا أن هذا الأمر مشكوك فيه، ولم تثبت صحته حتى الآن. ومن الجدير بالذكر أنه كشف خلال السنوات الأخيرة عن مقبرة للأطفال Tophet بالقرب من مدينة صور، والتي زودتنا بمعلومات مهمة عن عادات دفن الأطفال.

4. **النقود**: نعلم أن أقدم النقود ضربت في ليديا (غربي تركيا الحالية) خلال القرن السادس قبل الميلاد، وأن النظام الاقتصادي الفنيقي كان قائمًا على المبادلة، أي لم يكن بحاجة لسك النقود. لذا ضربت أولى النقود الفنيقية فقط في نحو عام 450 قبل الميلاد، أي بعد حوالي 150 عامًا من ضربها في ليديا، علمًا أن الفنيقيين كانوا خلال الفترة الأخمينية مسيطرين على تجارة المنطقة. وعلى الرغم من هذا التأخر في ضرب النقود واستخدامها وسيلة في المتاجرة، إلا أن المدن الفنيقية الرئيسية (أرواد وجبيل وصيدا وصور) استخدمت النظام الاقتصادي النقدي خلال الفترة ما بين 455-435 قبل الميلاد. وكان بعل-ملك (479 – 449 قبل الميلاد)، الملك الفنيقي على مستعمرة كيتون الفنيقية في قبرص، أول حاكم فنيقي يتبنى النظام النقدي.

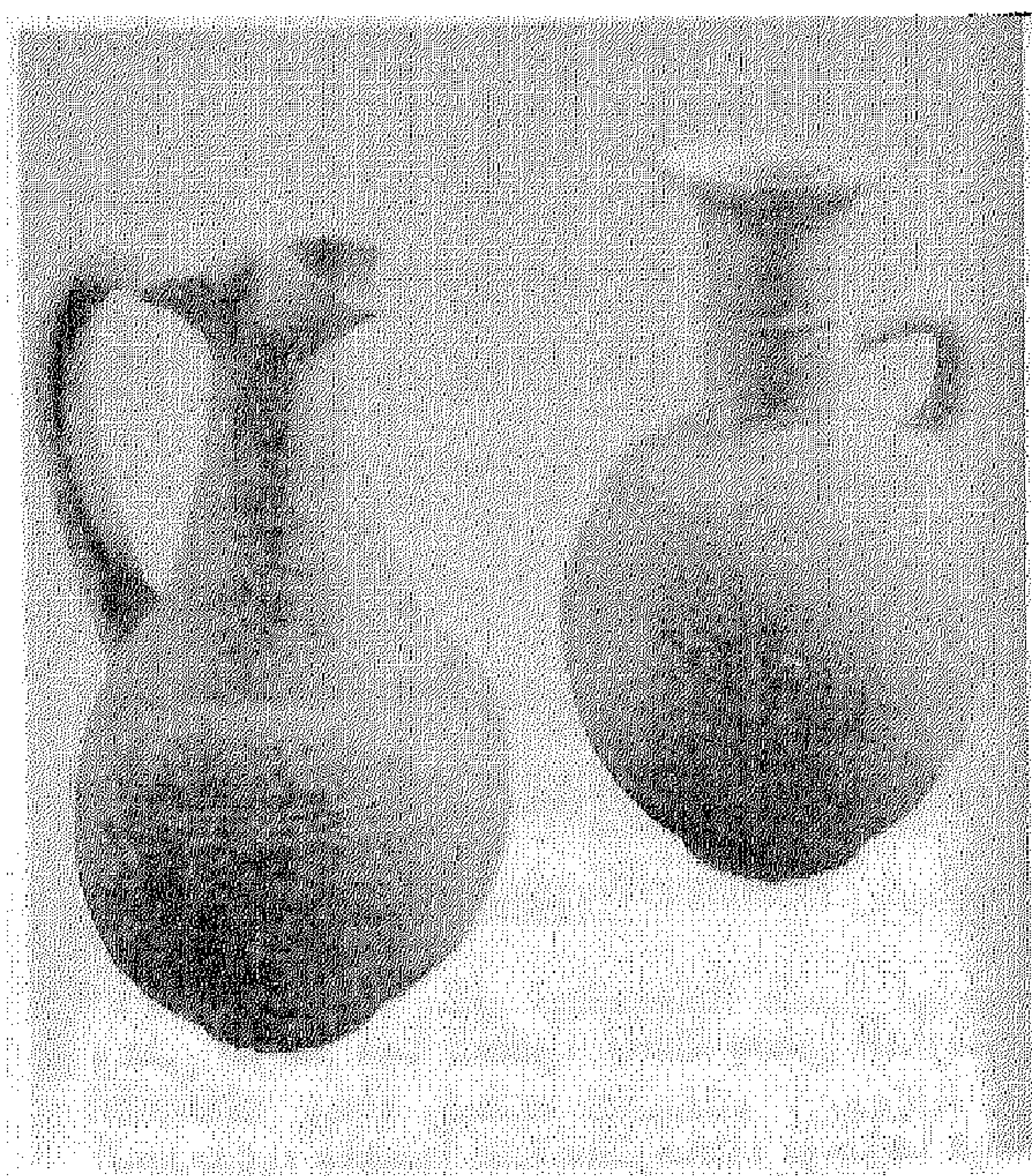
حملت النقود الفنيقية أشكالاً متعددة، مثل ما سك على نقود صور، حيث ظهرت عليها أشكال دلفين طائر، وقواقع بحرية، وطائر بوم، وأشكال خرافية تمثل صورة إله نصفه إنسان والنصف الآخر على هيئة سمكة، وحصان مجنح، وصراع حيوانات. وتظهر المشاهد المصورة على هذه النقود تأثيرات بحرية، ومصرية، وإغريقية (Markoe 2000: Fig. 29).

5. **الفنون**: علمًا أن الآثاريين لم يتمكنوا من التنقيب بشكل كافٍ في السويات الأثرية القديمة في المدن الفنيقية الرئيسة في لبنان، وذلك لوقوعها أسفل المباني الحديثة إلا أن ما كشف عنه كان كافيًا لتكوين صورة عن الفنون الفنيقية. فقد جاءت هذه الفنون انعكاسًا لصلاتهم التجارية بالعالم الخارجي، ونرى فيها تأثيرات فنية مصرية وحثية، وإيجية. وكان الفنيقيون صنّاعًا مهرة، لا سيما بتصنيع القطع الصغيرة، مثل الحلي والمجوهرات، والحفر والتنزيل على الأطباق المعدنية، والحفر في العاج، والحفر في الأصداف البحرية. كذلك صنع الفنيقيون الآنية الزجاجية ذات الألوان الخلابة. ومن بين منتجاتهم الفنية الدقيقة أيضًا، الجعلان المشغولة من الحجارة الصلبة أو الكريمة، والتي نحتت عليها أشكال فنيقية خالصة، على الرغم من أن الجعلان صناعة ذات أصل مصري. وقد تنقل الحرفيون والفنيون الفنيقيون في المستعمرات الفنيقية، مما ساعد على انتشار فنونهم (Markoe 2000: 143 – 160).

كذلك اشتهر الفنيقيون بصناعة النسيج ودباغته، واشتهرت النساء الصيداويات في القرن الثامن قبل الميلاد بمنسوجاتهن الملونة. وللأسف، لم يعثر حتى الآن على أية كتابة فنيقية تصف عملية النسيج الفنيقية، لكن المصادر القديمة توافينا بأخبار عن الاحتفال بدباغة الصوف، والتي ارتبطت بشكل خاص بمدينة صور.

ومن الجدير بالذكر أن الفنيقيين لم يبدعوا بالنحت على الحجارة الكبيرة، إذ كانوا تجارًا يحملون سلعًا خفيفة الوزن وغالية الثمن (Ward 1997: 315). وأهم المنحوتات الفنيقية على الحجارة الكبيرة، مسلة وجدت في تل كازل (عمريت)، يمثل المشهد المنحوت عليها إله الرعد يعتلي أسدًا. لكن الفنيقيين أبدعوا بنحت التوابيت الحجرية والخشبية وصنعها.

6. **الفخار:** تدل الآنية الفنيقية المكتشفة على عدم اهتمام الفنيقيين بهذه الصناعة مقارنة بالصناعات الخفيفة الأخرى، فلم تخرج آنيتهم عن كونها إما آنية تستخدم للمائدة خاصة الأباريق، أو أخرى مثل الجرار التي كانت تستخدم لحفظ المواد المصدرة من فنيقيا إلى الخارج. ومن أهم أشكال الآنية الفخارية التي جرى التعرف عليها: الزبادي، والأطباق والمطرات، والأباريق، والأباريق ذوات الحافة الثلاثية والشكل الأجاصي (الشكل 99)، وجرار الخزين (Markoe 2000: 161).



شكل 99: إبريقان فنيقيان من الفترة ما بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد

بدأت معالم الفخار الفنيقي تأخذ شكلها وزخرفتها ونوعها المستقل خلال منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد، إذ نجد الزخارف المرسومة ذات اللونين الأحمر والأسود، والتي تشكلت من أشرطة عريضة تخللتها دوائر مرسومة بلون أحمر فاقع تحددها أشرطة سوداء اللون. إضافة إلى زخارف مختلفة مثل الخطوط المتموجة والأشكال الهندسية (Bikai 1978; 1987). وبعد أن انتهى استخدام الزخرفة ذات اللونين في حوالي منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، حل محلها نوع جديد امتاز بطلاء سطح الإناء بطبقة حمراء اللون، ودلكها لدرجة يصبح معها السطح لامعًا وساطعًا جدًا. واستمر هذا النوع حتى حوالي 550 قبل الميلاد، حينما بدأ الفنيقيون باستيراد الآنية الفخارية من بلاد الإغريق.

م. الممالك العمونية والمؤابية والإدومية في الأردن

يلاحظ المختص بدراسة الآثار القديمة أن الباحثين في العصور الحديدية نادرًا ما يدرسون الدول والأحداث التي جرت في الأردن بمعزل عما كان يجري في فلسطين؛ فهم يعدُّون أن الأردن وفلسطين شكلتا منطقة واحدة خلال العصور القديمة. بل إن كثيرًا من الباحثين التوراتيين رأوا في الأردن امتدادًا لفلسطين "التوراتية" بحسب ما يظنون (كفافي 2006). وللأسف؛ حاول بعض هؤلاء الآثاريين التوراتيين نسبة الآثار المكتشفة في الأردن من العصور الحديدية لبعض القبائل الإسرائيلية المذكورة في التوراة (روبين وجاد والمنسي) ونسوا أو تناسوا السكان الأصليين، وهم العمونيون والمؤابيون والإدوميون (خريطة 13) (Herr and Najjar 2001).

وعلى الرغم مما ذكر، بحث بعض الدارسين في أصل سكان الأردن خلال العصر الحديدي، وقدموا عدة مقترحات، نوجزها فيما يلي:

- رأى نلسون جلوك الذي أجرى مسوحات شاملة للأردن وأجزاء من فلسطين خلال النصف الأول من القرن العشرين (Glueck 1951a; b)، أن ظهور الممالك العمونية والمؤابية والإدومية بعد نهاية العصور البرونزية كان مفاجئاً ودون سابق إنذار. لكنه اقترح في وقت لاحق أن هؤلاء قدموا للمنطقة عن طريق الهجرات أو الغزوات (Glueck 1971b: 153).

- اقترح العالم الأمريكي جورج مندنهول أنه مع نهاية العصر البرونزي المتأخر، ثار الفلاحون في فلسطين نتيجة تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، مما دفع الناس للانتقال إلى شرقي النهر. وأن هؤلاء، إضافة لآخرين قدموا من جنوبي سورية الحالية والأناضول، هم مؤسسو الممالك العمونية والمؤابية والإدومية (Mendenhall 1973; 1983).

- ذكر باتريك ماكغفرن Patrick McGovern وآخرون أن سبب نشوء تلك الممالك هو انهيار نظام دولة المدينة السياسي الذي ساد خلال العصر البرونزي المتأخر (McGovern et al. 1986).

- يرى كثير من الباحثين أن العمونيين والمؤابيين والإدوميين هم من أصل محلي، وأنهم كانوا في الأصل موجودين في مناطق الأردن السهلية والجبلية (Bartlett 1979; 1989; Worschech 1990; Knauf 1992; Miller 1992).

واعتمادًا على الدراسات الأثرية والمصادر التاريخية المصرية والآشورية، فإن الرأي القائل بأن تلك الممالك كانت من أصل محلي هو الأقرب للصواب.

وكغيرها من مناطق بلاد الشام الأخرى، شهدت المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن خلال العصر الحديدي، خاصة مع بداية الألف الأول قبل الميلاد، ظهور دولة الأمة، والتي حلت محل النظام السياسي السابق، وهو دولة –المدينة. وأتى المصدر الأساسي لمعلوماتنا عن تلك الممالك من التنقيبات التي أجرتها كريستال بنيت في مواقع أم البيارة وطويلان وبصيرة في إدوم (Bennett 1983; 1978; 1977; 1967)، ومن المسوحات الأثرية التي أجراها بيرتون ماكدونالد Burton MacDonald في منطقة وادي الحسا (MacDonald 1996; 1992)، والمسوحات التي أجراها أودو فورشيش Udo Worschech في منطقة الكرك (Worschech 1990)، والتنقيبات التي أجرتها البعثة البلجيكية بإشراف دينيس أوم-فردريك Denyse Homès-Fredericq في اللاهون، وتنقيبات ميشيل دافيو Michèle Daviau في جاوة ووادي الثمد، والمسوحات والتنقيبات الأثرية التي أجرتها البعثة الأميركية في منطقة مأدبا، مثل تل العميري وجالول وحسبان (Geraty et al. 1989). ولكتابة تاريخ ممالك عمون ومؤاب وإدوم، ليس لنا أن نغفل بأي حال من الأحوال عن المعلومات التي ذكرتها الكتابات والنقوش المصرية والرافدية، وما عثر عليه من نصوص في الأردن.

على أية حال، كان للنشاط الآشوري خلال الألف الأول قبل الميلاد تأثير مباشر وغير مباشر على الأحوال والأحداث التي مرت بها تلك الممالك. وكما ذكرنا سابقًا، شهدت منطقة شمالي سيل الزرقاء وجودًا آشوريًا مباشرًا، تتضح آثاره من خلال نتائج التنقيبات الأثرية التي أجريت في عدد من المواقع، مثل تل الرميث، وتل إربد، وتل أبو الخرز، وتل السعيدية، وتل دير علا. وربما يدل هذا على أن هذه المنطقة خضعت فعلاً لحكم الآشوريين، وأنها شكلت جزءًا من المقاطعة الآرامية في دمشق، والتي كانت تعد مقاطعة آشورية. ودفعت ممالك العمونيين والمؤابيين والإدوميين الجزية للآشوريين، لكنها لم تقع تحت الاحتلال الفعلي العسكري.

أما الأثر غير المباشر للنشاطات العسكرية الآشورية في المنطقة؛ فيتمثل في هزيمة الآراميين ومملكة إسرائيل على يد الآشوريين، والتي أتاحت للممالك العمونية والمؤابية والإدومية فرصة للاهتمام بشؤونها الداخلية، وبناء دولها، والعيش بسلام مع الآشوريين بعد دفع الجزية لهم.

خريطة 13: الممالك العمونية والمؤابية والإدومية

ولدراسة تلك الممالك، فإننا سنبدأ بدولة عمون، ثم مؤاب، تليهما إدوم، أي من الشمال باتجاه الجنوب. وإذا ما أردنا أن نعين حدود كل مملكة بشكل تقريبي، فهو على النحو التالي:

- عمون: الأرض الممتدة بين وادي الزرقاء شمالاً ووادي الموجب جنوبًا.
- مؤاب: بين وادي الموجب شمالاً والحسا جنوبًا.
- إدوم: من وادي الحسا شمالاً، وحتى خليج العقبة جنوبًا.

غير أن تلك الحدود المقترحة للممالك المذكورة لم تكن ثابتة، بل تغيرت بين فترة وأخرى بحسب طبيعة الأحوال السياسية التي كانت سائدة آنذاك.

مملكة عمون

ذكر أن حدود مملكة عمون امتدت بين وادي الزرقاء شمالاً، ووادي الموجب جنوبًا. لكننا نود أن ننوه أن حدودها هذه لم تكن ثابتة، بل تغيرت من فترة لأخرى اعتمادًا على ما كان يدور في المنطقة من أحداث سياسية وعسكرية، وعلى مدى قوتها الذاتية. ومما يجدر ذكره، العثور على آنية فخارية عمونية في مواقع في غور الأردن مثل تل دير علا والمزار الواقعة إلى الشمال من نهر الزرقاء. لكن، لم يعثر على أية آنية فخارية عمونية في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من جبل نبو بالقرب من مدينة مأدبا. وعلى الرغم من عدم ثبات حدودهم السياسية، إلا أن العمونيين اتخذوا من ربة عمون (جبل القلعة/ في عمان حاليًا) عاصمة لهم. كما استمرت مملكتهم منذ نهاية الألف الثاني وحتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد، لكنها بلغت قمة ازدهارها في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد (كفافي 2006). وتدلل على هذا زيادة عدد المواقع العمونية التي سجلت خلال المسوحات الأثرية، لا سيما في عمان ومأدبا وحسبان. إذ لاحظ الآثاريون وجود عدد كبير من الآبار، ومعاصر العنب، والكروم، وأبراج حراسة المزارع، وغيرها من المخلفات المعمارية ذات العلاقة بالأعمال الزراعية. وطبعًا، فإن زيادة الغلال والمحاصيل الزراعية تؤدي إلى زيادة الدخل القومي، وهذا بدوره أدى إلى زيادة الثقة بالذات لدى العمونيين، مما دفعهم إلى اغتيال الحاكم البابلي حسب ما يذكر كتاب العهد القديم (إرميا 27 و40)، الأمر الذي ربما دعا الملك البابلي (الكلداني) نبوخذنصر لتجريد حملة على العمونيين في السنة الثالثة والعشرين من حكمه (حوالي 582-581

قبل الميلاد). لكن هذه الحملة لم تقض على العمونيين، إذ تشير المكتشفات الأثرية في المنطقة المحيطة بمدينة مأدبا إلى استمرارية وجودهم في المنطقة خلال فترة الحكم الفارسي، وربما حتى مجيء الإسكندر المكدوني.

انتشر العمونيون في عدة مواقع في المنطقة المذكورة، نذكر منها، إضافة لعمان، حوض البقعة، وتل العميري، وتل جاوة، وحسبان، ومأدبا (Herr 1997). وربما كان استقرارهم في هذه المنطقة لسببين، هما:

- خصوبة المنطقة، وتوفر المياه، خاصة نهر الزرقاء ونبع رأس العين حيث ينبع النهر.
- أن هذه المنطقة تحتل مركز الوسط لشرقي نهر الأردن، فكانت، ولا زالت، معبرًا للطرق التجارية.

جاءت معلوماتنا عن العمونيين من المادة الأثرية المكتشفة، ومن الوثائق المكتوبة. فقد وصلتنا كتابات عمونية نقشت على مواد مختلفة، مثل الحجارة، والحجارة الكريمة والمعدن، والفخار (Israel 1997: 105-107). وجاءت غالبية الكتابات المكتشفة حتى الآن محفورة على عدد كبير من الأختام المؤرخة لفترة ما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد (Hübner 1993: 154-155). لكننا لا نعرف مكان العثور على أكثر تلك الأختام، والتي جرى الحصول على أغلبها عن طريق الشراء من سماسرة وتجار الآثار. كذلك عثر على بعض الكتابات العمونية منقوشًا على آنية معدنية، مثل طاسة أم أذينة ونقش قارورة تل سيران، والذي يعد أهم النصوص العمونية لأنه يذكر ثلاثة أجيال من الملوك العمونيين (الشكل 100) (Thompson and Zayadine 1973)، وكتابات على كسر فخارية Ostraca عثر عليها في عدد من المواقع، مثل تل المزار وتل دير علا في غور الأردن، وأم الدنانير وسحاب وتل العميري وحسبان في المرتفعات الجبلية (Hübner 1992) إضافة إلى نقوش على شواهد معمارية، وعلى تماثيل كما هو الحال في تمثال الملك العموني يرح عازر (الشكل 101)، والمؤرخ للقرن الثامن قبل الميلاد (Zayadine 1974).

ويذكر المختصون أن الكتابة العمونية طورت سماتها الخاصة بها خلال القرن الثامن قبل الميلاد (Cross 1969)، لكنها تأثرت بطريقة أو بأخرى بالعبرية والفنيقية. واستخدم العمونيون الخط الآرامي خلال حكم الإمبراطورية الآشورية (Stern 2001: 238). ويعد النقش العموني (Acropolis Inscription) المكتوب على اللوحة الحجرية التي عثر عليها

في جبل القلعة بعمان أطول تلك النقوش، وهو يخص أحد الملوك العمونيين. ويبدو أن هذا النقش كان في بناء معبد كرس للإله العموني مالكوم، بناه ملك لم نتعرف على اسمه وذلك لفقدان جزء من اللوحة. حكم مملكة عمون ملوك وردت أسماؤهم في النصوص التاريخية. وكان فوزي زيادين (Zayadine 1987: 20) استطاع وضع قائمة بأسماء الملوك العمونيين على النحو الآتي:

1- ناحاش

2- حانون

3- شوبي

4- روحوبي

5- بعشا

6- شانيب

7- زاكير

8- م - يرح

9- عازار

10- بودعل

11- عميناداب

12- عميناداب الأول

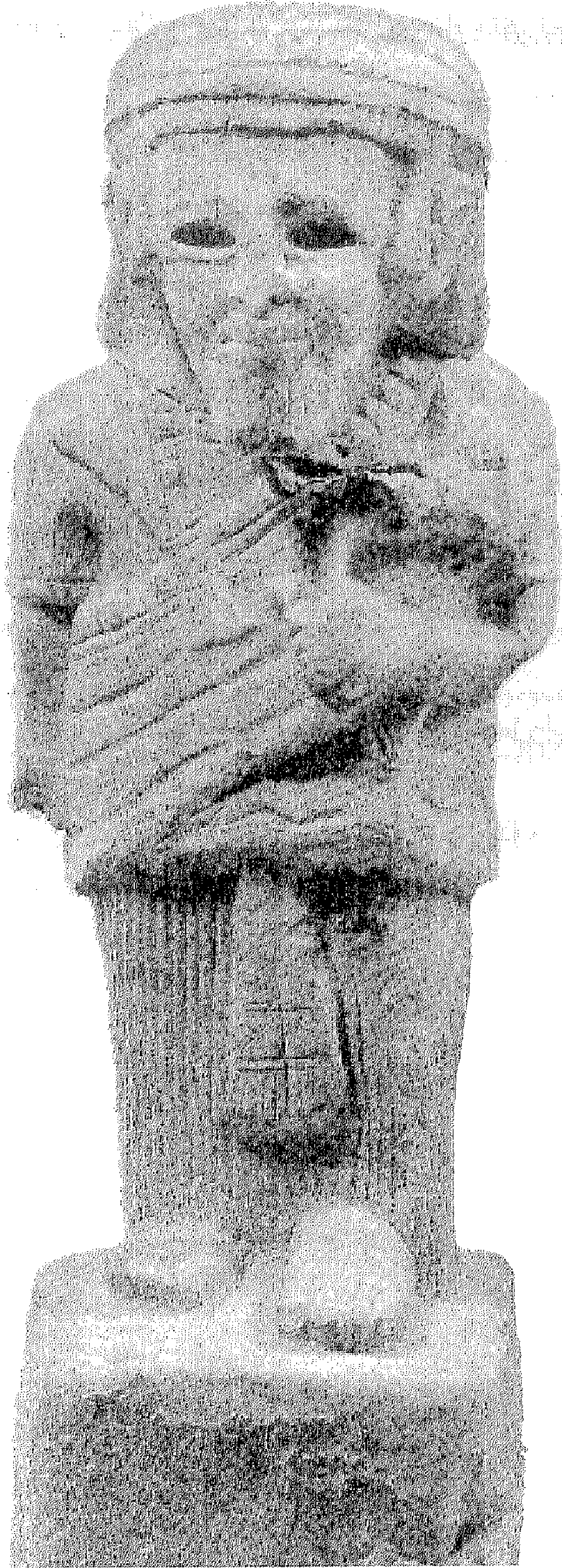
13- حصل إيل الثاني

14- بعليص الثالث (بعل-إيزيس)

وكما هو حال مملكة عمون، كذلك حال مملكتي مؤاب وإدوم، إذ لم يعرف حتى الآن كيف، ولماذا، ومتى انتهت تلك الممالك؟



الشكل 100: نقش عموني على قارورة برونزية من تل سيران/ الأردن



الشكل 101: تمثال الملك العموني يرح عازر، ويظهر النقش على قاعدة التمثال

كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت في مواقع جبل القلعة بعمان، وصافوط، وتل العميري، وجاوة الجنوبية عن بقايا معمارية بنيت خلال حكم العمونيين. وتشكلت هذه المنشآت العمائرية من مساكن وعدد من الأبراج التي استخدمت على الأغلب للأغراض الزراعية (كفافي 2006). وكانت البيوت العمونية ذات شكل مستطيل، وتكونت الوحدة المنزلية من أكثر من غرفة، كما تكون بعضها من طابقين. أما مادة البناء؛ فكانت الحجارة، خاصة الكلسية أو الصوانية. ولم يستخدم البناؤون الحجارة المشذبة للبناء إلا في بناء الأبواب، والأبراج، والعتبات. ويجب ألا يفوتنا أن العمونيين الذين سكنوا موقعي جالول وتل العميري استخدموا اللبن في البناء (Younker et al. 1993: 219). وفيما يتعلق بأرضيات البيوت، نجد أنها بنيت من مواد عدة، وبطرق مختلفة؛ فمنها ما كان من الطين المرصوص، أو المقصور بالكلس، أو الصخر الطبيعي، أو مبلط بحجارة كروية، أو ببلاطات حجرية (Daviau 1999: 122-124). وعمومًا، تكونت البيوت العمونية من وحدات تألفت الواحدة منها من أكثر من غرفة، واختلف الواحد منها عن الآخر في الموقع ذاته، وفي الفترة ذاتها.

وجد في عمان وضواحيها عدد من الأبراج، من أهمها برج الملفوف الشمالي (الشكل 102). لكن، ونتيجة للتوسع العمراني الذي حصل منذ عقود، لم يبق من تلك الأبراج ما لا يتجاوز عدد أصابع اليد. أما الهدف من بناء هذه الأبراج؛ فغير متفق فيه بين الدارسين فمنهم من قال إنها بنيت لأغراض دفاعية (Thompson 2000: 482)، ومنهم من رأى أن بعض تلك الأبراج مثل برج خلدا، كان لإقامة قائد حامية عسكرية (Yassine 1988: 18). واعتمادًا على نتائج بعض المسوحات الأثرية التي جرت في المناطق الواقعة إلى الشرق (Simmons and Kafafi 1988)، وفي الجنوب الشرقي من عمان، حيث عثر على عدد كبير من الأبراج المبنية وسط الحقول الزراعية، فإن الرأي القائل إنها ربما خدمت في الأساس أغراضًا زراعية، إلى جانب بعض الأغراض الدفاعية، يعد الأكثر قبولاً لدينا.

استخدم العمونيون كغيرهم من الناس في ذلك الوقت الآنية الفخارية لاستخداماتهم اليومية. وامتازت تلك الآنية بأشكالها المتعددة، مثل الزبادي/الصحون والأباريق بأشكالها وأحجامها المختلفة، والكؤوس، والقوارير التي أخذ بعضها شكل ثمرة الجزر (الشكل 103). وزخرفها الصانع بزخارف مدهونة، تكونت على الأغلب من شرائط أو أشكال

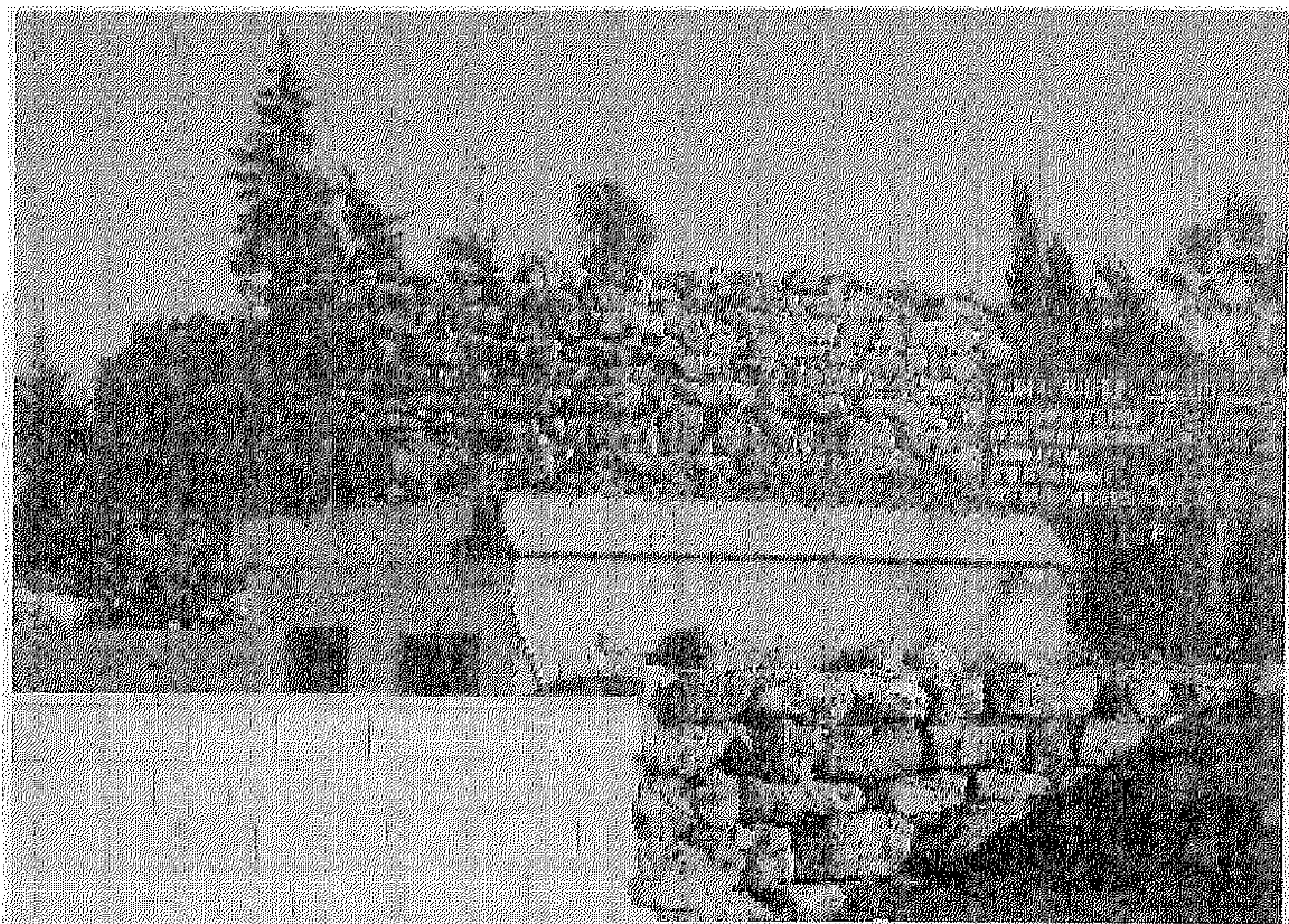
مدرجة (Amiran 1969). وبالإضافة للفخار المحلي، عثر على عدد قليل جدًا من الآنية الأتيكية كما هو الحال في موقعي أم أذينة (Hadidi 1987) وخلدا في القبر رقم 1 (Yassine 1988: 14). ويؤرخ هذا النوع من الفخار إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

مارس العمونيون عادات دفن متعددة، منها الجماعية أو ما يعرف بالقبر العائلي، والذي شاع استخدامه في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد في منطقة جنوبي بلاد الشام. ويتكون هذا القبر من عدد من حجرات الدفن. وفي حالات أخرى، استخدم العمونيون الكهوف للدفن، حيث عثر على أمثلة لها في مواقع عمان، وسحاب، والمقابلين، وناعور. أما المرفقات الجنائزية التي جعلت في قبور الموتى؛ فكانت على الأغلب من الحلي والمجوهرات، وآنية العطور، والآنية الفخارية، والأسلحة.

ترك لنا العمونيون عددًا من الآثار الفنية، المنحوتة أو المرسومة، كما صنعوا الأختام. ويعكس فن النحت العموني تأثيرات من حضارتي بلاد الرافدين ومصر القديمة (Amr 1992-1993). ويمكن مشاهدة التأثيرات المصرية على بعض التماثيل العمونية التي عثر عليها في جبل القلعة/ عمان، مثل طريقة نحت الرأس وتصفيف الشعر المشابهة لرأس الإله المصري أوزيريس (الشكل 104) (كفافي 2006). لكن هذا لا يعني أن النحت العموني لم تكن له هويته وعناصره الخاصة به.

وقد عثر في مواقع عمونية، مثل عمان/جبل القلعة وتل العميري وتل المزار، على أختام وطبعات أختام أرخت للقرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. وزودتنا هذه الأختام وطبعاتها بمعلومات عن أسماء الملوك والأشخاص العمونيين، وألقاب كبار الرسميين، ونوع الخط الذي كتبوا به، والديانة. يضاف إلى ذلك ما تعكسه المشاهد التصويرية العمونية المنحوتة على تلك الأختام، والتي حملت مؤثرات فنية فنيقية، ورافدية، ومصرية.

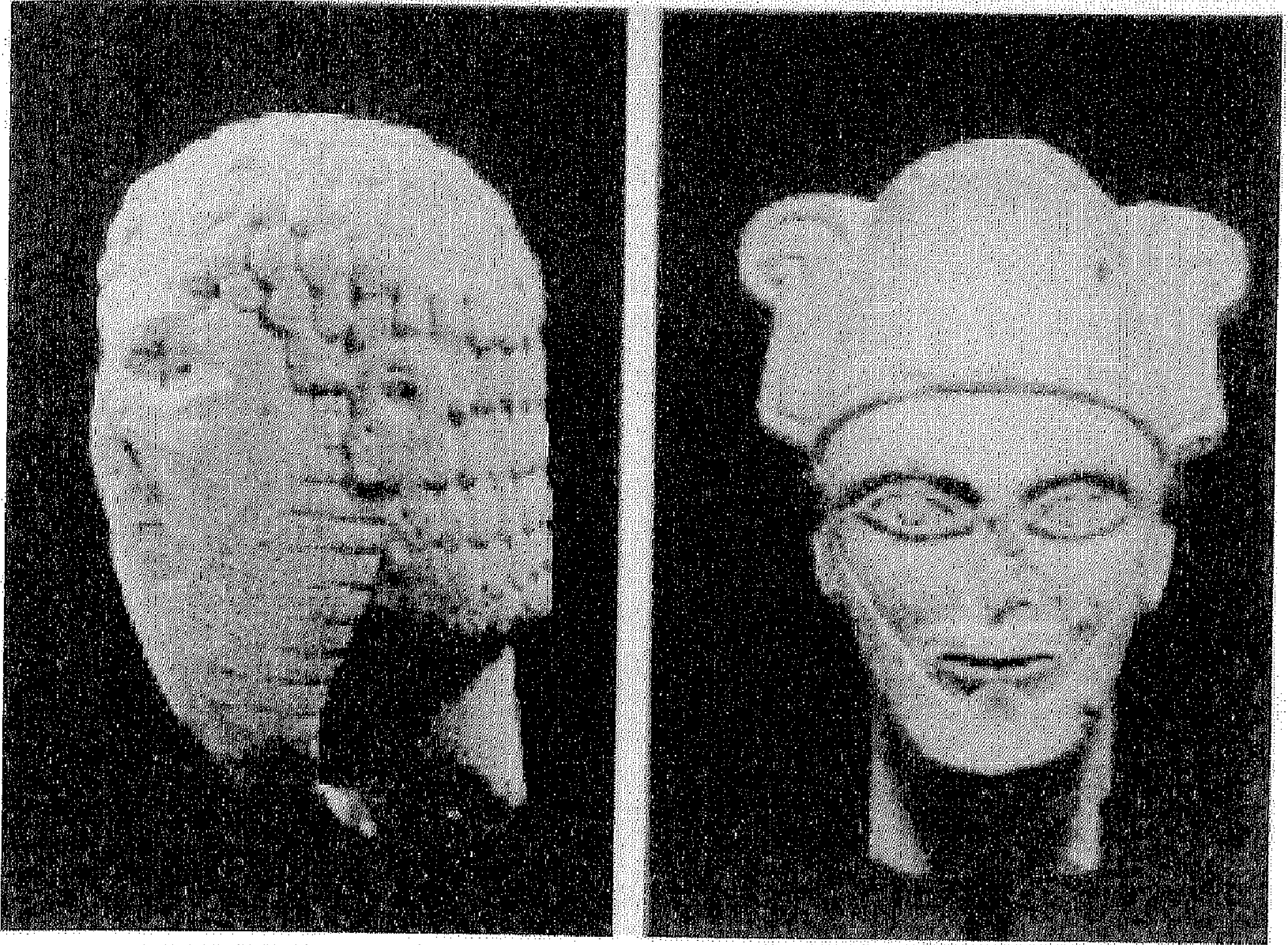
عبد العمونيون عددًا من المعبودات، منها: عنات، وعشيما، وعشتاروت، وبعل، وبس وداجون، وجاد، وهدد، وأنورتا (ننورتا)، وإيل، ومالكوم، وموت، ونانايا، ونير، وقوس وريمون، وشمش، وسيد، ويهوه، ويام، ويرح (Aufrecht 1999a: 156-157). وتدل أسماء المعبودات على أن العمونيين تأثروا كثيرًا بمحيطهم الجغرافي، خاصة في كنعان، إذ حملت معبوداتهم صفات الآلهة الكنعانية.



الشكل 102: الرجم الملفوف في عمان/ الأردن (تصوير يوسف الزعبي)



الشكل 103: آنية فخارية عمونية (عن Der Königs Weg)



الشكل 104 : رأسان لتمثالين عمونيين (عن Der Königs Weg)

مملكة مؤاب

حاول الباحثون في آثار الأردن معرفة مصدر الاسم "مؤاب"، فمنهم من ربطه باسم قبيلة بدوية، وآخرون حاولوا تفسيره من خلال دراسة أسماء الأماكن الواردة في النصوص المصرية والتوراتية. ورأى البعض الآخر أن هذا الاسم يشير إلى بقعة جغرافية (كفافي 2006).

امتدت مملكة مؤاب في المنطقة الواقعة إلى الشرق من البحر الميت، وامتازت بتنوع بيئي جغرافي، إذ تخللتها السهول، والمرتفعات الجبلية التي تخترقها أودية عميقة. وفيها قليل من الينابيع، ويحدها من الشمال وادي الموجب الذي كان دائم الجريان، ووادي الحسا من الجنوب. وبالإضافة إلى الأراضي الزراعية، هنالك مناطق رعوية لرعي الماشية.

وكما ذكرنا، فإن كثيراً من الشواهد الأثرية تشير إلى عدم ثبات حدود مملكة مؤاب، خاصة في الجهة الشمالية، ولا أدل على ذلك من نتائج التنقيبات الأثرية التي جرت في موقع ذيبان، ومما ذكره نقش الملك المؤابي ميشع.

عاش الناس في منطقة مؤاب منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى الوقت الحاضر دونما انقطاع. وكشفت الأعمال الأثرية في هذه المنطقة عن قرى زراعية أولى مؤرخة لأكثر من ثمانية آلاف عام من الحاضر، مثل الذراع، وظهرة الذراع، والصفية. ويعد موقع باب الذراع من أقدم المدن التي ظهرت في الأردن خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وبطبيعة الحال فإن جميع هذه المواقع سابقة في وجودها لمملكة مؤاب. كذلك لا تخلو هذه المنطقة من بقايا تؤرخ للعصور البرونزية المتوسطة، والمتأخرة، والعصور الحديدية. وتعد مواقع اللاهون ومأدبا والمدَيْنة والثمد خير مثال على المستقرات السكانية في تلك العصور.

وقد أشارت النصوص المصرية من زمن تحتموس الثاني إلى أن هذا الفرعون عسكر ضد قبائل الشاسو التي عاشت بجنوبي الأردن خلال العصر البرونزي المتأخر. كما أكدت القوائم الطوبوغرافية من زمن الفرعون تحتموس الثالث القيام بنشاطات مصرية في منطقة مؤاب خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد. واقترح دونالد ريدفورد Donald Redford أن طريق تحتموس الثالث العسكرية كانت تقطع الأردن من الجنوب إلى الشمال مارة بعدد من المواقع التي ذكرت في القوائم الطوبوغرافية التي تركها هذا الفرعون مكتوبة على جدران معبد الكرنك في الأقصر (Redford 1982; 1992). ومن تلك المواقع بلدة ياروت الحالية الواقعة في محافظة الكرك. كما ذكر اسم "مؤآب" مرتين في قوائم رمسيس الثاني، وذكر في إحداها أن هذا الفرعون عسكر في الأردن في حوالي سنة 1270 قبل الميلاد في أرض مؤاب تحديدًا (Mattingly 1996: 324). وبالإضافة للاسم "مؤاب"، يرى كل من كنيث كتشن Kenneth Kitchen وريدفورد أن اسم "ذيبان" عاصمة الملك المؤابي ميشع ورد أيضًا في الوثائق نفسها (Kitchen 1992: 26-29).

وذكر كتاب العهد القديم (العدد 21:13-26) أن الملك الأموري سيحون اتخذ بلدة حشبون (حسبان حاليًا) عاصمة له. ويضيف العهد القديم أن العبرانيين انتصروا على هذا الملك ودمروا عاصمة ملكه هذه. وتدل النصوص التوراتية على أن العلاقات بين مملكتي مؤاب وإسرائيل لم تكن مستقرة، فتارة تراها حسنة ثم ما تلبث أن تصبح سيئة. وتذكر قصة العهد القديم أن الملك المؤابي عجلون كانت له اليد العليا على العبرانيين في أثناء حكم القضاة في إسرائيل، والتي كانت في حينها أضعف عسكريًا من المملكة المؤابية. لكن العداوة بلغت ذروتها خلال حكم ملكي إسرائيل شاؤول

وداوود. ويعود العهد القديم فيذكر أن الملك سليمان تزوج امرأة مؤابية، وأنه بنى في القدس مكانًا لعبادة كموش إله المؤابيين (الملوك الأول 11:7-33).

وبعد وفاة سليمان في حوالي 923 قبل الميلاد، تمتعت مؤاب بالاستقلال الكامل، حتى تولى الملك عَمري ملك مملكة إسرائيل الشمالية الحكم (القرن التاسع قبل الميلاد)، وقام بمهاجمة مملكة مؤاب واحتلها. لكن سيطرة الإسرائيليين لم تدم طويلا، إذ استطاع الملك المؤابي ميشع في حوالي 850 قبل الميلاد الانتصار على الملك الإسرائيلي آحاب بن عَمري، وطرد المحتلين من بلاده، وخلد هذا الانتصار على مسلة منقوشة عرفت باسم حجر أو مسلة ميشع. وقد عثر على هذه المسلة قرب بلدة ذيبان (طوقان 1970).

وبعد سيطرة الإمبراطورية الآشورية على معظم مناطق بلاد الشام في القرن الثامن قبل الميلاد، أصبحت مؤاب تابعة لها. وتذكر الوثائق الآشورية عددًا من أسماء ملوك مؤاب هم: سلمانو، وكموش- نداب، وموصوري، وكموش- عس (Bienkowski 2000: 48).

وتشير كتابة على لوح طيني عثر عليه في موقع نمرود بشمالي العراق، يعود إلى زمن الملك الآشوري تيجلات بلاصر الثالث، إلى اسم الملك سلمانو من بين عدد من أسماء ملوك سورية وفلسطين الذين دفعوا له الجزية بعد حملته العسكرية على هذه البلاد في حوالي 734 قبل الميلاد (Oppenheim 1955: 282). وورد اسم مؤاب في نص من زمن الملك الآشوري سرجون الثاني (حوالي 721-705 قبل الميلاد) يذكر أن ملك مؤاب شارك مع الملوك الآخرين في عام 713 قبل الميلاد بثورة قام بها ملوك المدن الفلسطينية (Openheim 1955: 287). وبما أن الملك الآشوري استطاع قمع الثورة، واتقاء للعقاب استمرت مؤاب في دفع الجزية للآشوريين. وقد أجرى الآثاريون تنقيبات في موقع ذيبان عاصمة المؤابيين، حيث وجدوا أن الموقع كان محصنًا خلال القرن السابع قبل الميلاد (Tushingham 1972; Winnett and Reed 1964)، وتعرفوا على مخلفات أثرية مؤابية وجدت في الطبقات 2-3. فالطبقة رقم 2 أرخت لحوالي 713- 712 قبل الميلاد، بينما أرخت الطبقة 3 لزمن الملك المؤابي كموش خلطو، وهو الذي ساعد الملك الآشوري آشور بانيبال في حملته العسكرية على هذه المنطقة. وبما أن المنقبين لم يعثروا في موقع ذيبان على أية مؤشرات تدل على تدميره بالقوة، لذا يبدو أن المدينة استسلمت للآشوريين لكنها دمرت في وقت لاحق على يد الملك الكلداني نبوخذنصر. كما أن الملك المؤابي كموش- نداب قام مع عدد من حكام المدن الفلسطينية بتقديم الهدايا للملك الآشوري

سنحاريب (حوالي 704-681 قبل الميلاد) حين توليه الحكم في آشور، تأكيداً لولائهم له (Oppenheim 1955: 287).

ويشير نص من زمن الملك الآشوري أسرحدون (حوالي 680- 669 قبل الميلاد) إلى أن الملك موصوري، ملك مؤاب، وكغيره من الملوك الآخرين، أرسل مواد لبناء قصر الملك في نينوى. وأخيراً، أشار نصان من زمن الملك الآشوري آشور- بانيبال إلى أن مؤاب وإدوم وعمون كانت موالية للآشوريين الذين قاموا بحمايتها من هجمات القبائل البدوية في الصحراء المحيطة، وربما يقصد بتلك القبائل القيداريون الذين سكنوا شمال غربي الجزيرة العربية (Miller 1992a: 887). وكان صراع مؤاب مع الممالك المجاورة توقف خاصة بعد سقوط الدولة الآشورية، والاحتلال البابلي الحديث (الكلداني) لبلاد الشام في حوالي 582 قبل الميلاد. وبعد سقوط بابل على يد الفرس في حوالي 539 قبل الميلاد، لم يعرف إلا القليل عن مؤاب التي أخذت بالاختفاء تدريجياً. وعلى أية حال، بدأت خلال القرن الرابع قبل الميلاد بعض القبائل العربية بالاستقرار في هذه المنطقة حتى تولى الأنباط العرب زمام الأمور فيها.

آثار المملكة المؤابية

كشفت التنقيبات التي أجريت في مواقع جبل نبو/ مأدبا، ومأدبا، وذيبان، وخربة المدَيْنة، وعراعر، وبالوع، وأدر، والكرك، عن مخلفات أثرية تعود للمملكة المؤابية. وتبين، على سبيل المثال، أن موقع البالوع كان مسوراً بسور مزدوج. أما أشكال البيوت التي اكتشفت في الموقع؛ فجاءت مشابهة لمخططات البيوت التي عثر عليها في آشور في بلاد الرافدين حيث بنيت غرف الوحدة المنزلية حول ساحة مكشوفة. وكانت البيوت مبنية من الحجارة (Worschech 1993).

وأشار المنقبون في موقع ذيبان إلى أن أقدم البقايا في الموقع تعود للعصر البرونزي المبكر الثالث، ولم يسكن الموقع بعدها إلا في العصر الحديدي الأول. ويبدو أن المؤابيين هم الذي قاموا بإعادة السكنى في الموقع خلال هذه الفترة، إذ عثر في قمة تل ذيبان على مبنى ربما كان مكاناً مؤابياً مقدساً حيث عثر على مباخر تشبه تلك التي عثر عليها في بيسان، وأرخت للعصر الحديدي الأول (Tushingham 1975: 332). وعثر على أهم بقايا العصر الحديدي الثاني في موقع ذيبان في الزاوية الجنوبية الشرقية للموقع. ويعتقد

المنقب أن هذه المنطقة تمثل منطقة سكنى الملك ميشع الذي اختار مكانًا مشرفًا خارج أسوار المدينة الأولى.

وتشبه تحصينات المؤابيين تحصينات العمونيين، إذ عثر على أبراج وقلاع مؤابية، خاصة في المنطقة الشرقية للمملكة المؤابية. ومن تلك القلاع، اللاهون وقصر العلا. وتختلف الأبراج والقلاع المؤابية عن العمونية في عدم وجود الشكل الأسطواني/ المستدير فيها.

عثر في موقع مدينة الثمد على قلعة/ برج كبير كان جزءًا من نظام التحصينات الذي أحاط بالموقع خلال العصر الحديدي الثاني. ويعتقد المنقبون أنه بني لحماية الموقع من هجمات البدو في الصحراء الواقعة شرق المملكة المؤابية. وكانت القلعة بنيت بالحجارة البازلتية المتوافرة في المنطقة. أما البوابات؛ فبنيت من الحجر الكلسي. وعثر المنقبون في المنطقة القريبة من البوابات على تاجيات لأعمدة، وعلى أحجار عتبات ضخمة.

أما في خربة المضيبع؛ فلاحظ الآثاريون آثارًا وبقايا بوابات تحصينية ظاهرة على السطح. وذكر المنقبون أن المجمع البنائي الذي كشفوا عنه في خربة المضيبع كان يتكون من بناء علوي ذي أعمدة خشبية بنيت فوقها العتبات الكلسية التي تفصل بين الأعمدة ذات التاجيات من طراز Proto-Aeolic. ويبدو أن سقف هذا المجمع البنائي كان من أعواد القصب المغطاة بطبقة من الطين. ويعتقد المنقب أن هذا المجمع يعود للقرن الثامن قبل الميلاد، وأنه ظل مستخدمـًا حتى الفترة الهلنستيـة، حين تحطم إثر هزة أرضيـة (Chadwick et al. 2000).

لم يعثر إلا على عدد قليل من الآنية الفخارية المؤابية، وذلك في قبور، أو في مواقع كانت مأهولة بالسكان مثل ذيبان، وجبل نبو/ مأدبا، وأدر، والبالوع، والكرك. وأرخت تلك الآنية للقرن السابع قبل الميلاد. أما أشكال الآنية؛ فجاءت قليلة التنوع مقارنة بالفترات الأخرى، ومنها: زبادٍ عميقة ذات قاعدة ثلاثية الأرجل، وأباريق، وأباريق صغيرة. وزخرفت بعض تلك الآنية بأشرطة مدهونة عريضة تفصل بينها أشكال مثلثات.

وفيما يتعلق بعادات الدفن، فقد كشف عن مقابر مؤابية جماعية في موقعي ذيبان وجبل نبو، جاءت مشابهة في طريقة بنائها لتلك المؤرخة للقرن السابع قبل الميلاد، والتي عثر عليها في الأردن وفلسطين. ففي موقع ذيبان، حفرت بعض المقابر في الصخر. وكانت ذات دكّة، ووجد في أحدها تابوت من الصلصال، لكنه يختلف في شكله عن التوابيت

العمونية، وجاء أقرب إلى التوابيت الآشورية. كما عثر على كسر من توابيت صلصالية آشورية في موقع جبل نبو.

ومن المعروف أن اللهجة المؤابية هي إحدى اللهجات السامية الشمالية الغربية. ويشبه الخط المؤابي الخطين العبري القديم والعموني، علمًا أن لكل لهجة وخط من هذه الخطوط سماتها الخاصة بها. ويعد نقش الملك كموشيت الذي عثر عليه في الكرك عام 1958 (الشكل 105)، ونقش الملك المؤابي ميشع (الشكل 106) الذي عثر عليه في بلدة ذيبان عام 1868 أهم النقوش المؤابية التي عثر عليها في مؤاب حتى الآن (Timm 1989). وبالإضافة لهذين النقشين، يمكن للدارس أن يتعرف على الخط واللغة المؤابية من خلال دراسة طبعات الأختام المؤابية، والتي عثر على عدد منها لدى تجار الآثار، لكن العلماء استطاعوا نسبتها إلى المؤابيين اعتمادًا على طرازها، وعلى ما هو منقوش عليها من كتابات (Stern 2001: 260). وقد تضمنت تلك الكتابات أسماء أعلام مؤابية، جاء بعضها مركبًا مرتبطًا باسم الإله المؤابي كموش.

ولا تزال مسلة ميشع أهم وثيقة مؤابية مكتوبة، إذ تزودنا بمعلومات عن التاريخ والديانة، والجغرافيا، والفكر لدى المؤابيين. ويتكون النص المنقوش على المسلة من 34 سطرًا ويخلد انتصار الملك ميشع المؤابي الذي حكم في حوالي 850 قبل الميلاد، على ملك إسرائيل. ويشير النص إلى أهم الأعمال العمرانية التي قام بها الملك ميشع، ومنها المباني والمذبح، والبوابات، والأسوار، والأبراج (Dearman 1989).

وعلى الرغم من الخصوصية الثقافية للمؤابيين، فإننا نرى أن المادة الأثرية المكتشفة في المواقع المؤابية لا تختلف كثيرًا عن تلك المنسوبة للعمونيين والإدوميين.



الشكل 105: نقش كموشيت المؤابي (تصوير J. Sauer)



الشكل 106 : مسلة الملك المؤابي ميشع/القرن التاسع قبل الميلاد (عن Isserlin 2001)

مملكة إدوم

يقول المختصون باللغات السامية إن مفردة "إدوم" ذات جذر سامي، وتعني اللون الأحمر نسبة إلى صخور المنطقة التي سكنها الإدوميون. وتمتاز منطقة إدوم بمرتفعاتها ذات المسالك الوعرة، حيث يتجاوز ارتفاع بعض الجبال فيها 1000م عن مستوى سطح البحر. وفي بعض أيام السنة تسقط الثلوج على المرتفعات الجبلية، خاصة في منطقة الشوبك. وكانت طبيعة المنطقة خلال العصور القديمة حددت توجه الناس إلى حياة الرعي أولاً والزراعة ثانيًا. وإلى جانب ذلك، دلت المسوحات والتنقيبات الأثرية في منطقة وادي فينان إلى أن السكان مارسوا تعدين النحاس منذ العصر الحجري النحاسي، لكنه أصبح عاملاً اقتصاديًا مؤثرًا خلال العصور البرونزية (Hauptmann 1986; 1989; Hauptmann and Weisgerber 1987; Hauptmann et al. 2005).

وتبقى المكتشفات الأثرية والمصادر المكتوبة الفرعونية والرافدية والمحلية الأساس في معرفتنا بتاريخ إدوم في العصور البرونزية والحديدية. وأول ذكر لإدوم في المصادر المصرية جاء من زمن الملك مرنبتاح في حوالي 1224-1214 قبل الميلاد، ومن حوالي 1212-1202 قبل الميلاد في مذكرة بعث بها ضابط على الحدود يقول فيها إنه سمح لقبائل من "إدوم" بالمرور مع قطعانها عبر النقطة الحدودية التي يشرف عليها (Wilson 1955: 259). وهذه الإشارة إلى اسم "إدوم" في وثيقة من القرن الثالث عشر قبل الميلاد تؤكد استخدام هذا الاسم منذ تلك الفترة، وربما أقدم، وذلك بغض النظر عما إذا كان الاسم يشير إلى شعب أو إلى منطقة جغرافية. بل وأكثر من هذا، فإن قوائم تحتموس الثالث الطوبوغرافية (حوالي 1490-1436 قبل الميلاد) قد جاءت على ذكر الاسم i-d-ma، إذ يرى بعض العلماء أنه مرادف للاسم "إدوم" (Helck 1971: 243-244).

ويعتقد المختصون أن الاسم "سعير" الذي ذكر في نص على إحدى أوراق البردي من زمن الفرعون رمسيس الثاني (حوالي 1290-1224 قبل الميلاد) مرادف للاسم "إدوم" (Kitchen 1992: 26-27). كذلك ورد الاسم "سعير" في رسائل تل العمارنة المؤرخة لبداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وذلك في الرسالة التي بعث بها عبدي-خيبا ملك القدس إلى الفرعون أمنحوتب الثالث (رسالة رقم EA 288) (Albright 1955: 488).

أما في النصوص الآشورية؛ فقد جاءت أقدم إشارة للاسم "إدوم" من زمن الملك أدد-نيراري الثالث (حوالي 810-783 قبل الميلاد)، إذ ذكر بأنه أخضع إدوم، وأنها أصبحت تابعة لحكمه. غير أن بعض الباحثين يرى غير ذلك، ويعتقد أن إدوم دخلت طواعية في تبعية آشور لتحمي نفسها من جبروت هذه الدولة القوية. وعلى الرغم من هذا، وقعت إدوم كغيرها من الممالك الأخرى تحت السيطرة الآشورية، لكن غير المباشرة، نتيجة لحملة تيجلات بلاصر الثالث على فلسطين في عام 734 قبل الميلاد. وتردد اسم مملكة إدوم وأسماء ملوكها أكثر من مرة في المصادر الآشورية. فعلى سبيل المثال، ورد اسم الملك قوس ملكو في سجلات الملك تيجلات بلاصر الثالث على أنه واحد من الملوك الذين دفعوا له الجزية (Oppenheim 1955: 282). كما ورد اسم "إدوم" أيضًا في إحدى الوثائق المؤرخة لزمن حملة الملك سرجون الثاني (حوالي 712 قبل الميلاد) حينما تحالف عدد من دول المنطقة ضده. ووردت أسماء ملوك إدوميين آخرين من أمثال الملك عيارعامو الذي قدم الهدايا للملك سنحاريب في عام 701 قبل الميلاد، والملك "قوس جبار" الذي كان واحدًا من اثني عشر ملكًا قدموا مواد لبناء قصر الملك أسرحدون في عاصمته نينوى (Oppenheim 1955: 291)، كما قدم هذا الملك هدايا للملك آشور- بانيبال. وعثر في موقع أم البيارة، في جنوبي الأردن، على طبعة ختم تخص الملك الإدومي قوس جبار، كانت مختومة على غطاء طيني Bulla، كتب عليه "ملك إدوم".

ويظهر أن المملكة الإدومية توسعت باتجاه غربي وادي عربة، أي جنوبي فلسطين، خلال القرون الأخيرة من وجودها، بدلالة العثور على مواقع وآثار إدومية في تلك المنطقة. وربما ساعدتها في تحقيق ذلك الحملات العسكرية الآشورية على بلاد الشام، ثم انهيار مملكة يهوذا على يد الملك نبوخذنصر الكلداني في حوالي 586 قبل الميلاد. لكننا لا نستبعد أن يكون الملك نابونيد هاجم إدوم خلال حملة عسكرية في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، إذ عثر في موقع السلع بالقرب من الطفيلة، بجنوبي الأردن، على مسلة منحوتة في الصخور، نقش عليها نص بالخط المسماري لم يستطع المختصون قراءته بسبب التلف الذي أصاب كلماته نتيجة العوامل الطبيعية (Wartke 2005).

ولا زلنا لا ندري ماذا حل بالإدوميين، وبجيرانهم المؤابيين والعمونيين، بعد انتهاء الاحتلال الفارسي للمنطقة على يد الإسكندر المكدوني في حوالي عام 333 قبل الميلاد. لكن ربما أن سكان هذه الممالك الثلاث بقوا فوق أرضهم بعد أن انصهروا مع الأقوام

العربية الأخرى في المنطقة. وعلى أية حال، ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد، بدأ العرب الأنباط بالاستقرار في منطقة إدوم، خاصة في شرقي وادي عربة، وأخذوا عن الإدوميين كثيرًا من ثقافتهم، لا سيما ما اتصل منها بكيفية التعامل مع طبيعة الأرض التي عاشوا عليها (Bartlett 1979; Knauf 1989).

آثار مملكة إدوم

تختلف منطقة إدوم من حيث الطبيعة الجغرافية، والتكوين الجيولوجي، والبيئة عن مناطق عمون ومؤاب. بل ذهب بعضهم للادعاء بأن عددًا كبيرًا من سكان إدوم لم يتحولوا إلى المدنية، وبقوا بدوًا رحلاً، وأن بقية الناس عاشت في قرى، ومزارع، وقلاع أو أبراج، مما يفسر قلة المخلفات المعمارية الإدومية مقارنة بغيرها (Bienkowski 1995).

واعتمادًا على نتائج التنقيبات الأثرية، عثر على بقايا بيوت في عدد من المواقع الإدومية، منها بصيرة، وطويلان، وأم البيارة، وتل الخليفة، وغرارة (Hart 1987; 1988; 1989; 1992; Bienkowski 1990). ويبدو أن الطرز العمائرية وتقنيات البناء الإدومية لا تختلف عن غيرها من المباني المعاصرة التي بنيت في جنوبي الأردن، إذ بنيت المباني من حجارة كان بعضها مشذبًا، وتكونت الجدران من صف عريض من الحجارة. ولاحظ المنقبون في موقع طويلان وجود طبقة من القصارة غطت الجدران. أما أرضيات البيوت؛ فكانت من الصخر الطبيعي أو من الطين المرصوص. واستخدم الناس في بعض الأحيان أعمدة لرفع السقوف، كما كان الحال في موقعي طويلان وغرارة (Bienkowski 1995: 136).

وأخذ البيت شكلاً مستطيلاً، وتكون المنزل الواحد من عدة غرف، كانت إما متطاولة الشكل أطلق عليها الباحثون اسم "غرف بشكل الممر" Corridor-Like Rooms، أو صغيرة المساحة. وقد عثر على بيوت ذات غرف متطاولة في مواقع أم البيارة، والصادة، وجبل قصير (Zeitler 1992). ويمكن القول إن مخططات البيوت الإدومية جاءت متنوعة، فمثلاً، عثر في طويلان على أربعة طرز عمائرية، بينما عثر المنقبون في غرارة على أبراج مبنية في زوايا البيوت. ويرى الباحثون أن أفضل الطرز العمائرية المدنية الإدومية عثر عليها في موقعي بصيرة "عاصمة الإدوميين"، وتل الخليفة (كفافي 2006).

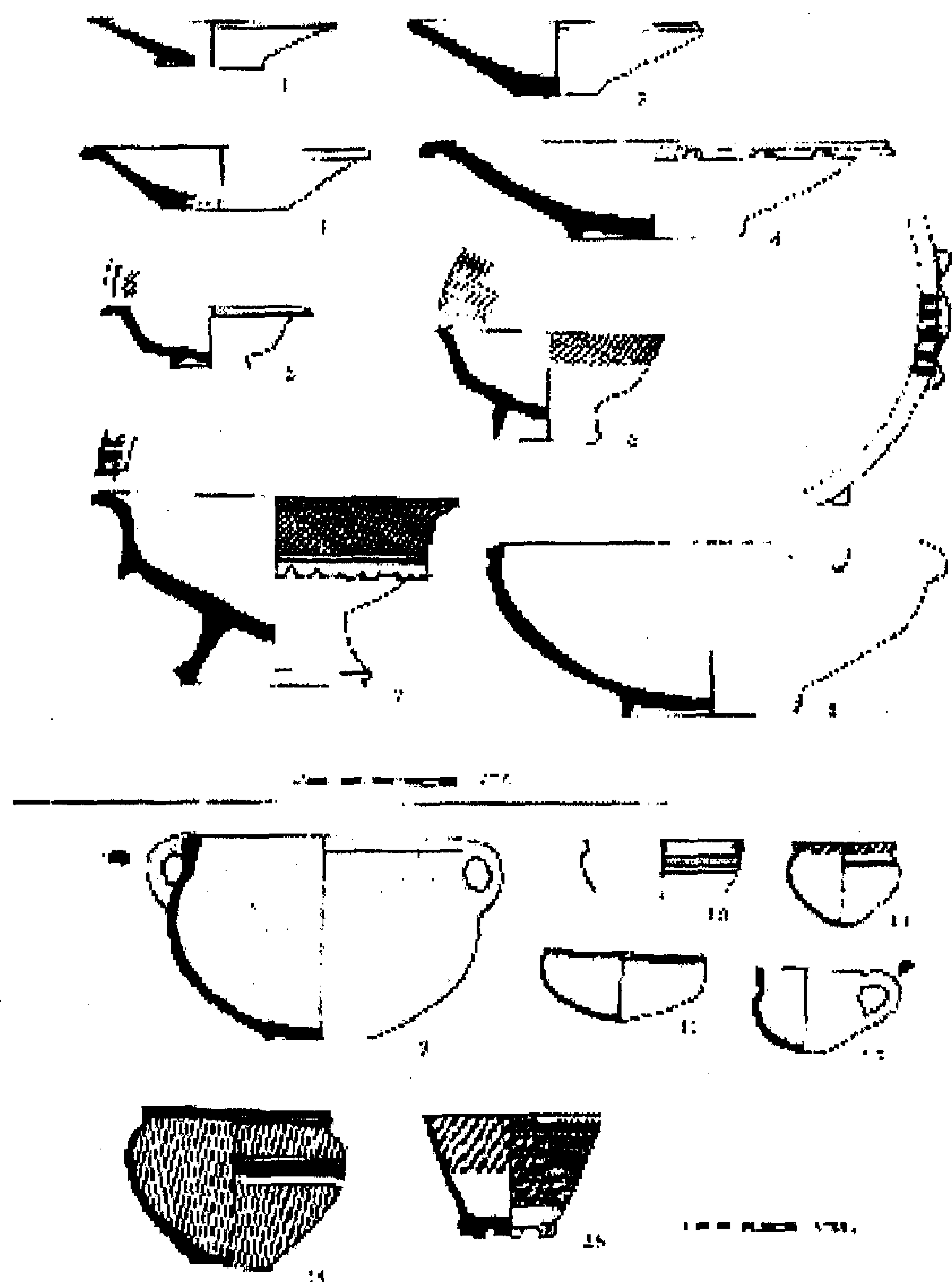
وأثبتت التنقيبات الأثرية أن موقع بصيرة كان مسورًا، وأن بقايا السور لا تزال ظاهرة حتى اليوم، فقد بني من الحجارة الغفل بعرض بلغ حوالي أربعة أمتار. ويبدو أن الأجزاء

الداخلية للسور تعرضت للتهدم في بعض المناطق، مما أجبر السكان على إعادة بنائها. وربما أن هذا الهدم، حسب رأي المنقبة، حصل أيام الرومان (Bennett 1974: 13). وللعلم، فبالإضافة للفخار الروماني، عثر على فخار من العصر الحديدي الثاني، ولم يعثر على أية أنواع أخرى من الفخار.

وإضافة للأسوار، استخدم الإدوميون نظامًا تحصينيًا آخر، وهو بناء القلاع، حيث كشفت التنقيبات التي أجريت في موقع تل الخليفة، على خليج العقبة، عن قلعة ذات جدار مزدوج، مكونة من ست غرف بنيت في المساحة الواقعة في وسطها. وجاء الموقع محاطًا بسور ذي بوابة تضم أربع غرف. وأرخ المنقب هذه التحصينات للفترة الواقعة بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، ورأى أنها إدومية الأصل. ويرى آخرون أن هذه القلعة الإدومية استخدمت محطة تجارية على رأس خليج العقبة (Bartlett 1989: 125, 133-136). وفي المسح الذي أجراه نلسون جلوك خلال النصف الأول من القرن العشرين في الأردن، عثر على حصون وأبراج وصفها بأنها دفاعية، علمًا أن آخرين رأوا أنها بنيت لأغراض زراعية (كفافي وهنداوي 2000).

لم يعثر حتى الآن على آنية فخارية إدومية تسبق القرن الثامن قبل الميلاد. وجاءت الآنية المنشورة حتى الآن من مواقع في الأردن أهمها تل الخليفة (Glueck 1967; Practico 1993)، وبصيرة (Bennett 1974)، وبعجة III، والصادة في منطقة البترا (Zeitler 1992).

أما أشكال الآنية (الشكل 107)؛ فكانت متعددة، منها الزبادي، والملاعق المبسطة Spatula، والكؤوس الجؤجؤية الشكل، والكؤوس المثقبة، والمباخر التي جاءت حوافها ذات زخارف مسننة. وكانت لبعض الآنية أغطية، بينما فتحت فتحات على شكل نوافذ في جسم آنية أخرى (Glueck 1967: 24-38, Figs.1-5). وعثر كذلك على زبادٍ جؤجؤية مزخرفة بإضافة بطانة/روبة حمراء اللون إلى بدن الإناء، ثم دهنت منطقة الكتف بخط عريض ذي أشكال هندسية مثل رقعة الشطرنج. أما الزبادي الكروية؛ فكانت مزخرفة بأخاديد على شكل خطوط. كذلك استخدم الخزاف الإدومي أنماطًا أخرى من الزخارف، مثل الثقوب غير النافذة التي تؤلف أشكال مثلثات أو خطوط (Glueck 1967: 14, Fig. 2).



الشكل 107: آنية فخارية إدومية من بصيرة (عن Oakeshott 1983)

لا تزال معلوماتنا عن عادات الدفن عند الإدوميين قليلة جدًا على الرغم من إجراء العديد من المسوحات والتنقيبات الأثرية في منطقة إدوم. وخلال التنقيبات التي أجريت في وادي فينان مؤخرًا على يد البعثة الأمريكية الأردنية المشتركة، جرى التنقيب في مقبرة، نعتقد أنها إدومية. ووجد المشاركون في المسح الأثري الذي أجري خلال السنوات الأخيرة في محافظة الطفيلة كهوفًا استخدمت قبورًا (MacDonald et al. 2004). فقد عثرت كريستال بنيت في أثناء التنقيبات الأثرية في موقع بصيرة عام 1974 على كهوف وأنفاق محفورة في الصخر الطبيعي، قدرت أنها استخدمت مدافن لملوك الإدوميين. إلا أن بيوتر بينكوفسكي Piotr Bienkowski يرى أنه لم يعثر داخل هذه الكهوف والأنفاق على ما يؤكد أنها كانت مدافن (Bienkowski 2002: 127).

اهتم الإدوميون كغيرهم من أبناء المنطقة بالفنون، فقد عثرت البعثات الأثرية التي نقبت في مواقع بصيرة وطويلان وأم البيارة على لقى أثرية مزخرفة صنعت من الحجارة والأصداف والمعادن. وكانت من أجملها الحلي الذهبية من موقع طويلان (Bienkowski 1991). كما عثر في بصيرة على صدفة حفرت على سطحها الخارجي أشكال نباتية وهندسية (Bennett 1977: Pl. IB). بالإضافة إلى هذا، عثر خلال التنقيبات التي أجريت في مدينة العقبة على عظام، وقطع من العاج مزخرفة بزخارف محفورة على هيئة أسد يزأر، أو أشكال آدمية.

أما الكتابة الإدومية؛ فلم يعثر حتى الآن إلا على أمثلة قليلة منها، وجاءت النصوص المكتوبة قصيرة جدًا. وإذا جاز لنا أن نتحدث عن لهجة إدومية، فنستطيع القول إنها كانت إحدى اللهجات السامية الغربية، وهي مشابهة للعبرية القديمة والفنيقية. ويبدو أن الإدوميين لم يكتبوا بالخط الآرامي إلا مع نهاية القرن الثامن قبل الميلاد (Stern 2001: 270).

وعلى أية حال؛ فإن جميع ما عثر عليه من نقوش إدومية كتب أو نقش ابتداء من القرن السابع قبل الميلاد، ولا يوجد ما هو أقدم من هذا التاريخ حتى الآن. وفي المقابل، يرى الآثاريون أن النقوش الإدومية بقيت قيد الاستعمال حتى العصر الهلنستي. فقد عثر على كسرتين من الفخار عليهما كتابة إدومية، الأولى في تل الخليفة (Glueck 1971a) والثانية في موقع قلعة العزّى الواقع إلى الجنوب من تل عراد إلى الجنوب الغربي من البحر الميت في فلسطين (Yeivin 1969; Misgav 1990). وكتبت على الكسرة الأولى أسماء، مثل: قوس بنا، وقوس نداب، وبيت قاقس. بينما يتحدث النص المكتوب على الكسرة الثانية عن إعطاء أوامر لإحضار طعام إلى أحد المذابح. كما عثر في بصيرة وأم البيارة على كسر فخارية أخرى مكتوب عليها (Bartlett 1989: 215-216). وكما ذكر سابقًا، فقد عثر في موقع أم البيارة على سدادة إناء Bulla مطبوع عليها اسم الملك الإدومي قوس جبار. كذلك وجدت في بصيرة رقم طينية منقوشة (Puech 1977). ووجد بعض من الكتابات والنقوش الإدومية على الأختام وطبعاتها.

وختامًا، يمكن القول إن نهاية الممالك العمونية والمؤابية والإدومية تمثل نهاية العصور الحديدية في الأردن.

الفصل التاسع

البابليون الجدد والفرس في بلاد الشام

حوالي 587 – 333 قبل الميلاد

الفصل التاسع

البابليون الجدد والفرس في بلاد الشام

حوالي 587 – 333 قبل الميلاد

تشير المصادر التاريخية إلى أن ضعفاً ألم بمملكة آشور بعد وفاة الملك آشور-بانيبال في عام 626 قبل الميلاد، مما شجع المصريين على التدخل في شؤون بلاد الشام مرة أخرى. كذلك استغل نبو-بلاصر الكلداني (حوالي 625 -605 قبل الميلاد) هذا الأمر، واستولى على الحكم في بابل وأعلن نفسه ملكاً عليها (Heinz 2002: 257). بعد سيطرة نبو-بلاصر على الحكم في بابل، تحالف مع الميديين وأسقطا دولة آشور، واقتسما ممتلكاتها. ولأن الآشوريين كانوا أصحاب الأمر في بلاد الشام قبل انتهاء دولتهم، نصّب البابليون الجدد أنفسهم ورثة على هذه المنطقة. وكان المصريون في عهد الفرعونين بسماتيك ونيكاو (نخاو) الثاني هبوا لنجدة الآشوريين في آخر معاركهم ضد البابليين الجدد، وسيطروا على كركميش وأسسوا حامية مصرية فيها. ويبدو أن أحد أسباب هذا الدعم هو محاولة الفراعنة إعادة السيطرة على بلاد الشام (قابلو وفرعون 2006: 117)، مما شكل تحدياً للبابليين الذين أدركوا هذا الأمر، ودخلوا بلاد الشام. وقامت القوات البابلية في عام 605 قبل الميلاد، وبقيادة نبوخذنصر بمهاجمة مدينة كركميش وتدمير الحامية المصرية فيها.

عاصر الملك الكلداني نبوبلاصر خلال نهاية حكمه الفرعون المصري نيكاو الثاني (610-595 قبل الميلاد)، ووضع كلاهما السيطرة على بلاد الشام نصب عينيه. فضم الفرعون المصري قواته في سورية إلى قوات الملك الآشوري آشور-أوباليط الثاني آخر ملوك آشور، وجعل مكان إقامته بالقرب من مدينة حماة، وأصبح نهر الفرات الحد الفاصل بين المصريين وبلاد آشور التي وقعت بأيدي البابليين والميديين. وكما ذكرنا جرت معركة حاسمة في كركميش، اضطر بعدها الجيش المصري إلى الانسحاب فطاردهم نبوخذنصر حتى هزمهم مرة ثانية في منطقة حماة (Klengel 1992: 231).

توفي نبوبلاصر، وتولى الحكم في بابل ولي عهده نبوخذنصر (604 – 562 قبل الميلاد) الذي حارب الفرعون المصري نيكاو الثاني في عام 601 قبل الميلاد، وجرد عدة حملات عسكرية على بلاد الشام وشمالي الجزيرة العربية في الفترة بين حوالي 604 – 601 قبل الميلاد. بعد وفاة نيكاو الثاني، تولى الحكم من بعده بسماتيك الثاني (595 – 589 قبل الميلاد)، وكان يحكم مدينة صور الفنيقية إتو-بعل الثالث. كما قام نبوخذنصر في عام 598 قبل الميلاد بمحاصرة القدس نتيجة لتحالفها مع المصريين ضده، لكنه لم يحتلها إلا خلال حملته الثانية عليها في عام 587 قبل الميلاد. وكان السبب هذه المرة أيضًا أن الفرعون المصري أبريس شجع صدقيا ملك يهوذا على رفض دفع الجزية للبابليين، وهكذا فعل صدقيا، فما كان من نبوخذنصر إلا أن جرد حملة عسكرية على بلاد الشام، تمكن خلالها من إسقاط القدس وسبي أهلها إلى بابل، وطرد المصريين من بلاد الشام. وسيطر البابليون الجدد على بلاد الشام طيلة الفترة الممتدة بين أعوام 587-539 قبل الميلاد.

أما عن علاقة بابل بفنيقيا؛ فقد أشرنا إليها في سياق حديثنا عن الفنيقيين، لكننا نكرر القول بأن بابل كانت لها مصلحة حيوية في محافظتها على السيطرة على المدن الفنيقية. وتشير المصادر التوراتية إلى هجوم بابلي على مدينة صور، والاستيلاء عليها بعد حصار دام ثلاثة عشر عامًا. ومما يذكر أن بعض المصادر تشير إلى استخدام نبوخذنصر لخبراء عسكريين من المدن الفنيقية، صور وأرواد وجبيل، في جيشه.

بعد وفاة الفرعون أبريس، خلفه على الحكم الفرعون أماسيس الثاني (570-526 قبل الميلاد)، ونشبت على أثرها نزاعات داخلية في مصر شجعت نبوخذنصر على مهاجمتها. وعلى الرغم من ادعاء نبوخذنصر النصر، إلا أن نتيجة المعركة ربما لم تحسم لأي منهما، لكن بابل بقيت المسيطرة على بلاد الشام (كلينغل 1998: 260).

بعد وفاة نبوخذنصر، حكم بابل عدد من الملوك الضعاف حتى جاء الملك نابونيد (555-539 قبل الميلاد) الذي قام في بداية حكمه بإعادة الأمور إلى نصابها في البلاد فمثلاً أعاد تنصيب بعل عزر ملك صور على عرشه. ونشطت بابل من جديد في بلاد الشام، ونقلت أخشاب الأرز من لبنان إلى بابل، كما تمكنت من إعادة سيطرتها على حرَّان عام 552 قبل الميلاد، بعد أن كانت تحت حكم الميديين منذ عام 610 قبل الميلاد (مرعي 1998). لكن الأحوال بين بابل ومصر اختلفت في مرحلة لاحقة، حيث شعرتا بالخطر الفارسي المداهم لهما، فقامتا في عام 546 قبل الميلاد بعقد معاهدة سلام بينهما (قابلو وفرعون 2006: 121).

وفي جنوبي بلاد الشام، فبعد اندحار الآشوريين وخروج القوات المصرية منها، دخل البابليون فلسطين في عام 604 قبل الميلاد، واحتلوا مدينة عسقلان الساحلية. ودمرت بعض المدن الفلسطينية الأخرى نهائيًا، ولم تعد إلى الحياة إلا في أثناء الحكم الفارسي. وفي الوقت ذاته، قام يهوياقيم بالاستيلاء على الحكم في مملكة يهوذا وأعلن ولاءه لمملكة بابل. لكن ولاءه هذا لم يدم طويلاً، إذ نجد أنه شارك في ثورة ضد بابل، قام على إثرها الملك البابلي بإرسال حملة عسكرية إلى يهوذا في عام 599 قبل الميلاد، نتج عنها تحويل الطرق التجارية لتعبر المناطق الخاضعة لحكم البابليين. ويبدو أن بابل شجعت ممالك عمون، ومؤاب، وإدوم على مهاجمة يهوذا. ويذكر العهد القديم (إرميا 52) أن يهوياكين تولى الحكم في يهوذا بعد وفاة والده يهوياقيم، لكنه وجد نفسه مهاجَمًا ومستسلمًا للبابليين الذين نفوه هو وشعبه، وعينوا في الحكم بدلاً منه عمه زكريا.

ثارت يهوذا من جديد على البابليين في عام 588 قبل الميلاد، مما استدعى عودة نبوخذنصر للمنطقة على رأس جيش حاصر القدس. لكنه اضطر لفك الحصار عن القدس لمواجهة جيش مصري هب لنجدتها. وبعد هزيمة الجيش المصري، وجدت يهوذا نفسها وحيدة في مواجهة البابليين بقيادة نبوخذنصر الذي استطاع في عام 587 قبل الميلاد تدمير مدينة القدس وسبي أهلها الى بابل. بعد هذا، وفي عام 582 قبل الميلاد وجه

نبوخذنصر حملة عسكرية إلى عمون ومؤاب، وسيطر عليهما (Ahlström 1993; Stern 2001). ويمثل تاريخ هذه الحملة (سنة 582 قبل الميلاد) بداية الحكم البابلي الحديث على جزء من أراضي الأردن. وهذا دعا بعض الباحثين (Ahlström 1993: 801) للقول بأن عمون ومؤاب ضمتا للحكم في بابل. وعلى أية حال، فإن السيطرة البابلية على بلاد الشام انتهت بعد سقوط هذه المملكة على يد الفرس في حوالي 539 قبل الميلاد.

ومن المعلوم أن الملك نابونيد ترك بلاده ليقيم عدة سنوات في مدينة تيماء في شمال غربي الجزيرة العربية. إلا أن المعلومات المنشورة حول نشاطات هذا الملك في جنوبي بلاد الشام وشمال غربي الجزيرة العربية لا تزال محدودة، ومن أهمها ما ورد منقوشًا على مسلة السلع. وكما نعلم، فإن نابونيد حاصر مدينة بصيرة في حوالي 553 قبل الميلاد (Bienkowski 2001: 347; Stern 2001: 328).

ولا يعرف أحد حتى الآن لماذا انتقل نابونيد في السنة السادسة من حكمه للإقامة في تيماء بشمال غربي الجزيرة العربية. ويعزو البعض ذلك إلى وقوع هذه المدينة على طريق البخور القادم من بلاد اليمن إلى جنوبي بلاد الشام ومنها إلى بلاد الإغريق (مرعي 1998). ويبدو أن غياب نابونيد مدة طويلة عن بلاده أثر كثيرًا في مجريات الأحداث فيها وفي البلدان المجاورة، إذ نجد الملك الفارسي قورش الثاني ينتهز الفرصة، ويوسع حدود مملكته على حساب الممالك المجاورة. وأدى هذا إلى زيادة نفوذ فارس في المناطق المجاورة وسيطرتها على النواحي الاقتصادية فيها مما أدى إلى مضاعفة قوتها العسكرية، وتمكنها في عام 539 قبل الميلاد من دخول بابل والاستيلاء على الحكم. وبعد أن دخل الفرس بابل، سيطروا على منطقة شرقي البحر المتوسط، وبقوا فيها حتى جاء محتل جديد هو الإسكندر المكدوني في حوالي 333 قبل الميلاد.

فارس وبلاد الشام

تحدثنا سابقًا عن دور بلاد فارس في بلاد الشام واحتلالها في الفترة ما بين حوالي 539-332/333 قبل الميلاد. وبالرغم من أن الفرس الأخمينيين احتلوا البلاد لمدة زادت عن المائتي عام بقليل، إلا أن المصادر والوثائق الفارسية الأخمينية لا تخبرنا بمعلومات كافية حول نشاطاتهم المختلفة في بلاد الشام طوال هذه المدة (Klengel 1992: 235). وتبقى المعلومات حول بلاد الشام مستمدة بشكل رئيسي من كتابات المؤرخين الإغريق.

يعد النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد نقطة تحول في تاريخ منطقة شرقي البحر المتوسط، لأن مركز السيادة فيها انتقل من ممالك السهول والوديان إلى مناطق المرتفعات الجبلية. وظهرت على الساحة ثلاث قوى هي: الآشورية، وأورارتو (أرمينيا الحالية)، والممالك الميدية والأخمينية الفارسية. وأسس الفرس مملكة لهم في مناطق غرب وجنوب غربي بحيرة أورميا، بينما كان الميديون في الجنوب الشرقي، وبالتحديد قرب مدينة همدان الحالية. ولا يوجد فرق عرقي بين الفرس والميديين، وإنما الفارق هو الانتماء القبلي. وعلمًا أن قمبيز استطاع توحيد الميديين والأخمينيين الفرس في دولة واحدة، إلا أن اليد العليا بقيت للميديين. لذا، نجد صدامًا وقع بينهما بعد وفاة هذا الملك وتولي قورش الثاني الحكم. ونتيجة لهذا، استطاع قورش الثاني حسم المعركة لصالح الفرس الأخمينيين، وقضى نهائيًا على مملكة ميديا. كما وصل نفوذ مملكته إلى سواحل البحر المتوسط غربًا، والهند شرقًا. وهو من أعاد اليهود من منفاهم في بابل إلى فلسطين. ويبدو أن التدخل الفارسي في بلاد الشام في الفترة الأولى منه لم يكن مؤثرًا، وأن أول ملك فارسي يظهر على أرض بلاد الشام كان قمبيز الثاني (حوالي 529-522 قبل الميلاد) (Heinz 2002: 259) في أثناء حملته على مصر (525/526 قبل الميلاد)، والتي كان احتلها في زمن الأسرات المصرية من السابعة والعشرين وحتى الحادية والثلاثين. وخلال مدة الحكم هذه، ثار المصريون أكثر من مرة على الفرس. ومن الواضح أن المدن الفنيقية والشامية الأخرى أظهرت ولاءها وتأييدها للفرس في حملتهم على مصر ولم تقم بأية مقاومة. بعد وفاة قمبيز، تولى الحكم الملك داريوس (دارا) الأول (521 – 486 قبل الميلاد)؛ فوحد البلاد مرة أخرى، وقام بإصلاحات إدارية، منها وضع بلاد الشام وقبرص في منطقة إدارية واحدة، شكلت ما يعرف باسم المرزبانة الخامسة (Eph'al 1988). وخلال فترة حكمه، بلغت مدينة صيدا الفنيقية أوجها. وبالمقابل نجد أن مدينة صور تواجه مشاكل اقتصادية، ربما بسبب انفصال مستعمرتها قرطاجة عنها (Heinz 2002: 259). وفي نهاية عهد داريوس الأول، ساءت العلاقات الفارسية الإغريقية.

وظلت صيدا تحكمها أسرة محلية قامت بدعم الأسطول البحري الفارسي في عملياته الحربية جميعها. وعلى الرغم من هذا، كانت صيدا، ذات الاستقلال الذاتي، تحكم من والٍ فارسي (مرزبان)، الأمر الذي لم يقنع أهل صيدا؛ فقام أهلها بدعم من مصر في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد بالثورة على الفرس الأخمينيين، تبعتها ثورة في مدينة

صور والمدن الفنيقية الساحلية الأخرى، امتدت إلى قبرص، مما دفع الملك الأخميني أرتكسركسيس الثالث (358-338 قبل الميلاد) إلى تجريد حملة عسكرية على بلاد الشام لإخماد تلك الثورات. ويظهر من كتابات المؤرخين الإغريق (ديودور الصقلي) أن ملك صيدا المدعو تينيس تعاون مع الأخمينيين ضد رغبة شعبه، فسهل دخولهم للمدينة، فما كان من أهالي المدينة إلا أن حصنوا بيوتهم وحطموا سفنهم (Klengel 1992: 297). وكانت ردة فعل الفرس قاسية جدًا بأن أحرقوا المدينة بأهلها، وسبوا كثيرًا ممن بقوا أحياء إلى بابل التي وصلوها في عام 345 قبل الميلاد (قابلو وفرعون 2006: 264).

بعد هزيمة الفرس في معركة إسوس على يد الإسكندر المكدوني، فتحت الطريق أمام قواته لدخول بلاد الشام. وفي عام 333 قبل الميلاد، عبرت هذه القوات الطريق الموازي لمجرى نهر العاصي باتجاه سواحل البحر المتوسط عبر سهول عكار، وتغلغل بعدها النفوذ المكدوني في أنحاء بلاد الشام كافة.

بقيت فلسطين والأردن كغيرهما من بلدان الشرق الأدنى القديم خاضعتين للحكم الفارسي حتى مجيء الإسكندر المكدوني في حوالي 332 قبل الميلاد (Bienkowski 2001: 347). وتدعم ثلاث طبعات لأختام وجدت مطبوعة على جرار فخارية في موقع تل العميري القول بأن عمون كانت مقاطعة فارسية. وإذا قبلنا بهذا القول، فإنه يتبادر إلى الذهن السؤال: ماذا حصل لكل من مؤاب وإدوم؟ ونجد الإجابة عن ذلك لدى بعض العلماء الذين يستبعدون أن تكون إدوم مقاطعة فارسية. بل وأكثر من هذا، فإن بعضهم يرى أنها كانت تحت سيطرة القبائل القيدارية العربية (Lemaire 1994: 24-30). بينما يرى ديفيد غراف (Graf 1990: 139-143) أن الفرس شكلوا مقاطعة إدوميا خلال القرن الرابع قبل الميلاد، وأن إدوم كانت جزءًا منها. أما مملكتا عمون ومؤاب؛ فيبدو أنهما لم تكونا مقاطعتين فارسيتين بدليل ذكر الاسمين "عمون" و"مؤاب" في نص عثر عليه في منطقة معين باليمن، مما يعطي الانطباع باستقلاليتهما (Graf 1990: 143; Lemaire 1994: 46-47).

ويبدو أن السيطرة الفارسية على الأردن تراجعت بعد وفاة الملك داريوس الثاني (حوالي 404 قبل الميلاد). ويبدو أن الأحوال بعد وفاة هذا الملك بقيت غامضة. لكن يبدو أن تأثير الفرس ظل قائمًا حتى مجيء الإسكندر المكدوني، حين بسط الإغريق نفوذهم على المنطقة. وفي هذه الفترة، بدأت القبائل العربية، ومنها الأنباط، بالاستقرار في مناطق عدة من الأردن خلال نهاية القرن الرابع قبل الميلاد.

وتشير المخلفات الأثرية والمصادر التاريخية إلى أن مملكتي عمون ومؤاب بشكل خاص ازدهرتا خلال الحكم الفارسي. وهذا مؤكد من خلال العثور على بعض اللقى الأثرية الثمينة المستوردة من بلاد الإغريق وفنيقيا، مما يدل على صلاتهما بالعالم الخارجي، وعلى انتعاش الحركة التجارية والتجارة الدولية، بدليل إنشاء طريق الملوك/الطريق السلطاني الذي كان يعبر الأردن من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.

كذلك عثر العلماء في معظم المواقع الأثرية المؤرخة للفترة الفارسية على حفر محفورة في الأرض، كان الغرض منها خزن الحبوب والمحاصيل، مما يدل على انتعاش الأحوال الاقتصادية. كما يشير وجود المباني العامة إلى وجود إدارة تنظم شؤون المجتمع، وسلطة تحمي طرق القوافل التجارية. ونرى أن وضع إدوم الاقتصادي لم يكن يختلف عن عمون ومؤاب، حتى وإن رأى بعض الباحثين أن هذه المنطقة خضعت للعرب القيداريين سكان شمالي الجزيرة العربية. ويعد وجود ميناء تل خليفة على خليج العقبة، والطرق التجارية التي ربطت بين شمالي الجزيرة وبلاد الشام، خير دليل على ازدهار دولة إدوم في هذه الفترة، والتي استمرت خلال حكم الأنباط العرب. وإذا كان بعض المختصين يرى في وجود القبائل البدوية التي سكنت البوادي تهديدًا للطرق التجارية والتجارة العالمية إبان ذلك الوقت؛ فإننا نرى أنه لولا وجود هذه القبائل لما كانت هناك تجارة عالمية، فأبناء تلك القبائل هم الذين عملوا في القوافل التجارية وحموا الطرق التجارية مقابل أن يُدفع لهم، وهم الذين قاموا بالدلالة للقوافل التجارية. ويمكن القول إن الأردن أدى دورًا مهمًا في وصل العلاقات التجارية والاجتماعية والفكرية وغيرها بين بلاد الشام والجزيرة العربية بشكل خاص (كفافي 2006).

آثار بلاد الشام خلال الفترتين البابلية الحديثة والفارسية

تركت لنا مجتمعات بلاد الشام خلال الفترتين البابلية الحديثة والفارسية مخلفات أثرية قليلة جدًا مقارنة بالفترات السابقة واللاحقة.

العمارة

كان مخطط البيت الرئيسي خلال الفترة بين أعوام 587-333 قبل الميلاد، يقوم على بناء قائم الزوايا. واختلفت مساحة البناء من مسكن لآخر حسب حاجة الناس. وكانت الوحدات السكنية تفصل فيما بينها الأزقة والشوارع (Weippert 1988: 698; 701 Abb. 5.3). وقد عثر على عمائر في عدد من المواقع في فلسطين والأردن موزعة على كل المناطق الجغرافية فيهما، مثل تل أبو حوّام، وتل المبارك، ويافا، وتل جمّة، وتل الحسيني، وتل النصبة، وتل وقاص، وتل السعيدية، وتل المزار، وتل دير علا، وحسبان، وبصيرة، وطويلان وغيرها.

عثر في الأردن على بقايا عمائرية من الفترة الفارسية، تخص مساكن للناس، أو أبنية إدارية (كفافي 2006). وتكونت الوحدة السكنية من غرف بنيت حول ساحة محاطة بجدران من اللبن. وحفرت في أرضية الساحة مستودعات وحفر للتخزين Silos، كما ضمت الساحة موقدًا، مما يدل على استخدامها للنشاطات المنزلية اليومية. وقد تعددت أشكال الحفر، فكانت ثمة حفر ذات شكل أسطواني، أو برميلي، أو قمعي، عثر فيها على بقايا نباتية استخدمت علفًا للماشية (Van der Kooij and Ibrahim 1989). وكشفت التنقيبات الأثرية في تل المزار، في غور الأردن الأوسط، عن بيوت، وحفر خزين، ومقبرة. وذكر المنقب أن الطبقة الأولى ضمت حفرًا مؤرخة للقرن الرابع قبل الميلاد، تراوح قطر الواحدة منها بين مترين وأربعة أمتار، وغطيت بعض جوانبها الداخلية بطبقة من اللبن. أما أرضياتها فقد سويت إما باللبن، أو بالحجارة، أو بالصلصال. ويرى المنقب أن هذه الحفر كانت مستودعات لتخزين الحبوب (Yassine 1988). وفيما يتعلق بالطبقة الثانية في تل المزار، والتي أرخت للقرن الخامس قبل الميلاد، فقد أشارت التقارير الأثرية إلى أن ثمة مساكن بنيت فوق الدمار الذي حصل مع نهاية العصر الحديدي الثاني. وجاءت الوحدة المنزلية فيها مكونة من ساحة مركزية مكشوفة تحيط بها غرف سكنية (Yassine 1988: 79).

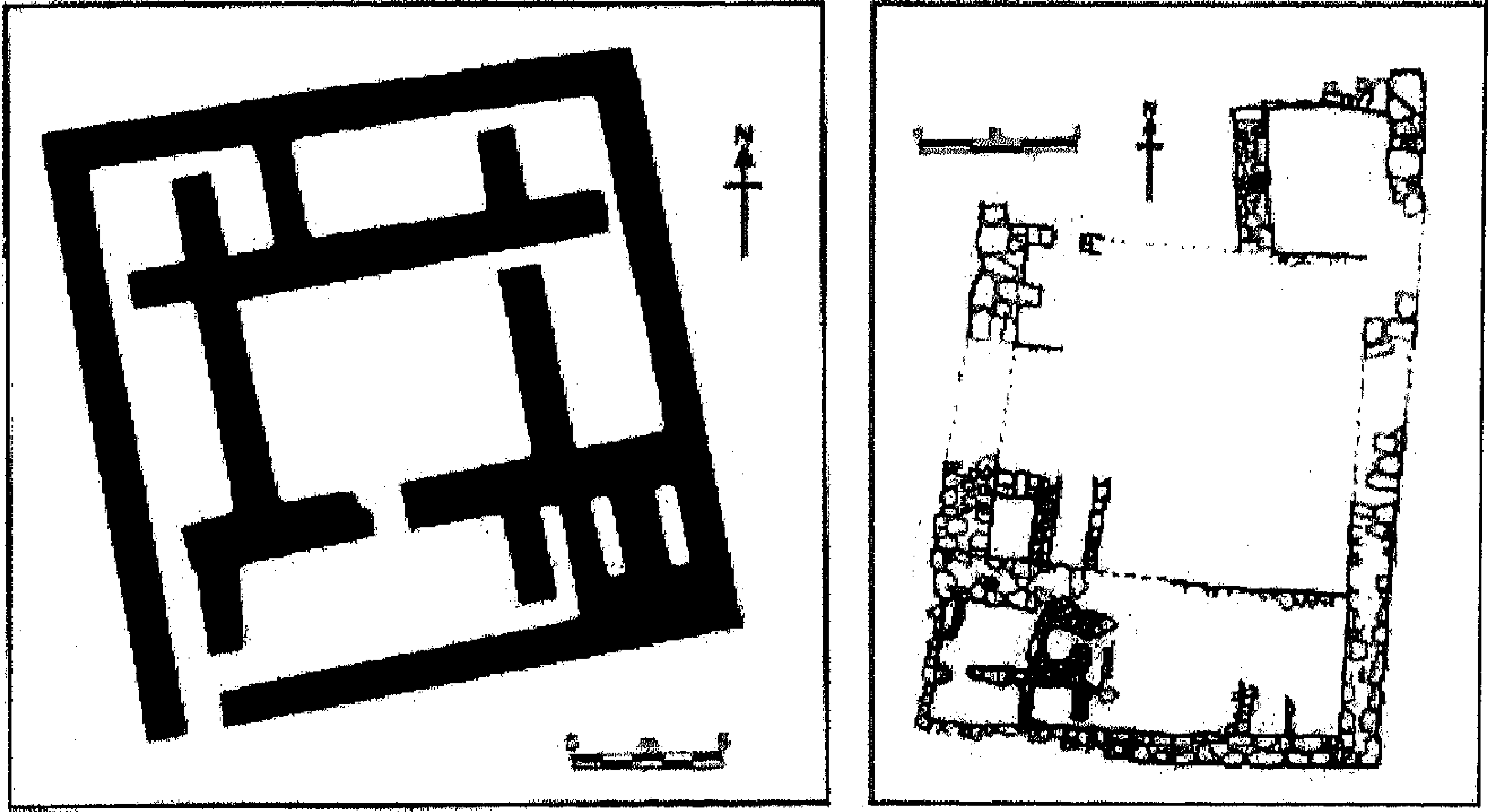
وكشفت التنقيبات في تل دير علا عن قليل من المخلفات العمائرية والأثرية الأخرى المؤرخة للفترة الفارسية؛ فلم يعثر في المرحلة السكنية الرابعة Phase IV على أية بقايا عمائرية حتى الآن، وإنما على بقايا أثرية أخرى. كما عثر المنقبون في المرحلة الثالثة Phase III على بقايا أساسات حجرية لجدران، وحفر خزين، وجد في إحداها صحن

إغريقي الصنعة. وعثر على حفرة كبيرة مليئة بالطمم، قطرها حوالي عشرة أمتار وعمقها ثلاثة أمتار (Van der Kooij and Ibrahim 1989: 90).

وفي الجزء الجنوبي لغور الأردن، كشف في تل نمرين عن بقايا بيوت، وآنية فخارية ومكتشفات أثرية أخرى، من بينها كسرة فخارية كتب عليها بالخط الآرامي، وتعود لنهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد (Flanagan et al. 1992; 1994). كذلك عثر في تل الفخار إلى الشمال الشرقي من مدينة إربد على أكثر من حفرة خزين محفورة داخل الأرض، وجدرانها مبنية من الحجارة، وربما ارتبطت ببعض المساكن أو البيوت (Strange 1997). ويمكن أن يجري الأمر نفسه على تل المغير الذي لا يبعد كثيرًا عن تل الفخار (Ibrahim and Mittmann 1987). وعثر في تل العميري على غرف لا ترتبط ببعضها، ولوحظت في واحدة منها درجات تفضي إلى داخلها، بينما كان في الثانية عمودان يحملان السقف (Herr et al. 1994).

عثر المنقبون في عدد من المواقع في الأردن، مثل تل السعيدية، وتل العميري وجالول، والدريجات، وبصيرة، على أبنية عامة. ويتشابه مبنيا تل السعيدية وبصيرة في أن لكل منهما ساحة مكشوفة، ولكنهما يختلفان في طريقة تسوية أرضياتهما. فبينما كانت أرضية المبنى في تل السعيدية مبلطة بالحجارة (Tubb and Dorrell 1994: 54-57)، نجد أنها في بصيرة مقصورة (Bienkowski 2001: 355). وفي حين أن الساحة في تل السعيدية جاءت محاطة بغرف، إلا أنها أحيطت في بصيرة بغرف موازية لها على شكل ممر.

وعلى أية حال، فربما كان المبنى في تل السعيدية قصرًا بني فوق قمة التل (الشكل 107). وبعد أن تهدم هذا المبنى، بني فوقه في العصر الهلنستي مبنى مربع الشكل، بلغت أبعاده 24 x 24م، وهو ذو ساحة مكشوفة محاطة بغرف مبنية من اللبن فوق أساسات من الحجارة. وكان عثر في إحدى الغرف على مذبح/ مبخرة نقشت عليها زخارف غائرة تمثل خيّالاً فوق حصانه، بالإضافة إلى الاسم "يكنو"، وربما يكون هذا اسم صاحب المذبح. وكان الخط الذي كتب فيه هذا الاسم مستخدمًا في الفترة ما بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد (Pritchard 1985: 52-59). ومن المكتشفات الأخرى التي عثر عليها داخل الغرف دمية تعود للعصر الفارسي، مصنوعة من الصلصال، وتمثل أنثى في حالة حمل.



الشكل 107 : المخطط الأيمن لمبنى إداري في موقع تل السعيدية، والأيسر لآخر في موقع الدريجات/الأردن

وعثر في تل حسبان على بقايا معمارية مؤرخة للفترة الفارسية، من بينها أجزاء من السور الذي يحيط بقمة التل، ولا تزال أجزاء منه قائمة بارتفاع يتراوح بين ثلاثة أمتار وخمسة أمتار. بالإضافة إلى برج عثر عليه فوق الجهة الشرقية لجدار المدينة، عده المنقبون جزءًا من بوابة المدينة. وعثر في هذه المنطقة من التل على كسرة فخارية كتب عليها بالخط الآرامي.

وعثر في تل العميري على أبنية تعود للفترة الفارسية، استخدم أقدمها مكانًا لإقامة الإدارة الفارسية في المنطقة. وعثر في هذا المبنى على اثنتين من أيادي الجرار الفخارية المختومة باسم شوبا عمون، وفي هذا إشارة لمقاطعة عمون الفارسية. وكشف في هذا الموقع عن مساكن بنيت فوق مبنى الإدارة الفارسية (Herr et al. 1994).

وقد عثر على أبراج، لا سيما في المنطقة المحيطة بالعاصمة الحالية عمان، استخدمت خلال العصر الحديدي الثاني، وظلت مستخدمة في الفترة الفارسية. ومن هذه الأبراج برج خربة الحجار الذي دمر عام 580 قبل الميلاد، وأعيد استخدامه خلال الفترة الفارسية (Thompson 1972; 1977). وتأكد هذا من خلال قطعة نقدية مؤرخة لحوالي

400 قبل الميلاد عثر عليها في ذلك المبنى. وكذلك كان حال البرج الذي عثر عليه في موقع الدريجات (Younker et al. 1990).

الفخار: عثر في مواقع تل العميري، وجالول، وأم أذينة، وخلدا، وتل دير علا، وبصيرة على فخار من الفترة الفارسية محلي الصنع، لكنه وجد متلازمًا مع فخار إغريقي (الشكل 108) من القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد (Homès-Fredericq 1996: 74). وقد لاحظ الدارسون أن الآنية الفخارية التي استخدمت في الأردن خلال نهاية العصر الحديدي الثاني ظلت مستعملة خلال الفترة الفارسية كذلك.



الشكل 108: قارورتان إغريقيتان من أم أذينة/ عمان

وجاءت أفضل الأمثلة على الآنية الفخارية التي استخدمت في الأردن خلال الفترة الفارسية من موقعي تل ديرعلا وتل العميري (Hendrix et al. 1997: 202). ومن أهم أشكال الآنية التي عثر عليها في تل العميري، جرار بأشكال مختلفة ذات حواف مثلثة وباطيات ذات رقاب، وزبادٍ بأنواع متعددة، وأسرجة إضاءة منبسطة بشكل صحن. أما الزخارف؛ فكانت المثلثات المقلوبة من أهمها (Herr 1995). ومن الملاحظ أن الجرار المتطاولة الشكل Sausage Jars، وهي من الأشكال المميزة للفترة الفارسية، لم يعثر عليها في تل العميري كما هو حال قدور الفخار ذات الرقاب المرتفعة، والجرار ذات العنق الضيق والعروتين (الأمفورات). ومن المعلوم أن جرار الخزين المتطاولة الشكل من الفترة الفارسية قد عثر عليها في تل السعيدية، وأم أذينة، والمقابلين، وهي ذات قواعد مدببة، تأتي في قليل من الحالات بشكل قرص. وعثر في تل السعيدية أيضًا على أباريق للعطور بشكل حقيبة Bag Shaped. وظهرت آنية فخارية من الفترة الفارسية في تل دير علا، وهي قوارير رفيعة تشبه في شكلها ثمرة الجزر (Van der Kooij and Ibrahim 1989: 107, no.149). أما في تل نمرين؛ فعثر على جرار خزين ذات حواف سميكة ومقلوبة للخارج (Flanagan et al. 1994: 236, Fig. 19:6-9). وصنعت بعض الآنية من حسبان من فخار أسود اللون، وقد صقلت بالدولاب. كما كانت ثمة قدور طبخ ذات رقبة قصيرة، وصحون ذات حافة ملتوية Offset Rim، وصحون/ زبادٍ مصقولة ذات لون أحمر (Sauer 1994: 246-248).

وفي فلسطين، عثر في موقع تل الفول على كميات كبيرة من الآنية الفخارية المؤرخة للقرن السادس قبل الميلاد (Lapp 1965). ومن المعلوم أن هذا الموقع، إضافة لموقعي الجبع وبيت إيل، هجر في حوالي 500 قبل الميلاد (Ahlström 1993: 806). أما فخار الفترة البابلية الجديدة في فلسطين، فلا تزال معلوماتنا عنه قليلة، علمًا أن مواقع مثل تل وقاص التي كانت قلعة زمن الأشوريين، واستمرت كذلك في الفترات اللاحقة، لم تنشر منها آنية فخارية كثيرة مقارنة بالفترات السابقة. وينسحب هذا الأمر على تل المتسلم، إذ يبدو أن المدينة هجرت بعض الوقت بعد تدميرها على يد نبوخذنصر في سنة 601 قبل الميلاد، وربما طيلة الفترة البابلية الجديدة.

عادات الدفن: تنوعت عادات الدفن خلال الفترات البابلية الحديثة والفارسية في جنوبي بلاد الشام؛ فكانت هناك قبور على هيئة غرفة حفرت في الصخر، كما هو الحال في

عتليت ويازور وأبو غوش وتل الفول في فلسطين، أو حفرة بئرية تنتهي بغرفة كما كان في يازور، وعتليت، ودور، والزيب، أو الدفن داخل تابوت حجري كما كان في غزة، أو الدفن في صندوق حجري أو صلصالي مثل ما عثر عليه في تل المزار في الأردن، أو قبور عادية محفورة في الأرض أو الصخر، وأخيرًا القبور الرجمية (Weippert 1988: 703- 706).

وقد أظهرت التنقيبات في مقبرة تل المزار في غور الأردن أنواعًا وأشكالاً مختلفة من القبور العائدة للفترتين البابلية الحديثة والفارسية. ويشير هذا التنوع في أشكال القبور إلى اختلافات في طرق وعادات الدفن، مثل دفن الميت في حفرة في الأرض، أو في تابوت صلصالي. كما عثر على عدد لا بأس به من المرفقات الجنائزية، مثل الأختام، والأختام الأسطوانية، والخرز، والأطواق، والقوارير الزجاجية، ورؤوس السهام الحديدية، والآنية البرونزية والفخارية (Yassine 1984). ولم يقتصر وجود قبور من الفترة البابلية الحديثة والفارسية على منطقة وادي الأردن، بل عثر على قبور أخرى خارج هذه المنطقة، مثل القبر الذي عثر عليه في منطقة المقابلين جنوبي عمان، والذي يعود للفترة الفارسية، وقد وجدت بداخله لقى معدنية. وكشف عن قبرين آخرين في برج خلدا العموني، عثر فيهما على أختام وأدوات معدنية مؤرخة للفترة البابلية الحديثة-الفارسية. وعثر في أحد هذين القبرين على فخار أتيكي (من بلاد الإغريق) يعود للقرن الخامس قبل الميلاد. كما وجد في كلا القبرين فخار عموني محلي يؤرخ للقرن السابع قبل الميلاد، علمًا أن بعض أشكال الآنية المكتشفة فيهما ربما تؤرخ لفترة متأخرة من هذا التأريخ (Stern 2001: 456)، مما يدل على أن برج خلدا بقي مستخدمًا في الفترة الفارسية. وكما ذكرنا آنفًا، فإن قبر أم أذينة في عمان الغربية ضم آنية فخارية، بعضها ذو طابع أتيكي.

وإلى جانب هذه القبور المتفرقة هنا وهناك، تعد مقبرة تل المزار في غور الأردن المقبرة الوحيدة من الفترة الفارسية التي نقب فيها بشكل منتظم ومتكامل حتى الآن (Yassine 1984). وقد عثر في هذه المقبرة على خمسة وثمانين قبرًا، تؤرخ للقرنين السادس والخامس قبل الميلاد. ووضعت الجثث في القبور باتجاه شرق-غرب، حيث يكون رأس الميت في الجهة الشرقية، ووجهه باتجاه الجنوب. وكان جسد الذكر يدفن ممددًا، بينما كانت الأنثى تدفن بشكل قرفصائي (Yassine 1984: 8-9). ولاحظ المنقب وجود خمسة أشكال للقبور هي:

1. قبر الحفرة: وهو قبر بسيط بشكل حفرة يوضع فيها جسد الميت بعد أن يلف بقطعة من القماش أو الحصير.
2. القبر الحفرة المحاطة/ ذات الجدران المبنية باللبن.
3. القبر الحفرة المحاطة/ المبني أحد جدرانها بالحجارة (أي بني جدار من الحجارة في أحد جهات حفرة الدفن).
4. الجرار لدفن الرضّع والأطفال.
5. الصناديق الصلصالية المفتوحة بشكل حوض الاستحمام.

وكانت تدفن مع الأموات مرفقات جنائزية، فكانت توضع مع جثث الذكور آنية فخارية، وأدوات معدنية مثل الآنية، ورؤوس السهام، والرماح، والسيوف، والسكاكين. أما مدافن النساء؛ فضمت الحلي والمجوهرات، مثل الأساور والعقود والأقراط، والتي جاءت مصنوعة من الفضة والبرونز والزجاج والخرز (Yassine 1984).

الفنون: عثر على عدد قليل من اللقى المؤرخة للفترة الفارسية في الأردن، منها آنية وأدوات برونزية مزخرفة عثر عليها في قبر أم أذينة، مثل صحن برونزي بأيادٍ بشكل رأس حصان (Zayadine 1987: 147)، ومبخرة برونزية محمولة على منصب ثلاثي، يظهر عليها شكل أنثى (الشكل 109) (Khalil 1986)، إضافة إلى قوارير زجاجية (الشكل 110) (Bienkowski 1991).

وقد عثر على مرايا برونزية مستديرة الشكل في مواقع أم أذينة، والمقابلين، وتل السعيدية، وتل المزار. كما كشفت التنقيبات عن حلي ومجوهرات ذكرت أعلاه. وإضافة لتلك اللقى الفنية، عثر في قبر في موقع المقابلين على دميتين صلصاليتين تمثلان فارسين يمتطيان صهوتي جواديهما (الشكل 111) (Bienkowski 1991: 45, Pl.46). كذلك وجدت في تل السعيدية مبخرة من الحجر الجيري مزخرفة (Pritchard 1985: 66-68).



الشكل 109: مبخرة برونزية من أم أذينة/ عمان (عن Der Königs Weg)



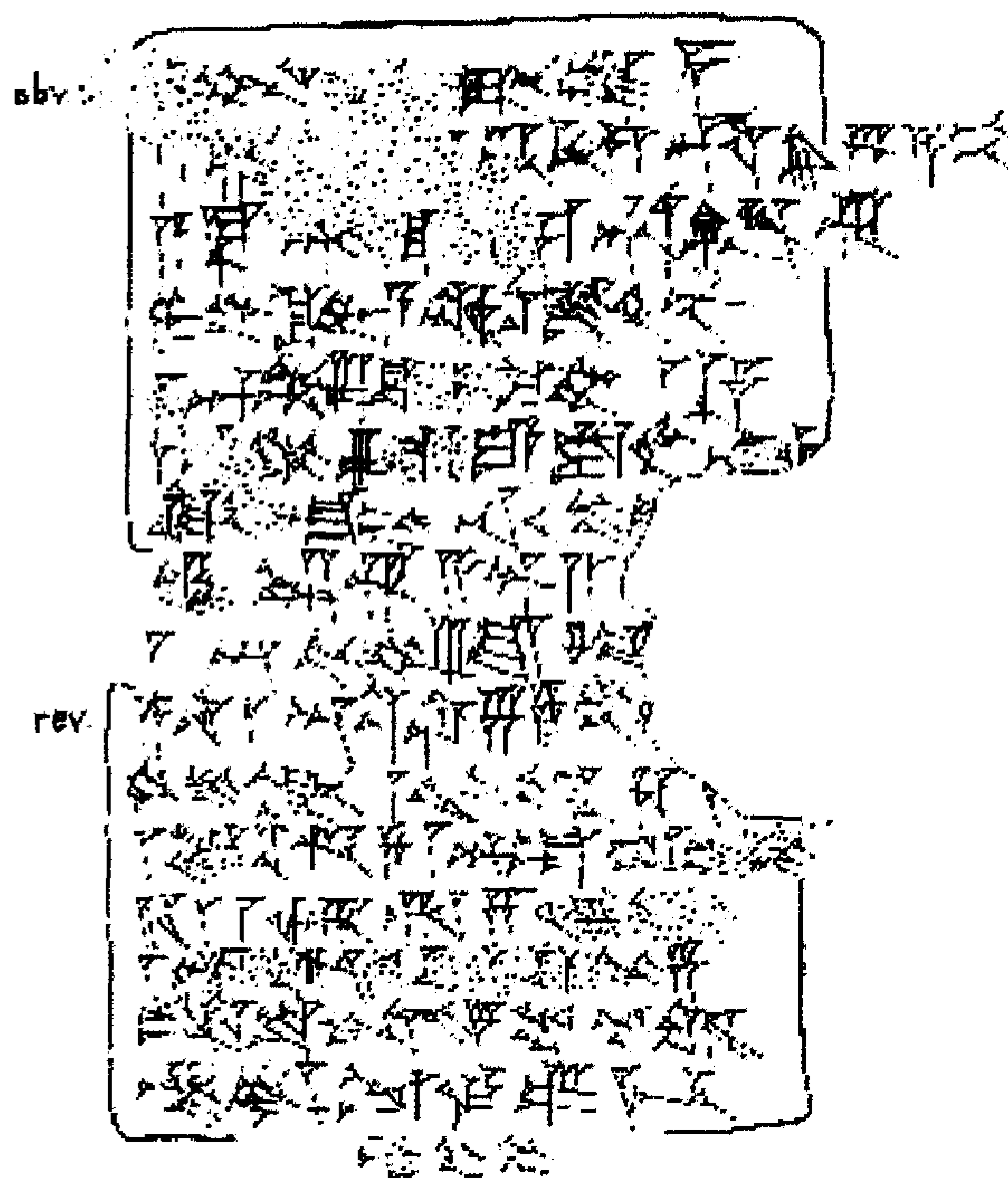
الشكل 110: قارورتان زجاجيتان من أم أذينة/عمان (عن Bienkowski 1991)



الشكل 111: دميتان صلصاليتان لفارسين يمتطيان صهوتي جواديهما، المقابلين/عمان

الكتابة: عند حديثنا عن الكتابة لدى العمونيين والمؤابيين والإدوميين، كان لا بد من الحديث عن النقوش والكتابات التي عثر عليها في الأردن خلال الفترة البابلية الحديثة والفارسية. ومن أهم النقوش التي اكتشفت في الأردن من هذه الفترة، رقيم عثر عليه في موقع طويلان الإدومي، كتب بخط مسماري، وأرخ للسنة الأولى من حكم الملك داريوس (الشكل 112) (Dalley 1995: 67-68). وموضوع هذا النقش عقد مختلف فيه لبيع كبشين، يذكر فيه اسم صاحب العقد مسبوقًا باسم الإله قوس. أما بقية الأسماء الواردة في النقش؛ فكانت بابلية حديثة وآرامية (Bienkowski 2001: 360).

وفي موقع السلع بالقرب من مدينة الطفيلة، عثر على كتابة منقوشة بالخط المسماري مصاحبة لشكل منحوت يعتقد أنه للملك البابلي نابونيد (555-539 قبل الميلاد) (Zayadine 1999; Wartke 2005).



الشكل 112: رقيم من طويلان يعود لحوالي 520 قبل الميلاد (عن Bienkowski 1991)

ويمكن القول إنه بانتهاء العصرين البابلي الحديث والفارسي في بلاد الشام تنتهي العصور القديمة. فباحتلال الغرب بقيادة الإسكندر المكدوني للشرق، وسيطرته على المقدرات الاقتصادية للبلاد، بدأت فترة جديدة اختلفت فيها سمات العناصر الحضارية كلية عما سبقها في العصور البرونزية والحديدية. وبدأنا نرى على أرض الشرق اختلاط المظاهر الحضارية اليونانية والشرقية في حضارة واحدة سماها المختصون "الهلنستية". وبرأينا أن الدافع لقدوم الغرب وغزو الشرق لم يكن سياسيًا أو توسعيًا فحسب؛ وإنما كان اقتصاديًا كذلك. ويكفينا ذكر أن أحد أهم أهداف حملات الإسكندر المكدوني العسكرية كان السيطرة على مصادر البخور واللبان. ولا يختلف اليوم عن البارحة.

المراجع بالعربية

إبراهيم، معاوية 2009؛ **دراسات في آثار فلسطين**. عمان: منشورات جامعة فيلادلفيا.

أبو طالب، محمود 2006؛ **من السلط إلى القدس، أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم**. ترجمة عمر الغول، تحرير عمر الغول وعفاف زيادة. عمان: المقتبس.

أبو عساف، علي 1988؛ **الآراميون تاريخاً ولغة وفناً**. طرطوس: دار أماني للطباعة والنشر والتوزيع.

أبو غنيمة، خالد 2009؛ **معجم مصطلحات ما قبل التاريخ (إنجليزي/ فرنسي/ تركي/ عربي)**. إربد: جامعة اليرموك.

أحمد، إبراهيم، ومحمود، عبد الحميد 2003؛ **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**. دمشق: منشورات جامعة دمشق.

الأنصاري، عبد الرحمن، وكفافي، زيدان 1992؛ تأصيل منهج البحث الأثري العربي. **العصور** 2/7: 155-171.

بدر، ليلى 1997؛ Bey 003 التقرير الأولي لعمليات التنقيب 1994–1996. **بعل** 2: 4-8.

البني، عدنان 1968؛ البعثة الأثرية لجامعة روما في تل مرديخ. تقرير موجز عن الموسم الثالث 1966. بقلم باولو ماتييه، تلخيص القسم الأول من مراحل استيطان التل. **الحوليات الأثرية العربية السورية** 18: 155-158.

بورد، فرانسوا 2009؛ **نمطية أدوات العصر الحجري القديم الأسفل والأوسط**. ترجمة خالد أبوغنيمة وبسام جاموس. دمشق: المؤسسة العامة للآثار والمتاحف السورية.

جاموس، بسام 2004؛ **مملكة إيمار في عصر البرونز الحديث (1600-1200 ق. م)**. دمشق: وزارة الثقافة.

حتي، فيليب 1982؛ **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ج 1. ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق. بيروت: دار الثقافة.

حمود، محمود 2010؛ **شعائر الدفن وطقوسه القديمة في منطقة دمشق والجنوب السوري (منذ العصور الحجرية وحتى العصر الآرامي)**. دمشق: المديرية العامة للآثار والمتاحف، مركز الباسل للبحث والتدريب الأثري.

خليف، بشار 2005؛ **مملكة ماري وفق أحدث الكشوفات الأثرية**. دمشق: الرائي.

سومر، دوبونت 2007؛ **الآراميون**. ترجمة الأب ألبير أبونا. لندن: الورّاق للنشر.

صادر، إيلان، وفنكبانير، أوفه 1997؛ بيروت 020 التقرير الأولي لعمليات التنقيب لسنة 1995. **بعل** 2: 13-16.

طوقان، فواز 1970؛ مسلة مشيع ملك مؤآب. **حولية دائرة الآثار الأردنية** 15 : 19-53.

عبد الرحمن، عمّار 2008؛ **مملكة الالاخ، ألق التاريخ على العاصي**. دمشق: منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف.

عبد الرحمن، عمّار 2009؛ **معتقدات وفنون المزارعين الأوائل في المشرق العربي القديم "الإلهة الأم"**. دمشق: إنانا للطباعة والنشر.

عصفور، أبو المحاسن 1981؛ **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر**. بيروت: دار النهضة العربية.

فرزات، محمد حرب 2003؛ **موجز في تاريخ سوريا القديم**، ط11. دمشق: جامعة دمشق.

قابلو، جمال، وفرعون، محمود 2006؛ **تاريخ الحضارة القديمة في الوطن العربي**. دمشق: منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

القيم، علي 1989؛ **إمبراطورية إبلا**. دمشق.

كفافي، زيدان 1990؛ **الأردن في العصور الحجرية**. عمان: مؤسسة آل البيت.

كفافي، زيدان 1992؛ **الأردن في العصور الحجرية**. الطبعة الثانية. عمان: مؤسسة آل البيت.

كفافي، زيدان 2000؛ بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ. الصفحات 51-117 في: **الوحدة الحضارية للوطن العربي من خلال المكتشفات الأثرية**. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المؤتمر الخامس عشر للآثار والتراث الحضاري في الوطن العربي. دمشق: وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف.

كفافي، زيدان 2004؛ **المدخل إلى علم الآثار**. إربد: حمادة للدراسات والتوزيع والنشر.

كفافي، زيدان 2005؛ **أصل الحضارات الأولى**. الرياض: دار القوافل.

كفافي، زيدان 2006؛ **الأردن في العصور القديمة (العصور البرونزية والحديدية)**. عمان: دار ورد للنشر والتوزيع.

كفافي، زيدان 2007؛ إربد: البشر والحجر، من عصور ما قبل التاريخ وحتى مجيء الإسكندر المكدوني. **مجلة اليرموك** 92: 48-58.

كفافي، زيدان، وهنداوي، ناصر 2000؛ الحصون والأبراج الآدومية. **أدوماتو** 2: 7-32.

كلينغل، هورست 1998؛ **تاريخ سوريا السياسي 3000 – 300 ق.م**. ترجمة سيف الدين دياب. دمشق: دار المتنبي للطباعة والنشر والتوزيع.

لوتونسورير، جان. م. 2005؛ **الإنسان الأول في الصحراء السورية**. مراجعة وتقديم سلطان المحيسن، تعريب أمجد القاضي. دمشق.

المحيسن، سلطان 1987؛ سورية في عصور ما قبل التاريخ. **مجلة دراسات تاريخية** 25-26: 131-164. دمشق: جامعة دمشق.

المحيسن، سلطان 1989؛ **بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ: الصيادون الأوائل**. دمشق: الأبجدية للنشر.

المحيسن، سلطان 1993؛ سورية وأصل الزراعة. **مجلة دراسات تاريخية** 45-46: 53- 60. دمشق: جامعة دمشق.

المحيسن، سلطان 1994؛ **بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ: المزارعون الأوائل**. دمشق: الأبجدية للنشر.

المحيسن، سلطان 2001؛ **عصور ما قبل التاريخ**. دمشق: جامعة دمشق.

المحيسن، سلطان 2003- 2004؛ **عصور ما قبل التاريخ**. دمشق: جامعة دمشق.

المحيسن، مجاهد 1993؛ الثقافة الآشولية، 1500000- 90000. **أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية** 4/9: 153-181.

مرعي، عيد 1998؛ بابل في عهد آخر ملوكها نابونيد. **مجلة دراسات تاريخية** 63/64: 27-47. دمشق: جامعة دمشق.

المقدسي، ميشيل وآخرون 2002؛ **تنقيبات قطنا**، الجزء الأول. وثائق من الآثار السورية 4. دمشق: المديرية العامة للآثار والمتاحف.

المقدسي، ميشيل وآخرون 2009؛ **كنوز سورية القديمة، اكتشاف مملكة قطنا**. شتوتغارت: متحف الولاية فورتمبرغ.

الهودلية، صلاح 1992؛ أنظمة الدفاع في دويلات المدن في شمال الأردن وفلسطين خلال العصر البرونزي القديم. رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الآثار والأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك.

المراجع بالأجنبية

Abou Assaf, A. 1967; Der Friedhof von Yabrud. Annales Archéologiques Arabes Syriennes 17: 55-68.

—— 1968; Tell 'Ashtara in Südsyrien. Erste Kampagne 1967. Annales Archéologiques Arabes Syriennes 18: 103-122.

—— 1990; Der Tempel von 'Ain Dara. Mainz: Philip von Zabern.

Ahlström, G. W. 1993; The History of Ancient Palestine from the Palaeolithic Period to Alexander's Conquest. Journal for the Study of the Old Testament. Supplement Series 146. Sheffield: Sheffield Academic.

Akkermans, P. M. M. G. 1988; The Period V Pottery. Pp. 287-350 in M. N. van Loon (ed.), Hammam et-Turkman, Vol. I. Istanbul: Nederlands Historisch-Archaeologisch Institute te Istanbul.

—— 1989; Tradition and Social Change in Northern Mesopotamia during the Later Fifth and Fourth Millennium B.C. Pp. 339-367 in E. F. Henrickson and I. Thuesen (eds.), Upon This Foundation: The 'Ubaid Reconsidered. Copenhagen: Museum Tusculanum.

—— 1993; Villages in the Steppe. Later Neolithic Settlement and Subsistence in the Balikh Valley, Northern Syria. International Monographs in Prehistory. Archaeological Series 5. Ann Arbor.

Akkermans, P.M.M.G. and Duistermaat, K. 1997; Of Sotrage and Nomads – The Sealings from Late Neolithic Sabi Abyd, Syria. Paléorient 22: 17-44.

Akkermans, P. M.M.G. and Schwartz, G. M. 2003; The Archaeology of Syria, from Complex Hunter-Gatherers to Early Urban Societies. Cambridge World Archaeology. Cambridge: University Press.

Akkermans, P.M.M.G and Verhoeven, M. 1995; An Image of Complexity – Burnt Village at Late Neolithic Sabi Abyad, Syria. American Journal of Archaeology 99: 5-32.

Akkermans, P. A. et al. 1981; Stratigraphy, Architecture and Lay-out of Bouqras. Pp. 485-501 in J. Cauvin and P. Sanlaville (eds.), Préhistoire du Levant; chronologie et organisationde l'espace depuis les originesjusqu'au Vie millénaire. Paris: Édition du CNRS.

Albright, W. F. 1932; The Excavations of Tell Beit Mirsim I. The Pottery of the First Three Campaigns. Annual of the American Schools of Oriental Research 12. New Haven.

—— 1938; Excavations of Tell Beit Mirsim II: The Bronze Age. Annual of the American Schools of Oriental Research 17. New Haven.

—— 1955; Amarna Letters. Pp. 483-491 in J. B. Pritchard (ed.), Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. Princeton: Princeton University Press.

—— 1966; The Amarna Letters from Palestine. Cambridge Ancient History, Vol. II, Chapter 20. Cambridge: Cambridge University Press.

—— 1971; Archaeology of Palestine. Gloucester, Mass.: Peter Smith.

Al-Maqdissi, M. 1991; Mtouné. Pp. 722-723 in H. Weiss (ed.), Archaeology in Syria. American Journal of Archaeology 95.

—— (ed.) 1993; Chronique des activités archéologiques en Syrie (I). Syria 70: 443 – 576.

Al-Maqdissi, M. et al. 2002; Excavating Qatna. Volume 1. Documents d'Archéologie Syrienne IV. Damascus: Direction Générale des Antiquités et des Musées de la République Arab Syrienne.

Al-Maqdissi, M. and Braemer, F. 2006; Labwe (Syrie): Un Ville du Bronze Ancien du Levant Sud. Paléorient 32/1: 113 - 124.

Al-Nahar, M. 2000; The Upper and Epipalaeolithic Transition in the Southern Levant: Microlith Typology Versus Technology. Unpublished Ph.D Dissertation Submitted to the Arizona State University.

Alon, D. 1977; A Chalcolithic Temple at Gilat. The Biblical Archaeologist 40: 63-65.

Alt, A. 1934; Die Ursprünge des israelitischen Rechts. Berichte über die Verhandlungen der Sächsischen Akademie der wissenschaften zu Leipzig. Philologie-historische Klasse. Leipzig: Verlag von S. Hirzel.

—— 1944; Ägptische Tempel in Palästina und die Landnahme der Philister. Zeitschrift des Deutschen Palästina -Vereins 67: 1-20.

Amiran, R. 1968; Chronological Patterns of the Early Bronze Age. American Journal of Archaeology 72/3: 16-18.

—— 1969; Ancient Pottery of the Holy Land. Jerusalem: Masada Press.

—— 1974; An Egyptian Jar Fragment with the Name of Narmer from Arad. Israel Exploration Journal 24: 4-12.

—— 1976; The Narmer Jar Fragment from Arad: An Addendum. Israel Exploration Journal 26: 45-46.

—— 1978; Early Arad I: The Chalcolithic Settlement and Early Bronze Age City, First-Fifth Seasons of Excavations, 1962-1966. Jerusalem.

Amiran, R. et al. 1980; The Arad Countryside. Levant 12: 22-29.

Amr, A.-J. 1992-1993; The Symbolism and Function of Four Unique Double-Faced Femal Heads from the Amman Citadel. Al'aqeeq 3-4: 266-278.

Anderson, W. P. 1988; Sarepta I. The Late Bronze and Iron Age Strata of Area II, Y. The University Museum of the University of Pennsylvania Excavations at Sarafand, Lebanon. Beyrouth: Départment des Publication de l'Université Libanaise.

Archi, A. 1985; The Royal Archives of Ebla. Pp. 140-148 in H. Weiss (ed.); Ebla to Damascus. Art and Archaeology of Ancient Syria. An Exhibition from the Directorate-General of Antiquities and Museums, Syrian Arab Republic. Washington D.C.: Smithsonian Institution Traveling Exhibition Service.

Astour, M. C. 1965; The Origin of the Terms "Canaan", "Phoenician" and "Purple". Journal of the Near Eastern Studies 24: 346-350.

Aufrecht, W. E. 1989; A Corpus of Ammonite Inscriptions (CAI). New York: Lewiston.

—— 1999a; The Religion of the Ammonites. Pp. 152-162 in B. MacDonald and R. W. Younker (eds.), Ancient Ammon. Studies in the History and Culture of the Ancient Near East, Vol. XVII. Leiden: Brill.

—— 1999b; Ammonite Texts and Language. Pp. 163-188 in B. MacDonald and R. W. Younker (eds.), Ancient Ammon. Studies in the History and Culture of the Ancient Near East, Vol. XVII. Leiden: Brill.

Avigad, N and Sass, B. 1997; Corpus of West Semitic Stamp Seals. Jerusalem.

Badre, L. 1982; Tell el-Ghassil: Tomb 1. Pp. 123 – 133 in Roger Saidah Mémoire. Archéologie au Levant. Collection de la Maison de l'Orient Méditerranéen No. 12. Serie Archéologique 9. Lyon: Maison de l'Orient Méditerranéen.

Badreshany, K. et al. 2005; An Early Bronze Age Site on the Libanese Coast, Tell Fadous-Kfarabida 2004 and 2005: Final Report. BAAL 9: 5-115.

Baning, E. and Byrd, B. 1987; Houses and the Changing Residential Unit: Domestic Architecture at PPNB 'Ain Ghazal. Proceeding of the Prehistoric Society 53: 309-325.

Bar-Yosef, O. 1980; Prehistory of the Levant. Annual Review of Anthropology 9: 101-133.

—— 1981; The Epi-Palaeolithic Complexes in the Southern Levant. Pp. 389-408 in J. Cauvib and P. Sanlaville (eds.), Préhistoire du Levant: chronologie et organization de l'espace depuis les origins jusq'au Vie millénaire. Paris: Édition du CNRS.

—— 1995; The Lower and Middle Palaeolithic in the Mediterranean Levant: Chronology and Cultural Entities. Pp. 247-263 in Ulrich, H. (ed.), Man and Environment in the Palaeolithic. Liége: E.R.A.U.b.

—— 1997; Ubeidiya. Pp. 254-255 in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 5. New York: Oxford University Press.

—— 1997a; Palestine. Prehistoric Palestine. Pp. 207-212 in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 5. New York: Oxford University Press.

Bar-Yosef, O. and Goren-Inbar, N. 1993; The Lithic Assemblages of 'Ubeidiya: A Lower Palaeolithic Site in the Jordan Valley. Qedem 34. Jerusalem.

Bar-Yosef, O. and Valla, F. (eds.) 1991; The Natufian Culture in the Levant. International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1. Ann Arbor.

Bar-Yosef, O. and Vandermeersch, B. 1992; The Excavations in Kebara Cave, Mount Carmel. Current Anthropology 33.5: 497-546.

Bartl, K. 1998-1999; Archaeological Surface Investigations in the Plain of Akkar/Northern Lebanon. Preliminary Results. BAAL 3: 169-181.

Bartlett, J. R. 1979; From Edomites to Nabataeans. A Study in Continuity. Palestine Exploration Quarterly 111: 53-66.

—— 1989; Edom and the Edomites. Sheffield: Journal for the Study of the Old Testament Press.

Baruch, U. and Bottema, N. 1991; Palynological Evidence for Climatic Changes in the Levant ca. 17,000-9,000 BP. Pp. 11-20 in Bar-Yosef, O. and Valla, F.R. (eds.),

The Natufian Culture in the Levant. Internatrional Monographs in Prehistory, Archaeological Series I. Ann Arbor.

Beayno, F.; Matar, C. and Abdul-Nour, H. 2002; Mugharet al-Hourriyé (Karm Saddé, Casa de Zagharta). Rapport Préliminaire de la fouille de 2001. BAAL 6: 135-178.

Beebe, K. 1968; Ancient Palestinian Dwellings. Biblical Archaeologist 31: 46-47.

Beitzel, B. 2003; Geography of the Levant. Pp. 3-10 in S. Richard (ed.) Near Eastern Archaeology: A Reader. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

Belfer-Cohen, A. 1995; Rethinking Social Stratification in the Natufian Culture: The Evidence from Burials. Pp. 9-16 in S. Campbell and A. Green (eds.), The Archaeology of the Death in the Ancient Near East. Oxford: Oxbow Books.

Bender, F. 1968; Geologie von Jordanien. Berlin: Borntraeger.

Bennett, C. M. 1967; A Cosmetic Palette from Umm el-Biyara. Antiquity 41: 197-201.

—— 1974; Excavations at Buseirah, Southern Jordan, 1972: Preliminary Report. Levant 6: 1-24.

—— 1975; Excavations at Buseirah, Southern Jordan, 1973. Third Preliminary Report. Levant 7: 1-19.

—— 1977; Excavations at Buseirah, Southern Jordan, 1974: Fourth Preliminary Report. Levant 9: 1-10.

—— 1978; Some Reflections on Neo-Assyrian Influence in Transjordan. Pp. 165-171 in R. Moorey and P. J. Parr (eds.), Archaeology in the Levant. Warminster: Aris and Philips.

—— 1979; Excavations at the Citadel (al-Qal'ah), Amman, Jordan. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 23: 151-159.

—— 1982; Neo-Assyrian Influence in Transjordan. Pp. 181-187 in A. Hadidi (ed.), Studies in the History and Archaeology of Jordan, I. Amman: Department of Antiquities of Jordan.

—— 1983; Excavation at Buseirah (Biblical Bozrah). Pp. 9-17 in J. F. A. Sawyer and D. J. A. Clines (eds.), Midian, Moab and Edom: The History and Archaeology of Late Bronze and Iron Age Jordan and North-West Arabia. Sheffield: JSOT.

Ben-Tor, A. (ed.) 1992; The Archaeology of Ancient Israel. Translated by R. Greenberg. New Haven: Yale University Press.

Betts, A. V. G. 1988; The Black Desert Survey, Prehistoric Sites and Subsistence Strategies in Eastern Jordan. Pp. 369-391 in A. Garrard and H. G. Gebel (eds.), The Prehistory of Jordan, The State of Research in 1996. BAR International Series 396 (ii). Oxford.

—— (ed.) 1991; Excavations at Jawa, 1972-1986. Edinburgh.

—— (ed.) 1998; The Harra and the Hamad. Excavations and Surveys in Eastern Jordan, Vol. I. Sheffield Archaeological Monographs 9. Sheffield: Sheffield Academic Press.

Betts, A.; Eames, S.; Schroeder, M. and al-Husan A.-Q. 1995; Archaeological Survey of the Wadi Al-'Ajib, Al-Mafraq. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 39: 149-168.

Betts, A.; Eams, S.; Hulka, S.; Schroeder, M.; Rust, J. and McLaren, B. 1996; Studies of Bronze Age Occupation in the Wadi al-'Ajib, Southern Hauran. Levant 28: 27-39.

Beyer, D. 2001; Emar IV: les sceaux. Orbis Biblicus et Orientalis Series Archeologica 20. Fribourg: Fribourg University Press.

Bienert, H. D.; Gebel, H. G. K. and Neef, R. 2004; Central Settlements in Neolithic Jordan. Studies in the Early Near Eastern Production, Subsistence and Environment 5, 1998. Berlin: ex oriente.

Bienkowski, P. 1990; Umm el-Biyara, Tawilan and Buseirah in Retrospect. Levant 22: 91-109.

—— (ed.) 1991; Treasures from an Ancient Land: The Art of Jordan. Stroud: Alan Sutton.

—— 1992 (ed.); Early Edom and Moab. The Beginning of the Iron Age in Southern Jordan. Sheffield Archaeological Monographs 7. Sheffield: J.R. Collis Publications.

—— 1995; The Architecture of Edom. Pp. 135-143 in K. 'Amr; F. Zayadine and M. Zaghloul (eds.), Studies in the History and Archaeology of Jordan V. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

—— 2000; Transjordan and Assyria. Pp. 44-58 in L. E. Stager; J. A. Green and M. D. Coogan (eds.), The Archaeology of Jordan and Beyond. Essays in Honor of James A. Sauer. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

—— 2001; The Persian Period. Pp. 347-365 in B. MacDonald, R. Adams and P. Bienkowski (eds.), The Archaeology of Jordan. Sheffield: Sheffield Academic Press.

—— 2002; Busayra: Excavations by Crystal-M. Bennett 1971-1980. British Academy Monographs in Archaeology No. 13. Oxford: Oxford University Press.

Bienert, H.-D. 1995; The Human Image in the Natufian and Aceramic Neolithic Period in the Middle East. Pp. 75-103 in W.H. Waldren, J. A. Ensenyat and R. C. Kennard (eds.), Ritual, Rites and Religion in Prehistory. BAR International Series 611. Oxford.

Bikai, P. M. 1978; The Pottery of Tyre. Warminster.

—— 1987; The Phoenician Pottery of Cyprus. Nicosia.

Biran, A. 1994; Biblical Dan. Jerusalem: Israel Exploration Society.

Biran, A. and Naveh, J. 1993; An Aramaic Stele Fragment from Tel Dan. Israel Exploration Journal 43/2-3: 81-98.

—— 1995; The Tel Dan Inscription: A New Fragment. Israel Exploration Journal 45/1: 3-18.

Birot, M. 1955; Textes Economiques de Mari. RA 1: 21.

Bonatz, D.; Ali, N. and Jauβ, C. 2002; Preliminary Remarks on an Archaeological Survey in the Anti-Lebanon. BAAL 6: 283-307.

Bonatz, D.; Kühne, H. and Mahmoud, A. 1998; Rivers and Steppes. Cultural Heritage and Environment of the Syrian Jezireh. Catalogue to the Museum of Deir ez-Zor. Damascus: Ministry of Culture.

Bossut, P. and Kafafi, Z. 2005; Fouilles de Khirbet edh-Dharih, II. Un site néolithique à céramique (PNA) en Jordanie du sud (DH 49/WHS 524). Syria. Revue d'Art Oriental et d'Archaeologie, Tome 82:5-48. Beyrouth: Institut Français du Proche-Orient.

Bottema, S. and Van Zeist, W. 1981; Palynological Evidence for the Climatic History of the Near East. Pp. 111-132 in Cauvin, J. and Sanlaville, P. (eds.), Préhistoire du Levant. Paris: Éditions du CNRS.

Bourke, S. J. 1997; Pre-Classical Pella in Jordan: A Conspectus of Ten Years' Work (1985-1995). Palestine Exploration Quarterly 129: 93-115.

— 1999; The New Pella Bronze Age Temple: The Largest "Migdol" Ever Found. Occident and Orient, Newsletter of the German Protestant Institute of Archaeology in Amman 4/1-2: 57-58.

— 2001; The Chalcolithic Period. Pp. 107-162 in B. MacDonald; R. Adams and P. Bienkowski (eds.), The Archaeology of Jordan. The Levantine Archaeology 1. Sheffield: Academic Press.

Bourke, S.J; Sparks, R.T.; Sowada, K.N. and Mairs, L.D. 1994; Preliminary Report on the University of Sydney's Fourteenth Season of Excavations at Pella (Tabaqat Fahl) in 1992. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 38: 81-127.

Bourke, S.J.; Sparks, R.T.; Sowada, K.N.; McLaren, P.B. and Mairs, L.D. 1998; Preliminary Report of the University of Sydney's Sixteenth and Seventeenth Seasons of Excavations at Pella (Tabaqat Fahl) in 1994/95. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 42: 179-211.

Braemer, F. 1984; Prospections archéologiques dans le Hawran (Syrie). Syria LXI: 219 -250.

— 1988; Prospections archéologiques dans le Hauwran II. Les réseaux de l'eau. Syria 65: 99-137.

Braemer, F.; Échallier, J. – Cl. and Taraqji, A. 2004; Khirbet Al Umbashi. Villages et campements de pasteurs dans le "desert noir" (Syrie) à l'âge du bronze. Bibliothèque Archéologique et Historique, Tome 171. Beyrouth: Institut Français du Proche-Orient.

Braidwood, R. and Braidwood, L. 1960; Excavations in the Plain of Antioch. Oriental Institute Publications 61. Chicago: University of Chicago.

Buccellati, G. 1992; Ebla and the Amorites. Pp. 85-06 in C. H. Gordon et al. (eds.), Eblaitica, Vol. 3. Winona Lake.

— 1997; Amorites. Pp. 107-111 in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 3. New York: Oxford University Press.

Cauvin, J. 1972; Soundage on Tell Assouad (Djezireh) Syrie. Annales Archéologiques Arabes Syriennes 22: 58-89.

— 1972a; Religions Neolithiques de Syro-Palestine. Paris: Publications du Centre de Recherches d'Ecologie et de Préhistoire, Saint-André-de-Cruzières.

— 1978; Les premiers village de Syrie-Palestine du IXeme- au VIIeme millenaire avant J.C. Collection de la Maison de l'Orient Mediterranee Ancien 4, Serie Archeologique 3. Lyon: Maison de l'Orient.

— 1994; Naissance des divinités, naissance de l'agriculture. Paris: Éditions CNRS.

Cauvin, J. et al. 1997; L'Homme et son environnement au Levant nord entre 30,000 et 7500 BP. Paléorient 23: 51-69.

Cauvin, M.-C. 1991; Du Natufien au Levant Nord? Jayroud et Mureybet (Syrie). Pp. 295-314 in O. Bar-Yosef and R. R. Valla (eds.), The Natufian Culture in the Levant. International Monographs in Prehistory. Ann Arbor.

Cauvin, M.-C. and Coqueugniot, E. 1988; L'oasis d'El Kowm et le Kébarien Géométrique. Paléorient 14: 270-282.

Cauvin, M.-C. et al. 1982; Prospection préhistorique à Mallaha-Jayroud (Qalamoun, Syrie). Annales Archéologiques Arabes Syriennes 32: 273-281.

Cecchini, S. and Mazzoni, S. (eds.) 1998; Tell Afis (Siria): Scavi sull'acropoli 1988 – 1992. The 1988 – 1992 Excavations on the Acropolis. Piza: Edizioni ETS.

Chadwick, R., Daviau, M., and Steiner, M. 2000; Four Seasons of Excavations at Khirbet al-Mudayna on Wadi ath-Thamad 1996-1999. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 44: 257-271.

Chehab, M. 1965; Chronique. Bulletin du Musée de Beyrouth 18: 111-125.

Clark, D. R. 2001; Laboring to Build a House: The Human Investment in the Iron Age Construction in the Madaba Plains. Pp. 285 – 294 in K. Amr (ed.), Studies in the History and Archaeolog of Jordan 7. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

—— 2007; Cultural Interaction Through the Windows of the Four-Room House at Tall al-'Umayri. Pp. 103 -113 in F. al-Khraysheh (ed.), Studies in the History and Archaeology of Jordan IX: Cultural Interaction Through the Ages. Amman: Department of Antiquities of Jordan.

Clark, G. A. and Coinman, N. R. 2003; The Palaeolithic in Syria-Palestine. Pp. 233-243 in Richard, S. (ed.), Near Eastern Archaeology: A Reader. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

Clark, G. et al. 1987; Palaeolithic Archaeology in the Southern Levant: A Preliminary Report of Excavations at Middle, Upper and Epipalaeolithic Sites in Wadi el-Hasa, West-Central Jordan. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 31: 19-78.

Coinman, N. 1998; The Upper Palaeolithic of Jordan. Pp. 39-63 in D. O. Henry (ed.), The Prehistoric Archaeology of Jordan. BAR International Series. Oxford: Archaeopress.

—— 2000; WHS 618 – Ain al-Buhira: An Upper Palaeolithic Site in the Wadi Hasa, West- Central Jordan. Pp. 161-182 in N. R. Coinman (ed.), The Archaeology of the Wadi Al-Hasa, West-Central Jordan, Vol. 2: Excavations at Middle, Upper and Epipalaeolithic Sites. Arizona State University Anthropological Papers No. 52. Arizona: Arizona State University.

Cole, D. P. 1984; Schechem I. The Middle Bronze Age IIB Pottery. Winnona Lake, IN.

Contenau, G. 1920; Mission archéologique à Sidon 1914. Syria I: 1-147.

—— 1923; Deuxième Mission archéologique à Sidon 1920. Syria IV: 261-281.

—— 1924a; Deuxième Mission archéologique à Sidon 1920, deusième article. Syria V: 9-23.

—— 1924b; Deuxième Mission archéologique à Sidon 1920, troisième article. Syria V: 123 - 134.

de Contenson, H. 1992; Préhistoire de Ras Shamra. Paris: Édition Recherche sur les Civilizations.

—— 1995; Aswad et Ghoraifé: sites néolithiques en Damascène (Syrie) au IXème et VIIIème millénnaire avant l'ère chrétienne. Beirut: Institut Français d'Archéologie du Proche-Orient.

—— 2000; Ramad: site néolithique en Damascène (Syrie) aux VIIIe et VIIe millénnaires avant l'ère chrétienne. Beirut: Institut Français d'Archéologie du Proche-Orient.

Cooper, E. 1998; The EB – MB Transitional Period at Tell Kabir, Syria. Pp. 271 – 280 in M. Fortin and O. Aurenche (eds.), Espace naturel, espace habité en Syrie du Nord (10é - 2é av. J. C.). Lyons: Maison de l'Orient.

Copeland, L. 1969; Neolithic Village Sites in the South Beqaa, Lebanon. Mélanges de l'Université Saint-Joseph 45: 85-114.

—— 1991; Natufian Sites in Lebanon. Pp. 27-42 in O. Bar-Yosef and R. R. Valla (eds.), The Natufian Culture in the Levant. International Monographs in Prehistory. Ann Arbor.

Copeland, L. and Hours, F. 1981; La fin de l'Acheuleen et l'Avenment du Paleolithic Moyen en Syrie. Pp. 225-238 in Colloque Préhistoire du Levant. Paris: CNRS.

Coqueugniot, E. 1998; Dja'de el Mughara (Moyen-Euphrate), un village néolithique dan son environnement naturel de la domestication. Pp. 109-114 in M. Fortin and O. Aurenche (eds.), Espace naturel, espace habité in Syrie du Nord (10e-2e millénnaires av. J.-C.). Bulletin of the Canadian Society for Mesopotamian Studies 33. Lyons: Maison de l'Orient.

—— 1999; Tell Dja'de el-Mughara. Pp. 41-55 in G. del Olmo Lete and J.-L. Montero Fenollós (eds.), Archaeology of the Upper Syrian Euphrates: The Tishrin Dam Area. Barcelona: Editorial AUSA.

Cross, F. M. 1969; Epigraphic Notes on the Amman Citadel Inscription. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 193: 13-19.

Crowfoot, J. W. 1938; Early Ivories from Samaria. London.

Curvas, H. H. and Staurt, B. 1998-1999; The BCD Archaeological Project 1996-1999. BAAL 3: 13-31.

Dalley, S. 1995; The Cuneiform Tablet. Pp. 67-68 in C.-M. Bennett and P. Bienkowski (eds.), Excavations at Tawilan in Southern Jordan. Oxford: Oxford University Press.

Dalley, S. and Goguel, A. 1997; The Sela' Sculpture: A Neo-Babylonian Rock Relief in Southern Jordan. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 41: 169-176.

Daviau, M. 1993; Houses and their Furnishings in Bronze Age Palestine. JSOT/ASOR Monograph Series 8. Sheffield: Sheffield Academic Press.

—— 1996a; The Fifth Season of Excavations at Tall Jawa (1994): A Preliminary Report. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 40: 83-100.

—— 1996b; Wadi eth-Themed. American Center of Oriental Research Newsletter 8.1: 5-6.

—— 1997; Moab's Northern Border: Khirbat al-Mudayna on the Wadi ath-Thamad. Biblical Archaeologist 60: 222-228.

—— 1999; Domestic Architecture in Iron Age I Ammon: Buildings Materials, Construction Techniques, and Four Room Arrangement. Pp. 113-137 in B.

MacDonald and R. W. Younker (eds.), Ancient Ammon. Studies in the History and Culture of the Ancient Near East, Vol. XVII. Leiden: Brill.

Dearman, J. A. (ed.) 1989; Studies in the Mesha Inscription and Moab. Atlanta: American Schools of Oriental Research.

Desse, J. 1988; Une Economie de Production, Le Pastoralisme. La determination de l'âge et dusexe des animaux. Pp. 27-28 in G. Dollfus and Z. Kafafi (eds.), Abu Hamid Village du 4e Millennaire de la Vallee du Jourdain. Amman: Economic Press Com.

Dever, W. G. 1974; The MBIIC Stratification in the Northwest Gate Area at Schechem. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 216: 31-52.

—— 1980; New Vistas on the EBIV (MBI) Horizon in Syria-Palestine. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 237: 35-64.

—— 1995; Social Structure in the Early Bronze Age IV Period in Palestine. Pp. 282-296 in T. E. Levy (ed.), The Archaeology of Society in the Holy Land. New York: Facts on the File.

—— 1997; Levant. Pp. 350-351 in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 3. New York: Oxford University Press.

Dietrich, M. and Loretz, O. 1981; Die Inschrift der Statue des Königs Idrimi von Alalakh. Ugarit-Forschung 13: 201-268.

Dollfus, G. and Kafafi, Z. 2001; Jordan in the Fourth Millennium. Pp. 163-173 in Studies in the History and Archaeology of Jordan VII. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

Dollfus, G. et al. 1988; Abu Hamid, an Early Fourth Millennium Site in the Jordan Valley. Pp. 567- 601 in A. Garrard and H.-G. Gebel (eds.), The Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986. British Archaeological Reports 396 (ii). Oxford.

Donner, H. and Röllig, W. 1962-1964; Kanaanäische und aramäische Inschriften. 3 Volumes. Wiesbaden: Otto Harrassowitz.

—— 1976; Kanaanäische und aramäische Inschriften, I-III. 3rd Edition. Wiesbaden.

Dornemann, R. H. 1986; A Neolithic Village at Tell el Kowm in the Syrian Desert. SAOC 43. Chicago: Oriental Institute of the University of Chicago.

Dothan, T. and Dothan, M. 1992; People of the Sea. The Search for the Philistine. New York: Macmillan Publishing Company.

Douglas, K. 1999; Die Befestigungsanlage der Frühbronzezeit in Palästina. Unpublished Ph. D. Thesis Submitted to Eberhard-Karls-Universität Tübingen, Germany.

—— 2007; Die Befestigung der Unterstadt von Hirbet ez-Zeraqōn im Rahmen der frühbronzezeitlichen Fortifikationen in Palästina. Abhandlungen des Deutschen Palästina-Vereins. Wiesbaden: Harrassowitz Verlag.

Douglas, K. and Nigro, L. 2008; Area D: The Early Bronze III Fortification Structures and the Early Bronze IV Occupation at the South-Western Corner of the Site. Pp. 241 – 244 in Nigro, L. (ed.), Khirbat Al-Batrawy II, The EBII City-gate, the EBII – III Fortifications, the EB II-III Temple. Preliminary Report of the Second (2006) and Third (2007) Seasons of Excavations. Rome Studies on Archaeology of Palestine and Transjordan 06. Rome: Universita di Roma La Sapienza.

Doumet-Serhal, C. 1998 – 1999; First Season of Excavation at Sidon. BAAL 3: 181-224.

—— 2000; Second Season of Excavation at Sidon. Preliminary Report. BAAL 4: 75-123.

—— 2001; Third Season of Excavation at Season. Preliminary Report. BAAL 5: 153-173.

—— 2002; Fourth season of Excavation at Season. Preliminary Report. BAAL 6: 179-211.

—— 2003; Fifth Season of Excavation at Sidon. Preliminary Report. BAAL 7: 175-207.

—— 2004; Sixth and Seventh Seasons of Excavation of Sidon. Preliminary Report. BAAL 8: 47-82.

—— 2006; Eighth and Ninth Seasons of Excavation (2006 – 2007) at Sidon, Preliminary Report. BAAL 10: 131-165.

—— 2010; Sidon during the Bronze Age: Burials, Rituals and Feasting Grounds at the "College Site". Near Eastern Archaeology 73: 114-129.

Driel, G. 1982; Zikir Šumim. Assyriological Studies Presented to Fritz R. Kraus. Leiden: Brill.

Dunand, M. 1965; Nouvelles inscriptions phéniciennes du temple d'Echmoun à Bostan ech-Cheikh, près Sidon. Bulletin du Musée Beyrouth 18: 23-36.

—— 1968; Byblos: Its History, Ruins and Legends. 2nd edition. Beirut.

Edelmann, D. V. 1995; You Shall Not Abhor an Edomite for He is Your Brother. Edom and Seir in History and Tradition. Archaeology and Biblical Studies 3. Atlanta: Scholars Press.

Edwards, P. et al. 1988; Late Pleistocene Prehistory in the Wadi al-Hammeh, Jordan Valley. Pp. 525-565 in A. N. Garrard and H. G. Gebel (eds.), Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986. British Archaeological Reports- International Series 396. Oxford.

Edzard, D. O. 1970; Kamid el-Loz – Kumidi. Pp. 55-62 in D. O. Edzard, R. Hachmann, P. Maibberger and G. Mansfeld (eds.), Saarrbrüker Beiträge zur Altertumskunde 7. Bonn.

Einwag, B. 1998; Die Keramik aus dem Bereich des Palastes A in Tall Bi'a/Tuttul und das Problem der frühen Mittleren Bronzzeit. München: Profil.

Elliot, C. 1991; The Ground Stone Industry. Pp. 9-100 in M. Yon (ed.), Arts et industries de la pierre. Paris: ERC.

Emberling, G. et al. 1999; Excavations at Tell Brak 1998, Preliminary Report. Iraq 61: 1-41.

Epestein, C. 1985; Laden Animal Figurines from the Chalcolithic Period in Palestine. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 258: 53-63.

—— 1998; The Chalcolithic Culture of the Golan. Jerusalem: Israel Antiquities Authority.

Eph'al, I. 1988; Syria-Palestine under Achaemenid Rule. The Cambridge Ancient History IV, 139-164. 2nd Edition. Cambridge: Cambridge University Press.

Falconer, S. and Magness-Gardiner, B. 1984; Preliminary Report of the First Season of the Tell el-Hayyat Project. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 255: 49-74.

—— 1997; Hayyat, Tell. El-. Pp. 487-488 in Meyers, E. M. (ed.) The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East. New York: Oxford University Press.

—— 1999; Tell el-Hayyat. Vie quotidienne et vie religieuse dans une village du IIe millenaire dans la vallee du Jordain. Dossiers d´Archeologie 244: 26-31.

Finkelstein, I. 1988; The Archaeology of the Israelite Settlement. Jerusalem: Israel Exploration Society.

Finlayson, B. and Mithen, S. (eds.) 2007; The Early Prehistory of Wadi Faynan, Southern Jordan. Archaeological Survey of Wadis Faynan, Ghuwayr and al-Bustan and Evolution of the Pre-Pottery Neolithic A Site of WF16. Wadi Faynan Series Volume I. Levant Supplement Series Volume 4. Oxford: Oxbow Books.

Flanagan, J. W.; McCreery, D. W. and Yassine, K. N. 1992; Preliminary Report of the 1990 Excavation at Tell Nimrin. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 36: 89-111.

—— 1994; Tell Nimrin: Preliminary Report on the 1993 Season. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 36: 205-244.

Fortin, M. 1997; Urbanisation et redistribution de surplus agricoles en Mésopotamie septenrionale (3000-2500 av. J. C.). Pp. 50-81 in W. Aufrecht et al. (eds.), Aspects of Urbanism in Antiquity. Sheffield: Sheffield Academic Press.

Franken, H. J. 1975; Tell Deir 'Alla. Pp. 321-324 in M. Avi Yonah (ed.) Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land. Jerusalem: The Israel Exploration Society and Massada Press.

—— 1992; Excavations at Tell Deir 'Alla. The Late Bronze Age Sanctuary. Louvain: Peeters Press.

Franken, H. J. and Ibrahim, M. M. 1989; Deir 'Alla (Tell). Pp.201-205 in D. Homès-Fredericq and J. B. Hennessy (eds.), Archaeology of Jordan II.1. Field Reports: Surveys and Sites A-K. Akkadica Supplement 7. Leuven: Peeters.

Franken, H. J. and Kalsbeek, J. 1969; Excavations at Tell Deir 'Alla, I. Leiden: Brill.

Fugmann, E. 1958; Hama. Fouilles et recherches 1931-1938. II. L'Architecture des périodes Préhellénistique. Kopenhagen: Nationalmuseet.

Fugimoto, T. 1979; The Epipalaeolithic Assemblages of Douara Cave. Pp. 47-75 in K. Hanihara and Y. Sakaguchi (eds.), Palaeolithic Site of Douara Cave and Palaeography of Palmyra Basin in Syria. Tokyo: University of Tokyo Press.

Gardiner, A. 1966; Egypt of the Pharaohs. New York: Oxford University Press.

—— 1974; Egypt of the Pharaohs, an Introduction. Reprint. London: Oxford University Press.

Garfinkel, Y. 1993; The Yarmoukian Culture in Israel. Paléorient 19/1: 115-135.

—— 1994; Ritual Burial of Cultic Objects: The Earliest Evidence. Cambridge Archaeological Journal 4: 159-188.

—— 1999; Neolithic and Chalcolithic Pottery of the Southern Levant. Qedem 39. Monographs of the Institute of Archaeology. The Hebrew University of Jerusalem. Jerusalem.

—— 2004; The Goddess of Sha ʿar Hagolan. Jerusalem: Israel Exploration Society.

Garrard, A. and Gebel, H.-G. 1988; The Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986. British Archaeological Reports International Series 396 (i + ii). Oxford.

Garrard, A. and Yazbeck, C. 2003; Qadisha Valley Prehistory Project (North Lebanon), Summary of the First Two Seasons Investigations. BAAL 7: 7-15.

—— 2004; Qadisha Valley Prehistory Project (North Lebanon), Results of 2003 Survey Season. BAAL 8: 5-46.

Garrard, A. et al. 2003; Survey of Nachcharini Cave and Prehistoric Settlement in the Northern Anti-Lebanon Highlands. BAAL 7: 15- 48.

Garstang, J. 1935; Jericho: City and Necropolis. LAAA 22.

—— 1936; Jericho: City and Necropolis. LAAA 23.

Garrod, D. 1932; A New Mesolithic Industy. The Natufian of Palestine. Journal of the Royal Anthropological Institute 62: 257-270.

—— 1942; Excavations at the Cave of Shukbah, Palestine, 1928. Proceeding of the Prehistoric Society 8: 1-20.

Gatier, P.-L. et al. 2001; Mission de Yonah et de la haute vallée du Nahr Ibrahim. Rapport Préliminaire 1999-2001. BAAL 5: 93-152.

Gebel, H. G. K. 2002; Walls, Loci of Forces. Pp. 119-133 in H. G. K. Gebel, B. D. Hermansen and C. H. Jensen (eds.), Majic Practices and Ritual in the Near Eastern Neolithic. Studies in Early Near Eastern Production, Subsistence, and Environment 8. Berlin: ex oriente.

Gebel, H.-G. K.; Kafafi, Z. and Rollefson, G. (eds.) 1997; The Prehistory of Jordan II. Perspectives from 1997. Berlin: ex Oriente.

Gebel, H. G. K.; Nissen, H. J. and Zaid, Z. 2006; Basta II, the Architecture and Stratigraphy. Berlin: ex oriente.

Genz, H. 2000; Grain Wash Decoration in Early Bronze Age III. The Evidence from Khirbet ez-Zeraqon. Pp. 279-287 in Philip, G. and Baird, D. (eds.), Ceramic and Change in the Early Bronze Age of the Southern Levant. Levant Archaeology 2. Sheffield: Sheffield Academic Press.

Geraty, L. T. 1986; Archaeological Research in Transjordan. Pp. 3-84 in L. T. Geraty and L. G. Herr (eds.), The Archaeology of Jordan and Other Studies. Presented to Siegfried H. Horn. Berrien Springs. Michigan: Andrews University Press.

—— 2007; How Crossing Jordan Made the Difference: The Case of the Madaba Plains Project, 1967 – 2007. Pp. 107-110 in T. E. levy et al. (eds.), Crossing Jordan. North American Contributions to the Archaeology of Jordan. London: Equinox.

Geraty, L.; Herr, L.G.; LaBianca, Ø. S.; Battenfield, J.R.; Christopherson, G.L.; Clarke, D.R.; Cole, J.A.; Daviau, P.M.; Hubbard, L.E.; Lawlor, J.I.; Low, R.; and Younker, R.W. 1989; Madaba Plains Project. The 1987 Season at Tell El-ʿUmeiri and Vicinity. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 33: 145-176.

Gerstenblith, P. 1983; The Levant at the Beginning of the Middle Bronze Age. Dissertation Series 5. American Schools of Oriental Research. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

Gibson, J. C. L. 1982; Textbook of Syrian Semitic Inscriptions, I-III. Phoenician Inscriptions. Oxford.

Gilead, I. 1981; Upper Palaeolithic Tool Assemblages from the Negev. Pp. 331-342 in J. Cauvin and P. Sanlaville (eds.), Préhistoire du Levant. Paris: CNRS.

Glueck, N. 1951a; Explorations in Eastern Palestine, Vol. 4, Part I. The Annual of the American Schools of Oriental Research 25-28 (1945-1949).

—— 1951b; Explorations in Eastern Palestine, Vol. 4, Part II: Pottery Notes and Plates. The Annual of the American Schools of Oriental Research 25-28 (1945-1949).

—— 1967; Some Edomite Pottery from Tell El-Kheleifeh. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 188: 8-38.

—— 1971a; Tell el-Kheleifeh Inscriptions. Pp. 225-242 in H. Goedicke (ed.), Near Eastern Studies in Honor of W. F. Albright. Baltimore.

—— 1971b; The Other Side of Jordan. Cambridge, M.A.: The American Schools of Oriental Research.

Golden, J. 2004; Ancient Canaan and Israel: New Perspectives. California: ABC-CLIO.

Gonen, R. 1987; Megiddo in the Late Bronze Age: Another Reassesment. Levant 19: 83-100.

Gopher, A. 1994; Southern-Central Levant PPN Cultural Sequence: Time-Space Systematics Through Typological and Stylistic Approaches. (Synthesis Contribution). Pp. 387-393 in H. G. Gebel and S. K. Kozlowski (eds.), Neolithic Chipped Stone Industries of the Fertile Cresent. Studies in Early Near Eastern Productionn, Subsistence, and Environment 1. Berlin: ex oriente.

Gopher, A. and Tsuk, T. 1996; The Nahal Qana Cave, Earliest Gold in the Southern Levant. Monograph Series of the Institute of Archaeology, Tel Aviv University 12. Tel Aviv.

Goren-Inbar, N. 1992; The Acheulian Site of Gesher Benot Ya'akov: An African or Asian Entity. Pp. 67-82 in T. Akazawa, K. Aoki and T. Kimura (eds.), The Evolution and Dispersal of Modern Humans in Asia. Tokoy.

Görg, M. 1979; Thutmose III and the Ãasu –Region. Journal of Near Eastern Studies 38: 199-202.

Goring-Morris, A. N. 1980; Upper Palaeolithic Sites from Wadi Fazael, Lower Jordan Valley. Paléorient 6: 173-191.

—— 2005; Complex Hunter/Gatherers at the End of the Palaeolithic (20,000 – 10,000 BP). Pp. 141-169 in T. Levy (ed.), The Archaeology of Society in the Holy Land. London: Leicester University Press.

Gottwald, N. 1979; The Tribes of Yahweh: a Sociology of Religion of Liberated Israel 1250-1050 BCE. New York: Orbis Books.

Graf, D. F. 1990; Arabia during the Achaemenid Times. Pp. 131-148 in H. Sancisi-Weerdenburg and A. Kuhrt (eds.), Achaemenid History IV. Center and Periphery. Leiden: Nederlands Instituut voor het Nabije Oosten.

Gray, J. 1965; The Legacy of Canaan. 2nd ed.. Vetus Testementum Supplement 5. Leiden.

Greenstein, E. L. 1997; Alalakh Texts. Pp. 59-61 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 1. New York: Oxford University Press.

Guthe, H. 1882; Die Siloahinschrift. Zeitschrift der Deutschen Morgenländlische Gesellschaft 36: 725-750.

Guzzo, M. G. M. 1997; Phoenician-Punic. Pp. 317-324 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 4. New York: Oxford University Press.

Hachmann, R. 1982; der Palast eines syrischen Kleinkönigs der späten Bronzezeit in Kamid el-Loz. Pp. 21- in D. Papenfuss and V. M. Strocka (eds.), Palast und Hütte. Beiträge zum Wohnen und Bauen in altertum von archäologen, Vor-und Frühgeschichtlern. Mainz.

—— 1989; Kamid el-Loz 1963-1981. Berytus Archaeological Studies 37: 7- 187.

—— 1996; Kamid el-Loz, Band 16. "Schatzhaus"- Studien. Saarbrücker Beiträge zur Altertumskunde, Band 56. Bonn: Rudolf Habelt.

Hackett, J. A. 1997; Canaan. Pp. 408- 409 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 1. New York: Oxford University Press.

Hadidi, A. 1987; An Ammonite Tomb at Amman. Levant 19: 101-119.

Haines, R. 1971; Excavations in the Plain of Antioch, II. The Structural Remains of the Later Phases. Chicago: University of Chicago Press.

Hallo, W. W. 1964; The Road to Emmar. Journal of Cuneiform Studies 18: 57-88.

Harif, A. 1978; Middle Kingdom Architectural Elements in Middle Bronze Age Megiddo. Zeitschrift des Deutchen Palästina-Vereins 94: 24-31.

Hart, S. 1987; Five Soundings in Southern Jordan. Levant 19: 33-47.

—— 1988; Excavations at Gharareh, 1986: Preliminary Report. Levant 20: 89-99.

—— 1989; Ghrareh. Pp. 241-245 in D. Homès-Fredericq and B. Hennessy (eds.), Archaeology of Jordan II.1. Field Reports: Surveys and Sites. Akkadica Supplementum 7. Leuven: Peeters.

—— 1992; Iron Age Settlement in the Land of Edom. Pp. 93-99 in P. Bienkowski (ed.), Early Edom and Moab. The Beginning of the Iron Age in Southern Jordan. Sheffield Archaeological Monographs 7. Sheffield: J.R. Collins.

Hauptmann, A. 1986; Archaeometallurgical and Mining-Archaeological Studies in the Eastern 'Arabah, Feinan Area, 2nd Season. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 30: 415-419.

—— 1989; 'The Earliest Periods of Copper Metallurgy in Feinan, Jordan'. Pp. 119-135 in A., Hauptmann; E.; Pernicka, and G.A. Wagner (eds.), Old World Archaeometallurgy. Bochum: Selbstverlag des Deutschn Bergbau-Museums.

Hauptmann, A. and Weisgerber, G. 1987; Archaeometallurgical and Mining-Archaeological Investigations in the Area of Feinan, Wadi 'Arabah (Jordan). Annual of the Department of Antiquities of Jordan 31: 419-437.

Hauptmann, A.; Levy, T. and Weisgerber, G. 2005; Das alte Montanrevier von Feinan- Zur Geschichte einer Kupfereerzlagerstätte. Pp. 83-93 in Gesichter des Orients. 10000 Jahre Kunst und Kultur aus Jordanien. Berlin: Vorderasiatische Museum, Staatliche Museen zu Berlin.

Hauptmann, A.; Khalil, L. and Schmitt-Strekker, S. 2009; Evidence of Late Chalcolithic/Early Bronze Age I Copper Production from Timna Ores at Tall al-

Maga‡; Aqaba. Pp. 295-304 in L. Khalil and K. Schmidt (eds.), Prehistoric 'Aqaba I. Orient Archäologie, Band 23. Deutsches Archäologisches Institu, Orient Abteilung. Rahden/Westf.: Verlag Marie Leidorf GmbH.

Hawkins, J. D. 1995; The Hierolyphic Inscription of the Sacred Pool Complex at Hattusa (SÜDBURG), with an Archaeological Introduction by Peter Neve. Wiesbaden: Harrassowitz Verlag.

Heinz, M. 2002; Altsyrien und Libanon. Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft.

Heinz, M. et al. 2006; Notes on the 2005 Season at Kamid el-Loz, from the Romans to the Late Bronze Age. BAAL 10: 85-96.

Heinz, M. et al. 2004; Kamid el-Loz in the Beqa'a Plain/Lebanon. Excavations in 2001, 2002 and 2004. BAAL 8: 83-117.

Helms, S. W. 1981; Jawa: Lost City of the Black Desert. London.

—— 1989; Jawa at the Beginning of the Middle Bronze Age. Levant 21: 141-168.

Hendrix, R. E.; Drey, P. R. and Storfjell, J. B. 1997; Ancient Pottery of Transjordan. An Introduction Utilizing Published Whole Forms. Late Neolithic through Late Islamic. Berrien Springs: The Institute of Archaeology/Siegfried H. Horn Museum.

Henrickson, E. F. and Thuesen, I. 1989; Upon this Foundation. The 'Ubaid' Reconsidered. The Carsten Niebuhr Institute of Ancient Near Eastern Studies. Kopenhagen.

Hennessy, J. B.; McNicoll, A. W.; Potts, T. F. and Walmsley, A. G. 1981, Preliminary Report on a Second Season of Excavation at Pella, Jordan. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 25: 26-310.

Henry, D. O. 1986; The Prehistory and Palaeoenvironment of Jordan: An Overview. Paléorient 12/2: 5-26.

—— 1988; Summary of Prehistoric and Palaeoenvironmental Research in the Nrorthern Hisma. Pp. 7-37 in A. N. Garrard and H. G. Gebel (eds.), Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986. British Archaeological Reports- International Series 396. Oxford.

—— 1992; From Foraging to Agriculture. The Levant at the End of the Ice Age. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Hermann, S. 1964; Operationen Pharao Schoschenks I. Im östlischen Ephraim. Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins 80: 55-79.

Herr, L. G. 1995; The Late Iron II-Persian Cermic Horizon at Tall al-'Umayri. Pp. 617- 619 in A. Hadidi (ed.), Studies in the History and Archaeology of Jordan V. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

—— 1997; The Iron Age II Period: Emerging Nations. Biblical Archaeologist 60/3: 115-183.

Herr, L. G. and Clark, D. 2007; Tall al-'Umayri through the Ages. Pp. 121 – 128 in T. E. Levy et al. (eds.), Crossing Jordan. North American Contributions to the Archaeology of Jordan. London: Equinox.

Herr, L. G. and Najjar, M. 2001; The Iron Age. Pp. 323-345 in B. MacDonald; R. Adams and P. Bienkowski (eds.), The Archaeology of Jordan. Sheffield: Sheffield Academic Press.

Herr, L. et al. 1994; Madaba Plains Project: The 1992 Excavations at Tell el-'Umeiri, Tell Jalul, and Vicinity. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 38: 147-172.

Herzog, Z. 1997; Archaeology of the City. Urban Planning in Ancient Israel and its Social Implications. Monongraph Series of the Sonia and Marco Nadler Institute of Archaeology 13. Jerusalem: Emery and Claire Yass Archaeology Press.

Hess, R. S. 1988; A Preliminary List of the Published Alalakh Texts. Ugarit-Forschung 20: 69-87.

Hirsch, H. 1963; Die Inschriften der Könige von Agade. Archiv für Orientforschung 20: 21.

Hodder, I. 1991; Reading the Past: Current Approach to Interpretation in Archaeology. 2nd ed. Cambridge: Cambridge University Press.

Hoftijzer, J. and Van der Kooij, G. V. 1976; Aramaic Texts from Deir 'Alla. Leiden: Brill.

Hole, F. 1989; Patterns of Burial in the Fifth Millennium. Pp. 149-180 in E. F. Henrickson and I. Thuesen (eds.), Upon this Foundation: The 'Ubaid Reconsidered. Copenhagen: Museum Tusculanum.

Holland, T. A. 1982; Figurines and Miscellaneous Objects. Pp. 551-564 in K. Kenyon and T. A. Holland (eds.), Excavations at Jericho IV. The Pottery Type Series and Other Finds. London: British School of Archaeology in Jerusalem.

Homès-Fredericq, D. 1996; Influences Diverses en Transjordanie à l'époque archéménide. Transeuphraténe 11: 63-76.

Hübner, U. 1988; Die ersten moabitischen Ostraca. Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins 104: 68-73. Wiesbaden: Harrassowitz.

—— 1992; Die Ammoniter. Wiesbaden: Otto Harrassowitz.

Huot, J.-L. 1997; Ubaid. Pp. 251-252 in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 5. New York: Oxford University Press.

Ibrahim, M. M. 1999; les temples de Khirbet ez-Zeiraqoun. Ville du Bronze Ancien de la Jordanie septentrional. Dossiers d'Archaeologie 244: 20-25.

Ibrahim, M. and Mittmann, S. 1989; Zeiraqoun (Khirbet el-). Pp. 641-646 in D. Homès-Fredericq and J. B. Hennessy (eds.), Archaeology of Jordan 1/2. Field Reports, Sites L-Z. Akkadica Supplement VIII. Leuven: Peeters.

—— 1994; Excavations at Khirbet ez-Zeraqoun. News Letter of the Institute of Archaeology and Anthropology, Yarmouk University 16: 11-15.

Ibrahim, M. M. and Van der Kooij, G. 1997; Excavations at Tell Deir 'Alla. Seasons 1987 and 1994. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 41: 95-114.

Ilan, D. 1997; Dan. Pp. 107 - 112 in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East. Vol. 2. New York: Oxford University Press.

Ilan, O. and Amiran, R. 1997; Arad. Pp. 169-174 in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 1. New York: Oxford University Press.

Israel, F. 1997; Ammonite Inscriptions. Pp. 105-107 in E. M. Meyers (ed.) The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 1. New York-Oxford: Oxford University Press.

Isserlin, B. S. J. 2001; The Israelites. Minneapolis: Fortress Press.

Iwasaki, T. and Tsuneki, A. 1999; Archaeological Investigations of the Rouj Basin, Northwest Syria- A Preliminary Report. Annales Archéologiques Arabes Syriennes 43: 83-92.

Jidéjian, N. 1971; Sidon through the Ages. Beirut: dar al-Mashreq.

Joffe, A. H. 1993; Settlement and Society in the Early Bronze Age I and II Southern Levant, Complementary and Contradiction Complex Society. Monographs in Mediterranean Archaeology 4. Sheffield: Sheffield Academy Press.

Joukowsky, M. S. 1997; Byblos. Pp. 390-394 in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East. Vol. 1. New York: Oxford University Press.

Kafafi, Z. 1990; Early Pottery Context from 'Ain Ghazal, Jordan. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 280: 15-30.

—— 1993; The Yarmoukians in Jordan. Paléorient 19/1: 101-114.

—— 1995; Decorative Elements on the Excavated Neolithic Pottery at 'Ayn Ghazal. Pp. 545-555 in K. Amr et al. (eds.), Studies in the History and Archaeology of Jordan V. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

—— 1998; The Late Neolithic in Jordan. Pp. 127-139 in D.O. Henry (ed.), The Prehistoric Archaeology of Jordan. BAR International Series 705. Oxford: Archaeopress.

—— 2001; Jordan During the Late Seventh and Sixth Millennium BC. Mediterranean Archaeology and Archaeometry Vol. 1, No.1.: 31-42. Rhodes: University of the Aegean.

—— 2001a; Chronological Problems of the Sixth and Fifth Millennia B.C. in Jordan. Pp. 353-361 in I. Caneva, C. Lemorini, D. Zampetti and P. Piagi (eds.), Beyond Tools. Redefining the PPN Lithic Assemblages of the Levant. Proceedings of the Third Workshop on PPN Chipped Lithic Industries. Studies in Early Near Eastern Production, Subsistence, and Environment 9. Berlin: ex oriente.

—— 2002; Egyptian Governors' Residencies in Jordan and Palestine. Pp. 20 – 30 in U. Hübner and E. A. Knauf (eds.), Kein Land für sich allein. Studien zum Kulturkontakt in Kanaan, Israel/Palästina und Abirnâri für Manfred Weippert zum 65. Geburstag. Freburg: Universitätsverlag Freiburg Schweiz.

—— 2004; The 'Collapse' of the LPPNB Settlement Organization: The Case of 'Ain Ghazal. Pp. 113-119 in H.-D. Bienert; H.-G. K. Gebel and R. Neef (eds.), Central Settlements in Neolithic Jordan. Studies in Early Near Eastern Production, Subsistence, and Environment 5, 1998. Berlin: ex oriente.

—— 2005; R-H-B and Y-N-< w > - ' – M, Two Late Bronze Age Sites in North Jordan: A Study of Toponomy. Pp.53 – 68 in O. Ghul (ed.), Proceedings of Yarmouk Second Annual Colloquium on Epigraphy and Ancient Writings. Irbid: Yarmouk University.

—— 2009a; Middle and Late Bronze Age Domestic Architecture from Tall Dayr 'Alla. Pp. 585 – 595 in F. al-Khraysheh et al. (eds.), Studies in the History and Archaeology of Jordan X. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

—— 2009b; Late Bronze Age Jewelry Mould from Tell Dayr 'Alla/Jordan. in M. Molist et al. (eds.), Proceedings of the Fifth International Congress on the

Archaeology of the Ancient Near East, Madrid.

—— 2010; Archaeological Context of the Tell Dayr 'Alla Tablets. Pp. in E. Kapijan and L. Petit (eds.), A Timeless Vale, Archaeological and Related Essays on the Jordan Valley in Honour of Gerrit van der Kooij on the Occasion of his Sixty-Fifth Birthday. Archaeological Studies. Leiden University 19. Leiden: Leiden University Press.

—— Forthcoming; The Chalcolithic Period in Jordan (ca. 4500-3500 BC). In M. Steiner and A. Killerbrew (eds.), Oxford Handbook of the Archaeology of the Levant.

Kafafi, Z. and Rollefson, G. 1995; The 1994 Excavations at 'Ain Ghazal: Preliminary Report. Annual of the Department of Antiquites of Jordan 39: 13-31.

Kamlah, J. 2004; Die kanaanäische Stadtkultur – Die Mittel-und- Spätbronzezeit in Jordanien. Pp. 103 – 111 in B. Salje et al. (eds.), Gesischter des Orients 10, 000 Jahre Kunst und Kultur aus Jordanien. Eine Ausstellung der Kunst – und Ausstellunghalle der Bundesrepublik Deutschland, Bonn, in Kooperation mit dem Vorderasiatische Museum, Staatlische Museen zu Berlin- Stiftung Preussischer Kulturbesitz.

Kamlah, J. and Sader, H. 2003; The Tell el-Burak Archaeological Project. Preliminary Report on the 2002 and 2003 Seasons. BAAL 7: 145-173.

Kaplan, J. 1960; The relation of the Chalcolithic Pottery of Palestine to Halafian Ware. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 159: 32-36.

—— 1971; Mesopotanian Elements in the Middle Bronze Age II Culture of Palestine. Journal of Near Eastern Studies 30: 293 – 307.

Kaufman, D. 1987; Excavations at the Geometric Kebarian Site of Neve David, Israel. Quaertar 37/38: 189-199.

Kempinski, A. 1992; The Middle and Late Bronze Ages: Introduction. Pp. 97-99 in A. Kempinski and R. Reich (eds.), The Architecture of Ancient Israel, from the Prehistoric to the Persian Periods. Jerusalem: Israel Exploration Society.

Kennedy, D. and Bewlery, R. 2004; Ancient Jordan from the Air. London: The Council of British Research in the Levant.

Kenyon, K. 1957; Digging Up Jericho. London.

—— 1960; Excavations at Jericho, Vol. I: The Tombs Excavated in 1952-1954. London: The British School of Archaeology in Jerusalem.

—— 1963; Amorites and Canaanites. Schweich Lectures.

—— 1965; Excavations at Jericho. Vol. II, The Tombs Excavated in 1955-1958. London: The British School of Archaeology in Jerusalem.

—— 1971; Syria and Palestine c. 2160-1780 B.C.: Archaeological Evidence from Palestine. Pp. 567-594 in Early History of the Middle East. Cambridge Ancient History. 3rd rev. ed. Vol. 1/2. Cambridge: Cambridge University Press.

—— 1979; Archaeology of the Holy Land. 4th ed. London.

Kenyon, K. and Holland, T. A. 1981; Excavations at Jericho III. The Architecture and Stratigraphy of the Tell. London: The British School of Archaeology in Jerusalem.

—— 1982; Excavations at Jericho IV. The Pottery Type Series and Other Finds. London: The British School of Archaeology in Jerusalem.

—— 1983; Excavations at Jericho V. The Pottery Phases and Other Finds. London: The British School of Archaeology in Jerusalem.

Kerner, S. 2001; Das Chalkolithikum in Jordanien. Die Entwicklung handwerklicher Spezialisierung im 6. bis 4 vorchristl. Jts. in der suedlichen Levant. Rahden: Verlag Marie Leidorf GmbH.

Khalifeh, I. A. 1988; Sarepta II. The Late Bronze and Iron Age Periods of Area II, X. The University Museum of the University of Pennsylvania Excavations at Sarafand, Lebanon. Beyrouth: Départment des Publication de l'Université Libanaise.

Khalil, L. 1986; A Bronze Caryatid Censer from Amman. Levant 18: 103-110.

—— 1992; Some Technological Features from a Chalcolithic Site at Magass-Aqaba. Pp. 143-148 in M. Zaghloul et al. (eds.), Studies in the History and Archaeology of Jordan IV. Amman: Department of Antiquities of Jordan.

Khalil, L. and Eichmann, R. 1999; Archaeological Survey and Excavation at Wadi al-Yutum and Tall Al-Magass Area-'Aqaba (ASEYM): A Preliminary Report on the First Season 1998. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 43: 501-521.

Khalil, L. and Eichmann, R. 2001; Archaeological Survey and Excavation at the Wadi Al-Yutum and Magass Area- Al-'Aqaba (ASEYM): A Preliminary Report on the Second Season in 2000. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 45: 195-204.

Khalil, L. and Riederer, J. 1998; Examination of Cooper Metallurgical Remains from a Chalcolithic Site at Tall al-Magass, Jordan. Damaszenger Mitteilungen 10:1-9.

Khalil, L. and Schmidt, K. 2009; Prehistoric 'Aqaba I. Orient Archäologie, Band 23. Deutsches Archäologisches Institu, Orient Abteilung. Rahden/Westf.: Verlag Marie Leidorf GmbH.

Kienast, B. and Waetzoldt, W. 1990; Zwölf Jahre Ebla: Versuch einer Bestandsaufnahme. Pp. 31-77 in C. H. Gordon and G. A. Rendsburg (eds.), Eblaitica: Essays on the Ebla Archives and Eblaite Language 2. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

Kinzel, M. 2004; Some Notes on the Reconstruction of PPNB Architecture. Neo-Lithics 2/04. The Newsletter of Southwest Asian Neolithic Research. Berlin: ex oriente.

Kirkbride, D. 1966; Five Seasons of Excavations at the Pre-Pottery Neolithic Village of Beidha in Jordan. Palestine Exploration Quarterly 98: 8-72.

—— 1968; Beidha, Early Neolithic Village Life South of the Dead Sea. Antiquity 42: 263-274.

—— 1969; Early Byblos and the Beqa'a. Melanges de l'Universite Saint Joseph 45: 45-59.

Kitchen, K. A. 1992; The Egyptian Evidence on Ancient Jordan. Pp. 21-34 in P. Bienkowski (ed.), Early Edom and Moab: The Beginning of the Iron Age in Southern Jordan. Sheffield Archaeological Monographs 7. Sheffield: J. R. Collins.

Klengel, H. 1992; Syria. 3000- 300 BC. Berlin: Akademie.

Knauf, A. 1988; Supplementa Ismailitica 13. Edom und Arabien. Biblische Notizen 45: 62-81.

—— 1989; Nabataen Origins. Pp. 56-61 in M. Ibrahim (ed.), Arabian Studies in Honour of Mahmoud Ghul. Wiesbaden: Harrassowitz.

—— 1992; The Egyptian Evidence on Ancient Jordan. Pp. 21 – 35 in P. Bienkowski (ed.), Early Edom and Moab. The Beginning of the Iron Age in Southern Jordan. Sheffield Archaeological Monographs 7. Sheffield: J. R. Collis.

Knauf-Bellari, E. A. 1995; Edom: The Social and Economic History. Pp. 93-119 in D. V. Edelmann (ed.), You Shall Not Abhor an Edomite for He is Your Brother. Edom and Seir in History and Tradition. Archaeology and Biblical Studies 3. Atlanta: Scholars Press.

Koehl, R. B. 1985; Sarepta III. The Imported Bronze and Iron Age Wares from Area II, X. The University Museum of the University of Pennsylvania Excavations at Sarafand, Lebanon. Beyrouth: Départment des Publication de l'Université Libanaise.

Kohlmeyer, K. 1997; Habuba Kabira. Pp. 446-448 in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East. Vol. 2. New York: Oxford University Press.

—— 2000; Der Tempel des Wettergottes von Aleppo. Münster: Rhema-Verlag.

Kreppner, F. J. 2008a; The Collapse of the Assyrian Empire and the Continuity of Ceramic Culture: The Case of the Red House at Tall Sheikh Hamad. Ancient Near Eastern Studies 45: 147-165.

—— 2008b; The Continuity of Ceramic Production after the Fall of the Neo-Assyrian Empire. New Data from the Red House of Tell Sheikh Hamad. Pp. 167-178 in H. Kühne; R. M. Czichon; and F. J. Kreppner (eds.), Proceedings of the 4th International Congress of the Archaeology of the Near East, 29 March – 3 April 2004, Freie Universität Berlin, Vol. 2. Social and Cultural Transformation: The Archaeology of Transitional Periods and Dark Ages Excavations Reports. Wiesbaden: Otto Harrassowitz.

—— 2008c; Eine Aussergewönliche Brandbestattungssitte in Dûr-Katlimmu Während der Ersten Hälfte Des Ersten JT. V. Chr. Pp. 263- 276 in D. Bonatz, R. M. Czichon and F. J. Kreppner (eds.), Fundstellen: Gesammlte Schriften zur Archäologie und Geschichte Altvorderasiens ad honorem Hartmut Kühne. Wiesbaden: Harrassowitz Verlag.

Kühne, H. 1997; Sheikh Hamad/ Dur-katlimu. Pp. 137-139 in H. Weiss (ed.), Archaeology of Syria. American Journal of Archaeology 101.

—— 2008; Šai¾Hamad, Tall. Pp. 543 – 552 in M. B. Streck et al. (eds.), Reallexikon der Assyriologie und Vorderasiatischen Archäologie. Berlin: Walter der Gruvter.

Kuhrt, A. 1995; The Ancient Near East ca. 3000 – 330 BC. London: Routledge.

Kuijt, I. 2000; People and Space in Early Agricultural Villages: Exploiting Daily Lives, Community Size, and Architecture in the Late Pre-Pottery Neolithic. Journal of Anthropological Archaeology 19: 75-102.

Kulemann – Ossen, S. 2006; Notes on the Late Bronze Age Pottery from Kamid el-Loz. BAAL 10: 97 – 101.

Lapp, P. 1965; Tell el-Fûl. Biblical Archaeologist 28: 6.

Laroche, E. 1971; Talmi-Sharruma Treaty. Catalogues des texts hitittites. Paris.

Lemaire, A. 1994; Histoire et administration de la Palestine à l'époque perse. Pp. 11-53 in E.-M. Laperrousaz and A. Lemaire (eds.), La Palestine à l'époque perse. Paris: Cerf.

Lemche, N. P. 1991; The Canaanites and their Land. The Tradition of the Canaanites. Journal of the Study of the Old Testament Supplement Series 110. Sheffield: JSOT Press.

—— 1992a; Hebrew. P. 95 in D. N. Freedman (ed.), Anchor Bible Dictionary, Vol. 3. New York: Doubleday.

—— 1992b; Israel, History of. Pp. 526-545 in D. N. Freedman (ed.), Anchor Bible Dictionary, Vol. 3. New York: Doubleday.

—— 1998; The Israelites in History and Tradition. London: Westminster John Knox Press.

Levey, T. 1995 (ed.); The Archaeology of Society in the Holy Land. London: Leicestor University Press.

—— 2003; The Chalcolithic of the Southern Levant. Pp. 263-273 in Richard, S. (ed.) Near Eastern Archaeology: A Reader. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

Levy, Th. E.; Grigson, C. H. A; Goldberg, P.; Rowan, Y. and Smith, P. 1991; Subterranean Settlement and Adaptation in the Negev Desert, c. 4500-3700 BC. National Geographic Research and Exploration 7(4): 394-413.

Levy, T. et al. 2001; Early Metallurgy, Interaction and Social Change: The Jabal Hamrat Ifdan (Jordan) Research Design and 1998 Archaeological Survey: Preliminary Report. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 45: 159-188.

Lieberman, D. E. 1993; The Rise and Fall of Seasonal Mobility among Hunter-Gatherers- the Case of Southern Levant. Current Anthropology 34: 599-631.

Lipinski, E. 2000; The Aramaeans: Their Ancient History, Culture, Religion. Leuven: Peeters.

Littauer, M. A. and Crouwel, J. A. 1979; Wheeled Vehicles and Ridden Animals in the Ancient Near East. Leiden: E. J. Brill.

Liverani, M. 1988; The Growth of the Assyrian Empire in the Habur/Middle Euphrates Area: A New Pradigm. States Archives of Assyria Bulletin 2: 81-98.

Lloyed, S. and Safar, F. 1945; Tell Hassuna. Journal of Near Eastern Studies IV: 255-289.

Long, J. C. Jr. 2003; Theory in Archaeology: Cultural Change at the End of the Early Bronze Age. Pp. 308-319 in S. Richard (ed.), Near Eastern Archaeology: A Reader. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

Loretz, O. 1984; Habiru-Hebraer: Eine sozio-lingistische Studie über Herkunft des Gentiliziums 'ibrî vom Appellativum habiru. Berlin: Walter de Gruyter.

Loud G. 1939; The Megiddo Ivories. Oriental Institute Publications 52. Chicago: Chicago University Press.

—— 1948; Megiddo II: Seasons of 1935-1939. Oriental Institute Publications 62. Chicago: Chicago University Press.

Lovell, J. 2001; The Late Neolithic and Chacolithic Periods in the Southern Levant. New Data from the Site Teleilat Ghassul, Jordan. Monograph of the Sydney University Teleilat Ghassul Project 1. BAR International Series 974. Oxford.

MacDonald, B. 1996; Survey and Excavations: A Comparison of Survey and Excavation Results from Sites of the Wadi Al-Hasa and the Southern Al-Aghwar and

North-East 'Arabah Archaeological Surveys. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 40: 323-337.

—— 1992; The Southern Ghors and Northeast 'Arabah Archaeological Survey. Sheffield Archaeological Monographs 5. Sheffield: J.R. Collis Publications.

MacDonald, B.; Herr, L. G.; Neeley, M. P.; Gagos, T.; Moumani, K. and Rockman, M. 2004; The Tafila-Busayra Archaeological Survey 1999-2001, West-Central Jordan. American Schools of Oriental Research, Archaeological Reports, No. 9. Boston: American Schools of Oriental Research.

Mahasneh, H. 1997; Es-Siffya: A Pre-Pottery Neolithic B Site in the Wadi el-Mujib, Jordan. Pp. 203-214 in H. G. Gebel, Z. Kafafi and G. Rollefson (eds.), The Prehistory of Jordan II. Perspectives from 1997. Berlin: ex oriente.

Malamat, A. 1971; Syro-Palestinian Destination in a Mari Tin Inventory. Israel Exploration Journal 21: 30-38.

Mallowan, M. E. L. 1947; Excavations at Brak and Chagar Bazar. Iraq 9: 1-266.

—— 1964; Ninevite 5. Pp. 142-154 in K. Bittel (ed.), Vorderasiatische Archäologie. Berlin: Verlag Gebr, Mann.

Marchetti, N. 2000; Clay Figurines of the Middle Bronze Age from Northern Inner Syria: Chronology, Symbolic Meaning and Historical Relations. Pp. 839-858 in P. Matthiae et al. (eds.), Proceeding of the First International Congress on the Archaeology of the Ancient Near East. Rome: La Sapienza University.

Marfoe, L. 1995; Kamid el-Loz, Band 13. The Prehistoric and Early Historic Context of the Site. Saarbrücker Beiträge zur Altertumskunde, Band 41. Bonn: Habelt.

Margueron, J.-Cl. 1975; Quatre campagnes de fouilles à Emar (1972-1974): un bilan provisionre. Syria LII: 53.

—— 1997; Mari. Pp. 413-417 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 3. New York: Oxford University Press.

—— 2004; Mari Métropole de l'Euphrate au IIIe et au début du IIe millénnaire av. J. – C. Paris: Picard/ erc.

Margueron, J.-Cl. and Sigrist, M. 1997; Emar. Pp. 236-239 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 2. New York: Oxford University Press.

Markoe, G. 1997; Phoenicians. Pp. 324-331 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 4. New York: Oxford University Press.

—— 2000; Phoenicians. Peoples of the Past. London: British Museum.

Marks, A. 1981; The Upper Palaeolithic of the Negev. Pp. 343-352 in J. Cauvin and P. Sanlaville (eds.), Préhistoire du Levant. Paris: CNRS.

—— 1981a; The Upper Palaeolithic of the Negev. Pp. 369-372 in J. Cauvin and P. Sanlaville (eds.), Préhistoire du Levant. Paris: CNRS.

Massetti-Rouault, M. 2001; Cultures locales du moyen-Euphrate: modèles et événements, IIe – Ier mill. Av. J. – C. Subartu 8. Turnhout: Brepols.

Matoian, V. and Bouquillon, A. 1999; La céramique argileuse à glaçure de Ras Shamra-Ougarit. Syria 76: 57 – 82.

Matthews, R. 2000; The Early Prehistory of Mesopotamia 500,000 to 4,500 BC. Subartu V. Turnhour: Brepols Publishers.

Matthews, R. J. et al. 1994; Excavations at Tell Brak, 1994. Iraq 56: 177-194.

Matthiae, P. 1980; Ebla: An Empire Rediscovered. Translated by C. Holme. London: Hodder and Stoughton.

—— 1981; Ebla: An Empire Rediscovered. Garden City, NY: Doubleday.

Matthiae, P. 1997a; Ebla. Pp. 180 – 183 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 3. New York: Oxford University Press.

—— 1997b; Ebla and Syria in the Middle Bronze Age. Pp. 379-414 in E. Oren (ed.), The Hyksos: New Historical and Archaeological Perspectives. Philadelphia: University of Philadelphia.

Mattingly, G. L. 1996; Moabites. Pp. 317-333 in A. J. Hoerth, G. L. Mattingly and E. M. Yamauchi (eds.), Peoples of the Old Testament World. Cambridge: Lutterworth Press.

Mazar, A 1993; Beth-Shean. Pp. 214-223 in E. Stern (ed.), The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land, Vol. 1. Jerusalem.

McClellan, T. 1997; Houses and Households in North Syria during the Late Bronze Age. Pp. 29-59 in C. Castle et al. (eds.), Les Maisons dans la Syrie antique du IIIe millénnaire aux débuts de l'Islam. Beirut: IFAPO.

McGovern, P. E. et al. 1986; The Late Bronze and Iron Ages of Central Transjordan: The Beq'ah Valley Project. University Museum Monograph 65. Philadelphia: The University Museum.

Mellaart, J. 1975; The Neolithic of the Near East. London: Thames and Hudson.

Mendenhall, G. E. 1970; The Hebrew Conquest of Palestine. The Biblical Archaeologist Reader 3: 100- 120. Rep. of 1962 with Corrections. New York: Garden City.

—— 1973; The Tenth Generation, The Origins of the Biblical Tradition. Baltimore: The Johns Hopkins University Press.

—— 1983; Ancient Israel's Hyphenated History. Pp. 91 – 103 in D. N. Freedman and D. F. Graf (eds.), Palestine in Transition: The Emergence of Ancient Israel. Sheffield: Almond Press.

—— 1985; The Syllabic Inscriptions from Byblos. Beirut: Beirut American University.

Metzger, M. 1991; Kamid el-Loz, Band 7. Die Spätbronzezeitlichen Tempelanlagen. Saarbrücker Beiträge zur Altertumskunde 35. Bonn: Habelt.

Millard, A. 1992; Assyrian Involvement in Edom. Pp. 35-41 in P. Bienkowski (ed.), Early Edom and Moab. The Beginning of the Iron age in Southern Jordan. Sheffield Archaeological Monographs 7. Sheffield: J. R. Collins.

Miller, J. M. 1992a; Moab. Pp. 882-893 in D. N. Freedman et al. (eds.), The Anchor Bible Dictionary, Vol. 4, K-N. New York: Doubldaу.

—— 1992b; Early Monarchy in Moab. Pp. 77-93 in P. Bienkowski (ed.), Early Edom and Moab. The Beginning of the Iron Age in Southern Jordan. Sheffield Archaeological Monographs 7. Sheffield: J. R. Collins.

Miller, J. M. and Hayes, J. H. 1986; A History of Ancient Israel and Judah. Philadelphia: Westminster Press.

Miller, P. D. Jr. 1981; Ugarit and the History of the Religions. Journal of the Northwest Semitic Languages 9: 119-128.

De Miroschedji, P. 1999; Yarmuth: The Dawn of City-States in Southern Canaan. Near Eastern Archaeology 62: 2-21.

Misgav, A. 1990; Two Notes on the Ostraca from Horvat 'Uza. Israel Exploration Journal 40: 213-216.

Mittmann, S. 1970; Beitrag zur Siedlungen und Territorialgeschichte des Nordlischen Ostjordanlandes. DPV. Wiesbaden: Harrassowitz.

Molist, M. 1987/8; Le gisement de Umm el Tlel – 2 (El Kowm, Syrie): rapport préliminaire des travaux (1987-1989). Annales Archéologiques Arabes Syriennes 38/39: 67-77.

—— 1998a; Espace collectif et espace domestique dans le Néolithique des IXème et VIIIème millénnaire B.P. au nord de la Syrie: apports du site de Tell Halula (Vallée de l'Euphrate). Pp. 115-130 in M. Fortin and O. Aurenche (eds.), Espace naturel, espace habité en Syrie du Nord (10^{e}-2^{e} millénnaires av. J.-C.). Bulletin of the Canadian Society for Mesopotamian Studies 33. Lyons: Maison de l'Orient.

—— 1998b; Des represtations humaines peintes au IXem millénnaire BP sur le site de Tell Halula (Vallée de l'Euphrate, Syrie). Paléorient 24: 81-87.

—— 1999; Tell Halula: un village des premiers agriculture-éleveurs dans la valle de l'Euphrate. Pp. 27-40 in G. del Olmo Lete and J.-L. Montero Fenollós (eds.), Archaeology of the Upper Syrian Euphrates: The Tishrin Dam Area. Barcelona: Editorial AUSA.

Montet, P. 1928; Byblos et l'*É*gypte: Quatre campagnes de fouilles *á* Gebeil 1921-1924. Paris.

Moore, A. M. T. 1975; The Excavation of Tell Abu Hureyra in Syria: A Preliminary Report. Proceedings of the Prehistoric Society 41: 50-77.

Moore, A. M. T. and Molleson, T. I. 2000; Disposal of the Dead. Pp. 277-299 in Moore, A. M. T., Hillman, G.C., and Legge, A.J. (eds.), Village on the Euphrates: from Foraging to Farming at Abu Hureyra. Oxford: Oxford University Press.

Moore, A. M. T. and Hillman, G. C. 1992; The Pleistocene to Holocene Transition, and Human Economy in Southwest Asia: The Impact of the Younger Dryas. American Antiquity 57: 482-494.

Moore, A. M. T.; Hillman, G.C., and Legge, A.J. (eds.) 2000; Village on the Euphrates: From Foraging to Farming at Abu Hureyra. Oxford: Oxford University Press.

Moorey, P.R.S. 1994; Ancient Mesopotamian Materials and Industries: The Archaeological Evidence. Oxford: Calrendon Press.

Moortgat-Correns, U. 1972; Die Bildwerke vom Djebelet el Beda in ihrer räumlichen und zeitlichen Umwelt. Berlin.

—— 1988a; Tell Chuera in Nordost-Syrien: Verläufiger Bericht über die elfte Grabungskampagne 1985. Berlin.

—— 1988b; Tell Chuera in Nordost-Syrien: Verläufiger Bericht über die neunte und zehnte Grabungskampagne 1982 und 1983. Berlin.

Mortensen, P. 1970; A Preliminary Study of the Chipped Stone Industry from Beidha. Acta Archaeologica XLI: 1-54.

—— 1988; A Note on a Small Box with Flint Blades and Arrowheads from Beidha. Pp. 199-207 in A. Garrard and H.-G. Gebel (eds.), The Prehisory of Jordan. The State of Research in 1986. BAR International Series 396 (iii). Oxford.

Moscati, S. (ed.) 1988; The Phoenicians. Translation of the Italian Edition I Fenici. New York.

Muheisen, M. 1983; Le Préhistoire en Jordanie. Recherches sur l'Épipaléplithique. L'Exemple du Gisement de Kharaneh IV. These de Doctorate, 3éme Cycle. Bordeaux, Université de Bordeaux I.

—— 1988a; The Epipalaeolithic Phase of Kharraneh IV. Pp. 353-367 in Garrard, A. and Gebel, H.-G. (eds.), Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986. BAR International Series 396 (ii). Oxford.

—— 1988b; Survey of Prehistoric Cave Sites in Northern Jordan Valley. Pp. 503-523 in Garrard, A. and Gebel, H.-G. (eds.), The Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986. BAR International Series 396 (ii). Oxford.

—— 1988c; Le Paléolithique et l'Epipaléolithique en Jordanie. Unpublished Doctorate D'État. Bordeaux, Université de Bordeaux I, Bordeaux.

Muhesen, S.; Boeda, E. and Elcalde, G. 1996; Umm el-Tlel. Pp. 23-26 in Syrian-European Archaeology Exhibition: Working Together. Damascus: l'Institut Français d'Etudes Arabes de Damas.

Muhly, J. D. 1970; Homer and the Phoenicians. Berytus 19: 19-64.

Neuville, R. 1934; La préhistoire de Palestine. Revue Biblique 53: 237-259.

Nicolle, C. and Al-Maqdissi, M. 2006; Sharaya: un Village du Bronze Ancien IA en Syrie du Sud. Paléorient 32/1: 125-136.

Nigro, L. 1998; Ebla and the Ceramic Provinces of Norhern Syria in the Middle Bronze Ages: Relationships and Interconnections with the Pottery Horizons of Upper Mesopotamia. Pp. 271 – 304 in M. lebeau (ed.), About Subartu: Studies Devoted to Upper Mesopotamia. Turnhout: Brepols.

—— 2006a; Preliminary Report of the First Season of Excavations by the University of Rome "La Sapienza" at Khirbat al-Batrawi (Upper Wadi az-Zarqa. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 50: 229- 248.

—— 2006b (ed.); Khirbat Al-Batrawy, An Early Bronze Age Fortified Town in North-Central Jordan. Preliminary Report of the First Season of Excavations. Rome Studies on Archaeology of Palestine and Transjordan, 3. Rome: Universita di Roma "La Sapienza".

—— 2007; Preliminary Report of the Second Season of Excavations by the University of Rome "La Sapienza" at Khirbat al-Batrawi (Upper Wadi az-Zarqa. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 51: 345- 360.

—— (ed.) 2008; Khirbat Al-Batrawy II, The EBII City-Gate, the EBII-III Fortifications, the EB II-III Temple. Preliminary Report of the Second (2006) and Third (2007) Seasons of Excavations. Rome Studies on Archaeology of Palestine and Transjordan 06. Rome: Universita di Roma La Sapienza.

Nishiaki, Y. 2000; Lithic Technology of of Neolithic Syria. British Archaeological Reports- International Series 840. Oxford.

Nissen, H. J. 1999; The Early History of the Ancient Near East. Translated by: E. Lutzeier and K.J. Northcott. Chicago: Chicago University Press.

Noth, M. 1971; Aufsätze zur biblischen Landes- und Altertumskunde. I-II. Neuenkirchen.

Novak, M. and Pfälzner, P. 2002; Excavations in the Western Part of the Bronze Age Palace (Operation G). Pp. 63- 111 in Al-Maqdissi, M. et al. (eds.), Excavating Qatna, Vol. 1. Documents d'Archéologie Syrienne IV. Damascus: Direction Générale des Antiquités et des Musées de la Republique Arab Syrienne.

Oakeshott, M. F. 1983; The Edomite Pottery. Pp. 53-63 in J. F. A. Sawyer and D. J. A. Clines (eds.), Midian, Moab and Edom: The History and Archaeology of Late Bronze and Iron Age Jordan and North-West Arabia. Sheffield: JSOT.

Oates, D. 1982; Tell Brak. Pp. 62-71 in J. E. Curtis (ed.), Fifty Years in Mesopotamian Discovery. London.

Oates, J. 1982; Some Early Dynastic III Pottery from Tell Brak. Iraq 44: 205-219.

Oates, D. and Oates, J. 1994; Tell Brak: A Stratigraphic Summary, 1976-1993. Iraq 56: 167-176.

Oates, D.; Oates, J. and MacDonald, H. 1997; Excavations at Tell Brak, I. The Mitani and the old Babylonian Periods. Cambridge: McDonald Institute for Archaeological Research.

Oppenheim, L. 1955; Babylonian and Assyrian Historical Texts. Pp. 265-317 in J. B. Pritchard (ed.); Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. 2nd edition. Princeton: Princeton University Press.

Ortali-Tarazi, R. 1998-1999; Les Foulles Archéologiques du Centre-Ville de Beyrouth 1996-1999. BAAL 3: 9-13.

Orthmann, W. (ed.) 1989a; Halawa 1980-1986. Bonn: Rudolf Habelt Verlag.

—— 1989b; Tell Chuera: Ausgrabungen des Max Freiherr von Oppenheim-Stiftung in Nordost- Syrien. Damascus.

—— 1990; Tell Chuera. Amani Verlag. Damascus.

—— 1995; Ausgrabung in tell Chuera in Nordost-Syrien I. Vorbericht über die Grabungskampagnen 1986 bis 1992. Saarbrücken: Saarbrücker Druckerei und Verlag.

—— 1997; Chuera, Tell. Pp. 491-492 in E. M. Meyers (ed.); The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 1. New York: Oxford University Press.

Orthmann, W. et al. 1986; Tell Chuera in Nordost Syrien, 1982-1983. Berlin.

Palumbo, G. 2001; The Early Bronze Age IV. Pp. 233-269 in B. MacDonald, R. Adams and P. Bienkowski (eds.), The Archaeology of Jordan. Levantine Archaeology I. Sheffield: Sheffield academic Press.

Pardee, D. 1997a; Ugaritic. Pp. 262-264 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 5. New York: Oxford University Press.

—— 1997b; Ugarit Inscriptions. Pp. 264-266 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 5. New York: Oxford University Press.

Parenti, F. et. al. 1997; Early Acheulian Stone Tools and Fossil Faunas from the Dauqra Formation, Upper Zarqa Valley, Jordanian Plateau. Pp. 7-22 in H. G. K. Gebel, Z. Kafafi and G.O.Rollefson (eds.), The Prehistory of Jordan II. Perspectives from 1997. Studies in Early Near Eastern Production, Subsistence, and Environment 4. Berlin: ex oriente.

Perrot, J. 1959; Statuettes en ivoire et autres objets en ivoire et en os provenant des gisement préhistoriques de la region de Beershéba. Syria 41: 323-345.

—— 1968; La Préhistoire Palestinienne. Supplementaire dictionaire de la Bible, Vol. 8. Paris.

—— 1978; Syrien-Palästina I, von den Ursprüngen bis zur Bronzezeit. Archaeologia Mundi. München: Nagel Verlag.

—— 1995; Le premiers village. Les Dossiers d'Archeologie 203: 31-67.

Philip, G. 2001; The Early Bronze Age I-III. Pp. 163-232 in B. MacDonald, R. Adams, and P. Bienkowski (eds.), The Archaeology of Jordan. Sheffield: Sheffield Academy Press.

Potts, T.F. 1987, A Bronze Age Ivory-Decorated Box from Pella (Pahel) and its Foreign Relations. Pp. 59-71 in Hadidi, A. (ed.), Studies in the History and Archaeology of Jordan III. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

Potts, T.F.; Bourke, S.; Edwards, P, C; Richards, F. and Wightman, G. J. 1988; Preliminary Report on the Eighth and Ninth Seasons of Excavation By the University of Sydney at Pella (Tabaqat Fahl), 1986 and 1987. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 32:115-151.

Potts, T.F.; Colledge, S.M. and Edwards, P.C. 1985, Preliminary Report on a Sixth Season of Excavation by the University of Sydney at Pella in Jordan (1983/84). Annual of the Department of Antiquities of Jordan 29: 181-211.

Prag, K. 1974; The Intermediate Early Bronze-Middle Bronze Age: An Interpretation of the Evidence from Transjordan, Syria and Lebanon. Levant 6: 69-116.

—— 1985; Ancient and Modern Pastoral Migration in the Levant. Levant 17: 81-88.

Pratico, G. D. 1993; Nelson Glueck's 1938-1940 Excavations at Tell El-Kheleifeh, A Reappraisal. American Schools of Oriental Research Archaeological Reports 103. Atlanta: Scholars Press.

Pritchard, J. P. 1969; Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. 3rd Edition. Princeton: Princeton University Press.

Puech, E. 1977; Documentes epigraphiques de Buseirah. Levant 9: 11-20.

Rachet, G. and Vincent, C. 2006; La Jordanie. Paris: Éditions Place des Victoires.

Rast, W. E. 1981; Patterns of Settlement at Bab edh-Dhra'. Pp. 7-34 in Rast, W. E. and Schaub, R. T. (eds.), The Southern Dead Sea Plain Expedition: An Interim Report of the 1977 Season. Annual of the American Schools of Oriental Research 46. Cambridge M.A.: American Schools of Oriental Research.

Redford, D. B. 1982; Contact Between Egypt and Jordan During the New Kingdom: Some Comments on Sources. Pp. 115-119 in A. Hadidi (ed.), Studies in the History and Archaeology of Jordan 1. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

—— 1992; Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Reich, R. and Brandl, B. 1985; Gezer under Assyrian Rule. Palestine Exploration Quarterly 117: 41-54.

Reisner, G., Fischer, C. S. and Lyon, D. G. 1908-1910; Harvard Excavations at Samaria, Vols. 1 and 2. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Richard, S. 1980; Toward a Consensus of Opinion on the End of the Early Bronze Age in Palestine-Transjordan. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 237: 6-12.

—— (ed.) 2003a; Near Eastern Archaeology: A Reader. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

—— 2003b; The Early Bronze Age in Southern Levant. Pp. 286-302 in Richard, S. (ed.) Near Eastern Archaeology: A Reader. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

Richard, S. and Long, J. C. Jr 2007; khirbet Iskander: A City at the End of the Early Bronze Age. Pp. 269-277 in T. E. Levy, et al. (eds.), Crossing Jordan. North American Contributions to the Archaeology of Jordan. London: Equinox.

Rogerson, J. and Davies, P. R. 1996; Was the Siloam Tunnel Built by Hezekiah? The Biblical Archaeologist 69: 138-149.

Röllig, W. 1983; On the Origins of the Phoenicians. Berytus 31: 79-93.

Rollefson, G. 1997; Changes in Architecture and Social Organization at 'Ain Ghazal. Pp. 287-308 in H. G. K. Gebel, Z. Kafafi, and G. Rollefson (eds.), The Prehistory of Jordan II. Perspectives from 1997. Berlin: ex oriente.

—— 2000; Ritual and Social Organization at Neolithic 'Ain Ghazal. Pp. 165-190 in I. Kuijt (ed.), Life in Neolithic Farming Villages. New York: Kluwer Academic/Plenum.

Rollefson, G. and Simmons, A. 1986; The Early Neolithic Village of 'Ain Ghazal, Jordan. Preliminary Report on the 1984 Season. Bulletin of the American Schools of Oriental Research – Supplement 24: 147-164.

—— 1988; The Neolithic Settlement at 'Ain Ghazal. Pp. 393-421 in A. Garrard and H. Gebel (eds.), The Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986. BAR International Series 396 (i+ii). Oxford.

Rollefson, G.; Simmons, A. and Kafafi, Z. 1992; Neolithic Cultures at 'Ain Ghazal, Jordan. Journal of Field Archaeology 19 (4): 443-470.

Rolston, S. L. 1982; Two Prehistoric Burials from Karraneh. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 26: 221-222.

Roodenberg, J.J. 1979; An Epipalaeolithic Industry on the Nahr el-Homr. Pp. 9-17 in D. N. Freedman (ed.), Archaeological Reports from the Tabaqa Dam Project: Euphrates Valley, Syria. Annual of the American schools of Oriental Research 44. Cambridge, MA: American Schools of Oriental Research.

Rosen, B and Finkelstein, I 1992; Subsistence Patterns, Carrying Capacity and Settlement Oscillations in the Negev Highlands. Palestine Exploration Quarterly: 42-58.

Rothenberg, B. 1972; Timna: Valley of Biblical Copper Mines. London.

Rowan, Y. Forthcoming; In M. Steiner and A. Killerbrew (eds.), The Chalcolithic Period in Israel and the Palestinian Territories. Oxford Handbook of the Archaeology of the Levant.

Rowe, A. 1930; The Topography and History of Beth-Shan. Beth-Shan I. Philadelphia.

—— 1940; The Four Canaanite Temples of Beth-Shan II.1. Philadelphia.

Rust, A. 1950; Die Höhlenfunde von Jabrud (Syrien). Neumünster: Karl Wacholtz Verlag.

Sader, H. 1992; Phoenician Stelae from Tyre (continued). Studi Epigraphici e Linguistici sul Vicino Oriente Antico 9: 53-79.

—— 1993; Phonecian Stelae from Tyre. Berytus Archaeological Studies (for 1991) 39: 101-124.

Saghieh, M. 1983; Byblos in the Third Millennium B. C. Warminster: Aris und Philips LTD.

Saidah, R. 1970; The Prehistory of Beirut. Pp. 1-13 in N. Akrawi (ed.), Beirut-Crossroads of Cultures. Beirut: Beirut College for Women.

Salje, B. 1990; Der "Common Style" der Mittani – Glyptik und die Glyptik der Levants und Zyperns in der späten Bronzzeit. Mainz: Philipp von Zabern.

Sanlaville, P. 1996; Changement climatiques dans la region Levantine à la fin du Pleistocène supérieur et au début de l'Holocène. Leurs relations avec l'évolution des sociétés humaines. Paléorient 22: 7-30.

—— 2000; Le Moyen Orient arabe, Le milieu et l'homme. Paris: Armand Colinllter.

Sasson, J. M. 1985; Letters at Mari. Pp. 198- 203 H. Weiss (ed.), Ebla to Damascus. Art and Archaeology of Ancient Syria. An Exhibition from the Directorate-General of Antiquities and Museums, Syrian Arab Republic. Washington D.C.: Smithsonian Institution Traveling Exhibition Service.

Sasson, V. 1982; The Siloam Tunnel Inscription. Palestine Exploration Quarterly 114: 111-117.

Sauer, J. A. 1994; The Pottery at Hesban and its Relationships to the History of Jordan: An Interim Hesban Pottery Report, 193. Pp. 225-282 in D. Merling and L. Geraty (eds.), Hesban After 25 Years. Berrien Springs, MI: Andrews University/Institute of Archaeology.

Schick, T. and Stekelis, M. 1977; Mousterian Assemblages in Kebara Cave, Mount Carmel. Eretz-Israel 13: 97-150.

Schmandt-Besserat, D. 1996; Animal Symbols at 'Ain Ghazal. Expedition 39: 46-58.

—— 1998; 'Ain Ghazal Monumental Figures. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 310: 1-17.

Schroeder, B. 1991; Natufian in the Central Beqaa Valley, Lebanon. Pp. 43-80 in O. Bar-Yosef and R. R. Valla (eds.), The Natufian Culture in the Levant. Ann Arbor: International Monographs in Prehistory.

Schumacher, G. 1908; Tell el-Mutesellim I. Leipzig.

—— 1994a; Before Ebla: Models of Pre-State Political Organization in Syria and Northern Mesopotamia. Pp. 153-175 in G. Stein and M. S. Rothman (eds.), Chiefdoms and Early States in the Near East. The Organizational Dynamics of Complexity. Monographs in World Archaeology No. 18. Madison: Prehistory Press.

—— 1994b; Rural Economic Specialization and Early Urbanization in the Khabur Valley, Syria. Pp. 19-36 in G. Schwartz and S. Falconer (eds.); Archaeological Views from the Countryside: Village Communities in Early Complex Societies. Washington D.C.: Smithsonian Institution Press.

—— 1997; Brak, Tell. Pp. 355-356 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 1. New York: Oxford University Press.

Schwartz, G. et al. 2000; Excavation and Survey in the Jabbul Plain, Western Syria: The Umm el-Marra Project, Syria. American Journal of Archaeology 104: 419-462.

Schwartz, J. 1990; Once More on the 'Boundary of Gezer' Inscriptions and the History of Gezer and Lydda at the End of the Second Temple Period. Israel Exploration Journal 40.1: 47-57.

Seeden, H. 1993; A Tophet in Tyre? Berytus Archaeological Studies (for 1991) 39: 39-82.

Shalev, S.; Goren, Y.; Levy, Th. E. and Northover, J. P. 1992; A Chalcolithic Mace Head from the Negev, Israel: Technological Aspects and Cultural Implications. Archaeometry 34: 63-71.

Shipton, G. M. 1939; Notes on the Megiddo Pottery of Strata VI – XX. Chicago: University of Chicago, Oriental Institute.

Simons, J. 1937; Handbook for the Study of the Egyptian Topographical Lists Relating to Western Asia. Leiden: E. J. Brill.

Simmons, A. and Kafafi, Z. 1988; Preliminary Report on the 'Ain Ghazal Archaeological Survey, 1987. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 32: 27-39.

Smith, R. H. 1973; Pella of the Decapolis, Vol. I. Wooster, OH.: Wooster College.

Smith, R. H and Potts, T. 1992; The Middle and Late Bronze Ages. Pp. 35-83 in A. W. McNicoll et al. (eds.), Pella in Jordan 2. The Second Interim Report of the Joint University of Sydney and College of Wooster Excavations at Pella 1982-1985. Mediterranean Archaeology Supplement 2. Sydney: Meditarch.

Spiegelberg, W. 1896; Der Siegeshymnus des Merneptah auf der Flinders Petrie-Stele. Zeitschrift für ägptischen Sprache und Altertumskunde 34: 1-25.

Starcky, J. 1982; La flèche de Zakarba'al roi d'Amurru. Pp. 179-186 in Recueil R. Saidah (ed.), Archéologie au Levant. Lyon-Parsi.

Stein, D. L. 1997; Alalakh. Pp. 55-59 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 5. New York: Oxford University Press.

Stein, G. J. 1999; Rethinking World-Systems: Diasporas, Colonies, and Interaction in Uruk Mesopotamia. Tucson: The University of Arizona Press.

Stekelis, M. 1950-51; A Neolithic Industry. The Yarmoukian of Palestine. Israel Exploration Journal 1: 27.

Stern, E. 2001; Archaeology of the Land of the Bible, Vol. II. The Assyrian, Babylonian and Persian Periods 732-332 BCE. The Anchor Bible Reference Library. New York: Doubleday.

Stordeur, D. 2000; New Discoveries in Architecture and Symbolism at Jerf el Ahmar (Syria), 1997-1999. Neo-Lithics 1/00: 1-4.

Stordeur, D. and Taha, A. 1992; Ressemblances et dissemblances entre les sites nomads et sédentaires de la steppe syriennes au VI[e] millénaire. Annales Archéologiques Arabes Syriennes 42: 85-98.

Stordeur, D. And Jamous, B. 1996; Pierre à rainure à décor animal trouvée dans l'horizon PPNA de jerf el Ahmar (Syrie). Paléorient 21.1: 129-130.

Stordeur, D. et al. 1996; Jerf el-Ahmar: A New Mureybetian Site (PPNA) on the Middle Euphrates. New-Lithics 2: 1-2.

Strommenger, E. 1980; Habuba Kabira, ein Stadt vor 5000 Jahren. Mainz: Philipp von Zabern.

Stucky, R. A. 1993; Die Skulpturen aus dem Eschmun-Heiligtum bei Sidon. Griechische, roemische, kyprische und phoenizische Statuen und Reliefs vom 6. Jahrhundert nach Chr. Antike Kunst, Beiheft 17. Basel: Vereinigung der Freunde Antiker Kunst.

—— 1998; Le sanctuire d'Echmoun à Sidon. National Museum News 7: 3-13.

Tadmor, M., D. Kedem, F. Begemann, A. Hauptmann, E. Pernicka, and S. Schmitt-Strecker 1995; The Nahal Mishmar Hoard from the Judean Desert: Technology, Composition, and Provenance. 'Atiqot 27: 95-148.

Taraqji, A. 1999; Nouvilles découvertes sur les relations avec l'Egypte à tell Sakka et à Keswé, dans la region de Damas. Bulletin de la Société française d'Egyptologie 144: 27- 43.

Tchernov, E. 1994; An Early Village from the Jordan Valley. Part II: The Fauna of Netive Hagdud. Cambridge: Peabody Museum of Archaeology and Ethnology.

Tensorer, J.-M. Le 2009; Out of Africa, On the Earliest Emmigrants and the Roots of Human Culture. Zürich: Museum of Anthropology.

Thalmann, J.-P. 1978; Tell 'Arqa (Liban Nord). Campagnes I-III (1972- 1974), Chantier I. Rapport Preliminaire. Extrait de Syria, tomb LV, 1978. Paris: Genthner, S. A.

—— 2000; Tell Arqa. BAAL 4: 5-75.

—— 2006; Tell Arqa – I. Les niveaux de l'âge du Bronze. Texte. Bibliothèque Archéologique et Historique, T. 177. Beyrouth: Institut Français du Proche-Orient.

Thompson, H. O. 1972; The 1972 Excavations at Khirbet el-Hajjar. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 17: 47-72.

—— 1977; The Ammonite Remains at Khirbet el-Hajjar. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 227: 27-34.

—— 2000; Some Towers in Jordan. Pp. 482-489 in L. E. Stager, J. A. Greene and M. D. Coogan (eds.), The Archaeology of Jordan and Beyond. Essays in Honor of James A. Sauer. Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

Thompson, H. O. and Zayadine, F. 1973; The Tell Siran Inscription. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 212: 5-12.

Thuesen, I. 2000; Ubaid Expansion in the Khabur – New Evidence from Tell Mashnaqa. Pp. 71-79 in O. Rouauult and M. Wäfler (eds.), La Djéziré et l'Euphrate syriens de la protohistoire à la fin du IIe millénaire av. J. – C.: tendencies dans l'interprétation historique des données nouvelles. Subartu 7. Turnhout: Brepols.

Timm, S. 1989; Moab Zwischen den Mächten: Studien zu historischen Denkmälern und Texten. Wiesbaden: Harrassowitz.

Tsuneki, A. and Miyake, Y. 1996; The Earliest Pottery Sequence of the Levant: New Data from Tell el-Kerkh 2, North Syria. Paléorient 22: 109-123.

Tubb, J. N. 1998; Peoples of the Past. London: The British Museum Press.

Tubb, J. N. and Dorrell, P. G. 1994; Tell es-Sa'idiyyeh 1993: Interim Report of the Seventh Season of Excavations. Palestine Exploration Quarterly 126: 52-67.

Tubb, K. and Grissom, C. 1995; 'Ayn Ghazal: A Comparative Study of the 1983 and 1985 Statuary Caches. Pp. 515-518 in K. Amr, F. Zayadine and M. Zaghloul (eds.), Studies in the History and Archaeology of Jordan V. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

Tushingham, A. D. 1972; The Excavations at Dibon in Moab, 1952-53. Annual of the American Schools of Oriental Research 40.

—— 1975; Dibon. Pp. 330-333 in M. Avi-Yonah (ed.), Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land, I. London: Oxford University Press.

Ussishkin, D. 1980; The Ghassulian Shrine at En-Gedi. Tel Aviv 7: 1-44.

—— 1997; Megiddo. Pp. 460- 469 in E. M. Meyers (ed.); The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 3. New York: Oxford University Press.

Valla, F. R. 1987; Chronologie absolue et chronologie relative dans le Natufian. Pp. 267-294 in O. Aurenche et al. (eds.), Chronologies in the Near East, Relative and Absolute Chronology, 16,000-4,000. Oxford.

Van der Kooij, G. 2006; Tell Deir 'Alla: The Middle and Late Bronze Age Chronology. Pp. 199-226 in P. Fischer (ed.), The Chronology in the Jordan Valley during the Middle and Late Bronze Ages: Pella, Tell abu al-Kharaz, and Deir 'Alla. Wien: Verlage der Östreischen Akademie der Wissenschaften.

Van der Kooij, G. and Ibrahim, M. M. 1989; Picking Up the Threads. A Continuing Review of Excavations at Deir All, Jordan. Leiden: University of Leiden.

Van der Kooij, G. and Kafafi, Z. 1998; Excavations at Tell Deir 'Alla, 1998. Newsletter of the Institute of Archaeology and Anthropology/ Yarmouk University 21: 7-13.

Van der Kooij, G. and Kafafi, Z. 2002; Excavations at Tell Deir 'Alla and Tell Hammeh 2000. Newsletter of the Institute of Archaeology and Anthropology/ Yarmouk University 24: 27- 33.

Van Driel, G. 1982; Tablets from Jebel Aruda. Pp. 12-25 in G. Van Driel et al. (eds.), Zikir Sumim. Festschrift for S. R. Kraus. Leiden.

Van Driel, G. and Van Driel-Murray, C. 1983; Jebel Aruda: The 1982 Season of Excavation, Interim Report. Akkadica 33: 1-26.

Van Loon, M. (ed.) 1988; Hammam et-Turkmann. Report on the University of Amesterdam's 1981-1984 Excavations in Syria. Istanbul/Leiden: Nederlands Historisch-Archeologisch Intitut te Istanbul.

De Vaux, R. 1962; Les fouilles de Tell el-Far'ah. Revue Biblique 69: 236-252.

—— 1970; On Right and Wrong Use of Archeology. Pp. in J. Sanders (ed.), Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century. New York.

Von der Osten, H. 1956; Svenska Syrie Expedition 1952-1953. Die Grabung von Tel Salihiyeh. Lund: CWK Gleerup.

Von Oppenheim, M. F. 1931; Der Tell Halaf: Eine neue Kulture im ältesten Mesopotamia. Leipzig.

Von Orthmann, W. 1975; Der Alte Orient, Band 14. Berlin: Propyläen Verlag.

Wada, H. 2001; The Chipped Stone Tools. Pp. 117-154 in Z. Kafafi (ed.); Jebel Abu Thawwab (Er-Rumman), Central Jordan. The Late Neolithic and Early Bronze Age I Occupations. Biblioteca neolithica Asiae meridionalis et occidentalis & Yarmouk University, Monograph of the Institute of Archaeology and Anthropology. Berlin: ex oriente.

Wahlen N. M. and Fritz, G.A. 2004; The Oldowan in Arabia. Adumatu 9: 7-19.

Walmsley, A. G.; Macumber, P. G.; Edwards, P.; Bourke, S. J. and Watson, P. With contributions by: Wright, R. V. S.; Churcher, B.; Sparks, R.; Rielly, K.; da Costa, K. and O'Hea, M. 1993; The Eleventh and Twelfth Seasons of Excavations at Pella (Tabaqat Fahl) 1989-1990. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 37: 165-240.

Ward, W. A. 1963; Egypt and the East Mediterranean from Pre-Dynastic Times to the End of the Old Kingdom. Journal of Economic and Social History of Orient 6: 1-57.

—— 1993; The Scarabs, Scarboid and Amulet-plaque from Tyrian Cinerary Urns. Berytus Archaeological Studies (for 1991) 39: 89-99.

—— 1997; Phonenicia. Pp. 313-317 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 4. New York: Oxford University Press.

Wartke, R.-B. 2005; Das babylonische Felsrelief von Sela'. Pp. 129-130 in Gesischter des Orients. 10000 Jahre Kunst und Kultur aus Jordanien. Berlin: Vorderasiatische Museum, Staatlische Museen zu Berlin-Stiftung Preußiascher Kulturbesitz.

Weidner, E. F. 1957-1958; Tiglath-Pileser I. Archiv für Orient Forschung 18: 342-360.

Wein, E. and Opificius, R. 1963; 7000 Jahre Byblos. Nürnberg: Carl Verlag.

Weippert, H. 1988; Palästina in Vorhellenistischer Zeit. München: C. H. Beck'sche Verlagsbuchhandlung.

Weiss, H. 1986; The Origins of Tell Leilan and the Conquest of Space in Third Millennium Mesopotamia. Pp. 71-108 in H. Weiss (ed.); The Origin of Cities in Dry Farming Mesopotamia and Syria in the Third Millennium B.C. Guilford: Four Quarters.

—— 1997; Leilan, Tell. Pp. 341- 347 in E. M. Meyers (ed.), The Encyclopedia of archaeology in the Near East. New York: Oxford University Press.

Weiss, H. et al. 1990; 1985 Excavations at Tell Leilan, Syria. American Journal of Archaeology 94: 529-581.

Weiss, H. et al. 1993; The Genesis and Collapse of Third Millennium North Mesopotamian Civilization. Science 261: 995-1004.

Wilhelm, G. 1989; The Hurriens. Warmister: Aris and Philips.

Wilkinson, T. J. 1999; Holocene Valley Fills of Southern Turkey and Northwestern Syria: Recent Geoarchaeological Contributions. Quaternary Science Reviews 18: 555-571.

Wilson, J. A. 1955; Egyptian Myths, Tales and Mortuary Texts. Pp. 3-37 in J. Pritchard (ed.), Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. Princeton: Princeton University Press.

—— 1969; Ancient Near Eastern Texts Related to the Old Testament. Princeton: Princeton University Press.

Winnett, F. V. and Reed, W. C. 1964; The Excavations at Dibon in Moab. Annual of the American Schools of Oriental Research 36-37.

Wirth, E. 1971; Syrien. Eine Geographische Landeskunde. Wissenschaftlische Länderkunden, Band 4/5. Darmstadt: Wissenschaftlische Buchgesellschaft.

Wiseman, D. J. and Hess, R.S. 1994; Alalakh Text 457. Ugarit-Forschung 26: 501-508.

Woolley, C. L. 1955; Alalakh: An Account of the Excavations at Tell Atchana in the Hatay, 1937 – 1949. Oxford.

Worschech, U. 1990; Die Beziehungen Moabs zu Israel und Ägpten in der Eisenzeit: Siedlungsarchäologische und siedlungshistorischer Untersuchungen in Kernland Moabs (Ard el-Kerak). Wiesbaden: Harrasswitz.

—— 1993; City Planning and Architecture at the Iron Age City of Balu' in Central Jordan. Pp. 145-149 in S. Tell (ed.), Studies in the History and Archaeology of Jordan V. Amman: Department of Antiquities of Jordan.

Yadin, Y. 1971; Megiddo. Biblical Archaeologist 33: 66-69.

—— 1972; Hazor: The Schweich Lectures of the British Academy 1970. London: Oxford University Press.

—— 1978; The Nature of Settlement in the Middle Bronze Age IIA and the Problem of the Aphek Fortifications. Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins 94: 1-23.

Yassine, K. 1988; Archaeology of Jordan: Essays and Reports. Amman: University of Jordan.

Yeivin, S. 1969; An Ostracon from Tel Arad Exhibiting a Combination of Two Scripts. Journal of Egyptian Archaeology 55: 98-102.

Yon, M. 1992; The End of the Kingdom of Ugarit. Pp. 111 – 122 in W. Ward, M. Joukowski (eds.), The Crises Years: The Twelfth Century BC. Dubuque: Kendall/Hunt.

—— 1995; Les activities 1978 – 1993 de la mission archéologique française. Pp. 15 - 26 in M. Yon et al. (eds.), Les Pays d'Ougarit autour de 1200 av. J. – C., histoire et archéologie. Paris: Éditions Recherche sur les Civilisations.

—— 1997a; La cite d'Ougarit sur le tell de Ras Shamra. Paris: Éditions Recherche sur les civilizations.

—— 1997b; Ugarite. Pp. 255-262 in E. M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 5. New York: Oxford University Press.

Younker, R. W. et al. 1990; The Joint Madaba Plains Project: A Preliminary Report of the 1989 Season, Including the Regional Survey and Excavations at El-Dreijat, Tell Jawa, and Tell el-'Umeiri (June 19 to August 8, 1989). Andrews University Seminary Studies 28/1: 5-52.

Younker, R. W.; Geraty, I. T.; Herr, L. G.; and LaBianca, Ø. S. 1993; The Joint Madaba Plains Project: A Preliminary Report of the 1992 Seasons, Including the Regional Survey and Excavations at Tell Jalul and Tell el-'Umeiri. Andrews University Seminary Studies 31: 205-238.

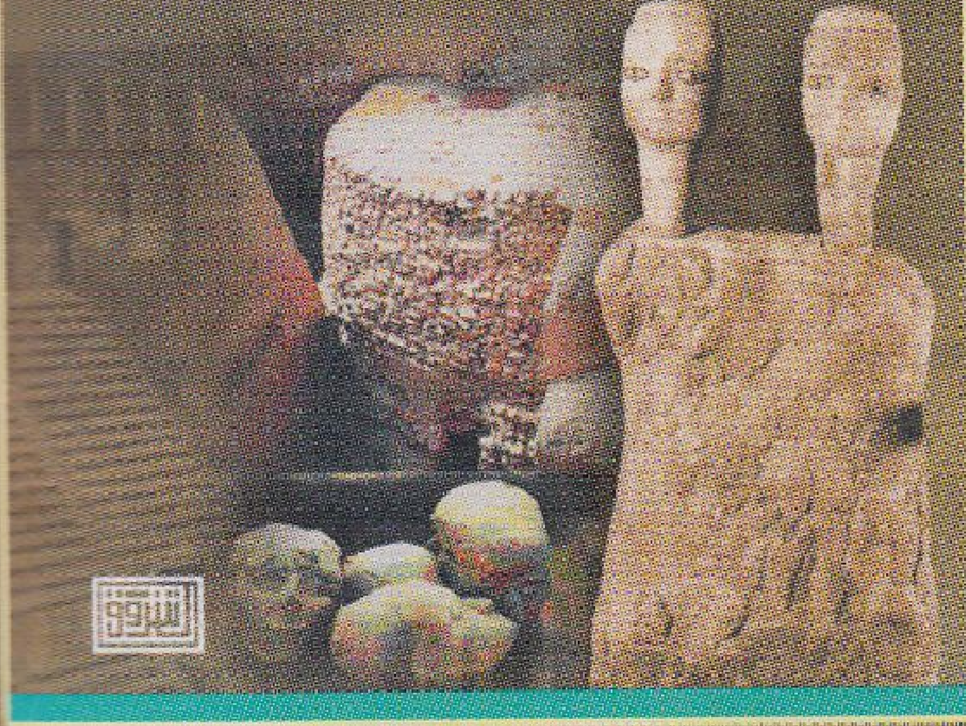
Zayadine, F. 1974; Note sur l'Inscription de la Statue d'Amman, J. 1656. Syria LI: 129-136.

—— 1987; Die Zeit der Königreiche Edom, Moab und Ammon 12.-6. Jahrhundert v. Chr. Pp. 117-155 in Der Königs Weg. 9000 Jahre Kunst in Jordanien und Palästina. Köln: Rautenstrauch-Joest-Museum.

—— 1999; Le Relief Néo-Babylonien à Sela' près de Tafileh. Interprétation Historique. Syria 76: 83-90.

Zeitler, J. P. 1992; "Edomite" Pottery from the Petra Region. Pp. 167-176 in P. Bienkowski (ed.), Early Edom and Moab: The Beginning of the Iron Age in Southern Jordan. Sheffield Archaeological Monographs 7. Sheffield: J. R. Collins.

Zohary, D. and Spiegel-Roy, P. 1975; Beginnings of Fruit Growing in the Old World. Science 187: 319-327.



بلاد الشام

في العصور القديمة

من عصور ما قبل التاريخ حتى الاسكندر المقدوني

يخاطب الكتاب الذي بين أيدينا المتخصصين، والباحثين، والمهتمين من الناس، والطلبة، في دراسة تاريخ وآثار بلاد الشام في العصور القديمة، السابقة للفترة اليونانية. وتكوّن بلاد الشام أقطار سوريا، ولبنان والأردن وفلسطين، حاليا. ولا ننسى أن أرض بلاد الشام كانت، ولا تزال، ملتقى الحضارات، وعليها سار الأنبياء والرسل. فأرضها خاصة فلسطين والأردن مقدسة لدى أبناء الديانات السماوية.

لقد أثرت بلاد الشام وتأثرت بالحضارات القريبة والبعيدة، وسلك أهلها دروبا عسكرية، وطرقاً تجارية ربطتها مع بلدان قريبة، وبعيدة. واذا كانت هذه البلاد، لم تشهد وحدة سياسية، ولم تمثلها عاصمة مركزية، الاّ أن البقايا الأثرية المكتشفة، والكتابات والنقوش والنصوص التاريخية المكتشفة تشير وبكل وضوح إلى وحدة حضارية، بدأت منذ أقدم العصور وحتى الوقت الحالي.

إن موقع بلاد الشام الجغرافي والذي يتوسط حضارات وادي النيل، والرافدين، والأناضول، وغناها بالثروات الطبيعية، جعلها هدفاً للاحتلال من قبل هذه الدول، ممراً للحملات العسكرية التي شنوها ضد بعضهم بعضا، وممرا للقوافل التجارية، ومقصداً للهجرة إليها. إن بلاد الشام هي الأرض التي شهدت بواكير الاستقرار، والزراعة، وتأسيس المدن، والدول، لكنها لم تكن في يوم من الأيام منفصلة عن الحضارات المجاورة لها، بل هي على الدوام متصلة بها، وتشكل جزءاً منها ، ومعها.



ISBN 9957-00-484-0



دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان-الأردن / رام الله - فلسطين